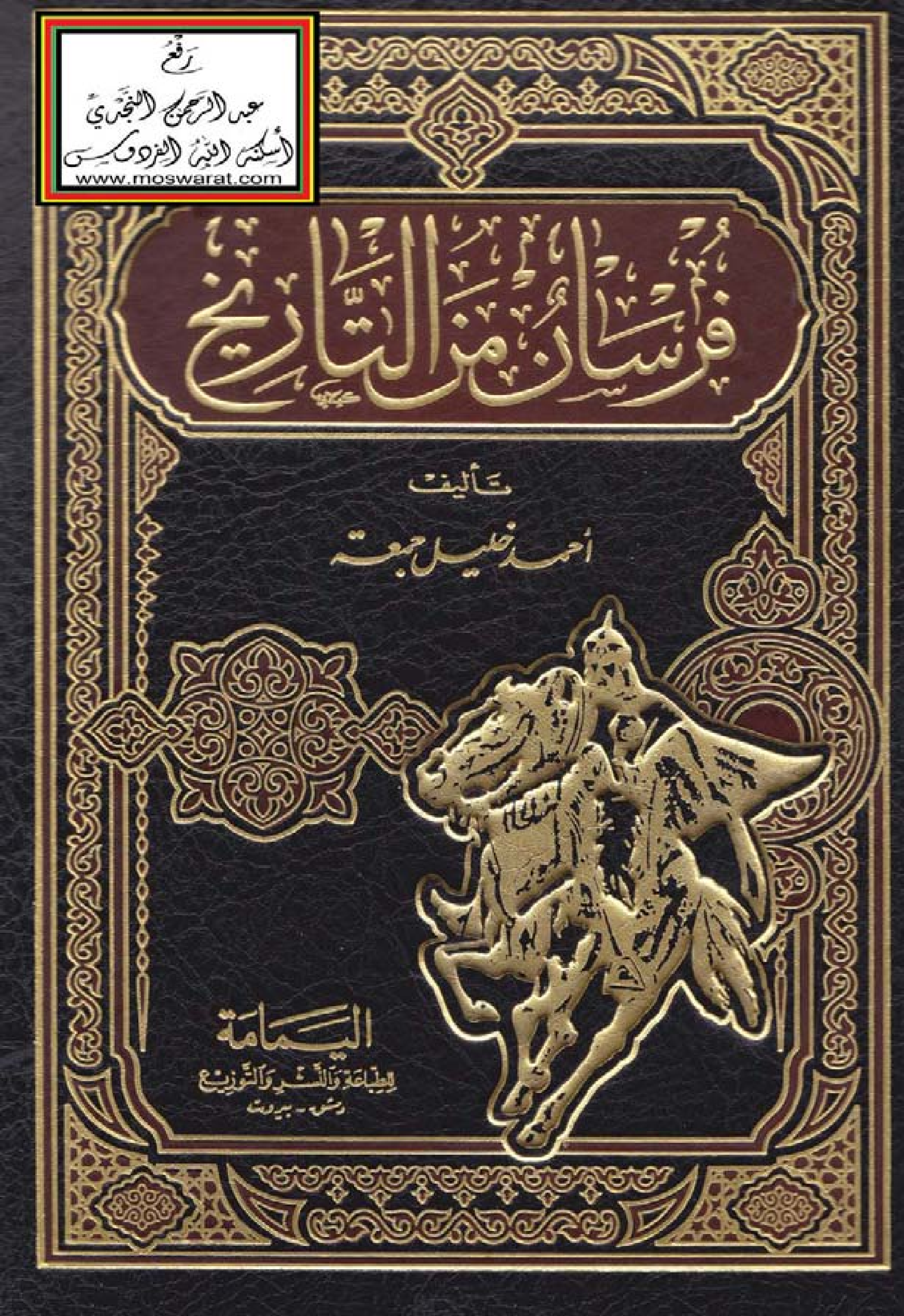
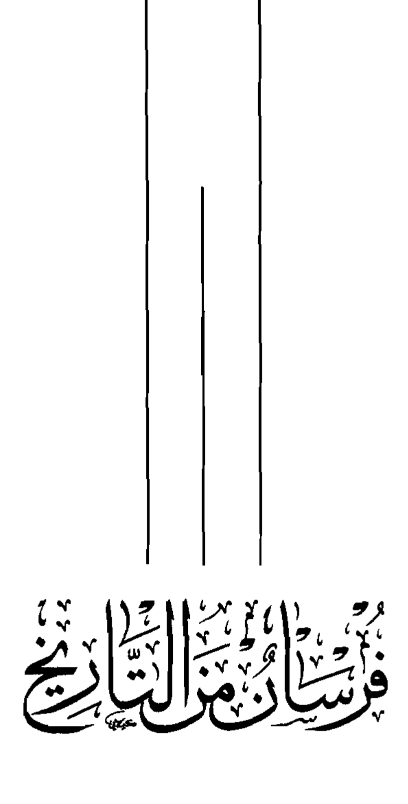


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
فرسان من التاريخ
تأليف
أحمد خليل جمعة
اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



فرسان من التاريخ

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



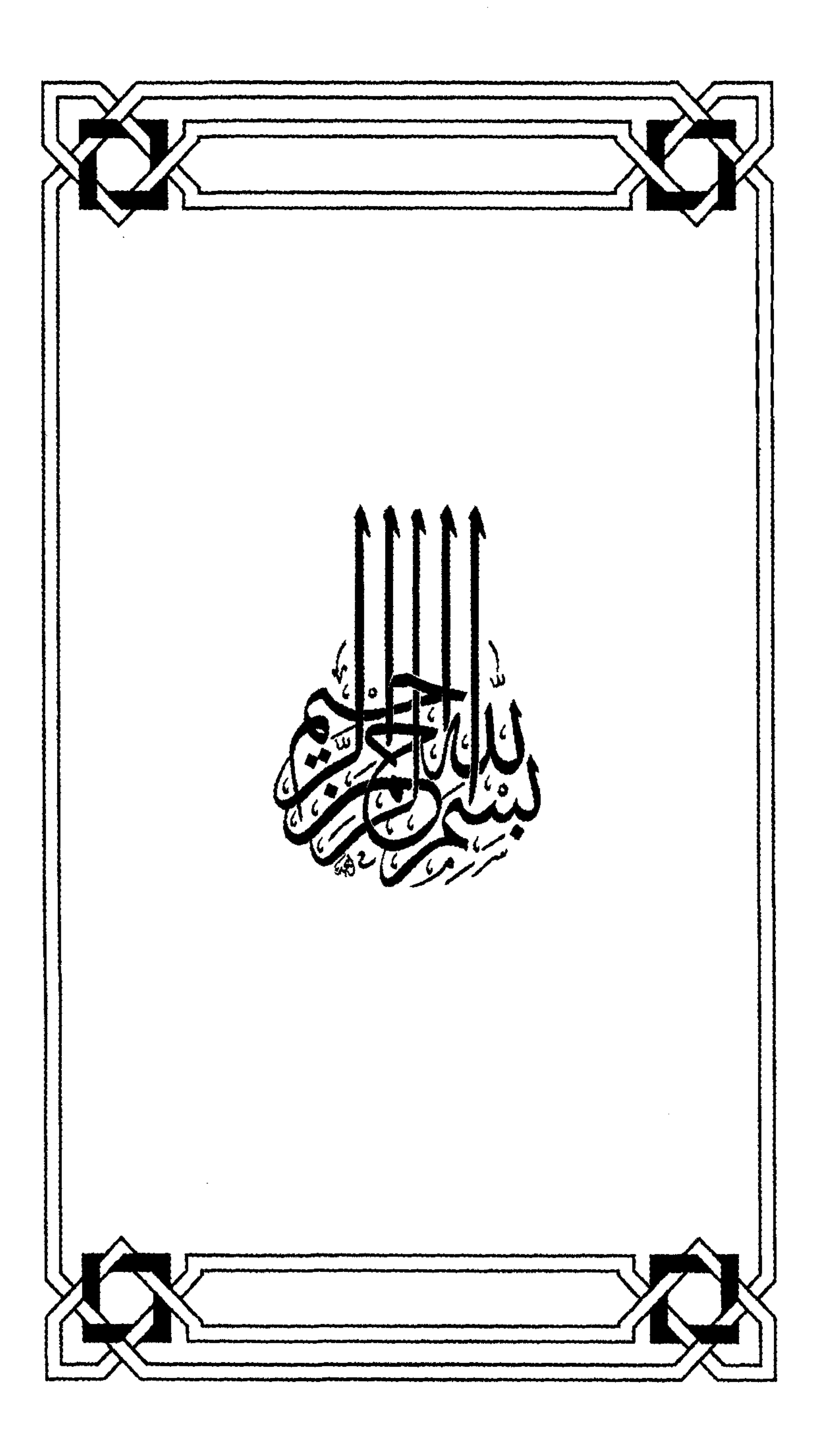
دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - برج أبو حيدر - خلف دبوس الأصلي - ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ هاتف: ٧٠٢٩٥٩

فرسان من التاريخ

تأليف

أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي وعليه توكلي

المقدّمة

الحمدُ لله الذي خلقَ الإنسانَ بعد أنْ لم يكنْ شيئاً مذكُوراً ، وهداهُ إلىٰ ما تهيّأَ به صلاحُ معاشهِ ومعادِه كما كان في الكتابِ مَسْطُوراً .

* أحمدُه تعالىٰ إذْ أنزلَ القرآن ، وخلقَ الإنسان ، وجعلَ له شأْناً في الأكوان ، فَصَالَ وجالَ في كلِّ ميدان ، وأخصُّ بالذّكْر أكارمَ الفُرسان ، الذين كان لهم آثارٌ ومناقبُ حِسَان ، في كلّ زمانٍ ومكَان .

* أحمدُهُ ربّي على ما أوْلاَنا منَ الإحْسَان ، وأشهدُ أنْ لا إله إلا هو شَهادة أثقّلُ بها كفّة الميزان .

* اللهمّ إنّي أسألُكَ نفْساً مطمئنةً تؤمنُ بلقائِك ، وترضىٰ بقضائِكَ ، وتقنعُ بعطائِك .

* اللهمّ أَغْنِني بالعِلْم ، وزَيّنّي بالحِلْم ، وأكرمْني بالتّقوى ، وجمّلني بالعافية ، واسترني بكريمِ لطفك .

* اللهمّ إنّي أسألُك صحةً في إيمان ، وإيماناً في حسنِ خُلُق ، ونجاحاً يتبعُه فَلاح ، وفلاحاً تَصِلُه رحمة ، وعافيةً ومغفرةً منك ورضواناً .

* وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه سيّد الشّجعان ، المبعوث إلى الإنسِ والجان ، فهو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين ، وقائدُ الصَّحابة الغرّ الميامين.

* صلى الله عليه وعلى آلهِ وصاحبهِ أبي بكر الصّديق المخصوص بالسَّبق في الإيمان ، وعلى عمر بنِ الخطّاب صاحب دار الخيزُرَان ، وعلى مجهّزِ جيشِ العسرة عثمان بن عفان ، وعلىٰ عليّ بن أبي طالب بطل الميدان ، وعلى جميع الصَّحابة ومن تبعهم بإحسان ، وطلبَ مرضاة الرحمن ، وبعد:

* فلم يكنْ هذا الكتاب الذي بينَ أيدينا اليوم وليدَ السَّاعة ، ولا ابنَ هذه السَّنة ، بل ترجعُ صِلَتي بهِ إلى أيّام وسنين خَوالٍ ، تقاربُ إحدى عشرةَ سنة ، هي في طيّاتِ الماضي ، وأرْدَانِ الزَّمان...... مدّة تُقْطَعُ فيها مراحل ، وتُطوى صحائف ، وتُولدُ أفكار ، فإذا بها غضّةٌ حيّةٌ ، كأنّها تحيا بين أضالعي وحنَاياي لحظةً إِثْرَ لحظة ، وثوب العمر أزهر نقي ، إذ كان عمري وقتذاك يزيد عن الثلاثين قليلاً.

* وخلال تلكم الفترة أصدرت كتباً كثيرة ـ أسأل الله عز وجل أن يجعل ثوابها في صحائف عملي ، وعمل والدي ، وأولادي ، وزوجتي ـ لَقِيَتْ بفضلِ اللهِ وكرمهِ قبولاً حسناً لدىٰ القُرّاء الكرام الذين أحببتُهم في اللهِ ، وكانوا زَهْرَ الرّياضِ الذي أجدُ فيه السُّرور والخير.

* وانهالتْ عليَّ رسائلُ لا تُعدُّ ولا تُحصى منْ كثيرٍ منَ البُلدان العربية وغيرها ، وأكثرُها يحتوي على الشّكر والثّناء والدّعاء بالتّوفيق ، والاستمرارِ في هذا الطّريق ، وكانت تحملُ في طيّاتها نزاهةَ المؤرّخ ، وطبْعَ الأديب ، ولباقة المُرسل؛ وتَقَبَّلْتُها بقبولٍ حَسنٍ ، وأنزلتُها منْ قلبي مكاناً أثيراً ، ومن نفسي مرتبةً عُليا ، يُضافُ إلى ذلك كلّه تلكم الاتّصالات الهاتفيّة التي تحملُ نَبَراتِ الحنَان من أصحابِها الذين أثلجت أصواتُهم صدري؛ وبعثَتْ فيَّ النّشاط والمضي في هذا السَّبيل.

* وإمعاناً في التَّحدُّثِ بنعمِ الله عز وجل ، كان لا بدَّ من متابعةِ رحلة العِلْم الشَّريف ، والمعرفة الهادفة المُفيدة ، وسَبْر أغوار التّاريخ في عمقٍ وتمعُّنٍ وتمحيصٍ وتدقيق ، كيما نستخلصَ الدّروسَ والعِبَر ، ونسجّلَ وقائعَ الحياةِ لأولئكَ الأعلام الكرام ، الذين لهم باعٌ في تدوينِ سجلاّت أعمالِهم على صفَحاتِ الأيّام ، فإذا بحياةِ أولئك العُظماء ملءَ السَّمْعِ والبصر ، بما تمتلكُه من بهاءٍ في الطَّلعةِ ، ونصاعةٍ في الجبين ، وجمالٍ في الهيئةِ ، وقوّةِ تأثيرٍ في البَصَمات الدّامغةِ.

* وكانتِ الصُّورُ التّاريخيةُ تترىٰ أمام مخيّلتي ، تصافحُ العقلَ والفكْرَ ، وتدنو هامسةً من العاطفةِ المتوهّجةِ؛ من خلالِ التَّصاويرِ المتألّقة ، والمشاهدِ المتلألئةِ عبر صفحاتِ الزَّمنِ النَّاضِر ، وأوراقه الخضْر المندّاة بشذا الكرامةِ والفروسيّة.

* ولا تعجبْ - عزيزي القارىء - من تاريخنا المجيد ، ومجدِنا التّليد ، ففيهِ صفَحاتٌ نواضرُ كثيرةٌ تضجُّ بالبطولةِ ، وتتفرّدُ بالنَّظرة الصَّائبةِ ، وتسجّلُ حركةً نَشِطةً في مدرسةِ الفروسيّةِ الحقّةِ ، بينما يَعْبرُ الفرسانُ حلبَاتِ النّزال ، وهم يُسْمِعُون أذنَ الجوزاءِ قصصَ الفداء ، وحكاياتِ المجدِ والكبرياء.

إنّهم فرسانٌ منْ تاريخِ العرب الزَّاهر . . . وأكرمْ بهِ من تاريخ! إذْ يرتادُ القِممَ وذُرا المعالي ، ويجعلُ صَعيدَ الغبراء يتحدّثُ بلسانِ المقال ، وواقعِ الحال؛ عن تلكم البطولاتِ التي أمستْ شعاراً لتاريخنا الوضيء ، وإدالة الخصُوم والحسّاد بالجهدِ ، والاقتدار ، وكمال صدْقِ المواجهة ، وتمام المحبّة للأهل ، والخلاّن ، وذوي الرَّحم.

* وهذا الكتابُ الطَّريفُ يدلُّ دلالةً منطقيّةً على أنَّ هذه الأمّة الكريمةَ العريقةَ أمّةٌ منجبةٌ على الدَّوام ، ومنتجةٌ على مدىٰ الأيّام ، تزهرُ أغصانُها ،

وتورقُ أشجارُها كلَّ حين لِتَهَبَ النَّاس جميعَهم رونقاً ، وحضارةً ، وبهاءً .

* إنَّ الفرسانَ المجموعينَ بينَ دفّتي هذا الكتاب هم ثلّةٌ منَ النَّوابغ ومنَ الموهوبين ، وقادةُ الفروسيّةِ عبرَ تاريخنا العريق ، حيث كانوا نجوماً زواهرَ ، امتازوا بعلوّ الهمّة ، وبُعْدِ الصِّيْت ، فلم يكونوا ـ إن صحَّ التّعبير ـ نسخةً طبْقَ الأصْلِ عن الآخرين ، بل نجدهم طبعةً متقنةً ممتازةً ، فيها كلُّ الجدّةِ والجمالِ والجَلالِ. و . . .

أُولئـكَ آبـائـي فجئْنِـي بمثْلِهـم إِذَا جمَعتْنـا يـا جـريـرُ المجَـامِـعُ

* وحسْبُنا ـ أعزائي ـ أن نقرأَ بتمعُّنٍ تواريخَ هؤلاء الفرسان ، لنرىٰ التنوّع في الأحداثِ ، ولنجدَ الطُّموحَ قائماً على أشدّه ، جدّةً وطرافةً ، فحيَاةُ هؤلاء كالقاطرةِ القويّةِ التي تجرُّ غيرها ، حيثُ إنّهم لم يخلُدوا إلى الرّاحة ، ولم يخضعُوا للقوّة ، بل ثبتوا في ميدانِ الكفاحِ والجلادِ والنّزال والنّضال ، فكانوا كالسّهام الصّائبةِ الموجّهة إلىٰ الهدفِ المقصود .

* إنَّ الكلماتِ قد تكونُ رائعةً ، والعباراتِ رائقة ، ولكنّه لا روحَ فيها ولا حياةَ ، حيثُ لا يتجاوبُ الكاتبُ مع ما يكتبُ ، وقد صوَّر ذلك الشَّاعرُ الهنديّ «جَكر مُراد آبادي» عندما وصفَ الخطيبَ فقال : «ما أروعَ كلماتِ الخطيب ، وما أجملَ تعبيره! ولكنّني لا أجدُ في عينَيْه بريقَ الحبّ ، ولا أقرأُ في وجههِ نورَ الإيمان ، وسيماء الحبّ والحنَان» .

* بَيْدَ أنَّ القارىءَ الكريمَ سيلحظُ ـ دون شكٍّ ـ أنَّ الدِّراسةَ في هذا الكتاب عميقةُ القرارِ ، يحيّيها الإخلاصُ في التّعبير ، والوصولُ إلى كُنْهِ الحقيقة ، مع إشاراتٍ وإيماءاتٍ مفيدة ، تبعثُ مواتَ الأفكار ، وتنفخُ روحَ المعرفةِ في النُّفوس ، من أجلِ الجهود الإصلاحيّة ، والكفاحِ المثمر العمليّ ؛ لِملءِ القلوب قوّة ، والنّفوس أملاً ، والعزائم نشاطاً .

* فَمَنْ كتبَ من أجل الكتابةِ وحْدَها لا روحَ في مؤلّفاته ، بينما تكمنُ

قوّةُ التّأثير في روحِ المؤلّف الدّاعي إلى حسنِ العاقبة ، وتجديدِ أواصرِ العَلاقات بين القرّاء والمقروء.

* وفي الجملةِ؛ يكونُ الكتابُ محاولةً لِشَدِّ القارىء وجَذْبه إلى ميدانِ البحث ورياضهِ ، وتقويمِ سلوكه وأفكارِه ، وإنضاجِها قَدْرَ الإمكان ، من خلالِ دراسة التّعمّق والوعي ، والرّغبة في الإصلاح.

* ولم يكنْ كتابُنا هذا خلْسةً ، أو لفتةً عابرةً ، تُسَجِّلُ فيها الأحداثُ وحَسْب ، ويوماً إلى البطاقاتِ الشّخصيّة ، وملامحِ الحياة العامّة ، وإنّما هو كتابٌ واسعُ المنازل ، رحْبُ الفناء ، شامخُ البنيان ، قويُّ الأركان ، وإلاّ فهل يكفي المتعبّد المجدّ ساعةً من نهار؟! أو شَطراً من الليل؟! لا ؛ فلا بدَّ للمجدّ المُجتهد منَ الليالي ذواتِ العدد ، ليكتملَ السُّرور ، وتزدادَ الغبطة ، ويشعرَ بالحبور ، ويلتذَّ بحلاوةِ الإيمان ، وطعم التّوحيد؛ وسقيا الإخلاص. . .

* وهكذا كان هذا الكتابُ متابعةً مضنيةً في جمعِ وتنسيقِ المادّةِ العلميّة من بطونِ الكتبِ ، وثنايا المصنّفات ، فخبرٌ هنا ، وخبرٌ هناك ، وتجدني يوماً في دمشقَ ، وآخرَ في الرّياض ، ويوماً في عمّان ، ويوماً في المدينة ، وطوراً عند عالِمٍ أو باحثٍ أو أديبٍ أقتبسُ علماً ، وأقتنصُ فائدةً ، وأجتَنِي من ثمارِ المعرفة ما لذَّ وطابَ. . . . وتطولُ الأيّامُ وتمرُّ الليالي ، وتنقضي الشُّهور ، وتُطْوىٰ السَّنوات ، ومادَّةُ الكتابِ تزدادُ يوماً بعد يوم. . . . . . وترتحلُ العبارات وترتسمُ الكلمات، وتتبلورُ الهمسَات فتجتمعُ في عقْدٍ ذهبيٍّ يطوّقُ الشّخصيّات بقلاداتٍ جميلةٍ متنوّعة، لكنّها متألّقةٌ بالمعرفة. . . . . وقلادات مختلفةِ الصِّياغةِ ، لكنّها نادرةٌ ولطيفةٌ كالحياةِ البسيطةِ في ريفٍ بسيطٍ جميل ، بَيْدَ أنَّها تسرُّ القلبَ ، وتسعدُ النَّفس ، وتثلجُ الصَّدر. .

* وثمّة أمور لا بدّ من التّركيزِ عليها ، والإشارة لها ، ليكونَ القارىءُ

الكريم مطّلعاً عليها؛ وبالتّالي تتّضحُ الصّورة أمامَ ناظريه ويدركُ ما يقرأُ ولمَ يقرأُ ، وكيفَ يقرأ ، فأقولُ ـ بعد الاستعانةِ بالله عزَّ وجلَّ ـ:

* كان الاستطرادُ المدروسُ ظاهرةً جليةً في صفَحاتِ هذا الكتاب ، ولا شكَّ أنَّ فيهِ نفعاً واضحاً ، لأنَّه يحتوي علىٰ معلوماتٍ مفيدة ، بحيثُ يطّلعُ القارىءُ الكريم على جوانبَ مُضيئةٍ للموضوع ، فتُجلى لديه الرّؤية ، وتتّسع مداركه ، ويقفُ على حقائقَ منوِّرة ، تهدي السَّائرين ، وتكشفُ مضامين البحث ، وتبرزها للعيان.

* كان ضبطُ النَّص ضبطاً محكماً ، وأعني به إضافةَ الحركاتِ إلى الكلمة ، منعاً للَّبس أثناءَ القراءة ، وقد كان اهتمامي كبيراً بهذا الجانبِ ، نظراً لأنَّ شريحةً كبيرةً من القراء الكرام غير متخصصين باللغةِ العربيّة ، ومن ناحيةٍ أخرى لنقتربَ أكثر من السَّلامة اللفظية والنّطق السّليم ، فاللغة العربية لغة جميلة ، بل هي الجمالُ ، وعَيْبٌ علينا أنْ نعبثَ بهذا الجمال الذي وهبَنا الله إياه ، واختاره لكتابهِ الكريم ، ولرسوله الأمين ، بل ولتكون اللغة العربية لغة أهلِ الجنّة ، وجواز سفر لدخولها؛ ولذا فقد كان من الأجدر بالكتّاب والمؤلفين أنْ يعتنوا بضبطِ النّص ، لأهميته ، وكذلك ضبط الأماكن والأعلام ، لأنَّ في ذلك تقريباً للعلْمِ ، وتهذيباً للفهم ، وخدمةً لطلاب المعرفة وشُداتها؛ وكم هو مؤلمٌ حقاً أن نسمعَ من يتصَدّر المجالس ومن ثمّ يلْحَن ، ويرفع المجرور ، وينصب المرفوع ، ويجول ويصول ، ويطلب الطعنَ وحْدَه والنّزال ، فيخطىءُ في طعَناتهِ ، ويكبو به جواد النّحو كبوةً مُخجلة ، وتعالوا نسرِّحِ النَّظرَ في هذهِ الأبيات :

تَصَـدَّر فـي المَجَـالِـسِ ثـمَّ بَـاهَـا	ويلْحَـنُ فـي القِـرَاءَة إنْ تَـلاهَـا
وفـي طَـاقَـاتِهـا كتُـبٌ كِبَـارٌ	مُجلَّـدَةٌ ولكِـنْ مـا قــرَاهَــا
فيحْسَـبُ أنَّ كُبْـرَ الشَّـاشِ فَخْـرٌ	تَـرخَّـصَ فـي البِطَـانَـةِ واشْتَـرَاهـا

* أمّا حواشي الكتابِ وهوامشُه فكانَ لها شأْنٌ آخر ، إذ سجّلْتُ فيها كلّ ما يساعدُ على توضيح النَّص ، وتقريبه من الأفهام ، من غيرِ إطالةٍ ، أو إطنابٍ ، أو خروجٍ عن الموضوع ، ولم يكنِ الهدفُ تفاصُحاً غيرَ مُرحَّبٍ به ، بل كانتِ الحواشي حافلةً بما هو جديدٌ ومفيدٌ ، وتضمُّ ما يلي :

أ ـ ذكْرُ المصادرِ والمراجعِ التي تمَّتِ الاستفادةُ منها .

ب ـ شرحُ الكلماتِ الغامضةِ ؛ مراعاةً لمستوياتِ القرّاء .

ج ـ التّعريفُ بطائفةٍ منَ الأعلام ـ رجالاً ونساءً ـ .

د ـ العنايةُ ببعضِ التّعليقاتِ المُفيدة التي تخدمُ النَّص وتفيدُ القارىء ، فكانت تلك التّعليقات ضروريّة ، دون أنْ نخرجَ إلى حشْدِ المعارف ، أو استعراض العضَلات ! بل كانت إشارات أدبيةً ، أو نكتاً بلاغيّة ، أو طُرفاً تاريخيّة ، أو إيماءاتٍ متنوّعة تذكّر القارِىءَ بما مضىٰ ، وما سيأْتي ، ونحو ذلك .

هـ ـ قمتُ بتخريجِ الشِّعر الوارد ، وذلك بعزوِهِ إلى مصادرِه الأصيلة ، وفي ذلك توثيقٌ للنُّصوص ، وتأكيدٌ على صحّتها ، فيكون المُطالع للكتاب على ثقةٍ ممّا يقرأ .

* اتّبعتُ النَّهجَ العلميّ ، لا سيما في الإشارة عند الاقتباسِ إلى المواردِ التي استقَيتُ منها ، فذكرتُ الكِتابَ ومؤلِّفَه ، والجزءَ والصَّفْحة التي وُجِدَ فيها النَّصُّ ، وأنا في ذلك أتّبعُ قولَ أبي عُبيد : «مِنْ شُكْر العلْمِ أنْ تستفيدَ الشَّيء ، فإذا ذُكرَ لك قُلْتَ : خَفِيَ عليَّ كذا ، ولم يكنْ لي بهِ علْم ، حتّى أفَادَني فُلان فيه كذا وكذا ، فهذا شكْر العِلْم» .

* وقال السُّيوطي في «المُزهر» (٢/ ٣١٩) : «من بركةِ العلْمِ وشُكْره : عزوه إلى قائِلِهِ . . . . ولهذا لا تراني أذكرُ في شيءٍ من تصانيفي حرفاً إلاّ معزواً إلى قائلهِ من العُلماء ، مُبيِّناً كتابه الذي ذكرَ فيه» .

* وهنا أودُّ أنْ أشيرَ إلى طائفةٍ من قَراصنَةِ الكُتُب ، وممن يسطونَ على أعمالِ غيرهم ، و«يلْهَفُون» كتاباً بكامله دون الإشارةِ إلى مؤلّفه الأصلي ، ومنَ العجيب حقّاً أنَّ موضةَ سَرقة الكتبِ قد كَثُرت في أيّامنا هذه؛ وقد سرقَ مُحامٍ ماهرٌ كتابي «نساء أهْل البيت» بحذَافيرِهِ ، وكتَبَ اسمُه كاملاً ووضع تحته: المحامي؛ فإذا كانَ المحامي يسرقُ أعمالَ غيرهِ في غيرِ بلدهِ ، بل وقَارّتهِ ، فكيفَ يُرجى نُصحُه؟ وكيف يُوثقُ فيهِ؟ و:

متَى تَصْلُحُ الدُّنيا ويصْلُحُ أهْلُها إذا كـــانَ قَــاضــــي. . . .

* ومن المؤسفِ أيضاً أنَّ هذا المحامي الماهر في السَّطو قد سَطا على كِتابي «بنات الصَّحابة» ، وظنَّ أنَّه بعيدٌ في أرضِ الكنانة ولن تَطالَه يَدٌ ، أو قانون ، ولكنّنا نقولُ له ولغيرِهِ في بلدهِ وبلدِنا وبلدان أخرىٰ: مَهْلاً [فاللهُ عَدْلٌ والتَّلاقي غَدُ] وهذا العمل ليس منْ أخلاقِ غيرِ العُلماءِ وأهل العِلْم ، فكيف بمن يتدثّرُ بالعِلْم وينضَوي تحت لوائِهِ ويتستّر خَلْفَه؟! أنا لا أريدُ أنْ أذكرَ اسمَ أيّ واحدٍ من هؤلاء القراصنة الجبناء الذين يظنّون أنّهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً ، لئلا يحسبون أنَّهم من ذوي المقَاماتِ المرموقةِ والرُّتب العلميّة والأدبيّة ، ولكنْ نقولُ لهؤلاء الذين يُجيدون السَّطو:

مَــنْ تَحَلَّـىٰ بغَيْـرِ مَـا هُـوَ فيْـهِ فَضَحَتْـهُ شَـواهِـدُ الامتِحَـانِ

* إلى جانبِ ما ذكرتُه آنفاً ، أشيرُ إلى أنني قد استوفيتُ علاماتِ التّرقيم؛ التي تفصلُ بين الجُملِ والعبارات ، فهي تزيدُ من جمالِ العلمِ التّأليفيّ. وصحيحٌ أنَّها مُقتبسَةٌ من نظامِ الطِّباعةِ الأوربي ، إلاّ أنّها نافعةٌ للكتابِ ، حيثُ إنّها تُيسِّرُ فَهْم النُّصوص ، وتُعَيِّنُ معانيها ، وتزيلُ الإبهامَ والإعجامَ.

* وإنّني أعجبُ إن اطّلعتُ على كتابٍ لم يَعْتَنِ مؤلّفه بعلاماتِ التّرقيم ،

فربَّ فاصلةٍ يؤدّي فَقْدُهَا إلى تغييرِ المعنىٰ ، أو عكسِه! بل اضطرابه وتموّجه.

* هذا ، وقد رأيتُ ـ بعد أنِ استقرّتِ المادّة لَديَّ ـ أنْ أجعلَ الكتابَ في أربعةِ أبوابٍ أو أقْسَامٍ هي :

الأوّل: فُرسانٌ منَ العَصْر الجاهليّ ، ويتمثّلون في نواحٍ هي :

١ ـ الفارسُ الفتى الحرُّ : ربيعةُ بنُ مكدم .

٢ ـ الفارسُ الصُّعلوك الفقير : عروةُ بنُ الورد .

٣ ـ الفارسُ العبدُ المِقْدام : عنترةُ بنُ شداد .

الثّاني: فرسانٌ مخضرمون ، ويتمثّلون في نواحٍ هي :

١ ـ الفارسُ الشَّهمُ النَّبيلُ : زيد الخيل ـ الخير ـ بن مُهَلْهِل .

٢ ـ الفارسُ الفاتحُ القائدُ : ضرارُ بنُ الخطّاب .

٣ ـ الفارسُ المُغامرُ الجريء : عمرو بنُ معدي كَرِب .

الثّالث: فرسانٌ منَ العَصْر الإسلاميّ ، وهم كثيرون ، وشخصيّاتهم عديدةٌ ، ويمثّلون أنواعاً منَ الفُروسيّة الحقّة ، ففيهم القائدُ ، والفاتحُ ، والمغامرُ ، والصُّعْلوك ، والكريمُ ، والفدائي ، والمتهوّر كأبطال الخوارج ، وسيجد القارىء هذه الصّفات مرسومة في هذه الشخصيات ، بالإضافةِ إلى صفات أُخر .

* ومن الجدير بالذّكر أنّني قد تعرَّضْتُ أثناءَ رحلتي مع هؤلاء الفُرسان جميعِهم ، إلى ذكْر الأسلحةِ الدّفاعيّةِ والهجوميّة ، عبر تاريخهم ، وذكرتُ كثيراً منَ الفَوائد المهمّة في هذا المجال ، كذكْرِ أنواعِ السُّيوف ـ مثلاً ـ ، أو الرّماح ، أو الدُّروع ، أو الخيل وغير ذلك .

الرابع: فارساتُ منَ التَّاريخ ، وكلّ شخصيّةٍ منهنّ تروي لوناً من ألوانِ فروسيةِ المرأة عبر تاريخنا الجميل ، وخُصوصاً القديم منه [1]، بالإضافةِ إلى ذكْرِ طائفةٍ يسيرة من نساءِ الخوارج ، وشيءٍ من أخبارهنَّ ، وأنباء إقدامهنّ وشجاعتهنّ.

* كما تحدثتُ بشيءٍ من التّفصيل عن فروسيّةِ المرأةِ العربيّة ، وعن أعمالِها في صَدْرِ الإسلامِ ، ومشاركتها في الفُتوحات الإسلاميّة في الشَّرقِ والغرب.

* وفي الحقيقةِ إنَّ الحديثَ عن بطولةِ النِّساء وفروسيتهنَّ بابٌ يجمعُ الطَّرافةَ والجَمَال والجدّةَ ، وقد يكونُ هذا الباب بِكْراً في موضوعهِ ، وهو مفتاحٌ لكتابٍ كبيرٍ يضمُّ بينَ حناياه عشرات الشّخصيّات عَبْر تاريخنا الوضّاء في ماضيهِ وحاضرِه.

* ولا بدَّ منَ الإشارةِ إلى أنَّ التَّاريخَ العربيَّ والإسلاميَّ يفيضُ بالحديثِ عن الفروسيّةِ والفرسانِ ، فهو ملحمةٌ كبرىٰ ذاتُ لحنٍ جميل ، وتآلُفٍ متواصِلٍ ، يجمعُ الماضي بالحاضرِ لِيدلَّ على أصالةِ الأُمّة ، وصدقِ محتدِها وعراقتِهِ وحقيقتهِ العظيمة.

* ومن واجبِ كُلّ حريصٍ على تراثِ أمّتنا ، أنْ يستوعبَ هذه الحقيقة ، ولا يخرجَ عن مفهومها قِيْدَ أنملُة ، حيث إنَّ تنامي الأصالة يحملُ إرهاصاتٍ قويّةً تتّجِهُ بالأمّة نحو العلياء ، وتجعلُها تحاكي النّجوم

---

(1) هذا لا يعني أنه لا يوجد نساء يمتلكنَ الشجاعة في أيامنا هذه ، فإنَّ المرأة العربية المسلمة في أرض النبوّات الآن وفي أراضي القدس الشريف تخيفُ جنود الصهاينة دون سلاح أو بالحجارة ، وما نقرؤه وما نشاهده دليلٌ على ذلك؛ ونسألُ الله لهنَّ الثبات ، فهنَّ يقدمن أيضاً الشهداء والتّضحيات ، فأكرم بهن !.

رفْعةً ، وذلك في ارتباطٍ لا تنفكُّ عن الماضي السَّعيد ، لإنشاءِ حاضرٍ عتيد ، وبناءِ مستقبلٍ رشيد.

* وقُبيل الختام أودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ المصادرَ والمراجعَ كانت كثيرةً ومتنوّعةً ، قديمةً وحديثةً ، وهي منثورةٌ بين ثنايا الكتابِ وحواشيه ، ومنها ما هو نادرٌ ، وكثيرٌ منَ المعلوماتِ لم نحصلْ عليها إلا بشقّ الأنفُس ، وسيلحظُ القارىءُ ذلك من خلالِ رحلتهِ مع هذا الكتاب.

* والآن ومعَ الختام ، أضرعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يجزيَ كلَّ مَنْ دلَّ على خيرٍ ، أو أفادَ معلومةً ، أو أعارَ كتاباً ، أو دلَّ على مَصْدرٍ أو مرجعٍ ، أو صحَّحَ عبارةً ، أو قوَّم نصّاً.

* وأسألهُ عزّ وجلّ أنْ يأخذَ بأيدينا إليه ، وأنْ يدلّنا على الطَّريقِ القويم ، ويثبتنا على حبِّ العلْمِ ، والتّزوّد بالمعرفة النّافعة ، في عَصْر حرونٍ ، مُتّسمٍ بالتّوجُّه نحو المادّة ، وتقييم النّاس وفقها ، فهي ميزانُ كثيرين! واللهُ المُستعان..

* اللهم اجعلنا ممّن يصِلُ إلى الحقّ والحقيقة ، وممن يتمسّكُ بهما ، ولا يزيغُ عنهما ، واجعلنا ـ يا ربّ ـ ممّن يدعو إليهما ، ويسيرُ في ركابهما ، في همَسات قلوبنا ، وخلجاتِ صُدورنا ، ولهجاتِ ألسنتِنا.

* اللهمَّ عليكَ توكّلنا ، وإليك أنَبْنا ، فلا تخْذُلنا ، ولا تسلّطْ علينا الحُسَّاد ، وأبعدْنا عن طريقِ الغاوين.

* وأرجو القارىءَ الكريم أنْ يخصّني بدعوة خالصة منه بظهرِ الغيبِ إنْ وجدَ فائدةً في هذا الكتابِ ، وأن يسدَّ الخللَ ويسترَ العيبَ ، إنْ وجدَ هفوة ، فالكَمالُ لله وحده ، والإنسان بطبيعته خطّاء:

وَمَنْ ذا الذي ترضي سَجاياه كلّها كفىٰ المرء نُبلاً أنْ تُعدَّ معَايبُه

* وختاماً تعالوا نقرأ قولَ ربّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

* اللهمَّ اجعلْ آخر كلامنا: «لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله».

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

دمشق ـ حرستا ـ حي الشيخ موسى
١٥/ شعبان/ ١٤٢١هـ
١٢/ تشرين الثاني/ ٢٠٠٠م

وكتب
أحمد بن خليل جمعة
الحرستاني الدمشقي






الباب الأوّل
فرسان من العصر الجاهلي

ربيعة بن مُكدّم
عُروة بنُ الوَرد
عَنترة بنُ شدّاد





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com




ربيعة بن مُكدّم

* أحد فرسان مُضَر المعدودين، وشجعانهم المشهورين.
* هو صاحب قصة «حامي الظعينة» حيث دافع عن محارمه، وعن زوجته، حتى قيل في المثل: «أحمى من مجير الظعن».
* مدحه كثير من الشعراء؛ لشجاعته وفروسيته.




فتى الفرسان:

* هيّأتِ الحياةُ الجاهليّةُ للعربِ أنْ يكُونوا أقوياءَ ، لتستقيمَ حياتُهم ، فقد كانَ أهمّ ما يشْغَلُ العربي عَصْرَ ذاك ، أنْ يسعىٰ جاهِداً كيْمَا يكونَ قويّاً مرهوبَ الجانبِ ، وأنْ يكونَ مُهاباً ممّنْ حولَه ، وممن يُرهبُ جنابه ، ويُرهبُ بأْسُه ، ولعلَّ نابغةَ بني ذُبيان قد عَبَّرَ عن هذا المبْدَأ عندما قالَ:

تَعدو الذِّئابُ علىٰ مَنْ لا كِلابَ لَهُ وتتّقي صَولةَ المُسْتأْسِدِ الضَّاري[1]

* وفارسُ هذه الصَّفحات ممَّنْ عرفَهم فرسانُ عَصْرِه ، وهابوهُ وحسبوا حِسَابَه ، واضطربُوا لسماعِ اسْمِه ، فقد كانَ فتىٰ الفُرسَان ، وفارسَ الفتيان ، أقرَّ له فرسانُ الجاهليّةِ بالإقدامِ والجرأةِ والشَّجاعةِ والفَضْل علىٰ الرَّغمِ من أنَّه ماتَ في ريعانِ الشَّباب.

* وهذا الفارسُ العملاقُ في عالَم الفُروسيّة هوَ أحدُ فرسانِ مُضَر المعْدُودين ، وشجعانُهم المشهورين ، إنَّه ربيعةُ بنُ مكدَّم بن عامرٍ منْ بني كنَانة[2] ، وما أدراك ما بنو كنَانة!

---

(١) ديوانُ النّابغةِ (ص ٢٤٩) طبعة المكتبة التّونسيّة عام ١٧٩٦م.

(٢) الأغاني (١٦/ ٦٤ ـ ٨٦) ، وبلوغ الأرب (١/ ١٢٥ و١٢٦) ، والعِقدُ الفريد (١/ ١١٦) و(٥/ م١٧٠ ـ ١٧٣) وجمهرةُ الأمثالِ (١/ ٣٣٠ و٣٣١) ، ومجمعُ الأمْثَال (١/ ١٤٩) ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم(ص ١٧٦ و١٨٨) ، والبرصانُ والعُرجانُ والعميانُ والحولانُ للجاحظ (ص ٣٩٤ و٣٩٥) ، والأمالي (٢/ ٢٧١) ، والاشتقاق (ص ٣١١) ، والبيان والتبيين (١/ ٢٤٩) ، وقطوف الريحان (ص ٥٧ ـ ٦١) ، وغيرها كثير.

* وقبلَ أنْ نتعرَّفَ أحوالَ هذا الفارسِ ، ونعرفَ أشياءَ جميلةً عن فروسيّته ، نودُّ أنْ نتعرَّفَ شيئاً عن معنى الفتوّةِ ، كيما ترتسمُ صورةُ ربيعةَ بن مِكدَّم صحيحةً في الأذهانِ.

* فالفتوَّةُ في الأصْلِ معناها الشَّبَابُ ، قالُوا: فَتِيَ يفْتي: أي صارَ شَاباً. وقالُوا: هو فتيُّ السِّنِّ ، بَيِّن الفَتَاء. وبشكْلٍ عام تعني كلمةُ الفتوّة: القوَّة والرُّجولة والكرم. . . يقول طرفةُ بنُ العبدِ في معلّقَته عن الفتوّة:

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فتىً خِلْتُ أنّني عُنيتُ فلمْ أكْسَلْ وَلَمْ أَتبلّدِ
ولسْتُ بحلاّلِ التِّلاعِ مَخَافةً وَلكنْ متىٰ يسترفدِ القَوم أرفدِ
فإنْ تبغِني في حلْقَةِ القوم تلقَنِي وإنْ تلتمسني في الحَوانيتِ تَصْطدِ
وإنْ يلْتَقِ الحيُّ الجميعُ تلاقني إلى ذِروةِ البيتِ الشَّريفِ المصمّدِ[1]

* ومن معاني الفتوّةِ كما جاءَ في كُتُبِ اللغة: الشَّبابُ ، قالَ الجوهريُّ في «الصِّحاح»: الفتىٰ: الشَّاب؛ والفتاةُ: الشَّابَّةُ. وقد فَتِي ـ بالكسر ـ يفتي فتى ، فهو فتيّ السِّنِّ بيِّنُ الفَتَاء[2].

* وجاءَ في «لسان العربِ»: الفتاء: الشَّباب ، والفتىٰ والفتيةُ: الشَّاب والشَّابّة؛ والفعل فَتُوَ يفتو فتاء ، ويُقال افعل ذلك في فتائه ، وقد فتي ـ بالكسر ـ يفتي فتى فهو فتي السِّنّ بيِّنُ الفتاء[3].

* وللفتوة معانٍ ومدلولاتٌ كثيرةٌ ، فقد استُعْمِلَتْ في معنى الشَّجاعةِ والوفاءِ بالوعدِ ، والبّرِ بالعَهْد ، والصَّبْرِ على الشَّدائدِ ، ودفْعِ الملماتِ ،

---

(١) انظر: شرح المعلقات السَّبع (٦٤ ـ ٦٥) بعناية: عبد رب النبي سعيد الحسيني طبعة ١٣٥٤هـ.
(٢) الصحاح (٦/ ٢٤٥١).
(٣) لسان العرب (٢٠/ ٣).

وتحمُّلِ الأعباءِ ، وكثيرٍ منَ الصِّفات المحمودةِ ، وهذا الاستعمالُ كان غالباً على كلّ الاستعمالاتِ الأخرى. قال امرؤُ القَيس حين توجَّه إلى قَيْصَر:

فَدعْ ذَا وسَلِّ الهَمَّ عنْكَ بجسْرَةٍ ذمولٍ إذا صَامَ النَّهارِ وهجَّرا
عليها فتىً لمْ تحملِ الأرضُ مثْلَه أبرَّ بميثاقٍ وأوفىٰ وأصبرا[١]

* وإلى جانبِ هذا المعنىٰ استُعْمِلتِ الفتوّةُ في معانٍ أخرى ، منها المروءةُ، بكلّ ما تضمُّه من نجدةٍ وكرَمٍ وشهامةٍ، وغير ذلك من القِيم الخلقيّة التي تعارَفَ عليها المجتمعُ الجاهليُّ وقدَّرها. قال لبيدُ يرثي أخَاه أرْبِد:

أَيَا مَيَّ قُومي في المآتِمِ واندُبي فَتىً كانَ ممّنْ يبتَني المجدَ أروعا
فَتيٍ عارِفٌ للحقّ لا ينكرُ القِرىٰ تَرىٰ رفْدَه للضَّيفِ ملآنَ مُترعا[٢]

* وقد وردتْ في بعضِ النُّصوصِ كلمة الفتوّة تحملُ معنى صِغَرِ السِّنّ ، كما استعملتْ على القوّة والشَّبابِ. قال الأعشىٰ يمدحُ هوذةَ بنَ عليَ الحنفيّ:

قد حَمّلُوه فَتى السِّنِّ ما حَملتْ سَاداتُهم فأطاقَ الحَمْلَ واضْطَلَعا[٣]
وجرّبُوه فما زَادتْ تجارِبُهمْ أبا قُدامةَ إلاَّ الحَزْمَ والقَنَعَا

---

(١) ديوان امرىء القيس (ص ٦٣ و٦٥). و«فدع ذا»: من أساليب العَرب في الانتقال من غَرضٍ إلى غَرض في القصيدة ، وقد يجيءُ ابتداءً. «والجسْرةُ»: النّاقة القويّة النّشيطة. و«الذّمول»: التي تسيرُ الذّميل وهو سيرٌ سريع. و«صام النّهار»: قامَ واعتدلَ. يقول: دعْ ما أنتْ فيه من الشّعر واذهبْ عنك الهمّ بركوبِ هذه الناقة القويةِ السّريعة عند اشتداد الحرّ. «وفتى»: يعني نفسه. و«الميثاق» العهد.

(٢) مختار الشّعر الجاهلي للأعلم الشّنتمري (٢/ ٥٠٠). و«المآتم»: مجتمعاتُ النّساء في حزنٍ أو فرح ، والمرادُ هنا الحُزن. «أروع»: مَنْ يعجبك بحسنِ منظرِه وجمالِه ، أو لشجاعته. «القِرى»: ما يقدم للضيف من طعام وشراب وغيره. «الرفد»: العطاء والصلة. «مترع»: ملآن.

(٣) ديوان الأعشى (ص ١٠٩). و«أطاق»: احتمل. و«اضطلع»: نهض. و«الحزم»: ضبط الأمر ، والأخذ فيه بالثقة. «القَنَع»: الخير والكرم والزيادة وحسن الذكر.

* وقال عَبيدُ بنُ الأبرص:

كمْ مِنْ فتىً مثلُ غصنِ البان في كَرَمٍ　　محَضُ الضَّريبةِ صَلْتُ الخدّ وضَّاح[1]

* وهكذا نجدُ كلمةَ الفتوّةِ في هذهِ الفترةِ خاضعةً للبيئاتِ المختلفةِ التي تداولَتْها، وكانت كلُّ بيئةٍ تلبسُها ما تراهُ مناسِباً للمُثُلِ العُلْيا التي توسَّمَتْها في فتاهَا المقصود[2].

* فالفتىٰ في عرفِ العربِ القُدامى في الجاهليّة، هو الإنسانُ الذي تتجسَّدُ فيه الصِّفاتُ والسِّمَاتُ التي تتطلَّبُها القبيلةُ على أكْملِ صورةٍ، فهيَ أحياناً شجاعةٌ في القتالِ والنِّزالِ تضْمَنُ حمايةَ القبيلةِ، أو كرمٌ يصونُ اسمَها ويرفعُ ذكْرَها، وشهامةٌ تزيدُ مركزَها علواً وشموخاً، ومروءةٌ تجمعُ الخصَال الحميدةَ الأخرى[3].

رَبيْعَةُ والفُروسِيَّةُ:

* منَ المعروفِ أنَّ الفروسيَّةَ مظهرٌ منْ مظاهِر الفتوّةِ، وقد دعَتْ إليها الحياةُ التي يعيشُها العربُ عَصْرَ ذاك، والبيئةُ التي ينزلونَ فيها، والنِّظامُ القبَليُّ الذي قامَتْ عليه حياتُهم، وهي تتّخذُ مظاهرَ متعددةً وترسمُ جوانبَ واضحةً.

* ففروسيّة البطلِ العربي تتَّسِمُ بالأخلاقِ التي يتَّصفُ بها العربُ جميعاً، فالفارسُ شجاعٌ وكريمٌ وعزيزُ النَّفسِ، يحترمُ المرأةَ ويدافعُ عنها، ويجيرُ المستجير، ويعملُ علىٰ رفْعِ الظُّلمِ، وهو سمْحُ الخُلقِ إلاّ إذا ظُلِمَ، فإنَّ ذلك يغيّرُ من طبيعتِه ويصبحُ ثورةً عارمةً.

---

(١) مختار الشعر الجاهلي (٢/ ٣٢). و«محض»: خالص. «الضريبة»: الطبيعة. «صلت»: بارز.

(٢) انظر: الصّعلكة والفتوة في الإسلام (ص ١١).

(٣) انظر: الفروسيّة في الشّعر الجاهلي (ص ٤٠) بتصرف يسير.

* ومع تلكم الخِلال السَّابقة فإنَّ الفارسَ العربيَّ صادقٌ وفيٌّ ، يكْرَهُ الغَدْرَ ، ونقْضَ المواثيق ، وهو عفيفٌ في الحربِ ، لا يخوضُها من أجلِ الأسلابِ والغَنائِم .

* ومن المعروف أيضاً أنَّ الفروسيَّةَ الحقَّةَ ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بالسِّيادةِ والرِّفعةِ، فالفارسُ له مكانتُهُ الأولىٰ في القبيلةِ ، وبينَ فُرسانِ العَشَائِرِ الأُخرى ، لهذا فإنَّنا نجدُ أنَّ بطولاتِهم قد امتزجتْ بمكارمِ أخلاقِهم وأسلوبِ حياتهم .

* لقد عرفَ العربُ قديماً الفروسيّةَ في تقاليدهم وفي مُثُلهم ، فقد كانتِ الشَّجاعةُ والكرمُ والنَّجدةُ والمروءةُ منْ سماتِهم ، وقد سجَّلُوا الذِّكْرَ الحميدَ في ديوانِ مفاخِرهم ، وظلُّوا يفخرونَ بالمناقبِ الحميدةِ على مرِّ الأيّامِ ، وكانتْ كلُّ قبيلةٍ تفخرُ بفرسانِها وأبطالها .

* ولذلك كانتْ نشأةُ ربيعةَ بنِ مكدَّم في قبيلةٍ عُرِفَتْ بالفروسيّة والنَّجدةِ وخصائِلِ الشَّجاعة والبَسَالةِ والإقدام ، وقد فتحُ ربيعةُ عينَيْه على ساحاتِ الكَرِّ والفَرِّ ، وأيفَعَ علىٰ متونِ الخيلِ وظهورِ الجياد ، حتى غَدا معروفاً بينَ مشاهيرِ فُرسانِ العربِ من معاصريه منْ أمثالِ: دُريدِ بنِ الصِّمة ، وعنترةَ العبسيّ ، وعامرِ بنِ الطّفَيل ، والسُّليكِ بنِ سلكة ، وغيرِهِم ، بل إنَّ فارسَ العربِ وفارسَ قومه عمرو بنَ معدي كرب قد خافَ بأْسَ ربيعةَ عندما نازَلَه ، وأوشكَ ربيعةُ أن يسقيَه حتْفَه بطعنةٍ نَجْلاء .

* وهكذا كانتْ قبيلةُ ربيعةَ بنِ مكدَّم تنجبُ الفُرسانَ الفتيانَ الأشداء ، وزعموا أنَّ الرَّجلَ منهم يعدلُ عشرةً من غيرِهم ، وذكرَ عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ شجاعتَهم وثباتَهم لأهلِ الكوفة عندما خَذَلُوه: وددْتُ

واللهِ أنَّ لي بجمعِكم ـ وأنتم مئةُ ألف ـ ثلاثمئةٍ منْ بني فِراس بنِ غنم[1].

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوارسُ مِنهم كأَرْميةِ الحَميمِ[2]

مَنْ أَشْجَع مَنْ رَأَيتَ؟

* تروي كتبُ الأدبِ والأَسْمار أنَّ عمروَ بنَ معدي كرب الزَّبيديَّ كانَ فارساً مَشْهوراً منْ فُرسان العَرب الأشدّاء ، وكانَ مشهوداً له بالرُّتبةِ والتَّقدُّم في الجاهليّةِ والإسلام ، وكان فارسُ اليمنِ ، ويُقَدَّمُ على كثيرٍ من فرسانِ الجاهليّة وأبطالِها وأشدائها ، وعدَّه سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضوان الله عليه ـ بألفِ فارس.

* وعمرو بنُ معدي كرب هذا ، شَهِدَ لربيعةَ بنِ مكدَّم بالإقدامِ والشَّجاعةِ والبَسالةِ في حديثٍ شائقٍ أدلىٰ به لسيِّدنا عمرَ ـ رضي الله عنه ـ. فقد ورَدَ أنَّ عمرَ قد سألَ عَمْراً: مَنْ أشجعُ مَنْ رأيتَ؟!

قال: كانتْ لي فرسٌ شَمْقَمَقَةٌ طويلةٌ ، سريعةُ الإنقاذِ ، فركبتُها ، فلم أكنْ ألقىٰ أحداً إلا قَتَلتُه ، ثمَّ مضيتُ ، فأصبحتُ بين رجالٍ متعاقدة ، فنظرتُ إلى أبياتٍ ، فعدلتُ إليها ، فإذا فيها جَوَارٍ ثلاثٌ كأَنَّهُنَّ نجومُ الثُّريا ، فبكينَ حين رأينني ، فقلتُ: ما يبكيكنَّ؟

فقلنَ: لما ابتُلينا به منكَ؛ ومن ورائنا أختٌ لنا أجْمَلُ منَّا.

فتركتُهنَّ ، وسرتُ في طلبِها ، فأشرفْتُ على مكانٍ مرتفع ، وإذا بغلامٍ قد جَلس يخصِفُ نَعْلَه ، فلمّا نظرَ إليّ وثبَ على فرسِهِ مبادراً ، ثمَّ ركضَ إلى الفتياتِ ، فوجدهنَّ قد ارتعْنَ ، فسمعتُه يقولُ لهنَّ:

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ١٤٤).

(٢) بلوغ الأرب (١/ ١٤٤) ، و«الأرمية»: جمع رمي ، كغني ، قطعٌ صغَارٌ من السَّحاب. و«الحميم»: القيظ.

مَهْــلاً نُسَيّــاتــي فــلا تَــرتَعْــن إنْ تُمنعِ اليومَ نِساء تُمْنَعْـن[1]

* فلمّا دنوتُ منه قال: أتطردُ لي، أو أطردُ لك؟

قلت: بل اطْردْ لي.

* فركضَ وركضتُ في إثرهِ، حتّى أمكنْتُ السِّنانَ من لفتتِه ـ أسْفَل الكتف ـ فإذا هو والله ينقلبُ على صدرِ جوادِه، فتذهبُ الطَّعْنَةُ خائبةً، ثمّ استوىٰ في سرجهِ، فعُدْتُ إلى طردِه وهو يركضُ أمامي، حتى إذا مكَّنتُ السِّنانَ بين ناصيتِه، إذ هو واللهِ قائمٌ على الأرضِ، ومضىٰ السّنانُ زَالجاً في الهواءِ، ثمَّ استوىٰ على فرسِهِ، فطردتْهُ ثالثةً حتى إذا أمكنْتُ السِّنَان من متْنِهِ، اتكأْتُ عليهِ وأنا أظنُّ أنّي قد فرغتُ منه، فمالَ في سرجهِ حتى خالَطَ بدنُه الأرضَ، وذهبتِ الطَّعْنَةُ في الهَواءِ مرّةً أخرىٰ، ثمَّ استوىٰ على فرسِه، وقال: أبَعْدَ ثلاث تريدُ ماذا ؟؟! ثكلتك أمُّكَ!.

* فوليتُ وأنا مرعوبٌ منه، فلمّا غشيني أحسسْتُ مسَّ الرّمح في بدني، فالتفتُّ فإذا هو يطردني بالرّمحِ دون سِنان، ثمَّ كفَّ عنّي

---

(١) وفي روايةٍ: أنَّ عَمْراً قال له: يا هذا استأسِرْ. فمضىٰ غير مكترثٍ حتى أشرفَ علىٰ الحيّ، فإذا الخيلُ جائلة في أكنافه، فعطفَ عليَّ وهو يقول:

قــد علمــتْ إذْ ألثمتْنــي فَــاهَــا وألبستْنــــي بكــــرةً ردَاهَــــا

أنّــي سأحـوي اليـومَ مَـنْ حَـواهَـا يـا ليـتَ شِعْـري مـا الـذي دَهـاهَـا

قال عمرو: فتلقيتُه وأنا أقولُ:

عمـروٌ علـى بُعْـدِ المـدىٰ دَهَـاهَـا جــابَ مفــاوِزَهَــا وقــد قَــلاهَــا

بـالخيـل يُـزجيهـا علـىٰ وجَـاهَـا حتّــى إذا حــلَّ بهَــا احتــواهَــا

ثمّ حَملتُ عليهِ وحملَ عليَّ، فاشتبكْنا، فكنتُ أضربُه أحْذَر منْ غُراب، ويضربُني أثقفَ منْ سِنّور، فوقعَ سيفهُ في قربوس سَرجي فقطعه وما تحتَه، حتى هجمَ علىٰ مسحِ الفرس، ثمّ ثنّى بضربةٍ أخرى فأخطأني، وقد زُغتُ لها راجلاً، فقلتُ: مَنْ أنتَ، فقال: أنا ربيعةُ بنُ مكدم. (الجليس الصالح ٣/ ١٣٨) و(قطوف الريحان ص ٥٩) بتصرف واختصار.

واستنزلني ، فنزلتُ عن فرسي ، فجزَّ ناصيتي وقال: انطلقْ فإنّي أنفسُ بك عن القَتْل ، فكان عندي يا أميرَ المؤمنين أشدَّ منَ الموتِ.

* ثمّ إنّي سألْتُ عن الفتىٰ فقيل: ربيعةُ بنُ مكدَّم ، فذلك أشجعُ مَنْ رأيتُ يا أميرَ المؤمنين.

* وهكذا ظهرتْ فروسيّةُ وجرأةُ ربيعةَ بن مكدَّم الذي احتقَرَه[1] وازْدَراهُ عمرو بن معدي كرب باديءَ الأَمْر ، ولمّا بلاه واختبَره ألفاهُ كحيّةِ بطْنِ الوادي ، وأمنعَ منْ نسرِ السّماء ، ولا يقدرُ على مواجهتِهِ.

حَـامِـي الـظَّعينَـةِ:

* في بطونها وبين جوانِحها تحتوي كتُبُ الأدبِ وتاريخه ، قصّةً شائِقة عن فروسيّة ربيعةَ بن مِكدَّم وعن يومِ الظَّعينةِ الذي أبلىٰ فيه بلاءً محموداً مذكوراً للدّفاع عن محارمهِ وعن زوجتِه ، وأردىٰ الأبطالَ الفُرسان وجعلهم كأَمْسِ الدَّابر ، فقد حماهنّ من دُريدِ بنِ الصِّمة الفارسِ الشَّاعرِ المشْهورِ في مَيادينِ المعاركِ والجلاد.

---

(١) قالوا: مِنَ الحزم أنْ لا يحتقرَ الرَّجل عدوَّه وإن كانَ ذليلاً ، ولا يغْفُل عنه وإن كانَ حقيراً؛ فكم منْ بُرغوث أسْهَرَ فِيلاً ، ومَنعَ الرّقاد مَلِكاً جليلاً.
ولله درُّ الشّاعر:

فــلا تحقــرنَّ عــدوّاً رمَــاك ... وإنْ كــانَ فــي ســاعــدَيْــه قِصَــرْ
فــإنَّ السُّيــوفَ تحــزُّ الــرِّقــاب ... وتعجــزُ عمّــا تنــالُ الإبــرْ

* ومنْ هنا أمرَ الإسلامُ الحنيفُ المسلمين أنْ يعدّوا ما قدروا عليه من العدّة والآلةِ والحيلة لنكايةِ العدوّ ، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].
والشّأنُ كلُّ الشّأن في استجادةِ القُوّاد ، وانتخابِ الأمراء ، وأصحابِ الألوية ، فقد قالتْ حكماءُ العجم: أسدٌ يقودُ ألفَ ثعلبٍ خيرٌ منْ ثعلبٍ يقودُ ألف أَسد.
(المستطرف ٢/ ٥٨)

* تقولُ القصَّةُ: خرجَ دريدُ بنُ الصِّمَّة[1] في فوارسَ منْ بني جُشَم، حتّى إذا كانُوا بوادٍ لبني كنانة يُقال له الأَخْرم، وهو يريدُ الغارةَ على بني كنانَةَ، رُفعَ له رجلٌ منْ ناحيةِ الوادي معه ظَعينةٌ، فلمَّا نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه: صِحْ بهِ أَنْ خَلِّ عنِ الظَّعينةِ وانج بنفسك، وهو لا يعرفُه، فانتهىٰ إليهِ الرَّجُل، فصاحَ بهِ، وألحَّ عليهِ، فلما أتى ألقىٰ الزِّمام، وقال للظَّعينة:

سِيري عَلى رسْلكِ سَيْرَ الآمِن ... سَيرَ رَدَاحٍ ذات جأْشٍ سَاكنِ

إِنَّ انثنائي دونَ قِرني شائِني ... وابلي بلائي واخبُري وعَايني

* ثم حملَ علىٰ الفارسِ فقتَلَه، وأخذَ فرسَه، فأعطَاهُ الظَّعينةَ، فبعثَ دريدٌ فارساً آخرَ لينظرَ ما صنعَ صاحبُه، فرآهُ صريعاً، فصاحَ بهِ، فتصامَمَ

(١) دُريدُ بنُ الصِّمة بن الحارث الجُشَمي من هوازنَ من الشّعراء المذكورين، قُتِل يومَ حُنين كافراً. قال الأصفهاني: ودريدُ بنُ الصّمة فارسٌ شجاعٌ شاعرٌ فَحْل، وجعله محمدُ بنُ سلام أوّل شعراءِ الفرسان، وقد كان أطولَ الفرسان الشّعراء غزواً، وأبعدهم أثراً، وأكثرهم ظفراً، وأيمنَهم نقيبةً عند العرب، وأشعرهم دريدُ بنُ الصّمة.
وقال أبو عبيدة: كانَ دريدُ بنُ الصّمة سيِّدَ بني جُشَم وفارسَهم وقائدهم، وكانَ مظفّراً ميمونَ النّقيبة، وغزا نحو مئة غزاةٍ ما أخفقَ في واحدةٍ منها، وأدركَ الإسلام فلمْ يسلمْ، وخرجَ مع قومه في يوم حُنين مظاهراً للمشركين، ولا فَضْل فيه للحرب، وإنّما أخرجوهُ تيمناً به وليقتبسوا من رأيهِ، فمنعهم مالكُ بنُ عوف من قَبُول مشورتِه، وخالفَه لئلا يكون له ذِكْر، فقُتِل دريدٌ يومئذ على شِركهِ.
وكان لدريد إخوة وهم: عبد الله، وعبد يغوث، وقيس، وخالد، وأمهم جميعاً ريحانة بنت معدي كرب الزبيدي أخت عمرو بن معدي كرب. وكان لدريد ابن يقال له سلمة وكان شاعراً، وابنة يقال لها عمرة وكانت شاعرة. هذا وأخبار لدريد مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ، وقد استوفى الأصفهاني معظمها في أغانيه.
(تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٨٤) ترجمة رقم (١٦٠) و(الأغاني ١٠/ ٥ ـ ٤٧) مع الجمع والتصرف.

عنه ، فظنَّ أنَّه لم يسمعْهُ ، فغشيَهُ فألقىٰ الزّمام إليها ، ثم حملَ علىٰ الفارسِ فطعنَه فصرعَه ، وهو يقول:

خَـلِّ سَبيـلَ الحُـرَّةِ المنيعـة　　إنّـك لاقٍ دونَهـا ربيعـة
فـي كفِّـهِ خطيّـةٌ مُطيعـة　　أَوْ لا فخـذْهَـا طعنـةً سـريعـة
فالطَّعنُ منّي في الوغىٰ شريعة

* فلمّا أبطأَ على دُريد بعثَ فارساً آخرَ لينظرَ ما صنَعَا ، فانتهى إليهما ، فرآهُما صَريعَيْن ، ونظرَ إليهِ يقودُ ظعينتَه ، ويجرِّرُ رمْحَه ، فقالَ له الفارسُ: خلِّ عن الظَّعينةِ.

فقال لها ربيعةُ: اقْصدي قَصْد البُيوت ، ثمَّ أقبلَ عَليه فقال:

مَـاذا تـريـدُ مـنْ شتيـمٍ عـابـس　　أَلَـمْ تَـرَ الفَـارِسَ بَعْـدَ الفـارِس
أرْدَاهُمـا عـامِـلُ رمْـحٍ يـابِـس

* ثم طعنَه فصرَعَه ، وانكسرَ رمحه ، فارتابَ دُريد ، وظنَّ أنَّهم أخذُوا الظَّعينةَ وقتلُوا الرَّجل ، فلحقَ بهم ، فوجدَ ربيعة لا رمْحَ معه ، وقد دنَا منَ الحيّ ، ووجدَ القومَ قد قُتِلوا ، فقال دُريد: أيُّها الفارسُ ، إنَّ مثلَك لا يُقْتَل وإنَّ الخيلَ ثائرةٌ بأصحابِها ، ولا أرىٰ معكَ رمحاً ، وأراكَ حديثَ السِّنِّ ، فدونَكَ هذا الرُّمح ، فإنّي راجعٌ إلىٰ أصحابي ، فمثبِّطٌ عنك ، فأتىٰ دريدٌ أصحابَه وقال: إنَّ فارسَ الظَّعينةِ قد حَماهَا ، وقتَلَ فوارسَكم ، وانتزعَ رمحي ، ولا طَمَعَ لكم فيه. فانصرفَ القومُ. وقال دُريدٌ في ذلك:

مَـا إنْ رأيـتُ ولا سمِعْـتُ بمثلـهِ　　حـامِـي الظَّعينـةِ فَـارسـاً لـمْ يُقْتَـلِ
أَرْدىٰ فـوارسَ لـمْ يكـونُـوا نُهْـزَةً　　ثـمَّ استمـرَّ كـأنَّـه لَـمْ يفْعَـلِ
مُتهلِّـلٌ تبـدو أسـرَّةُ وجهِـهِ　　مثْـلَ الحُسَـام جلَتْـهُ كـفُّ الصَّيْقَـلِ
يُـزجـي ظعينَتـه ويسحـبُ رمْحَـه　　متـوجِّهـاً يمنـاهُ نحـوَ المنـزِلِ
وترىٰ الفوارسَ منْ مخَافةِ رمْحِهِ　　مثلَ البُغاثِ خشِيْنَ وقْعَ الأجدلِ

يـا ليـتَ شعـري مَـنْ أبـوهُ وأمُّـه   يا صَاحِ مَنْ يكُ مثْلَه لم يُجْهَلِ[1]

* فقال ربيعةُ:

إنْ كـانَ ينْفَعُـك اليقيـنُ فَسَـائِلي   عنّـي الظَّعينـة يـومَ وادي الأَخـرمِ
هَـل هِـي لأوّل مَـنْ أتـاهَـا نُهْـزَةً   لـولا طعَـانُ ربيعـةَ بـنِ مكـدّم
إذْ قـالَ لـي أدنـىٰ الفـوارسِ ميتَـةً   خَـلِّ الظَّعينـة طـائعـاً لا تَنْـدمِ
فصَـرفـتُ رَاحِلـةَ الظَّعينـةِ نحـوه   عمـداً ليعلـمَ بعـضَ مـا لـمْ يعلَـمِ
وهتكتُ بالرُّمْحِ الطَّويلِ إهابَه   فَهـوىٰ صَـريعـاً لليـديـنِ وللفَـم
ومَنَحـتُ آخِـرَ بعـدَه جيّـاشـةً   نجـلاءَ فـاغـرةً كشـدْق الأَضْجَـمِ
ولقـد شفعْتُهمـا بـآخـر ثـالـثٍ   وأبىٰ الفرارَ ليَ الغداة تكرُّمي[2]

أَنـا جَـارَةٌ لَـهُ مِـنْكُـم:

* بلغَ من مكانةِ المرأةِ في العَصْر الجاهليّ أنَّها كانتْ تجيرُ كما يجيرُ الرِّجالُ، وكما يجيرُ الفُرسانَ والكبراءُ، وكانتْ تُقْبَلُ إجارتُها، ولا تُخْفَرُ ذِمَّتُها.

* فهذِهِ ريطةُ بنتُ جذلِ الطّعان ـ زوجُ ربيعة بن مكدَّم ـ قد أجارتْ

---

(١) انظر: ديوان دريد بن الصمة (ص ١٥١ و١٥٢)، والأغاني (١٦/ ٧٣ و٧٤)، والعقد الفريد (٥/ ١٧٠ ـ ١٧٢) والأمالي (٢/ ٢٧٢)، ولباب الآداب (من ٢١١)، والفروسية العربية في العصر الجاهلي (ص ١١٠ و١١١) وبلوغ الأرب (٢/ ١٣٦)، ونهاية الأرب (١٥/ ٣٧١)، وزهر الأكم (١/ ١٠٣)، وغيرها كثير. و«الظعينة»: المرأة، ويعني بحامي الظعينة ربيعة بن مكدم فارس بني كنانة. (الاشتقاق ص ٣١١)، و(مجمع الأمثال ١/ ٢٧٧)، و«نهزة»: الفرصة: يعني لا يتمكن منهم عدوهم إذ لا يلمس منهم غفلة. و«الصيقل»: شحاذ السيوف. «والبغاث»: الطيور الضعيفة. و«الأجدل»: الصقر.

(٢) الأغاني (١٦/ ٧٥)، والعقد الفريد (٥/ ١٧١ و١٧٢). و«الأضجم»: الذي في فمه عوج ومَيْل.

دريدَ بنَ الصِّمةَ عندما أسَرَه قومُها ، لأنَّه أعطاه رمْحَه يومَ أنْ حمى الظَّعينةَ ، وقُبلتْ إجارتُها ـ كما سنعرف بعد قليلٍ بإذن الله ـ.

* ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّه كانَ للمرأةِ دورٌ كبيرٌ في الحربِ في عَصْر الجاهليةِ ، لأنَّها رمزُ القوةِ المعنويّةِ ، يستلهمُها الرَّجلُ في ساعاتِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ ، فيستمدُّ عزماً من رؤيتها إلى جانِبه ، فتثورُ فيه الحميّةُ والحماسةُ والشَّجاعة ، وهذا ما فعلَه ربيعةُ بنُ مكدَّم يومَ أنْ حمىٰ الظَّعينةَ وفيها امرأتُه.

* وقد ذكرتِ المصادرُ لنا مواقعَ كثيرةٍ رافقتْ فيها النِّساءُ الرِّجالَ إلىٰ ميادينِ القتالِ ، حتى إذا ما رأَيْنَ دائرةَ الحربِ أوشكتْ أنْ تدورَ على رجالِهنّ ، حَسَرْنَ البراقعَ ، وكشفْنَ الشُّعور ، وبرزنَ إلى المعمعةِ ، يستثرن حميَّة الرِّجال ، ويدفعْنَهم إلىٰ حمايتهنَّ من السَّبي وهوانِهِ. ولقد عبَّر عمرو بنُ كلثوم عن هذا في معلّقته الشَّهيرة حينما قال:

علىٰ آثارِنا بِيْضٌ كِرامٌ	نُحاذرُ أنْ تفارِقَ أو تَهونا
أَخَذْنَ علىٰ بعولتِهنَّ عَهْداً	إذا لاقُوا فَوارِسَ مُعلمِيْنَا
إِذَا ما رُحنا يمشينَ الهُوينى	كَما اضطَرَبَتْ مُتونُ الشَّاربينا
يقُتْنَ جيادنا ويقُلْنَ لَسْتُم	بعولَتَنا إذا لمْ تمنَعُونَا
إذا لمْ نحمِهنَّ فلا بقَيْنَا	لشيءٍ بعدهُنَّ ولا حَيِيْنَا
ومَا منعَ الظَّعائِنَ مثلُ ضَربٍ	تُرىٰ منه السَّواعد كالقلينا[1]

(١) انظر: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها (ص ١٠٦ و١٠٧) ومعنى «على آثارنا . . . أو تهونا»: نساؤُنا خلفنَا نقاتلُ عنهنّ ونحذرُ أنْ نفارقهنَّ أو يصرنَ إلى غيرنا ويقعَ عليهن الذّلَّ أو الهوان. و«البعول»: جمع بَعْل وهو الزّوج ، وأصلُه في اللغة ما علا وارتفعَ. و«يقُتن»: منَ القوت ، وكانوا لا يرضون للقيام على الخيل إلا بأهليهم إشفاقاً عليها ، ويقلنَ أنتم لستم لنا أزواجاً إنْ لم تدافعوا عنّا. و«القلون»: جمع قلّة ، وهي الخشبةُ التي يلعب بها الصبيان.

* وإذا كانَ إكبارُ الشَّجاعةِ ، واحترامُ مظاهرِ الفروسيّةِ يستحقّانِ الإعجابَ والتَّقدير من سائرِ النَّاس ، فإنَّ إعجابَ المرأةِ بهما أشدّ ، وتقديرها لهما أعظم ، لحاجتِها الماسّة إلىٰ مَنْ يقومُ على شُؤونها ويعولها ويدفعُ ويدافعُ عنها في كلِّ الظُّروفِ والأوقاتِ.

* وكانت حمايةُ المرأةِ وصيانتُها جُزءاً من الخطَّةِ الحربيّةِ عند فرسانِ العرب ، فالفارسُ العربيُّ يناضلُ حتّى آخر نَفَسٍ فيه وهو يذبُّ عن نسائِهِ ، بل إنَّ النِّساءَ كُنَّ يُثِرْنَ الحماسَ في نفوسِ الفُرسان ، فيدفعْنَهم دفعاً إلى البسَالةِ والاستماتَةِ في سبيلهنَّ ، ويخوضون غِمارَ الحروبِ غير مباليْنَ وقعُوا على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليهم ، اسمعْ إلى عمرو بنِ معدي كرب يقولُ عن هذا:

لمَّـــا رأيــــتُ نِســـاءَنـــا	يفْحَصْــنَ بِــالمعْــزَاءِ شَــدّا[1]
وَبَـــدتْ لميـــسُ كـــأنَّهـــا	بـــدرُ السَّمـــاء إذا تبـــدّىٰ
نَـــازَلْـــتُ كبشَهـــم ولـــمْ	أرَ مِـــنْ نـــزالِ الكَبـــشِ بُـــدّا

* فالمرأةُ كانتْ تثيرُ الهممَ في نفوسِ الرّجال ، وتحرّضُهم علىٰ القتالِ ، وكانتْ بعضُ النّسوةِ يشتركنَ في الحربِ فعلاً ـ كما سنقرأُ في سِيَر بعضهنَّ في هذا الكتابِ ـ ويذكرُ الرُّواةُ أنَّ لقيطَ بنَ زرارة كان يصحبُ ابنتَه دختنوس في غَزَواتِه ، وكانتِ النِّساءُ يحملنْ القتلىٰ بعد انتهاءِ المعارك.

* وهكذا امتازتِ المرأةُ العربيّةُ في عَصْرِ الجاهليّةِ بأنَّها سيّدةٌ حافظتْ

---

(١) انظر: حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي (١/ ١٧٧). و«المعزاء»: الأرض الحزنة ذات الحجارة ، ومعناه يؤثرن لشدّة العدو في المعزاء. ومعنى «وبدت لميس»: أي برزتْ هذه المرأة كاشفةً عن وجهها سافرة. و«كبشهم»: كبش الكتيبة: رئيسها.

علىٰ إبائِها ومكانتها ، وعرفَ لها قومُها هذه المكانةَ فأصاخُوا لقولها ، ورضوا إجارتَها للرِّجال .

* تقصُّ علينا كتبُ الأخبارِ والنَّوادر والأسمارِ أنَّ بني مالك بنِ كنانة قومِ ربيعةَ بنِ مكدَّم قد أغارُوا ذاتَ مرّةٍ على بني جُشَم قومِ دُريد بنِ الصِّمة ، فقتلُوا منهم كثيراً ، وأسَرُوا ، وغنموا ، وأَسروا دريدَ بنَ الصِّمة ، فأخفى نسبَه عنهم لكيلا يطمعُوا فيهِ ويغالُوا في فَكَاكِهِ .

* وبينما هو عندهم محبوسٌ والأغلالُ في يدَيْهِ ورجلَيْه ، إذ جاء نسوةٌ يتهادينَ إليهِ ، ولما رأينْه صرخَتْ امرأةٌ منهنَّ فقالت : ويحكُم ، هلكتُم وأهلكْتُم ، ماذا جرَّ علينا قومُنا ؟! بل ماذا جرَّ علينا مُخارقُ ـ الذي أسَرَ دُريداً ـ ؟

فقلْنَ لها : ويحكِ ، ما الذي دَهاك يا ريطةُ؟

قالتْ : يا صُويحباتي ، هذا واللهِ الذي أعطىٰ زوجي ربيعةَ بنَ مكدّم رمْحَه يومَ الظَّعينة .

ثمَّ إنَّ ريطةَ أَلْقَتْ عليهِ ثوبَها ونادتْ بأعلىٰ صوتها : يا آل فِراس ، يا آلِ فِراس ، أنا جَارَةٌ له منكم ، هذا صاحبُنا يومَ الوادي .

* هنالكَ تبادرَ القومُ وأقبلُوا نحوه مسرعينَ ، ومن ثمَّ سألُوه : مَنْ هو؟!

فقال : أنا دريدُ بنُ الصِّمة ، فَمَنْ صاحِبي يومَ الظَّعينة؟!

قالوا : صاحبُك فتى الفُرسان وفارسُ الفتيانِ ربيعةُ بنُ مكدم .

قال : فما فعل؟

قالوا : قتلتْه بنو سُليم .

قال : فمنِ الظَّعينةُ التي كانَتْ معه وما فعلَتْ؟!

قالتِ المرأةُ: أنا هي، وأنا امرأتُه ريطةُ بنتُ جذل الطّعان.

* فحبسهُ القومُ، وآمروا أنفسَهم، وائتمروا بينَهم، ثمَّ قالَ بعضُهم لبعضٍ: لا ينبغي أنْ تُكْفَر نعمةُ دريدٍ على صاحبنا. وقال بعضُهم: واللهِ لا يخرجُ منْ أيدينا إلاّ المُخارقُ الذي أسَرَهُ.

* وانبعثتِ المرأةُ في الليلِ ـ وهي ريطةُ بنتُ جذل الطّعان ـ تقولُ:

سَنَجزي دُريداً عَنْ ربيعةَ نعمةً ... وكُلّ فتىً يُجزىٰ بما كانَ قدَّما
فَإنْ كانَ خيراً كانَ خَيْراً جزاؤُه ... وَإنْ كانَ شرّاً كانَ شرّاً مذمّما
سَنَجْزيهِ نُعمىٰ لمْ تكنْ بصغيرةٍ ... بإعْطَائِهِ الرُّمحَ السَّديدَ المقوَّما
فقد أدركَتْ كفَّاهُ فيْنَا جَزَاءَه ... وأهْلٌ بأنْ يُجْزىٰ الذي كَان أنعَما
فلا تكْفُروهُ حقَّ نعْمَاهُ فيكمُ ... ولا تركبُوا تلكَ التي تملأُ الفَما
فلو كَان حيّاً لمْ يضقْ بثوابِهِ ... ذِرَاعاً غنيّاً كانَ أو كَانَ مُعْدَمَا
ففكّوا دُريداً منْ إسارِ مُخارقٍ ... ولا تجعلُوا البُؤْسىٰ إلى الشَّرِّ سُلّما

* وأصبحَ القومُ، وتعاونوا بينهم، وأطلقُوا دريداً، ثم إنَّ ريطة كَسَتْه كسوةً حسنَةً وجهَّزَتْه، ولحقَ بقومه، ولم يزلْ كافّاً عن غزوِ بنِي فِراس حتّى هَلَك(١).

* ومنَ الملاحظِ أنَّ ريطةَ بنتَ جذل الطِّعان هذه قد ظلَّتْ وفيةً للوفاءِ، ولزوجِها ربيعةَ بنِ مكدّم، ولدُريد بن الصِّمة، وإنَّ أبياتها تنبعثُ من عاطفةٍ صادقةٍ، وقلبٍ وفيّ، فلقد أحبَّتْ أن تردَّ الجميلَ لمن صنعَ معها المعروفَ ومع زوجِها، وهذا ليسَ بعجيبٍ في عَالَمِ النِّساءِ العربيّاتِ والعربِ الأقحاحِ، فالعربُ معدنُ الفَضْلِ، وجوهرُ الكرمِ، وينبوعُ

---

(١) انظر: الأغاني (١٦/ ٧٥ و٧٦) بشيء من التصرف. وانظر: أيام العرب (ص ٣١٧)، وقطوف من الريحان (ص ٦١) وغير ذلك.

الخيرِ ، ومنجمُ الإحسانِ وردُّ الجميلِ ، وقلما تجدُ عند بعضِهم مَنْ يجحدُ النِّعمةَ ، أو ينكرُ الجميلَ ، أو يتنكَّرُ للفَضْل والإفضالِ. لذلك نلمحُ أنَّ بني فِراس أكرمُوا دُريداً وأطلقُوه من إسارِه[1] ، ولم يهملُوه ، وردُّوه إلى قومِه عزيزَ الجانبِ ، محفوظَ المكانةِ.

مَقْتَلُ البَطَلِ:

* ذكرَ الأصفهانيُّ أنَّ ربيعةَ بنَ مُكدَّم كانَ أحدَ فرسانِ مُضَرَ المعدودين ، وشجعانهم المذكورين المشهورين.

* ولكنْ مع هذه البسالةِ والقوّةِ لم يعشْ ربيعةُ طويلاً ، فقد ماتَ وهو

---

(١) منْ مناقبِ العرب وفضائِلهم أنّه كانَ إهمالُ الأسيرِ عندهم عاراً كبيراً ، وسُبّةَ لا يرضونَها. يُروى أنَّه في يومِ «نَعف قُشَاوة» ، أسرَ بِسْطامُ بنُ قيس الشّيبانيّ أبا مُليل ، فلمّا صارَ في يدي بِسْطام قالَ له: يا أبا مُليل ، إنّي لم آخذْكَ لأقتلك قال: قد قتلتَ ابني ، ووددتُ أنّي مكانَه وأسرتَني وابني مُليلاً ، أما إنَّ طعامَك عليَّ حرامٌ ما دمتُ في يدِك.
فكانَ أبو مُليل يُؤْتَى بالطَّعام ، فيبيتُ يطردُ عنه الكلاب ، مخافَةَ أنْ تأكلَه فيظنّوا أنّه أكلَه هو ، حتى جَهِدَ ، فلما رأوا جهده ، قال بشرُ بنُ قيَس لأخيه بِسْطام: إنّي لا آمنُ أنْ يموتَ أسيرُك هذا في يدِك هُزالاً ، فتسبُّك به العربُ ، فَبِعْه نَفْسه.
وكانَ في النِّهاية أنْ خلاَّهِ بسطامُ بنُ قيس بغيرِ فداء ، وذهبَ أبو مُليل وأتى قومه ، وأخبرهم خبرَه مع بِسطام. (أيّام العرب قبل الإسلام ص ٣٥٤ ـ ٣٥٩) بتصرف واختصار. ـ وممّا يُروىٰ عن ترفّع العربِ عن تعذيبِ الأسير والتّمثيل به ، أنَّ عمروَ بنَ كلثوم لما أسرَه يزيدُ بنُ عمرو ، قال له: أنتَ القائل:
متى نعقِد قرينتنا بحبلٍ نجدّ الحبلَ أو نَقْض القَرينا؟!
أمَا إنّي سأقرنُك إلى ناقتي هذه فأطردُكُما جميعاً. فنادىٰ عمروُ بنُ كُلثوم: يا لَربيعة أمُثْلَة؟ فاجتمعتْ بنو لُجيم فنهوه ، ثم سارَ بهِ إلى بعضِ قصورهم بِحَجَر وضربَ عليه قبّة ، ونحرَ له وكسَاه ، وحمله على نجيبةٍ ، وبالغَ في إكرامه ، فقال عمرو مادحاً:
جزىٰ اللهُ الأغرَّ يزيدَ خيراً ولقّاهُ المسرّةَ والجمالا

في ريعَانِ الشَّبابِ؛ ولموتِه قصَّةٌ منْ أجملِ قَصَصِ البطولةِ والفروسيّةِ التي وصلتْ إلينا عن فرسانِ العربِ في العَصْرِ الجاهليّ ، حيثُ ماتَ ربيعة يومَ الكُديد[1] قَتَله نُبيشةُ بنُ حبيب السُّلمي ، أو كانَ السَّببَ في موته .

* ونحنُ مرسلو القولَ في قصّةِ موتِ ربيعة ومقتله ، حيثُ فيها كثيرٌ منْ ألوانِ البطولةِ الحقّةِ ، والشَّجاعةِ الفريدةِ ، والهيبةِ التي لا تُضَارَع .

* تقول القصَّة: وقعَ نزاعٌ وخصومةٌ واختلافٌ بينَ جماعةٍ من بني سُليم بنِ منصور؛ وبينَ نَفَرٍ من بني فِراس بنِ مالك بن كنانة ، فقتلَتْ بنو كنانة رجلَيْن من بني سُليم ، ثمَّ إنَّهم أعطوا لهم ديّتهما ، وكفَّ النَّزاع مدَّةً منَ الزَّمن ، ثم ضربَ الدَّهر ضربَاتِه .

* وفي يومٍ منَ الأيَّامِ ، خرجَ نبيشةُ بنُ حبيب السُّلميّ غازياً ومعه جماعةٌ من بني سُليم ، فلقيَ ظعائنَ من بني كنانة بالكُديد؛ وبَصُرَ بهم نَفَرٌ من بني فِراس بنِ مالك ، فيهم عبد اللهُ بنُ جذلِ الطِّعان بن فراس ، والحارثُ بنُ مكدَّم أبو الفارعة أخو ربيعة بن مكدّم ، وكان ربيعةُ يومئذٍ مريضاً مجدوراً يُحْمَلُ في محفَّةٍ ، فلمّا رآهم أبو الفَارعة قال: هؤلاء بنو سُليم يطلبونَ دماءَهم .

* فلمّا سمعَ ربيعةُ من أخيهِ أبي الفارعة ذلك ، غالبَ ضعْفَه ومرضَه ، ثمّ امتطىٰ صهوةَ جوادِه وقال: أنا أذهبُ حتى أعلمَ عِلْمَ القومِ ، فآتيكم بخبرهم .

* ثمَّ إنَّ ربيعةَ توجَّه نحو بني سُلَيم ، ولمّا ولّى قال بعضُ الظَّعْنِ: هربَ ربيعةُ وهابَ أسبابَ المنايا .

---

(١) «الكديد»: موضعٌ بالحجاز. ويومُ الكُديد: من أيّام العربِ المشهورةِ في العصرِ الجاهليّ. وهو موضعٌ على اثنينِ وأربعينَ ميلاً من مكةَ.

وسمعتْ هذه المقولةَ أختُه أمُّ عزَّةَ بنتُ مكدَّم فقالتْ: أينَ تنتهي نَفْرةُ[1] الفَتى؟ فعطفَ ربيعةُ وقد سمع قول النِّساء ، وقال:

لقـدْ علمْـنَ أنّنـي غيـرُ فَـرِقْ | لأطعُنَـنْ طعْنَـةً وأعتنِـقْ
أُعْمِلُ فيهم حينَ تحمرُّ الحَدقْ | عَضْباً حُسَاماً وسِنَاناً يأْتلِقْ

* ثمَّ انطلقَ ربيعةُ يعدو به فرسُه ، فحملَ بعضُ فرسانِ بني سُليم ، فاستطردَ له ربيعةُ في طريقِ الظَّعْنِ ، وانفردَ به رجلٌ منَ القومِ ، ثم عطفَ عليه ربيعةُ ، وشكَّهُ بالرُّمْحِ فأرداهُ قتيلاً ، ثمَّ إنَّ فارسَ بني سُليم نُبيشةُ رماهُ بسَهمٍ ، فأصابَه في عضدِه ، فارتدَّ ربيعةُ إلى الظَّعن يستدمي حتى أتى إلى أمِّه[2] ، وكانتْ معهم في الرَّحلِ ، فقال لها: يا أمّاه اجعلي على يدي عصابة ، وهو يرتجزُ ويقولُ:

شُـدّي عَلـيَّ العَصْـب أمَّ سيـارْ | لقـد رُزِيـتِ فـارسـاً كـالـدّينـارْ
يطعـنُ بـالـرّمـحِ أمـامَ الأَدْبـار

فقالت أمُّه:

إنّـا بنـو ثَعْلبـةَ بـن مـالـكْ | مـرزَؤُو خيـارِنـا كَـذلـكْ
مِـنْ بيـن مقْتُـولٍ وبيـن هـالـكْ | ولا يكُـونُ الـرُّزءُ إلاَّ ذلـكْ

* وشدَّتْ أمُّه عليهِ عصَابةً ، وشعرَ ربيعةُ بالعَطَشِ ، فاستسقاها ماءً ، ولكنَّ أُمّه قالتْ له: يا بنيّ إنْ شربت الماءُ مُتَّ؛ فكُرَّ علىٰ القومِ ، فإنَّ الماءَ لا يفوتُك.

* فكرَّ راجعاً يشدُّ علىٰ القومِ ودمُه ينزفُ حتى كشَفَهم وردَّهُم عن

---

(١) «النفرة»: الجماعة.

(٢) أمُّ ربيعةَ بن مكدم ، كنيتُها أمُّ سيّار ، اشتهرتْ بحادثةِ ولدها ربيعةَ بن مكدم ، لما أُصيبَ بسَهْمٍ وهو يحمي الظَّعنَ وفيهنَّ أمّه ، فشدَّت علىٰ جرحهِ عصابة ، فكرَّ راجعاً يقاتلُ ، والجرحُ ينزفُ حتّى مات وهو متكىءٌ على رمحهِ.

الظَّعائن ، ودمُه ما يزالُ ينزفُ حتى أثخنَ ، ثمَّ رجع فقال للظَّعْنِ : أسرعْنَ إلىٰ أدنى البيوتِ في الحيّ ، وإنّي لما بي ، سوفَ أقفُ دونكُنَّ لهم على العقبةِ ، وأعتمدُ علىٰ رمحي ، فإنْ فاضَتْ رُوحي كان الرُّمح عمادي ، وهم لا يجرؤون أنْ يقدُمُوا عليكنَّ لمكاني ، أو ما دمتُ واقفاً لأنَّ هيبَتي وقعتْ في نفوسهم .

* وأسرعتِ الظَّعائنُ ، فوصلتْ إلى الحيّ آمناتٍ من خطرِ بني سُليم ، وهربَ الرِّجالُ في إثرهنَّ ، وربيعةُ بنُ مكدَّم واقفٌ إزاءَ أعدائه علىٰ جوادِه معتمداً على رمْحِهِ ، والدَّمُ يسيلُ من جرحِهِ حتى لفظَ آخرَ أنفاسِه ، وبنو سُليم واقفون وهم يخشون أنْ يقدموا في إثرِ الظَّعائِنِ ، ولا يجرؤونَ على الدُّنو منه .

* ولما طالَ منهم ذلك قالَ نُبيشة بنُ حبيب : إنّي أرىٰ ربيعةَ بنَ مكدَّم مائلَ العُنقِ ، وما أظنُّه إلا قد ماتَ .

* ثمَّ إنَّه أمرَ فارساً منْ خُزاعةَ كان معه أنْ يرميَ فرسَ ربيعة ، فرمَاهَا فقمصَتْ وزالَتْ ، فمالَ عنها ميتاً ، وخرَّ علىٰ وجههِ ، وأسرعتِ الفُرسانُ وراءَ الظَّعنِ فلم يدركوهُنَّ ، وإنّما أدركوا أخاهُ الحارثَ بنَ مكدَّم أبا الفارعة فقتلُوه ، ثمَّ رجعُوا إلى ربيعةَ ، فأهالوا الحجارةَ على جثَّتِهِ ، وأصبحَ ذلك المكانُ قبراً له ، وكان مصرعُ ربيعةَ حوالي عام (٦٢) قبل الهِجْرة[١] .

* وبهذا أصبحَ ربيعةُ مضربَ المثلِ فقيل : أحمىٰ من مُجير الظَّعنِ[٢] ،

---

(١) انظر : الأغاني (١٦/ ٦٤ ـ ٦٦) ، وجمهرة الأمثال (١/ ٣٣٠) مع الجمع والتصرف . وقال أبو هلال العسكري عن دفْنِ ربيعة : مرَّ به حفصُ بنُ أحنف والكنانيّ فوارَاه . (جمهرة الأمثال ١/ ٣٣١) .

(٢) انظر : جمهرة الأمثال (١/ ٣٣٠) برقم (٦٨٩) ، ومجمع الأمثال للميداني (١/ ١٤٩) ، والمستقصى للزمخشري (ص ٣٩) .

قال أبو عُبيدة: قال أبو عمرو بن العَلاء: ولا نعلمُ قَتيلاً ولا ميتاً حمىٰ ظعائِنَ غيره[1]. أو قال: ما نعلمُ قتيلاً ميتاً حمى ظعائن غير ربيعة[2].

* ويذكرُ العسكريُّ في «جمهرتهِ» أنَّ الذي قَتلَ ربيعةَ هو أهبانُ بنُ كعْب فقالَ: والصَّحيحُ أنَّ الذي طعَنَ ربيعَة أهْبانُ بن كعب بنِ أميّة بن يقظةَ مُكَلِّم الذِّئب، فقتَلَه، وجاءَ بفرسِهِ وسلاحِه، فوهبَه لنُبيشةَ بنِ حبيب السُّلمي وقال:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ ربيعةَ بنَ مُكَدَّم ... يومَ الكُديدِ فخرَّ غَيْرَ مُوسَّدِ
ولقَدْ وهَبْتُ جَوَادَه وسلاحَه ... لأَخي نُبيشَة قبل يَوْمِ الحُسَّدِ[3]

رَبيْعَةُ في ذَاكِرَةِ التَّاريخِ:

* ظلَّ ربيعةُ بنُ مكدَّم رمزَ الفروسيّةِ والبَسالةِ، وكان فرسانُ العربِ وشجعانُهم يمرّونَ به معجبين، يحيّون حامي الظَّعينة حيّاً وميتاً، بل لقد أصبحَ ربيعةُ مَثلاً أعلى للفروسيّةِ الجاهليّة التي تضحّي بأغلىٰ ما تملكُ، لتحميَ المرأةَ من التَّردّي في الأسْرِ، وهو أشدُّ عارٍ تخافُ منه القبيلةُ العربيةُ.

* وقد مدحه كثيرٌ منَ الشُّعراءِ، وعيّروا أهلَه ممن هربُوا وتركوهُ وحْدَه

---

(١) الأغاني (١٦/ ٦٦).

(٢) البرصان والعرجان (ص ٣٩٤). وقال الجاحظُ معلّقاً على هذا القولِ تعليقاً نفيساً يحْسُنُ بنا أنْ نوردَه لأهميته: ولو كانَ الأمرُ كما قالُوا لما كان للتي خصَّ اللهُ بها سليمانَ بنَ داود ـ عليهما السَّلام ـ فضيلةٌ على حالِ ربيعةَ بن مكدَّم. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، فهذا إنّما كانَ شيئاً خصَّ اللهُ به سليمانَ ـ عليه السلام ـ وهو منْ علاماتِ النَّبيين، وبرهانات المُرسلين. (البرصان والعرجان ص ٣٩٤ و٣٩٥)

(٣) جمهرة الأمثال (١/ ٣٣١).

يقاتِلُ فرسانَ بني سُليم ، وقد مرَّ به رجلٌ من بني الحارثِ بنِ فِهْر ، فنفرتْ ناقتُه منْ تلك الأحجارِ التي أُهيلَتْ على ربيعةَ ، فقال يرثيهِ ويعتذرُ ألا يكونَ عقرَ ناقَته علىٰ قبرِه ، وحضَّ على قَتَلَتِهِ ، وعيَّر مَنْ فَرَّ وأسْلَمه منْ قومِه؛ يقولُ منْ أبياتٍ:

نَفَرتْ قُلوصي مِنْ حِجَارةِ حَرَّةٍ | بُنِيَتْ علىٰ طَلْقِ اليدَيْن وَهُوبِ

لا تنْفري يَا نَاقُ مِنْه فإنَّه | سَبَّاءُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحروبِ

لولاَ السِّفارُ وبعْدُ خَرقٍ مَهْمَهٍ | لتركْتُها تحبو علىٰ العُرقُوبِ

فَرَّ الفوارسُ عن ربيعةَ بَعْدَما | نجّاهُمُ منْ غمّةِ المكْرُوبِ

يدعو عَليّاً حين أسلمَ ظهرُه | فلَقَدْ دَعَوتَ هناكَ غير مجيبِ

لا يبعدنَّ ربيعةَ بنَ مكدّم | وسقىٰ الغوادي قبرَهُ بذَنُوبِ[1]

* وقال عبدُ الله بنُ جذْلِ الطّعان:

لأطلُبنْ بربيعةَ بنِ مكدَّم | حتّى أنَالَ عصيةَ بنَ مَعِيصِ

وتقادُ كُلّ طِمِرّةٍ محموصةٍ | ومقلّص عَبْل الشَّوى ممحوصِ[2]

* وقال ابنُ جذل الطّعان أيضاً:

أَلا لله درُّ بني فِراسٍ | لَقَدْ أُورثتُمُ حُزناً وجيْعَا

فَلَنْ أنْسَى ربيعةَ إذْ تعالىٰ | بكُاءُ الظُّعْنِ تدعو يا ربيْعا[3]

* وقالَ أيضاً يرثيهِ من قصيدةٍ منها:

---

(١) انظر: الأغاني (١٦/ ٦٧) ، وجمهرة الأمثال (١/ ٣٣١).

(٢) الأغاني (١٦/ ٦٨) ، «وعصية»: هو عصية بن معيص بن عامر بن لؤي من بني سليم. «والطمرّة»: الفرس الطويلة القوائم الخفيفة المستعدة للعدو. و«الممحوصة»: القليلة لحم القوائم. و«المقلص»: الحصان الطويل القوائم المنضم البطن. و«عبل الشوى»: ضم الأطراف.

(٣) الأغاني (١٦/ ٦٩).

خَلَّـى علـيَّ ربيعـةُ بـنُ مكـدَّم حـزنـاً يكـادُ لـه الفـؤادُ يـزولُ
فـإذَا ذكَـرْتُ ربيعـةَ بـنَ مكـدَّم ظلَّـتْ لـذكْـرَاهُ الـدُّمـوعُ تسيـلُ
سَقَـتِ الغَـوادي بـالكُـديِّـدِ رِمّـةً والنَّـاسُ إمّـا هـالـكٌ وقتيـلُ
فـإذا لَقيْـتَ ربيعـةَ بـنَ مكـدَّم فَعَلـىٰ ربيعَـة مـنْ نـداهُ قبـولُ
يـأبـىٰ لـيَ اللهُ المـذَلّـة إنَّمـا يُعطـىٰ المـذلّـةَ عـاجـزٌ تنبيـلُ[1]

* ولعبد اللهِ بن جذل الطّعان مراثٍ أخرىٰ كثيرة في صِهْره فارس الفتيانِ ربيعةَ بنِ مكدّم ، لم نذكرْها في هذا الميدانِ ، لأنَّ ما ذكرناه من مراثيه يشفي الغلّة .

* وممن رثىٰ ربيعةَ بن مكدّم كعبُ بنُ زهير بن أبي سلمىٰ المازني ، فقال من نونيّة منها :

بَـانَ الشَّبـابُ وكُـلُّ إلـفٍ بـائِـنٍ ظَعنَ الشَّبابُ مع الخليطِ الظَّاعِنِ
قالَتْ أُميمةُ ما لِجسْمِكِ شَاحِباً وأراكَ ذَا بـثٍّ ولَسْـتَ بـدائـنِ

ومنها :

كيـفَ الحيـاةُ ربيعـةَ بـن مكـدَّم يُغْـدَى عليـكَ بمـزهـرٍ أو قـائِـنِ[2]

* وقد رثىٰ ربيعةَ بنَ مكدَّم أختُه أمُّ عمرو بنتُ مكدَّم بقصيدةٍ قافيّةٍ جميلةٍ تقطُر أسىً ، وتحملُ بين قوافيها التَّفجُّعَ والحزنَ ، وتصفُ عواطفَها المتأجّجة ، وحزنها الطَّويلَ فتقول :

ما بالُ عينكِ منها الدَّمْعُ مُهراقِ سحّـاً فـلا عـازبٌ عنْهـا ولا راقِ
أبكي علىٰ هالكٍ أودىٰ وأورثَني بَعْـدَ التَّفـرُّق حـزنـاً حـرُّه بـاقـي

(١) الأغاني (١٦/ ٧١) و«التنبيل» : القصير العاجز .
(٢) الأغاني (١٦/ ٦٩ و٧٠) ، و«المزهر» : العود؛ و«القائن» : صاحب القيان ومدرّبهنّ .

لو كَانَ يَرجعُ ميتاً وجْدُ ذي رحمٍ ... أبقىٰ أخي سالماً وجْدي وإشْفَاقي
أو كانَ يُفدىٰ لكانَ الأهلُ كلُّهمُ ... ومَا أُثَمِّرُ منْ مالٍ لهُ واقي
لكنْ سهامُ المنايا مَنْ نُصبْنَ له ... لم ينْجِه طبُّ ذي طبٍّ ولا راقي
فاذهبْ فلا يبعدنْكَ اللهُ منْ رجلٍ ... لاقىٰ الذي كلُّ حيٍّ مثلَه لاقي
فسوفَ أبكيك ما ناحتْ مطوّقَةٌ ... وما سريتُ مع السَّاري على ساقِ
أبكي لذكْرتهِ عَبْرىٰ مفجَّعة ... وما إن يجفُّ لها مِنْ ذكْرهِ ماقي[1]

* وهكذا طوىٰ التَّاريخ صفحةَ فارسٍ منْ فرسانِ التّاريخ ، له أثرٌ في التَّاريخ ، حتى قالوا: كانَ يُعْقَرُ على قبرهِ في الجاهليَّة ، ولم يُعْقَرْ على قبرِ أحدٍ غيرهُ[2] .

* * *

(١) بلاغات النساء (ص ٢٤٨) طبعة الكويت. و(ص ١٧٧) طبعة مصر.
(٢) العقد الفريد (١/ ١١٦) ، والأمالي (٢/ ٢٧٠).




عُروة بنُ الوَرد

* شاعر جاهلي، وفارس مشهور، وجواد مُقدَّم.
* يُلقب «عروة الصعاليك» و«أبا الصعاليك» و«أبا نجدة».
* وصَفَتْهُ زوجتُه بقولها: واللهِ؛ إنك ما علمتُ لضحوكٌ مقبلاً، كَسُوبٌ مدبراً، خفيفٌ على متن الفرس، ثقيلٌ على العدو، طويل العماد، كثير الرماد، راضي الأهل والجانب.




فـي رِحَـابِ فُـرسَـان الـصَّعَـالـيْـكِ :

* اشتُهِرَ كثيرٌ منَ العربِ في الجاهليّةِ بالصَّعلكةِ[١] ، ولعلَّ الحالةَ الاجتماعيّة في جزيرةِ العربِ قد أنتجتْ هذه الصَّعلكة ، لأنَّ بعضَهم كانَ من الفُقراء ، وقد لا يجدونَ ما يأكُلون أحياناً ، وإذا ما حصلُوا على شيءٍ منْ غارةٍ أو نحوها ، فرئيسُ القبيلةِ له نصيبٌ أوفىٰ منها ، وهم لا يأكلونَ إلا الفُتَات ، واشتُهِرَ هؤلاء باسمِ الصَّعاليك .

* والصَّعاليكُ جماعاتٌ منَ الفتيانِ الشُّجعانِ الذين انتشروا في أنحاءِ الجزيرةِ العربيّة ، يُغيرونَ ويغنمون ، ومن ثمَّ يأْوونَ إلىٰ شعابِ الجبالِ ، وإلى الكهوفِ والوديانِ ينتهزونَ الفرصةَ فلا تفلتُ منهم ، وينقضُّون في بسالةٍ ، وحماسةٍ على ضحاياهُم ، فتعرَّضُوا في هذه الحياةِ لألوانٍ من رخاءِ العيش إنْ غنموا ، ولألوانٍ منَ الشَّظفِ ومن التَّقشُّفِ إنْ لم يجدوا مَنْ يغيرونَ عليهِ؛ ولعلَّ حالَهم كانتْ أقربُ إلى الحرمانِ والقسوةِ منها إلى العطاء والرّضا .

* يقولُ أبو زيدٍ القُرشيُّ عن جماعةِ الصَّعاليكِ : الصُّعْلوكُ الفقيرُ ، وهو أيضاً المتفرِّدُ للغاراتِ ، والفَاكِل اللاعِبُ والمُتَحرِّز[٢] .

* وكأنَّ أبا زيدٍ القُرشيّ يقصدُ بالتَّحرُّزِ تلكم اليقظةَ واتخاذ الأهبةِ وشدّةِ الحذرِ وغيرِ ذلك من صفاتٍ ، ينبغي أنْ يتسلَّحَ بها كلُّ مَنْ سَلكَ طريقَ الصَّعْلكة .

* وللصَّعاليكِ موقفٌ حاسِمٌ من قبائِلهم ، فهم خارجونَ عليها ،

---

(١) الصعلكة : الصعلوك الفقير الذي لا مال له . (لسان العرب) مادة صعلك .

(٢) جمهرةُ أشعارِ العَربِ (ص ٥٦٥) .

خالعونَ الولاءَ لها؛ ولعلَّ قبائِلَهم نفسَها قد لجأتْ إلى طردِ شذّادِها، فجمعَهم التَّشرُّد، وألَّفتْ بينهم الحياةُ القاسيةُ، حتّى غدوا شيئاً مذكوراً في المجتمعِ الجاهليّ، وغدا جانبهم مرهوباً بعضَ الأحايين.

* ويمكننا أنْ نقولَ: إنَّ حياةَ هؤلاءِ الصَّعاليكِ قد ربَّتْ عندهم عصبيّة خاصّةً بهم، إذْ تنكَّروا للعصبيّة القبليّة، واعتزّوا بشخصيّاتهم داخلَ الصَّعلكةِ التي تعني الفتوةَ والشَّجاعةَ والتّماسكَ عند الشِّدَّةِ، والتَّمرُّدَ الذي يحمل دعوةً اجتماعيّةً صامتةً عبَّرتْ عنها أشعارهُم في تصويرِ حياةِ الجوعِ، والنّقمة علىٰ الأغنياءِ البُخلاء.

* وقد برزَ عددٌ منْ عمالقة الصَّعاليكِ في عَصْرِ الجاهليّة، منهم مَنْ هو مشهورٌ مُتَعالمٌ بينَ أهلِ الأدبِ والثَّقافة، ومنهم من هو مغمورٌ، لكنّه يُدْرَجُ تحت لواءِ الصَّعاليك، وأمّا أشهرُ فُرسانِ الصَّعاليك الذي نستضيفُه اليوم منْ تاريخِ الفرسانِ فهو عروةُ بنُ الوَرْدِ بن زِيد العَبْسيّ[1]، سيِّدُ فرسانِ الصَّعاليك وعميدُهم، وضيفُنا في هذه الصَّفحات.

* قال أبو الفرج الأصفهانيُّ: عروةُ بنُ الوردِ شاعرٌ من شعراءِ الجاهليّة، وفارسٌ منْ فرسانِها، وصُعلوكٌ من صعاليكها المعدودينَ المقدّمين الأجواد. وكان يلقَّبُ عروة الصَّعاليك لجمعِهِ إيّاهم، وقيامِهِ بأمرِهم إذا أخفقُوا في غزواتِهم، ولم يكن لهم معاشٌ ولا مغزى[2].

---

(١) الأغاني (٣/ ٧٢ ـ ٨٥)، والشّعر والشّعراء (٢/ ٦٧٥ ـ ٦٧٧) وسمْطُ اللآلي (٢/ ٨٢٣ و٨٢٤)، والأعلام (٥/ ١٨) والاشتقاق (ص ٢٧٩). وديوان عروةَ بن الورد (عدّة طبقات مختلفة)، والحماسةُ البصريّة (١/ ٣٤٣)، والصّعلكةُ والفتوّةُ في الإسلامِ لأحمد أمين (ص ٢٩ ـ ٣١) والأصول الفنية للشّعر الجاهليّ للدكتور سعد إسماعيل شلبي (ص ٣١٥ ـ ٣٣٥) ومصادر أخرى كثيرة.

(٢) انظر: الأغاني (٣/ ٧٢).

* ولم يكن عروةُ وحيداً في ميدانِ الصَّعلكة يجولُ ويصولُ ، ويعلو صيتُه في الأصقاع ، وإنَّما كانَ هناك صَعاليك شهدَ لهم تاريخُهم بطولِ الباع في هذا المضْمَار ، وكانوا ممن يُرهَبُ جانبُهم ، وتُخْشى صولاتُهم وغدراتُهم.

* ولا بأس أنْ نشيرَ إلى نَفَر منهم ونحنُ في هذهِ الرِّحلةِ الشَّائقةِ مع ألوانِ الفروسيّةِ التي حفلَ بها تاريخُ العربِ في عُصورٍ سالفات.

* فمن مشاهيرِ الصَّعاليك الجاهليّين الذين دوَّخُوا النَّاسَ والبلادَ ، والذين عُرِفُوا بالصَّعلكةِ «الشَّنْفَرىٰ» ـ واسمُه عمرو بنُ مالك توفي نحو سنة (٧٠ ق. هـ) ـ وهو الذي يُضْرَبُ به المثلُ في سرعةِ العدو ، وكان يسبقُ الخيلَ ، كما يُضْربُ به المثلُ في الحذقِ والدَّهاءِ ، وهو ابنُ أختِ «تأبّط شرّاً» ، رغم أنَّ الشَّنفرىٰ أكبرُ منه سنّاً ، وكان أحد رفقةٍ ثلاثةٍ اشتهروا بأنّهم أقوىٰ النَّاسِ وأعْدَاهم: هو ، وتأبّط شرّاً ، وعمرو بنُ براق.

* والشَّنفرى هو صاحبُ القصيدةِ المشهورةِ باسْمِ: «لاميّةِ العرب»: التي يعتزُّ بها الشِّعرُ العربيُّ جميعُه باحتوائِهِ على مثلِها ، والتي فَتَنَتِ المستشرقينَ فأولعُوا بها وبترجمتها ، حتى تُرجمت إلى نحو خمس لغات أجنبيّة ، والتي حظيَتْ منذُ القديم بإعجابِ العُلماءِ والأدباءِ والنُّقَّاد ، حتى إنَّ الزَّمخشري قد أفردَ لها كِتاباً لِشَرحِها هو: «أعجبُ العجبِ في شرحِ لاميّةِ العرب» ، ومطلعُ هذه القصيدة البارعة التي تقتربُ من سبعينَ بيتاً ، والتي تصوِّر جزءاً من حياةِ الصَّعاليك هو:

أَقيمُوا بني أُمّي صُدورَ مَطيّكم ... فإنّي إلىٰ قَومٍ سِواكم لأَمْيَلُ

* وقد ضُرِبَ المثلُ بسرعةِ عَدْوه فقيل: أعدى منَ الشَّنفرى[1]. وقد استوفت المصادرُ أخبارَه وأشْعَاره[2].

* ومن مشاهيرِ الصَّعاليك عَصْرَ ذاك «تأبَّط شرّاً» واسمه ثابت بنُ جابر الفهميّ خال الشَّنفرىٰ، وهو أحدُ العدّائين، فقد كان يغيرُ وحدَه على رجلَيْه ولا يهابُ أحداً، وهو منْ أبطالِ البدوِ المعدودين، حتى إنَّ قَصصَ مغامراتِه وإقدامِه تشبه الأساطير، وقد اشتُهِر بالمهارةِ البارعةِ في التَّخلُّصِ من المآزقِ ذات الخطورةِ البالغةِ، والتي لا يُتاح الخلوص منها إلا لشخصٍ وُهبَ حظّاً عظيماً من الذّكاء وسرعةِ البديهةِ والعدو الخارق للعَادة، وقد سجَّل معظمها في شِعرِه، مما أثارَ إعجاب النَّاس بذلك، وقد شَرحَت أُمُّهُ سِرَّ براعته فقالت: واللهِ ما ولَدتُه يَتَناً، ولا سقيتُه غيلاً، ولا أبتهُ على مأقة[3].

* ومن مشاهيرِ الفُرسان الصَّعاليك الشُّجعان السُّليك بنُ السّلكة نِسْبة إلى أُمِّه السّلكة، أمّا اسمه فهو: السّليكُ بن عُمير السَّعديّ، وكان من أغربةِ العربِ، لأنَّ أُمَّه السّلكة كانت أَمَةً سوداء، فورثَ عنها لونها. وكان لذكْرِه وشهرتِه دويٌّ في أرجاءِ الجزيرةِ العربيةِ كلّها، حتى خافَه فارسُ

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (٢/ ٥٩) ومجمع الأمثال (١/ ٣٣٢)، ولسان العرب مادة (شفر) والوسيط في الأمثال (ص ٧٠) ويقال: أسرع خطواً من الشنفرى.

(٢) انظر: الأغاني (٢١/ ١٨٥ ـ ١٩٩) وسمط اللآلي (١/ ٤١٤)، والطرائف الأدبية (ص ٢٧ ـ ٢٩) وخزانة الأدب (٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٦) وغيرها.

(٣) اقرأ سيرة السليك بن السلكة في الأغاني وغيره من مصادر متنوعة. ومعنى: «يتناً»: اليَتن: خروجُ المولودِ قبل رأسه، وذلك علامةُ السّوء.
«غيلاً»: الغيل: ارتضاعُ لبنِ الحُبلى وذلك فسادٌ شديدٌ.
«مأقة»: المأقة: مضمونُ العنف والحمق من الأمّ في ترقيصِ ابنها وإعدادِه للنّوم بطريقةٍ مفزعة لا رفق فيها. (الحيوان للجاحظ ٢/ ٢٨٦)

الشُّجعانِ والرّكبان والأحرار عمرو بنُ معدي كرب الذي قال: ما أبالي أيّ ظعينةٍ لقيتُ علىٰ ماءٍ من أمواهِ معدّ ، ما لم يلقني دونَها حُرّاها وعبداها. وعنى بأحدِ العبدَيْن: السّليكَ بنَ السّلكة.

* كان السّليكُ سريعَ العدو ، ماضيَ العزيمة ، شديدَ البطش ، شجاعاً فارساً ، فهو أحدُ العدائين الأربعة في العرب ، وأحدُ الأغربةِ الثّلاثةِ ، وأحد خمسةٍ وصَفَهم أبو عُثمان الجاحِظ بقولِه: فهؤلاء أُسدُ الرِّجال ، وأشدهم قُلوباً ، وأشجعُهم بأساً ، وبهم يُضْرَب المثل[1].

* يضافُ إلىٰ ذلك كلّه أنَّ السُّليك أحدُ الشعراءِ الفُرسانِ المجيدين ، الذي يتردَّدُ شعْرهُم في سائرِ أنحاءِ شبْه الجزيرةِ العربيةِ.

* كما اشتُهِر من صعاليكِ العربِ وفرسانِهم قيس بن منقذ السّلوليّ الخزاعيّ المشهور بابن الحدادية وهي أمُّه ، وكان ذا بأسٍ شديدٍ ، وكان من الشُّجعانِ الفتّاك ، وقد كثُرَتْ غاراتُه ، وثقلت جناياتُه على قومِه فخلعوه ، وأشهدوا على خلعهِ بسوقِ عُكاظ على ألاّ يحتملُوا له جريرة ، ولا يُطالبون أحداً بجريرة يجرّها علىٰ قَيْس؛ بيد أنَّ هذا كلّه لم يجعلْ عزمُه يفترُ مرّةً واحدةً بعدَ خَلعهِ ، وإنّما ازدادَ شراسةً وضراوةً ، وجعلَ قومَه هدفاً منْ أهدافِ غاراته.

* ومع هذا كلّه ، فقد كانت له مواقفُ محمودة ، يمثّل فيها خُلُقَ السَّيّد الكريم النّبيل ، لا الصُّعلوك الخليع الوضيع[2].

* ومنَ الصَّعاليكِ أيضاً مالكُ بنُ حَريم أو خريم الهمدانيّ ، وصخرُ بنُ

---

(١) انظر: رسائل الجاحظ (١/ ١٩٢).
(٢) انظر هذا في الأغاني (١٤/ ١٤٤ ـ ١٦١) مطبعة وزارة التربية والتعليم ـ مصر ـ ١٩٥٨ م.

عبد الله الخيثميّ الهُذليّ ، وعمرو بنُ براقة الهمدانيّ ، وبراق أبو براقة اسم أمّه ، واسمه عمرو بنُ منبه بن يزيد الهمدانيّ ، وكان عمرو رفيقاً للشَّنفرىٰ ، وتأبَّطَ شرّاً في الصَّعلكة.

* ومنهم أيضاً الأعلمُ الهُذليّ واسمه حبيبُ بنُ عبد الله من هُذيل ، وهو أخو صخر بن عبد الله الهذليّ ، وعمرو بنُ عجلان الهذليّ؛ واشتهر بعمرو ذي الكَلْب ، وحاجزُ بنُ عوف الأزديّ وهو منَ العدائين الذين اشتُهِروا بأنَّهم يسبقونَ الخَيْلَ ، وكان منَ الفُرسانِ الأشدّاء ، وله فرسٌ تسمّى ذِئْبة ، وقد وصفتْه عمّتُه في رثائِها إيّاه بقولها: كان حاجزُ لا يشبعُ ليلة يُضاف ، ولا ينامُ ليلةَ يخاف.

* ومنهم جَحْدَرُ بنُ ضبيعة بن قيس ، واسمُه ربيعةُ ولقّب جحدراً لقِصَره ، وهو من فرسانِ بكْرٍ الذين أبلُوا في حربِ البسوس ضدّ تغْلِب.

* هؤلاء منْ أشهرِ فُرسان الصَّعاليك في العَصْرِ الجاهليّ في الجزيرةِ العربيّةِ ، ولكنّنا سنعيشُ أضواءَ الفروسيّة الجميلةِ والصَّعلكة ذات النَّزعة الإنسانيّة مع سيِّدِ الصَّعاليكِ ورأسِهم ورئيسِهم عروةَ بنِ الورد ، كيما نتعرَّفَ شذراتٍ من فروسيته في هذه الصَّفحات.

* على أنَّنا قبل أنْ نشرعَ في معرفةِ أخبارِ عُروةَ ، لا بدَّ لنا أنْ نتعرّفَ أنَّ هؤلاء الصَّعاليك هم منَ الفُرسانِ الفُقراءِ ، ولهم تقاليدهم الخاصّةُ ، وحياتُهم المتميّزَةُ ، فقد ربضُوا في بطنِ الصَّحراءِ يقطعون السَّبيلَ ، ويُغيرون على القبائلِ والقوافلِ ، ويتقاسمونَ الغنيمةَ ، ويتعاونُون في دفْعِ المكروهِ عن أنفسهم.

* فالصَّعاليكُ إذاً نَفَرٌ منَ العربِ ، فقراءُ جياعٌ ، منبوذون من مجتمعاتِهم ، مخلوعون منْ قبائِلهم ، محتقرونَ من عشائِرهم ، وكان قيسُ بنُ الحداديّة يرى أنَّه لا يُساوي عند قومِه عنزاً جرباءَ جذماءَ؛ وفي

أخبارِ الشَّنْفرى أنَّ قومَه قَتلُوا رجُلاً في خفرةِ بعض الفَهْميّين ، فرهنوهم الشَّنفرىٰ وأُمَّه وأخاه ، وأسلموهم ولمْ يفدوهم.

* والمتأمِّلُ في أخبارِ الصَّعاليكِ وحياتِهم ، يجدُ أنَّهم يشعرون شعوراً أليماً بحياتِهم ، فهي حياةُ التَّشرُّدِ وعدمُ الاستقرار ، إنَّهم لا يعرفونَ ما يأتي به الغَدُ ، وإنْ أمسوا فلا أملَ في الصَّباح ، وإنْ أصبحُوا لم يعلمُوا ما يأتي به المساء ، ولا ما يصادفُهم أو يصادفونَه في هذهِ الصَّحراء الجرداء التي أَنِسُوا إلىٰ وحشتِها أكثرَ من أُنْسِهم إلىٰ بني جِلدتهم من البشَر ، وفي شعْرِ تأبَّطَ شرّاً ، والشَّنفرىٰ ، وعروةَ بنِ الورد وغيرِهم منَ الصَّعاليك مقطوعاتٌ كثيرةٌ تحدِّثنا عن هذا التَّشرُّد والضَّياع ؛ إنَّ الصُّعلوك كما يحدثنا عنه تأبَّط شرّاً :

يظَلُّ بمَوْمَاةٍ ويُمْسي بغيرِها جَحِيْشاً ويَعْرَوْرِي ظهورَ المَهالِكِ
يرىٰ الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأنيسَ ويهتَدي بحيثُ اهتدتْ أمُّ النُّجومِ الشَّوابكِ[1]

* وكان تأبَّط شرّاً ـ إذْ يتحدَّثُ عن نفسهِ ـ يحدِّثُنا عن الصَّعاليكِ جميعاً فتلكَ حالُهم اتّخذوا منْ وحدتهم أنيساً ، ومن مخاطراتِهِم عادةً ، ومن وحشتِهم أُنْساً واطمئناناً.

* بينما نجدُ الشَّنفرىٰ يفضّلُ وحوشَ الفَلا على أهلهِ ، يفضّلُ الذئْبَ والنَّمِرَ والضَّبُعَ ، إذ همُ الأهلُ الذين يحفظون السِّرَّ ، ولا يخذلونَ صاحِبَهم ، يقول الشَّنْفرىٰ :

وَلي دونكم أَهْلُونَ سيدٌ عَملَّسٌ وأرقَط زُهلولٌ وعرفاءُ جيأَلُ
همُ الأهلُ لا مستودعُ السِّرِّ ذائعٌ لَديْهم ولا الجَاني بما جرَّ يُخْذَلُ[2]

---

(١) ديوان الحماسة (ص ٣١) ومعنى : «جحيشاً» : منفرداً. يعروري : يرتكبُ المهالك. «أمّ النّجوم» : الشّمس. يريدُ أنَّه يهتدي إلىٰ مقاصدِه كما تهتدي الكواكب.

(٢) انظر : الروائع (ص ٥٧) ومعنى : «السيد» : الذئب. و«العملس» : القوي. و«الأرقط» : النمر. «الزهلول» : الأملس. «العرفاء» : ذات العرف وهو شعر العنق. «جيأل» : اسم للضبع.

* وإذا ما كان هناك أُنسٌ واطمئنان ، فليكن إلىٰ من يشاكله منَ الصَّعاليكِ الذين تجمعُهم وإيّاه هذه الحياةُ القاسيةُ التي تعصفُ به وبهم هنا وهناك .

* لذلك نجدُ الصَّعاليك يحسّون إحْسَاساً مريراً بهوانِ منزلتهم الاجتماعيةِ ، وعدمِ تقريرِ المجتمعِ لهم ، لا لأنَّهم عاجزون ، وإنّما لأنَّ مجتمعَهم ظلمَهم ، وحرمَهم العدالةَ الاجتماعيّة التي يتوقُون إليها ، لذلك يقولُ عروةُ :

إذَا المرْءُ لمْ يبعَثْ سواماً ولم يَرُحْ　　عليـهِ ولـم تعطـفْ عليـهِ أقـارِبُـه
فَلَلْمَوتِ خيرٌ للفتىٰ منْ حياتِه　　فقيـراً ومـنْ مـولـى تـدبُّ عقـارِبـه

* وهؤلاءِ الصَّعاليكُ يستهينونَ بالحياةِ . وهذا ما يمثّله قولُ عروةَ بنِ الورد أيضاً :

أرىٰ أمَّ حسَّـانَ الغَـداةِ تلـومُنـي　　تخوّفني الأعداءَ والنَّفس أَخْوفُ
لعـلَّ الـذي خـوَّفْتِنـا مـنْ أمـامنـا　　يُصَـادفـه فـي أهلِـه المتخلِّـفُ[1]

* وهم أيضاً أصحابُ جرأةٍ لا يثنيهم عن تحقيقِ أهدافِهم شيءٌ ولو كانَ الموتُ نفسه ، لأنَّهم يعلمون أنَّ الموتَ لا مفرَّ منه ، وسوفَ يلقاهُ كلُّ فردٍ سواءً أكانَ جباناً متخوّفاً أمْ شُجاعاً متهوّراً؛ لذلك فَهُمْ مناضِلون دائماً ، يقولُ تأبّطَ شرّاً يمدحُ إخواناً له في النِّضال والجلاد :

جزىٰ اللهُ فتْياناً على العَوصِ أمْطَرتْ　　سَماؤهم تحتَ العَجاجَةِ بالدَّمِ[2]

---

(١) الأغاني (٣/ ٨٠).
(٢) موسوعة الشعر العربي (ص ١١٥). ومعنى : «العَوْص» : اسم أرض. وانظر : الأغاني (٢١/ ١٥٣).

* ويصفُ أصحابَه بأنَّهم ذئابٌ لا يهابون الموتَ ، وتشبهُ وجوهُهم المصابيحَ أو الماء المُذهب ، فيقول:

سَراحينُ فتيانٍ كأنَّ وجوهَهم مصابيحُ أو لونٌ من الماء مذْهَبُ[١]

* وأحبُّ الأشياءِ إلى الصَّعاليك حديثَهم عن مغامراتِهم مع بعضِهم ، ووصْفِ شجاعتِهم وفروسيتهم ، يقولُ الشَّنفرىٰ يتحدّث بلسانِ حالهم:

نحنُ الصَّعاليكُ الحماةُ البزَّلُ إذا لَقينا لا نُرىٰ نُهلِّلُ[٢]

* وفي هذا اللقاءِ الذي تحدَّثَ عنه الشَّنفرىٰ ، يقولُ «كعب حدار» وهو أخو تأبّط شرّاً:

يا قَومُ أمَّا إذْ لَقيتُم فاصْبِروا ولا تَخِيْموا جزعاً فتُدبروا

* ويقول «السَّمْع» وهو أخوه الآخر:

يا قومُ كونُوا عندنا أحْرارًا لا تُسْلِموا العونَ ولا البِكَارا

ساقُوهم الموتَ معاً أحْرارا وافتخِروا الدَّهرَ بها افتِخارا

فلمّا سَمِعَ تأبّط شرّاً مقالَتهم قال: بأبي أنتم وأمّي نِعْمَ الحُماة إذا جَدَّ الجِدّ[٣].

* لهذا كلِّه اتّسَمت فروسيّةُ هؤلاءِ الصَّعاليك بطابَعِ الجُرأةِ والمغامرةِ والسَّطوةِ ، لذا فقد خافتْهم العَربُ ، بل فرسانهم الأشدّاء.

* ولقد عُرِفَ الفُرسان الصَّعاليك بالشَّجاعة الفائقَةِ حتى ضُرِبَتْ بشجاعتِهم الأمثالُ؛ كما أنَّهم كانوا يأْنَفون من الأعمال التي يقومُ بها العبيدُ ، كما يأنفُ السَّادة من رعي الإبل وخدمةِ الأحرار ، يقولُ تأبّط شرّاً:

ولَسْتُ براعٍ ثلةً قام وسْطُها طويلُ العَصا غرنيقٌ ضَحْل مرسلُ

---

(١) «السَّراحين»: الذئاب مفردها سِرْحَان. و«مُذْهب»: في لون الذهب.

(٢) «البزّل»: جمع بازل، وهو البعير طلع نابه.

(٣) انظر الأغاني (٢١/ ١٧٠ و١٧١) بتصرف.

أبو الصَّعَالِيك:

* تذكرُ المصادرُ أنَّ عروةَ بنَ الورد لُقِّبَ بعروةَ الصَّعاليك لقوله في رائيتهِ الشَّهيرة:

لَحىٰ الله صُعْلوكاً إذا جَنَّ لَيلُه ... مُصَافي المُشَاشِ آلِفاً كلَّ مَجزَرِ
يعدُّ الغِنىٰ مِنْ دهرِه كُلَّ ليلةٍ ... أَصَابَ قِراها مِنْ صديقٍ ميسَّرِ
وَللهِ صُعْلُوكٌ صَفيْحةُ وجهِهِ ... كَضَوءِ شِهَابِ القَابِس المتنوِّرِ[1]

* وذكروا أنَّه كان يُكنى أبا الصَّعاليك، وقيل: بل كان يكنى أبا نَجدة، وقيل: كنيتُه أبو المُغَلَّس؛ وقال آخرون: كانت كنيتُه في الحربِ أبا عَبْلَة، وفي السِّلْم أبا هراسَة[2].

* ولعلّنا نستشفُّ شخصيّةَ عروةَ من خلالِ أشعارِه، فقد كان سامقَ القامةِ، معروقَ اليدين نحيلاً، قد غَزا الشَّيبُ مفرقَه ورأسَه، من طولِ ما عانىٰ وما خاضَ الوقائع والأهوال يقول: «طويل نجاد السَّيف عاري الأشَاجع»[3] وكما يقولُ عن شَيبه:

فما شَابَ رأْسي منْ سنينَ تَتَابَعَتْ ... طوالٌ ولكنْ شيَّبَتْه الوقائعُ[4]

---

(١) انظر: الأغاني (٣/ ٧١).
(٢) قال ابنُ دُريد: عُروةُ بنُ الوَرْد الذي يُقالُ له: عُروةُ الصَّعاليك، كان شاعراً فارساً كثيرَ الغارة جواداً، وكان يجمعُ الصَّعاليك فيغيرُ بهم. والصَّعاليكُ: الفُقراء.
وقيل لبعض الأعْراب: ما الصُّعلوك؟
قال: كأنّا اليوم.
والورْدُ: اشتقاقُه منَ الفرس الوَرد. والوردةُ: شُقْرة صافيةٌ. ويُقال للأَسَدِ: ورْدٌ لحمْرتِه. والوردُ معروف. (الاشتقاق ص ٢٧٩)
(٣) ديوان عروة (ص ٦٧) ومعنى «الأشاجع»: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.
(٤) ديوانه (ص ٦٤).

* وتلكم صِفاتُ عروةَ الجسميّة ، يُضاف إليها صفاتٌ أخرى من الحذَر واليقظةِ وحسنِ التَّصرُّف ، ونفاذِ الرّأيِ ، وشجاعةِ القلبِ وثباتِهِ ، وقد عرضَ عروةُ هذه الصِّفات وهو معتزٌّ بها فقال:

لِسَانٌ وسيفٌ صارمٌ وحفيظَةٌ وَرَأيٌ لآراءِ الرِّجالِ صَروعُ
تخوِّفني ريبَ المنونِ وقد مضَى لنَا سلَفٌ قيسٌ معاً وربيعُ[1]

* وفي ومضةٍ من ومضاتِهِ الشِّعرية يصفُ ويشيرُ إلى سماتِهِ الجسميّة والنَّفسيةِ معاً ، فيذكرُ أخلاقَه الرَّفيعةَ ، ويذكرُ قلبه الذي لا يجبنُ فيقول:

بُنيتُ علىٰ خُلْقِ الرِّجالِ بأَعْظُمٍ خفافٍ تثنَّى تحتهنَّ المفاصِلُ
وقلبٍ جَلا عنْه الشّكوكَ فإنْ تشَأْ يخبِّركَ ظهرَ الغيبِ ما أنْتَ فاعلُ[2]

* وقد وصفتْه زوجُه سلمىٰ بهذه الصِّفات جميعها فقالت: واللهِ إنَّك ما علمتُ لَضَحوكٌ مُقْبلاً ، كَسُوبٌ مُدبراً ، خفيفٌ على متنِ الفرسِ ، ثقيلٌ علىٰ العدوِّ ، طويلُ العمادِ ، كثيرُ الرَّماد ، راضي الأهلِ والجانب[3].

* وفي روايةٍ أخرى أنَّها قالت له تصِفُ أخلاقَه وفروسيته: واللهِ ما أعلمُ امرأةً منَ العربِ ألقَتْ سِتْرها علىٰ بعلٍ خير منك ، وأغضّ طرفاً ، وأقلّ فحشاً ، وأجود يداً ، وأحمى لحقيقة[4].

* وقد امتازَ عروةُ بنُ الورد عن غيره من فرسانِ العرب في العَصْرِ الجاهليّ بأنَّه قد أضفىٰ على الصَّعْلكةِ كثيراً من الاحترامِ والتَّقديرِ ، وذلك

---

(١) ديوانه (ص ٦٠) و«قيس وربيع» من سادات عبس ومشاهيرهم.
(٢) ديوانه (ص ٨٦).
(٣) الأغاني (٣/ ٧٦ و٧٧) و«العماد»: خشبةٌ تقومُ عليها الخيمةُ. ويُقال: فلان رفيعُ العماد: كناية عن أنَّه شريف. و«كثير الرَّماد»: كنايةٌ عن الكرم.
(٤) الأغاني (٣/ ٧٥) و«حقيقة الرجل»: ما يلزمه حفظه والدفاع عنه. يقال: فلان يحمي الحقيقة.

بما تحلّىٰ بهِ منْ خُلُقٍ فريدٍ في السَّخاءِ والعَطْفِ الشَّديد علىٰ الفُقراء ، واعتبارِ نفسِه مسؤولاً عن تفريج كرباتِهم ، وضوائقِ العيشِ عنهم ، وكذلك في تواضعِهِ الشَّديد معهم ، ومقاسمتهم إيّاه غنائمه في غاراتِه وغزواتِه من أجلِهم في قصصٍ وأخبارٍ كثيرةٍ وصلتْ إلينا عن القدامىٰ ، ولهذا لقّب «عروة الصَّعاليك» ، ولذا فقد كان عروةُ ذا مكانةٍ مرموقةٍ بين الشُّعراء والفُرسان الصَّعاليك في عَصْره.

* ومن الرَّصيدِ الأخلاقي لعروةَ في عالَم فُرسان المكارِم والجود والنّدى ، ما جاءَ عن عبدِ الملك بن مروان أنَّه قال: ما يسُرّني أنَّ أحَداً منَ العرَب وَلَدني إلا عروةُ بنُ الورد لقوله[1]:

وإنّي امرؤٌ عافِي إنائيَ شِرْكةٌ	وأنتَ امرؤٌ عافي إنائِك واحدُ
أقسّمُ جسْمِي في جُسومٍ كثيرةٍ	وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ
أَتَهْزأُ مِنّي أنْ سمنتَ وأنْ ترىٰ	بجسْمي مسَّ الحقِّ والحقُّ جاهِدُ[2]

* وكانَ معاويةُ بنُ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لو كانَ لعروةَ بنِ الورد ولدٌ لأحببتُ أنْ أتزوَّجَ إليهم[3].

* ولعلَّ سببَ صعلكةِ عروةَ هو أنَّ قبيلةَ عبس كانتْ تتشاءَم من والدِ عروة ، وهو الوردُ بنُ زيد بنِ عبد الله ، لأنَّه كانَ السَّبب في حرب داحسَ

---

(١) يبدو أنَّ شخصيَّةَ عروةَ بن الورد كانت عند اللغويين في القرنَيْن الثّاني والثّالث للهجرةِ نموذجاً للفارسِ البدويّ والمغامر الذي يغزو ويطعمُ الفقراء ، ويقفُ إلى جانبِ الضّعفاء ، وكان الخليفةُ المنصُور أحدَ المعجبين أيضاً بعروةَ بنِ الورد.
(الأغاني ٣/ ٨٣ ـ ٨٨) طبعة مصر

(٢) انظر: الشّعر والشعراء (٢/ ٦٧٥ و٦٧٦) و«العَافِي»: الضَّيفُ طالبُ المعروف. «وجسمي»: قال ابن السّكيت: جسمُه هنا: طعامُه. و«الماء القراح»: الذي لا يخالطه لبن ولا غيره.

(٣) انظر: الأغاني (٣/ ٧٢).

والغبراءِ التي نشبتْ بينها وبين فزارةَ ، حين راهَنَ حذيفةُ بنُ بدر الفزاري على أنَّ خيولَ قيسِ بنِ زهيرِ العبسيّ أفضلُ من خيله .

* ويظهرُ لنا منَ الأخبارِ المبثوثَةِ في المصادرِ أنَّ صعلكةَ عروةَ انبثقتْ من تفضيلِ أبيهِ لأخيهِ عليه ، فقد كانَ لعروةَ أخٌ أسنَّ منه ، وكان والدُهُ يؤْثرُ هذا الأخ عليه فيما يُعطيه ويقرِّبُه ، فقيل له : أتؤثرُ الأكبرَ مع غِنَاهُ عنْك على الأصغرِ مع ضعفه؟ قال : أترونَ هذا الأَصْغَر؟! لئن بقيَ معَ ما أرىٰ منْ شدّة نفسهِ ليصيرنَّ الأكبر عيالاً عليه[1] .

ويُضافُ إلى ذلك كلِّه أنَّ أبا عُروة الورد لم يُحْسِن اختيارَ الأخوال لأبنائِه ، حيث تزوَّج من قبيلةِ نَهْد ، إحدى قبائل قُضاعة ، وقد كانت أقلّ شرفاً ومكانةً من عبس ، فكان عروةُ ساخطاً على أُمّه ، وعلى قبيلتها ، بل على هذه الصِّلَة التي ربطتْ بين أبيه وأمّه ، ولذلك فإنّنا نراهُ يهجو أَخْوالَه هجاءً مرّاً فيقول :

وَمَا بي مِنْ عَارٍ أخَالُ علمتُه ... سِوىٰ أنَّ أخوالي إذا نُسِبوا نَهْدُ
إذا مَا أردتُ المجدَ قصَّرَ مجدهُم ... فأَعْيَا علىٰ أن يقاربَني المجدُ
فياليتَهم لم يضربُوا فيّ ضربةٍ ... وأنّي عبدٌ فيهم وأبي عبْدُ
ثَعالبُ في الحربِ العَوانِ وإن تَبُخْ ... وتنفرجُ الجلّى فإنّهمُ الأُسْدُ[2]

* وكانت في أمِّ عروةَ ـ بالإضافةِ إلى تواضعِ نسبِها ـ شَراسةٌ ، ولعلَّها كانت تغطّي شراستَها بها عقدة النَّقص التي تعانيها من جرّاء هذا النَّسب المتواضع ، وكان عروةُ يُعَيَّر بشراسةِ هذه الأمّ النّهدّية ، حتى لم يجدْ بدّاً

(١) الأغاني : (٣/ ٨٥) .
(٢) ديوان عروة (ص ٢٦) . و«تبخ الحرب» : أي تنطفىء .

عن التَّسليم في ذلك ، وذهبَ يعلِّلُ لذلك تعليلاً جميلاً ، إذ وصفَها بأنّها منْجِبةٌ فقال:

أَعيــرتُمــونــي أنَّ أمّــي تَــريعــةٌ وهل ينْجِبنْ في القومِ إلاّ التَّرائع[1]

* إنَّ معاناةَ عروة منْ أمِّه تأتيه من ناحيتَيْنِ:

الأولى: وضاعةُ نسبِها ـ في مجتمع يقيمُ لأصالةِ النَّسب وزْناً ـ.

الثّانية: شراستُها ـ في مجتمعٍ يجعلُ لعظمة الخلق تقديراً ـ.

* وهذه الأسبابُ المجتمعةُ من تشاؤم قبيلة عبس من والدِ عروةِ ، وقلّة شأنِ قبيلة أمّه ، وظروفِ حياته ، جعلته يشعرُ بالظُّلم الاجتماعيّ في مجتمعِه القبلي[2].

فُـروسِيّتُـه وأَخْـلاقُـهُ وهِـمّتُـهُ:

* قُلنا: إنَّ عروةَ بنَ الورد العبسيّ أحدُ رؤساءِ الصَّعاليك إن لم يكنْ سيّدهم ومقدّمهم.

* وفي أخبار وشِعْرِ عروةَ صورٌ تبيِّنُ معالَم شخصيّته التي استطعنا أنْ نتبيَّنَ ملامحَها من خلالِ كلامِه لزوجته ، حيث إنَّ كثيراً من القَصصِ التي تحكي بعضَ أخبارِه معها ، تفصحُ عن طريقتهِ وهدفهِ في الحياة.

* فعروةُ يتغنّى بالصَّعلكةِ الممزوجةِ بالفروسيّةِ والنَّجدةِ والحميّةِ والغيرةِ ، على أولئك الذين أنزلهم الدَّهْر علىٰ حُكمهِ من شامخٍ عالٍ إلى خَفْض ، وغالَهم الدَّهر بوفْرِ الغِنى ، فليس لهم مالٌ سوىٰ الكرامةِ والعِرضِ والأنفةِ.

---

(١) ديوان عروة (ص ٦٧). و«التريعة»: المسرعة إلى الشّرّ.

(٢) انظر: الفروسية العربية لسيد حنفي (ص ٨٠ و٨١) بتصرف يسير.

* لذا فإنّنا نجدُ عروة الفُرسان وعروةَ الصَّعاليك ، ينهى امرأته عن التَّعرُّض لسيرتِه ونَهْجِه ، فهو إذا خرج إلى قتالِ أحَدٍ منَ النَّاس ، لا يصحُّ لها ولا يجوز أن تعترضَ سبيلَه وتعتورَ همته ، وإذا غنم مالاً ، وأرادَ أنْ يفرّقَه على الصَّعاليك منْ أمثالِه ، فلا يصحُّ لها أن تعترضَ عليه أيضاً .

* ولعلَّ أبرزَ أخلاقِ عروةَ عدم الأنانيةِ ، وكراهيةِ حبّ الذَّات ، لأنَّه كانَ رجُلاً يحسُّ بالنَّاسِ أكثرَ مما يحسُّ بنفسهِ ، وكأنَّه قد وُجِدَ في هذه الصَّحراء لينفعَ مَنْ حولَه ، وينفعَ معارفَه ، فجميعُ البُسطاء ، وجميعُ الصَّعاليك شركاء له في مالهِ ، وما تملكُه يداه .

* وقد عرَفَ الصَّعاليك أخلاقَ عروةَ وإيثارَه ، فكان إذا ما أصابَهم قَحْطٌ أو سَنَةٌ مُجدبةٌ أتوه فجلسوا أمامَ بيتهِ ، حتى إذا بصروا بهِ عن جنُب صرخُوا وقال : يا أبا الصَّعاليك أغثنا ! يا أبا الصَّعاليك جارَ علينا الفَقْرُ .

* ويستجيبُ أبو الصَّعاليك لندائِهم ، وتأبى همّته القعود ، فيخرج ليغزو لهم ، ويصيبُ من أموالِ بخلاءِ الأغنياء ما يغني الفقراء ، ويسدّ خلّتهم وعوزَهم ، ويضفي عليهم علائم السَّعادة ، وأماراتِ السُّرور .

* حدَثَ ذات مرّة منْ مرّات خروجهِ للغزو أن اعترضَتْه زوجُه ، ونهَتْهُ عن الخروج، لأنَّها قد تخوَّفَتْ عليه من عوادي الزَّمن، ومن هلاكِه في هذه الغَزوات والغاراتِ على أحياءِ الأغنياء والأشحّاء الذين بخلُوا بأموالِهم علىٰ النَّاسِ .

* ولكنَّ عروةَ لم يأبَه لكلامِ زوجهِ ، ولم يردَّ عليها ، ولم تَقْدِرْ أن تثنِه عن عزمِهِ ، وإنَّما عَصاها وخرجَ غازياً ، وفي طريقهِ مرَّ على بعضِ مَنْ يعرفُهم ، فسألوه أينَ يريدُ وأينَ وجهته؟! فأخبرهم عروةُ أنّه يريدُ الغزوَ والغارةَ ، هنالك أمروا لهُ بجزور فنحروها ، وأكلَ منها ، ثمَّ أشاروا عليه

أنْ يرجعَ عن عزمهِ الذي همَّ به وألقاهُ بين عينَيْه ، لكنه عصَاهم أيضاً ، ومن ثمَّ مضىٰ لسبيلهِ حتى انتهى إلى بلادِ بني القَيْن ، فأغار عليهم ، وأصابَ هجمةً عادَ بها على نفْسِه وأصحابِه ، وقال في ذلك :

أرىٰ أمَّ حسَّانَ الغَداةَ تلومُني　　تخوّفُني الأعداءَ والنَّفسُ أخوفُ
لعلَّ الذي خوّفْتنا منْ أمامنا　　يصادفُه في أهلِه المتخلّفُ
إذا قلتُ قد جاءَ الغنىٰ حالَ دونَه　　أبو صبيةٍ يشكو المفَاقِر أعجفُ
له خلّةٌ لا يدخلُ الحقُّ دونها　　كريمٌ أصابتْهُ حوادث تجرفُ[1]

ونجدُ فروسيةَ عروةَ هنا واضحةً جليّةً ، فهو مِقْدام جريءٌ ، لا يهابُ الموتَ ، ثم نلمحُ سجاياه وإيثارَه ، إذ يحلِّقُ في عالَمِ الإنسانيّة بلا حدود ولا قيود ، وهو عالَم مانحٌ مِعْطاءٌ ممراح ، فهو يوحي لزوجتِه بألا تخوِّفَه منَ الأعداءِ ، وإنّما ينبغي أنْ يخافَ من نفسهِ التي لا تحدّثُه بالغزوِ والفَتْك والشَّجاعة ، ذلك أنَّ الموتَ يأتي المقيمَ والمسافرَ على حدّ سواء ، ولعلّ في خروجه إصابةَ مالٍ يعطيه لأهلِ الحاجاتِ، أو لمن أصابَتْه مصيبةٌ فذهَبَتْ بماله .

* وفي مرّةٍ أخرىٰ نرىٰ عروةَ بنَ الورد يوجِّه خطاباً قاسياً لزوجتهِ بعدم لومهِ على تطوافهِ في البلاد ، لجمع المال لِسَدادِ حقوق الفقراء ، ولينقذهم منْ براثنِ الفَقْر ، إنَّه يصرخ في وجهها :

دَعيني أطوِّفْ في البلادِ لعلَّني　　أفيدُ غنىً فيهِ لذي الحقِّ مَحْملُ
أليس عظيماً أنْ تلمَّ ملمّةٌ　　وليسَ علينا في الحقوقِ معولُ
فإنْ نحنُ لم نملكْ دفاعاً بحادثٍ　　تلمُّ به الأيَّامُ فالموتُ أجملُ[2]

---

(١) انظر : حماسة أبي تمام (٢/ ٣٣٨) طبعة القاهرة (١٩١٣ م) و«المفاقر» : الحاجات . و«أعجف» : هزيل . و«الخلة» : الحاجة . و«الحق» : القرابة .
(٢) الحماسة (٢/ ٣٠) .

* وبهذهِ السِّمات الكريمة كان عروةُ بنُ الورد شخصيّة تاريخيّة مرموقة ، وفارساً شريفاً ، فسيرتُه قريبةٌ إلى القلوبِ ، حبيبةٌ إلى النُّفوس ، لطبيعتِه الإنسانيةِ الرّفيعة ، وسلوكِه الخلقي النّبيل الذي رفعه إلى مستوى إنساني عالٍ ، فكان مثالاً حيّاً من أمثلة التّضحية والإيثار.

أَقِلّي عَليَّ اللَّومَ:

* كانَ عروةُ بنُ الورد منَ الفرسانِ المغاوير ، والأبطالِ المشاهيرِ ، الذين لا يخشون الأخْطَار ، ولا يخافون المسيرَ في الليلِ أو النَّهار ، حتى إنَّ زوجته سلمى قد لامتْهُ على كثرِ غاراته ، وركوبه الأخطار ، وعلى استهانَته بالحياةِ ، ورغبته في الكفاحِ المستمرّ ، كما كانت تلومُه على غارته بأولئك الرّجال الذين يعتمدون في غزواتهم معه على المشي[1] دون الخيل[2].

* وفي هذا يصوِّرُ عروةُ لومَ زوجته ويخاطبها في قصيدة رائيةٍ تُعَدُّ من أجملِ عيون القصائدِ المُختارة من فارسِ الصَّعاليك وزعيمِهم وإمامِهم ، وتقتربُ من ثلاثين بيتاً اخترنا منهم قوله:

---

(١) كانتْ معظمُ غزواتِ الصَّعاليكِ تعتمدُ علىٰ أرجلِهم ، كما كانت تعتمدُ في بعضِ الأحايين على أفراسِهم ، وهم في هذا يختلفونَ عن الفُرسان السَّادةِ الذين كانَ جلُّ اعتمادِهم على الخيلِ ، وقد وفّر الفُرسانُ الصَّعاليكُ لغزواتِهم كلَّ عناصرِ النَّجاح وتحقيقِ الأهداف ، ففيهم قوَّةُ الجسم ، وشدّةُ البأس ، وشجاعةُ القلب ، وصدقُ الغريمةِ ، وسرعةُ العدو ، وهم أيضاً واسعُو الحيلة ، عميقُو الدّهاء ، يعرفون كيف يتخلّصون من المآزقِ الضّيقة والمواقفِ الحرجة.

(٢) يقولُ عروةُ مبرراً سببَ غزواته بأصحابه مشاةً وفرساناً:

لعلَّ انطلاقي في البلادِ ورحلتي ... وشدّي حيازيم المطيّة بالرحْلِ
سيدفعُني يوماً إلى ربّ هجمةٍ ... يدافعُ عنها بالعقوقِ والبُخلِ
قليلٌ تواليها وطالبُ وترها ... إذا صِحْتُ فيها الفوارس والرّجل

أقِلّي عليَّ اللومَ يا بنة مُنذرِ ونامي فإنْ لم تَشْتَهي النَّومَ فاسْهَري

ذَريني ونَفْسي أمَّ حسَّان إنَّني بها قَبْلَ ألا أملِك البيعَ مُشْتَري

أحاديثَ تَبْقىٰ والفتى غيرُ خالدٍ إذا هو أمْسىٰ هامةً تحتَ صُبَّرِ

ذَريني أطوِّفْ في البلادِ لعلَّني أخلّيكِ أو أُغْنيكِ عن سوءِ مَحْضَري

فإنْ فازَ سَهْمٌ للمنيةِ لم أكُنْ جزوعاً وهلْ عن ذاك منْ متأخَّرِ

وإنْ فازَ سَهْمي كفَّكُم عن مَقاعدٍ لكم خلفَ أدْبَارِ البُيوت ومنْظَرِ

تقولُ لكَ الويلاتُ هلْ أنتَ تاركٌ ضُبُوءاً بِرَجْلٍ تارةً وبمنْسَرِ

فَجُوعٌ بها للصَّالحينَ مزلَّة مخُوفٍ رَدَاها أن تُصيبَكَ فاحْذَرِ[1]

* وهذه القصيدةُ الرّائيةُ الجميلةُ تصوِّرُ واحداً من المواقفِ الجميلةِ الرّائعةِ لعروةَ بنِ الورد ، وتصوِّرَ مذهبَه وطريقتَه في الحياةِ ، وصلتَه بأسرتِه ومجتمعِه وعشيرتِه؛ فهو يرفضُ في إصرارٍ وثباتٍ وعنفٍ عطْفَ زوجتِه

---

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٤١) والحماسة (١/ ١٥٩) وجمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٤٥٠ ـ ٤٥٥) ، والأصمعيات (ص ٤٣) رقم القصيدة (١٠) وغيرها. و«ابنة منذر»: امرأَته سلمى التي سبَاها من كنانةَ وأعتقها وأولدَها أولادَه. و«أمّ حسّان»: كنية امرأتِه سلمى. و«البيعُ»: المعنى هنا: الشّراء. و«الهامةُ»: كانتِ العربُ تزعُم أنَّ روحَ القتيلِ الذي لم يُدْرَكْ ثأرهُ تصيرُ هامةً تصيحُ عند قبرٍ تقول: اسقوني. و«الصُّبَّر»: القبر. «أخلّيك»: أطلّقك ، وكنّى بها عن قتْلِه ، وكأنّها تخلىٰ للأزواج. و«فاز سهم»: خرج أولاً. «أدبار البيوت»: كانَ الضّيفُ إذا نزلَ بقومٍ نزلَ بأدبارِ البُيوت حتّى يُهيأَ له مكانه ، ويقصدُ أنَّه يرفضُ الذُّلَّ في الحياةِ لأنَّ المالَ ما زالَ أمانَها من الذّلّ. «الضّبوء»: اللّصوق بالأرضِ والاستتار ليخْتل الصَّيد. «الرَّجْل»: بفتح الراء وسكون الجيم: الرّجالة ، أي المُشاة. «المنْسَر»: الجماعةُ منَ الخيلِ بينَ الثّلاثين إلىٰ الأربعين تقول: هل أنت تارك الغزو بقوم راجلين مرة وراكبين أخرى. «فجوع»: تفجع النّاس ، وهو من صفةِ الصَّرماء والصَّرماءُ القليلةُ اللبن من نتاجِ العربِ. «الصّالحين»: الرّجال يطلبونَ معالي الأمور. «مزلّة»: تزلُّ بأهلها. تقولُ له: احذرْ من هذهِ النّاقةِ الصَّرماء التي تنزلُ الفجيعةَ بمن يمتطيها ، لأنّها عُرفَتْ بهذهِ الخصلة.

سلمى وإشفاقَها عليه ، إنّها تخافُ عليه الموتَ وانقضاءَ الأجَل ، وهو يرى بعينِ بصيرته وعين عقْله أنَّ الذّكرىٰ الطَّيِّبة أطولُ من حياتِهِ التي تعدّ أياماً وليالي محدودة ، إذاً فَلْيَشْتَرِ المحامدَ والمناقبَ قبل أنْ يأتيه الموتُ فلا يستطيع إذ ذاك شراء شيء منَ المكارمِ.

* ومنْ هذا المنطلقِ الرّائع ـ منطلقِ الشَّجاعة والاستهانة بالمنايا ، والاستشرافِ إلى المجد والرِّفعَةِ ـ كانت علاقتُه بزوجته ، فهو يريدُ لها الثَّراء والغِنَى إنْ كُتِبَ له النَّصر والمغنم ، وهو يتيحُ لها أنْ تتَّصِلَ حياتها بغيره إنْ أصابَه الموتُ ، وهو يريدُ لها السَّعادة على أيّ حال.

* وعلى هذا النّحو وهذه الطّريقة يعاملُ عشيرتَه وقبيلتَه ، إنّه لا يهمُّه الحياة القاسية ، ولا يرهبُ المعاركَ الرّهيبة ، فهو صاحبُ أسفار وانتقال هنا وهناك ، يغشىٰ المخاطر ، ولا يخلدُ إلى النعيمِ أو خفضِ العيش ، لأنَّه لا يريدُ السَّعادةَ لنفسِه وحدها ، ولكنه يرىٰ أنَّه مسؤولٌ عن ذوي قُرباه ، يعدُّ لهم القِرىٰ قبل أنْ يسألوه إيّاه ، ويملأ بيته خيراً مخافةَ أنْ يغشاه ذوو قرباه ، فيعجزُ عن إكرامهم ، ويعجزُ عن منْحِهم ما يرغبون منْ عَطاء.

* وهذا منطلقهُ أيضاً في الحياةِ كلِّها ، يأبى إلا أنْ يكونَ له المنزلةُ الرّفيعةُ ، وهيبةُ الجانب ، يفزعُ أعداءه في كلّ زمان ومكان ، ويستحوذُ علىٰ الحياةِ في كلّ وقتٍ وحين من أجلِ زوجته أمّ حسَّان ، نَعَم منْ أجلِ سعادتها ، اسمعْ إليه يقول:

ذَريني أطوّفْ في البِلادِ لعلَّني ... أخلّيكِ أو أغنيكِ عن سوءِ مَحضَري

ومع هذا كلّه لا ينسىٰ أقاربَه وعشيرتَه ، فيقول:

أَيَهْلِكُ معتَمٌّ وزيدٌ ولم أُقِمْ ... على نَدَبٍ يوماً ولي نفسُ مُخْطِرِ[1]

---

(١) «مُعتَم وزيدٌ»: بطنان منْ عَبْسٍ ، وهما جدّاه. «النَّدَب»: بفتحتين: البكاء على =

* ومن أجلِ المبدأ الصَّحيح والمثل الأعلىٰ يقول:

يريحُ عَليَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ كريمٍ ومالي سَارِحاً مالُ مقْترِ[1]

* وهكذا فقد كان عروةُ منْ فرسانِ الأبطالِ، ومن صعاليكها الشُّجعان، ومن المقدّمين الأجوادِ، فقد كان يحثُّ على طلبِ الغِنىٰ، وتركِ حياة المذلّة والمهانَة.

* ومنَ الواضحِ في أخبارِ عُروةَ وقَصَصه الجميلةِ أنَّه ما كان يخاطرُ بنفسه من أجلِ بقائهِ وبقاءِ أهلهِ، بل كان يجهدُ نفسَه ويعرّضُها للأخطار من أجلِ الآخرين الذين عوَّدهم على العطاءِ، وكان يدعوهم إلى مثلِ هذا حتّى يتغلّبُوا علىٰ الفَقْرِ، وينقذوا أنفسَهم من مهالكهِ.

* ويذكرُ أبو الفرج الأصفهاني كيفَ أنَّ عروةَ كان يُخَرّج الصَّعاليك من مدرستهِ البسيطة فيقول ما مفاده: كان عروةُ بنُ الورد إذا أصابتِ النَّاس سَنَةٌ شديدةٌ تركُوا في دارِهم المريضَ والكبيرَ والضَّعيف، وكان عروةُ بنُ الورد يجمعُ أشباه هؤلاء منْ دونِ النَّاس من عشيرته في الشِّدَّةِ، ثم يحفرُ لهم الأَسراب، ويكنفُ عليهم الكُنُف ـ الحَظائر ـ ويكْسبهُم، ومَنْ قويَ منهم خرجَ بهِ معه فأغارَ، وجعلَ لأصحابِه الباقين في ذلك نَصيباً، حتّى إذا أخصبَ النّاس، وكثُرَ عندهم اللبن، وذهبتِ السَّنَة، ألحَق كلَّ إنسانٍ منهم بأهلهِ، وقسمَ له نصيبَه من غنيمةٍ إن كان غنموها، فربّما أتىٰ الإنسان منهم أهلَه وقد استغنىٰ، فلذلك سمّي عروة الصَّعاليك[2].

= الميت. «المُخْطِر»: الدّاخلُ في الخَطر، والمعنى: أيهلكُ في حياتي هذان، ولم أقمْ نادباً لنفسي، فأخاطر حتّى أموتَ كما ماتَا ولي نفسٌ تعوَّدتِ المخاطر.

(١) «يريح»: يرد. «ماجد»: يقصد نفسه. «مالي»: إبلي. «مقتر»: الفقير المقل. والمعنى: يأتي عليَّ الليلُ بضيوف فأكرمُهم وانحرُ لهم الإبل، وتسرحُ إبلي في الصَّباح كأنّها إبل فقير.

(٢) انظر: الأغاني (٣/ ٧٧ و٧٨) بتصرف يسير جداً.

* وثمة قصة أخرى تفصحُ عن كفالةِ عروة لجماعتهِ ، والخروج بهم إلى الغزو إذا ما أرملُوا ، تقول القصّة :

* تتابعتْ على معدّ سنوات جهدت النّاس جهداً شديداً ، وكانت غطفانُ من أحسنِ معد فيها حالاً ، وتركَ النَّاس الغزوَ لجدوبةِ الأرضِ؛ وكان عروةُ في تلك السّنين غائباً ، فرجعَ مخفقاً قد ذهبَ إبله وخيله ، وجاءَ إلى قومهِ فندبَ منهم رهطاً ، فخرجوا معه ، فنحرَ لهم بعيراً ، وحملوا سلاحَهم على بعيرٍ آخر ، وقدَّدَ لهم بعيراً فوزّعه بينهم ، وخرجَ يريدُ أرضَ قُضاعة ، وقصدَ قبل أرض بني القين ، فمرَّ بمالك الفزاريّ ، فقال له مالك : أينَ تنطلقُ بفتيانك هؤلاء تهلكهم ضيعة؟ قال : إنَّ الضيعة ما تأمرون به أنْ أقيمَ حتى أهلك هزالاً . فقال : إنْ أطعتني رجعتُ على حَرسين[1] ، فكان طريقُكَ حتى تأتي قومي فتكون فيهم .

قال : فما أصنعُ بمن كنتُ عودتهم إذا جاؤوني واعتروني؟!

قال : تعتذرُ ، فيعذرونَك إذا لم يكن عندكَ شيء .

قال : لكنْ أنا لا أعذرُ نفسي بتركِ الطَّلب .

قال عروةُ يذكرُ شدّة الصَّعاليك ، ومَنْ بِمَاوَان ـ اسم مكان ـ وقيامه بأمرهم حتى صلُحوا ، وندبه إياهم حتى خرجُوا معه :

وقُلْتُ لقومٍ في الكنيفِ تروَّحُوا	عشيــةَ بِتْنــا عنــد مَــاوانَ رُزَّحِ
تنالُوا الغِنىٰ أو تبلُغوا بنفوسِكم	إلــىٰ مُستــراحٍ مــن حِمــام مُبــرحِ
ومـنْ يـكُ مثْلـي ذا عيـالٍ ومُقْتـراً	من المالِ يطرحْ نفسَه كلَّ مطرَحِ
ليبلــغَ عــذراً أو يصيــبَ رغيبــةً	ومُبلغُ نفْسٍ عذرَها مثل مُنْجحِ[2]

---

(١) «حرسين» : اسم مكان.

(٢) ديوان عروة (ص ٢٠). و«الكنيف» : مكان يحيط به الشّجر يشبهُ الحظيرة. «تروحوا» : سِيروا بالرَّواح . «الحِمام المُبرح» : الموتُ الشّديد .

* لقد عوَّد عروةُ جماعة الصَّعاليك عاداتٍ وثقّنَ بها ، ويأبى أنْ يخيبَ ظنّهم به ، ولو عرَّضَه ذلك لهلاكٍ محقّق؛ وهو في ذلك داعيةٌ إلى العمل ، حريصٌ على السَّعي ، مجدٌّ في تفريجِ الغمّة عن الآخرين ، يعطي لجماعتِه وأتباعِه درساً واضحاً في المغامرةِ في سبيلِ الكرامةِ والعزّة.

* إنّنا نراهُ يقيمُ من نفسِه حارساً أميناً على هذا المبدأ الإنسانيّ النَّبيل ، لا يعذرها وإنْ أعذَره الآخرون ، وعليه أنْ يعملَ قَدْرَ استطاعتهِ ، والنَّتائج بعد ذلك في يدِ الأقدارِ ، ولا يعفي نفسه منَ المغامرة من أجلِ دفعِ غائلة الجوعِ والضّياع عن الآخرين.

* ويبدو أنَّ عروةَ قد نظرَ فيما حوله فرأىٰ أنَّ المالَ كلّ شيءٍ ، وأقدارُ الرّجال على قَدْرِ ما في أيديهم منْ أموالٍ ، فإنِ اغتنوا عزّوا وجلوا ، وتغاضىٰ النَّاس عن ذنوبهم ، أمّا الفُقراء فشرُّ النَّاس ، تهونُ أقدارهم وإن ارتفعت أحسابُهم وشرفت أنسابُهم ، ويحتقرهم حتى أقرب المقربين إليهم[1].

* إنَّ الغاية التي كان يريدها عروةُ هي الغِنى ، لكنَّه لا يريدُ الغِنىٰ منْ أجلِ الغِنى ، وإنّما يُريده كيما يكون وسيلة للارتفاعِ بمنزلتهِ الاجتماعيّة بين أفرادِ مجتمعه.

* فالفقيرُ في رأي عروة شرُّ النَّاس ، وأحقرهم عندهم ، وأهونُهم

---

(١) يبدو أنَّ هذه الحال ساريةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، فكمْ منْ وضيعٍ من السّفلة ومنْ أراذلِ البشر ، اغتنىٰ فجأةً ، وتكرَّشَ ، وظنَّ أنَّه معروفٌ لدى الخاص والعام ، وبدأ يتكلّم بملءِ شدقيه كلاماً ليس فيه معنىٰ ولا مغزى ، وترىٰ السُّخفاء مثله يروّجون له ، ويضحكُ عليهم ويضحكونَ عليه ، ولنا في قول الشّاعر خير دليل:

إذا امتلأتْ أيدي اللئيمِ منَ الغنىٰ ... تنفَّسَ كالمرحاضِ فاحَ وأنْتَنا
وأمّا كريمُ الأصلِ كالغُصنِ كلّما ... تحمَّلَ منْ خيرٍ تواضعَ وانحنىٰ

عليهم مهما يكن له من فَضْل يجافيه أهله ، وتزدريه امرأتُه ، حتى إنَّ الصَّغيرَ يستطيعُ أنْ يذلّه ، والكلابُ تنبحُه ، أمَّا الغنيُّ فمهما يغفلُ يقْبَلُ منه ، ومهما يخطىءُ يُغْفَرُ له ، فللغَنيّ ـ كما زعموا ـ ربٌّ يغفِر الذُّنوب جميعاً .

* لذا فإنّه يُروىٰ أنَّ سيِّدنا عبد الله بنَ جعفر الجواد بن الجواد ـ رضي الله عنهما ـ كان يقولُ لمعلّمِ أولاده: لا تُروِّهمْ قصيدةَ عروةَ بن الورد التي يقولُ فيها:

ذَرينـي للغِنَـى أسْعَـىٰ فـإنّـي	رأيـتُ النَّـاسَ شـرّهـمُ الفَقيـرُ
وأدْنَـاهُـم وأهـونُهـم عليهـم	وإنْ أمسـىٰ لـه حَسَـبٌ وخَيـرُ
يبـاعِـدهُ القـريـبُ وتَـزْدريـهِ	حليلتُـه ويقهـرُه الصَّغيـرُ
ويلقـىٰ ذو الغِنـىٰ ولـه جـلالٌ	يكـادُ فـؤادُ لاقيـهِ يطيـرُ
قليـلٌ ذنْبـهُ والـذَّنـبُ جـمٌّ	ولكـنْ للغنِـي ربٌّ غفـور[1]

(١) انظر: الأغاني (١٦/ ٧٧)؛ وانظر ديوانه (ص ٥٨) ، وعيون الأخبار (١/ ٤١ و٢٤٢) والعقد الفريد (٣/ ٢٩) وقد علّقَ الدكتور يوسُف خليف علىٰ هذهِ الأبياتِ الحلوةِ الجميلةِ بقولهِ: هكذا يسجِّلُ أبو الصَّعاليك فلسفتَه في هذهِ المُشكِلةِ الاجتماعيّةِ الخَطرة مشكلةِ الفَقْر والغِنىٰ ، وفي هذا الأسلوبَ الممتازِ الذي يستمدُّ امتيازه منْ عنصرَيْن أساسيْين هما: السُّخريةُ والبساطةُ؛ السُّخريةُ منْ ذلك المجتمع العجيبِ الذي يحتقرُ الفقيرَ لا لشيءٍ إلاّ لأنّه فقيرٌ ، ويقدِّرُ الغنيَّ لا لشيءٍ إلاّ لأنَّه غنيٌّ. والذي لا يهتمّ بغير المظاهر المادّية ، أمّا جوهرُ النّفس الكامنُ خلْفَ هذه المظاهر فأمْرٌ وراءَ اهتمامِه ، ثمّ البسَاطةُ التي نلمسُها في عرضِ الشّاعر لمعانيه ، ذلك العرض السَّهل الذي لا يقبلُ معارضةً أو يثيرُ جَدلاً ، والذي ينفذُ إلىٰ النَّفسِ من أقرب السُّبُل ، ذلك العرض الذي يصحُّ أنْ نطلقَ عليه عرضاً شعبياً ، حتّى لنسمعَ أنَّ عبدَ الله بنَ جعفر بن أبي طالب يطلبُ إلى معلّم أولادِه ألاّ يروّيهم هذه القصيدة ويقول له: إنَّ هذا يدعوهم إلى الاغترابِ عن أوطانهم.
(الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص ٣٢٦ و٣٢٧)

* نعمْ إنَّ مثلَ هذا الشِّعْر يدعو الأولاد إلىٰ الاغترابِ والسَّعي وراءَ الرِّزْقِ ، كما أشارَ سيّدنا عبد الله بنُ جعفر إلى ذلك. ولكنَّ عروةَ بنَ الورد الفارسَ الذي آثرَ النَّاس على نفسِه يقول:

أقسِّـم جسْمـي فـي جُسـومٍ كثيـرةٍ وأحْسُـو قَـراحَ المـاءِ والمـاءُ بـارِدُ

* فقد حدَثَ أنْ جهدَ قومه ذات مرّة جهْداً عظيماً ، ولاقوا عناءً وقسوةً في الحياةِ ، فأحاطُوا أنفسَهم بِسياجٍ لما أعوزتهم المكاسبُ وقالوا: نموتُ فيها جوعاً خير من أنْ تأكلنا الذّئاب.

* وكان عروةُ بنُ الورد أبو الصعاليك وفارسهم غائباً عنهم ، فأتاهم ورأىٰ حالَهم ، فبادرَ ونزعَ عنهم سياجَهم وقال لهم: هذه قُلوصي ، فَقَدِّدُوا لحمَها، واحملوا أسلحتكم عليها حتى أصيبَ لكم ما تعيشونَ بهِ أو أموتَ.

* وخرجَ عروةُ مع أتباعِه ، فوجَدوا في الطَّريق آثاراً فقالَ لهم: هذهِ آثارُ من يَرِدُ الماء فاكْمُنُوا. فجاءَتِ الإبلُ بعد خمسٍ ، فوردَتْ منها مئةٌ معها فُصْلانها ، ومعها فارسٌ بسلاحِهِ ، فخرجَ عليه عروةُ ، ورماهِ بِسَهْم فأرداهُ قتيلاً، ثمَّ استاقَ الإبلَ حتى أتى قومَه فأعطاهُم وأحياهم ، وفي ذلك يقولُ:

أليسَ ورائي أنْ أدبَّ على العَصَا فيشْمَتَ أعْدَائي ويسْأَمَني أَهْلي
رَهينَـة قَعْـرِ البيـت كـلَّ عشيّـةٍ يُطيفُ بي الوِلْدانُ أهْدَجَ كالرّأْلِ
أَقيمُوا بني لُبْنَىٰ صدورَ رِكابِكم فكلُّ مَنايَا النَّفْسِ خيرٌ منَ الهُزْلِ
فـإنّكـم لَـنْ تبلُغـوا كُـلَّ هِمّتـي ولا أَرِبي حتَّى تَرَوا مَنْبِتَ الأَثْلِ
لعلَّ ارتيادي في البلادِ وحيلَتي وشَدّي حيازيمَ المطيّة بالرَّحْلِ
سيدفعُني يوماً إلى رب هَجْمةٍ يُدافِعُ عنها بالعُقوق وبالبُخلِ(١)

---

(١) انظر: الأغاني (٣/ ٨٠ و٨١) ، والصّعلكة والفتوة في الإسلام (ص ٣٠ و٣١) مع الجمع والتّصرف. و«هدَجَ الرّأل»: مشىٰ في ارتعاش ، وهَدَجَ فلانٌ: مشى متثاقلاً =

* وهكذا كانَ عروةُ يحبُّ أنْ يكونَ النَّاسُ في غنىً ووَفْر ، وعندهم ما يكفي منَ المالِ ، إذِ المالُ مهابةٌ والفَقْرُ مذلَّةٌ ، ولذا فقد جهد أنْ يسعدَ نَفْسه ، ويسعدَ الآخرينَ معه ، واتَّخذ منْ ذلك مبدأً يدعو إليه ، ويُنادي به في أسلوبٍ سَهْلٍ يحملُ بين طيّاتِهِ الحكمةَ والعِظَةَ ، ويرسمُ مشاعرَ النَّاسِ تجاهَ هذه الظَّاهرة؛ فيقولُ:

خَاطِرْ بنفسِكَ كي تصيب غنيمةً ... إنَّ القعـودَ مـع العيـالِ قبيـحُ
المَـالُ فيـهِ مهـابـةٌ وتَجلَّـةٌ ... والفَقـرُ فيـهِ مـذلّـةٌ وفضُـوحُ[1]

* وتلك نصيحتُه نفسُها للصَّعاليك أيضاً إذْ يقولُ:

وقُلْتُ لأصحابِ الكنيفِ ترحّلُوا ... فَليسَ لكم في سَاحَةِ الدَّارِ مقْعَدُ

* ولهذا فقد كانَ عروةُ الصَّعاليك يسيرُ بالرَّواح ، ويطوفُ البلادَ ، ليكْسَبَ المالَ الذي يستطيعُ بذْلَه لمن هو بحاجةٍ إليه ، فإذا لم يستطعْ تحقيقَ ذلك الهدف كان الموتُ عذْرَهُ ، يقولُ:

إذا المرءُ لمْ يطلُبْ مَعَاشاً لِنفسِهِ ... شَكَا الفَقْرَ أوْ لاَمَ الصَّديقَ فأكْثَرا
وصَارَ على الأدنَيْن كلاًّ وأوشكَتْ ... قلُـوبُ ذوي القُـربَـى لـه أنْ تَنكَّـرا
ومَا طالِبُ الحاجاتِ من حيثُ تُبْتَغَىٰ ... مـنَ النَّـاسِ إلا مَـنْ أبـرَّ وشَمَّـرا
فَسِرْ في بلادِ اللهِ والتمِسِ الغِنىٰ ... تَعِـشْ ذَا يَسـارٍ أو تمـوتَ فتُعـذَرا
وَلاَ ترضَ من عيشٍ بدُوْنٍ ولا تَنَمْ ... وكيفُ ينامُ الليلَ مَنْ كان مُعْسِرا[2]

= في ضَعْف. و«الرّأل»: الظّليم ـ ولد النّعام ـ و«الهُزل»: الضّعف وقلّة اللحم. و«أَرَبي»: غايتي ، و«هَجْمة»: المئة من الإبل. ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ عروةَ بنَ الورد كان يصحبُه صعلوكٌ آخر يسمى: أشيمَ بن شرحبيل ، وكان يسمى: مأوىٰ الصَّعاليك ، لأنَّه كان يعولُهم وينفقُ عليهم حتى يستغنوا.

(١) ديوانه (ص ٢٤).

(٢) انظر: الحماسة البصرية (١/ ٣٤٣).

* ومنْ أجلِ هذا المبدأ الصُّعلوكي الجميل ، سَلَك عروةُ بنُ الوردِ هذا المَسْلك ، حتى لا تنقطعَ صِلاَتُه بالحياةِ المليئةِ بالتَّكاتُفِ والتَّراحُم والتَّعاطُفِ ، وحتّى لا يعيشَ وحْدَه في رزقٍ ضيّقٍ محدود ، فهو لا يعرفُ الحياةَ إلا بمشاركَتِهِ لغيرِه فيما يعانيه ، وهو لا يلتذُّ بمظاهِرِها إلاّ إذا عمَّتْ هذهِ المظاهرُ أكبرَ مجموعةٍ منَ المحتاجين من بني عَبْس ، ومن أصدقائِه المعوزين.

* إنَّ عروةَ بنَ الوردِ هذا قد اتَّخذَ منهجاً خاصّاً له ، حاول أنْ يطبِّقَه في كُلِّ تصرُّفَاتِهِ ، ويتلخَّص هذا المنهج بتمرُّدِهِ على البُخلاء الأغنياء ، وعطفِهِ على المظلومين ، ومقاسمتِه لآلامِهم التي يعانونها ، وبؤْسِهم الذي يقاسونَه ، وكان تمرُّدُه هذا وسيلة لغايةٍ إنسانيّةٍ ساميةٍ ، تدعو إلى العَدلِ ورفْعِ الظُّلم عن هذه الفئةِ منَ المظلومين، وحمايةِ الضُّعفاء من تسلُّط جماعة الأقوياءِ من البخلاءِ ونحوهم.

* فعروةُ يحاولُ بطريقَتهِ الخاصّة أنْ يتعرَّفَ علىٰ الأغنياءِ ، نعم يتعرّفُ على الأغنياءِ ، فَمَنْ وجَدَه منهم بخيلاً ، غَزَاهُ وألْحَقَ به الخسائرَ ، ومن وجَده شَهماً كريماً وجَواداً سخيّاً تركه ، وكان يتسقَّطُ أخبارَ البُخلاء ، ويبعثُ عليهم العيونَ ليشدَّ إليهم الرِّحال ، ويستخلصَ منهم المال ، ويجعلَهم في أخسِّ حالٍ ، وأسوأ مآلٍ ، فالبخلُ آفةُ الرِّجال ، وعلامةُ الآجال.

* ومنَ اللطيفِ الظَّريفِ في سيرةِ عروةَ أنَّهم زعموا أنَّه مكثَ مدَّة بعد قولِه:

«أليسَ ورائي أنْ أدبَّ على العَصَا   فيشمتَ أعدائي ويَسْأَمَني أَهْلي»

ما شاء الله ، ثمَّ بلغَه عن رجلٍ من بني كنانة بنِ خزيمة أنَّه أبخلُ النَّاس ،

وأكثرُهم مالاً ، فبعثَ عليه عيوناً ، فأتوه بخبرِه ، فشَدَّ على إبله فاستاقَها ، ثمَّ قَسَمها في قومِه ، فقال عند ذلك :

مَا بِالثَّراءِ يَسُودُ كلُّ مُسَوَّدٍ ... مُثْرٍ ولكنْ بالفعَالِ يَسودُ
بَلْ لا أُكاثِرُ صَاحِبي في يسْرِهِ ... وأصدُّ إذْ في عيشهِ تَصْرِيدُ
فإذا غَنيتُ فإنَّ جاري نيلُه ... منْ نائلي وميسّري مَعْهُودُ
وإذا افتقَرْتُ فلنْ أرىٰ متخشّعاً ... لأخي غنىً معروفُه مكْدُودُ(١)

* وهكذا انطلقتْ دعوةُ عروةَ بنِ الورد ـ في هذا المجال ـ في أوساطِ المجتمعِ الجاهلي ، فاستجابَ لها كثيرون ممّن يشعرون بهذا الشُّعور نفسه ، ويدركون المساوىء الاجتماعيّة السَّائدة في ذلك المجتمعِ ، وظلَّتْ أصداءُ هذه الدَّعوة تتجاوبُ في جوانبِ الجزيرةِ العربيّةِ .

* إنَّ مشاركةَ عروةَ في هذا المجال كانت مشاركةً عمليّةً ، لأنّه كانَ يشعرُ بالنَّاسِ أكثرَ مما يشعرُ بنفسهِ ، ولأنَّه حمل عبءَ الفقراءِ في قبيلتِه ، وآلىٰ على نَفْسهِ ألا يستريحَ حتى يجدُوا كفايتَهم ، فألَّفَ منهم فرقةً تعملُ معَه ، وتسعىٰ سَعْيَه ، وأطلق عليه اسم العيال ، لأنه يعولهم ويقوم على إطعامهم ، ويبني لهم الحظائر التي يقيمون فيها ، ويغزو بأشدائهم أعداءه وأعداءهم ، ويوزع عليهم ما يكسبه ممن يكسبه في الغزو :

ومَنْ يكُ مثْلي ذَا عيالٍ ومقْتراً ... منَ المالِ يطرحْ نَفْسَه كلَّ مطْرحِ

* ومن هنا جاءتْ شهرةُ عروةَ ، وبرزتْ شخصيّتُه لِمَا اشتملتْ عليهِ هذه الشّخصيّةُ من آدابٍ إنسانيّة ، وأخلاقٍ كريمة ، وروح مشاركة لم تعرفِ التّكلُّف ، ولم تتصنعِ الكرمَ والجودَ والإيثارَ ، وقد تجلّتْ هذه الصِّفاتُ في كلِّ ما كان يصنعُه منْ إحسانٍ ، ويبذلُه من عطْفٍ ، فعروةُ رجلُ العَطاءِ

(١) انظر : ديوانه (ص ٣١) .

والجودِ الطَّبيعيّ الذي لا تكلُّفَ فيه ، ولا مراء ، وهو صاحبُ همّةٍ عاليةٍ ، ومُثُل ساميةٍ ونفسٍ كبيرة[1] .

قـصَّـة عُـرْوَةَ مَـعَ زَوْجَتِـهِ :

* يظهرُ لنا من أخبارِ عروةَ بنِ الورد بأنَّه كان فارساً عفيفاً ، صادقاً في فروسيّته ، وفيّاً بالعَهْدِ ، من ذلك أنَّه سبى امرأةً من بني كنانةَ في إحدىٰ غزواتِه اسمُها سلمىٰ ، واتَّخذها زوجةً له ، ورُزِقَ منها أولاداً ، ولكنَّها فارقَتْه لأنَّ قومَها كانوا يقولون : إنّها أَمَةُ عروة ، ولنقرأ قصّة ذلك كما جاءَ في المصَادر .

* تقولُ القصَّة : كانَ عروةُ بنُ الوردِ في بعض غاراتِه على مُزَينة ، فأصابَ امرأةً من كنانَة بِكْراً يُقالُ لها سلمىٰ ، فأعجبتْه فاتَّخذَها لنفسِه ، وكانت ذاتَ جمالٍ ودلاَلٍ ، فولدتْ له أولاداً ، وكان شديدَ الحُبِّ لها والإعجابِ بها ، وكانَ ولدُه يُعيَّرون بأُمِّهم ، ويُسَمَّوْنَ بني الأخِيْذَةِ ـ أي السَّبيّة ـ .

* وكانتْ سلمى تتألَّمُ أشدَّ الأَلَم من هذهِ المعاملةِ التي حَفَرَتْ في نفسِها أخاديدَ عظيمة ، ومكثَتْ عنده بضعَ عشرة سنة ، وهو لا يشكُّ في أنَّها أرغبُ النَّاس فيه .

* وذاتَ يومٍ قالت لعروة : يا عروةُ ألا ترىٰ ولَدك يُعيَّرون؟

قال : فماذا تريدين يا أمَّ وَهْب ـ كنية سلمى ـ ؟

* وهناك فكَّرتَ سلمىٰ في طريقةٍ تَصِلُ لها إلى قومها ، فقالت له : أرىٰ أنْ تردَّني إلى قومي حتى يكونوا هم الذين يزوِّجونَك .

---

(١) انظر : الفروسية في الشعر الجاهلي (ص ٣١٧ و٣١٨) بتصرف .

فقال عروةُ: نَعم واللهِ إنَّه لصَواب.

* وحجَّ عروةُ بسلمىٰ، ولقيَه قومُها، وقالُوا له: يا عروةُ فَادِنا بصاحبَتِنا، فإنّا نكرهُ أنْ تكونَ سبيّة عندك.

قال عروةُ: على شَرْطٍ.

قالوا: وما هو يا أبا الصَّعاليك؟

قال: على أنْ نخيّرَها بعد الفِداء، فإنِ اختارتْ قومَها أقامتْ فيهم، وإنِ اختَارتْني خرجتُ بها ـ وكان عروةُ ـ يرىٰ أنَّها لا تختارُ عليه أحداً.

* فأجابوهُ إلى ذلك، وفادوا بِها، ولمّا خيَّروها اختارتْ قومَها علىٰ عروةَ، ثمَّ قالت: يا عروةُ، أمَا واللهِ إنِّي لا أعلمُ امرأةً ألقَتْ سِتراً على خيرٍ منك أغفل عيناً، وأقلّ فحشاً، وأحمى لحقيقتِهِ، ولقد أقمتُ معكَ وما يومٌ يمضي إلاّ والموتُ أحبُّ إليَّ من الحياةِ فيه، وذلك أنّي كنْتُ أسمعُ المرأةَ من قومكَ تقولُ: قالت أمَةُ عروة كذا، وقالت أمَةُ عروة كذا، واللهِ لا نَظَرتُ في وجْهِ غطفانيّة قطّ، فارجعْ راشداً، وأحسنْ إلى ولدِك؛ فقال عروةُ هذه القصيدة الجميلة:

أرقتُ وصُحْبَتي بمضيقِ عمْقٍ ... لبرقٍ في تِهَامَةَ مُستطيرِ
سقىٰ سلمىٰ وأينَ ديارُ سَلمىٰ ... إذا حلَّتْ مجاورة السَّريرِ
إذا حَلَّت بأرضِ بني عليٍّ ... وأهلي بينَ زامرةٍ وكيْرِ
ذكَرْتُ مَنَازِلاً منْ أمِّ وهْبٍ ... محلَّ الحيِّ أسْفَل ذي النَّقيرِ
وأحَدثُ معهداً من أمِّ وهبٍ ... معرَّسُنا بدارِ بني النّضير

ومنْها:

أَلا وأبيكَ لو كاليومِ أمْري ... ومَنْ لكَ بالتَّدبُّرِ في الأمورِ
إذاً لملكْتُ عصْمةَ أُمِّ وهْبٍ ... علىٰ ما كان منْ حَسَكِ الصُّدور

فيـا للنَّـاس كيـفَ غلبـتُ نَفْسـي   علـى شـيءٍ ويكـرهُـه ضَميـري
ألا يـا ليتَنـي عـاصيـتُ طَلْقـاً   وجَبَّـاراً ومَـنْ لـي مِـنْ أميـرِ[1]

مَـنْهَجُـهُ فـي الـحَيَـاةِ:

* من خلالِ سيرةِ عروةَ بنِ الورد، نلمحُ أنَّه فارسُ الصَّعاليكِ بلا منازع، فقد ضربَ لهم المَثَل الجيّد في الإقدامِ والغزوِ والسَّلْب، وقد كان يحثُّ جماعتَه والمتصعْلكين من حولِه على تَركِ حياةِ الخُنوع، ويُطالبُهم بالإقدامِ، وبناءِ الأمجادِ على حدّ ظُباتِ سيوفهم، ويبعثُ فيهم روحَ المغامرةِ ومحاربةَ الظُّلمِ بلسانِهِ وسنانِه.

* فقد كانَ عروةُ شاعِراً وفارساً، أَلِفَ الباديةَ، وألفَ وحوشَها

---

(١) انظر: ديوانه (ص ٣٠ ـ ٣٣) طبعة دار صادر، والشعر والشعراء (٢/ ٦٧٦ و٦٧٧) والأغاني (٣/ ٧٤ ـ ٧٦) مع الجمع والتّصرف. ومعنى: «عمْق» و«مستطير»: منتشرٌ في أفق السَّماء. و«السّرير»: موضعٌ في بلادِ كنانة. و«بنو علي»: قومٌ من كنانة. و«زامرة وكير»: موضعان. و«ذو النَّقير»: ماء لبني القَيْن ولكلْب. و«أمُّ وهب»: كُنية سلمى. «حَسَك الصُّدور»: الغِلُّ والعداوة. و«طلق وجبار»: أخوه وابن عمه. و«أمير»: المقصود هنا: المستشار.
ثم يعقّبُ أبو الفرج الأصفهانيُّ على قصّةِ سلمىٰ مع عروةَ فيقول: ثمَّ فارقَتْهُ. فتزوَّجَها رجلٌ من بني عمِّها، فقالَ لها يوماً منَ الأيَّام: يا سلمىٰ؛ أَثْنِي عليَّ كما أثنيتِ على عروةَ ـ وقد كان قولُها فيهِ شُهِرَ ـ فقالت له: لا تكلّفني ذلك فإنّي إنْ قلتُ الحقَّ غضبتَ، ولا واللاتِ والعزّى لا أَكذِبُ.
فقال: عزمتُ عليكِ لتأْتيني في مجلس قومي فلتُثْنين عليَّ بما تعلمين.
وخرجَ، فجلسَ في نادي القوم، وأقبلتْ فرماهَا القومُ بأبصارِهم، فوقفتْ عليهم وقالتْ: أنعمُوا صَباحاً، إنَّ هذَا عزمَ عليَّ أنْ أثني عليه بما أعلمُ، ثمّ أقبلتْ عليهِ فقالت: واللهِ إنَّ شملتَك ـ كساءَك ـ للالْتِحاف، وإنَّ شربَك لاشْتِفاف ـ تقصّي ما في الإناء وشربه كلّه ـ وإنّك لتنامُ ليلةَ تخاف، وتشبعُ ليلةَ تُضاف، وما تُرضي الأهلَ ولا الجانب، ثمّ انصرفَتْ. فلامَه قومُه وقالوا: ما كان أغناكَ عنْ هذا القولِ منها.
(الأغاني ٣/ ٧٧)

ومفاوزَها ، وعرفَ معنى الحرّية ، كما عرفَ معها معاناة الجوعِ ، تلك المعاناة التي ولّدت عنْدَه الفروسيّة الصّعلوكيّة .

* فعروةُ يمثِّلُ الصُّعْلوكَ الفَارِس ، فهو فارسُ اليأسِ أحياناً ، وبطلُ الحريةِ عندما خيَّمت على مجتمعِه أنماطُ الظُّلم ، فهبَّ يحملُ مسؤوليّة المعيشةِ لنفسهِ ولغيرِه ممن ذاقوا مرارةَ الهوانِ في أقوامِهم .

* ولذلك نجدُه يقطعُ الفيافي والقفَار بحثاً عن موقعةٍ ، ليسجِّل موقفاً منْ مواقفِ الكرم ، أو موقفاً من مواقفِ المروءةِ للجائعين والمُعدمين ، منتقماً لهم من ترَفِ الأغنياء الذين بخلُوا ولم يجودُوا بفائضِ مَالِهم على ذوي الحاجات .

* ولعلَّنا نلحظُ أنَّ عروةَ ما كان يملكُ منْ متاعِ الدُّنيا شيئاً يذكر ، لكنَّه في الوقتِ ذاتهِ يسعىٰ مع جماعتهِ لتحقيقِ نوعٍ من العَدالةِ الاجتماعيّةِ ورفع الظُّلم .

* إنَّ الصَّعاليكَ بعامّةٍ رفضُوا الحياةَ المستضعفةَ ، وطلبوا المغامرةَ ، ومصارعةَ الخطوبِ ، وهم لا يبالُون بصروف الحياةِ ، لكنّهم متحمّسونَ تماماً للعدالةِ ولحياةِ الحريةِ وإنْ كانُوا فقراءَ معدمين ، لذلكَ حفلت أخبارُهم بقَصَصِ مآثرِهم الحقيقيّةِ بعيداً عن المبالغةِ ، حيث نَجِدُ قَصَصهم مرآةً صادقةً لمواقعِ حياتِهم وأحداثِها الغريبة .

* إنَّ الفارسَ الصُّعْلوك منْ أبعدِ النَّاس تعلّقاً بأماني الحياةِ وزخرفها ، فهو راغبٌ عن الدنيا وإن كانَ من أكابرِ عشّاقِ ملاذِّها الطَّبيعيّة المباشرةِ ، لكنَّه يعفُّ عن عيشةٍ مع الذُّلِّ ، وعن غذاءٍ معَ الهوانِ ، وعن عمرٍ بلا مغامرةٍ أو فروسيّة ، كما كانَ يعيشُ هذا كلّه فارسنا عروة بن الورد .

* إنَّ ضيفنَا عروة شخصيةٌ تكادُ تكونُ فريدةً وقائمةً بذاتها في التَّاريخ الجاهليّ ، فهو أوّلاً فارسٌ وهو أكثرُ من شاعر ، إنَّه أبو الصَّعاليك ،

ومأوى مَنْ هُضِم حقُّه؛ إنَّ عروةَ هذا هو الذي دعاهُ سيّدنا معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ فيما بَعْد باسم «ابن مانِعِ الضَّيم»؛ وعروةُ نفسُه وصَفَه عبد الملك بن مروان بقوله: مَنْ زعمَ أنَّ حاتماً ـ أي حاتم الطّائي ـ أسمحُ النَّاسِ فقد ظَلَمَ عروةَ بنَ الورد.

* نعم إنَّ عروَة آلىٰ على نفسهِ ـ بعد أن اضطُهد ـ أنْ يكونَ زعيماً للصَّعاليك، وراحَ يغزو بأعدادٍ منهم البخلاءَ وأصحابَ الثَّرواتِ، ومن ثمَّ يقسمُ الغنائمَ بين جماعتِهِ، وقد كانَ الصَّعاليكُ الفقراء يأتونَه من جميعِ النَّواحي كلما جار عليهم الأغنياءُ، أو أصابَتْهم سنَةُ جَدْب، فيتوافدون على منزلهِ، وينادونه إذا خرجَ: يا أبا الصَّعاليك، يا أبا الصَّعاليك.

* ومن هنا راحَ عروةُ يرسُم سياسةَ الفروسيّة الحقَّة للصَّعاليك، فهو لا يرضيه الصُّعلوكُ الخاملُ الذي لا يسعىٰ لالتماسِ المالِ، وإنّما يريدُهُ أنْ يكونَ فارساً غازياً جريئاً، يخشاهُ النَّاسُ في المحضرِ والمغيبِ، كما يحثُّ الفارسَ الصَّعلوكَ على طلبِ المعالي، وجمعِ المالِ وتوزيعه على مستحقّيهِ منَ المعوزين، وإنَّه ليكرَهُ الصُّعلوكَ الخاملَ المهينَ الحقيرَ الكسولَ الذي يألفُ مَنْحرَ الإبلِ ليأكلَ أو يتناولَ طعاماً من صديقٍ، وينامَ عشاءً ولا يسعىٰ، ويتركَ عيالَه وأتباعَه يتضوَّرون جُوعاً:

لحىٰ اللهُ صُعلوكاً إذا جنَّ ليلُهُ ... مُصافي المُشَاشِ آلفاً كلَّ مَجْزَرِ
يعدُّ الغِنَىٰ منْ دهرِه كلَّ ليلةٍ ... أصابَ قِرَاها من صديقٍ ميسَّرِ
ينامُ عشاءً ثمّ يصبحُ ناعِساً ... يحتّ الحصى عن جنبِهِ المتعفِّرِ
قليلُ التماسِ الزَّادِ إلا لنفسِهِ ... إذا هو أمْسى كالعريشِ المجوَّرِ[1]

---

(١) ديوانه (ص ٣٧) و«مُصافي المشاش»: مختار مؤثر للأكل و«المشاش» رأسُ العظم اللين. و«المجزر»: الموضع الذي يجزرُ فيه للإبل. «يحتُّ الحصى»: لا يبرح الحيّ. «العريش»: شبه الخيمة. «يمسي طليحاً»: يمسي ضعيفاً. و«الكنّ» =

* ويكرهُ عروةُ ذلك الذي يخدمُ نساءَ الحيّ ، ويملأَ بطنَه بالزَّادِ دونَ أنْ يكونَ له رغائب في المجدِ ، ويحبُّ الصُّعلوكَ الفارسَ المُجِدَّ الذي يكرُّ ويفرُّ ويغزو :

يُعيـنُ نسـاءِ الحـيّ مـا يَسْتَعِنَّـه ... ويُمسي طليحاً كـالبعيرِ المُحَسَّرِ
ولكـنَّ صُعلـوكـاً صفيحـةُ وجهـهِ ... كَضَـوءِ شهـابِ القـابـسِ المتنـوّرِ
مطـلاًّ علـىٰ أعـدائِـهِ يـزجـرونَـه ... بِسَـاحتِهـم زجـر المنيـحِ المُشهّـر
فـذلـك إِنْ يَلْـقَ المنيـة يلْقَهـا ... حَميداً وَإِن يَسْتَغْنِ يوماً فأجدر[1]

* وكان عروةُ عملاقاً في شعرِ الفروسيّة والبَسَالةِ ، يأتمُّ الفُرسانُ بِشِعْرِهِ ، ويقتدون بمآثرِهِ الحِسَان ، فقد عاشَ عروةُ فقيراً ، ولكنّه كان سعيداً بأعمالِه ، ويذكرُ عروةُ في شعْرِه أنَّه لنْ يتركَ بعد موتِهِ سوىٰ عدّةِ حَربهِ ، وهي السَّيفُ والرّمحُ والدّرعُ والمِغفْرُ والجوَاد ، وهذا ما سيرثُه وارثوه من بعدهِ ، فلنستمعْ إلى منهجِهِ في هذا :

وذي أمَلٍ يـرجُـو تُـراثـي وإنَّ مـا ... يَصيـرُ لـهُ منْـه غَـداً لقَليـلُ
ومـالـيَ مـالٌ غيـرُ درعٍ ومغفـرٍ ... وأبيـضَ مـن مـاءِ الحـديـدِ صقيـلُ
وأسمـرَ خطـيٍّ القنـاةِ مثقّـفٍ ... وأجـردَ عُـريـانَ السَّـراةِ طـويـلُ

* وكانَ السَّخاءُ والجودُ سجيّةً في نفْسِ عروة ، فقد كانَ يكرهُ البخلاءَ ، وكان أحبُّ شيءٍ إلى نفسه أنْ يسطوَ علىٰ الأغنياءِ البخلاءِ ، ليعطيَ الفقراءَ ، أمّا أولئك الذين عُرِفَ عنهم الجودُ وبسْطُ اليَدِ ، فلم يكنْ يغزوهم أو يعتدي عليهم ، وإنّما كانَ يمدحُهم لجودِهم وكرمِهم ، كما مدحَ مالكَ بنَ حمار الفزاريّ لجودِهِ وسخائِه ، لأنَّه يجدُ في نفسه خلَّة

= صعلوكـاً» : يريـدُ ولكنَّ صعلوكـاً هكـذا وجهُـه لا لَحـاه اللهُ . «مطـلاًّ» : مشرفـاً . «يزجرونه» يصيحون به . «المنيح» : قَدحٌ مستعار سريعُ الخروجِ والفوز يُستعار فيضربُ ثمّ يردّ إلى صاحبه ، والعارية تسمّى المنحة .

الكَرَمِ؛ فكيف لا يمدحهم؟ ترى ماذا قالَ في مديح هذا السّخي مَالِك الفزاريّ؟:

جزىٰ اللهُ خيراً كلّما ذُكِرَ اسْمُه أبا مالكٍ إنْ ذلك الحيُّ أُصْعَدُوا
وزوَّدَ خيراً مالكاً إنَّ مالِكاً لَهُ رِدَّةٌ فينا إذا القومُ زُهَّد[1]

* وإذا ما ناقشتْهُ امرأتُه في هذا التَّبذير ، رفضَ أنْ يسمعَ منها حرفاً واحداً في هذا المجالِ ، بل إنَّ الضَّيفَ عنده في المكانِ الأوفىٰ والأوّل ، وعليه أنْ يقدِّم له كلّ ما في منزلهِ من زادٍ وطعامٍ وشَراب؛ والبشاشةُ في وجهه أوّلُ مَظْهرٍ منْ مظاهرِ إكرامِه ، ففراشُه فراشُ الضَّيف ، ولن يلهوَ عنه بامرأةٍ حَسْناءَ ولا غيرها ، اسمع إلى عروةَ يترجمُ هذا المعنى:

فِراشي فراشُ الضَّيفِ والبيتُ بيتهُ ولم يلْهِني عنْهُ غَزَال مقنَّعُ
أُحدّثُه إنَّ الحَديثَ مِنْ القِرىٰ وتَعْلَمُ نَفْسي أَنَّه سوفَ يهجَعُ[2]

* ولهذا فإنّه أُثِرَ عن الخليفةِ الأمويّ عبدِ الملك بنِ مروان أنَّه قال عن عروةَ وجوده وسخائه وبذله: مَنْ زعم أنَّ حاتماً أسمحُ النَّاس فقد ظلمَ عروةَ بن الورد[3].

* وعلى قَدْرِ حبّ عروة للسَّخاء والجودِ كان بغْضُه للبخلِ والتَّقتير؛ يقولُ منْ قصيدةٍ يذمُّ البُخلَ والبخلاء:

---

(١) ديوانه (ص ٢٨). و«أصعدوا»: أي ارتفعوا في البلاد. و«رِدّة»: أي بقيّة. و«إذا القوم»: أراد جميع العشيرة.

(٢) ديوانه (ص ٤٩). وقريبٌ منْ هذا قول الخريمي ، وقد ذكرتُه في هذا المقام:
أضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رحْلِهِ ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الجودُ للأضيافِ أنْ يكثرَ القِرىٰ ولكنّما وجهُ الكريمِ خصيبُ
(التذكرة الحمدونية ٢/ ٢٧٥)

(٣) الأغاني (٣/ ٧٣).

وقـد عَلمَـتْ سُليمـى أنَّ رأيـي ورأي البخــلِ مُخْتَلِــفٌ شَتيــتُ
وأنّــي لا يــريـنــي البخــلَ رأيٌ سَــواءٌ إنْ عطشْــتُ وإنْ رُويــتُ[1]

وربما كان عروةُ في حاجةٍ ماسّةٍ إلىٰ المالِ ، فيحرمُ نفسَه ويعطي المحتاجَ ، وربما كان ذلك في السَّنَةِ المجدبةِ حيث يبخلُ النَّاس بالطَّعام ، لأنَّ الجود به وقْتَ إذْ يعرّضُ صاحبَه للهلاكِ المُحتَّم ؛ يقولُ مخاطباً زوجته :

قَعيـدَكِ عَمْـرَ اللهِ هَـلْ تعلمينَنـي كـريمـاً إذا اسـودَّ الأنـامـلُ أزْهَـرا
صبوراً على رُزءِ الموالي وحافظاً لعرضيَ حتّى يُؤْكَل النَّبتُ أخْضَرا
أقـبُّ وَمخْمـاصُ الشِّتـاء مـرزَّأٌ إذا اغبـرَّ أولادُ الأذلَّـة أسْفَـرا[2]

* إنَّ عروةَ يبذلُ ويبذلُ وإنْ لم يُسْألَ ، ويعطي ويعطي وإن لمْ يَسْتَجْدِه المحتاجُ ، يهشُّ في وجْهِ المحتاجين ، لأنَّ البشاشةَ أوّل الكرمِ ودليلُ القِرىٰ ؛ يقول :

سَلي الطَّارقَ المُعترَّ يا أمَّ مالكٍ إذا ما أتاني بينَ قِدْري ومَجْزَري
أيسفــرُ وجْهــي إنّــه أوّلُ القِــرى وأبذُلُ معروفي له دونَ مُنْكَري[3]

* هذا ولعروة قصصٌ جميلةٌ أوردَها الأصفهانيُّ في «أغانيه» تشيرُ إلى همّةِ عروةَ وجودِه ، وسيرورةِ سيرته بينَ النَّاس .

* وبعد ، فهذا عروةُ بنُ الورد أبو الصَّعاليك ، ذلك الفارسُ الذي

---

(١) ديوانه (ص ٢١).
(٢) ديوانه (ص ٣٤ و٣٥) و«قعيدك» : قَسم ، كأنّه قال : أذكّرك . «عمر الله» : بقاءُ الله . «رُزْء الموالي» : أيّ منالتهم منّي . و«مرزأ» : أي يُنال منّي ويُصابِ الخير ولا يخيب على أحد . «الأذلة» : الواحدُ ذليل ، أي اللئيم . والمعنىٰ : إذا كانَ الشّتاء واشتدّتِ السَّنةُ آثرتُ الأضيافَ بما عندي فطويتُ بطني ولم تكنْ همّتي الأكل فيعظمُ بطني .
(٣) ديوانه (٤٤).

لقيتْ دعوتُه وسيرتُه أجملَ ترحيبٍ في صدورِ النَّاسِ حتى في بلاطِ الملوكِ والأمراءِ على مرِّ الزَّمن.

* بقي أنْ نعرفَ أنَّ عروةَ ماتَ مقتولاً ، حيث قَتله رجلٌ من بني طهيّة حوالي سنة (٦١٦ م). ولكنَّ أحاديثَ عروة ظلَّت ماثلة في التَّاريخ وبين فرسانِ التَّاريخ وأسخياءِ الفرسان ، وكرمائِهم ، لأنَّ الكرمَ يُولدُ مع المرءِ وينمو مع مرورِ الزَّمن ، فهل نصقُل هذه الخصْلَة التي يحبُّها اللهُ ورسوله؟! اللهم اجعلنا من الأسخياءِ ، واحشرنا في زمرة الأسخياءِ الذين يريدونَ وجهكَ الكريم يا كريم.

* * *




عَنترة بن شدّاد

* هو مثلٌ أعلى في البسالة والبطولة الحربية، وكانت أحاديثُه وأشعاره نواة الملحمة الكبرى في تاريخ الأدب العربي.
* أحدُ أغربة العرب المشهورين في العصر الجاهلي.
* فارس مغوار، عزيز النفس، كريم الأخلاق.




فـي رحـابِ الـشُّهْـرَةِ:

* لعلَّ أكثرَ النَّاسِ علىٰ اختلافِ طبقَاتِهم وثقافاتِهم يعرفونَ أخبارَ وحكاياتِ فارسِ اليوم؛ بل إنَّ كلَّ عشرةِ أشخاصٍ يعرفُ تسعةٌ منهم سيرةَ هذا الفارسِ العملاق الذي عُرِفَ بالشَّجاعةِ والإقدامِ، وطارَ صيتُه في عالَم الشَّجاعةِ منذُ مئاتِ السّنين إلى عصرِنا الحاضر.

* فقد احتفظتْ ذاكرةُ العربِ على مدىٰ تعاقُبِ الأجيالِ والأزمانِ بشخصيةٍ من أبرزِ شخصيّاتها، وفارسٍ من أشجعِ فرسانِها، فكانَ المثل الأعلىٰ في البَسالةِ والبطولةِ الحربيّةِ، وكانتْ أحاديثُه وأشعارهُ نواةَ الملحمةِ الكُبرىٰ في تاريخِ الأدبِ العَربيّ.

* ولا أدري ما السَّببُ الذي جعَلَ النَّاس قديماً وحديثاً يهتمُّون بسيرةِ هذا الفارسِ وأشعارِه وحكاياتِه التي حلَّقَتْ في سماءِ الشُّهرةِ إلى حدِّ الأُسطورة!!.

* ولعلَّ من أسبابِ ذلك أنَّ بطلَنا اليومَ قد تمثَّلتْ في فروسيّتهِ معاني الرُّجولةِ العربيةِ الكاملةِ؛ تمثّلت في أفعالِه وأعمالِه، في عفّتهِ وكرمِه، وفي رقَّتِه التي لا تنتهي به إلى الضَّعْف، وصلابتِه التي لا تنتهي به إلى العُنْف، فهو رجلُ حياءٍ وتكرّم، تمثّلت بفخرِه الصّورة الصّادقة لنفسيّته الرّفيعةِ التي تأبىٰ القيود، وتسمو إلى العَلاءِ والعلياءِ، ولا تقبلُ الذُّلَّ والصَّغار، وهو بعد هذا كلّه فارسٌ تتمثَّلُ فيه الفروسيّةُ الحربيّةُ في أقوىٰ صورِها، وأروعِ معانيها.

* لقد تحدَّثَ الرُّواةُ والأخباريّون عن بطولةِ هذا الفارسِ، وأكثروا منْ

حديثِهم عن شجاعتهِ ، فقد ذكرَه عبدُ القادرِ البغداديّ في «خِزانتِه» ووصفَه بأنَّه كان أشجعَ أهلِ زمانِه وأجودِهم بما ملكتْ يده ، وكان شَهدَ حربَ داحس والغبراء وحُمِدَتْ مشاهدُه فيها[1] .

* تَرى من هذا الفارس الذي ملأَ الدُّنيا وشَغَل النَّاس ، وردَّد الزَّمان كلماتِه ، وأبرزَ بطولاتِه ، وتغنّى بسيرته النّاسُ في الشَّرقِ والغرب؟!

* هذا الفارس هو عنترةُ بنُ شدّاد العبْسيّ[1] ، فارسُ الزّمان ، وأسدُ الشُّجعان ، وعبقريُّ الحربِ والنّزال.

* سردَ ابنُ قتيبةَ نسبه فقال: هو عنترةُ بنُ عمرو بنِ شداد بنِ عمرو بنِ قراد بن مخزوم العبْسيّ.

* وقال ابنُ الكلبيّ: شدّادُ جدُّه أبو أبيه ، غَلب على اسمِ أبيه ، فنُسِبَ إليه ، وإنّما هو عنترةُ بنُ عمرو بنِ شدَّاد.

* وقال غيرهُ: شدّادُ عمُّه ، وكان عنترةُ نشأ في حجره ، فنُسبَ إليهِ دون أبيه[2] .

* وعنترةُ واحدٌ ممن لعبتِ الشُّهرة دورها في حياتِهم فأخذوا أكثرَ منْ نصيبهم ، ودارت قَصَصُهم علىٰ الألسنةِ وفي المجالسِ والمنتدياتِ؛ ولعلَّ الحظَّ له دورٌ في هذا المجالِ ، أو الدِّعاية ، أو حتى السّيرة الذّاتية للمشاهيرِ لأنَّها تداعبُ الأحاسيسَ أحياناً ، وتدغدغُ العواطف.

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٤) ، وخزانة الأدب (١/ ٥٩ ـ ٦٢) ، وجمهرة أشعار العرب (ص ٣٤٧ ـ ٣٧٥) ، والاشتقاق (ص ٢٨٠) ، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٧٩ ـ ٤٨٤) ، والأغاني (٨/ ٢٤٤ ـ ٢٥٣) طبعة بيروت ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٩٠ و٢٩١ و٤٠٠) ، وديوان عنترة عدة طبعات ، بالإضافة إلى مصادر كثيرة جداً تختلف طولاً وقصراً في ترجمته.

(٢) الشّعر والشُّعراء (١/ ٢٥٠).

* أمّا اسمُ عنترة فقد شَغَل علماءَ اللغةِ أيضاً ، ومعظمُهم كتَبَهُ ورسمَه «عنترة» بإثباتِ التَّاء ، ولقد وردَ اسمُ عنترةَ في معلّقته في موضعَيْنِ ، ولكنْ بحذفِ التَّاء ، وذلك في قولِه :

ولقد شَفىٰ نَفْسي وأبرأَ سُقْمَها   قيلُ الفَوارسِ ويكَ عنترَ أَقْدمِ

يدعونَ عنترَ وَالرّماحُ كأنَّها   أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأَدهمِ

* ولعلَّ الذي قُصِدَ هنا أنْ يكونَ الاسمُ على النِّداء ترخيماً ، وقد جاءَ هذا في لُغَة العرب ، وأوردَ الميدانيُّ في «مَجْمعِه» هذا فقال : إنَّ شداداً العبسيَّ قال لابنه عنترةَ في يوم لقاءٍ ، ورآه يتقاعسُ عن الحربِ وقد حَميتْ : كرَّ عنترَ[1] ؛ فشدّادُ قد عمَد هنا إلى التَّرخيم .

* وكان عنترةُ متعدِّد الكُنىٰ والألقاب ، فمن كُناه : أبو المغلِّس[2] لغاراتِه في الغَلَسِ ، وأبو عَبْلَة[3] . ومن ألقابه : عنترةُ الفوارس[4] لشَجاعته ، وعنترةُ الفَلْحاء[5] لانشقاقِ شفته السُّفْلى .

* وعنترةُ بنُ شداد أحدُ أغربةِ[6] العربِ المشهورين في العصْر الجاهليّ ، وقد سُمُّوا بذلك لسوادِهم وهم ثلاثة : عنترةُ ، وأمُّه زبيبةُ سوداء ، وخُفافُ بنُ ندبة السُّلميّ[7] ، وأمُّه ندبةُ ، وإليها ينْتَسِب .

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٢٤٤)؛ وهناك أكثر من شاعر اسمه عنترة مثل : عنترة بن الأخرس الطائي ، وعنترة بن عروس . (المؤتلف والمختلف ص ١٥١) .
(٢) المزهر (٢/ ٤٢٤) ، وشرح ديوان الحماسة (١/ ٢١٨) .
(٣) شرح ديوان الحماسة (١/ ٢١٨) ، وشرح القصائد السبع الطوال (ص ٢٩٣) .
(٤) العقد الفريد (٥/ ١٥٣) .
(٥) شرح شواهد المغني (١/ ٤٨٢) ، والمخصص (٣/ ٤٧) ، والمزهر (٢/ ٤٣٢) ، ومقاييس اللغة (٤/ ١٦١) .
(٦) «أغربة العرب» : سودانهم ، شُبّهوا بالأغربة في لونهم .
(٧) خُفافُ بنُ عُمير بنِ الحارث السُّلميّ ، ونُدْبة أمُّه وهي أَمَةٌ سوداء ، وكانَ خفافُ =

والسُّليكُ بنُ السُّلكة[1] ، وأمُّه السُّلكة ، وإليها ينْسبُ وكانتْ سوداء أيضاً.

= أسودَ أيضاً ، وهو شاعرٌ منْ شعراءِ الجاهليّةِ ، وفارسٌ منْ فرسانِهم ، وجعلَه ابنُ سلاّم في الطَّبقةِ الخامسةِ من الفرسانِ مع مالكِ بنِ نُويرة اليربوعيّ التّميميّ.

كان خفاف بن ندبة فارساً شجاعاً شاعراً ومن شعرِه عندما قتلَ سيّدَ بني فزارة مالك ابنَ حمار فارس بني فزارة وسيّدهم:

فإنْ تكُ خَيلي قد أُصيبَ صميمُها ... فعمْداً على عيني تيمَمْتُ مالِكا

رفعتُ له ما جرَّ إذ جرَّ موته ... لأبنيَ مجداً أو لأثأرَ هالِكا

أقولُ له والرّمحُ يأطرُ متْنَه ... تأمَّل خُفافاً إنّني أنا ذَلِكا

وأكثرُ شعرِه مناقضات مع العبّاسِ بنِ مرداس السُّلمي ومنه:

أعبّاسُ إمّا كرِهْتَ الحروبَ ... فقد ذُقْتَ من عضِّها ما كفَى

فلمّا ترقيتَ في غيِّها ... دحضْتَ وزلَّ بك المُرتقَى

وخُفافُ من المخضرمين عاش في الجاهليةِ وأدركَ الإسلامِ فأسلم ، شهد فتح مكةَ مع رسول الله ﷺ ، وكان معه لواءُ بني سُليم ، وكان أحدَ فُرسان قيس ، وهو ممن شهدَ غزوةَ حُنين والطائف مع رسول الله ﷺ ، وله في مدحِ سيِّدنا أبي بكر الصِّديق ـ عليه سحابات الرضوان ـ أبياتٌ منها قوله:

إنَّ أبا بكرٍ هو الغيثُ إذا ... لم يشملِ الأرضَ سحابٌ بماء

أبلجُ ذو عرفٍ وذو مُنكرٍ ... مقسمُ المعروفِ رحبُ الفَناء

وبقيَ خُفاف إلى زمانِ سيدنا عمر رضي الله عنهما. (نوادر المخطوطات ١/ ١٠٤) و(الأغاني ١٨/ ٨١ ـ ٩٩)

(١) السُّليك بن عمرو بن يثربيّ ، والسُّلكة أمُّهُ وهي أمَةٌ سوداء ، وهو أحدُ صعاليكِ العربِ العدّائين الذين كانوا لا يُلحقون ، ولا تَعْلَقُ بهم الخيلُ إذا عدوا ، وهم: السُّليك ، والشّنفرىٰ ، وتأبّط شرّاً ، وعمرو بنُ براق ، ونفيلُ بنُ براقة.

وكانَ السُّليكُ منْ أشدِّ رجالِ العربِ وأنكرهم وأشعرِهم ، وكانتِ العربُ تدعوه سُليك المقَانب ـ الخيلُ منَ الثّلاثين إلىٰ الأربعين ـ وكانَ أعلمَ النّاس بالأرضِ ، ومسالِكها ، وأشدَّهم عدواً على قدمَيه ، لا تَعْلَقُ به الخيلُ ، وله غاراتٌ وأخبارٌ مشهورةٌ وقَصصٌ غريبةٌ ذكرها الأصفهانيّ ، ومات السُّليك مقتولاً في قصّة طريفة ذكرها الأصبهاني. (الأغاني ٢٠/ ٣٨٩ ـ ٤٠٢)

ومنَ العجيبِ والطَّريف معاً أنَّ عنترةَ بنَ شداد أشهرُ الأغربةِ الثَّلاثة[1] بالفروسيّة؛ بل إنَّه منْ أشهرِ فُرسانِ العربِ المعدودين المشهورين بالنَّجدة ، وكان يُقال له: عنترةُ الفَوارس؛ ولعلَّ هذا اللَّقَب لمْ يلتصقْ بهِ عن عبثٍ ، وإنّما كانَ يستخدمُ عَقْلَه وذكاءَه وتجرِبَتَه الحربيَّة في قتالِهِ ، وفي إظهارِ فروسيّتـهِ ، وكان يعرفُ من أين تُـؤكلُ الكتِفُ في هذا المضمار.

* قال الهيثمُ بنُ عدي: قيل لعنترةَ: أأنتَ أشجعُ العربِ وأشدّها؟

قال عنترةُ: لا ، هناك مَنْ هو أشجعُ وأفرسُ وأشدُّ.

قيل: فبِمَ شاعَ لك هذا الصِّيت في النَّاس؟!!

قال: ذلك من فنونِ الفروسيّة والقِتال.

قيل: كيفَ؟

قال عنترةُ: كنتُ إذا شمَّرتِ الحربُ عن ساقِها أقدمُ إذا رأيتُ الإقدامُ عزماً ومضاءً ، وأحجمُ إذا رأيتُ الإحجام حزماً ورأياً ، ولا أدخلُ موضعاً إلاّ أرىٰ لي منْه مخرجاً ومنفذاً ، وكنتُ أعتمدُ الضَّعيفَ الجبانَ الرّعديد ،

---

(١) وردَ اسم عنترةَ والأغربةِ الثّلاثةِ في شعرِ جريرِ بنِ عطيّةَ الخطفِيّ فقال:

كـانَ ابـنُ نَـدبـةَ فيكـمُ مـنْ نَجلِنـا ... وخُفـــافُ المتحمِّـــلِ الأَثْقَـــالا

وابْنَـــا زبيبـــةَ عنتـــرٌ وهـــراســـةٌ ... مـــا إنْ نـــرىٰ فيكـــمْ لهـــمْ أمْثَـــالا

وسليـكُ الليـثُ الهـزبـرُ إذا عـدَا ... والقَـــرْمُ عبّـــاسٌ علـــوكَ فِعَـــالا

قال أبو عثمانُ الجاحِظُ: ثم ذكرَ أبناءَ الزّنجيات حين نَزعُوا إلى الزّنجِ في البسالةِ والأَنَفَةِ ، فذكرَ خُفافَ بنَ ندبة ، وعبّاسَ بنَ مرداس ، وابني شدّاد: عنترة الفوارس وأخاه هراسَة ، وسُليكَ بنَ السُّلكة ، فهؤلاء أشدُّ الرِّجال ، وأشدُّهم قُلوباً ، وأشجعُهم بأساً ، وبهم يضربُ المثَل. (رسائل الجاحظ ١/ ١٩٢)

فأضربُه الضَّربةَ الهائلة يطيرُ لها قلبُ الشَّجاع ، ثمَّ أُثنِّي عليه فأقتلهُ ، فهذا سببُ شَجاعتي[1] .

عَـنْـتَرةُ الـفَـارِسُ البَـطَـلُ:

* حدَّثَ عمرُ بنُ شبَّة قال: قال عمرُ بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ للحطيئةِ الشَّاعر: كيف كنتمْ في حربكم؟

قال: يا أميرَ المؤمنين ، كنّا ألفَ فارسٍ حازم.

قال عمرُ: وكيف يكونُ ذلك يا جَرْوَل ـ اسم الحُطيئة ـ ؟!

قال: يا أميرَ المؤمنين؛ كانَ قيسُ بنُ زُهير فينا وكانَ حازماً ، فكنّا لا نعصيِه ، وكان فارسَنا عنترةُ بنُ شداد فكنّا نحملُ إذا حملَ ، ونحجمُ إذا أحجمَ. وكان فينا الرَّبيعُ بنُ زياد وكان ذا رأيٍ فكُنَّا نستشيرُهُ ولا نخالفهُ ، وكان فينا عروةُ بنُ الورد فكنّا نأتمُّ بشعرِه ، فكنّا كما وصفتُ لك.

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: صدقْتَ يا هذا[1] .

* ومما لا شكَّ فيه أنَّ حياةَ عنترةَ بنِ شداد مثيرةٌ وجميلةٌ ، ولعلَّ بعضَ الأحداثِ التي صاحبَتْ حياته جعلتْهُ في هذهِ المكانةِ الشَّهيرةِ المثيرةِ.

* وكانت نشأتُه في نَجْدٍ من أكبرِ الأسبابِ التي جعلتْه فارساً شهيراً من الطِّراز الأوّل ، وبطلاً شجاعاً مِقداماً لا يهابُ الموت.

* كان عنترةُ باديءَ ذي بدءٍ عبداً يرعىٰ الإبل مُحتقراً في أعينِ الأقاربِ والأباعدِ ، ولعلَّه قد عاشَ زمناً طويلاً عبداً مغموراً مثل غيرِه من العبيدِ والإماءِ والخَدمِ الذين يجيئونَ ويروحونَ ويموتونَ ولا يدري بهمْ أحدٌ ، والذين مرُّوا في حياةِ العربِ في جاهليتِهم لا يحسنونَ منْ حياتهم إلاّ

---

(١) الأغاني (٨/ ٢٥١) بتصرف ، وانظر: شعراء النّصرانيّة (ص ٧٩٨).

الخدمةَ وإلاّ العملَ وحلْب النّياق والإبل ، يمضون أيامَهم مع الأنعامِ في مراعيها.

* ويظهرُ أنَّ عنترةَ كانت حياتُه في بدايتها هكذا ، حيث كانَ في معزلٍ عن الشُّهرة بينَ النَّاسِ وحسنِ الصِّيت ، يُضاف إلى ذلك كلّه أنَّ أباه لم يعترفْ به ولم يلحقْه في نسبهِ إلا متأخّراً وبعد كِبره.

* بيد أنَّ نشأة الباديةِ أكسبَتْه الفروسيّةَ والبطولةَ ، ومنحتْهُ الجسمَ القويَّ ، وجعلَتْه بطلَ الأسطورةِ وأسطورةَ الأبطال(١).

* وكان عنترةُ ابناً لأبٍ عربيّ صميم ، وأمُّه سوداءُ من الإماءِ اللواتي كان يتسرّىٰ بِهنَّ أبوهُ ، ولم يحفظِ التَّاريخُ اسمَها ويشهرها لولا شهرةُ ابنها عنترة.

* يروي السُّيوطيُّ نقلاً عن شارحِ المعلّقات أنَّ عنترةَ كانت أمُّه حبشيةٌ تدعىٰ زبيبةُ ، فوقع عليها أبوهُ ، فأتتْ بهِ ، فقال لأولادِه: إنَّ هذا الغُلامَ وَلَدي.

قالوا: كذبتَ أنتَ شيخٌ قد خرفتَ ، تدّعي أولادَ النَّاسِ.

* فلما شبَّ قالُوا له: اذهبْ فارعَ الإبلَ والغَنَم ، واحلبْ وصرَّ.

* فانطلقَ يرعىٰ ، وباعَ منها ذوداً ، واشترىٰ بثمنِه سيفاً ورمْحاً وتُرساً ودِرْعاً ومِغْفَراً ، ودفَنَها في الرَّمل.

* وكانَ له مهْرٌ يسقيهِ ألبانَ الإبلِ ، وكانَ في الجاهليّةِ أنَّه مَنْ غلبَ سَبَا ؛

---

(١) أمّا سيرةُ عنترةَ التي تكوّنَتْ وتبلْوَرتْ حولَ حياتِه ، ففيها تمجيدٌ مثاليٌّ للصّورة التّاريخية لشخصيّته ، علىٰ نحو طمسٍ كثيرٍ منْ ملامحِها الحقيقية ، فلم تبقَ فيها منَ الحقائقِ التّاريخية المؤكّدة إلا نقاطٌ يسيرة. وزادتِ الأفلامُ السّينمائية الطّين بلّة فشوّهت ما تبقّى من حقائقَ في قوالبَ تمثيلية مثيرة.

وأنَّ عنترةَ قد جاءَ ذاتَ يومٍ إلى الماءِ ، فلم يَجِدْ أحداً منَ الحيّ ، فبُهِتَ وتحيَّر حتى هتفَ به هاتفٌ : أدركِ الحيَّ في موضعِ كذَا ، فعمدَ إلى سلاحِهِ فأخرجَه ، وإلى مُهْرِه فأسرجَه ، واتَّبع القومَ الذين سَبوا أهلَه ، فكرَّ عليهم ، ففرَّقَ جمعهَم ، وقتلَ منهم ثمانيةَ نفَر ، فقالوا له : ما تريد؟

فقال : أريدُ العجوزَ السَّوداء والشَّيخَ الذي معَها ـ يعني أمَّه وأبَاه ـ فردُّوهما عليه .

فقال له عمُّه : يا بني كُرَّ .

فقال : العبدُ لا يكرُّ ، لكنْ يحلِبُ ويصرُّ .

فأعادَ عليه القولَ ثلاثاً ، وهو يجيبُه كذلك .

فقال له : إنَّك ابنُ أخي ، وقد زوجتُك ابنتي عَبْلَة .

* فكرَّ عليهم ، فصرعَ منهم عشَرة ، فقالُوا له : ما تُريد؟ قال : الشَّيخ والجارية ـ يعني عمّه وابنته ـ فردّوهما عليه .

* ثم قال لهم : إنَّه لقبيحٌ أنْ أرجعَ عنكم وجيراني في أيديكم؛ فأبوا فكرَّ عليهم حتى صرعَ منهم أربعينَ رجُلاً قتلى وجرحىٰ ، فردُّوا عليه جيرانَه ، ولذا أنشد عنترة :

لمّا رأيتُ القومَ أقبَل جمعُهم ... يتَذامَرون كررْتُ غيرَ مُذمّمِ
يدعونَ عنترَ والرِّماحُ كأنَّها ... أَشْطَانُ بئرٍ في لبَانِ الأدهَمِ
ولقد شَفَىٰ نَفْسي وأبرأَ سُقْمَها ... قيلُ الفَوارس ويك عنترَ أَقْدمِ[1]

* والحقيقةُ : فعنترةُ في هذه الأبياتِ شاعرُ الفُرسانِ ، وفارسُ الشُّعراء ، وليثُ الميدانِ ، وقد تجمَّعَتْ في شخصيّته كلُّ صفاتِ البطلِ

---

(١) انظر : شرح شواهد المغني (١/ ٤٨١ و٤٨٢) .

الفارسِ الشَّهم الغَيور[1] الذي كانوا يعدُّونه ذخيرةً لوقتِ الخطرِ ، وأهلاً للاعتمادِ عليه في القتالِ ، فهو الشُّجاع القويُّ الصّنديد ، صاحب العقلِ في الحرب ، والقوة في الشَّرفِ والكرامة[2] .

* أمّا ابنُ قُتيبة فيروي قصّةً أخرىٰ عن سبب ادّعاء والد عنترة لابنهِ فقال ما نصُّه: وإنّما ادّعاه أبوهُ بعد الكِبر ، وذلك لأنَّ أمَّه سوداء يُقال لها: زَبيبة؛ وكانتِ العربُ في الجاهليّة إذا كانَ للرَّجُل منهم ولدٌ من أمَةٍ استعْبدَه ، وكان لعنترة إخوةٌ من أمِّه عبيد ، وكان سببُ ادّعاءِ أبي عنترةَ إيّاه أنَّ بعضَ أحياءِ العربِ أغاروا على قومٍ منْ بني عبس ، فأصابوا منهم ، فتبِعهم العبسيّون ، فلحقوهم فقاتلُوهم عما معهم ، وعنترةُ فيهم ، فقال له أبوهُ: كُرَّ يا عنتر!

فقال عنترةُ: العبدُ لا يحسن الكَرَّ ، إنّما يحسنُ الحلابَ والصَّرَّ.

فقال: كُرَّ وأنْتَ حرٌّ ، فكرَّ وهو يقول:

كُلُّ امرىءٍ يحمي حِرَه أسْوَدَه وأحمْرَه
وَالوَارداتِ مشْفَره

وقاتلَ يومئذٍ فأبلىٰ ، واستنقذَ ما كان بأيدي عدوّهم من الغنيمةِ ، فادّعاه أبوه بعد ذلك ، وألَحقَ به نسَبه[3] .

---

(١) منْ هذا المنطلقِ كانتِ المرأة عَصْرَ ذاك باعثاً قويّاً منْ بواعثِ الفروسيّةِ ، ومُنطلقاً واسِعاً منْ منطلقاتِها الرَّحْبة ، ومجالاً فسيحاً يُظهرُ فيه الفرسانُ بطولاتِهم النَّادرة كما صنعَ عنترةُ هنا من أجْلِ خلاصِ عبلةَ من السَّبي والأَسْر ، وقاسىٰ كثيراً من الهوانِ بسببِها كما تدلُّ أخبارُه على ذلك.

(٢) عُرِفَ عنترةُ منذ زمنٍ مبكّر بوصفِه بطلاً جاهليّاً ، وبشعرِه في الغَزل ، وما تزالُ ذكرى عنترةَ باقية في الشّرق ـ خاصة ـ إلى اليوم تتناقلها الأجيالُ للأجيال.

(٣) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٠ و٢٥١).

* ولعلَّه مما أسلفنا نجدُ أنَّ عنترةَ قد بدأتْ شهرتُه تحلِّقُ في سماءِ المشاهيرِ منذ أنِ اعترفَ به أبوهُ وألحقَه بنسبِه ، وذلك بعد أنْ بلغَ أبوهُ من الكبرِ عتياً ، وبعد أنْ أبلىٰ عنترةُ في الحربِ ذلك البلاءَ الحسنَ المحمودَ ، ولا يعظُمُ هذا البلاءُ ـ على الأغلبِ ـ إلا بعد أنْ تتكرّرَ من الإنسانِ البطولةُ والشَّجاعةُ ، ويحقِّقُ النَّصْرَ والغنيمةَ .

* وهكذا غدا عنترةُ علماً مشرِقاً ولواءً خافقاً ، ورجلاً فذّاً ، وفارساً معلماً في تاريخنا العربيّ والأدبيّ ، وغدتْ سيرتُه تذاعُ في كُلِّ النوادي ، وبين مختلفِ النَّاس على اختلافِ طبقاتِهم وألوانِهم وأشكالِهم وثقافاتهم .

فُـرُوسِيّـتُــهُ وَشَـمَـائِـلُـهُ :

* اهتمَّ عنترةُ بنُ شداد في أحاديثِهِ وفي أشعارِه بالحديث عن طيبِ محتدِه وعنصرِه ، لأنَّ البطلَ الحقيقيَّ ـ في رأي العرب القَدماء ـ مَنْ كانَ نَبيلَ النَّسبِ من آباءٍ كرماءَ ، ومنْ أصلٍ عربيّ عريقٍ ، لم يختلطْ نسبُه ، ولذلك اتّفقُوا ألّا يلحقوا أولادَ الإماءِ بنسبِهم ، ويروي تاريخُ عنترة أنَّه لولا بطولتُه وشهامتُه لما استلحقه أبوه بنسبه .

* فمنَ المعروف بالاتّفاق أنَّ أمَّ عنترةَ أَمَةٌ حبشيّةٌ اسمُها زبيبة[1] ، أَولدَها شدادُ عنترةَ ، وقد تحدَّثَ عنترةُ نفسُه في شعرِه عن أمِّه زبيبةَ ، وذكرَ بأنَّها سوداءُ من آلِ حام فقال من قصيدةٍ طويلة تعدُّ (٤٣ بيتاً) منها :

إنّي لتُعْرفُ في الحُروبِ مَواطني ... فـي آلِ عَبْـسٍ مشْهـدي وفعَـالـي
منْهـم أَبـي حقّـاً فَهـمْ لـي والـدٌ ... والأُمُّ مِـنْ حـامٍ فهـمْ أخْـوالـي
وأنَـا المنيّـةُ حيـن تشتجـرُ القَنـا ... والطَّعـنُ منّـي سَـابِـقُ الآجَـالِ

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٠) ، والمقاصد النحوية (٢/ ٤٧٨) ، وخزانة الأدب (١/ ١٣٩) وغيرها .

مَنْ مثلُ قَومي حينَ تختلفُ القَنَا ... وَإذَا تــزولُ مقَــادِمُ الأَبطــالِ
المُطعِمـونَ ومـا عليهـمْ نِعمَـةٌ ... والأكْـرمُـون أَبـاً ومَحْتِـدَ خَـالِ
إنّا إذا حَمسَ الوغىٰ نُروي القَنا ... وَنَعـفُّ عنـدَ مقـاسِـمِ الأَنْفـالِ
مِـنْ كـلّ أروعَ للكُمـاةِ منـازِلٌ ... نـاجٍ مـنَ الغَمـراتِ كـالـرِّئبـالِ
وإذا الأُمـورُ تحـوَّلـتْ أَلفيتَهُـم ... عِصَمَ الهَـوالـكِ سـاعَـة الـزِّلْـزالِ
وهمُ الحماةُ إذا النِّساءُ تحسَّرتْ ... يـومَ الحفـاظِ وكـانَ يـومَ نـزالِ
يُقْصونَ ذا الأنفِ الحميِّ وفيهمُ ... حلْـمٌ وليسَ حـرامُهُـم بحـلالِ[1]

* وذكرَ ابنُ قتيبةَ في «الشِّعر والشُّعراء» أنَّ عنترةَ: يفخرُ بأخوالِه منَ السُّودان.

* وقد وردَ أنَّ عدمَ إلحاقِ عنترة بقومهِ في النَّسب كان له أثرٌ كبيرٌ في نفسِه ، حيثُ جعلَه يفخرُ بشعرِه في بطولتِهِ مؤكّداً أنَّ أفعالَه الكريمةَ ، وأنَّ شجاعتَه وبأسَه خيرٌ ممّا فاتَه منَ النَّسبِ العريقِ من جهةِ أُمّه ، فهو وإنْ كانَ ابنَ أمَةٍ حبشيّةٍ ، إلاّ أنَّ له فِعالاً مشرقةً تشرّفُه وتعوّضُ ما فاتَه ، وفي هذا يقولُ من قصيدةٍ طويلةٍ تبلغُ (٢٢ بيتاً) :

إنّي امرؤٌ مِنْ خيرِ عَبْس منْصباً ... شَطْري وأحمِي سائري بالمُنْصلِ
وَإِذَا الكَتيبةُ أحْجَمتْ وتلاحَظَتْ ... ألفَيْـتُ خيـراً مـن معـمٍّ مخـولِ
والخَيـلُ تَعلـمُ والفَـوارِسُ أنَّـني ... فـرَّقْـتُ جمعهـمُ بطعنـةِ فَيْصَـلِ
وإذا حَملتُ علىٰ الكريهةِ لَمْ أقلْ ... بَعْـدَ الكـريهـةِ ليتنـي لـم أفْعَـلَ[2]

---

(١) ديوانه (ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨) بتصرف وانتقاء ، وأورد ابن قتيبة بيتين من هذه القصيدة في كتابه الشعر والشعراء .

(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٢٤٦ ـ ٢٥٢) ، والشعر والشعراء (١/ ٢٥٣ و٢٥٤) ، وشرحَ ابنُ قتيبةَ البيتَيْن الأولَين فقال : النصفُ من نسَبي في خيرِ بني عبس ، وأحمي النّصف الآخرَ وهو نَسبَهُ في السُّودان ، فأشرّفُه أيضاً ، وانظر الحماسة البصرية (١/ ٦٢ و٦٣) .

* إذاً ، كان شرفُ الأصلِ من أهمِّ خصائصِ الشَّخصِ الكاملِ البطلِ الصِّنديد ، وقد حظي عنترةُ بشطرِ هذا الشَّرف . أمَّا منْ كانَ خسيسَ الأصلِ أو هجيناً ، فلا يصلُ إلى مرتبةِ الكمالِ في الفروسيّةِ ، ولا يُعْتَبُر علىٰ أيِّ حالٍ مثلُ الأصيل . فذو النَّسبِ العريقِ هو المحترمُ المبجَّل ، وهو أهلٌ لأنْ يُخاصَمَ ويقارَعَ ويُقتصَّ منه ، ولولا أنْ كانَ عنترةُ منْ أشدّاءِ الفرسانِ وشجعانهم لما وصلَ إلى ما وصلَ إليه من مكانةٍ في ميدانِ الفُرسان وعالم الفروسيّة .

* ويُضافُ إلى ذلك كُلّه أنَّ عنترةَ كانَ فارساً مغْواراً جريئاً ، عزيزَ النَّفْس ، أصْيَدَ ، أبيّاً ، لا يرضىٰ خطَّةَ خَسْفٍ ، ولا يخضعُ للظّلمِ ، فالحريةُ مبدؤه ، والموتُ خيرٌ له من حياةِ الذُّلّ والقَهْر[1] .

* وعنترةُ دائماً هو الغالبُ لا المغلوب ، والظَّالمُ لا المظلوم ، وهو طموحٌ ، كبيرٌ لا صغيرٌ ، لا يقرُّ لهوانٍ ، ولا يتحمّل إساءةَ غيرِه ، حازمٌ في أمرِه ، لا يتردَّدُ ، وإذا صمَّم علىٰ شيءٍ نفَّذَه دونَ أنْ يردَّه أيّ عائق ، ودون أنْ يلتفتَ إلى نسبِ أُمّهِ ، فهو من خيرِ عبْسٍ وإن كانت أمُّه من آل حَام[2] .

* وعنترةُ هو الفارسُ الكبيرُ ، ذو الشَّأْن الخطيرِ ، وقد كانَ للفُرسان

---

(١) شعراء النصرانية (ص ٨٦٢) .

(٢) يؤكّدُ عنترةُ في أكثرَ من موضعٍ بأنَّ أمَّه سوداء من آلِ حامٍ ، ولكنّه يذكرُ أصْله العبسيّ ويؤكّد على شجاعَتهِ في قصيدةٍ ميميّةٍ منها يصفُ تقدّمَه وإقدامَه :

يُقَـدِّمُـهُ فتـىً مـن خيـرِ عبْـسٍ	أبـوه وأمُّـه مـنْ آلِ حَـامِ
عجـوزٌ مـن بنـي حـام بـن نـوحٍ	كـأنّ جبينَهـا حجـرُ المقَـامِ
وَقِـرْنٍ قـد تـركـتُ لَـدى مكـرٍّ	صـريعـاً بيـنَ أصـداءٍ وَهَـامِ
تبيـتُ نسـاؤُه عُجـلاً عليـهِ	يُـراوحْـنَ التفجُّـع بـالنّـدامِ

(ديوانه ص ٢٤٥) بتصرف

عند العربِ في عَصْر الجاهليّة المقامُ الأكبرُ والمكانةُ الأولىٰ بين العشائِر والقبائِل ، لأنّهم عنوانُ الشَّجاعَةِ ، وملاذُ القبيلةِ ، وحماتُها عند احتدام المعارك ، وكانتِ الفُروسيّةُ حديثَ النَّاس وأقاصيصَهم ، وكانت كذلك حافِزاً قويّاً للاقتداءِ ، وشحذَ الهِممِ ، والسَّيرَ في الطَّريقِ الذي رسمَه الفارسُ لنفسِه ، وقد ظلتْ أحاديثُ الفُرسان حيّةً في نفوسِ الأجيالِ عقبَ الأجيالِ ، يستلهمونَ منها القوّة ويستمدونَ العونَ .

* ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ الحياةَ الجاهليَّةَ نفسَها كانت تفرِضُ على أبنائِها أدبَ الفروسيّة ، وتعلّمُهم تمجيدَ البطولةِ ، وذكرَ حوادثِ الأيّامِ والحروبِ والانتصارات ، لأنَّ ذلك كلّه نابغٌ منْ أعماقِ العربيّ الذي عاشَ حياةَ القتالِ والنّزالِ .

فالبيئةُ التي ينشأُ فيها الفارسُ الجاهليُّ ، هي التي تجعلُ عودَه صلْباً ، وتجعلُه يألفُ المخاطرَ ، ويهوىٰ المغامراتِ ، ويفتحُ عينيهِ على مبادىء الفروسيّةِ والشَّهامةِ والنَّجدةِ ؛ وهي التي تجعلُ الفارسَ يتعوَّدُ على استقبالِ الموتِ بنفسِ الرُّوح التي يستقبلُ بها الحياة .

* إنَّ الفارسَ في هاتيكم البيئة ، هو ذلك البطلُ الذي تتجسَّدُ فيه آمالُ النَّاس ورغباتهم ، فيظلُّ صامداً يحقّقُ مطامحَ مجتمعهِ فيه ؛ لأنَّ الفارسَ النَّابغَ النَّابِه يبلغُ مكانةً لا تُطاولُ ، وأثراً لا يُبارىٰ ، وكلمةً لا تُردُّ ، وإذا خَلا مكانُه وافتُقد ، زادَ ذكره ، وعلا صيتُه ، وارتفعت سمعتُه ، وتَضَخَّمَتْ أخبارُهُ ، وحِيْكَتْ حولَه الأساطيرُ ، ونشأتِ القَصَصُ والحكاياتُ ، فيصبحُ أقرب إلى الأسطورةِ منه إلىٰ الحقيقةِ[1] .

* لقد حبا اللهُ هؤلاءِ الفُرسانَ اقتداراً علىٰ القيام بأعمالٍ كبارٍ لا يقوىٰ

---

(١) الفروسية في الشعر العربي (ص ١٢٥) بتصرف .

عليها غيرهم ، فكان ذلك مبعث احترامهم ، لأنَّ المرءَ في أعماقِه يحسُّ بتقديرٍ وإجلالٍ لِمَنْ هو أرفعُ منه ، فإذا ظهرَ الفارسُ البطلُ ، وتوضَّحَتْ معالمُه وشخصيّتُه ، وعرفَ الناسُ مآثره ، انبجستْ في قلوبهم مظاهرُ الاحترام له ، فالفروسيَّةُ والبطولةُ منَ الصُّورِ الخالدةِ التي تحتفي بها الأمَّةُ العربيّةُ ، وتفخرُ بأبطالِها وفرسانِها.

* لذا فإنّنا نجدُ بعضَ الأقاصيصِ من عصورِ الفُرسانِ ، مليئةً بروائعِ الأوصافِ ، وبدائعِ الصُّور ، كما نجدُها مجالاً رحْباً لِتَمتُّعِ الأخْيِلة ، وميداناً للمواقفِ والوقائعِ ، كما حدثَ تماماً في سيرةِ عنترةَ بنِ شداد العبسيّ ، فقد كانت صورةُ عنترةَ هي صورةُ البطلِ التي تتمثّل للفردِ الجاهليّ بشكلها الكاملِ ، ومثُلها الرّفيعة ، وصفاتها النّبيلة ، التي تعارفَ عليها النَّاسُ ، من حمايةٍ للجارِ ، وكرمٍ ، وشجاعةٍ ، وصبْرٍ علىٰ المكَارِه.

* وقد كانَ عنترةُ شجاعاً ، بيد أنَّه مقتصدٌ في شجاعتِهِ ، مفكِّرٌ في طريقةِ استعمالِها ، يقْدِمُ إذا رأىٰ الإقدامَ عزماً ، ويحجمُ إذا رأىٰ الإحجامَ حزماً ، لذلك كانتْ له فِراسَةٌ تصيبُ ولا تكادُ تخطىءُ في هذا المجالِ ، وكأنَّه أدركَ بخبرتِه الحربيّةِ نفسيّات الرِّجال ، وعرفَ كيفَ يتوغَّلُ في أعماقِها وأغوارِها ، فاحتفظتْ ذاكرةُ العَربِ على مدىٰ الأجيال بهذه الشَّخصيّة المحببة لديهم ، وبهذا الفارسِ الأثيرِ عندهم ، فكان المثالَ الجميلَ في البطولةِ الحربيّةِ والبَسالةِ وكمالِ الفروسيّةِ ، وكانت حكاياتُ فروسيّته من روحِ الملاحمِ في أدبنا العربي.

* إنَّ الذي يتصفّحُ سيرةَ عنترة بنَ شداد ، ويقرأُ أشعارَه ، يجدُ أنَّه وقورٌ متّزنٌ ، لا تثيرُهُ أعظمُ الأشياءِ ، ولا تخرجُه شدّةُ الأمورِ عن طورِه ، فليسَ هو أهوجَ هذِراً ، ولا مرِحاً طائِشاً ، ولكنَّ وجْهَهُ باشٌّ ، وأساريرهُ مستبشرةٌ ، صريحٌ في أعمالِه ، يكرهُ النِّفاق ، عفيفٌ ، لا يحبُّ المراءاةَ ،

صديقٌ مخلصٌ لمن أخلصَ له ، خَصْمٌ ألدٌّ لمنْ حارَبَه ، فهو علىٰ استعدادٍ تامّ لأيِ ملمّةٍ ، فثيابُه مشمّرة ، وليس أعزل السّلاح ، بل يحافظُ على سلاحِهِ ويعتزُّ بها ، فهوَ مالُه وثروتُه ، وهو صديقُه في حِلّهِ وترحالِهِ.

* ومنْ خلائقِ عنترة الشّجاعة ، فهي العمادُ الذي تقومُ عليه شخصيّته ، لذلك كانَتْ لا تروعُه الأهوالُ ، فهو يتمكَّنُ منَ السَّيْطَرةِ على زمامِ الحروبِ ، ويُضافُ إلى ذلكَ أنَّه راعي الحمى ، وحامي الضَّعيف ، بأسُه شديدٌ إذا ما احمرَتِ الحَدق ، وقوّتُه معروفةٌ إذا ما عَلتْ صيحاتُ الأبطالِ ، يهرعُ إلىٰ منازلةِ الفرسانِ الأشداءِ المشهورين ، لذا فقد اشتهرتْ قوّته حتى خافَ جميعُ النَّاسِ ، لأنَّه كان ليثَ الميادين ، والسّيوفُ تلمعُ منْ حولِهِ فيودُّ تقبيلَها لا القتال بها ، لأنّها تشبهُ ثَغْرَ حبيبتِهِ المبتسمِ ، ولاستهانتهِ بمن أمامَه منَ الفرسانِ.

* ومن شمائلِ عنترةَ المحبّبة إلى النَّفسِ عفّته السَّامية ، وخلقُه الكريم ، اسمع إليه يقولُ:

وأغضُّ طَرفي إنْ بدَتْ لي جارَتي حتَّى يُواري جَارَتي مأْوَاهَا

ويقولُ في العفّة وكرمِ الأخلاقِ ونبلِها والحفاظِ على الجوار:

أَغْشَىٰ فَتَاةَ الحيّ عنْدَ حَليلِها وإذا غَزا في الحَربِ لا أَغْشَاها

* إنَّ عنترةَ في عصرِ الجاهليّةِ يعفُّ عن النَّظَرِ إلى جاراتِهِ ، بل لا يزورُ فتاةَ الحيّ إذا كان بعلُها غائباً أو غازياً ، تُرىٰ هل يعفُّ النَّاس عن جاراتِهم كما كان عنترةُ عفيفاً؟!

* إنَّ الفروسيّةَ الحقَّةَ التي كانَ عليها عنترةُ تدعوهُ إلى مكارمِ الأخلاقِ ، ولعلَّ أخلاقَه هذه قد ساهَمَتْ في شهرتهِ.

* لقد كانَ عنترةُ إذاً فارساً نبيلاً ، تمرَّسَ بألوانِ القتالِ ، وفنونِ

النّزالِ ، وقد أَوْرَثَه هذا التَّمرُّسَ خبرةً استخدمَها في حروبِه مع أعدائِه ، وأكسبتْه شهرةً عظيمةً ، وجعلتْ منه فارساً مرموقاً ، تُضْرَبُ بشجاعتِه الأمثال.

* ولعلَّ حروبَ داحس والغبراء هي التي أخذَتْ بيدِ عنترة إلى مسارحِ الشُّهرة ، فقد كانت تلكمُ الحروب الميدانَ الرَّحبَ الذي ظهرتْ فيه فروسيّته وشجاعته وأخباره ، فقد كان من فرسانِ القبيلةِ العبسيّةِ المعدودين ، الذين يدافعونَ عن وُجودِهم وعن قبيلتِهم.

* ففي معركةِ يوم الفُروق، دارت رحىٰ الحربِ بين عبس وتميم، وأقدمَ عنترةُ في هذه المعركة وخاضَ غمارِها وشرىٰ وباع، وبذلَ الجُهدَ والطَّاقةَ، وقتل معاويةَ بنَ نزال ، وافتخرَ بقومِه ، ونصرِهم على بني تَميم في تلك المعركةِ، وبيَّنَ أسباب الظَّفر، فقالَ حين سُئِلَ: كم كانَ قومه يومَ الفُروق؟! ويجيبُ عنترةُ إجابةَ العالِم الخبيرِ والفارسِ الخطيرِ: كُنَّا مئةً لمْ نكثرْ فنتكِلْ ، ولم نقلَّ فنَذِلّ[١].

* وفي معركةِ ذات الجَراجرِ ظهرتْ بطولةُ عنترةَ ، وأصبحَ حديث القبيلةِ بما أبداهُ من بطولاتٍ ضدَّ ذبيان.

* ولما أغارتْ طيءٌ على بني عبس ، والنّاسُ خلوفٌ ، وعنترةُ في ناحيةٍ من إبلهِ علىٰ فرس له ، وأُخْبِرَ بالخبرِ ، لمْ يتأخرْ عن النَّجدة ، ولم يتقاعسْ عن المعركةِ ، بل كَرَّ وَحْدَه ، واستنقَذَ الغنيمةَ من أيديهم ، وأصابَ رهطاً ثلاثةً أو أربعةً ، وأنشدَ بذلك قصيدتَه التي أولها:

ظَعَنَ الذينَ فِراقَهم أتوقّعُ ... وجَرىٰ بِبَيْنِهمُ الغُرابُ الأبقعُ[٢]

---

(١) انظر: العقد الفريد (١/ ١٠٤) وفي رواية: فننكُل.

(٢) انظر: ديوان عنترة (ص ٢٦٢).

والأخبارُ عن فروسيّةِ عنترة كثيرةٌ ، وهذه الفروسيّةُ لم تكنْ عبثاً عنده ، وإنّما هي نتيجةُ الخبرةِ الطَّويلةِ التي اكتسبها في القتالِ والنّزالِ ، والتي أكسبتْه الشُّهرة ، وأعلتْ ذِكْره ، فالنَّصرُ والفوزُ في ساحاتِ القتال يجبُ أنْ يقترنُ بالسَّلامة ، والشجاعة ، ويجبُ أنْ تكونَ عزيمة وقوة ، وأنْ تكونَ تفكيراً وأن تكونَ تقديراً ، وهكذا كان عنترةُ في فروسيّته ، فالرّجلُ العاقلُ هو الذي يحسنُ الخروجَ مما يدخلُ فيه ، ثمَّ إنَّ للحرب النَّفسيّةِ عند عنترةَ أثرها ، فتحطيمُ معنوياتِ مَنْ أمامه أقوىٰ من تحطيمِ القُوىٰ ، وهذا ما يصنعُه عنترةُ ، فهو يحطِّمُ ويثبِّطُ معنويات الفُرسان الشّجعان بما يصنعه بالضُّعفاء الجُبناء ، وإذ ذاك يستولي عليهم الجزَع ، ويسهُلُ القَضَاء عليهم .

* وتذكرُ كتبُ الأدبِ والأخبارِ والأسمارِ أنَّ عنترةَ قد بلغَ شهرةً عاليةً في الفروسيةِ جعلَتْ أكابرَ الفُرسان ، ومشاهيرَ الشُّجعان تهابُهُ ، وتحسبُ له ألفَ حساب ، وتخافُ منه على نفوسِها ، وهل أدلّ على ما نقولُ ممّا صرَّحَ به الشَّاعرُ الفارسُ الشّجاع عمرو بنُ معدي كرب[١] ـ رضي الله عنه ـ عندما قال: ما أُبالي مَنْ لقيتُ منْ فرسانِ العربِ مالمْ يلقني حُرّاها وهجيناها؛ يعني بالحرّيْن: عامر بن الطُّفيل وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين: عنترة والسُّليك بن السُّلكة[٢] .

* إنَّ فروسيةَ عنترة كثيرةُ الجوانبِ ، متعدّدة المظاهرِ ، فهو لا يضعُ فروسيّته دائماً وشجاعتَه في خدمةِ قبيلتِه ، بل إنَّه يجعلُها أحياناً في خدمةِ غيرِها ، وذلكَ إذا ما اضطرتْه الظُّروف ، فقد حدثَ أنْ حصلَ خلافٌ بين

---

(١) اقرأ سيرة الفارس الشجاع عمرو بن معدي كرب في هذه الموسوعة اللطيفة ، فسيرته إمتاع للأسماع .

(٢) الأغاني (٨/ ٢٥٣)، وخزانة الأدب (١/ ٤٧٣) طبعة بولاق ، ولباب الآداب (ص ١٨١).

عنترةَ وقبيلته من أجلِ إبلٍ أخذَها من حليفٍ لهم ، وأبى أن يردَّها عليهِ ، فرحلَ عن قبيلته وجاورَ بني جديلةَ ، وحين حصلتْ معركةٌ بين جديلةَ وبين ثعْلٍ ، شاركَ عنترةُ وقاتلَ مع حلفائِه ، فرجحت كفّةُ جديلة ، واحتجَّ بنو ثعْلٍ على صنيعِ عنترةَ لدى غطفان .

* فعنترةُ هنا يستخدمُ فروسيَّته في خدمةِ مَنْ جاورهم ، وعرَّض نفسَه للأخطار ، ضارباً بذلك أجملَ المُثُل في الوفاءِ والإخلاص[1] .

* وكان عنترةُ في كثير منَ الأخبارِ التي وصلتْ إلينا حامي بني عبس وحاملَ لواءهم ، فقد روىٰ أبو عمرو الشَّيباني هذا فقال: غزتْ بنو عبسٍ بني تميم ، وعليهم قيسُ بنُ زهير ـ بن جذيمة العبسيّ ـ فانهزمتْ بنو عبس ، وطلبتْهم بنو تميم ، فوقفَ لهم عنترة ، ولحقتْهم كبكبةٌ ـ جماعة ـ منَ الخيلِ ، فحامى عنترةُ عنِ النَّاسِ فلمْ يُصَبْ مُدبِرٌ ـ فارٌّ ـ وكان قيسُ بنُ زهير سيّدهم ، فساءَه ما صنعَ عنترةُ يومئذٍ ، فقال حين رجعَ: واللهِ ما حمىٰ النَّاسَ إلاَّ ابنُ السَّوداء . وكانَ قيسُ أكولاً ، فبلغَ عنترةُ ما قال ، فقال يعرِّضُ به قصيدتِه التي يقولُ فيها :

بَكَرتْ تخوِّفُني الحتوفَ كأنَّني ... أَصْبحَتُ عن عَرَضِ الحتوفِ بمعْزِلِ

ومنها قولُه :

وَالخيلُ تعلمُ والفوارسُ أنّني ... فرَّقْت جمعَهم بضربةِ فَيْصَلِ
وَلَقْد أبيتُ علىٰ الطَّوىٰ وأظَلُّه ... حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ[2]

وهكذا عندما أحسَّ عنترةُ برائحةِ الازدراءِ من قيسِ بنِ زهير ، والتّذكيرِ بالأصلِ الوضيع ، راحتْ ثائِرةُ التّحدي تثورُ في داخلِه ، وتبرزُ فيه روحَ

---

(١) ديوان عنترة (ص ٤٢) بشيء من التصرف والاختصار .
(٢) الأغاني (٨/ ٢٤٧ ـ ٢٤٩) بتصرف واختصار .

الفروسيّة ، لذلك نراهُ يذكّرهُ بأفعالِهِ المجيدة ، ويذكرُ فروسيتَه ، وبطولتَه التي تغطّي سوادَ الأُمّ .

* إنَّ فروسيةَ عنترةَ تثيرُ الإعجاب ، وتدعو إلى التّأمُّل في فهمِهِ للرّجالِ ، فقد كانَ أحياناً يحجمُ عن مبارزة الرّجال ، ونلمحُ في هذا المجالِ خبراً أورَدَهُ ابنُ حزم الأندلسيّ في «جمهرته» عندما تحدَّثَ عن بني عُقيل بنِ كعب بنِ ربيعة فقال ما نصُّه :

ومنهم : عُويمرُ بنُ أبي عَديّ بنِ ربيعةَ بن عامر بنِ عُقيل ، شاعرٌ ، فارسُ بني عقيل جُمْلَةً ، دعَا عنترةَ بنَ شداد العبسيّ إلىٰ المبارزةِ ، وقال له : ابرزْ إليَّ أيّها العبدُ ، فإنْ قتلتُكَ فلأُخيْفَنَّ أصحابَك بعدَك! وإنْ قتلتني رجعتَ بإبلِ قومي! فلمْ يقدِمْ عنترةُ علىٰ مبارزتهِ[1] .

بُطُولَتُهُ وأَسْلِحَتُهُ وأفْراسُهُ :

* مامنْ شكّ في أنَّ عنترةَ بنَ شداد العبسيّ واحدٌ من مشاهيرِ فرسان التَّاريخ ، إنْ لم يكن أشهرهم في العَصْرِ الجاهليّ ، فقد اشتُهِرَ عنترةُ بين قومِهِ ـ خاصَّة ـ بشجاعتِهِ التي كان يبديها ، وببطولتِهِ التي كانت مثارَ الإعجابِ ، وملفتَ النَّظرِ ، ومهوىٰ الأَنْفسِ التي تحبُّ الأبطال .

* ومنَ الجميلِ في سيرةِ فارسِنا اليوم أنَّـه صوَّر هذه البطولـةِ تصويـراً جميلاً ورائعاً ولطيفاً في أشعارِه الجميلةِ ، ورسمَ لنا من خلالها صورةَ الفارسِ الكميّ البطلِ ، وربطَ هذه الصّورة بنفسهِ وشخصهِ ، فعرَّفَنا عن نفسه أجملَ تعريفٍ ، بأجملِ أسلوبٍ ، وأعذبِ مقال .

* ومع كلِّ ما يذكرُ عنترة عن نفسهِ ، نجده يذكرُ مظاهرَ بطولته في المعاركِ التي يخوضُها ، حيثُ يبرزُ بعضُ الأبطالِ إلى ميادينِ القتال ،

---

(١) انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٢٩٠ و٢٩١) .

وهناك يتأخّر النّاسُ عن ملاقاتِهم ويجبُنُوا لأنَّ الموتَ بانتظارِهم ، ويظلُّ المبارِزُ وحدَه في السَّاحة يطلبُ الطَّعنَ والنِّزالَ ، ويطلبُ نِدّاً له فلا يجد ، وإذ ذاك يبرزُ إليه عنترةُ الفوارسِ متحدّياً له ، منازلاً إيّاه ، ومن ثم يذيقه الموتَ ويجعله كأمْسِ الدَّابر ، ويتركه طعاماً سائغاً شهيّاً للسّباع ، فاسمعْ إليه يقول :

ومدجّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزَالَهُ ... لا مُمعِنٍ هَرَباً ولا مُستسلمِ
جَادَتْ يدايَ له بعاجِلِ طعنةٍ ... بمثقَّفٍ صَدْقِ القَناةِ مُقَوَّمِ
وتركْتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه ... ما بينَ قُلَّةِ رأسِهِ والمِعْصَمِ(١)

* ونلمحُ الإغراقَ في وصفِ البطولةِ ، إذ تحدَّثَ عنترةُ عن جبنِ الكماةِ نزالَ هذا الفارسِ المدجّح بالسِّلاح ، لكنّه نازَله هو ، وظلَّ هو الفارس الشُّجاع القويّ .

* وعن بطولتهِ وفروسيّتهِ يدعو ابنةَ مالكٍ للسُّؤال عن شجاعتِه الخارقَةِ وأفعالِه المجيدةِ ، وعن بسالتهِ في المعركةِ والخيل تجولُ طولاً وعَرْضاً ، فهو قادرٌ على حمايةِ ابنةِ مالك ، وهو قاتلُ الأبطالِ المدجّجين بالسِّلاح ، يقولُ عنترة :

هلاَّ سَألتِ الخيلَ يا بنةَ مالكٍ ... إنْ كنْتِ جاهلةً بما لمْ تَعْلَمي
يُخْبِرْكِ مَنْ شَهدَ الوقيعةَ أنّني ... أغشىٰ الوغىٰ وأعفُّ عندَ المغنمِ

---

(١) ديوانه (ص ٢٠٩ و٢١٠) بتصرف ، وهذه الأبياتُ من معلّقته المشهورة . ومعنى «مدجّج» : أراد : وربّ مدججٍ أي تامّ السِّلاح . و«ولا مستسلم» : أي لم يُلْقِ بيدهِ ولم يستسلم للموت . والمعنى : هذا الفارسُ المدجّج لم أجبنْ عنه ، بلْ أقدمتُ عليه واستسلمَ لي حينَ لقيتُه .
و«المثقّف» : الرّمح المقوّم بالثّقاف ، و«الصّدْق» : الصُّلب المستقيم . و«تركته جزرَ السّباع» : أي تركتُه لحماً للسّباع ، و«ينشْنَه» : يتناولنه ويأكلن منه ، و«قلّة رأسهِ» : أعلاه . و«المعصم» : موضعُ السِّوار من الذّراع .

* ويذكرُ عنترةُ نهايةَ الأبطالِ والفرسانِ الذين لاقاهم ، وكانوا طعَاماً للسِّباع والصُّقور ، فعند توعُّدِه لابْنَي ضَمْضم يقول:

ولقَدْ خشيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ   للحربِ دائرةٌ علىٰ ابنَي ضَمْضَمِ

الشّاتِمَيْ عِرضي ولمْ أشتمْهُمَا   والنَّـاذِرَيْـنَ إذا لـم ٱلقَهُمـا دَمـي

إنْ يفْعَـلا فلقَـدْ تـركـتُ أبـاهُمـا   جَـزَراً لخَـامِعَـةٍ ونَسْـر قَشْعَـمِ

* وعند حديثِه عن ذلك الفارس المدجّج ، يؤكّد بأنّه تركه طعاماً للسِّباع منْ رأسهِ إلى قدميه:

فتـركتُـهُ جـزَرَ السِّبـاعِ ينُشْنَـه   مـا بيـنَ قُلّـةِ رأسِـهِ والمعْصَـمِ

* ويبرزُ طعناتِه العظيمةَ فيقول:

قَدْ أَطْعَنُ الطَّعنَةَ النَّجلاءَ عن عُرُضٍ   تَصْفَـرُّ كَـفُّ أخيهـا وهُـوَ منْـزُوفُ

* ويصفُ لوناً آخر منْ ألوان فروسيّته ، إذ يجعلُ من مقتوله[1] مبللَ الثّياب بدمائِه؛ وهذا اللونُ تكشفُه لنا السُّطور التَّوالي.

* كان عنترةُ بنُ شداد في إبل له يرعاها ومعهُ عَبْدٌ له وفرسٌ ، فأغارتْ بنو سُليم ، فقاتَلهم حتى كسروا رمْحَه ، وصارَ إلى القوسِ فرمىٰ رجلاً منهم من بجيلةَ ، وطردُوا إبلَه ، فذهبوا بها ، وكان الذي أصابَه من بني سُليم ، وكان عنترةُ حاسِراً ، فقال في ذلك أبياتٍ عَينيةً جميلة:

خُـذوا مـا أَسْـأرتْ منهـا قِـداحِـي   ورفْـدُ الضَّيـفِ والإنْـسُ الجميـعُ

فَلَـو لاقَيْتَنِـي وعلـيَّ دِرْعـي   علمـتَ عـلامَ تُحتَمَـلُ الـدُّروعُ

تـركْـتُ جُبيَلَـةَ بـنَ أبـي عَـديٍّ   يَبُـلُّ ثيـابَـه عَلَـقٌ نَجيـعُ

وآخـرَ منْهُـمُ أَجْـررْتُ رُمْحـي   وفـي البَجلـيّ مِعْبَلَـةٌ وقيـعُ[2]

---

(١) اسمُ هذا المقتولِ الذي أرادهُ عنترةَ «جُبيلةُ بنُ أبي عدي البَجليّ» من بني سُليم.

(٢) ديوان عنترة (ص ٢٨٤ و٢٨٥). ومعنى «السّؤر» البقيّة. و«القِداح» جَمْعَ قدح. =

* ومنَ الواضح في أخبارِ عنترةَ وسيرتِه وقصصِ فروسّيتِه ، أنَّ جميعَ خصومِه يذوقون الموتَ من سيفِه أو رمحِهِ ، ولعلَّ من أجملِ ما تركَ لنا عنترة هذه النّهاية لخصومهِ من بني ضبّةَ وأبطالِهم ، حيث قال قصيدةً حائيّةً مطلَعُها:

طَربْتَ وهاجَتْك الظِّباءُ السَّوانحُ غـداةَ غَـدا منْهـا سَنيـحٌ وبَـارحُ

ومنها يذكرُ إقدامَه وجرأَته وشجاعَته وكيف أسرَ ضرارَ بنَ عمرو الضّبيّ وعدداً من بني ضبّةَ قد شدُّوا وثاقهم وهم بين قتيلٍ غابَتْ عنه نوائِحهُ ، وأسيرٍ في أيدي بني عبس ، وكذلك قهرَ عَمراً وحيّان ، وهما من بني ضبّة أيضاً ، وتركهما قتيلَيْن تعودُهما السِّباع والضِّباع ، وتجرُّ منهما الهام ، وتزيلُ لحاها وذوائبها ، يقول عنترةُ:

إذا شئْـتُ لاقَـاني كميٌّ مـدجَّـجٌ علـىٰ أعـوجـيٍّ بـالطِّعـانِ مُسـامـحُ
نُـزاحِـفُ زحْفـاً أو نُـلاقـي كتيبـةً تُطاعِنُنا أو يَذْعَرُ السِّرب صَائِحُ
فلمّـا التقَيْنـا بـالجِفـارِ تَضَعْضَعُـوا ورُدَّتْ علـىٰ أعقـابِهـنَّ المَسـالِـحُ
تَـداعـىٰ بنـو عَبْـس بكـلِّ مُهنْـدٍ حُسَامٍ يزيلُ الهامَ والصَّفُّ جانحُ

= و«الأنْس»: النّاس. ومعنى البيتَيْن الأولَين: يقولُ لبني سُليم: خُذوا ما أبقتْ قِداحي ، وإطْعَامِ الضَّيف من هذه الإبل ، أيّ ما أخذتُم منها فهو بقيّةُ الميسرِ والضَّيف.
ولو لاقيتني وقد لبستُ دِرْعي لمنعتكَ منَ الغارةِ علىٰ إبلي ، ولعلمتَ أنَّ لابسَ الدِّرعَ لا يُهتَضمُ ، ولا يُدْرَكُ منه مطلوبٌ.
ومعنى «جُبيلة»: هو رجُلٌ من بجلةَ وهم حيٌّ من بني سليم ، و«يبل ثيابه»: أي طعنتُه ورميتُه بِسَهمٍ فَسالَ دمُه حتّى بلَّ ثوبَه. و«العَلَق»: الدَّم. و«نجيعُ»: طريّ. و«أجررتُ رمحي»: طعنتُه ، فتركتُ الرّمحَ فيه يجرّه. و«البَجليّ»: رجلٌ من بجلةَ ولعلَّه جُبيلةُ أو غيرُه. و«مِعْبَلة»: السّهمُ العريض الطّويلُ النّصل. و«وقيعُ»: على وزن فعيل بمعنى مفعول حذَفَ الهاء. و«الميقعَة»: المِطرقة.

وكــلِّ رُدينــيٍّ كــأَنَّ سنَـانَــه شِهابٌ بدا في ظُلْمةِ الليلِ واضحُ
تـركْنَـا ضِـراراً بيـنَ عَـانٍ مُكَبَّـلٍ وبيَـنْ قتيـلٍ غـابَ عنْـهُ النَّـوائِـحُ
وعَمْـراً وحيَّـانـاً تـركْنـا بقَفْـرةٍ تعـودُهُمـا فيهـا الضِّبـاعُ الكَـوالِـحُ
يجـرِّرنَ هـامـاً فلَّقَتـهُ سيـوفُنـا تزيَّلَ منْهُنَّ اللّحَى والمَسَائِحُ[1]

* وعَنترة الذي يذيق الأبطال كأس المنون، يفكّر هو الآخر بالنهاية الحتمية لكلّ إنسان، وقد وصل إلى حلٍّ واضح حيث قال:

بكَـرَتْ تخـوّفُنـي الحتـوف كـأنني أصبحت عن غرضِ الحتوف بمعْزلِ
فـأجبتُهـا إن المنيّـةِ منهـلٌ لا بـدَّ أن أسقـى بكـأس المنهـلِ
فاقْني حياءَك لا أبالك واعْلمي أنـي مـرؤٌ سـأمـوتُ إن لـم أُقتـلِ

* فعنترةُ، «لابدّ أنْ يسقىٰ بكأسِ المنهلِ» وهو «سيموتُ إنْ لم يُقتلِ»، إذاً هو لا ريبَ مقتولٌ أو ميت، لأنَّ منطقَ الواقع، ومنطقَ الفروسيّةِ والبطولةِ يقتضي ذلك، فالبطلُ ابنُ المعارك، ورفيقُ الأهوال، ومَنْ كان هذا ديدنه، فلابدَّ أن تنالَه يدُ المخاطرِ في يومٍ منَ الأيّامِ، فإنْ لم يكن هناك قَتْلٌ، فالنّهايةُ واحدةٌ هي الموت.

* ومع هذا كلّه نلمحُ منْ أبياتِ عنترةَ السَّابقة أنَّ الموتَ لا يخيْفُه، ولذا فإنّه يشفقُ على الحبيبةِ التي تحذّرُه الموتَ، ويردُّ عليها بأنَّ الموتَ منهلٌ يَرِدُه النَّاس جميعاً.

* ومن صورِ البُطولة عِند عنترة، بطولتُه النّادرة أمامَ الجيوشِ وجحافلِ الفُرسان والأقران، فتلك هي البطولة الحقَّة، وهي بنتُ الواقعِ، وحديثها ذائعُ الصِّيت، طائرُ الشُّهْرة، ينتقلُ مع النَّاس حيثما سَاروا وحلُّوا، وحيثما أصبحوا وأمسُوا، ويصيرُ ذلك حديث سمرِهم وسمرَ حديثهم، وبديلَ حدائِهم، وهمسَ أفئدتهم، وأنسام حبِّهم.

---

(١) ديوانه (ص ٢٩٧ ـ ٣٠٣) بتصرف وانتقاء واختصار.

* وقد خاضَ عنترةُ هذه التّجربةَ ، وقَتَل فارساً مدجّجاً ، قد لبس الدّرع السَّابغة[1] ، وتركَه ملقى مخضَّب الرَّأْسِ والصَّدْرِ بالدِّماءِ ، وجعلَ منْ مقتلِ هذا الفارس صورةً بارعةً لقوّتهِ وبطولتهِ أمامَ الأبطال في ساحِ المعركةِ ، يقول عنترةُ راسماً هذه البطولةَ في معلّقته الشَّهيرة :

ومشَـكِّ سَـابغـةٍ هتكْـتُ فـروجَهَـا	بالسَّيْفِ عنْ حامي الحقيقةِ مُعْلِمِ
بَطَـلٍ كَـأَنَّ ثيـابَـه فـي سَـرْحـةٍ	يُحْـذَىٰ نعـالَ السَّبـتِ ليسَ بتـوْءَمِ
لمّـا رآنـي قـد قَصَـدْتُ أريـدُهُ	أبـدىٰ نَـواجِـذَه لغيـرِ تبسُّـمِ
فطعَنْتُـهُ بـالـرّمـح ثـمَّ علـوتُـهُ	بِمَهنَّـدٍ صـافـي الحـديـدةِ مِخْـذَمِ
عَهْـدي بـهِ شَـدَّ النَّهـارَ كـأنَّمـا	خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلَمِ[2]

---

(١) «الدرع السَّابغة» : أي الكاملة .

(٢) انظر : ديوانه (ص ٢١١ ـ ٢١٣) بانتقاء تصرّف ، وقوله : «ومشكّ سابغة» : أرادَ بها : ربّ مشكّ درع سابغةٍ ، والمشَكّ التي شكَّ بعضُها في بَعْض ، والشّكُّ : مَسَاميرُ الدّرع ، و«سابغة» : كاملة . وقولُه : «هتكتُ فروجَها» : أي شققتُ وفرّقتُ فُروجَ الدرع وهي جيبُها وكُمَّاهَا ، واحدُها فَرج ، وقوله : «حامي الحقيقة» : أي يحمي ما يحقّ عليه أنْ يحميه . و«مُعْلَم» : الذي شهرَ نَفْسَه بعلامةٍ إدلالاً بشجاعَتِهِ وإعلاماً بمكانِه . و«بطل» : الشّجاع الذي تبطلُ عندَه شجاعةُ غيره . و«ثيابُه في سرْحَة» : أي هو طويلُ الجسم كامله ، فكأنَّ ثيابَه على سرْحَةٍ لطوله ، والسِّرحَةُ : شجرةٌ عظيمةٌ طويلةٌ . و«يحذى نعال السبت» : يعني هو شريفٌ ينتعلُ بما ينْتَعِلُ به المُلوكُ ، والسَّبْتُ ما دُبغَ بالقَرظِ ، ولم يُجَرَّدْ منْ شَعْرِه ، و«توءم» : الذي يكونُ مع آخرَ في بطنِ أمِّه وهو أضعفُ لَه ، فنفىٰ عنه ذلك ووصفَه بكَمالِ الخَلْق وتمام الشّدَّة والقوّة ، و«أبدى نواجذه» : كَلحَ غيظاً عليَّ وموجدةً ، ويقال : بل كلحَ كراهيةً للطَّعْنِ . و«لغير تبسّم» : لم يكنِ إبداؤُه لنواجذِهِ من أجلِ التبسُّم ، وإنّما كانَ كَلُوحاً ، و«النواجذ» : آخر الأضراس . و«مهنّد» السَّيف الهِنْدي . و«صَافي الحَديدة» : مجلوٌ صَقِيْل . و«مِخْذَم» : قاطع . و«عَهدي به شَدَّ النهار» : مشاهَدتي له وقد تخضَّبَ بِدَمهِ ، فكأنَّه قد خُضِّبَ بالعِظْلَم . و«العِظْلم» : شَجرٌ يُتّخذُ منه الوسْمَة ، ويُقال : إنَّه الكتْمُ ، وإنّما شبّه الدَّمَ به لمّا انعقَدَ ، وضربَ إلى السَّواد ، و«شدّ النهار» : ارتفاعُه ، و«اللّبان» : الصّدر .

* ولا يكتفي البطلُ عنترةُ بأنْ يجعلَ منْ هذا الفارسِ أحدوثةَ الحربِ ، بل يربطُ بين هولِ المعركةِ وشدّتها وبينَ نفسِه وذلك باتّقاءِ الأبطالِ به ، فإذا ما احتدمتِ المعركةُ ، وكلحتْ وجوهُ الأبطال ، واحمرّتْ أحداقُهم ، واكتفوا بالغمغمةِ عن الشّكوى ، راحوا يبحثونَ عن ملجأ يقِيْهم حرَّ الحربِ ، ويبعدون عن أنفسِهم وقْعَ السُّيوفِ الهنديّةِ ، وطعنَ الرّماحِ الرُّدينيّة ، فلا يجدونَ أمامَهم سوىٰ الفارسِ البطلِ عنترةَ الذي استجابَ للمستغيثين بهِ ، فألقى بنفسهِ وفرسهِ في مشتجرِ الرّماح ، وبريقِ السُّيوف وهمهمةِ الأبطال ، حتى إنَّ فرسَه قد اشتكى من كثرةِ الجراحاتِ التي أُصيبَ بها ، ولم يزلْ في المعركة يقاتل ويجالد حتّى حَسُنَ فيها بلاؤُه وثباتُهُ وصبْرُه؛ فلنسمعْ إلى عنترةَ وهو يرسمُ تلكم الخطواتِ الحرجة بهذه الكلماتِ الجميلة السَّاحرةِ :

ولقَدْ حفظتُ وَصَاةَ عمّي بالضُّحىٰ ... إذ تَقْلِصُ الشَّفتَانِ عن وضَحِ الفَمِ

في حومَةِ الموتِ التي لا تشْتكي ... غَمَـراتِهـا الأبطـالُ غيـرَ تَغَمْغُـمِ

إذ يتّقـونَ بـيَ الأسنَّـةَ لـم أخِـمْ ... عَنْهـا ولـو أنِّـي تضـايـقَ مُقْـدَمـي

لمّـا رأيـتُ القـومَ أقبـلَ جمعُهُـم ... يتَـذَامـرون كـررْتُ غيـرَ مـذَمَّـمِ

يـدعُـون عنْتَـر والـرِّمـاحُ كـأنَّهـا ... أشطـانُ بئـرٍ فـي لَبـانِ الأدهـمِ[1]

مـا زِلـتُ أَرميْهـم بثغـرةِ نَحـرهِ ... وَلَبـانِـهِ حتّـى تَسَـرْبَـلَ بـالـدَّمِ

---

(١) قال أبو بكرٍ : وبعدَ هذهِ الأبياتِ أبياتٌ لم تقعْ في الرّواياتِ يعظّمُ بها شَأْن نفسِه ، ويهوّل بها على أعدائه وهي :

يـدعـونَ عنتـرَ والسُّيـوفُ كـأنَّهـا ... إيمـاضُ بـرقٍ فـي السَّحـاب الـرُّكّـمِ

يـدعـونَ عنتـرَ والـرِّمـاحُ سـواكـبٌ ... تجـري بفيّـاضِ الـدّمـاءِ وتنْهَمـي

يدعونَ عنترَ والفوارسُ في الوغىٰ ... فـي حـومـةٍ تحـتَ العَجـاجِ الأقتـمِ

يـدعـونَ عنتـرَ والـرّمـاحُ تنـوشُني ... عـادات قـومـي فـي الـزَّمـانِ الأقـدم

(ديوانه ص ٢١٦) الهامش

فـازْوَرَّ مـنْ وقْـعِ القَنَـا بلَبَـانِـهِ   وشَكَـا إلـيَّ بعبـرةٍ وتَحَمْحُـمِ
لو كانَ يَدرِي ما المحاورةُ اشتكىٰ   أو كـانَ يَـدري مـا جـوابُ تكَلُّمـي
والخيـلُ تقتحـمُ الخَبـارَ عـوابِسـاً   مـا بيَـن شيظمـةٍ وأجـردَ شيظـمِ
ولقد شَفَى نَفْسي وأبرأَ سقْمَها   قيلُ الفَوارِس ويكَ عنترَ أَقْدِمِ[1]

* وفي المعاركِ الشَّديدة الحاميةِ يكونُ فارسها المعْلم عنترة ، فهو يتركُ البطلَ الكميَّ متعفراً ملقىً علىٰ الأرض :

فَلَـرُبَّ أبْلـجَ مثـلِ بعْلِـكِ بـادِنٍ   ضَخْـمٍ علـى ظَهْـرِ الجـوادِ مهبَّـلِ
غـادرتُـه متعفِّـراً أوْصَـالُـه   والقـومُ بيـنَ مجـرَّحٍ ومجـدَّلِ

* وبطولةُ عنترةَ تحتاجُ إلىٰ عناصرَ كيما تكون متكاملةً ، وهذه العناصرُ تكمنُ في وجودِ الخيلِ والسّيوف والرّماح والدروع والقِسيّ عنده؛ فالفارسُ البطلُ الكميُّ هو الذي يعنى بالسِّلاح وآلةِ الحرب. وعنترةُ فارسٌ يحترمُ آلاتِ الحربِ جميعها ، فهو يقدِّرُ السَّيفَ ، ويحترمُ الرّمح ، ويحبُّ الفرسَ ، ويذكر التُّرسَ والرّمحَ والقوسَ والنَّبْل ، ولكنَّ السَّيوفَ والرّماحَ

---

(١) انظر: ديوانه (ص ٢١٥ ـ ٢١٩) بتصرف يسير وانتقاء. ومعنى «تقلِصُ الشَّفتان»: يعني عند شدّةِ الحرب تقلصُ شفتاه عن أسنانِهِ ، و«وضَح»: بياضُ الأَسْنَان. و«حومةُ الموتِ»: شدّته ، و«غمراتها»: الغَمرات: الشَّدائد. و«تغمغم»: الصَّوتُ الخفيُّ المختَلِطُ. «ويتّقون بي الأسنّة»: يقدمُونَني للموتِ ويجعلونَني بينهم وبينَ الرِّماح. و«لم أخِم»: لم أجبن عنها. و«مقدمي»: موضع أقدامي. و«يتذامرون»: يحثُّ بعضُهم بعضاً ، وأصل الذّمْر: الصياح. و«يدعون عنتر»: ينادونني: يا عنتر يا عنتر ويأمرونَني بالتَّقدُّم. و«أشْطان»: الحِبَال ، شبَّه الرِّماح بها في طولها واستقامتِها. و«الأدهم» فرسه. و«ثغرة نحره»: النقرة في أسفلِ الحلق. و«تَسرْبَلَ»: السِّربالُ: القميصُ. و«ازورَّ»: أعرضَ الفرسُ لما رأىٰ الرّماحَ تقعُ بنحرِه ، و«تحمحمِ»: الصّوت الخفي ، فإن اشتدَّ فهو الصَّهيل ، و«المحاورة»: المجاوبة. و«الخبار»: ما لاَنَ منَ الأرض وكانتْ فيه حجارة. و«شيظمة»: الطويلة من الخيل. و«الأجرد»: قليل الشعر. و«أقدم»: تقدم.

هي أصْلُ الأسلحةِ ، ولها الاستعمالُ ، وهي روحُ الفارسِ ، وهي المقدمةُ في الذِّكْرِ؛ يقول عنترةُ في يومِ عُراعِرٍ ، وكانت بنو عبس لما أخرجتْهم حنيفة منَ اليمنِ ، وأرادوا أنْ يأتوا بني تغلبَ ، فمرّوا بحيٍّ منْ كَلْب على ماءٍ يُقال له: عراعر ، فطلبوا أنْ يسقوهم منَ الماء ، وأنْ يوردوه إبلهم ، وسيّدهم يومئذ رجلٌ من كَلْب يُقال له مسعودُ بنُ مُصَاد ، فأَبَوْا وأرادوا سَلْبَهم ، فقاتلوهم وقُتِلَ مسعودُ بنُ مصاد ، ومن ثمَّ صالحوهم على أنْ يشربوا منَ الماء ، ويعطوهم شيئاً ، فانكشفوا عنهم ، فقال في ذلك عنترةُ قصيدةً فائيةً قوامها (١٠ أبيات) مطلعُها:

أَلا هَـلْ أَتَـاهَـا أنَّ يـوم عُـراعِـرٍ شَفَى سَقَماً لو كانتِ النَّفْس تَشْتَفي

* ومنها يذكرُ آلاتِ الحربِ والسَّيوفَ المشرفيّة ، والرِّماحَ والدّروعَ والقوسَ ، فيقولُ:

فظَلْنَـا نكـرُّ المشـرفيَّـةَ فيهـمْ وخرصانَ لدْنِ السَّمْهريِّ المثقَّفِ
عـلالَتُنـا فـي كُـلِّ يـومِ كـريهـةٍ بـأَسيـافِنَـا والقـرحُ لـم يتَقَـرَّفِ
أبَيْنـا فـلا نُعْطِـي السَّـواءَ عـدوَّنـا قِيـامـاً بـأعْضَـاءِ السَّـراءِ المُعطَّـفِ
بكـلِّ هَتـوفٍ عَجْسُهـا رضَـويَّـةٍ وسَهْمٍ كسيرِ الحِمْيَرَيِّ المؤنَّفِ[1]

---

(١) انظر: ديوانه (ص ٢٢٨ ـ ٢٣١) بشيءٍ من التّصرّف والانتقاء. ومعنى «عُراعِر»: ماءٌ لِكَلْب ، و«شَفَى سَقَماً»: أي ظهوُرنا في ذلكَ اليوم بأعدائِنا شَفَى ما كانَ بنفوسِنا من الوجْدِ عليهم. و«المشرفيّة»: سيوفٌ منسوبةٌ إلى المَشارِفِ ، وهي قرىٰ بالشّام تشارفُ الرِّيف ، وقيل: المشرفيّة من صنعةِ مشْرف ، وهو جاهِليٌّ منْسُوبٌ إلىٰ ثقيف. و«خَرصَان»: جمع خَرص ، وخرص هو الرّمح ، وأرادَ به ها هنا السّنان خاصَّة ، ويُقال: الخرصان الدّروع ، سمّيت بذلك لحلِقها ، كما سمّوا الحلقة التي في أذنِ المرأةِ خَرصاً. و«لدن»: اللين الهزّ. و«السّمهريّ»: الشّديد ، والمعنىٰ أنّه ليّنٌ في اضطرابهِ ومهزّتهِ ، وهو في ذاتِهِ صلبٌ شديد الكعوب. و«المثقف»: المقوم في الثقاف المستوي. و«علالتُنا»: بقيّةُ ما عندنا من القِتال ، يريدُ أنّهم كانوا قد قاتلُوا قبلَ ذلك ، والعلالةُ: بقيّةُ اللبن بعد الدّرة ، ومنه العلل وهو الشُّرب الثَّاني. =

* ومن الواضحِ في سيرةِ عنترةَ ، أنَّه يهتَمُّ بكلِّ أنواعِ الأسلحةِ ، فهي عدّةُ البطولةِ ، ولا تكتملُ صورةُ البطلِ إلا بكَمالِ أسلحَتِه واستيفائه الحصولَ عليها ، وقد تغنّى عنترةُ بألوانٍ متعدّدة منَ الأسلحةِ ، فذكر السُّيوف وأحسنَ وصْفَها ، وأكّدَ علىٰ حسنِ استخدامِه لها ، كما ذكر الرّماح وأحسنَ وصْفَها ، وذكرَ النّبال وخفّتها ، وذلك في قصيدةٍ رائيةٍ قالَها في هجاءِ عمارةَ بن زياد[1] ، وكانَ عمارةُ يحسدُ عنترةَ ، ويقول لقومه: إنّكم أكثرتم ذكْره ، واللهِ لوددتُ أني لقيْتُه خالياً حتّى أُعْلِمَكم أنّه عبدٌ ، وكانَ عمارةُ جوَاداً كثيرَ الإبل ، مضيّعاً لمالِهِ مع جُودِه ، وكان عنترةُ لا يكادُ يمسكُ إبلاً يعطيها إخوتَه ويقسمها ، فبلغَه ما يقول عمارةُ ، فقالَ عنترةُ في

= و«القَرحُ لم يَتَقرّف»: لم يتقشّر للبُرءِ والشّفاء ، يصف أنهم لا يشاهدون حَرباً إلاّ شاهَدوا قبلَها أخرىٰ ، فعليهم جِراحاتٌ لم تبرأْ بَعْدُ ، و«القُرح»: الجراحات. و«الكريهةُ»: شدّة الحربِ. و«السَّواء»: المساواة. أي لا ينتصفُ عدوّنا منّا. و«أعضاد»: جمع عضد القوس ، وهو موضع الحمالة منها. و«السَّراء»: شَجر تُتّخذ منه القِسيّ. و«المعطَّف»: المحني. يقول: إذا قمْنا بالقسيّ ورامَينا العدوَّ لم يساوِنا ولا انتصفَ منّا. و«كلّ هتوف»: يعني قوساً مُصَوِّتة عند الرّمي لشدّة وتَرِها. و«عَجْسُها»: العَجْسُ: مقبضُ القَوس. و«رَضَويّة»: منسوبةٌ إلى رضْوىٰ وهي أرضٌ ، وحرّكَ الضّاد في النّسب ، لأنَّ النّسبَ بابُ تغيير. و«كسير الحِميريّ»: شبَّه السَّهمَ في استوائِه وتحديد ظرفهِ بالشَّراك المؤنّف وهو المحدّدُ الطَّرف الرّقيق ، ونسبَ السَّير إلى رجلٍ من حِمْير كأنَّ سيورَهم أجودُ السُّيورِ لأنّهم ملوكٌ.

(١) عمارةُ بنُ زياد العَبَسيّ ، أحدُ سادة عَبَس ، كانَّ وإخوته يلقّبُون بالكَمَلَة ، وأمُّهم فاطمةُ بنتُ الخُرشب ، وقد لُقّبَ بعمارةَ الوهّاب ، وبدالِق ، وذلك لشدّة كرمِهِ ، وقد قَتَلهُ شرحافُ بنُ المثلم من بني عائدةَ منْ أسَد.
ويُقالُ في المثَل عن أمِّ عمارة: أنجبُ منْ بنتِ الخُرشُب ، وهي فاطمةُ الأنماريّة ، ولَدَت لزياد العبْسيّ الكَمَلَة: ربيعاً الكامِل ، وعمارةَ الوهّاب ، وقَيْسَ الحِفَاظ ، وأنسَ الفَوارس. (جمهرة الأمثال ٢/٢٥٨) برقم (٢٠٧٠)

ذلك قصيدةً بلغَتْ (١٣ بيتاً) ، ومنها هذه الأبيات يصفُ فيها سيفَه ورمحَه وسهامَه :

وسَيْفــي صـارِمٌ قبضَـتْ علَيْـهِ أشَـاجِـعُ لا تَـرىٰ فيهـا انتِشَـارا

وسَيْفـي كـالعقيقَـةِ وهـو كِمْعِـي سـلاحـي لا أفَـلَّ ولا فُطَـارا

وكـالـوَرَقِ الخِفـافِ وذاتُ غَـرْبٍ تـرىٰ فيهـا عـن الشَّـرعِ ازْوِرارا

ومطَّـردُ الكعـوبِ أحـصُّ صَـدْقٌ تخـالُ سِنـانَـه فـي الليـلِ نَـارَا

ستعلـمُ أيُّنـا للمـوتِ أدنـىٰ إذا دانَيْـتَ فـي الأَسَـلِ الحِـرارَا[1]

---

(١) انظر: ديوانه (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦) ، وسمط اللآلي (١/ ٤٨٣) مع الجمع والتصرف.
وذكرَ أبو عُبيد البكْريّ هذا الخبرَ على النّحو الآتي فقالَ: رُوي أنَّ عنترةَ وقَفَ ينْشِدُ:
إذْ يتّقـونَ بـي الأسنّـةَ لـمْ أخِـمْ عنْهـا ولكنّـي تضَـايَـقَ مُقْـدَمـي
فَبَوَّأَ لهُ عمارةُ بنُ زياد بالرُّمحِ وقالَ: نحنُ نتَقّي بكَ الأسنَّةَ يا بنَ السَّوداء. فقالَ لهُ عنترة: اغْفِرهَا. وكانَ عنترةُ حاسِراً أعزلَ ، فذهبَ واستلأَمَ وركبَ فرسَه ، ثمَّ أقبلَ حتّى وقفَ موقفَه الأوّلَ وأنشدَ البيتَ: «إذْ يتّقون بي الأسنّة. . .» ، فتَغافَلَ عنه عمارةُ حينَ رآه في سِلاحِهِ ، فأنشدَ عنترةُ قصيدتَه الرّائية. (سمط اللآلي ١/ ٤٨٣).
ومعنى «صَارِمٌ»: الصَّارمُ: القَاطِعُ. و«أشَاجِعُ»: عَصَب ظاهِرِ الكفِّ واحدُها أشْجَع. و«لا ترىٰ فيها انتشاراً» يصفُ أنّه سليمُ العَصَبِ ، شديدُ الخلقِ والانتشار للعصب ، وهو انتفاضُها كانتشارِ الفرسِ في يديه. «وسيفي كالعقيقة»: يعني هو صَافٍ برّاقٌ كالقطعةِ منَ البرقِ وهو العقيقةُ ، ويُقالُ: العقيقةُ السَّحابَةُ تنشقُّ عنِ البرقِ. و«كِمْعِي»: الكمعُ: الضَّجيج ، يقولُ: هو ملازمٌ لي ، فإنْ كنتُ مضطجعاً كان مُضاجِعي. و«أفَلَّ»: أرادَ سلاحي لا أفلَ فيه ولا فطار ، والأفلُ الذي فيهِ فلول. «والفُطار»: المتشقّق ، يقول: هو حديدُ السِّلاح تامُّها. و«كالوَرَقِ الخِفافِ»: يعني سِهاماً جعل نصالها بمنزلة الورق في خفتها ، وأرادَ: منْ سلاحي سهامٌ مثلُ الورقِ الخِفاف. و«ذاتُ غَربٍ»: يعني قوساً ، وغربها: حدّها. و«الشّرع»: الأوتارُ ، واحدتُها شَرعة. و«ازْوِرَارًا»: الازورار: الميلانُ. يقولُ: هي محنيةٌ ففيها مَيْلٌ عن وترِها ، وكلّما مالَتْ عنه وبعُدَتْ كانَ أمضىٰ لِسَهمِها وأنفذُ. و«مطّردُ الكعوب»: يعني رمحاً طويلاً. و«أحصّ»: الأحصّ: الأملسُ الذي لا لحاءَ عليه ولا غيره. و«الصَّدْقُ»: الصّلبُ المستقيم ، وشبّه سنانَه بالنّار لصفائِهِ وحدّتِهِ فيقول: إذا نظرتَ=

وحديثُ عنترةَ عن الأسلحةِ طويلٌ وشائِقٌ ، ولكنْ ما أخبارُ أفراسِ عنترةَ وخَيْله وهي روحُ حياتِه وحياةُ روحِه في المعاركِ والحروبِ ، وهي منْ أسبابِ فروسيّته وبطولَتِه ، وهي رفيقُه ومؤنسُهُ في السَّاعاتِ الحرجة التي يلقىٰ بها الفرسان.

* ومنَ المؤكَّدِ أنْ تكونَ لعنترةَ عدّةُ أفراسٍ ، ذلك أنَّ الحياةَ الطَّويلةَ التي عاشَها ، والمعاركَ العديدةَ التي خاضَها ، تقتضي منه أنْ يملكَ أفْراساً كثيرةً ، إذْ إنَّ الحربَ مدعاةٌ لمقتلِ الخيلِ وجَرْحِها ، أو كَسْبِ غيرها.

* ومن الأفراسِ التي اشتهرتْ في حياةِ عنترةَ الأبجر[1] ، وهو من خيلِ غطفانَ بنِ سعدِ قال عنه ابنُ الكلبيّ: فرسُ عنترةَ بنِ شَدّاد العبسيّ ، وهو الذي يقولُ فيه:

لا تَعْجَلي اشددْ حزامَ الأَبْجَرِ   إنّي إذا الموتُ دنَا لمْ أَضْجَرِ
ولمْ أمنَّ النَّفْسَ بالتَّأخُّرِ

* ولعنترةَ فرسٌ مهمٌّ في حياتِه ذكرَه في معلّقتِهِ وهو الأَدهَمُ ، وهذا الأدهمُ يقولُ عنه ابنُ الكلبيّ: فرسُ عنترةَ بنِ شدّاد الأدهم منْ خيل غطفانَ بنِ سعد ، وهو الذي يقولُ فيه:

يدعونَ عنْتَر والرِّماحُ كأنَّها   أشطانُ بئرٍ في لَبَان الادْهَم

* وذكرَ ابنُ قتيبة أنَّ لعنترةَ فرساً يُدعى الأغرّ ، فقال: قال عنترة يذكرُ فرسَه الأغرّ وإحسانَه إليهِ:

= إليه ليلاً أضاءَ إليكَ الظَّلام ، فكأنَّه نارٌ. و«الأَسَل»: أطرافُ الرّماح ، ويُقال هيَ الأسنّةُ. و«الحرار»: العِطاشُ إلى الدَّم ، يقول لعمارة: ستعلمُ إذا تقابلنا ودانَيْنا الرِّماح بينَنَا أيّنا أقربُ للموتِ ، وأدنىٰ منه ، أيْ: إنّك زعمتَ أنّكَ تقتلني إنْ لقيتني ، وأنت أقرب إلى الموتِ عند ذلك منّي.

(١) انظر: أنساب الخيل لابن الكلبيّ (ص ٦٩).

أراه أَهْــلَ ذلــكَ حيــنَ يَسْعَــىٰ رِعَـاءُ النَّـاسِ فـي طَلَـب الحَلُـوبِ
فيخفــقُ مــرّةً ويفيــدُ أخــرىٰ ويفجـعُ ذا الضَّغـائِـن بـالأريـبِ[1]

* والخيلُ والأفراسُ كثيرةٌ في حياةِ عنترةَ ، وقلّما تخلو أثَارةٌ من كلامِهِ إلا يذكرُ فيها الخيلَ ، أليستِ الخيلُ أُسَّ المعركةِ ورُوحَها ؟! فهاهو يذكرُ مُهْرَه في واحدةٍ من قصائِده فيقول :

أكُــرُّ عليهــم مُهْــري كليمــاً قــلائــدُهُ سبــائِــبُ كــالقِــرام
كــأنَّ دفــوفَ مــرجــعِ مــرفقَيْــه تــوارثَهــا منَــازيــعُ السَّهــامِ[2]

* وفي معلّقته يذكرُ حِصَانَه فيقول :

مـا زلـتُ أرميهـمْ بثغْـرةِ نَحْـرِهِ ولَبـانِـهِ حتّـى تَسـربَـلَ بـالـدَّمِ
فـازْوَرَّ مـنْ وقْـعِ القَنـا بلبـانِـهِ وشَكَـا إلـيَّ بعبـرةٍ وتحمحُـمِ
لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتكىٰ أو كانَ يدري ما جوابُ تكلّمي[3]

* ويقول في معلّقته أيضاً يذكرُ مُهْرَه :

ولقد كَررتُ المهرَ يَدْمَىٰ نَحرُه حتّى اتَّقَتْنِي الخيلُ بابنَيْ حِذْيَمِ

* إنَّ الخيلَ جزءٌ لا يتجزأُ منْ حياةِ عنترةَ ، لذلك أخذتْ مساحةً كبيرةً من نفسهِ ، ومن شعرِه ، فهي مادّة الحربِ الأولىٰ ، وصهواتُها حرزُ

---

(١) انظر : المعاني الكبير (١/ ٨٤). و«الحلوب» : جمع حلوبة وهي النوق تحلب .
(٢) انظر : ديوانه (ص ٢٤٤) ، ومعنى «كليماً» : الكليمُ : المجروحُ . و«قلائِدُه سَبائبُ» : أي لمّا جُرِحَ سالَ الدَّمُ علىٰ صدرِهِ ، فصارَ له كالقلادَة ، والسَّبائب جَمْع سَببة ، وهي الطَّريقةُ الطويلةُ منَ الدَّم ، والسَّبائب أيضاً الشَّفقِ . و«القِرامُ» : سترٌ أحمرُ خفيفٌ يُجْعَلُ علىٰ الهودَج شبّه الدَّم بهِ . و«كأنَّ دُفوفَ» : هي جمع دف ، وهو الجنب . و«منَازيعُ السّهام» : جمع منزعة وهي مَنْ نزعت إذا رُميت ، يقول : تكثرُ السِّهام بمرجعِ مرفقي الفرس ، فكأنّها توارثَتْه لكثرة تردّدها ، ووقوعها به .
(٣) انظر : الحماسة البصرية (١/ ٨٠) ويروى الشطر الثاني : ولكان لو علم الكلام مكلمي .

الفُرسان ، وعنترةُ فارسٌ لا يُشقُّ له غُبار ، فكمْ منْ مرّةٍ ركبَ فرسَه وصَرعَ الفُرسان ، وهزمَ فيها الكتائِبَ ، فالخيلَ تعلمُ وفرسانُ العربِ كذلك أنَّ عنترةَ يفرِّقُ الجموعَ منْ علىٰ ظهرِ فرسِه الذي أحْسَنَ وصْفَه في قصيدة لاميّةٍ جميلةٍ مطلعُها:

عجبتْ عُبيلةُ منْ فتىً متبذِّلِ ... عاري الأشَاجعِ شاحبٍ كالمُنْصلِ

ومنها يصفُ حِصَانَه:

ولربَّ مُشْعِلةٍ وزَعتْ رِعالهَا ... بمُقلِّصٍ نَهْدِ المراكِلِ هَيْكَلِ
نَهْدِ القطاةِ كأنَّها من صَخْرةٍ ... مَلْسَاءَ يغشَاها المسيلُ بمحْفَلِ
وله حوافِرُ مُوثقٌ تركيبُها ... صمُّ النُّسورِ كأنَّها منْ جَنْدلِ
سَلِسُ العنَانِ إلى القتالِ فعينُه ... قَبْلاءُ شاخصةٌ كعينِ الأَحْولِ
فَعَلَيْه أقتحمُ الهياجَ تقحُّماً ... فيها وأنقضُّ انقضاضَ الأَجْدلِ[1]

جُودُهُ وَشِعْرُهُ وَشَاعِرِيَّتُهُ:

* كانَ عنترةُ[2] بنُ شدّاد من أشدِّ أهلِ زمانِه ، ومن أجودِهم بما ملكَتْ

---

(١) ديوانه (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢) باختصار. ومعنى «شاحب»: متغيّر. و«العَاري»: قليل اللحم. و«مُشْعَلة»: حرب شديدة. و«رعالها»: جماعات الخيل. و«نَهد»: غليظ. و«المراكِل»: واسعُ الجوف. و«هيكل»: ضَخْم. و«نهد القَطاة»: غليظُ مقعد الرّدف ، و«صمّ النّسور»: حوافرهُ صلبة. و«سلس العنان»: لين العطف. و«عينه قبلاء شاخصة»: جعلها كذلك لعزّة نفسهِ ونشاطِه والدائم النظرِ مع السّمو والارتفاع. و«أقتحمُ الهياجَ»: أغشىٰ الحرب. و«الأجدل»: الصقر.

(٢) قال ابنُ دُريد: عنترةُ بنُ شدَّاد ، كانَ من فُرسانِ العرب وشعرائِهم قتلتْه طيءٌ فيما تزعمُ العَرب وعامَّةُ العَلماء؛ وكان أبو عُبيدةَ ينكرُ ذلك ويقول: ماتَ بَرْداً ، وكانَ قد أسنَّ.
واشتقاقُ عنترةُ إمّا منْ ضربٍ منَ الذُّباب يُقال لَه: العَنْتَر والعُنْتُر ، وإن كانت النون فيه زائدة فهو من العَتْر ، والعتر: الذّبح.
ويقال: رمحٌ عاتِر ، إذا كانَ صُلباً شديداً. =

يدُه ، وكانَ لا يقولُ منَ الشِّعْرِ إلاّ البيتَيْن والثّلاثة ، حتّى سَابَّه رجلٌ منْ بني عَبْس، فذكَر سوادَ وسوادَه أمِّهِ وإخوتِه ، وعيَّره بذلك ، وبأنّه لا يقولُ الشِّعْر.

فقال له عنترةُ: واللهِ إنَّ النَّاس ليترافدونَ بالطُّعْمةِ ، فما حضرتَ مرفدَ النَّاس أنتَ ولا أبوكَ ولا جدّك قطّ؛ وإنَّ النَّاس لَيُدْعَونَ في الغاراتِ فيعرَفُون بتسْويمِهم ، فما رأيناكَ في خيلٍ مُغيرةٍ في أوائلِ النَّاس قطّ ، وإنَّ اللبسَ ليكون بيننا ، فما حضرتَ أنتَ ولا أبوكَ ولا جدُّك خطّة فَيْصَل ، وإنّما أنتَ فَقْعٌ نَبَتَ بِقَرقرٍ ، وإنّي لأحتضرُ البأسَ ، وأُوْفي المغنمَ ، وأعفُّ عن المسألةِ ، وأجُودُ بما ملكتْ يدي ، وأَفْصِلُ الخطَّة الصَّمعاء ـ الماضية ـ ، وأمّا الشِّعْرُ فستعلم ، فكانَ أوّلَ ما قال قصيدة: هل غادر الشُّعراء من متردّم. وهي أجودُ شعره ، وكانوا يسمّونَها المُذْهَبَةَ(١).

= وعترةُ الرّجل: أهلُ بيته.
وفي حديثِ أبي بكر ـ رضيَ اللهُ عنه ـ: عليكُنَّ عترةَ رسول الله ﷺ والعترة: الخشبةُ التي في نصابِ المسحاةِ التي يعتمدُ عليها الحافِرُ برجلهِ.
وكانت حربُ بني ذُبيان وبني عبس أربعينَ سنَة.
(الاشتقاق ص ٢٨٠) بتصرف واختصار.

(١) الشِّعر والشُّعراء (١/ ٢٥١ و٢٥٢) ، و«هل غادرَ الشُّعراءُ مِنْ متردّم.....» هي المعلَّقةُ المشهورةُ لعنترةَ. و«متردّم»: من قولهم: ردمْتُ الثَّوبَ وردّمته: أصلحتُه. والمعنىٰ: هل أبقىٰ الشُّعراءُ لأحدٍ معنىً إلا قد سبقونَا إليهِ ، فلم يدعُوا مقالاً لقائلٍ.
و«المُذْهَبَة»: بصيغةِ اسمِ المفعول؛ كانتِ المعلّقاتُ تسمّى المُذهبات ، منَ الإذهابِ أو التّذهيب ، بمعنىٰ التَّمويه والتّطلية بالذَّهب.
ومنَ الجديرِ أنَّ معلّقةَ عنترةَ في «الجمْهرَة» ليستْ منَ المُذَهبَاتِ ، بل هيَ من المُجمهرَات. وشعراءُ المُذهبات سبعةٌ وهُمْ: عبدُ الله بنُ رواحَةَ ، مالكُ بنُ عَجلانَ ، قيسُ بنُ الحطيم ، أُحَيحةُ بنُ الجُلاّح ، أبو قيس بنُ الأَسْلت ، وعمرو بنُ امرىءِ القيس.
ـ ومعنى المعلّقة: أنَّ العربَ كانتْ في الجاهليّة يقولُ الرَّجُلُ منهمُ الشعْرَ في أقصىٰ =

* ولعلَّ عنترةَ في بدايةِ حياتِه سَمِعَ الشِّعْر وحفظَ قَدْراً منه ، وأُعجِبَ به وتذوَّقَه ، وأجْرَىٰ نفْسَه علىٰ مَجْراه ، وسارَ على طريقهِ ، فلا غرابةَ أنْ ينشدَ المُعلَّقة يتحدَّىٰ بها مَنْ عيَّره ، ومَن انتقَصه .

* وقد عاشَ عنترةُ عُمراً طويلاً ، وكانتْ له وقائعُ مشهورة ، ومواقفُ مشهودة ، وخصوصاً في معاركِ داحِسَ والغَبْراء[1] الطّاحنة ، التي أكلتِ النَّاس حيناً منَ الدَّهر اقتربَ من نصفِ قرن ، وكان عنترةُ خلالَها ركُوباً للأهوالِ غير ألوفٍ للظِّلال ، ويرىٰ أنَّ نيلَ المعالي يأتي منْ هولِ العَوالي ، وأنَّ دَرْكَ الأحوالِ في ركُوب الأهوالِ ، وفي الصَّبْر على النَّوائب إدراكُ

= الأرضِ ، فلا يُعْبَأ بهِ ولا ينشدُه أحَدٌ ، حتّى يأتي مكّةَ في موسمِ الحجّ ، فيعرضُه علىٰ أنديةِ قُريش ، فإن استحسَنُوه رُوي وكانَ فخراً لقائلِهِ ، وعُلِّقَ على ركْنٍ منْ أركانِ الكعبةِ حتى يُنْظَر إليه ، وإنْ لم يستحسنوه طُرِحَ ، ولم يُعْبأ به .

ـ وأوّلُ مَنْ علَّقَ شِعْره في الكعبةِ امرؤ القيس ، وبَعْدَهُ علَّقتِ الشُّعراء ، وعَدَدُ مَنْ علَّق شِعْرهُ سبعةٌ ، ثانيهم طرفةُ بنُ العبد ، ثالثُهم زُهيرُ بنُ أبي سُلمى ، رابعُهم لبيدُ ابنُ ربيعة ، خامِسُهم عنترةُ ، سادسُهم الحارثُ بنُ حِلِّزَة ، سابُعهم عمرو بنُ كلثوم التغلبي ، هذا هو المشهور . (خزانة الأدب ١/ ١٣٧) .

ـ وكانتِ المعلّقاتُ تسمّى المذهبات ، وذلك أنّها اختيرتْ منْ سائرِ الشِّعر ، فكُتِبَتْ في القُباطي بماءِ الذَّهب ، وعُلّقَتْ على الكعبةِ ، فلذلك يُقال : مذهبةُ فلان إذا كانتْ أَجْودَ شِعْره ، ذكرَ ذلك غيرُ واحد من العُلماء . وقيل : بل كانَ الملِكُ إذا استُجيدتْ قصيدةٌ يقول : علّقوا لنا هذه ، لتكونَ في خِزانَتِه .

ـ ورُوي أنَّ بعضَ أمراءِ بني أميّة أمَرَ مَنِ اختارَ له سبعة أشْعار فسمّاها المُعلَّقاتِ وقد طرحَ عبدُ الملك بنُ مروان شِعْر أربعةٍ منهم ، وأثبتَ مكانَهم أربعة .

والحديثُ عن المعلّقات طويلٌ وشائقٌ ولا ينتهي ، ولكنْ ذكرنا ما يشفي الغلّة ويبلّ الصَّادي .

(١) «داحسُ والغَبْراء» : اسْمَا فرسَيْن لقيسِ بنِ زُهير بن جذيمة العبْسيّ ، وكانتِ الحربُ بين عَبْس وذبيان أربعينَ سنة من أجلِهما .

الرَّغائب ، لذلك كانَ عنترةُ من فرسانِ العَرب المعدودين[1] ؛ وكان ممن سطعَ نجمُه في معارك داحس والغبراء .

قال ابنُ قتيبةَ : وكان عنترةُ قد شهد حربَ داحس والغبراء ، فحسُنَ فيها بلاؤُه ، وحُمِدَتْ مشاهدهُ .

* ويُقال : إنَّه حاربَ كذلك مع قبائلِ العربِ ضدَّ الفُرس في يومِ ذي قَار عام البعثة (٦١٠ م) ؛ ويُقال : إنَّ الخبر عندما وصلَ رسول الله ﷺ قال : «هذا أوّلُ يومٍ أخذت فيهِ العربُ منَ العجم بحقّ» .

* ولعنترةَ حروبٌ ذائعةُ الصِّيتِ مع قبيلتِهِ عبس ضدّ أعدائها من مثلِ ذبيانَ ، وتميم وطيء ، ثمّ إنّه كانَ صاحبَ يوم المُريقيب الذي انتصرتْ فيه عبس على فزارةَ ، ثمّ كان له الفضل في انتصار عبس على تميم ، حيثَ ولّى قيسُ بنُ زهير هارباً ، وبقيَ عنترةُ مع أبطالِ عبس . وعندما علمَ قيسُ بنُ زهير بأنَّ عنترةَ هو الذي أنقذَ النّاس من الهلاكِ ، قال : واللهِ ما حمىٰ النّاسَ إلّا ابنُ السَّوداء . وكان قيسَ أكولاً فبلغَ عنترة ما قال ، فقال يعرضُ في قصيدتِه التي يقولُ فيها :

ولقد أبيتُ على الطَّوىٰ وأظلُّه ... حتّى أنالَ به كريمَ المأْكلِ

مما جعلَ رسول الله ﷺ يُعْجَبُ بهذا البيتِ ، ويقولُ : «ما وُصِفَ لي

---

(١) قال أبو عُبيدة : فرسانُ العرب المُجْمع عليهم : دريدُ بنُ الصِّمة ، وعنترةُ العبْسيّ ، وعمرو بنُ معدي كرب ؛ وقد عدَّ من أكَابرهم : عامرَ بنَ الطّفيل ، وعتيبة بن الحارث ، وعنبسةَ بنَ الحارث ، وزيدَ الفوارس ، والحارثَ بنَ ظالم ، وعبّاسَ بنَ مرداس ، وعروةَ بنَ الورد ، ومن فتّاك الجاهلية : الحارثُ بنُ ظالم ، والبرّاضُ بنُ قيس ، وتأبّطَ شرّاً ، وحنظلةُ بنُ فاتك الأسديّ . ومن رجالاتهم : أوفى بنُ مطرَ المازنيّ ، وسليكُ بنُ سُلكَة ، والمنتشرُ بن وهْب الباهليّ ، وكلُّ واحدٍ منهم كانَ أشدَّ عدواً منَ الظّبي ، وربّما جاعَ أحدهُم فيعدو إلىٰ الظّبي فيأخذُ بقرنهِ ، ولا يحملون زاداً ، ومنهم الشّنفرىٰ . (محاضرات الأدباء ٣/ ١٤١)

أعرابيٌّ قطّ فأحببتُ أنْ أراهُ إلا عنترة»[1]!!

* وتروي أخبارُ عنترةَ جانباً من عفّتهِ التي رسمَها في شاعريّتِه الجميلةِ المِعْطاء ، والتي تظهرُ شخصيته النّادرة في العفافِ والبعدِ عن الفواحِشِ.

* لقد حدَثَ أنَّ امرأةَ أبيهِ سُميّة كانت تحتكُّ به ، وتدفعُ أباه إلى ضَرْبهِ ، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى الغيرة الموجودةِ عند النِّساء منَ الأبناءِ النُّجباء من غيرهنَّ ، وربّما تختلقُ إحداهنَّ حدثاً لتشتفي ممّا عراها من ابنِ زوجها.

* وتروي الأخبارُ العنتريَّةُ التي وصلتْ إلينا عَبْرَ المصادرِ الأدبيّةِ وكتبِ الأخبارِ والأَسْمار ، أنَّ سميّةَ امرأة أبيه جاءَتْ شداداً مرّةً وقالت له: إنَّ عنترةَ يراودني عنْ نفسي ، فغضبَ والدُهُ غضباً شديداً ، وضرَبه ضرباً مبرّحاً ، بل ضربَه بالسَّيف حتى سالَتْ دماؤُه ، ولما رأتْ سميّةُ ما بهِ من جراح ، كفَّتْه عنه وبكَتْ نادمةً عمّا بدرَ منها من اتّهام عنترةَ بما لا يليقُ به ، فقالَ في ذلك:

أمِنْ سميَّةَ دمعُ العينِ مذروفُ ... لو أنَّ ذا منكِ قبلَ اليومِ معروفُ
كأنَّها يومَ صدَّتْ ما تكلِّمني ... ظبيٌ بعُسْفَان ساجي الطَّرف مطروفُ
تجلَّلتْني إذْ أهوىٰ العَصَا قِبَلي ... كأنَّها صنمٌ يُعْتَادُ معكوفُ
المالُ مالكمُ والعبدُ عبدكمُ ... فهلْ عذَابُكِ عنّي اليومَ مصروفُ
تنْسىٰ بلائي إذا ما غارةٌ لقحتْ ... تخرُجُ منها الطَّوالاتُ السَّراعيفُ
يخرجنَ منها وقد بُلَّتْ رحائِلُها ... بالماءِ يركُضُها المُردُ الغطاريفُ
قد أطعنُ الطَّعنَة النَّجلاءَ عن عُرضٍ ... تصفرُّ كفُّ أخيها وهو منزوفُ

---

(١) انظر: الأغاني (٨/ ٢٥٠) ، وألف باء للبلوي (٢/ ٤٩١). وفي النفس شيء من هذه الرواية على هذه الشاكلة!!!!

لاشكَّ للمرءِ أنَّ الدَّهرَ ذو خلَفٍ فيـه تفـرّقُ ذو إلـفٍ ومـألـوفُ[1]

عَـنْـتَـرَةُ وَالـوَقَـائِـع :

* خصَّ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العربَ منَ الشَّجاعة في حروبهم ، والنَّجدةِ في مصابرةِ عدوّهم ، ما شهدتْ به تواريخُ الأُمم ، واعترفتْ به ألسنُ العربِ والعجم ، ومنْ قرأَ الكتُبَ المؤلَّفةَ في أيّامِهم ، وسيرِهم في سالفِ أعوامِهم ، تبيَّنَ لديه أنَّهم لم يشهروا حَرباً في نزاعٍ إلا صابروا حتى انجلتْ عن ظفرٍ أو دفاع ، وهم في موقفِهم لم يزاولوا عنه هرباً ، ولا حازوا فيه رغباً ، بل ثبتوا بقلبٍ آمنٍ ، وجأْشٍ ساكِن .

* قيل لعنترة : كمْ كُنتم يومَ الفُروق[2]؟

---

(١) انظر : ديوانَه (ص ٢٧٠ و٢٧١) ، والأغاني (٨/ ٢٤٤ و٢٤٥) ، والفروسيّة العربيّة في العَصْر الجاهلي (ص ٩٥ و٩٦) مع الجمع والتّصرّف. ومعنى : «مذروف» : التّذريف : سَيَلان الدَّمع . و«صدَّت» : أعرضت . و«عُسفان» : منْهلةٌ منْ مناهلِ الطّريق بينَ الجُحفة ومكة . و«ساجي الطَّرف» : فاتِرُ النَّظر ، و«مطروف» : الذي طُرِفَتْ عينُه بثوب . و«تجلّلتني» : أي : وقَعْت عليَّ امرأةُ أبي ، وكانتْ قد ألقتْ نفسها عليهِ حين أرادَ أبوه ضربه . و«معكوف» : الذي يُعْكَفُ عليه . و«المالُ مالكمُ والعبدُ عبدكم» : يخبرُ عن نفسِهِ ويعترفُ لأبيهِ بالعبوديّةِ لأنّه كانَ ابن أَمَة ، وقال هذا قبلَ أنْ يدّعيهِ أبوهُ ويعتقُه ويلحقُه بنسبه . و«تنسى» : أراد أتنسى . و«الطّوالات» : جمعُ طوالةٍ منَ الخيل . و«السَّراعيف» : جمع سرعوفة وهي الجرادة ، شبَّه إناثَ الخيلِ في ضمْرِ مقدمها وامتلاءِ مؤخرها وخفّتها بالجرادة . و«رحائلها» : جمعُ رحالة وهي مثلُ الرَّحل وكانتِ الرَّحايلُ سروجَ العربِ . و«المرد» : الذينَ لم تُدركْ لحَاهُم بعد . و«الغطاريف» : الأسخياءُ الكرام ، ويُقال : همُ الطّوال ، واحدهم غطريف ، وأصلُ الغَطاريف البازي فاستُعير للرّجل . و«النجلاء» : الواسعة ، والنّجل سَعةُ العين . و«عَرضٍ» : أي أعترضِ الفارسَ فأطعنُه . و«منزوف» : الذي فَني دمُه ، ولم يبقَ منه شيءٌ ، ومنه قيل للسّكْران نزيف ، لأنَّ السُّكْر يستخرج عقله ويستنفذُ قوّته .

(٢) «الفُروق» : هو يومٌ من أيّام العرب الشّهيرة .

قال: كُنَّا مئةً كالذَّهب ، لم نكثر فَنَنْكل[1] ، ولم نقلّ فنذلّ[2] .

* هذا وقد كان لعنترة حروبٌ مشهورةٌ خلّدَها التَّاريخ ، منها ما هو داخلُ الجزيرةِ العربيّةِ ، ومنها ما هو خارجُها ، فقد كان عنترةُ فارساً في جميع المعاركِ التي خاضَها ، من مثل: يوم المُريقيب ، أو يوم شعْب جَبَلة[3] .

* وقد برزتْ فروسيّةُ عنترةَ في يومٍ أَقْرنَ ، وهو يومٌ مشهورٌ في تاريخِ الحروبِ بين عبسٍ وبني تميم ، فقد ذكر عنترةُ هذا اليوم ، وخلَّده بقصيدةٍ منها هذه الأبيات:

ستَذْكُرني المعَامعُ كُلَّ وقْتٍ ... عَلىٰ طُولِ الحَياةِ إلىٰ المماتِ
وإنّي اليومَ أحمي عرضَ قَومي ... وأنْصُرُ آل عَبْس علىٰ العُداةِ
وآخذُ مالَنا مِنْهُمْ بحربٍ ... تَخرُّ لها مُتونُ الرَّاسياتِ[4]

* وفي واحدةٍ من غاراتِه على كندةَ وخثعم يوردُ شجاعتَه ، ثم يذكّرُ محبوبتَه عبلةَ بفعلِه ، وإقناعها بجدارتهِ وأحقيتهِ في قَبولها به زوجاً لها فيقولُ:

ألا يا عَبْلَ قد عَاينْتِ فِعلي ... وَبَانَ لكِ الضَّلالُ مَن الرَّشادِ
طرقتُ ديارَ كندةَ وهي تَدوي ... دويَّ الرَّعدِ منْ ركْضِ الجيادِ
وبددْتُ الفوارسَ في ربَاهَا ... بطعنٍ مثلَ أفواهِ المَزادِ

(١) «ننكل»: نجبن ونتأخر.
(٢) انظر: بلوغ الأرب (١/ ١٠٧).
(٣) «يوم شِعْب جَبَلة»: منْ أعظمِ أيّامِ العربِ ، كان قبلَ الإسلامِ بسبعٍ وخمسينَ سنة فيما قيل.
(٤) هاتان القصيدتان لم تردا في ديوان عنترة طبعة المكتب الإسلامي بدمشق ، ونشكُّ فيهما.

وخثعمُ قـد صبحنَـاهـا صبـاحـاً بكـوراً قبـلَ مـا نـادىٰ المُنـادي
وعُـدْنَـا بـالنِّهـاب وبـالسَّـرايـا وبـالأَسْـرىٰ تكَبَّـلُ بـالصّفـادِ

* ويومُ ذي قار يومٌ مشهودٌ منْ أيّامِ العربِ في الجاهليّةِ الذي اجتمعَ العربُ فيه لأوّل مرّة لحربِ العجمِ كأمّةٍ واحدةٍ ، ويقال : إنَّ عنترةَ قد شاركَ في هذه الوقْعَة ضدَّ الفُرس. . . وهذا اليومُ مُتَعالَمٌ في التَّاريخِ ، وهو منْ أشهرِ أيّامِ العربِ مع العجمِ ، وقد افتخرَ فيه الشُّعراءُ؛ من ذلك ما قاله العديل بن الفرخ العجْليّ :

مَا أوْقَدَ النَّاسُ من نارٍ لمكْرمَةٍ إلاّ اصْطلينا وكُنّا مُـوقـدي النَّـارِ
ومَا يعدُّونَ منْ يومٍ سَمِعْتُ به للنَّـاس أفضـلَ مـن يـومٍ بـذي قَـارِ
جئْنا بأسلابِهم والخيلُ عابِسَة لما اسْتَلبْنَا لكسرىٰ كلَّ إسْوارِ[1]

* وقال أبو كلبة التّيميّ :

لـولا فَـوارسُ لا ميـلٌ ولا عـزلٌ مِـنَ اللهـازمِ مـا فُـزْتُـم بـذي قـارِ
إنَّ الفوارسَ من عجلٍ همُ أنفوا منْ أنْ يخلُّوا لكسرىٰ عَرصةَ الدَّارِ[2]

* ويروى أنَّ عنترةَ قد ساهمَ في يومِ ذي قار ، وفي بعضِ المصادرِ قصائد قالَها أثناء خروجه لحربِ العجم ، ولكن دون أنْ يذكرَ موقعةَ ذي قار صراحةً كقوله المنسوب إليه :

كأَنَّ دماءَ الفُرسِ حينَ تحدَّرتْ خلـوقُ العـذارىٰ أو قبـاءٌ مـدبَّـجُ
فويلٌ لكسرىٰ إنْ حللْتُ بأرضِهِ وويلٌ لجيشِ الفُرسِ حينَ أعجِّجُ
وأحمـلُ فيهـم حملـةً عنتـريّـةً أردُّ بها الأبطالَ في القفرِ تنبجُ!!

* ويعتزُّ عنترةُ بفروسيَّتهِ وشجاعتِه في معاركِه ، ويهدِّدُ الفُرسَ بالويلِ والثُّبور ، فيقولُ :

(١) انظر : العقد الفريد (٥/ ٢٢٦) ، وأيام العرب (ص ٣٧).
(٢) أيام العرب (ص ٣٧).

وَلَقدْ لقيتُ الفرسَ يا بنَةَ مالكٍ وجيوشُها قد ضَاقَ عنها البيدُ
وتَموجُ موجَ البحرِ إلاّ أنَّها لاقَتْ أُسُوداً فوقهنَّ حديدُ

* وفي قصيدة أخرى يتوعد فيها جموع الفرس بالحرب فيقول:

يا عبْلَ لا تخْشَي عليَّ منَ العِدَا يوماً إذا اجتمعَتْ عليَّ جموعُها
إنَّ المنيَّةَ يا عُبيلةُ دوحةٌ وأنَا ورمْحي أصلُها وفروعُها
وغَداً يمرُّ علىٰ الأعاجِم منْ يدي كأسٌ أمرُّ منَ السُّموم نقيعُها
وإذا جيوشُ الكِسْرويّ تبادرتْ نَحْوي وأَنْبَتْ ما تكنُّ ضلُوعُها
قاتلتُها حتّى تملَّ وتشتكي كَرْبَ الغُبارِ رفيعُها ووضيعُها
يا عبْلُ لو أنَّ المنيّةَ صُوِّرَتْ لغدا إلي سجودُها وركوعُها

* هذا وقد اشتُهِرَ كثيرٌ من فرسانِ عبس غير عنترة ، إلا أنَّ شهرةَ عنترة قد غطَّتْ أخبارَ غيرِه ، وفاقَتْ شهرتُه كلَّ شهرةٍ في دنيا الفروسيّة ، وفي دُنيا البطولةِ ، ترى هل كلّ ما جاءنَا عن عنترةَ نسلِّم به؟! وهل كلّ ما وصلَ إلينا عن عشقِ عنترةَ لعبلة نسلّمُ به أيضاً؟ هذا ما ستجلو بعضَه الصَّفحات التَّاليات .

عَنْتَرَةُ وَعَبْلَةُ وَالقَصَصُ الغَرَاميُّ :

* دعني ـ عزيزي القارىء ـ أحدّثُكَ قليلاً عن الغزلِ والقَصَصِ الغراميّ في العَصْر الجاهليّ ، كيما تتوضحَ صورةُ فارسنا وفارسِ التَّاريخ الحربيّ عنترة بن شداد ، وكيما نأخذَ فكرةً واضحةً عن طبيعةِ الغزلِ عصر ذاك . .

ودعني أسرّحُ معكَ النَّظرَ في الغزلِ ، كيما يكون الحديثُ أحلىٰ وأشهىٰ أيضاً ، لأنَّ غزلَ الجاهليين يوضّح معالمَ حياتِهم ، ويكشفُ مكنوناتِ نفوسِهم ، بل نجدهم يتحسَّسُون جمالَ المرأة بِشكلٍ فطْري يشير إلى تذوّقهم للجمالِ بكل ألوانِه وأشكالِه وأنواعِه .

* فمما لاشكَّ فيه أنَّ الغَزَلَ وَليدُ العاطفةِ ، والعاطفةُ أسبقُ في تاريخِ الإنسان ـ بِعَامَّة ـ من الفِكْر ، بيد أنَّ غزل الجاهليين كان في معظمِ الأوقاتِ والأحايين مقدّمةٌ لفنونٍ أخرى : كالمديحِ ، أو الهجاءِ ، أو الفخرِ .

* وإذا تصفحْتَ مجموعةً من مجموعاتِ الأدبِ الجاهليّ ، أو قرأتَ معلَّقةً من المعلّقات ، فسترى أنَّ الغزلَ الجاهليَّ هو غزلُ الذَّكَر بالأنثى ، يتّسمُ بالقَصصِ والحكَاياتِ ، كما نقرأُ هذا النَّوع في شعْرِ امرىء القَيْس وخاصّة في معلَّقتهِ الشَّهيرةِ التي يتغزّلُ فيها بأُمِّ الحُويرث وجارتها أمّ الرّباب في مكانٍ يسمى مأْسِل(١) .

* وهكذا نجدُ هؤلاءِ الشُّعراءَ الذين يتغزّلُون؛ تَتَشَابَهُ مقاصِدُ غزلِهم ، ومعظمُهم يتعمَّدُ القَصَصَ الغَراميَّ في شعْرِه وأغْزَالهِ ، ولكنّا نؤكّدُ أنَّ ما وصل إلينا من شعْرِ عنترةَ الغزليّ في محبوبتهِ عبلة بنت مالك ، يظهرُه لنا شاعراً وفارساً متغزلاً بشيءٍ من مذهبِ العذريين ـ إن صحَّ القياس ـ ، ويظهر لنا أنَّ قصة عنترةَ أسطورةٌ مضخَّمةٌ زادَ فيها الرُّواةُ وأهلُ الأخبارِ ما شاء لهم أنْ يزيدوا ، وشرَّقُوا وغرّبُوا ، حتى غدتْ قصّته من روائع الأساطير ، وحتى غدا عنترةُ العاشقُ الولهان ، والفارسُ الهيمان شخصيّةً رسمتْها مخيّلَةُ القُصَّاص في عصْرٍ متأخّرٍ عن عَصْر الجاهليّة ، وصار عنترةُ رمزَ الفرسانِ ورمزَ العشّاق ، ورمزَ محبي الحريّة وعشّاقها .

* إنّنا بدورنا يساورنا الشَّكُّ في كثيرٍ من الشِّعْرِ الغزليّ الذي وصَلَ إليها عن طريقِ المصادرِ المتنوّعةِ ، والذي يُنسبُ إلى عنترةَ ، بل نكادُ نرفُضه رفضاً ولا نقبلُ به ضيفاً على فارسنا عنترةَ؛ ودليلنا أنَّ أنفاسَ عنترةَ بن شداد الشِّعرية في معلّقتِهِ لا تتشَابَه مع الأغزالِ المنسوبة إليه ، وهاهي مُعَلَّقةُ عنترة

(١) انظر : شرح ديوان امرىء القيس لحسن السندوبي (ص ١٢٥) .

مُعَلَّقَة أمامَك في ديوانِه وفي كثيرٍ من كتُبِ الحماسةِ ودواوينِ الأدب ، فتصفَّحِ المعلّقةَ وتمعَّنْ فيها ، ثم تأمَّلْ هذه المجموعةَ المتنوِّعةَ والملونةَ والمزخرفة التي جُمِعَتْ باسم: «ديوان عنترة» سترىٰ ببصيرتك وتذوّقك للأدبِ وفنونِه أنْ ليس ثمّةَ وجْه للمشابهة ، وأنَّ كلَّ صنفٍ يختلفُ عن الآخرِ شكْلاً ورُوحاً.

* ولكي لا يغضبُ منّا محبو عنترة نقولُ لهم: إنَّه شخصيّةٌ ضمَّنَها القصّاصُ بُعيدَ صَدْرِ الإسلام ما شاءَ لهم الخيالَ ، إذ لا نعرفُ في العَصْرِ الجاهليّ شاعراً تشبهُ أغزاله الأغزالَ العذرّية التي وضحَتْ وتنفَّس صبحُها في العصر الأمويّ ، ولعلَّ محبّي فارس الشُّعراء عنترة قد انتحلوا كثيراً من القَصائدِ والمقطّعات والأغزالِ ، ومن ثم نسبوا ما زعموا إلى عنترةَ لسيرورة قصّتهِ بين العامّةِ وبعض الخاصّة.

* والآن دعني أهمسُ في أذنيكَ شيئاً عن غزلِ فارسنا عنترة بشيءٍ من التَّفصيلِ ، ونضعُ النّقاط على الحروفِ لتتوضحَ المعاني والكلمات.

* فالحديثُ عن الغزلِ في حياةِ فارسنا عنترة أمر شبْهَ طبيعي؛ ما دام عنترةُ رجلاً يحسُّ بميلهِ إلى الأنثىٰ وإلى ابنة عمّه عبلة.

* والذي يعيشُ مع شعرِ عنترةَ يجدُ أنَّه يتغنَّى في إبرازِ شخصيّته أمامَ المحبوبةِ ، لعلَّها تبادله حبّاً بحبّ ، وعاطفةً بعاطفة ، ونلمحُ جانباً من غزلهِ الذي يُعنىٰ بالأخلاقِ أكثر من التَّغزّل بجمالِ المحبوبةِ المادي أو الحسيّ ، اللهم إلا شذرات لطيفة وردتْ في معلّقته حيثُ يقول مصوراً جمالَ عينيها ، وطيب فمها؛ فاسمعْ إليه في هذه الهمساتِ:

دارٌ لآنِسَةٍ غَضيضٍ طرفُها ... طوعِ العنَاقِ لذيدةِ المُتبسّمِ

إِذْ تستبيكَ بأصْلَتيٍّ ناعِمٍ ... عذْبٍ مُقَبّلُهُ لذيذ المطْعَمِ

وكَـأنَّمـا نظَـرتْ بعينَـيْ شَـادِنٍ   رَشأٍ مـنَ الغْـزلانِ ليـسَ بِتَـوْءَمِ[1]

* ويبلِّغُ عنترةُ محبوبتَه بأنَّها أخذتْ من نفسهِ المساحةَ الكبرى ، وأنّها احتلتْ قلبهَ ونزلت من نفسه منزلة المُحبّ المُكْرم المُخْلَص :

ولَقَـد نـزلـتِ فـلا تظنّـي غَيْـرَهُ   منّـي بمنـزلَـةِ المُحَـبِّ المكْـرَمِ

* وفي غزله يظهرُ عنترة أنَّه لا يريدُ غير عبلة ، بل إن عبلة نفسها تخبر بأنَّه لا يريد غيرها :

ولئنْ سألْتَ بذاكَ عبلةَ خَبَّرَتْ   أنْ لا أريـدُ مـنَ النِّسـاءِ سـواهـا

* نعم إنْ سألتَ عبلةَ المحبوبَة لما وصفتُ من خصالي[2] ، إلا ما حققتُ وما وصفْتُ ، فأخبرتْ أنّي مستمسكٌ بحبلِ الخليل ، واصلٌ له ، وأنّي لا أريدُ منَ النِّساء سواها ، ولا أخصّ بهواي غيرها .

* نعم فعبلةُ امرأةٌ نادرةٌ في الوفاءِ ، وكانتْ من أسبابِ شهرةِ عنترةَ ، كما كان هو من أسبابِ شهرتها .

* ويمكنُ لنا أنْ نقولَ : لقد تمثّلَ في المرأةِ عصر ذاك الجمال الحيّ ، فكانَ لها سحرها الرّوحيُّ في نفوسِ الرّجال ، وكان لها سلطانُها على مشاعرهم وهمساتِهم وأحاسيسِهم ، لذلك كانت ملهمتَهم في روائِعهم ،

---

(١) ديوانه (ص ١٩٤ و١٩٥). ومعنى «الآنسة»: ذات الأنْس. و«غضيض طرفها»: فاتر. و«تستبيكَ»: تذهبُ بعقلك. و«أصلتَي»: الثّغر البرّاق والنّاعم الشّديد البياض الكثير البريق. و«لذيذ المطعم»: إذا قبلته وجدت له طعماً لذيذاً وريحاً طيبة. «وشادن»: الغزال. و«رشأ»: هو الغزال الحسن.

(٢) يقصدُ عنترة بخصَاله ما جاءَ في قصيدتِه نفسها قوله يصف عفته وأخلاقه:

أغشَـىٰ فتـاةَ الحـيّ عنـد حليلِهـا   وإذا غَـزا فـي الجيـشِ لا أغْشَـاهَـا
وأغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي   حتّـى يُـواري جَـارَتـي مَـأْوَاهَـا
إنّـي امـرؤٌ سمـحُ الخليقـةِ مـاجـدٌ   لا أُتبِـعُ النّفْـسَ اللجـوجَ هـواهَـا
(ديوانه ص ٣٠٨)

وباعثةَ عواطفِهم الصَّافية الرقراقة التي خلّدوا لنا فيها أدباً يحملُ كلَّ معاني الجمال.

* إنَّ إعجابَ الفارسِ العربيّ والشَّاعرَ الجاهلي بالمرأةِ كان مُتكاملاً ، فلم يقفْ عند الاحتفاءِ بجمالِها الجسديّ ، بل يتعدّى ذلك إلى الاحتفاءِ بجمالِها الرّوحي ذي الأثرِ العميق.

* وفي تقديرنا أنَّ عنترةَ قد وَجَدَ في محبوبتهِ عبلة المَثَلَ الأعلى الذي يصوّره ، فهو يتوجَّه إليها بأجملِ أغانيهِ ، ويقدّمُ لها كل ما يقومُ به من أعمالٍ بطوليّة ، فهو ينادي باسمِها في سُويعاتِ القتالِ الحرجةِ ، وأويقاتِ اشتجارِ الرِّماح ، وسماعِ صليلِ السُّيوف وصهيلِ الخيول.

* إنَّ الحبَّ العنتريَّ مقرونٌ بالفروسيّة والعَفافِ ، وهو حبٌّ فيه حرصٌ علىٰ الأعراضِ ، ومحافظةٌ على القيمِ النّبيلة ، وسعيٌ إلى إعلاءِ شأْنِ عبلة؛ ولهذا يقول:

هلاّ سَألَتِ الخيلَ يا بنةَ مالكٍ ... إنْ كنْتِ جاهلةً بما لمْ تَعْلمِي

يخبرِكِ مَنْ شَهِدَ الوقيعةَ أنَّني ... أغشىٰ الوغىٰ وأعفُّ عنْدَ المغْنَمِ

* ولم يكن عنترةُ وحدَه في هذا الميدانِ ، بل كان هناك فرسانٌ آخرون تحدّثوا عن بطولاتِهم في الحربِ[1] ، وثباتِهم في المعارك ، وأخبروا

---

(١) من هؤلاء الشّعراء الفرسانِ عامرُ بنُ الطّفيل العامريّ الذي يُخاطب المرأةَ فيقول:

إنْ تسألي الخيلَ عنّا في مواقفِها ... يومَ المُشَقَّرِ والأبطالُ في زَعَجِ

يخبْركِ أنّي أعيدُ الكَرَّ بينهمُ ... إذا القَنا حُطّمت في يومِ مُعْتَلَجِ

وقالَ عامر أيضاً مفتخراً ببسالتهِ وقوّته ، ويوجِّه قولَه إلى الحبيبةِ:

هلاّ سألتِ بنا وأنتِ حفيّةٌ ... بالقاعِ يومَ تورّعتْ نَهْدُ

أيّ الفوارسِ كانَ أنهكُ في الوغىٰ ... للقومِ لَما لاَحَها الجهدُ

لما رأيتُ رئيسَهم فتركتُه ... جزرَ السّباعِ كأنّه لَهدُ

(ديوان عامر ص ٤١). ومعنى «حفية»: مشفقة بارة. و«تورعت»: تأخرت وجبنت=

المحبوبةَ بما يشرّفُ الفارس ، ويرفعُهُ إلى مصافِّ الأبطالِ الشّجعانِ من حمايةٍ لها ، ورفعٍ لشأنها.

* إنَّ حُبَّ عنترة يمثّلَ الفروسيّةَ الشَّريفةَ التي هيّأت له الشُّهرة في عالَم الفُرسان ، والقدوةَ لدى الشُّجعان ، حيث كان لكلّ فارسٍ محبوبتَه التي تُوحي إليهِ أمثولةَ الشّجاعةِ ، فكانت فروسيةُ العربِ عصر ذاك فروسيةً نبيلةً تمتازُ بالتَّفاني ، وتتّسمُ بالإخلاص.

* ومن المتوقّع أن يكونَ عنترةُ ممن جَمَحَ به حبّه ، وألهبَ عواطفه ، فرقّت كلماتُه وراقَتْ ، ودفعه هذا الحبُّ إلى اقتحامِ المعاركِ الضَّاريةِ ، فخرجَ منها عالي الهامَةِ ، منشرحَ الصَّدر ، مُسجِّلاً لقبيلته عَبْس أيّامها الخالدة في سجلِّ مفاخرِها وأيامِها.

* وأمّا حديثُ عبلةَ ابنة عمّه التي شُغِفَ فؤادُه بها حبّاً ، وأكثرَ منَ الأشعارِ فيها ، فكان يمثِّلُ عواطفَه الملوّنَة من حرمانٍ ولوعةٍ وتظلّمٍ ، كما كان يمثّل غزلَه الرّفيعَ في أبلغِ صُورِه ، وأجلى معانيه ، وأسمىٰ عواطفه ، لأنَّه نمطٌ طبيعيٌّ من أنماطِ حياتهِ ومعيشتهِ التي اختلطتْ فيها ألفاظُ الحربِ بألفاظِ الحبّ.

* ويبدو أنَّ عبلةَ قد لعبتْ دوراً كبيراً في حياةِ عنترةَ بكلّ صُورِها ، فقد كانتْ ملهمته في ساحاتِ الحربِ ومقارعة الفرسانِ ، وكان موحية الرّقةِ

= وهابت. و«نهد»: قبيلة من قضاعة. و«أنهك»: أشد. و«لاحها»: أضمرها وغير لونها و«لهد»: الورم.

ـ وقالَ المرقّشُ الأكبرُ مخاطباً حبيبتَه ، وواصفاً لها جدّه وجُهده في الحرب:

هـلاَ سـألـتِ بنـا فـوارسَ وائـلٍ ... فلنحـنُ أسـرعُهـا إلـىٰ أعـدائِهـا

ولنحـنُ أكثـرُهـا إذا عـدَّ الحصـىٰ ... ولنـا فـواضلُهـا ومجـدُ لـوائِهـا

(المفضليات ٣/ ٣٤)

واللطفِ في لحظاتِ الهدوءِ والاستقرار ، منحها اللهُ طبيعةً صافيةً فعرفتْ معاني الحياة الجميلة ، وأصبحتْ بهذا أغنيةً عذبةً وأهزوجةً نشوى تترددُ على أنغامِ عنترةَ وأنفاسِه ، فكان وهو في ذِرْوَةِ الحرب تعنُّ له ذكْراها ، وتمرُّ صورتها في خيالِهِ ، ويتألَّقُ محيّاها في خاطرِه ، فيدفعُه هذا كلّه لأنْ يطبعَ قُبْلةً على صفحاتِ السُّيوفِ التي تكاد تنوشه ، وتعلُوه النّشوة ، ويتملكه الفخر ، فإذا بهِ ينشدُ :

ولقَـدْ ذكـرتُـكِ والـرِّمَـاحُ نـواهِـلٌ   منّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دَمي
فـوددْتُ تقبيـلَ السُّيـوف لأنَّهـا   لَمَعَـتْ كبـارقِ ثغـرِكِ المتبسِّـم

* لقد أحبَّ عنترةُ عبلةَ ، وقاتلَ في سبيلِ هواها ، فكان حبُّه لها حبّاً خالصاً مجرّداً ، تمثّلَتْ فيهِ روحُه الصَّادقة ، وتجسَّدت أمانيه الرّوحية ، فعبَّرَ عن حُبّهِ في نفسهِ ، وصدقهِ في عاطفتهِ ، وجاءَتْ كلماتُه مضمَّخَةً بالآمالِ العَبْليّة .

* فعبلةُ عاشَتْ حياته كلّها ، تمثّل له في كلّ سبيلٍ ، بل في جميع مسالِكه ، وتشخصُ أمامَه في دروبهِ وفي جَبَلِهِ وسهْلهِ ، ويتحمّلُ من أجلِها أقسىٰ المظالم ، ويتجرعُ بسببها أفظعَ أنواعِ العذاب؛ ومع هذا كلِّه لم يملَّ هواها ، بل يظلُّ مخلصاً لحبّها وفيّاً لهواها ، أميناً لذكراها ، لقد كانت عبلةُ سبيلَ عنترة إلى معاني البطولةِ ومعالي الفروسيّة و . . . :

ولئنْ سَأَلْتَ بذاكَ عبلةَ أخبرتْ   أنْ لا أُريـدُ مـنَ النِّسـاءِ سِـواهَـا

* والحبُّ الصَّافي الخالصُ أهزوجةُ الوجودِ منذ كانَ الوجود ، فهو اللحنُ الجميلُ الذي ينسابُ منَ الأعماقِ ، ليظلَّ لطيفاً إلى النّهاية ، تختلجُ به الأعماق ، وتسمو بصفائِه الأرواح ، ويطلقه المحبّون على شفاهِهم ، كلّما همست أنفاسُ العشّاق ، وخفقَتْ قلوبُهم بالأشواق .

* وهكذا داعبَ حبُّ عبلةَ عنترة ، ولامسَ حبُّها شغافَ قلبهِ ، فكانَ

شاعراً رقيقَ الكلماتِ ، نديَّ الهمَسات ، رفعَه حبّه لعبلةَ إلى مراتبِ الشُّعراء الفُرسان المجيدين ، ورافقه في جميعِ مواقِفه ، فكان حافِزاً له على الشَّجاعةِ والإقدام؛ فعنترةُ عاشقٌ محبٌّ وامقٌ ، نفذَ الحبُّ إلى أغوارِ قلبه فأرَّقَه ، وعملت عبلةُ في تلك الرّوح العنترية الجبّارة عملَها السِّحري الأنثوي ، فأكسبتْها لطفاً وجمالاً ، وليس كالمرأةِ المحبوبةِ في تغذيةِ الرّوحِ بالجمالِ واللطفِ؛ فهي قد فجَّرَتْ في نفسه ينابيع التسامي ، وألهمته أرقَّ المعاني ، فعاشَ محلّقاً في سماءِ المُثُل العُليا ، يناجي عَبْلاهُ بألطفِ كلمات الودّ ، وأعذبِ أناشيد الحياة ، فكان فارساً في حبّه ، متألقاً في عاطفته.

* إنَّ حبَّ عنترة لعبلةَ جعلَ منه رجُلاً فوقَ الرِّجال ، فمن أجلِها خاضَ غمارَ الحروبِ ، وسبَىٰ ما سبىٰ من أبطالِ ، ومن أجلِها حَمى حِمَى قومِه ، ومن أجلِ حبّهِ لها طلبَ الحريّةَ بكلّ الوسائلِ كيما يتساوىٰ مع مَنْ أحبّ ، فبدا شاعرَ المعامعِ وفارِسها من ناحيةٍ ، وشاعر الحبّ الذّبيح والغزل الحزين من ناحيةٍ أخرىٰ ، أليسَ هو الذي يقول عن هذا:

يا عَبْلُ كَمْ منْ غمرةٍ باشرتُها ... بالنَّفسِ ما كادتْ لعمرِكِ تَنْجلي
فيها لوامِعُ لو شهدتِ زهاءَها ... لَسَلوتِ بعد تخضُّب وتكحُّلِ
إمَّا تَريني قد نَحَلْتُ ومن يكُنْ ... غَرَضاً لأطرافِ الأسنَّة يَنْحَلِ[1]

* ومن الواضحِ أنَّ اسمَ عنترة ارتفعَ عالياً حتى وصل إلى أعظمِ درجاتِ البطولة ، وازدانَ اسمُه بأسمىٰ فضائِلِ الفروسيّة من شجاعةٍ وعطفٍ ، فكان يتسامى في خُلُقِهِ ، وفي حبّه ، لأنَّه كانَ يؤمنُ بهذا الحبّ ، ويؤمنُ بأنَّ حبيبته نزلتْ من قلبهِ منزلةَ مَنْ يُحَبُّ ويُكْرَم.

* لقد ظلَّ عنترةُ يتغنّى بعبلةَ طوالَ حياتِه غناءَ المحبّ الولهان ، فقد

---

(١) انظر: ديوانه (ص ٢٥٥ و٢٥٦)، ومختار الشعر الجاهلي للأعلم الشنتمري (ص ٣٩٠).

كانت نفسُه خصبةً ، فَشَدا بالشِّعر ، ومضى يتغنّى بحبّهِ غناءً رائعاً، فاقترنتِ الحماسة بالحبّ ، والألمُ بالشِّعرِ؛ وقد كان عنترةُ يبرهنُ لعبلةَ بين الفينةِ والأخرى في كثيرٍ من أشعارِه على أنَّه وإن كان قد فاتَه شيءٌ من جمالِ الصُّورة ، فإنَّه لم يَفُتْهُ جمال الشَّجاعةِ والخلالِ التي تستأثر بالقلوب وتأسرُ النفوس.

* لقد شغلَ الحبُّ قسماً كبيراً من معلَّقةِ عنترة ومن شعرِه ، وتراءتْ عبلةُ في أشعارِه عروساً من عرائسِ الشِّعْرِ الخالد ، يغنّي لها أرقّ غناء ، وينشدُها أعذبَ ما تجيشُ به نفسٌ وامقةٌ عاشقةٌ ، وينبضُ به قلب.

* ومن الغريبِ الذي نلمسُه في السّيرةِ العنتريّة ، والحبِّ الشديد لعبلة ، أنّنا لم نجدْ معظم المؤرّخين والرُّواة قد خصّوا عبلةَ بجانبٍ كبيرٍ من أخبارِهم وآثارهم وذلك من خلال حديثهم عن عنترةَ ، بل تكاد تخلو رواياتُ بعضِهم من حبّها ، على الرغمِ من تردُّدِ اسمَها عشرات في شِعْره ، وفي معلّقته خاصّة ، فهم يكْثِرون منَ الحديثِ عن جوانبِه الأخرى ، ويهتّمون بالحديثِ والتّحدّث عن وقائِعه ، وأحواله وسواد بشرتهِ وعبوديتهِ وبطولته في حرب داحسَ والغبراءِ وغيرها ، وإذا ما قيّضَ لهم المرورُ باسْمِ عبلةَ ، كان مرورهم لماماً ، وذكرُهم عرضاً.

* والتَّاريخُ يحدّثنا عن محاولةِ عمّه مالك العَبْسي مَنْعه من زواجِ ابنته عبلة ، وإكراهها على الزَّواج من رجلٍ آخر ، ليبعدها عن عنترةَ ، بيد أنَّ قلبَ عنترةَ يظلُّ خافقاً بهمسات حبّها ، مشدوداً إلى نظراتها الحالمةِ ، وهو في كلّ هذا الفيضِ العاطفيّ ، لا يتناسى بطولَته الحربية ، ولا ينسىٰ سلاحَه ، لأنَّه وسيلتُه في الفروسيّة ، وطريقُه إلى المجدِ ، ولكنَّ هذه المحاولَة التي حاولها عمّه لم تزدْهُ إلا تعلّقاً بحبِّ عبلة ، ولم تفجِّرْ في نفسهِ

إلا ينابيع الحبّ العذبةِ التي لوَّنَت قصائده ، فكانت قلائدَ تحلّي جيْدَ الأدبِ العربي[1] .

* ومن الواضحِ أنَّ عبلَة لم تكن ترافقُ عنترةَ في أغزالهِ وأشعار حبّه ، بل رافقتْهُ في شعْره الحماسيّ أيضاً ، وكثر ذكرها فيه ، ولا غرابةَ في هذا الأَمْرِ ، خصوصاً إذا عرفنا أنَّ النّضالَ العنيفَ الذي خاضَه عنترةَ في حياتِه كان في سبيل حبّه ، وعنترةُ كما يبدو لي يدركُ أغوار نفسِ النِّساء ، فهو يذكرُ لعبلةَ عفّتَه وجُودَه وإباءَه وشمائِلَه كيما يستميل قلبها ، وكيما ينْسِيها سوادَ لونهِ الذي أثارَ في أعماقِه الآلامَ الممضّة التي قَضَتْ على الآمالِ الحلوةِ ، فكان لذلك الأَلَم صدى في نفسهِ ، تمثّل في الحسرة والشَّجن ، ودفعته أحوالُه إلى صنْعِ مالا يصنعُه أكابرُ الفُرسان :

هلاَّ سألْتِ الخيلَ يا بنَةَ مَالكٍ　　إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بما لمْ تَعْلَمي
إِذْ لا أَزَالُ علىٰ رِحالةِ سَابِحٍ　　نَهْدٍ تعاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلّمِ
يُخبرْكِ مَنْ شَهِدَ الوقائِعَ أنَّني　　أغْشَى الوغىٰ وأعفُّ عند المغنمِ[2]

* وعلى الرّغمِ ممّا فعلَه عنترة ، وممّا سجَّله لقومِه في ديوانِ مفاخرِهم وسِجِلِّ مآثرِهم ، وما فعلت كفّه في نحورِ أعدائِهم ، إلا أنَّ هذا كلَّه لم يغيرْ من حقيقةِ عنترة شيئاً في نظرِهم، فكان له معهم شكايةٌ، وكان له منهم عتاب .

* لقد كانت عقدةُ اللونِ عند عنترة واضحةً في بعض أشعاره ، وكانت هذه العُقدُ سبباً من أسبابِ مأساتِه التي عاناها ، فقد كانَ المجتمعُ الجاهليُّ قاسياً على أولادِ الإماء ، فهم أغْرِبةُ العربِ كما نعتوهم؛ وما ذنبُ هؤلاء؟ بل ما حيلتُهم إذا خلقَهم اللهُ بهذا اللون ، ووسمَهم بهذه السِّمة؟!

---

(١) انظر : الفروسية في الشعر الجاهلي (ص ٢٩٣) بتصرف .
(٢) انظر : ديوانه (ص ٢٠٩).

* ولكنَّ نفسَ عنترة الكبيرة لم تقفْ أمامَها جميعُ هذه العوائقِ والعوالقِ ، ولم تحددْ خطواتُها تلكم العراقيلُ ، واستطاع عنترةُ أنْ يحقّقَ المعجزاتِ ، وأن يكسب الفخْرَ ، ويخلّدَ لعبس المناقبَ والمفاخرَ الحميدة.

* لقد كانت عظمةُ نفسهِ تتجلَّى من خلالِ تلك القصائد التي جعلت منه عَلماً من أعلامِ الشَّجاعة والعفّة وعنواناً للحبّ الصَّادق ، فتغنّى به العشّاقُ والأبطالُ الكرامُ ، وأصبح قصّة تُروىٰ على الأجيالِ وأحدوثةً تسْمَعُ على مدى الأعوام.

* نعم لقد ملأَ حبُّ عبلة قلْبَه ، فجاشتْ نفسُه غراماً ، وملَك عليه جوانحه ، ومن خلالِ ذلك كانت ترتسمُ لنا الصّورة النّادرة لعنترة ، التي تميّزه عن جميعِ فرسانِ عصرهِ.

* لقد أعطانا عنترةُ صورةً للعشقِ بمعناه الرّوحي الذي يجعلُ منَ الفارسِ البطل إنساناً رقيقاً ، تسعده البسمةُ أكثر منَ اللمسةِ ، فعنترةُ محبٌّ صادقُ الحبّ ، وليس ممن يطلبُ لذّةً عابرةً؛ وعنترةُ مصرٌّ على هذا الحبِّ ، مهما لاقى في سبيلهِ من عقباتٍ ومصاعبَ ومتاعبَ ، ومن هذا المبدأ ظلّ أدبُه في محبوبته عبلة خَالداً ، وحبّه لها كان نموذجاً للعشّاق العذريين فيما بعد ، لقد كان حبّه عذباً صادقاً ، وعاطفتهُ دفّاقة ، فكان مثالاً للخُلقِ الرّفيع ، والأدب السّامي والفروسيّة النَّادرة.

عَـبْـلَةُ فَـي هَمَـسَاتِ عَنْـتَـرَةَ:

* ألهبتْ فروسيّةُ عنترةَ ابنة عمّه عبلة ابنة مالك العبسيّة ، تلك المحبوبة التي فجّرت ينابيعَ الإقدامِ في داخِله ، وجعلتْه أسطورةَ فرسانِ عَصْره ، حتى غدا اسمُها يقترنُ باسمِه ، وحتى غزا اسمُها معظمَ أشعارِه ، وظهرَ

على جميعِ أوتارِه ، فلا تكادُ تخلو مناسبة من ذكْرِ اسمها[١] .

* فلقد أَصبحتْ فروسيتُه وحبُّها شيئاً واحداً ، فهو عندما يشدو ويغنّي حُبَّه ، فإنّما يترنّم ويغني حبّه ، وعندما يدخلُ المعركة فعبلةُ هي المحبوبةُ الجميلةُ التي ترتسمُ في قلبِه ومخيّلته ، وعلى بيضِ السُّيوف ، ولها يَهَبُ بطولَته وإقدامَه ، ويجعلها منَىٰ أملِه وأملَ منَاه ، وحبَّ شوقه وشوقَ حُبّه ، لنستمعْ إلى همساتِ فؤادِه وهو يترنَّم متشوّقاً إلى عبلةَ ، يتغنّى بجمالها ، ولكنّه لا ينسىٰ شجاعتَه وسيفَه وسنانَه :

أعبلــةُ قــد زادَ شَــوقــي ومَــا ... أرىٰ الــدَّهْــرَ يُــدْنــي إلــيَّ الأحبَّـهْ
وكــمْ جهْــدِ نــائبــةٍ قــدْ لَقيْــت ... لأَجلِــكِ يــا بنْــتَ عمِّــي ونكْبَــهْ
فلــو أنَّ عينَيْــك يــومَ اللّقــاء ... ترىٰ موقفِي زِدْتِ لي في المحبَّهْ
يفيــضُ سنــانــي دِمَــاءَ النُّحــور ... ورُمحــي يشــكُّ مــع الــدِّرعِ قَلْبَــهْ
وأمــرحُ بــالسَّيــف تحــتَ الغُبــارِ ... إذَا مــا ضــربــتُ بــهِ ألــفَ ضَــرْبَــهْ
وتشهــدُ لــي الخيــلُ يــومَ الطِّعَــان ... بــأنِّــي أفــرّقُهــا ألــفَ ســرْبَــهْ
وإنْ كــان جِلْــدي يُــرَىٰ أسْــوداً ... فَلــيْ فــي المكــارِمِ عــزٌّ ورتْبَــهْ[٢]

---

(١) لقد تمثَّلَ في عبلةَ ـ على ما يبدو ـ جمالُ المرأةِ الحيِّ ، الذي جعلَ عنترةَ فارسَ الفرسانِ ، فقد كانت عبلةُ ذاتَ طبيعةٍ هادئةٍ ، وشكلٍ ساحرٍ ، وطلعةٍ بهيّةٍ ، ناهيكَ بالأناقةِ والملاحةِ ، فكانَ لها سحرهَا الرُّوحي في نفسِ الفارسِ الكمي عنترةَ ، وكان لها سلطانها العنيف على أضالع قلبهِ وحناياه ، وعلى أوتارِ أحاسيسهِ ومشاعرِه ، فكانت ملهمتَه فيما ينفثُ من بدائعَ وروائعَ ووقائعَ ، وباعثةَ عواطفِهِ الرقيقةِ الأنيقةِ الصّافيةِ التي جعلتْ من أدبهِ حِلْيةً جميلةً لكلِّ معاني الفَضائل ، وحصائِل الأخلاقِ والسّمو والإباء .

(٢) انظر : الفروسيَّةُ العربيّةُ (ص ١٠٠) ، ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ هذه الأبيات لا تُوجد في ديوان عنترة طبعة المكتب الإسلاميّ بدمشق ، ويُشْتَمُّ منها رائحة الوضْع في عصْر متأخّر ، ولعلَّ ناسِخَها وواضِعَها أَحَدُ المعجبين بعنترة وسيرته!!!

* وتقفُ الحياةُ الاجتماعيّةُ والعاداتُ أمام هذا الحبّ غيرِ المتكافىء ، فعنترةُ ـ في الحقيقةِ والعُرفِ ـ هَجينٌ ، وعبلةُ من الحرائرِ النَّبيلات الجميلاتِ ، وهاهو ذا عنترةُ يقطعُ الصَّحراءَ ليلَ نهارَ[1] وصباحَ مَسَاءَ[2] يبثّها أشجانَه ، وينشدُهَا خفقاتِ قَلْبِهِ ، ولكنَّ سلاحَه هو أنيسُهُ وجليسُه وصاحبُه ، ولهذا يقول:

كَمْ ليلةٍ سرتُ في البيداءِ منْفَرِداً ... والليلُ للغربِ قد مَالَتْ كواكِبُهُ
سَيفي أنيسي ورُمحي كلَّما نَهَمتْ ... أُسْدُ الدّحالِ إليها مالَ جانِبهُ
يا طامعاً في هَلاكي عُدْ بلا طَمَعٍ ... ولا تَرِدْ كأْسَ حتْفٍ أنت شارِبُه[3]

وفي نفحةٍ وجدانيّةٍ يعاتبُ عنترةُ الفارسُ الشُّجاعُ قومَ عبلةَ الذين وقفوا أمامَ حبّه الصَّادق:

ألا يا عبلُ قد زَادَ التَّصابي ... ولجَّ اليومَ قومُكِ في عَذَابي
وظلَّ هَواكِ ينمو كلَّ يومٍ ... كما ينمو مشيْبي في شَبابِي
عتبْتُ صروفَ دهْري فيكِ حتّى ... فَنىٰ وأبيكِ عُمري في العِتَابِ
ولاقيتُ العِدا وحفظتُ قَوْماً ... أَضَاعوني ولمْ يرعوا جَنَابي

* ويهمسُ عنترةُ في أذنِ التَّاريخ همسات حبّه ، ويفخر بهذا الحبِّ

---

(١) «لَيْلَ نَهَارَ»: ظرفٌ مركّبٌ مبنيّ على فتحِ الجزْءَين في محلّ نصب مفعول فيه نحو: أتذكّرك ليلَ نهارَ ، فإذا حُلَّ التّركيب ، وعُطِفَ الاسمُ الثّاني علىٰ الأوّلِ ، نُصِبَ كِلاهما منوّناً في نحو: أتذكّرك ليلاً ونهاراً.

(٢) «صَباحَ مسَاءَ»: ظرفُ زمانٍ مبنيّ على فَتح الجُزْءَين في محلّ نَصب ، تقولُ: جئتُه صباحَ مساءَ ، أي لازمتُه ، وهو منَ الظّروف غير المتصرّفة ، فلا يأتي إلا ظرفاً.

(٣) هذه الأبيات لم تَرِدْ في ديوانِ عنترة المحقّق طبعة المكتب الإسلاميّ بدمشق ، ويبدو أنّها كسابقتِها منَ الشّعر المنحول الذي صُنِع فيما بعد ، وهو كما يرىٰ القارىءُ لا يرقىٰ إلى مستوى شعر عنترة ، ولا يجري مجرىٰ أنفاسِهِ في معلّقته ، وإنّما هو أقربُ إلى النّظم ورصفِ القوافي من العاطفة الصّادقة.

الجميل ، ويعجبُ من تضاحُكِ حبيبته التي تبادِله عواطف الحُبِّ والإعجابِ والتّرابطِ القلبي ، والحب الصّادق الذي يكتنفُه الإعجابُ ، ترى ماذا يقول عنترة؟! :

عجِبتْ عُبيلةُ من فتىً متبذِّلِ   عَاري الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصَلِ
شَعثِ المفارقِ مُنْهجٍ سربالُهُ   لم يدَّهِنْ حولاً ولمْ يترجَّلِ
لا يكْتَسي إلاّ الحديدَ إذا اكتسىٰ   وكذاكَ كلُّ مغاورٍ مستَبْسِلِ
قد طالَ ما لبسَ الحديدَ فإنَّما   صدأُ الحديدِ بجلدِهِ لم يغْسَلِ

* إنَّ عبلةَ الرعبوبةَ المحبوبةَ تعجبُ من حبيبِها الفارسِ الصّنديدِ ، فهي تهتمُّ به ، وتعيبُ عليه أنَّه لا يغتسلَ ، وأنَّه قد أصبحَ شاحِبَ الوجْهِ نحيفَ الجسمِ متغيّر الشَّعْرِ ، لا يتطيَّبُ ، وليسَ معنى هذا أنَّها تأخذُ عليهِ ذلك الشَّكل وتلكَ الهيئة ، وإنّما تمرحُ وتمزحُ وتضحكُ معه وتدلُّ عليه :

فتضَاحَكَتْ عجباً وقالَتْ قَوْلَةً   لا خيرَ فيكَ كأنَّها لمْ تَحْفَلِ

* وهاهنا يصحّحُ عنترةُ لعبلةَ مفهومَها الخاطىءَ ، ويردّ عليها ردَّ الفارسِ الماجدِ الشَّريفِ ، فهي تهتمُّ بالأشياءِ التّافهةِ ، وهو يهتمُّ بأشياءَ أسمىٰ منَ الاغتسالِ ، أو الحرصِ على أنْ يكونَ مُمتلئاً بادِناً ، فهو يهتمُّ بالحربِ والجلادِ ، وبما تتطلّبُه منْ سِلاحٍ ، وإعدادِ خَيْلٍ وجرأةِ قَلْب :

فَعجبْتُ منها حينَ زلَّتْ عينُها   عنْ ماجدٍ طَلْقِ اليَدين شَمَرْدَلِ
لا تَصرِميني يا عُبيلُ وراجِعي   فيَّ البصيَرةَ نظرةَ المتأمّلِ
فَلَرُبَّ أمْلَحَ منْكِ دلاًّ فَاعْلِمِي   وأَقَرَّ في الدُّنيا لعينِ المُجتَلي
وصَلَتْ حِبالي بالذي أنَا أهْله   من وُدّها وأنا رخيُّ المِطْوَلِ

* ثمّ يذكّرها بفروسيّته وبسالَتهِ وخوضِهِ المعامعَ فيقول :

يا عَبْلُ كمْ منْ غُمرةٍ باشرتُها   بالنَّفْسِ ما كادَتْ لعمركِ تَنْجلي
فيها لوامعُ لو شهدتِ زهاءَهَا   لسلوتِ بعد تخضُّبٍ وتكحُّلِ

إمّا تَريني قد نحلتُ ومَنْ يكُنْ غـرضـاً لأطـرافِ الأسنّـة ينحـلِ
فلـربَّ أبلـجَ مثـلِ بعلـكِ بـادِنٍ ضخـمٍ علـى ظهْـرِ الجـوادِ مُهبَّـلِ
غـادرتُـه متعفّـراً أوصـالُـه والقـومُ بيـنَ مُجـرّحٍ ومُجَـدَّلِ
فيهـم أخـو ثقـةٍ يضـارِبُ نـازلاً بـالمشـرفـيّ وفـارسٌ لـمْ ينْـزلِ
ولقـد لقيْـتُ المـوتَ يـومَ لقيْتُـه مُتَسربلاً والسَّيفُ لم يَتَسرْبَلِ[1]

* وقصَّةُ حبِّ عنترةَ لعبلةَ من قَصَصِ الحُبّ الشَّهير في عالم العُشَّاق الفرسان في العصرِ الجاهليّ ، ولعلَّها أشهرُ قصّة حبّ عرفَها ذلك التّاريخ ، أو شَهَرَها التَّاريخُ أو الرّواةُ أو أهلُ الأخبارِ والأسمارِ ، ولعلَّ عبلةَ أجملُ امرأةٍ[2] رآها عنترةُ منْ نساءِ دنياه ، فخلَّدهَا بشعرِه .

ورسمَها بكلماتِ حبّه علىٰ أوراقِ الأيّام ، بأحلىٰ الألحانِ والأنغام .

* وإذا ما رُحْنا نصولُ ونجولُ في ميادينِ حبّ عنترة ، وفي ساحاتِ أغزالهِ ، لم نجدْ ما يسدُّ الفراغَ الذي ملأتْهُ قصَّةُ عنترةَ وعبلةَ في دنيا الأشواقِ والعشّاقِ ، بل لم نجدْ أخباراً وافيةً فيما بين أيدينا من مصادر .

* والذي يدعو إلى العجب أنَّ القصَّة والرِّواية الشَّعبية المعروفةَ لعنترةَ

---

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٢٥٣ ـ ٢٦٢) وهي تعدّ (٣١ بيتاً) وهي من الشعر الجيد الجميل .

(٢) لا جرمَ أنَّ الفارسَ العربيَّ في عصْرِ الجاهليّة ، قد عاشَ في بيئةٍ غنيةٍ بالجمالِ الأصيلِ ، مليئةٍ بالمحاسنِ المطبوعةِ ، فهو يسرّحُ طرفَه في امتدادِ الصّحراء ، فلا يجدُ إلاّ اتّساعاً في الطّبيعةِ ، وصفاءً في اللون ، وانطلاقاً في الحياة .
والإنسانُ بطبيعتِه ميّالٌ للجمالِ ، مدركٌ لأصالتهِ يعْجَبُ بكلّ كائنٍ يملكُ هذه الصِّفة ، ويعبّر بما يملكه من وسائلِ التعْبيرِ عن إعجابه .
إنَّ حكايةَ الحبِّ العنتريّ ، والجمالَ الأخّاذ لعبلةَ قد أخذَ من حياةِ عنترةَ بنِ شداد وشعرِه وقلبِه مكاناً رحباً ، فحفلَ تراثُه بالشِّعْر الغنائيّ المطرب الجميلِ ، وذلك في أبسطِ صُوَرِه ، وأحلىٰ حُلله ، وأرقّ معانيه .

ابنِ شداد ، تجعلُ منه فارسَ الحُبِّ والمغامراتِ ، كما تجعلُ منه متيّماً دَنِفاً ، وتصوِّرُ معاناة عبلةَ في حبّها ، وأنَّ والدها قد رفضَ هذا الحبَّ لابنته ، لأنَّ عنترةَ هجينٌ ، ليس له نسبٌ عريقٌ كغيرهِ من فرسانِ عبس وسائرِ القبائل.

* ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ عدداً منَ الأفلام التي مُثّلَتْ في السّينما ـ أو منَ المسلسلاتِ الكثيرة ـ تجعل من والدِ عبلةَ يطلبُ مَهْراً لا يطيقُه أحدٌ ، ولا يقدِرُ أنْ يأتيَ به أحدُ ، حيث طلبَ ألف ناقةٍ حمراءَ من النُّوق العصافيرِ للملك النُّعمان.

* وتعرضُ الأفلامُ ، كما تروي الأخبارُ أنَّ عنترةَ قد خرجَ يطلبُ تلكمُ النّوق العَصافير ، فلقيَ الأهوال ولاقىٰ من المصاعب مالم يلقه فارسٌ عاشقٌ محبٌّ وامقٌ ، ويزدادُ الأمرُ تعقيداً ، والطّين بلّة أنَّ عنترةَ وقعَ في أسرِ النعمانِ ، وصارَ رهين المحبسَيْن : الغربة ، وسجن النّعمان ، ثمّ إنَّ عنترةَ أبدىٰ بطولاتٍ خارقةً ونادرةً ، كيما يرضىٰ عنه مَنْ أسرَه ، وكيما يحرّره مَنْ قيّده الذي أدمى معْصَمه وقدمَه ، وغربتَه التي أدْمَتْ قلبَه ، وفي نهايةِ هذه المحنةِ يحصلُ عنترةُ على الحرّيةِ ، وينجحُ في مهمّته ويأتي قبيلته ومعه النّوق العصافير.

* بيد أنَّ المشكلةَ لم تُحَلّ ، وأخذَ والدُ عبلةَ يُماطِلُ عنترة في تزويجِ عبلة له ، فيعرضُ ابنتَه على فرسانِ القبائلِ الأخرى وساداتِها مشترطاً عليهم رأس عنترة مَهْراً لها.

* وتبدأُ رحلةُ المنافسةِ بينَ الفرسانِ ، فيبارزهم عنترةُ ويقهرهم ، فيقتلُ فريقاً ، ويأسرُ فريقاً ، ويتّخذُ بعضهم أصدقاء ، فيقتلُ مِسْحلَ بنَ طراق ، ويأسرُ عروةَ بنَ الورد ، ويصادقُ بِسْطامَ بنَ قيس الشَّيباني فارس بكر ، وأحدَ شُجعان العرب ، بعد أنْ كادَ عنترة يقتلُه ويجعله كأَمْسِ الدَّابر.

* أمّا المصادرُ فلا تذكرُ أو تؤكّد أنَّ عنترةَ قد تزوَّج عبلة[1] ، ولا نعلمُ هل تحقَّق حلمُ عنترةَ أمْ لم يتحقّقْ.

* وأمّا السّيرةُ الشَّعبيةُ الشَّهيرة ، فتجعلُ من عُرسِ عنترةَ مهرجانَ الشِّعرِ والأدبِ والفصاحةِ ، ومن ثَمَّ نَحْرَ الإبلِ وأشياءَ كثيرة تقتربُ من مئةِ صفْحةٍ في وصْف العُرس؛ وما رافقَ ذلك من أحداثٍ ومفاجآت ، وكلّ ذلك في أسلوبٍ يحمل عنصرَ الإثارةِ والتَّشويقِ والتَّلفيقِ.

* بيد أننا ألفينا كثيراً منَ الشّعر أو النّظم الذي نُسِب لعنترةَ قد تكررَ فيه ذكْرُ عبلةَ بعدّةٍ وجوه مثل: عَبْلَة، عُبيلة، يا عَبْلُ، يا بنةَ مالك، أمّ الهيثم. . . .

* وهناك بعضُ الأشعار التي تدلُّ على أنَّ عبلةَ هي منيّة الفؤادِ ، ومنىٰ الرُّوح ، وحبيبةُ القلبِ ، وأهزوجةُ عنترة في جميع الحالات:

أَلاَ يـا عَبْـل قَـد عـاينـتِ فعْلـي   وبَـانَ لـكِ الضَّـلالُ مـنَ الـرَّشَـادِ

---

(١) إنَّ القدماءَ الذين ترجموا لعنترةَ منْ مثل: ابن قتيبة ، والأصمعيّ ، والمفضّل الضّبي ، وابن حبيب ، وأبي عبيدة لم يتطرّقوا لذكْرِ أمرْ زواجِ عنترةَ من عبلةَ. والذي يجعلُنا في حيرةٍ أنَّ أبا هلال العسكريّ يشيرُ إلى زواجِه منها يومَ أنْ استردَّ حريتَه حيث قال: فاستلحقه أبوه يومئذٍ وزوّجه عمّه عبلة ابنته.

(ديوان المعاني ١/ ١١٠)

ونجدُ كذلك السّيوطيَّ فيما بعد يورِدُ قولاً ينقلُ ما ذكَره عمّ عنترةَ يوم حَصل على حرّيته: إنّكَ ابنُ أخي وقد زوجتُك ابنتي عبلة. (شرح شواهد المغني ص ١٦٥).

ونجدُ خبراً ثالثاً نقَله الميدانيُّ في المناسبةِ عينِها على لسانِ والدِ عنترة وهو: وقال له: كُرَّ وقد زوجْتُك عبلةَ فكرَّ وأبلىٰ ، ووفّى له أبوه بذلك فزوَّجه عبلة.

(مجمع الأمثال ٢/ ٢٤٤)

بيد أنَّ هناكَ أخبارٌ أخرىٰ تشيرُ إلى عكسِ ذلك ، بل هناك قصيدة يثبتُ فيها عنترة أنَّ لعبلة زوجاً:

فلـربّ أبلـجَ مثـلِ بعلـكِ بـادنٍ   ضخـمٍ علـى ظهـرِ الجـوادِ مهبَّـل

والأخبارُ في هذا متضاربةٌ ، ولا طائل الآن من البحثِ وراء الصَّواب منها.

* ونلحظ هنا أنَّ عنترة يريدُ أنْ يقنعَ عبلة بمقدرتهِ في المعاركِ ، وبفروسيتهِ النّادرة ، وبطولتهِ الخارقةِ ليكسبَ قلبها وودّها؛ كما يريدُ أنْ يريها إخلاصَه وتعلقه بها:

ولئنْ سَألتَ بذاكَ عبلةَ أخْبَرتْ ... أنْ لا أريـدُ مـنَ النِّسـاء سِـوَاهـا

* وفي موضعٍ آخر يذكرُ اسمَها ويخاطبُها وهو يتوعّد جموعَ الفُرس بالحرب:

يا عبل لا تخْشَي عليَّ منَ العِدَا ... يوماً إذا اجتمعتْ عليَّ جموعُها

إنَ المنيــةَ يــا عُبيلــة دوحــةٌ ... وأنـا ورمْحـي أصلُهُـا وفـروعُهـا

يـا عبـل لـو أنَّ المنيّـةَ صُـوِّرَتْ ... لغَـدا إلـيَّ سجـودُهَـا وركـوعُهـا[1]

* وهنا يحلِّقُ عنترة في الفضاءِ ، ويأخذُ معه صورة عبلة ليخبرها بأنَّه خُلِقَ للحربِ ، ولا يخشىٰ الأعداءَ ولا يرهبُ الموت.

* ويكثر ذكرُ عبلةَ في مواطنَ كثيرةٍ ، وفي أحدِها يؤكّدُ لها حبَّه ، ويطمئنها على نفسِها بألا تخافَ ولا تحزن ، ولتقرَّ عينها آمنةً ، فدونها أُسدٌ تحملُ العوالي وآلات الحرب:

يا عبل قرّي بوادِي الرَّمْل آمنةً ... منَ العُـداةِ وإنْ خُـوِّفْـتِ لا تَخَفـي

فـدونَ بيتِـك أُسـدٌ فـي أنـامِلهـا ... بيضٌ تَقُدُّ أعالي البيضِ والحجفِ[1]

* فعنترةُ كما ترى غيورٌ على حبيبةِ القلبِ ، يعتدُّ بنفسه ، ويمتدحُ شجاعتَه ، ويبثُّ الطُّمأنينة في جوانبِ نفسِها وجوانحها.

* وعبلةُ ابنةُ مالك من أرقّ الأسماءِ لدى عنترة ، وهو الوترُ الرّئيسيُّ في أنغامهِ ، فاسمعْ إليه يخاطبها بهذه الأبياتِ الدَّاليّةِ التي يعتزُّ بها بفروسيته وفتوّتهِ ، ويهددُ جموعَ الفرسِ الغزيرة الكثيرة التي فرَّقها فرسانُ العرب:

---

(١) هذه الأبيات ليست مثبتة في ديوانه المحقق ، ولعلها من الشعر المنحول عليه.

ولقدْ لقيتُ الفُرسَ يا بنةَ مالكٍ وجيوشُها قد ضاقَ عنها البِيْدُ
وتموجُ موجَ البحرِ إلا أنّها لاقَتْ أُسوداً فوقَهنَّ حديدُ
يا عبل كمْ منْ جَحْفَلٍ فرقتُه والجوُّ أَسْودُ والجبالُ تميدُ
فَسَطا عليَّ الدهرُ سطوةَ غادرٍ والدهرُ يبخلُ تارةً ويجودُ[1]

* ويظهرُ منَ الشِّعرِ المنسوبِ لعنترةَ أنَّه كان حريصاً على ذكْرِ عبلةَ في جميعِ مجالاته ، حتى عندما يخرجُ إلى قتال العَجم يذكرها متشوقاً متغزلاً :

أشاقَكَ منْ عَبْلِ الخيالُ المبهجُ فقلبُكَ منه لاعج يتوهج
فويلٌ لكسرىٰ إنْ حللْتُ بأرضِهِ وويلٌ لجيشِ الفُرسِ حينَ أعجعجُ[1]

* وفي معلّقته يخاطب عنترةُ عبلةَ ودارها ، ويكرِّر اسمَها ليشيرَ إلى حبِّها ، فيقول :

يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلَّمي وعِمي صَباحاً دارَ عبلةَ واسْلمي
وتحلُّ عبلةُ بالجواءِ وأهْلُنا بالحزنِ فالصَّمَّانِ فالمتثلَّم

* ويخصُّ عنترةُ الأطلالَ[2] بالتَّحيّةِ ، ويذكرُ أمَّ الهيثم التي هي كنية عبلة :

حُيِّيتَ منَ طَلَلٍ تقادَم عهْدُه أقوىٰ وأقْفرَ بعْدَ أُمِّ الهيثَم

* كما أنَّه يخاطبُ عبلة بأنَّها قد نزلَتْ من قلبهِ منزلةً عُليا كريمة ، وهي المحبوبةُ المكرمة ، فَلْتكنْ علىٰ يقينٍ بذلك ولا تظنّ الظّنون :

ولقدْ نَزلْتِ فلا تظنّي غَيْرَه منّي بمنزلةِ المُحَبّ المكْرَم

---

(١) هذه الأبيات ليست موجودة في ديوانه وظاهر الصنعة موجود فيها.

(٢) يذكرُ عنترةُ عبلةَ والأطلالَ في قصيدة أخرى فيقول :

ألا يا دارَ عبلةَ بالطَّوِيِّ كرجعِ الوشمِ في رُسُغِ الهديِّ
كوحيِ صحائفٍ من عهدِ كسرىٰ فأهداها لأعجمَ طِمْطِميِّ
(ديوانه ص ٢٦٨)

* ويطلبُ عنترةُ منَ الحبيبةِ[1] أنْ تثنيَ على محامدِه ومناقبه ، فهو سهلُ المخالطةِ والمخالقةِ إذا لم يُهْضمْ حقّه ، ولم يبخسْ حقّه ، يقول:

أَثْني عليَّ بما علمتِ فإنّني ... سَمْحٌ مخالَقَتي إذا لم أُظْلَم
هلّا سألْتِ الخيلَ يا بنةَ مالكٍ ... إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلمي
يخبركِ من شهدَ الوقيعةَ أنَّني ... أغشىٰ الوغىٰ وأعفُّ عند المغنمِ

* لقد وجدَ عنترةُ في محبوبتِه عبلةَ المثلَ الأعلىٰ الذي يصوِّرُه ، فهو يتوجَّه إليها بأجملِ أغانيه ، ويقدّم لها كلَّ ما يقومُ به من أعمالٍ حربيّةٍ وبطوليّة في معانٍ رقيقةٍ، وهو ينادي اسمَها في ساعاتِ القتالِ الحرجةِ ، وفي المبارزةِ ، وعند اشتدادِ البأْس بين احمرارِ الحدَقِ، وبريقِ السُّيوف، واشتجارِ الرِّماح، ودويّ النّبل ، فإذا رضيتْ عنه ، فكأنّما رضيَ النَّاس جميعاً ، فهو يقدّمُ لها كلَّ بطولاتِهِ وأمجادِهِ قرباناً عند ساحتِها ، وهديةً لقلبها ، وترجماناً لعواطفهِ ، فيقول وهو خارجٌ إلىٰ العراقِ يرسمُ لها هذه اللوحةَ المِغْناج :

أَيا عبْل ما كنْتُ لَولاَ هواكِ ... قليلَ الصديقِ كثيرَ الأَعادي
وحقِّك لا زالَ ظهرُ الجوادِ ... مقيْلي وسيفي ودرعي وسَادِي
إلى أنْ أدوسَ بلادَ العِراق ... وأفني حواضِرَها والبوادي
إذا قامَ سوقٌ لبيعِ النُّفوسِ ... ونادىَ وأعْلَن فيها المُنادي
وأقبلتِ الخيلُ تحتَ الغبار ... بوقْعِ الرِّماح وضربِ الحِدادِ
هنالكَ أصدمُ فرسانَها ... فترجعُ مخذولةً كالمعادِ
وأرجعُ والنّوقُ موفورةٌ ... تسيرُ الهوينىٰ وشيبوبُ حادي
وتسهرُ لي أعينُ الحاسدين ... وترقدُ أعينُ أهل الوداد[2]

---

(١) إنْ الحبَّ المقرونَ بالفروسيةِ والعفافِ كان المثلَ الأعلىٰ في حياة عنترة ، لما فيه من الحرصِ على الأعراض، والمحافظة على القيم النبيلة، والسعي إلى إعلاء شأن المرأة.

(٢) ديوان عنترة (ص ٥٣) تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ـ مصر.

* وفي لوحةٍ فنيّةٍ أخرىٰ اسمَ عبلة بكلماتِه ويطلبُ منها أنْ تسألَ عن مواقفهِ وأفعالهِ وخصوصاً عندما أغار على بني ضبّةَ وفعلَ الأفاعيل؛ فيقول من قصيدةٍ طويلةٍ:

فَلئِنْ صرمْتِ الحبلَ يا بنةَ مالكٍ وسَمعتِ فيَّ مقالَةَ العُذّالِ
فَسَلي لكَيْما تُخْبَري بفعالِنا عند الوغىٰ ومواقِفِ الأَهْوالِ
وَالخيلُ تعثرُ بالقَنا في جَاحمٍ تهفو بهِ ويجُلْنَ كلَّ مجالِ
وأَنا المجرَّبُ في المواطنِ كلِّها من آلِ عبْس منصبي وفَعَالي[1]

نِهَايَةُ عَنْتَرَةَ ومَوْتُهُ:

* منَ المتوقَّع أنْ يتابعَ الرُّواةُ ومحبُّو الأخبارِ عن عنترةَ رحلتَهم مع عنترةَ إلى النِّهايةِ المحتومةِ على كلِّ إنسانٍ، بيد أنّنا نطّلعُ على كثيرٍ منَ الخلافِ في أخبارِ حياته وموتِه كذلك، ولا يكادُ الرُّواةُ يتّفقون إلاّ في نقطةٍ واحدة هي الإجماعُ بأنَّ أمَّه زبيبة، وهذا قد أشارَ إليه عنترة نفسُه في أكثر من مناسبةٍ في شعْرِه.

* وقد اختلفَ الرُّواةُ في نهايةِ ووفاةِ عنترةَ، فمنهم مَنْ زعَم أنَّه ماتَ مقتولاً، ومنهم مَنْ زعمَ أنَّه ماتَ بَرْداً، بعد أنْ بلغَ من الكبر عتياً، وأصبحَ شيخاً كبيراً.

* والمصادرُ التي ذكرتْ أنَّ عنترةَ مات برداً، نقلتْ هذا الخبر عن أبي عُبيدة وفيه يروي قصَّة موتِه فيقول: إنَّ عنترةَ بعدما تأوَّت ـ عادتْ ـ عبسُ إلى غطفانَ بعد يوم جَبَلة، وحملتِ الدّماء، احتاجَ، وكان صاحبَ غاراتٍ، فكبرَ فعجزَ عنها، وكان له بَكْرٌ على رجلٍ من غطفانَ، فخرجَ قِبَله يتجازَاه، فهاجتْ رائحةٌ منْ صَيِّف ـ المطرُ الذي يجيءُ في الصَّيفِ ـ

(١) ديوانه (ص ٣٣٦) طبع المكتب الإسلامي بدمشق. وديوانه (ص ١٢٩) تحقيق عبد المنعم شلبي ـ مصر.

وهبَّتْ نافِحَةٌ ـ بارِدَةٌ ـ وهو بينَ شَرْج ونَاظِرة ـ ماءان لعبس ـ ، فأصابتِ الشَّيخَ فَهَرَأَتْه فوجدوه ميتاً بينهما[1] .

* وذكرَ أبو عثمان الجاحِظ خبراً قريباً ممّا ذكرناه آنفاً حيث قال: قال أبو عُبيدة في ميتةِ عنترة: ظعنَتْ عبسٌ لبعضِ الأمْرِ ، وخلَّفَتْ عنترةَ في الدَّار شيخاً كبيراً لا حَرَاك به ، فعصفتْ ريحٌ فماتَ فيها خُفَاتاً[2] .

* قال أبو الوجيه العكليّ: بل مرَّ بهِ نَفَرٌ من طيىء ، فلما رأوه مخلّفاً في الدَّارِ أثبتوه معرفةً ، قال بعضُهم لبعض: في قَتْلِ هذا شَرفٌ! فلما خبطُوه بأسيافِهم قال عنترةُ: أيَّ حَفْصٍ يجزرون[3] .

* وهناك مصادر تزعمُ أنَّ عنترةَ ماتَ مقتولاً ، قال ابنُ دُريد في «الاشتقاقِ»: قَتَلَتْه طيىء فيما تزعُم العربُ وعامّة العُلماء ، وكان أبو عُبيدة ينكرُ ذلك ويقولُ: ماتَ برداً ، وكان قد أسنَّ .

* ونُقِل عن أبي عبيدة أيضاً: أنَّ طيّئاً تدّعي قَتْلَ عنترة ، ويزعمون أنَّ الذي قتَله الأسدُ الرّهيصُ وهو القائِل:

أنَا الأَسَدُ الرَّهيصُ قتلْتُ عمراً ... وعنتــرةَ الفــوارسِ قــد قتلْــتُ[4]

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٢) ، والأغاني (٨/ ٢٥٣).

(٢) انظر كتاب: البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (ص ٤٢١) ، ومعنى «عصفتْ ريحٌ»: تعصفُ عصفاً وعصوفاً ، فهي عاصفةٌ وعصوف: اشتدّت ، وفي لغةِ أسَد أعصفتْ فهي معصفة ، وفي القرآن الكريم: ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ [المرسلات: ٢] ومعنى الآية: الرياح الشديدة الهبوب المهلكة.
و«خفاتاً»: الخُفات: موت البغتة. قال الشاعر:
ولســتُ وإنْ عــزّوا علــيَّ بهــالــكٍ ... خفــاتــاً ولا مستهــزمٌ ذاهــبُ العقــلِ

(٣) انظر البرصان والعرجان (ص ٤٢٢)، و«الحفصُ»: شبلُ الأسد، وقال ابنُ الأعرابي: هو السَّبُع أيضاً. وقال صاحبُ العين: الأسدُ يكنى أبا حفص ، ويسمّى شبلَه حفصاً.

(٤) انظر: خزانة الأدب (١/ ١٣٩) ، وبلوغ الأرب (٢/ ١٢٧). وفي الاشتقاق ما مفاده: =

* ويقول ابنُ الكلبيّ: وكانَ الذي قتلَهُ يلقَّبُ بالأسدِ الرهيص[1].

* وهناك شاهِدٌ أوردَه الأصفهانيُّ يشيرُ إلىٰ أنَّ الأسدَ الرَّهيصُ هو الذي قَتَل عنترة ، وذلك في مجلسِ رسول الله ﷺ حيثُ يسألُه عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ؛ يقولُ الأصفهانيُّ في ما ملخّصه: دخلَ زيدٌ علىٰ رسول الله ﷺ ، وعنده عمرُ ـ رضي الله عنه ـ ، فقال عمرُ لزيدٍ: أخبرنا يا أبا مُكْنِف عن طيىءٍ وملوكِ نَجْدتِها وأصحابِ مرابعها. . . وكان ممّا أجاب به زيدٌ قوله: ومنّا الأسدُ الرّهيصُ سيِّدُ بني جديلة ، ومدوِّخُ كلِّ قبيلة ، قاتلُ عنترة فارس بني عبس ، ومكشِّف كلِّ لبْس[2].

* ويروىٰ أنَّه أغارَ على بني نبهان ، وكان مُسنّاً ، فرموه بسَهْم ، فأصابوا منه مقْتلاً ، فقد أوردَ الأصفهانيُّ هذا الخبرَ مفصّلاً في أغانيه بسندِه عن المفضّل وعن ابن الكلبيّ قالا: أغارَ عنترةُ على بني نبهانَ من طيىء ، فأَطْرَدَ لهم طريدةً وهو شيخٌ كبيرٌ ، فجعلَ يرتجزُ وهو يطردها ويقول:

آثارُ ظُلْمان بقاعٍ مجدِبِ

وكان وزرُ بنُ جابر النَّبهانيّ في فتّوةٍ ، فرمَاهُ وقال: خُذْهَا وأنا ابنُ سلمى ، فقطعَ مطَاه ، فتحاملَ بالرَّميةِ حتى أتى أهلَه ، فقال وهو مجروحٌ:

وإنَّ ابنَ سلمى عنْده فاعْلَموا دمي ... وهيهاتَ لا يُرجى ابنُ سلَمى ولا دَمي

= الأسدُ الرهيص. . . قيل: إنّه قتلَ عنترةَ بنَ شداد العبسيَ. (الاشتقاق ص ٤٠٠) ملخصاً.

(١) ذكر ابنُ دريد في الاشتقاقِ أيضاً في حديثه عن رجالِ طيىء فقال: ومنهم وزرُ بنُ جابر ، وهو الذي قتلَ عنترةَ العبسيّ ، وقد أتى النبيَّ ﷺ فلم يسلمْ ، والوزرُ: الملجأ. (الاشتقاق ص ٣٩٦).
وقال الأصفهاني: وأسلموا جميعاً ـ أي بنو طيىء ـ جميعاً إلا وزر.
(الأغاني ١٧/ ٢٧٣)

(٢) انظر: الأغاني (١٧/ ٢٥٥) بتصرف.

إذَا مـا تمشّـى بيـنَ أجبـال طيـىءٍ   مكـانَ الثُّـريـا ليـسَ بـالمُتَهضِّـمِ
رمَاني ولمْ يدهشْ بأزرقَ لَهْذَمٍ   عشيَّـة حَلّـوا بيـن نَعْـفٍ ومخـرمِ

قال ابنُ الكلبيّ: وكانَ الذي قتلَه يلقَّبُ بالأسدِ الرَّهيص[1].

* وذكر الأصفهانيّ أيضاً عن أبي عمرو الشَّيباني أنَّه قال: غزَا ـ عنترةُ ـ طيئاً مع قومهِ فانهزمتْ عبسُ، فخرَّ عن فرسِه، ولم يقدر منَ الكِبَرِ أن يعودَ فيركبَ، فدخل دَغَلاً، وأبصرَهُ ربيئةُ ـ طليعة ـ طيىء، فنزلَ إليهِ، وهابَ أنْ يأخذهَ أسيراً فرمَاه وقتَلَه[2].

* ولعلَّ أرجحَ الرِّواياتِ أنَّ عنترةَ ماتَ مقتولاً حيث جُرِحَ بسهمٍ أو ضُرِبَ بسيفٍ، وهكذا كانت نهايةُ الفارسِ العربيّ الشَّهير عنترة الذي عاشَ للفروسيّة، وماتَ كما يموتُ الفُرسان.

* وظلَّ عنترةُ فارساً مشهوراً في سماءِ الفُرسان، وترجعُ السِّمات الأساسيّة لسيرتِه إلى ما جاءَ عن حياتِه في كتابِ الأغاني من مادّة قصصيّة ـ وإن كانت قليلة ـ وبمرورِ الوقت حدَثَ لهذهِ المادّةِ تضخّمٌ وإضافةٌ وتعديلٌ وزياداتٌ وتزويرٌ وتهويل.

* وتتكوّنُ هذه المادَّةُ من ثلاثةِ محاورَ وثلاث سمات: فعنترةُ بطلٌ مغوارٌ، وفارسٌ كرّار، لا يُقْهَرُ أبداً. وهو عاشقٌ وَفِيٌّ مخلصٌ مُدْنَفٌ شفَّه الحبُّ. وهو شاعرٌ لا يُجارىٰ.

* ومن هنا نُسِجَتْ حولَ هذه السِّمات أقاصيصُ المغامراتِ المتنوّعة،

---

(١) انظر: الأغاني (٨/ ٢٥٢). ويُروى أنَّ قاتله قال:
فـإنْ تجـزعْ بنـو عبـسٍ عليـه   فـإنّـي لا وجـدِّك مـا جـزعْـت
ضـربـتُ قـذالَـه بـالسَّيـف صلتـاً   وكـانـتْ عـادتـي ذات استعْـدت
(المؤتلف والمختلف ص ٩٩)

(٢) الأغاني (٨/ ٢٥٢).

في روايات مختلفة ، ومن ثمَّ ظهرَ لعنترةَ متعصِّبون ، حتّى في قرون متأخّرة عن عصرِه ، وصاروا يدافعونَ عنه ولا يرضون له المذلّة والصَّغار ، بل لا يرضون أنْ يُصاب بأي شيءٍ يشينه ، ففي الأخبار أنَّ ابنَ سِلمى قد رماه بِسَهمٍ فستَرَ عينه[1] ـ أي حرقها ـ بيد أنَّ عبسيّاً شديد التّعصُّب لعنترةَ لم يرضَ بهذا ، وقد أوردَ النَّهروانيُّ في كتابِه «الجليس الصَّالح الكافي» قصَّةً طريفةً عن هذا الموضوع فقال : حدثنا يزدادُ بنُ عبد الرحمن ، قال : حدثنا أبو موسىٰ ، قال : حدّثنا القحذمي عن ابنِ دأب قال :

* جاءَني أعرابيٌّ من عَبْس ما رأيتُ قط أشدَّ عصبيّةً منه ، فقال : يا أبا الوليد ، ما شيءٌ بلغَني عنك؟

قال : قلتُ : وما هوَ؟

قال : بلغني أنَّك تقول : إنَّ عنترةَ فُقِئَتْ عينُه قبل أنْ يموتَ .

قلتُ : نعم .

قال : ومَنْ فقَأَها؟

قلتُ : غلامٌ من بني قبال .

قال : عندك في ذلك شَاهِد؟

قلت : نعم .

قال : فأنشدنيه ، فأنشدتُه :

غَـزَا ثـمَّ آبَ العبـدُ خـائـبَ جـدِّه ... إلىٰ ضخمةِ الأذنين والكفّ شَهْبَرَهْ
فبـاتَ إليهـا كـاسِـراً شـقَّ عينَـه ... فقـالـتْ لـه مَـنْ عَـار عينَـكَ عَنْتَـره
فقـالَ لهـا لا ضيـرَ إنْ مُلِمَّـةً ... أَلَمَّـتْ وإنَّ الـدَّهـرَ يقلـبُ أعْصُـره
وإنَّ غُـلامـاً مـنْ قبـالٍ أصـابَهـا ... وما كانَ عن كفِّ القباليّ أهْدره

(١) انظر : ديوانه (ص ٣١٨) ، والمعنى أن عينه فقئت .

فقال لي: أمعكَ غير هذا؟

قلتُ: نعم:

أمّـا بنـو عَبْـس فـإنَّ دعيَّهـم ولَّـتْ فـوارسَـه وأفْلَـتَ أَعْـورَا
سمعَ التَّـذامرَ والتَّـواصي بينهَـم لا يفلتـنَّ العبـدُ عنْتَـرَ عنْتَـرا

فقال لي: يا أبا الوليد، قد صحَّ هذا عندك؟

قلتُ: قد حدثتُكَ الحديثَ وأنشدتُك الشِّعْر.

قال: واللهِ ما تفقَّتْ عينُه في قبرِه، كيف تزعُم أنّها تفقَّت قبل موته[1]؟!!

* وهكذا لاحظنا هذا التَّعصُّب الشَّديد لعنترة من رجل عبسيّ، بيد أنَّ الذي يدعو إلىٰ العجب تعصُّب بعضِ الناس في عصرِنا لعنترة، وبأنَّه فارسٌ لا يُقْهر، ولعلَّ الأفلام، والسِّيرةَ الشَّعبية قد أثَّرا في ذلك.

* إنَّ ثمَّة حقائق تاريخية من عَصْر الجاهليّة حتى الحروب الصَّليبية تتضحُ من أحداثِ السّيرة، وتثبت أنَّ السيرة ظلت تتطوَّرُ حتّى القرن السَّادس الهجريّ، ثمّ استقرَّ شكْلُها إلى عَهْدٍ قريب.

* وهناك روايةٌ تُعْرفُ بالرِّوايةِ الحجازية، وهناك الرِّوايةُ الشّامية، والرّوايةُ العراقية.

* ومن العجيب حقّاً أنَّ الرّواية الشّامية والعراقيّة منسوبتان للأصمعيّ!! وروايةُ عنترة مطبوعةٌ في عدّة مجلدات، وفي عددٍ من البلدان قديماً وحديثاً، وتجدُ لها رواجاً بين القُرّاء في أنحاءِ العالم.

---

(١) انظر: الجليس الصالح الكافي (٣/ ١٨٩ ـ ١٩١). ومعنى: «شهبرة»: عجوز، ويقال: شهربة. و«تفقت»: تفقّأت، حذف الهمز.

* بقي أنْ نعرفَ أنَّ موتَ عنترة كان قَبْل الإسلام بقليلٍ حوالي سنة (٦٠٨ م) ، وعنترةُ منَ الفرسان المُعمَّرين ، ولعلَّ حياته تجاوزتِ الثَّمانين .

* أخيراً أرجو أنْ أكونَ قد وفقْتُ في رسم شخصيّة عنترةَ ونظمِها بين فرسانِ التَّاريخ .

* * *




الباب الثّاني

فرسان مخضرمون

زيدُ الخيل بن مُهلْهِل

عمرو بنُ معدي كرِب

ضرار بنُ الخطّاب







زيدُ الخيل بن مُهلْهِل

* فارس صنديد، ومن أكابر فرسان طيىء، وبطلها العملاق المظفَّر.
* أوتي بسطة في الجسم والشجاعة، وكان كلما غزا كان النصر حليفه.
* حليم، حكيم، ذو مروءة، وكان سيد قومه.
* أسلم بين يدي رسول الله ﷺ وسمَّاه «زيد الخير».




فَتَى الصَّبَاح :

* كانتْ حياةُ العربيّ في الجاهليّةِ صِراعاً دائماً بينَه وبينَ بيئتهِ القاسيةِ ، لأنَّ كلَّ ما فيها يُوحي بالقوّة ، وينطقُ بأنَّ البقاءَ للأصلحِ والأقوىٰ في الصَّحراء الواسعة .

* ومن هذا المنطلقِ ظهرتْ في حياةِ العربِ الغاراتُ والحروبُ ، والحربُ ظاهرةٌ بشريةٌ صحبتِ الإنسانَ منذ فجرِ التَّاريخِ ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها .

* وكان بعضُ فرسانِ العربِ في الجاهليّة يشنُّ الغارةَ[1] على قبيلةٍ منَ القبائلِ ، وقد حفلتِ الأخبارُ التي وصلتْ إلينا عنِ العصرِ الجاهليّ بصوَرٍ رائعةٍ لغارات الفُرسانِ والأبطالِ ، وخوارقِ بطولاتِهم وتضحياتِهم ، وصواب آرائهم في الغارةِ والحربِ ، وطرائقِ هجماتِهم ، وفنونِ قتالِهم وأساليبِ إغارتهم على القبائلِ الأخرى .

* وكانتْ بواعثُ الغاراتِ رغبةً في سلْبِ الأموالِ ونهبِها ، وسبي النِّساءِ ، وأسْر الرِّجال طمعاً في الفِديةِ ، أو منْ أجلِ إظهارِ الشَّجاعةِ والبأسِ والقوّةِ كيما يرهبُ النَّاسُ بأسَ الفرسانِ المغيرين ، ويخشون جانبَهم ، ويهابونَهم ما عاشوا .

* وكان الهجومُ في الغارةِ يحدثُ عادةً في أوّلِ النَّهَار في الصَّباحِ المبكِّر ، حتى إنّهم سمُّوا الغارةَ «الصَّباح» ، بل أطلقُوا على كلّ فتىً شجاع اسم «فتى الصَّباح» .

---

(١) «الغارة» : الغارةُ هجومٌ سِرّيٌ مباغتٌ يعملُ المهاجمون على إخفائِه ما وسعَهم خشيةَ أنْ تتسرَّبَ أخبارُهُم إلىٰ القومِ المقصودين بالغارةِ فتحبطَ محاولاتُهم .

* وفارسُ هذهِ الصَّفحات فتى الصَّباح ، وبطلُ الغاراتِ ، وفارسُ الأبطال ، وبطلُ الفُرسان ، وَعَاهُ تاريخُ الفُرسان ، وخلَّدَ اسمَه بين أبطالهِ وشجعانه.

* كان هذا الفارسُ الصِّنديدُ ذا شأْنٍ في قومه ، وفي قبائلِ العربِ جميعاً في الجزيرةِ العربيّةِ ، فهو من قبيلةِ طيىء ، قبيلةِ الفُرسانِ والفتيانِ ، وقبيلةِ الأجواد والأسخياءِ ، وقبيلةِ الشُّعراء والبلغاء.

* إذاً ، لقد تحدَّدتْ بعضُ معالمِ وملامحِ شخصيّةِ فارسِ هذه المجموعةِ منْ فُرسان التَّاريخ العربيّ ، ترىٰ مَنْ هذا الفارسُ الذي ملأَ الدُّنيا وشغلَ النَّاس؟

* تفصحُ المصادرُ عن بطاقتهِ فتقول: هو زيدُ الخيل بنُ مُهلهل بنِ زيد بنِ مُنْهَب الطَّائيّ[1] ، وأمُّ زيدِ الخيل تُدعى قوشَة بنت الأزتم الكَلبيّة.

* كان زيدُ الخيل من فرسانِ الجاهليّةِ الأكابرِ ، ومن أكابرِ فرسانِ طيىء ، وهو بطلُها المُعلَّمُ العِمْلاق ، وكان فارساً مظفّراً بعيدَ الصِّيت ، أضيفتِ الخيلُ إلى اسمهِ لشغَفهِ بها ، ولكثرةِ ما اجتمعَ لديه منَ الخيلِ الأصيلة ، وكان لا يقْتَني الخيل إلّا الفارسُ الموسرُ ، وإلّا الفارسُ الذي أوتيَ بسطةً في الجسم والشَّجاعة.

* قال أبو عُبيد البكريّ: وإنّما سُمّي زيدُ الخيلِ لكثرة خيلهِ ، لأنَّه لم

---

(١) سمطُ اللآلي (١/ ٦٠) ، وسَرْحُ العيون (ص ١١٩ ـ ١٢٥) ، وخزانة الأدب (٢/ ٤٤٦ ـ ٢٤٨) وانظر الفهارس للخزانة (١٣/ ٦٦) طبعة بيروت ، والاستيعاب (١/ ١٩٩) ، وأسدُ الغابة (٢/ ٢٤١ و ٢٤٢) ، والإصابةُ (٣/ ٣٤ و ٣٥) ، والأغاني (١٧/ ٢٤٧ ـ ٢٧٢) ، وبلوغُ الأرب (١/ ١٢٧ و ١٢٩) ، وجمهرةُ أنساب العرب (ص ٤٠٣) ، والبرصانُ والعرجان والعميان والحولان (ص ١٨) ، والمعارف (ص ٣٣٣ و ٦٥٠)؛ وغير ذلك من مصادر.

يكن لأحدٍ من قومهِ ، ولا لكثيرٍ من العربِ إلا الفرس والفَرَسَان ، وكانت لزيدٍ خيلٌ كثيرةٌ ، فالتي ذَكَرَ منها في شِعْره ستّة : الهطَّال ، والكُميت ، والوَرْد ، والكامِل ، وذَؤُول ، ولاحِق[1].

وكان زيدُ الخيل كثيرَ الغاراتِ على أحياءِ العرب ، فكان يسيرُ في الليلِ ، ويصلُ إلى مَنْ يقصدهم بالغارةِ صباحاً ، وفي هذا يقولُ في معرضِ حديثهِ عن إغارتهِ على بني الصَّيداء :

بِتْنَا نُزَجّي نحوهُم ضُمَّراً   مَعْروفةَ الأَنْسابِ من مَنْسِر
حتّىٰ صَبَحْنَاهُمْ بها غَدوةً   نقْتُلُهم قَسْراً علىٰ ضُمرِ[2]

* ولعلَّ اختيارَ زيدِ الخيل للصَّباحِ المبكرِ وقتاً لغاراتهِ وهجومهِ ، لأنَّ

---

(١) انظر : سمط اللآلي (١/ ٦٠)؛ وفي فرسهِ الهطّال يذكرُ زيدُ الخيل أنّه يسوّيه بابنه مِكْنَف ، بل بعياله كلّهم :

أقرّبُ مربطِ الهطّالِ إنّي   أرىٰ حرباً تلقّحُ عنْ حيالِ
أسوّيه بمكْنَف إذْ شتونا   وأوثرُه علىٰ جلِّ العيالِ

ـ وفي فرسهِ الوَرْد يقول :

أَبَتْ عادةٌ للوردِ أنْ يكرهَ القَنا   وحاجةُ نفسي في نَميرٍ وعامِرِ

ـ وفي فرسهِ ذؤول أو دؤول يقول :

فأقسمُ لا يُفارقني دؤولٌ   أَجُولُ بهِ إذا كَثُرَ الضّرَابُ

ـ هذا وقد اشتهرتْ أسماءُ خيلٍ عند فُرسانِ العرب ، وألّفَ العُلماءُ كثيراً منَ المصنّفات في أسماءِ الخيلِ وصفاتِها ، ومن أشهرِ أسماءِ الخيل التي وردتْ في المصادرِ الخيلُ الآتيةُ : «الأبجرُ ـ أثالُ ـ الأدهم ـ أسبلُ ـ أعوج ـ جروةُ ـ جلوى ـ الجُون ـ حذفةُ ـ الحَمالةُ ـ الحنْفاءُ ـ خصَافُ ـ داحسُ ـ دؤولُ ـ ذو العقالِ ـ الرّقيبُ ـ سبحةُ ـ سبلُ ـ السّلسُ ـ الشّموسُ ـ الشّيطُ ـ العبابُ ـ العرادةُ ـ الغرابُ ـ العطافُ ـ الغبراءُ ـ فيّاضُ ـ قُرْزُلُ ـ كامل ـ الكُميتُ ـ لاحقُ ـ اللطيمُ ـ المذهبُ ـ المزنوقُ ـ معروفُ ـ مكتومُ ـ ناصحُ ـ النّحامُ ـ النَّعامَةُ ـ الوجيهُ ـ الوَرْدُ ـ الهّطالُ ـ اليحمومُ» وغيرها كثير جدّاً تكفّلتِ المصادر بذكرها.

(٢) انظر : الأغاني (١٦/ ٤٧).

القومَ في ذلك الوقتِ يكونونَ مستغرقينَ في النَّومِ ، لأنَّ النَّومَ عادةً يلذُّ حينئذٍ ، هذا إلى أنَّ الصُّبْحَ يكونُ قد بدأَ يتنفَّسُ ، وينشرُ أشعّة النُّور على الأرض ، ويأخذُ ظلامُ الليلِ بالانجلاءِ والتَّلاشي ، وعندها تسهُلُ رؤيةُ الأنعامِ والمواشي ، ناهيك بأنَّ الجوَّ في هذا الوقتِ يكونُ في غايةِ الهدوءِ والسُّكون ، وهذا يساعدُ الفارسَ المغيرَ على سَماعِ حركاتٍ أو أصواتٍ من جانبِ القومِ المقصودينَ بالغارة .

* ومن جانبٍ آخر ، فإنَّ القومَ المهجومَ عليهم لو تيقَّظُوا حينئذٍ ، فلنْ يكونُوا في حالةٍ عاديةٍ من النَّشَاط ، بل يكونوا كسالىٰ خامدةً أجسامُهم ، هامدةً عزائمُهم ، تملأُ أعينُهم آثارَ النَّوم ، هذا بالإضافةِ إلى مفاجأةِ المغيرين للقومِ وهم على تلكَ الحالةِ التي ربّما تسبِّبُ لهم صدمةً قويّةً تملأُ قلوبَهم فزَعاً ورعباً ، وتجعلُ الدَّهشةَ تستولي عليهم ، فيقعونَ في حيرةٍ وارتباك ، ولا يدرونَ ما يفعلون في وجْهِ المغيرين في الصَّباحِ الباكر .

* ولهذا كان زيدُ الخيلِ منْ أشهرِ فرسانِ تاريخِ الجاهليّة في غاراتهِ وفي خَيْلهِ[1] ، وقلّما غزا قوماً إلا كان النَّصْرُ حليفَه .

---

(١) «الخيل» : كانَ للخيلِ شأنٌ عظيمٌ عندَ العربِ قديماً ـ وربما حديثاً ـ ، فقد اهتمَّ فرسانُ العرب بالجاهليّةِ في الخيلِ ، وبلغَ من اهتمامهم بها وعنايتهم باقتنائها مبلغاً عظيماً حتّى كادتْ تكونُ عصبَ حياتِهم ، لأنَّها المحورُ الرئيسي في الحرب .
ـ وكانَ العربُ يعتزّون بالخيل ، ويحفظونَها قريباً من منازلهم ، ولا يرسلونَها مع بقيّةِ أنعامهم ترعىٰ بعيداً عنهم حبّاً فيها ، ومبالغةً في المحافظةِ عليها ، وكان بعضُ فرسانِ العربِ يسقيها اللبن ، كما تُهيّأُ لها أحسنُ الأطعمةِ شتاءً وصيفاً ، بل كانوا يُعنَون بها عنايةً تفوقُ عنايتَهم بأنفسِهم وأولادِهم ، قال رجلٌ منْ تميم :
مفــدّاةٌ مكــرّمــةٌ علينــا يُجــاع لهــا العيــالُ ولا تُجــاعُ
ـ وكانت تُصنَعُ لها النِّعالُ لتقيَ حوافرهَا ضدَّ الصُّخورِ والأرض الصّلبة ، كما كانوا دائمي العنايةِ بها لتكونَ بحالةٍ حَسَنةٍ ، وكانَ الفارسُ العربيُّ يجريها صباحاً ومساءً لتظلَّ نشيطةً وقويةً . =

* وكان زيدُ الخيلِ قد أدركَ الإسلامَ ، وأسلمَ ، وسمّاه رسولُ الله ﷺ: «زيدَ الخيرِ» ، وهو شاعرٌ مفلقٌ ، معدودٌ منَ الشُّعراء الفُرسان(١).

فروسيَّةٌ وشيمَةٌ كَريمَةٌ:

* ظاهرةُ الفروسيّةِ مظهرٌ متميّزٌ من مظاهرِ الفتوّةِ والقوّةِ في عصْرِ

= - كما اهتمَّ الفارسُ العربيُّ بأنْ تكونَ الخيلُ أصيلةً كريمةً ، ذاتَ نسبٍ وكَرمِ أصْلٍ ، ونقاءِ عنْصُرٍ ، قال علقمةُ:

وقد أقودُ أمامَ الحيّ سلْهبةً　　يهدي بها نَسَبٌ في الحيّ معلُومُ

- وكانَ الأبطالُ والفرسانُ يطلقونَ على خيولِهم أسماءَ خاصّة تُعْرفُ بها ، فحصانُ عامرِ بنِ الطّفيل اسمُه «المزنوق» ، وحصانُ والده اسمه «قُرزل» ، وحصانُ مالكِ بن نُويرة اسمه «ذو الخمار» ، وحصان طُفيل الغنوي اسمه «الحذواء» ، وفرسَا قيس بن زُهير العبسيّ اسمهما: «داحس والغبراء» ، وفرسَا حُذيفة بن بدر الفزاري اسمهما: «الخطّار والحنفاء» ، وفرسُ عنترةَ العبسيّ اسمها «جروة» ، وفرس عمرو بن معدي كرب اسمها «العطّاف»؛ ولشدّة أهميةِ الخيل عند فرسان العربِ نراها قد شغلتْ جزءاً مهمّاً من حياتهم وأدبهم وآثارهم.

(١) قال ابنُ حزمٍ عن زيدِ الخيل: زيدُ الخيلِ بنُ مُهلهِل بنِ زيد بن مُنْهب بن عبد رُضَي بن المختلس بنِ ثوب بنِ كنانة بنِ غوث ، له صحبةٌ محمودةٌ ونيّةٌ في الإسلام ، أثنىٰ عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ ثناءً عالياً رضي الله عنه ، وسمّاه زيدَ الخيرِ ، ماتَ رضي الله عنه بِنَجْدٍ مُنْصَرَفَه من رسولِ الله ﷺ قبل أنْ يبلغَ منزلَه بالجبلَيْن؛ وبنوه؛ مكنفُ ، وعروةُ ، وحنظلةُ وحُريثُ بنو زيد الخير ، وحريثُ هذا هو الذي قَتَل أبا سُفيان الفهريّ ، رجلاً كان عمرُ أميرُ المؤمنين رضي الله عنه بعثَه يستقرىءُ أهلَ الباديةِ القرآن ، فاستقرأَ أوسَ بنَ خالد بنِ يزيد بنِ منهب بن عبد رُضَي ، فلم يدْرِ شيئاً منَ القرآن ، فضربَه فماتَ ، فوثبَ حُريث على أبي سُفيان فقتلَه ، ثمَّ هربَ فلحقَ بأرضِ الرُّوم ، فماتَ هنالِكَ. وأمّا عروةُ بنُ زيد الخيل ، فبعثَه عمّارُ بنُ ياسِر رضي الله عنه بأمْرِ عمر رضي الله عنه وعن جميعهم إلى قتالِ الرّي والدَّيلم ، فكانت له فيهم فتوحٌ عظيمةٌ ، ثمَّ وفدَ على عمرَ رضي الله عنه ، واستخلفَ مكانَه أخاه حنظلة بن زيد الخيل.　　(جمهرةُ أنسابِ العرب ص ٤٠٣ و٤٠٤)=

الجاهليّة ، إذ هيَ ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ دعتْ إليها الحياةُ التي يحيونها ، والإقليمُ الذي ينزلونه .

* ومنَ الواضحِ في أخبارِ مشاهيرِ فُرسان التّاريخ العربيّ القديم ، أنَّ الفارسَ منهم كان يمثِّلُ القبيلة ، ولم تكنِ القبيلةُ تمثّله إلاّ في نطاقِ انتسابهِ إليها ، لذلك نلحظُ أنَّ الفارسَ كان يشيدُ معظمَ الأحايين بنفسه وقدرتِه ، وفي هذا تمجيدٌ لقبيلتهِ وعشيرتهِ الأقربين ، وهذا السَّببُ أثرىٰ العصبيّة الجاهلية التي سبَّبتْ عدداً من الحروبِ بين القبائل ، وبالتّالي ظهرتْ أسماءٌ لامعةٌ في ميدانِ الفروسيّة وسماءِ الشَّجاعة ، وفي مقدمتها اسمُ زيدِ الخيل الطّائي فارسُ الأبطال وعلَمُ الشُّجعان .

* ولزيدِ الخيلِ أخبارٌ جميلةٌ في مجالِ الشَّجاعةِ وميدانِ الفروسيّةِ تشهدُ له بكمالِ هيبته وإقدامهِ، فقد ذكروا أنَّه كانَ من عمالقةِ الفُرسان ومشاهيرهم .

* وتروي الأخبارُ أنَّ زيد الخيلِ كان طويلاً ، عالي القامة ، عريضاً ، وبطلاً شجاعاً في المعارِكِ الفرديّة ، ومعارك قبيلته مع القبائلِ المجاورة .

* ومن أخبارِ قَصَصِ الفروسيّةِ الجميلةِ ما رُوي أن عامرَ بنَ الطُّفيل ـ أحدَ فرسانَ العرب المشهورين بالبسالةِ والقوّةِ وشدّةِ البأسِ ـ كان قد أغارَ علىٰ بني فزارة ، فسبىٰ امرأةً يُقال لها هِنْد ، واستاقَ نَعماً كثيرةً لهم .

* فاتَّفقَ أنْ خرجَ زيدُ الخيلِ يومذاك إلى بني بدرٍ ـ وهم بطنٌ منْ فزارةَ ـ يطلبُ نعماً لهم عندهم ، فقالوا: ما كنّا قطُّ إلىٰ نعمك أحوج منّا اليوم! وأخبروه بما فعلَ بهم عامرُ بنُ الطُّفيل آنفاً .

* هنالكَ انطلقَ زيدُ الخيلِ في إثرِ عامرٍ يبحثُ عنه في الفيافي والقفَار ، فأدركَه وهو يسوقُ النّعم مطمئناً ، ورآه عامرُ بنُ الطُّفيل فأدهشَه طوله وضخامته ، وبرزَ إليهِ زيدُ الخيل ، وناداه: خلِّ عنِ الظَّعينةِ والنَّعم .

فسألَه عامرٌ: مَنْ أنتَ أيّها الفارسُ المليحُ؟

قال: فزاريٌّ أنا.

قال عامر: واللهِ ما أنتَ منَ القُلْحِ أفواهاً ـ أي صفر الأسنان ـ يريدُ بني فزارة.

فقال زيدُ الخيل: خَلِّ عنها ويحك!

قال عامرُ: لا، أو تخبرني مَنْ أنت.

قال زيدُ الخيل: أَسَديّ.

قال: لا واللهِ ما أنتَ منَ المتكوّرينَ على ظهورِ الخيلِ ـ يريدُ بني أسد ـ.

قال زيدُ الخيل: ويحك، قلتُ لكَ: خلّ سبيلَها، ثم انجُ بنفسِك.

قال عامرُ: لا واللهِ، أو تخبرني مَنْ أنتَ، فاصدقني.

قال: أنا زيدُ الخيل بنُ مهلِهل الطّائي فارسُ الهطّال والوردِ ودؤول.

قال عامرُ: صدقتَ يا بنَ الكرامِ، فما تريدُ منْ قتالي؟ فواللهِ لئن قتلتَنِي لتطلبنَّك بنو عامر، ولتذهبنَّ بنو فزارة بالذِّكْر.

* واستأسَر له عامرُ بنُ الطُّفيل، فجزَّ ناصيتَه، وأخذَ رمحَه، وردَّ هِنداً والنَّعم إلى بني بَدْرٍ، وفي ذلك يقولُ زيدُ الخيل مفتخراً:

إنّـا لنُكْثِـرُ فـي قيـسٍ وقـائِعَنَـا ... وفي تميمٍ وهذا الحيُّ منْ أَسَدِ

وعامرُ بنُ الطُّفيل قد نحوتُ لهُ ... صدْرَ القناةِ بماضي الحدِّ مضْطرِدِ

لمَّـا أحـسَّ بـأنَّ الـوردَ مُـدرِكَـه ... وصـارمـاً وربيـطَ الجـأْشِ ذا لبـدِ

نـادىٰ إلـيَّ بسِلْـم بعـدمـا أخـذَتْ ... منـهُ المنيَّـةُ بـالحيـزومِ واللُّغـدِ

* ورجعَ عامرُ بنُ الطُّفيل إلى قومهِ مجزوزاً، وأخبرهم بما وقعَ له،

فغضبوا غضَباً شديداً ، وائتمروا بينهم ، ثمّ قالُوا له: لا ترأسُنا أبداً. ثمّ إنّهم خرجُوا عن قيادتِه ورئاستِه لهم.

* ودارتِ الأيَّامُ ، فإذا بهم يتجهّزون ليغيروا على بني طيىء ، وجعلُوا عليهم رئيساً علقمةَ بنَ عُلاثة ، منافس عامرٍ في الرّئاسة ؛ فبعثَ عامرٌ إلى زيدِ الخيلِ يخبرُه أنَّهم خرجُوا لغزوهم ، فجمعَ زيدُ الخيلِ قومَه وأعلمَهم بغزوِ بني عامرٍ لهم ، فتربَّص للعامريّين في مضيقِ جبلَيْن ، حتى إذا أقبلوا قاتَلهم ، فأسرَ منهم جماعةً ، وهربَ الباقون.

* وكان منْ بينِ المأسورين الشَّاعران المشهوران عَصْر ذاك: الحُطيئة ، وكعب بن زهير[1] ، فمدحَه الحُطيئة بشعر ، وقال فيه أبياتاً منها:

فـإلّا يكـنْ مَـالـي بـآتٍ فـإنّـه ... سيـأْتـي ثَنـائـي زيْـداً بـنَ مُهَلهـل

* وأمّا كعبُ بنُ زُهير فإنَّه أعطاهُ فرسَه الكُميت[2] ، فخلّى سبيلَهما ، واستبقى بقيّةَ بني عامر في الأَسْر.

* وطالَ أسرُهم زمناً طويلاً ، فسألوا زيدَ الخيل أنْ يقبلَ الفِداء منهم ،

---

(١) كعبُ بنُ زهير بن أبي سلمى الذي مدحَ رسولَ اللهِ ﷺ بقصيدتِه المشهورة «بانَتْ سُعاد» ولكعبٍ وأخيهِ بُجَير صُحْبة ، وهما مِن عدادِ الصَّحابة الكرامِ رضي الله عنهم جميعاً.

(٢) قال ابنُ قتيبة: كانَ زيدُ الخيل قد أخذَ فرسَاً لكعب بنِ زهير ، فقالَ كعبٌ:

لقـد نَـالَ زيـدُ الخيـلِ مـالَ أخيكـم ... فـأصبـحَ زيـدٌ بعْـدَ فقْـرٍ قـد اقتنـىٰ

فأجابَه زيدُ الخيل بأبياتٍ منها:

أفـي كـلِّ عـامٍ مـأتـمٌ تبعثـونَـه ... علـى مِحْمَـر عَـوْدٍ أثيبَ ومـا رُضَـىٰ

تقـولُ أرى زيـداً وقـد كـانَ مقتـراً ... أراهُ لعمـري قـد تمـوّلَ واقتنـىٰ

وذاكَ عطـاءُ الله فـي كـلِّ غـارةٍ ... مشمّـرة يـومـاً إذا قُلّص الخُصـىٰ

فلـولا زهيـرٌ أنْ أكـدّر نعمـة ... لقـاذعـتُ كعبـاً مـا بقيـتُ ومـا بقـىٰ

(الشعر والشعراء ١/ ٢٨٧ و٢٨٨)

ويطلقَ سراحَهم ، فقال لهم: الأمرُ في هذا إلى أبي عليّ عامرِ بنِ الطُّفيل؛ يريدُ بذلك أنْ يعيدَ مكانته عندهم.

* ورفضَ بنو عامر طلبَه ، ولكنَّهم اضطرّوا آخرَ الأمرِ إلى أنْ يهبَهم لعامرِ بنِ الطُّفيل الذي أطلقَ سراحَهم ، ومن ثمَّ استعادَ مكانتَه لديهم.

الفَارِسُ الحَكيمُ:

* كانَ زيدُ الخيلِ منْ أكثرِ الفرسانِ الطَّائيّين الذين يحبّون الغزوات ، بل كانتِ الغزواتُ ديْدنَه ، وتروي أخبارُهُ أنَّه كان يخصُّ بني أسد بأكثر غاراته وأعنفِها.

* وكان زيدُ الخيلِ يمتلكُ كلَّ صفاتِ البطولةِ والرُّجُولةِ والرّئاسةِ والحكمةِ ، فكان لا يغفُلُ عن حقّهِ في الرئاسةِ وأَخْذِ ربْعِ الغنيمةِ في كلِّ غزوةٍ يغزوها؛ وكانت قبيلتُه تقدِّرُ مكانتَه وتخضعُ لشروطه ، لأنَّها تعلمُ أنَّها تعودُ معه ظافرةً غانمةً.

* حَدَثَ أنْ غزتْ بنو نبهان ، ومعهم زيدُ الخيلِ قبيلةَ بني فزارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمتْ فزارةُ ، وساقتْ بنو نبهان الغنائم.

* ولكنَّ بني فزارة حشدتْ فرسانَها ، ومن ثمَّ استعانتْ بأحياء من قيس ، وفيهم رجلٌ من بني سُليم شديد البأسِ يُقالُ له: عبّاسُ بنُ أنس كان نازلاً في بني فزارة ، فأغاروا على بني نبهان ، ولم تكنِ الرّئاسةُ حينذاك لزيدِ الخيلِ النَّبهاني الطَّائي ، فامتنعَ عن القتالِ ، ووقفَ ينظرُ إلى المعركةِ ، وإلى الفرسان وهم يتصادمون.

* وحدثَ أنْ ثقلتِ الوطأةُ على بني نبهان ، وراحتْ فزارةُ تثخنُ فيهم الجراح ، وكادتِ الدَّائرةُ تدور عليهم ، وكادوا يولّون الأدبار. فلمّا رأى زيدُ الخيل ما حلَّ بهم ناداهم: يا بني نبهان ، أأحملُ وَليَ المِرباع؟

قالوا: نعم!

* هنالك هَمَّ زيدُ الخيل ، وألقىٰ عزمَه بين عينيه ، وحملَ حملةً شديدةً على بني سُليم ، فلم يثبتْ في وجههِ أحد ، وهزمَهم وأخذَ أُمَّ الأسودِ امرأةَ عبّاسِ بنِ أنس ، ثم شدَّ على بني فزارة ، ومَنْ معهم فهزمَهم شرَّ هزيمة ، وفي ذلك يقولُ قصيدة منها ـ كما جاء في الأغاني ـ:

أَلا ودَّعَــتْ جيــرانَهــا أُمَّ أسْــوَدا وضنَّتْ علىٰ ذي حَاجةٍ أنْ يُزوَّدا
وسَائِلْ بني نبهانَ عنَّا وعندهم بـلاءٌ كحـدِّ السَّيـفِ إذْ قَطـعَ اليَـدا

* وهكذا كانتِ المعركةُ تثيرُ زيدَ الخيل ، وتبعثُ في نفسهِ الحماسَ والقوّة ، يقولُ زيدُ الخيلِ يصفُ نفسَه وقد علا غبارُ المعركةِ وجهَه ، فشمَّرَ عن ساقهِ استعداداً لها:

رأتْني كأَشْلاءِ اللجامِ ولنْ ترىٰ أخَا الحربِ إلاَّ سَاهِمَ الوجْهِ أَغْبرا
أخَا الحربِ إنْ عضَّتْ بهِ الحربُ عضَّها وإنْ شمَّرتْ عن سَاقِها الحربُ شَمَّرا

* ومن الأخبارِ الجميلةِ التي تدلُّ علىٰ حكمةِ زيدِ الخيلِ وحنكتهِ ، أنَّه كانَ لا يحبُّ لقومه أنْ يتحاربوا ويختلفوا ، وكان كثيراً ما ينصحُ أبناءَه ألا يدخلُوا تلك الحرب التي تفتكُ في بطونِ القبيلةِ الواحدةِ.

* وفي ذاتِ مرّة دبَّ النِّزاعُ والتَّخاصمُ في قبيلتهِ في يومٍ يسمّى «يومَ اليَحاميم» ، فدعا زيد الخيل ابنيه: مُكْنِف[1] وحُريث ، وقال لهما: أي

(١) قال ابنُ قتيبة: مُكْنِفُ بنُ زيد الخيل الطَّائيّ ـ رضي الله عنه ـ ، كان مُكْنِفُ أكبرَ ولدِ أبيه ، وبه كان يُكنىٰ ، وأسلمَ وصَحِبَ النَّبيَّ ﷺ ، وشهدَ قتالَ الرِّدَّة مع خالدِ بنِ الوليد؛ وكذلك أخوه حُريث بنُ زيد الخيل، صاحب النّبيّ ﷺ ، وشهدَ قتالَ الرِّدَّة. فأمّا زيدُ الخيلِ ، فإنّه أتىٰ النّبيَّ ﷺ ، وسمّاه زيدَ الخير ، وقطَعَ له أرضَيْن. وكانتِ المدينةُ وبيئةً ، فلمّا خرجَ من عند النّبيّ ﷺ قال: «لن ينجوَ زيدٌ منْ أمِّ ملْدَم» ، فلمّا بلغَ بلدَه مات. =

ابني ، ابقيَا على قوميكما ، فإنَّ اليومَ يوم التَّفاني ، فإن يكن هؤلاء أعماماً ، فهؤلاء أخوال.

* وتروي أخبارُ زيد الخيل أنَّه قد اضطُر يوماً إلى الابتعادِ عن قومهِ حين يئسَ منَ الإصلاحِ بينهم ، وخرجَ ونزلَ على بني تميم حذر الفتنة.

* ولما خرجتْ بنو تميم لغزوِ البكريّين بقيادةِ قيسِ بنِ عاصم[1] ، خرجَ زيدُ الخيل معهم ، ونشبتِ الحربُ ، وكشفتْ عن ساقِها ، واقتتلتِ القبائلُ فترةً ، وزيدُ الخيل واقفٌ ينظرُ إلىٰ المعركةِ ، فلما رأى أنّ كفّة بني بكرٍ وبني عجْلٍ قد رجحَتْ ، وأوشكَ التّميميون أنْ ينهزموا ، عزَّ عليهِ ألاّ ينجدها ، فحملَ حملةَ الأبطالِ على البكريّين ، وراحَ يضربُ أعناقَهم ،

= وحمّادُ الرّاوية مولىٰ مكْنف. (المعارف ص ٣٣٣).
وقيل: إنَّ ثلاثةً من أبناءِ زيدِ الخيل كانوا شعراءَ وهم: عروةُ ، وحُريث ، والمهلهِل ، وكانَ عروةُ أكثرهم شعراً ، وقد اشتركَ في معركةِ القادسية وصفّين.
ولا ننسى أنّ زيدَ الخيل كان منَ الشّعراء الفرسان.

(١) قيسُ بنُ عاصم بنِ سنان المِنْقَري التّميمي ، يكنى أبا عليّ ، وفدَ على النّبي ﷺ في وفْدِ بني تميم سنةَ تسعٍ منَ الهجرة فأسلمَ ، وقال فيه النّبيّ ﷺ لما رآه: «هذا سيّدُ أهلِ الوبر». وكان قيسٌ عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلْم ، وكان سيّداً شريفاً ، وفيه يقولُ الشّاعر:
فَما كانَ قيسٌ هُلكُه هلكَ واحدٍ ... ولكنّه بنيانُ قومٍ تهدَّما
وكان قيسٌ ممّن حرّمَ الخمرَ في الجاهليةِ ، وكان جواداً ، ويُقال إنّه خلَّفَ ثلاثةً وثلاثين ابناً. روىٰ عن النّبي ﷺ أحاديث ، روىٰ عنه الأحنفُ بنُ قيس والحسنُ البصري وابنه حكيمُ بنُ قيس وآخرون ، نزلَ قيسُ البصرة ، وقال عند موته: لا تنوحوا عليَّ فإنَّ النّبيَّ ﷺ لم ينحْ عليه.
وقيسٌ شاعرٌ فارسٌ جاهليٌّ إسلاميٌّ ، وهو أحدُ حلماء العرب وسادتهم. (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٧٢ و٣٧٣) ، و(سمط اللآلي ١/ ٤٨٧ و٤٨٨) ، و(المعارف ص ٣٠١) ، مع الجمع والتصرف.

ويخرقُ صفوفَهم يميناً وشمالاً ، ولا يتكنّىٰ بكنيتهِ حتى لا يعرفوه ، فيثيرُ العَداء بين قبيلته وبينهم.

* ولما انتصرَ بنو تميم وغلبوا بني بكر وبني عجل ، جاء زيدُ الخيل إلى قيسِ بنِ عاصم ، فقال له: اقسمْ لي يا قيس نصيبي منَ الغنائم.

فقال قيسٌ متعجباً: وأي نصيب؟ فواللهِ ما وليَ القتال غيري وغيرُ أصحابي ، وما هزمهم غيري؛ ورفضَ أنْ يعطيه شيئاً لكيلا يظهر له فَضْل عليه أو علىٰ بني تميم.

* فغضبَ زيدُ الخيلِ من قيسِ بنِ عاصم ، وخرجَ وهو ينشدُ ويقول ـ كما جاء في الأغاني ـ:

ألا هَلْ أتاهَا والأحاديثُ جمَّةٌ   مغلغلةً أنْباءَ جيشِ اللهَازِمِ
فلستُ بوقّافٍ إذا الخيلُ أحْجَمتْ   ولستُ بكذَّابٍ كقيسِ بنِ عاصمِ[1]
يخَبِّرُ مَنْ لاقيتَ أنْ قد هزمتَهم   ولم تَدْرِ ما سيماهمُ لا وعائِم[2]
بل الفارسُ الطَّائيُّ فضَّ جموعَهم   ومكّةَ والبيتِ الذي عنْدَها هاشمِ
إذا ما دعوا عجْلاً عجِلْنَا عليهمُ   بمأثورةٍ تَشْفي صداعَ الجَماجمِ

* ولما علمَ بنو عجل أنَّ زيدَ الخيلِ بنَ مهلهِل هو سببُ هزيمتهم ـ وبنو عجل بطنٌ من بكر ـ أغاروا على بني نبهان ، وأخذوا نعمهم انتقاماً منه ، وبلغَ ذلك زيدُ الخيل ، فانطلقَ في فوارسَ من بني نبهان ، فقاتلَ بني عجل ، واستنقذَ بعضَ ما كان بأيديهم ، ولكنّه لم يرجعْ إلى منازله ، خجَلاً من أنّه لم يستطعْ أنْ يسترجعَ كلَّ النّعم ، فأغارَ علىٰ قبيلةِ تيمِ اللهِ من

---

(١) هذا البيت أصبح مثلاً أنظر: جمهرة الأمثال (٢/ ١٤٥) ، ومجمع الأمثال (٢/ ٨٧).
(٢) «عائم»: صنم لأسد الشراة ، وله يقول زيد الخيل هذا البيت.

قبيلةِ النّمرِ بنِ قاسط أقراء البكريين فغنِمَ وسبىٰ ، ورجعَ إلى قومه وهو يقول:

إذَا عركَتْ عجْلٌ بنَا ذنبَ غيرِنا   عـركْنَـا بتيـمِ اللهِ ذنـبَ بنـي عجْـلِ

* وهكذا كان زيدُ الخيل شجاعاً بُهْمةً مهيباً ، طار صيتُ شجاعتِه في الآفاقِ ، وتمنّى لقاءَه الأبطالُ الأشداءُ ليجرّبُوا قوّتهم ، وعندما كانوا يرونَه يهابونَه ، لأنَّه كان طويلاً جسيماً مديدَ القامة ، يركبُ الفرسَ العظيمَ الطّويلَ ، فتخطُّ رجلاه في الأرض[1].

* ومن سِيَرِ الفروسيّةِ الراقصةِ الجميلة ، أنَّه كان هناك فارسٌ من بني أسد يسمّى «مِزْيَداً» يتمنّى لقاء زيدِ الخيل ، فلما لقيه زيدُ الخيل طعنه فهربَ منه ، وولّى مدبراً ولم يعقّبْ.

* وكانَ ـ أيضاً ـ هناك رجلٌ من بني غطفان يتمنّىٰ أنْ يلقىٰ زيدَ الخيل ، حتى صبّحه زيدُ الخيل يوماً ، فقالت له امرأتُه نُويرة: يا جابر ، كنتَ تتمنّى زيداً ، فعندك.

فالتقيا ، فاختلَفا طعنتَيْن وهما دارعان ، فاندقّ رمحُ جابرٍ ولم يُغْنِ شيئاً ، وطعنَه زيدُ الخيل برمحٍ له كان علىٰ كعبٍ من كعابه ضبّة منْ حديد ، فانقلبَ ظهراً لبطن ، وانكسرَ ظهرُه ، فقالت امرأتُه وهي ترفعُه منكسراً ظهره: كنتَ تتمنّى زيداً فلاقيتَ أخا ثِقَةٍ. فقال زيدُ الخيل:

---

(١) قالَ الثّعالبيُّ: قيلَ له: زيدُ الخيلِ لطولِ طرادِه بها ، وقيادتِه لها ، وكان جسيماً وسيماً يقبِّلُ المرأةَ على الهودجِ ، ويخطُّ رجلَه على الأرضِ إذا ركبَ ، وكانَ شاعِراً. (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٠١).
وقال ابنُ نباتةَ: وكانَ زيدُ الخيلِ عظيمَ الخِلْقةِ طويلاً جدّاً ، ويسمّى مقبِّلِ الظَّعْن ، لأنَّه كانَ يقبِّلُ المرأةَ من الأرضِ وهي في الهودَجِ ، وكذلك أبو زبيد الطَّائي ، وابن جذل الطّعان ، كما ذكره الرُّواة. (سرح العيون ص ١١٩ و١٢٠)

تمنّى مِـزْيـدُ زيـداً فـلاقـىٰ أخَـا ثِقَـةٍ إذا اختلـفَ العَـوالـي
كمنْيَـةِ جـابـرٍ إذ قـالَ لَيْتـي أُصـادِفُـه وأتلـفُ بعـضَ مَـالـي[1]
تـلاقَيْنـا فمـا كنّـا سـواءً ولكـنْ خـرَّ عـنْ حـالٍ لحـالِ
ولـولا قـولُـه يـا زيـدُ قـدْنـي لقـد قـامَـتْ نُـويـرةُ بـالمـآلـي
شككْـتُ ثيـابَـه لمّـا التقينـا بمطـردِ المهـزّة كـالخِـلالِ[2]

مُـروءَةُ زَيْـدِ الـخَيْـلِ وَحُـلْمـه:

* عرفَ تاريخُ الفُرسانِ لزيدِ الخيلِ كرمَ منبتهِ ، وعراقة محتدِه ، وكمالَ مروءته ، ممّا جعله في قائمةِ المشاهيرِ في دنيا الشّهرة في فضَاء المكارمِ والفضائلِ.

* ورسمتْ كتبُ الأدبِ صورةً طيّبةً لمروءةِ زيد الخيل ، فقد روىٰ الشَّيباني عن شيخٍ من بني عامرٍ جَرَتْ له قصّةٌ مثيرةٌ مع زيد الخيلِ في الجاهليّةِ ، فوجَد الشّيخَ العامريَّ من زيدِ الخيل مروءةً وحلماً ونبلاً.

* يقولُ الشيخُ العامريُّ ما مفاده: أصابتنا سنَةٌ لا مطَر فيها ولا نبات ، هلكَ فيها الزّرعُ والضَّرعُ ، وذهبتْ بالأموالِ ، فخرجَ رجلٌ منّا بعيالهِ إلى الحيرةِ ، وتركَهم فيها ، وقال لهم: انتظروني هاهنا حتى أعودَ إليكم.

---

(١) هذا البيتُ من شواهدِ النّحويين في كتبِهم ، فهو في خزانةِ الأدب (٥/ ٣٧٥ و ٣٧٧) ، وشرحِ أبيات سيبويه (٢/ ٩٧) ، وشرحِ المفصّل (٣/ ١٢٣) ، والكتابِ (٢/ ٣٧٠) ، ولسانِ العرب (٢/ ٨٧) ، والمقاصدِ النحويّة (١/ ٣٤٦) ، وغيرها كثير من كتب النحو.
و«المُنْيَة»: ما يتمنّاه المرءُ. ويروى: «جُلّ مالي» بدلاً من «بعض مالي».
والشّاهدُ في البيتِ قولُه: «لَيْتي» ، حيث حذفَ نونَ الوقاية ، وهذا الحذفُ عند سيبويه للضّرورة. وفي أشعارِ العرب شواهدُ كثيرةٌ لحذفِ نونِ الوقاية للضّرورة ، ومن أرادَ الاستزادةَ فليرجعْ إلى كتُبِ النّحو المتخصّصة.
(٢) بلوغ الأرب (٢/ ١٢٨)؛ وانظر ديوان زيد الخيل (ص ٨٧).

* وخرجَ وأقسمَ ألا يرجعَ إليهم إلاّ إذا كانَ ذا مالٍ ، أو يموتَ دون ذلك .

* ثمَّ تزودَ ذلك الرَّجلُ زاداً ، ومشىٰ يومَه كلَّه حتى إذا أقبلَ الليلُ ، وأرخىٰ سدولَه علىٰ الدنيا ، ألفىٰ أمامَه خيمةً ، وبالقربِ منَ الخيمةِ مُهْرٌ مقيّدٌ ، فقالَ في نفسهِ : هذا واللهِ أوّلُ الغنيمة ؛ ثمّ اقتربَ منه وأخذَ يحلُّ قيده ، ولما أنْ همَّ بركوبهِ ، سمعَ صوتاً يناديه : ويحكَ خلِّ عنه وانجُ بنفسكَ ، وإلاّ يعلو مفرقَكَ الحسامُ . فتركَه ومضى وسارَ سبعةَ أيّامٍ ولياليها ، فبلغَ مكاناً فيه خباءٌ عظيمٌ ، وفيه قبّةٌ منْ جلْدٍ ، ومكانٌ للإبلِ بالقربِ منه ، يدلُّ علىٰ المالِ والغنى والنّعمة ، فقال الرّجلُ في نفسهِ : لا بدّ لهذا الخباء من أهلٍ ، وهذا المكان من إبل .

* ثمّ إنَّ الرّجلَ تأمّلَ الخباء ، فوجدَ رجلاً كبيراً فانياً في وسطهِ ، فجلسَ خلفَه وهو لا يشعرُ به ؛ وما هو إلاّ قليلٌ حتّى ودّعتِ الشَّمسُ النَّهار ، وغابتْ وراءَ رمالِ الصَّحراء ، وبعد إذْ أقبلَ فارسٌ عظيمٌ جسيمٌ على جوادٍ عال ، ومعه عبدان يمشيان إلى جانبهِ ، ومعه قرابة مئة من الإبلِ يتقدّمها فحلٌ كبيرٌ ، فبركَ الفحلُ ، فبركتْ حولَه النُّوق .

* ونادىٰ الفارسُ أحدَ عبديه ، وأمره أنْ يحلبَ ناقةً وأن يسقي الشَّيخَ الكبيرَ ، ففعلَ ووضَع الإناء أمام الشَّيخ وخرج ، فأخذَ الشَّيخ منه قليلاً وتركه .

* قال الرّجل : فتقدمتُ نحو الشَّيخ ، وشربتُ جميعَ ما في الإناء ، فرجعَ العبدُ وأخذَه وقال : لقد شربَ الإناء كلَّه يا مولاي ففرحَ الفارسُ وقال للعبد : احلبْ ثانيةً واسْقِهِ ، ففعلَ العبدُ ، فجرعَ منه الشّيخ جرعةً وتركه ، فأخذْتهُ وشربتُ شطره .

* ثم أمرَ الفارس عبده الآخر أنْ يذبحَ شاةً ، ففعلَ ، فقام الفارسُ وشوىٰ وأطعَم الشَّيخ حتى شبعَ ، ثم أكلَ مع عبديه ، وبعد ذلك أخذَ جميعهم مضاجعَهم ، وراحوا في سُباتٍ عميق .

* قال الرَّجل : فقلتُ : هذه غنيمةٌ عظيمةٌ ، ولعلَّ فيها الفرج ممّا أنا وأهلي فيه منَ الضّيق ؛ ثمّ إنّي توجَّهتُ نحو الفحل ، فحللتُ عقاله وركبتُه ، فاندفعَ ، ومن ثمّ تبعته الإبلُ ، ومشيتُ ليلتي جميعها ؛ ولما تنفَّسَ الصُّبح ، وأرسلتِ الشّمسُ نورَها على الأرض ، نظرتُ منْ حولي ، ومن كلّ جهةٍ ، فلم أرَ أحداً يتبعني ، فأخذتُ في السَّيرِ حتى مضى شطرٌ منَ النَّهار .

* ثمّ إني نظرتُ إلى الخلفِ ، فإذا أنا بشيءٍ كأنُه نسْرٌ ، فما زال يقتربُ منّي حتى بدتْ معالمه ، فإذا هو فارسٌ على فرسٍ ، وإذا هو صاحبي جاءَ يطلب إبله .

* عندها ربطتُ الفحلَ ، وأخرجتُ سهماً منْ جعبتي ، فوقفَ الفارس بعيداً ، ثمَّ قال لي : احللْ عقالِ الفحلِ ويحك . فقلتُ : لن أفعلَ ؛ لقد تركتُ ورائي نسوة جائعاتٍ بالحيرة ، وأقسمتُ ألا أعودَ إليهنّ إلا معي مال أو أموت دون ذلك .

قال : ويلك ، إنّك ميّتٌ ، احللْ عقالَ الفَحْل لا أبا لك .

فقلتُ : لن أحلَّه ، وافعلْ ما تريد .

فقال : ويحك ، إنَّك لمغرور .

* ثمَّ قال : دَلِّ زمامَ الفحل ـ وكانت فيه ثلاث عُقَد ـ ثم سألَني في أي عقدةٍ منها أريدُ أنْ يضعَ لي السَّهْم . فأشَرْتُ إلى الوسطىٰ ، فرمى السَّهم ، فأدخله فيها ، حتى لكأنّما وضعه بيدهِ ، ثم إنّه أصاب الثّانية والثّالثة .

* وعندئذ أعدتُ سَهمي إلى كنانتي ، ثمّ وقفتُ مستسلماً ، فاقتربَ منّي ، وأخذَ سيفي وقوسي ، وقال لي : اركبْ خلفي .

* فركبتُ خلفَه ، وأنا أتوجّسُ خيفةً منه ، فقال لي : كيف تظنُّ أنّي فاعلٌ بك؟!

فقلتُ : أسوأَ الظَّنّ يا فارسَ الخيلِ وسيّد الفرسان ، فقد فعلتُ وفعلتُ بك ، وقد أظفركَ اللهُ بي .

فقال : ويحك ما أسوأَ ظنّك! أو تظنّ أنّي أفعلُ بك سوءاً وقد شاركتَ مُهلهِلاً في شرابهِ وطعامِه؟!

* فلمّا سمعتُ اسمَ مهلهِلٍ ، قلتُ : إنّك لزيد الخيلِ أنتَ . قال : نعم ، أنا زيدُ الخيل ، وفارسها المعلَّم .

فقلت : يا هذا ، كنْ خيرَ آسرٍ .

فقال : اهدأْ ، لابأسَ عليك .

* ثمّ إنّه عادَ بي إلى موضعِه وقال لي : واللهِ لو كانت هذه الإبلُ لي لسلّمتُها إليك ، ولكنّها لأختٍ من أخواتي ، فأقمْ عندنا أيّاماً ، فإني على وشك غارةٍ ، وقد أغنمُ منها .

* ومضتْ بضعةُ أيّام ، فأغارَ على بني نُمير ، وغنم قرابة مئة ناقة ، فأعطانيها جميعَها ، وبعثَ معي رجالاً من عندِه لحمايتي ، حتّى وصلتُ الحيرة[1] .

---

(١) انظر : الأغاني (١٦/ ٤٩ و٥٠) ، وسرح العيون (ص ١٢١ ـ ١٢٤) ، وصور من حياة الصحابة (ص ١٢٤ ـ ١٢٨) ، مع الجمع والتصرف ، وانظر القصة كاملة في الأغاني (١٧/ ٢٥٥ ـ ٢٥٧)

* وبهذا التّصرّف دلّ زيدُ الخيلِ على مروءته وطيبِ أصلِه ، ووفائهِ لمن غَدر به .

صِفَاتُهُ وَأَخْلاقُهُ :

* عندما رحتُ أتابعُ رحلةَ هذا الفارسِ في بطون الأسفارِ المتنوّعةِ ، ألفيتُ بعضَ أخباره متناثرةً هنا وهناك ، وبعد الرُّجوعِ إلى مصادرَ كثيرةٍ ، استطعتُ أنْ أرسمَ بعضَ صفاتِه وملامحهِ من خلالِ أخبارهِ القصيرةِ .

* كانَ زيدُ الخيلِ رئيسَ قومه ـ قبائل الغوث ـ وعندما قدمَ وفد طيىء علىٰ رسولِ الله ﷺ كان سيِّد قومه ورأسهم ورئيسهم .

* وكان زيدُ الخيل فارساً مغواراً مظفّراً شُجاعاً بعيدَ الصِّيت في الجاهليةِ ، وكان جسيماً وسيماً من أتمّ النّاس ، وهو من فرسانِ الجاهليّة المعدودين ، موصوفاً بحسنِ الجسم ، وطولِ القامة؛ وقيل : كان زيدُ الخيلِ عظيمَ الخلقة طويلاً جداً ، ويسمّىٰ مُقَبِّلَ الظعن ، لأنَّه كان يقبِّلُ المرأةَ منَ الأرضِ وهي في الهودج ، وكانتْ رجلُه تخطّ الأرضَ إذا ركب .

* ومن خلالِ القصصِ والأخبارِ والوقائعِ ترتسمُ لنا صفاتُ وصورةُ زيدِ الخيل ، ذلك الفارسُ الذي يعتمدُ على ما آتاه اللهُ من قوّة ، ومن بسطةٍ في الجسمِ ، كما تظهرُ صورة الفارسِ صاحبِ الأخلاقِ الكريمةِ[1] ، الذي

---

(١) كانتْ أخلاقُ زيدِ الخيلِ تجمعُ المكارمَ والفضائلَ التي يتّصِفُ بها فرسانُ العربِ ، فالفارسُ شجاعٌ وكريمٌ وعزيزُ النَّفْس ، يحترمُ المرأةَ ، ويدافعُ عنها ، ويجيرُ المستجيرَ ، ويغيثُ الملهوفَ ، ويعملُ على رفعِ الظُّلم عنِ المظلومين ، وهو يخلصُ لعشيرتهِ القريبةِ قبل إخلاصهِ لقبيلتهِ الكبيرةِ ، فإذا تعارضتْ مصالحهما ، انضمّ في أغلبِ الأحيانِ إلى جانبِ عشيرتِه القريبةِ ، فهي أوْلىٰ بإخلاصهِ وحمايتهِ.
ـ ويزهو الفارسُ ـ الجاهلي خصوصاً ـ بالنِّساءِ والخمرة وتبذيرِ مالهِ ، ثمّ هو شاعرٌ وخطيبٌ يدافعُ عن قبيلتِه بلسانهِ وسنانهِ ، ويفتخرُ بمآثرها في شعرهِ ، ويردِّدُ =

يمنُّ علىٰ الفرسان ، بعد أنْ يأسرَهم ويجزَّ نواصيهم ، وبذلك يبني المكرماتِ لنفسه والمجد لقومه .

* وكان زيدُ الخيل بالإضافةِ إلى ذلك كلّه شَاعراً مُحسناً ، وهو أحد شُعراء العَصْر الجاهليّ وفرسانهم المعدودين ، وقيل : منَ المخضرمين المقلّين ، كان يترنّمُ بالشّعر ، ويقولُه في مغامراته وغاراته ومغازيه وأيامه .

* ومن الجديرِ بالذّكر أنّ شعرهَ يُعتبرُ وثيقةً مهمّةً ، حيث سجَّلَ فيه وقائعه ووقائع قومه ، وذكَرَ الفرسانَ الذين نازلَهم فهزمَهم أو أسَرَهُم ، كما يتحدّثُ عن شمائِلهِ وأخلاقه وعما صنعه من أمجادٍ في ميادين الفروسيّة .

«بَلْ أَنْتَ زَيْدُ الخَيْر» :

* أجمعَ الذين ترجموا لزيدِ الخيل أنّه جاهليّ ، وأدركَ الإسلام ، ووفدَ على رسولِ الله ﷺ في وفْد طيىء وسمّاه «زيدَ الخير» .

* وكانَ زيدُ الخيرِ من المؤلَّفة قلوبهم[1] ، ثمّ أسلمَ وحسُنَ إسلامه ،

= أمجادَها في قصائِده . وإذا أردْنَا أنْ نمثِّلَ لأخلاقِ الفُرسانِ ، فسنجدُ أنَّ افتخارهم بالشَّجاعةِ يشملُ معظمَ أشعارِهم وأقوالِهم ، فهم يتمادحُون بالموتِ في القتالِ ، ويتهاجون بالموتِ على الفراشِ ويقولون فيه : ماتَ فلانٌ حتفَ أنفه ، وقد جاءَ أنَّ أعرابياً بلغَه قَتْل أخيه فقال : إنْ يُقْتَل فقد قُتِلَ أبوهُ وأخوهُ وعمُّه ، وإنّا واللهِ لا نموتُ حتْفَنا ، ولكن قَعْصاً بأطرافِ الرِّماحِ ، وموتاً تحتَ ظلالِ السِّلاح .
(بلوغ الأرب ١/ ١٠٤) بتصرف

(١) لقد أبعدَ النّجعةَ مَنْ ذكرَ زيدَ الخيلِ في المؤلَّفةِ قلوبُهم ، لأنَّ هذا الوصفَ لم يُعْرَفْ إلا بعد غزوةِ حُنين حينَ أعطىٰ من غنائِمها الغامرةِ قوماً من رؤوسِ قريش الطّلقاء ، ومَنْ على شاكلتِهم من زعماءِ القبائل ، يتألّفُهم علىٰ الإسلام المئين وما فوقها وما دونها .
ـ وغزوةُ حُنين إنّما كانت في السَّنَةِ الثَّامنةِ بعد فَتْح مكةَ ، وقبل غزوةِ تبوك ، وقدوم زيد الخيل على النَّبي ﷺ على رأْس وفْد قومهِ وإسلامِه وإسلامهم كان في سنة تسع وهي سنةُ الوفود ، وقد نقلَ هذا الخطأ الحافظُ ابن حجر عن تلقيحِ فهومِ الأثر لابن=

ووفدَ زيدُ الخيرِ علىٰ رسولِ الله ﷺ ومعه زيدُ بنُ سدوس النّبهاني ، وقبيصةُ بنُ الأسود الحرميّ ، ومالكُ بنُ جبير المغني ، وقُعينُ بنُ خليل الطّريفيّ في عدّة من طيىء ، فأناخوا ركابَهم ببابِ المسجدِ ، ودخلُوا ورسولُ الله ﷺ يخطبُ النّاس ، فلمّا رآهم قال: «إنّي خيرٌ لكم من العُزّىٰ ، وممّا حازتْ مَنَاع[1] منْ كلّ ضار غير يفاع ، ومن الجملِ الأسودِ الذي تعبدونَه من دونِ الله عزَّ وجلَّ».

* فقامَ زيدٌ ، وكانَ منْ أجملِ الرِّجال ، وأتمّهم ، وكان يركبُ الفرسَ المشْرف ، ورجلاه تخطّان الأرض ، كأنّه على حمارٍ ، فقال: أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله وأنّك محمّد رسولُ الله[2].

قال: «ومَنْ أنْتَ»؟

قال: أنا زيدُ الخيلِ بنُ مهلهِل.

فقال رسولُ الله: «بل أنتَ زيدُ الخيرِ».

فقال: «الحمدُ للهِ الذي جاءَ بك مِنْ سَهْلكَ وجَبَلكَ ، ورقّق قلبَك على

= الجوزي في سردِ أسماءِ المؤلّفة قلوبهم. (محمّد رسول الله لمحمد صادق عرجون ٤/ ٥٨٥).

(١) «منَاع»: اسمٌ لأجَأ ، سُمّي بذلك لامتناعِهم بهِ من فلولِ العجم.

(٢) قال ابنُ إسحاق: وقدمَ على رسولِ اللهِ ﷺ وفْدُ طيىء ، وفيهم زيدُ الخيل ، وهو سيّدهم ، فلمّا انتهوا إليه كلّموه ، وعرضَ عليهم رسولُ الله ﷺ الإسلامَ فأسلموا ، فحسنَ إسلامُهم.

وقال ابنُ سعد: قدمَ وفدُ طيىء على رسول الله ﷺ ، خمسة عشر رجلاً ، رأسُهم زيد الخيل ، وهو سيّدهم وسريهم ، فدخلوا المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في المسجد ، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجدِ ، ثمّ دخلوا فدنوا من رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وجازاهم ﷺ بخمس أواق فضة كل رجل منهم ، وأعطى زيد الخيل اثني عشر أوقية ونشّاً ، وسمّاه زيد الخير.

الإسلام ، يا زيد؛ ما وُصفَ لي رجلٌ قطّ فرأيتُه إلا كان دون ما وُصفَ به إلا أنت ، فإنّك فوقَ ما قيل فيك». وأقطعة فَيْداً ، وقيل: أرضاً وأرضين.

* وكانتِ المدينةُ وبيئةً فقالَ رسولُ الله ﷺ لما خرجَ من عنده: «لن ينجوَ زيدٌ من أمِّ ملدم»[1] ، فلما بلغَ بلدَه مات.

* وقيل: إنَّه عندما قَفَل زيدُ الخيلِ من عند رسول الله ﷺ ومن معه قال: إنّي قد أثرتُ في هذا الحيّ من قيسٍ أثاراً ، ولستُ أشكُّ في قتالِهم إياي إنْ مررتُ بهم ، وأنا أعطي اللهَ عَهْداً ألا أقاتل مُسلماً أبداً؛ فتنكبوا عن أرضهم وأخذوا به علىٰ ناحيةٍ من طريق طيىء ، حتى انتهوا إلى فَرْدَةَ ـ وهو ماءٌ من مياهِ حَرْم ـ فأخذته الحمّى ، فمكثَ ثلاثاً ، ثمَّ مات. وقال قبل موته:

أمرتحلٌ صَحْبي المشارَ غُدْوةً ... وأُتْركُ في بيتٍ بفردة منجدِ
سقَى اللهُ ما بينَ القفيلِ فَطَابةٍ ... فما دون أرمام فما فوق مُنشِدِ
هنَالكَ لو أنّي مرِضْتُ لعادني ... عوائدُ مَنْ لم يُشْف منهن مُجهَدِ
فليتَ اللواتي عُدنَني لم يعذْنَني ... وليتَ اللواتي غِبْنَ عنّي عُوّدي[2]

* ماتَ زيدُ الخيرِ وهو في عدادِ الصَّحابة ، وفي سلْكِ دُررِهم ، ماتَ وهو يشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنْ محمّداً رسولُ الله ، ماتَ زيدُ الخير وخلَّفَ لفرسانِ التَّاريخ كلَّ خير ، فتعالوا نقرأ هذه الأهزوجةَ الجميلةَ التي تحكي إسلام زيدِ الخير أمامَ رسولِ الله ﷺ:

معَ وفْدِ طيىء جاءَ زيـ ... ـدُ الخيلِ خيرُ الوافدين
هـوَ سَيّـدٌ فيهـم وكـا ... ن منَ الرِّجالِ البارزين

---

(١) «أم ملدم»: كنية الحمى.

(٢) انظر المصادر الآتية مع الجمع والتصرف بينها: الشعر والشعراء (١/ ٢٨٦) ، وثمار القلوب (ص ١٠١) ، والسيرة النبوية (٢/ ٥٧٧) ، والاشتقاق (ص ٣٩٥) ، وأسد الغابة (٢/ ٢٤١) ، وسرح العيون (ص ٦١).

الــوفــدُ فــوراً أسْلَمُــوا   قد قابَلُوا الهادي الأمين
قَدْ قالَ خيرُ الخلقِ عن   زيــدٍ مقــالَ المُعْجَبيــن
تــاللهِ زيــدٌ فــاقَ فضْـ   ـلاً عن ثناءِ المادِحين
هو فوقَ ما قد قيلَ عنْـ   ـهُ فنعمتَ الرّجلُ الفطين
المصطفــى سمّــاه «زيـ   ـدَ الخير» دونَ القَادمين
أعطــاه أرضــاً مـع كتـا   ب فيـه حـقّ المـالكيـن
زيــدٌ يعــودُ بقــومــهِ   صــاروا جميعـاً مسلميـن
حمَّــى المــدينـةِ إنّهــا   لا تخطئــنَّ الــزَّائــريــن
مـنْ جـاءَهـا فلقـد يُصـا   ب بـدائِهـا المـرّ المهيـن
إنْ ينجُ من حمى المديـ   ـنة فهـو نـاجٍ عـن يقيـن
لكــنّ زيــداً قَــدْ أُصيـ   ـبَ بـدائِهـا للسَّـائليـن
قَدْ ماتَ زيدُ الخيرِ عنـ   ـد رجوعهِ في العَائدين

* هذه صورةٌ منْ صورِ الفرسانِ العربِ الذين طار صيتُهم في البلادِ ، وأدركتهم السَّعادةُ الحقيقيّة ، فحظوا بالصُّحبةِ النّبويةِ ، فكان زيدُ الخيرِ في عدادِ الصَّحابةِ الكرام ، رضي الله عنهم جميعاً ، وكانَ من فرسانِ التَّاريخ .

* * *




ضرار بن الخطّاب

* فارس قرشي ، مخضرم ، شاعر ، له أثرٌ واضح باللسان والسنان.
* صحابي كبير ، أسلم يوم الفتح ، ومدح النبيَّ ﷺ.
* مجاهد فاتح ، مقاتل في سبيل الله حتى آخر لحظات حياته.




الفَارِسُ المُخَضْرَمُ:

* هذا فارسٌ مخضْرَمٌ منْ مشاهيرِ فرسانِ الدُّنيا في عَصْرِه ، كما أنَّه أحدُ فرسانِ قُريش المعدودين عند العربِ ، والذين أقرَّ لهمُ الأبطالُ بالفروسيّةِ والإقدامِ.

* فارسُنا اليوم هو ضرارُ بنُ الخطَّاب بنِ مرداس القرشيّ الفِهْريّ[1].

* قال ابنُ دُريد في «الاشتقاقِ»: كانَ ضرارُ فارسَ قريشٍ في الجاهليّة ، وأدركَ الإسلامَ ، وكانَ شاعراً فارساً ، وقد أخذَ مِرْباعَ بني فِهْر في الجاهليّة[2].

* وقال ابنُ عبد البرّ في «الاستيعابِ»: ضرارُ بنُ الخطَّاب القرشيّ الفِهري؛ كان أبوهُ الخطَّابُ بنُ مرداس رئيسَ بني فِهْر في زمانه ، وكان يأخذُ المِرْباعَ لقومه ، وكانَ ضرارُ بنُ الخطّاب يأخذُ المِرباع لقومهِ... وكان ضرارُ من فرسان قُريش وشجعانِهم وشعرائِهم المطبوعين ، حتّى

---

(١) المصادُر التي تحدّثت عن ضرار بنِ الخطّاب كثيرةٌ جداً ، ومنها: الاستيعابُ بهامش الإصابةِ (٢/ ٢٠١ و٢٠٢) ، والإصابةُ (٢/ ٢٠١) ، ومختصرُ تاريخ مدينة دمشق (١١/ ١٥٦ ـ ١٥٨) وطبقاتُ ابن سعد (٢/ ٦٧ و٦٨ و٧٠) و(٣/ ٢١٧ و٤٣٦) ، والبدايةُ والنّهاية (٣/ ٣٤١) و(٤/ ١٣١) و(٧/ ٧٢) ، والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/ ٢٥٣ ـ ٦٩٦ ـ ٧٠٦ ـ ٧٠٨ ـ ٧١١ ـ ٧١٢ ـ ٧٣٦ ـ ٧٤٧) ، ومغازي الواقدي (ص ٢٥٥ ـ ٢٨١ ـ ٢٨٢ ـ ٣٠١ ـ ٣٠٢ ـ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ ـ ٤٧٠ ـ ٤٧١ ـ ٤٩٦ ـ ٨٢٢) ، والمنمق في أخبار قريش (ص ١٧٢ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٨ ـ ٣٣٢ ـ ٣٦٦ ـ ٣٩٦ ـ ٤١٠ ـ ٤١٤ ـ ٤٢٠) ، والسيرة النّبوية ، وأسد الغابة ، وغيرها كثير جداً.

(٢) الاشتقاق (ص ١٠٣).

قالوا: ضرارُ بنُ الخطّاب فارسُ قريش[1] ، وشاعرهم. . . ولم يكنْ في قريشٍ أشْعر منه ، ومن عبدِ الله بنِ الزِّبعرىٰ ، ويقدّمونَه علىٰ ابنِ الزّبَعْرىٰ لأنَّه أقلُّ منه سقطاً وأحسنُ صنْعة[2] .

* ولعلَّ ضرارَ بنَ الخطَّاب من أفرسِ المخَضرمين في قومهِ ، والمخضرمون[3] مَنْ أدركُوا الجاهليّةَ والإسلام. والشُّعراء المخضرمون هم الذين عاشُوا في الجاهليّة وفي الإسلام ، ونَظَمُوا الشِّعْرَ في العَهْدَيْن: الجاهليّة والإسلام. والمخضرم: مَنْ يدركُ عهدَيْن مُتَناقضَيْن.

* ولا نستطيعُ تحديدَ فترةِ المُخضرمين تماماً ، والزّمنَ الذي شهِدَه المخضرمون ، ويمكننا أنْ نقولَ بأنّه يمتدُّ نحو قرنٍ منَ الزَّمان ، ومنَ المخضرمين الذين يوضحونَ ما ذهبْنَا إليهِ حسَّانُ بنُ ثابت ، فهو مَعْلَمٌ واضحٌ لتعيينِ العَصْرِ؛ فقد شاركَ حسَّانُ في أحداثِ العَصْر الجاهليّ مع ملوكِ آل غسَّانَ ، وفي العَصْر الإسلاميّ مع سيِّدنا وحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ ،

(١) قال محمدُ بنُ حبيب: فُرسانُ قريش هم: حمزةُ بنُ عبد المطلب ، والزّبيرُ بنُ العوّام ، وهُبيرةُ بن أبي وهب ، وخالدُ بنُ الوليد ، وعكرمةُ بن أبي جَهْل ، وعمرو فارسُ يَلْيَل بن عبد ودّ العامريّ كان فارسَ قريش ، قتلَه عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يومَ الخندق ، وبِسْرُ بنُ أبي أرطأة ، وقطفةُ بنُ ربيعة ، وقطبةُ العاقدُ فارسُ البلقاء البيضاء ، وضرارُ بنُ الخطاب ، وحبيبُ بنُ مسلمة ، والحارثُ بنُ هشام ، وأبيُّ بنُ خلف الجمحيّ ، وأبو لُبيد بنُ عبدة ، وأبو العَجْلان بن الحليس ، والوليدُ بنُ يزيد بن عبد الملك ، وإبراهيمُ بنُ عائشة العباسيّ ، والمعتصمُ أمير المؤمنين. (المنمّق ص ٤١٩ و٤٢٠) بتصرف يسير

(٢) الاستيعاب (٢/ ٢٠١ و٢٠٢) باختصار.

(٣) عصرُ المخضرمين هو عصرُ الصّراع بين القِيمِ الإنسانيةِ الحقّةِ الخالصة التي جاءَ بها الإسلامُ ، وبينَ القِيم التي كوّنَتْها الجهالةُ والنّظمُ الفاسدةُ والأهواءُ الضّالة ، خلالَ الآمادِ البعيدةِ والعصورِ المتطاولةِ التي عاشتْ في غواشي الأوهامِ ، وضلالات ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان.

وخلفائِه الرّاشدين ، وأدركَ خلافةَ معاويةَ بنِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، ويقال: إنَّ حسّاناً قد عاشَ ستّين سنةً في الجاهليةِ ، وستّين في الإسلام؛ وبهذا نكونُ قد قرّبنا إلى المفاهيم عَصْر المخضرمين الذي نشأَ فيه فارسُ هذه الصَّفَحات ضرارُ بنُ الخطَّاب القرشيّ الفِهْريّ.

* ومنَ الطَّبيعي أنْ يتأثَّرَ ضرارُ بنُ الخطّاب بتلكم الفترَتَيْن المختلفتَيْن اللتَيْن شهدهما ، وشهدَ أولاهما مُشْركاً على دينِ قومه ، بينما فتحَ اللهُ على بصيرته يومَ الفَتْح الأعظم يوم فتحِ مكة ، يوم جاء نصرُ اللهِ ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النَّصر: ٢].

* ولكي تتوضَّحَ صورةُ ضرارِ بنِ الخطَّاب أكثر ، لا بدَّ أنْ نعطيَ لمحةً عن العصرَيْن اللذين قضى حياته خلالهما ، وعن المؤثّراتِ التي تركَتْ بصماتِها في حياتِهِ ، وخصوصاً بعد أن انتظمَ في سلْكِ فُرسان الصَّحابة ، وغدا ممنَ حظيَ بالصُّحبةِ النَّبويةِ ، وأمسىٰ منَ السُّعداء الفائزين ، فهل هناك مرتبةٌ أعظمُ من مرتبةِ الصُّحبة النّبويّة؟.

* فالعصرُ الجاهليُّ هو ذلك العَهْدُ الذي كان يسودُ معظمُهُ السَّفَهُ والطَّيشُ والضَّلال؛ بيد أنَّنا لو عمّمنا هذه الصِّفات لظلمنا العربَ ، لأنَّ واقعَ حالِ العرب قبلَ الإسلام لا ينطبقُ عليه كلّ هاتيكم الأشياء التي روَّجَ لها المستشرقون وبعضُ المُستغربين. فالعربُ أمّةٌ منَ النَّاسِ لها نصيبُها الموفورُ العريقُ منَ الحضارةِ الممتدةِ في أعماقِ الزَّمان ، ويكفي من مفاخرِها ومآثرِها أنَّ لها لغتَها الجميلةَ الحَصَانَ الرَّزان التي لم تلحقْ شأوها لغةٌ على مرّ الزّمان ، ناهيك بآثارِهم العقليّة والفكريّة والعمرانيّة.

* إذاً فلعلَّ معنى الجاهليّة كان ينصرفُ إلىٰ الحالةِ الخُلُقيّةِ التي كانت قائمةً في نفوسِ العربِ ، وجمَاعُها الغُلوّ في تقديرِ الأمور ، والإسرافُ ، والتَّهوُّر. فقد كانَ العربيُّ يفرطُ في الكرمِ حتّى يكونَ سَرَفاً وتبذيراً ، ويغلو

في الشَّجاعةِ والفروسيّة حتى تصبحَ طيشاً وتهوّراً ، ويبالغُ في النُّصْرةِ والنَّجدةِ حتى تُمسي ظُلماً ، ومن هنا فالكلمةُ تحملُ معنى الجهْلِ الذي هو ضدُّ الحلْمِ والأناة ، لا ضدّ الجهل ـ كما سادَ في بعضِ المفاهيم ـ ، وإلى هذا ذهبَ عمرو بنُ كلثوم في معلّقتهِ:

أَلَا لا يجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلِيْنَا

* وقد كان للعربِ في الجاهليّة نصيبٌ وافرٌ منَ الحضارةِ والعمرانِ ، وأشارَ القُرآنُ الكريمُ إلى ذلك في عدّةِ مواضع[1] ، كما كان للعرب آثارٌ متنوّعةٌ في الحياةِ الاجتماعيةِ من غِنىً وفَقْر وعاداتٍ مُتوارثَة .

* ومن النَّاحيةِ الاعتقاديةِ ، كان لهم عقائدُ مختلفةٌ ، وشاعتْ عندهم الوثنيّةُ ، والشِّرْكُ ، وعبادةُ الأصنام من دونِ اللهِ الواحدِ القهّار؛ ولكنَّهم كانوا يؤمنونَ باللهِ الواحدِ ، ويتّخذون الأصنامَ على أنّها وسائط تقربُهم إلىٰ اللهِ؛ وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذا في أكثر منْ موضعٍ فقال: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: ٣].

وكان هذا شأْن كثيرينَ من عربِ الجاهليّة ، ولكنَّ هناك فئة من المستبصرين الذين كانُوا يتطلَّعون إلى دينِ التّوحيدِ ، دين إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ، واشتُهِر منهم جماعةٌ معروفون في المصَادرِ المتنوّعةِ .

* وأمّا الإسلامُ ، فاسمُه يدلُّ على معناه ، إذ إنَّ الإسلامَ هو انقيادٌ وخضوعٌ وطاعةٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ وفي القرآنِ الكريم أدلّةٌ كثيرةٌ على ذلك من مثلِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزّمر: ٥٤] ، وقوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وجاءَ الإسلامُ بعقيدةٍ أساسُها التَّوحيد ، والإيمانُ بإلهٍ واحدٍ ، فنقَضَ

---

(١) انظر مثلاً: سورة الشعراء الآيات (٤٦ ـ ١٤٩) ، وسورة سبأ الآية (١٥).

كلَّ معتقداتِ الجاهليّةِ المتعلّقةِ بالأصنام والمعبوداتِ ، وتعدّدها وتقديسها ، وقد وصفَ الإسلامُ اللهَ عزَّ وجلَّ بأنَّه ربّ العالَمين وربّ كلّ شيء ، كما أوضح الإسلامُ وأشارَ إلى الحياةِ الأخرىٰ ، ونظَّمَ حياةَ النَّاس ، وحدَّدَ واجباتِهم ومسؤولياتِهم. وعُني بالحياةِ الخلقيّةِ ، وتناوَلَها بالصَّقْلِ والتَّهذيب ، ووجَّهَ أنظارَ النَّاسِ نحوَ الآدابِ العامّةِ ، وحَفِظَ حقوقَ الإنسانِ بجميعِ أشكالِها وألوانِها.

* في هذهِ البيئةِ كانتْ نشأةُ ضرارِ بنِ الخطّاب ، فقد شهدَ منابعَ الأنوار تنبعثُ من مكّةَ ، بَيْدَ أنَّه كان منَ المعاندين المُعارضين باديءَ الأمْر ، وعادىٰ الإسلامَ عداءً شديداً ، وقاتلَ المسلميَن في الوقائعِ أشدَّ القتال ، إلى أنْ مَنَّ اللهُ عليهِ بالإسلام فأسلمَ.

* وفي الصَّفَحات التَّالياتِ نشهدُ بعضَ المواقفِ التي تشهدُ بفروسيّة ضرار ، وإنْ كانَ في صفِّ غيرِ المسلمين ، لأنَّه وَرِثَ الفروسيّة كابراً عن كابر ، فقد ذكرَ ابنُ عساكر أنّ جدَّ ضرارِ الأعلىٰ عمروَ بنَ حبيب هو آكلُ السَّقْب ـ ولد النَّاقة ـ ، وذلك أنَّه أغارَ على بني بكْر ، ولهم سَقْبٌ يعبدونَه ، فأخذَ السَّقْبَ فأكَله. وكان عَمُّ ضرار حفصُ بنُ مرداس شريفاً ، وكان ضرارُ فارسَ قريشٍ وشاعرهم[١].

ضِـرَارُ الـفَـارِسُ الـمُحَـارِبُ:

* لم يكنْ ضرارُ بنُ الخطَّابِ بمعزلٍ عن الأحداثِ التي عاشَتْها أسرتُه وقبيلتهُ ، بل كانَ فارساً له أثرهُ وخطرهُ في النِّضالِ والقتالِ ضدّ الدِّينِ الإسلاميّ وأصحابهِ المسلمين من قريشٍ وغيرِهم منَ العَربِ.

* ونستطيعُ أنْ نستخلصَ منَ الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عن ضرار أنّه كان

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١١/١٥٦).

منْ ظواهِرِ قُريش ، ولا يكادُ يكونُ في البَطْحاء إلاّ قليلاً ، وقد عُرِفَ في أوّلِ أمرهِ بحياتهِ العابثةِ اللاهيّة ، وربّما كان يتصعلَكُ أحياناً ، فيغِيْرُ ويسبي ويأخذُ الأموال ، وكان قد جمعَ من حلفاءِ قريش ، ومُرَّاقِ كنانة وشذّاذها ناساً اتّخذهم أعواناً يأكلُ بهم ، وله في ذلك أحداثٌ وأخبارٌ وأشعارٌ سنذكرُ بعضَها ـ إنْ شاءَ الله ـ.

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ ضرارَ بنَ الخطَّاب قد شهدَ معركةَ أحدٍ مُشركاً ، وأقبلَ في كتيبةٍ خشناءَ مع ثلةٍ منَ الفُرسانِ فيهم: خالدُ بنُ الوليد ، وعمرو بنُ العاص ، وعِكْرمةُ بن أبي جهل ، وجعلوا يناوشون نَفَراً من الأنصارِ ، فيهم ثابتُ بنُ الدَّحداحةِ يصيحُ ويقولُ لأصحابهِ الأَنْصارِ ـ وكان أُشيعَ أنَّ رسولَ اللهِ قد قُتِلَ ـ: إنْ كانَ محمّدٌ قد قُتِلَ ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ! فقاتلوا عنِ دينكِم ، فإنَّ اللهَ مُظهِرُكم وناصركم.

* وأسرعَ إليه نفرٌ منَ الأنصارِ ، وأخذَ يحملُ بمن معه منَ المسلمين ، فكان ضرارُ وصحبُه لهم بالمرصاد ، فطعنَ خالدُ بنُ الوليد ثابتَ بنَ الدَّحداحة بالرُّمح فأنفذَه ، فوقعَ ميتاً ، وقُتِلَ مَنْ معه منَ الأنصار[1].

* وكان لضرارِ بنِ الخطّاب فرسٌ اسمهُا الحوّاء[2] ، وأقبلَ يومَ أحدٍ فارساً يمتطيها ، ويجرُّ قناةً له طويلة ، فطعنَ عمروَ بنَ معاذ الأشهليّ أخا سعد بن معاذ فقتلَه ، ومشى عمرو إليه حتى غُلِبَ ، فوقعَ لوجههِ ، يقولُ ضرار: لا تعدمنَّ رجُلاً زوَّجكَ من الحُور العِيْنِ.

وكان يقول: زوجتُ عشرةً من أصحابِ محمّد.

* وكانَ من برِّ ضرارٍ بقومه أنَّه آلىٰ على نفسهِ ألا يقتلَ قرشيّاً ، فقد وردَ

---

(١) انظر المغازي للواقدي (ص ٢٨١) بتصرف.
(٢) المنمق (ص ٤١٠).

أنَّ ضراراً لحقَ عمرَ بنَ الخطّاب، ـ رضي الله عنه ـ في يومِ أحدٍ عندما جالَ المسلمونَ تلك الجولة ، وجعلَ يضربُه بعرضِ الرّمح ويقولُ له: انجُ يا بنَ الخطّاب ، إنّها نعمةٌ مشكورة ، واللهِ ما كنتُ لأقتلكَ. . . فكانَ عمرُ ـ رضوان الله عليه ـ يعرفُها له بعد إسلامِهِ[1].

* وما زلنا مع ضرارٍ في غزاةِ أحدٍ وهو في صفّ المشركين ، وما زالَ الحديثُ موصولاً معه عن ذلكَ اليوم ، وما زالتِ الذّكرياتُ تجولُ في مخيّلته ـ بعد أنْ مَنَّ اللهُ عليه بالإسلام ـ ، فقد كان ضرارٌ يحدِّثُ ويذكرُ وقعةَ أحُدٍ ، وما فيها من أحداثٍ جِسَام ، ويذكرُ بطولات المسلمين ، ويشيرُ إلى فروسيّةِ الأنصارِ الأبطال ، ويترحَّمُ عليهم ، ويذكرُ غناءَهُمْ في الإسلام وشجاعتَهم وتقدّمَهم وإقدامَهم على الموتِ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ ، وطلبِ مرضاته ، وفي محبّةِ النّبيّ ﷺ ، ثمَّ يقولُ ما مفادُه:

لمّا قُتِلَ أشرافُ قومي وصناديدهُم وفرسانُهم في غزوةِ بدرٍ ، جعلتُ أقولُ متعجّباً: مَنْ قتل أبا الحكم بنَ هشَام ـ يعني أبا جَهْل قبّحه الله وأخْزَاه ـ؟

فيُقال: قتَلَه وأَرْداهُ ابنا عفْراء بنت عُبيد الأنصاريّة.

وأقولُ: مَنْ قتَلَ أميّةَ بنَ خَلف الجُمحيّ؟

فيُقال: قتَلَه وأوردَه شَعوب خُبيب بنُ يساف وجماعةٌ منَ الأنصارِ الأَبْطال.

وأقولُ: مَنْ قتلَ عقبةَ بنَ أبي مُعيط؟

فيُقال: عاصمُ بنُ ثابت بن أبي الأقْلَح حيث أطاعَ أمْرَ النّبيّ ﷺ وقَتَلَ عقبةَ ومَحا فُجورَهُ من علىٰ الأرضِ ، وأراحَ النَّاس من خُبثِهِ.

وأقولُ: مَنْ قتلَ فُلاناً وفُلاناً؟

---

(١) انظر: المغازي (ص ٢٨٢) والسيرة النبوية (١/ ٤١٥) وطبقات الشعراء (ص ٢١١) بتصرف.

فيقال: فلانٌ وفلانٌ؛ ويُسمّىٰ لي قاتلوهم.

وأقولُ: مَنْ أسرَ سهيلَ بنَ عمرو؟!

فيُقال: أسَرَهُ مالكُ بنُ الدُّخْشُم.

* فلمّا خرجنا إلى أُحُدٍ، كنْتُ أناجي نفسي وأقولُ: إنْ أقامَ المسلمون في صَياصِيهم - حصونهم - فهي منيعةٌ، ولا سبيلَ لنا إليهم، نقيمُ أيّاماً ثمّ ننصرفُ، وإنْ خرجُوا إلينا من صياصِيْهم أصبنا منهم، معنا عددٌ كثيرٌ أكثر منْ عددهم؛ ونحنُ قومٌ موتورون خرجنا بالنِّساءِ والظُّعُنِ كيما يُذكّرْنَنَا قَتْلانا وأشرافَنا في بَدْرٍ، ومعنا خيلٌ ولا خيلَ معهم، ومعنا سلاحٌ أكثرُ من سلاحِهم، وعتَادٌ أكثر من عَتَادهم.

* وقُضِيَ للمسلمين أنْ خرجُوا منَ المدينةِ المنورة، فالتقينا عند سَفْح جبلِ أُحُد؛ فواللهِ ما أقمنا لهم حتّى هُزِمْنا، ومن ثمَّ انكشفنا مولّينَ الأدبار، فقلت في نفسي: واللهِ وقعةُ أُحُد هذه، أشدّ من وقعةِ بدر! ثم جعلتُ أقولُ لخالدِ بنِ الوليدِ المخزوميّ وكانَ قريباً منّي: كُرَّ علىٰ القومِ يا أبا سُليمان - كنية خالد -.

فجعلَ خالدُ يقولُ لي: وترىٰ وَجْهاً نكرُّ فيه يا ضِرار؟!

* وسكتُّ قليلاً، ثمَّ حانَتْ منّي التفاتةٌ، فنظرتُ إلى الجبلِ الذي كان عليه الرُّماة خالياً منهم إلا بضعة نَفَرٍ منهم، فقلتُ: أبا سُليمان، انظرْ وراءكَ فالجبلُ خالٍ، وفيه ثغرةٌ يمكن أنْ نَصِلَ إلى أعلاه. . فعطفَ خالدٌ عِنانَ فرسِهِ، ثم كرَّ وكررنا معه، فانتهينا إلى الجبلِ، فلم نجدْ عليه أحداً له بَالٌ، وجَدْنا نُفَيراً فأصبناهُم وقتلناهُم مع أميرِهم عبدِ اللهِ بنِ جُبير[1]؛ ثمَّ

---

(١) لعلّه منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ سيِّدنا رسولَ الله ﷺ قد جعلَ أُحُداً خلفَ ظهرِهِ مُستقبلاً المدينةَ المنورّةَ، وأقامَ على جَبَلٍ أُحدٍ الرُّماة، وكانوا خمسينَ رَجُلاً =

إننا دخلنا العَسْكر ، والمسلمون غافلون غارُّون ينتهبونَ العَسْكر ، فأقحمنا عليهم خيلَنا ، فتطايروا في كُلِّ وجْهٍ ، ووضعنا السُّيوفَ فيهم حيثُ شئنا ، وجعلتُ أطلبُ أكابرَ فُرسانِ الأوسِ والخزرجِ قَتَلَةَ الأحبّةِ من قومي ، فلا أرىٰ أحداً منهم ، قد تفرّقوا ، فما كان قَدْرُ حَلْبِ ناقةٍ حتى تداعتِ الأنصارُ

= أميرهم عبدُ اللهِ بنُ جُبير ، فوعظَهم محذّراً ومُنْذراً ، وأوصاهم فقالَ لهم : «قومُوا على مصَافّكم هذهِ واحمُوا ظهورنَا ، فإنْ رأيتمونا انتصرْنَا فلا تُشركُونا ، وإنْ رأيتمونا نُقتَل فلا تَنْصُرونا» .

ـ ولما رأىٰ الرّماةُ الهزيمةَ تحيقُ بالمشركينَ ، اختلفُوا فيما بينهم وتنازعُوا ، هل يظلُّون ثابتينَ في مقامِهم الذي أقامَهم فيه رسولُ الله ﷺ على الجبَلِ ، أو ينزلون لمشاركةِ إخوانِهم المجاهدين في أخْذِ الغنائِمِ ، وكانت كثرتُهم تجنحُ إلى النّزولِ للغنائِم لئلا يستأثرَ بها جامعوها .

ـ بَيْدَ أنَّ رئيسَهم عبد الله بن جبير ـ رضي الله عنه ـ كانَ يرىٰ الثّباتَ في مقامِهِ الذي أقامَه فيه رسولُ اللهِ ﷺ ، ونصحَ إخوانَه ووعظَهم ، وذكّرهم بأمْرِ رسولِ الله ﷺ ، ووصيّتَه وتحذيرَه بألّا يبرحوا منْ مكانِهم حتى يرسلَ إليهم ، وأنَّ المسلمينَ ما يزالون غالبين ما ثبتم في مكانِكم ، فردُّوا عليهِ وَعْظَه لهم وقالُوا متشبّثينَ بالتّأويل : لم يُرِدْ رسولُ الله ﷺ ذلك ، قد انهزمَ المشركون ، فما مُقامنا هاهنا؟!! .

ـ وفي صحيحِ البخاري عن البراءِ بنِ عازب ـ رضي الله عنه ـ : فقال أصحابُ عبد الله بن جبير : . . . . الغنيمة ، الغنيمة ، ظهرَ أصحابُكم ، فما تنتظرون؟! فقال عبدُ اللهُ بنُ جبير : أنسيتم ما قال لكم رسولُ اللهِ ﷺ؟ وفي الصَّحيح في كتابِ المغازي : فقال عبدُ الله بنُ جبير : عهدَ إليّ رسول الله ﷺ أنْ لا تبرحوا ، فأبوا؛ وقالوا : واللهِ لنأتينَّ النّاسَ فلنصيبنَّ منَ الغنيمة .

ـ فلما صمّموا على مخالِفتهم لرئيسهم وأميرهم ، وأتوا النّاسَ ليأخذوا معهم من الغنيمةِ ، حُوّلَتْ وجوهُهم عن اتّجاهها وقصْدِها ، وعادوا منْ حيث أتوا منهزمينَ عقوبةً لهم لمخالفتهم أمْرَ القائدِ الأعظم رسول اللهِ ﷺ ، وقوله لهم حين أقامَهم مقامهم قبيل نشوب المعركة : «لا تبرحوا» .

ـ قال ابنُ حجر : وفيه شؤمُ ارتكاب النّهي ، وأنّه يعمّ ضرره مَنْ لم يقعْ منه لقوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ ، وأنَّ مَنْ آثر دُنياه أضرَّ بآخرته ، ولم تحصلْ له دنياه .

بينها ، فأقبلتْ فرسانُهم فخالطونا ونحنُ فرسان ، فَصَبرنا لهم ، فَصَبروا لنا؛ وأظْهَروا منَ الفروسيّةِ والبسالةِ ما حيّرني ، وبذلوا أنفسَهم حتّى عقروا فرسي وترجّلتُ ، فقتلتُ منهم عشرةً ، ولقيتُ منْ رجُلٍ منهم الموتَ النّاقعَ حتى وجدتُ ريحَ الدمِ ، وهو مُعانقي ، ما يفارقني حتّى أخذَتْه الرّماح من كلّ ناحية ، ووقعَ ، فالحمدُ للهِ الذي أكرمَهم بيدي ، ولم يهنّي بأيديهم[1] .

* ويظهرُ أنَّ ضِراراً قد أصابَ أحدَ المهاجرين يوم أُحُدٍ في رأسهِ ، وهذا المهاجرُ هو الكريمُ السَّخي الجوادُ طلحة بن عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ؛ يقولُ ضِرار: نظرتُ إلى طلحةَ قد حلَق رأسَه عند المروةِ في عمرةٍ ، فنظرتُ إلى المُصَلَّبة[2] في رأسه ، وأنا واللهِ قد ضربتُه هذه الضَّربة ، استقبلني فضربتهُ ثمّ أكرُّ عليه وقد أعرضَ فأضربُه أخرىٰ[3] .

* وقد لخّصَ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ بعضُ أعمالِ ضرار في غزاةِ أحُدٍ فقال: وكانَ ضرارُ بنُ الخطّاب فارسَ قريش وشاعرهم؛ وحضرَ معهم المشاهد كلَّها ، فكان يقاتلُ أشدَّ القتال ، ويحرّضُ المشركينَ بشعْرِه ، وهو الذي قتلَ عمرو بنَ معاذ أخا سعد بن معاذ يومَ أُحدٍ؛ وقال حين قتلَه: لا تعدمَنَّ رجلاً زوَّجك منَ الحُورِ العِيْن. وكان يقولُ: زوجتُ عشرةً من أصحابِ محمّد ﷺ ، وأدركَ عمرَ بنَ الخطاب فضربَه بالقناةِ ، ثمَّ رفعها عنه وقال: يا بنَ الخطّاب ، إنَّها نعمةٌ مشكورةٌ ، واللهِ ما كنتُ لأقتلكَ ، وهو الذي نظرَ يومَ أحدٍ إلى خلاءِ الجبلِ من الرُّماة ، فأعلمَ خالدَ بنَ الوليد ، فكَرّا جميعاً بمن معهما ، حتى قتلُوا مَنْ بقي منَ الرُّماة على

(١) انظر: المغازي للواقدي (ص ٢٨١ و ٢٨٢) بشيء من التصرف.
(٢) «المصلّبة»: أي صارت الضربة التي في رأسه كالصليب. (النهاية ٣/ ٢٧٠)
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢١٧) ، والمغازي (ص ٢٥٥) مع الجمع والتصرف اليسير.

الجُبَيل ، ثم دخلوا عسْكَر المسلمين مِنْ ورائهم[١] . وكان يذكرُ ما كان منْ مشاهدتهِ القتال ، ويترحَّمُ على الأنصار ، ويذكرُ بلاءَهم ومواطنهم ، وبذْلَهم أنفسهم لله في تلك المواطن الصَّالحة ، وكان يقولُ: الحمدُ لله الذي أكرمَنَا بالإسلامِ ، ومنَّ علينا بمحمّدٍ ﷺ[٢] .

* ومنْ أخبارِ ضرار في غزاةِ أُحدٍ أنَّه لما التقىٰ عبدَ الله بنَ جحش ـ رضي الله عنه ـ يومَها ، وعندما عرفَه ضرارٌ وعرفَ أنَّه قرشيٌّ ، قال له: إليكَ يا بنَ جحش عنّي ـ وكان ضرار قد آلىٰ ألا يقتلَ مُضَريّاً ـ.

فقالَ له عبد اللهِ بنُ جحش ـ رضي الله عنه ـ: ما كانَ دمُك ـ يا عدوَّ اللهِ ـ أعجبَ إليَّ منه الآن حينَ جمعتَ كفْراً وعصبيّةً .

ولكنَّ ضِراراً لم يلتفتْ إليه ، ثم نادى بأعلىٰ صوتِهِ: يا معشرَ قريش ، اكفوني ابنَ جحش ما كنتُ لأقتلَ مضريّاً؛ فجاءتْ ثلةٌ من فرسانِ المشركين ، فانتظموهُ برماحهم ، فسقطَ شهيداً فكانَ من السُّعداء[٣] .

* وقال ضرارُ بنُ الخطَّاب لأبي بكر الصِّدِّيق مازحاً: نحنُ كنّا لقريش خيراً منكم ، نحنُ أدخلناهم الجنَّة ، وأنتم أدخلتموهم النَّار[١] .

* وقال الضَّحاك بنُ عثمان: امترىٰ مجلسٌ من الأوسِ والخزرج أيّهم كان أحسن بلاءً يومَ أُحدٍ ، فَمرَّ بهم ضرارُ بنُ الخطَّاب فقالوا: هذا ضرارٌ قد قاتَلنَا يومئذٍ ، وهو عالمٌ بما اختلفتُما فيه ، فأَرسلُوا إليه فتىً منهم ، فسأله: مَنْ كان أشجع يومَ أُحدٍ: الأوسُ أم الخزرجُ؟ قال: واللهِ ما أدري ما أوسُكم

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/١٥٦) بتصرف يسير.
(٢) المصدر السابق عينه.
(٣) المصدر السابق (١١/١٥٧).

من خزرجكم ولا خزرجكم من أوسِكم ، ولكنّني قد زوجتُ يومئذٍ أحد عشَر منكم من الحُور العِيْن[1] .

* وذكرَ الدكتورُ «جواد علي» أنَّ لِضرارِ شعْرٌ قالَه في يوم بدرٍ ، وشعرٌ في رثاءِ أبي جَهْل ، وأشعارٌ أخرى في أُحدٍ ، وفي الوقائعِ الأخرىٰ تجدهَا في سيرةِ ابنِ هشام[2] .

* ولما عدتُ إلى سيرةِ ابنِ هشام ألفيتُ أنَّ أوّلَ ذِكْرٍ وَرَدَ لضرارِ بنِ الخطاب في الإسلامِ ، شِعْرهُ الذي قالَهُ في عُدوانِ قريشٍ على أهلِ العقَبَةِ ـ العقبة الثَّانية ـ ، قال ابنُ إسحاق : وكانَ أوّلُ شعرٍ قيل في الهجْرة بيتَيْن ، قالَهما ضرارُ بنُ الخطّاب بنِ مرداس ، أخو بني مُحارب بن فِهْر ، فقال :

تـداركْـتَ سَعْـداً عنْـوةً فـأخـذْتَـه ... وكـانَ شِفـاءً لـو تـداركْـتَ مُنْـذِرَا
ولـو نلْتُـهُ طُلَّـتْ هنـاكَ جـراحُـهُ ... وكـانَ حـريّـاً أنْ يُهـانَ ويُهـدَرا[3]

فأَجابَهُ حسَّانُ بنُ ثابت فيهما فقال :

لَسْتَ إلىٰ سَعْدٍ ولاَ المَرءِ مُنْذِرٍ ... إذا مَا مَطايا القَومِ أصْبَحْنَ ضُمَّرا
فلَـولاَ أبـو وهْـبٍ لمـرَّتْ قَصَـائِـدٌ ... على شَرفِ البرقَاءِ يَهْوينَ حُسَّرَا
أتفْخَـرُ بـالكتّـانِ لمَّـا لبسْتَـهُ ... وقـد تَلْبَسُ الأنْبَـاطُ ريطـاً مُقَصَّـرا
فَـلاَ تَـكُ كـالـوسْنَـانِ يحلُـمُ أنَّـه ... بقـريـةِ كسْـرىٰ أو بقـريـةِ قَيْصَـرَا
وَلاَ تكُ كالثّكلى وكَانَتْ بمعزِلٍ ... عـنِ الثّكْـلِ لـو كـانَ الفـؤادُ تفكَّـرَا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٥٧) بشيء من التصرف .
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/ ٧١٢).
(٣) السيرة النبوية (١/ ٤٥٠ و٤٥١) ، ويقصدُ بـ «سَعْد ومنذر» : سعد بن عبادة ، ومنذر بن عمرو . و«عنوة» : قَسْراً وقَهْراً . و«طُلّت» : يُقال : طُلّ دمُه : بالبناء للمجهولِ والبناء للمعلوم ، والأوّل أكثر : إذا هدر ولم يثأر به . وانظر كتاب الأوائل للعسكري .

وَلا تَكُ كالشَّاةِ التي كانَ حتْفُها   بحفْرِ ذراعَيْها فلم تَرْضَ مَحْفَرا
وَلا تكُ كالعَاوي فأَقْبَل نَحْرَه   ولم يخْشَه سَهماً من النَّبل مُضْمَرا
فإنّا وَمْن يُهدي القصَائدَ نَحْونَا   كمستبضعٍ تمرْاً إلى أرضِ خَيبرا[1]

* ولكنْ في ديوانِ حسَّان لم يَرِدْ إلاّ أربعة أبيات في الرَّدِّ على ضرار، فقد ورَدَ في الدِّيوان ما نصُّه: وقال - حسَّان - في ليلةِ العقبة يجيبُ ضرارَ بنَ الخطّاب أحدَ بني مُحارب بن فِهْر:

تَمنَّى ضِرَارٌ والأمَانيُّ جمَّةٌ   مُنَى الجهْلِ أنْ يلقىٰ بضَجْنَانَ مُنذِرا
فَليتَ وربِّ الرّاقصاتِ إلى مِنىً   خَوَارجَ منْ نَقْفِ الكَدِيْدَيْنِ ضُمَّرا
فَدعْ عنْكَ سَعْداً إنَّ سَعْداً ومنذراً   سواءٌ إذا شدَّا لحَربكَ مِئْزَرَا
فَلولاَ أبو وْهبٍ لمرَّتْ قصائِدٌ   على طَرفِ البَرْقَاءِ يهْوين حُسَّرا[2]

* ومن العجيبِ أنَّ هناك بعضَ الأشعارِ التي نُسِبتْ إلى ضرارِ بنِ

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٤٥١ و٤٥٢) ومعنى: «ضمّرا»: هزيلةٌ قليلة اللحم. و«أبو وهْب»: مُطعِمُ بنُ عدي. و«البَرقاء»: موضع في البادية. و«حُسّرا»: أضناهَا الإعياءُ. و«الأنباطُ»: قومٌ من العجم. و«الرّيط»: الملاحفُ البِيْض، الواحدة: ريطة. و«الوسنان»: النائم. و«كسرى»: لقب ملك الفرس. و«قيصر»: لقب ملك الروم. و«الثكلى»: التي فَقَدتْ ولَدها. و«تك كالشاة التي كان حتفها»: يشيرُ بهذا البيت إلى المثلَ القديمِ فيمنْ أثارَ على نفْسه شرّاً: كالباحثِ عن المُدْيةِ، وأنشدَ أبو عثمان الجاحظ:

وكانُ يجيرُ النّاسَ منْ سيفِ مالكٍ   فأصبحَ يبغي نفْسَه مَنْ يجيرُهَا
وكان كعنزِ السُّوء قامتْ بظلفِها   إلى مديةٍ تحتَ التّرابِ تثيرُهَا

و«مستبضع تمراً..»: يشيرُ إلى المثَل المعروف: كمستبضع تمراً إلى أرض خيبر، وخيبر: موطن التمر. وفي معنى هذا البيت يقول النابغة الجعدي:

وإنَّ امرأ أهدى إليك قصيدةً   كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا

(٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٦٣) و«ضجنَان»: وادٍ بين مكّة والمدينة وهو إلى مكة أقرب. و«الكَديد»: الأرضُ الغليظة، والكَديد: موضع بين مكة والمدينة.

الخطّاب يعتريها الوهَنُ ، ولا تنطبقُ على ميولهِ أحياناً ، فقد عُرِفَ عن ضرارٍ أنَّه منَ الشُّعراء الفُرسانِ القرشيين الذين كانُوا حريصين أشدَّ الحرصِ على نَصْرِ قومهم بشتّى الوسائلِ ، والفخر بهم في المحافلِ ، وكان يغتمّ أشدَّ الغمِّ والحزنِ بانخذالِهم وانكسارِهم ، ويهجو مَنْ ينالُ منهم ، ويرسلُ عليه شواظٌ من لسعاتِ لسانهِ وسِنانِه إنِ استَطاعَ إلى ذلك سَبيلاً ، وقد عبَّر عن ذلك كلِّه إبّانَ الأحداثِ الدّائرة بين مكّةَ والمدينةِ ، وكان همُّه حينما يريدُ أنْ يهجوَ المسلمين أنْ ينالَ منَ الأوسِ والخزرجِ ، وكان يحزنُه أن يكونَ القرشيّون قومه بين أولئك .

* ومنَ الملفتِ للنَّظر أنَّ بعضَ القصائدِ التي أوردتها المصادرُ ، يحومُ منْ حولها الشَّكّ والوهم؛ فقد رُويتْ له في بدرٍ قصيدتان كلتاهُما لا تثبتُ له ، ففي القصيدة الأولى التي مطلعُها :

عجبْتُ لِفَخْرِ الأوسِ والحَيْنُ دائرٌ	عَليْهِـم غَـداً والـدَّهـرُ فيـهِ بصَـائِـرُ
وفَخرُ بني النّجّار إنْ كانَ معْشَرٌ	أُصيبُـوا بِبَـدْرٍ كُلُّهـم ثَـمَّ صَـابِـرُ

* وهي قصيدةٌ تعدُّ (١٥ بيتاً) ، نجدُ فيها مَدْحاً لرسولِ اللهِ ﷺ ، ولأصحابهِ الأكابرِ من مثل أبي بكْرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وحمزةَ وسَعْدٍ، فيقولُ :

فَإنْ تظفَروا في يوم بدرٍ فإنّما	بأحمدَ أمسى جَدّكم وهوَ ظاهِرُ
وَبـالنَّفَـرِ الأخيـارِ هـمْ أوليـاؤُهُ	يُحَامُونَ في اللأْواءِ والموتُ حاضِرُ
يُعَـدُّ أبـو بكْـرٍ وحمـزةُ فيهـمُ	ويُدعىٰ عليٌّ وسْطَ مَنْ أنْتَ ذَاكِرُ
ويُدعى أبو حفْصٍ وعثمان منهمُ	وسعْدٌ إذا ما كان في الحربِ حاضرُ
همُ الطّاعنونَ الخيلَ في كلّ معرك	غداةَ الهياجِ الأطيبونَ الأكابرُ[١]

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ١٣ و ١٤) باختصار وانتقاء.

* ومَن الواضحِ لكُلِّ ذي بصيرةٍ وتبصُّرٍ بالشِّعْر أنَّ مثلَ هذا الشّعر ـ بل النّظم ـ لا يقولُه ضرارُ بنُ الخطّاب ذلك الفارسُ الشّاعر الذي عُرِفَ بعصبيّته وشدّته على المسلمين ـ وخصوصاً بُعيدَ غزاةِ بدر ـ ، ولا يمكنُ بأيّ حالٍ منَ الأحوال أنْ ينطقَ بمدحِ الرّسولِ ﷺ والمسلمين رجُلٌ موتورٌ قد أُصيبَ بأهلهِ وقومهِ ، وإنّما الرّأي عندي أنَّ هذا الشّعر منحولٌ على ضِرار ، وقد رصفَه ووضعَه على لسانهِ أحدُ المعجبين بأحداثِ السِّيرة النّبوية فيما بعد عَصْر ضرار بعصور وقرون . ومنَ الغريبِ في أحداث السِّيرةِ وحوادثِها وأشعارها أنَّ ابنَ هشام لم يساورْهُ الشَّكُّ في هذه القصيدةِ الرّائية ـ الضِّرَاريّة ـ ، مع العِلْم أنّه قد شَكَّ وشكّكَ في القصيدة الثّانية التي يرثي بها أبا جهلٍ لَعيْنَ الكُفْرِ وفرعونَ الأمّة ، وهي قصيدةٌ عدد أبياتها (١٢ بيتاً) ويقولُ فيها :

ألاَ مَنْ لِعَينٍ باتَتِ الليلَ لم تنمْ تُراقبُ نجماً في سَوادٍ منَ الظُّلم

ومنها :

فـآليــتُ لا تَنْفــكُّ عَينــي بعَبْـرةٍ على هَالكٍ بعْدَ الرئيسِ أبي الحَكَم

إلى آخر هذه القصيدةِ الميميّة التي يعدّدُ ويذكرُ خلالَها بطولةَ ومآثرَ وصفاتِ الخبيثِ أبي جَهْل ؛ ويعقّبُ ابنُ هشام على القصيدةِ بقوله : وبعضُ أهلِ العِلْمِ ينكرُهَا لِضِرَار[1] .

* وفي معركةِ أُحدٍ يشاركُ ضرارُ بنُ الخطاب قومَه فيها ضدَّ المسلمين ، وفي هذهِ الموقعةِ لم يكْتَفِ بالمَشاركةِ بسنَانه وفروسيّته وسيفه وقناتِه ، وإنّما شاركَ بلسانِهِ حيث كان لسانَ قومه النَّاطق بمفاخرِهم ، حيث كان النَّصْرُ يوم أحدٍ حليفَ قُريش ، ولذا فقد كان ضرارٌ يزهو ويفخرُ ويفتخرُ ويتغنّى بهذا النَّصر بهذه العينيّة ؛ ومنها :

---

(١) انظر : السّيرة النبوية (٢/ ٢٨).

إنّي وَجدّكَ لَولا مُقْدَمي فَرسي   إذْ جالتِ الخيلُ بينَ الجِزْع والقاعِ
إنّـي وَجـدّكَ لاَ أنْفَـكُّ مُنتطِقـاً   بِصَـارمٍ مثـلِ لَـوْنِ الملـحِ قَطّـاعِ

وختمَها بقوله:

شـمٌّ بَهـاليـلُ مُسْتَـرخٍ حَمـائِلهُـم   يَسْعَونَ للْمَوتِ سَعياً غيرَ دَعْداع[1]

* ولضرارِ بنِ الخطّاب قصيدةٌ قافيّةٌ أيضاً، أنشدهَا يومَ أحدٍ، وقد ذكر خلالهَا عدّةَ قومهِ وصبرهُم في الحربِ، وعزمهم على أنْ ينالوا في هذا اليوم النَّصر والثّأرَ لبدرٍ، ويحرّضُ منْ خلالها النَّاسَ على الصَّبر والثَّبات والإقدام، كما أشارَ إلى خوضهِ المعمعةَ بِمُهْرِه، ووصفَ فروسيّتَه فقال:

لَمَّـا أَتَـتْ مِـنْ بنـي كعـبٍ مُـزَيَّنَـةٌ   والخَـزْرجيَّـةُ فيهـا البيـضُ تـأْتلِـقُ
وَجـرَّدُوا مشـرفيَّـاتٍ مُهنَّـدةً   ورايـةً كجنَـاحِ النَّسْـرِ تَخْتفِـقُ
فَقُلْـتُ يـومٌ بـأيَّـامٍ ومعـركَـةٌ   تُنْبي لما خَلْفَها ما هُزْهزَ الوَرقُ

ومنها:

أكرهْتُ مُهرِي حتّى خاضَ غمرتَهم   وبَلَّـهُ مـنْ نجيـعٍ عـانِـكٍ عَلَـقُ
لا تَجزعُوا يا بني مخْزومَ إنَّ لكمْ   مثْـلَ المغيـرةِ فيكـم مـا بـه زَهَـقُ
صَبْراً فَدىً لكُمُ أمّي ومَا وَلَدَتْ   تَعاوَرُوا الضَّرْبَ حتّى يُدْبر الشَّفَقُ[2]

---

(١) السّيرة النّبويّة (٢/ ١٤٤ و ١٤٥)، ومعنى «الجِزع»: منعطفُ الوادي. و«القَاع»: المنخفض من الأرض. و«منتطقٌ»: محتزمٌ. و«الصَّارم»: السَّيف القاطع. و«بهاليل»: السَّادة. و«مسترخ حمائلهم»: يعني حمائل سيوفهم، وفيه إشارةٌ إلى طولهم. و«دعْدَاع»: الضّعيف البطيء.

(٢) انظر: السّيرة النَّبويّة (٢/ ١٤٥ و ١٤٦) بتصرف واختصار، وانظر كتاب: شِعْر المخضرمين للدكتور يحيى الجبّوري (ص ١٣٦ ـ ١٤٣). ومعنى «مزيّنة»: يعني كتيبة فيها ألوانٌ منَ السّلاحِ وأشكالهِ وأنواعِهِ، و«تأْتلق»: تضيءُ وتلمعُ. و«مشرفيات»: سيوفٌ منسوبةٌ إلى المشارفِ وهي قُرى بالشّام. و«تنبي»: تنبىءُ، خفّفَ وحذفَ الهمزة. و«هُزهز»: بالبناء للمجهول: حرّك. و«غمرتَهم»: =

* وهكذا كان ضرارٌ فارساً في الحربِ وفارساً في معركةِ الكلامِ والشِّعْر ، وقد خطَّ بسنانِهِ ولسانِهِ مآثِرَ في الفروسيّة ، ولكنَّه إلى الآن لم يوفقْ في الإيمانِ ، ولم يَهْتدِ ، بل كان له ذِكْرٌ وصَوتٌ في غزاةِ الخنْدقِ ، بل كانَ أَحدَ الفُرسان الذين وثبُوا الخندقَ ، وهذا ما سنعرفُه بعد قليل بإذنِ اللهِ.

ضِـرَارٌ وغَـزْوَةُ الـخَنْـدَقِ:

* في غزوةِ الأحزابِ كان لضرارِ بنِ الخطّاب دورٌ بارزٌ فيها ، وفي أحداثها ، فهو أحدُ الذين وثبُوا الخندق من فُرسانِ قُريش.

* وقصَّةُ حفْر الخندق متعالمةٌ معروفةٌ في أحداثِ السِّيرة النّبويّة ، وكان المسلمون قد ضاعفُوا جهودهم للدّفاعِ عن كيانِهم وعقيدتهم؛ وأكثروا من تشديدِ الحراسةِ على المواقع الضّيّقة منَ الخندقِ ، والتي يُحْتَملُ أنْ يقتحمَها بعضُ فرسانِ العربِ منَ الأحزابِ المتجمهِرةِ حيالَ المدينةِ ، حتّى إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قدْ رابطَ بنفسهِ حولَ أخطرِ نقطةٍ يتوقَّعُ المسلمون اقتحامها من قِبَلِ خَيْلِ الأحزاب.

* وتضاعَفَ خوفُ المسلمين ، واشتدَّ الفزعُ ، واضطربتِ القلوبُ حتى بلغت الحناجرَ ، ومعَ هذه الأُويقاتِ الحرجةِ ، فقد ثبتَ المؤمنون الأبرارُ ، وظلُّوا بجانبِ النّبيّ الكريمِ ﷺ؛ وممّا زادَ الطّينَ بلّة والأمر شِدّة أنَّ يهودَ بني قُريظة قد نقضُوا العهد مع المسلمين ، وانضمُّوا إلى جموعِ الأحزابِ الجاثمَةِ حيالَ الخندقِ ، لكي يسحقُوا المسلمين ، أو يوهنُوا من عزيمتِهم.

* وأخذَ المشركونَ يضاعفُونَ من محاولاتِهم لاقتحامِ الخندقِ وعبورِه

= جماعتهم. و«نجيع»: الدم. و«عانِك»: أحمر. و«علَقَ»: من أسماء الدم. و«الزهق»: العيب. و«تعاوروا»: تداولوا.

نحو المسلمين ، وضاعفُوا من دورياتِهم على طولِ الخندقِ لإرهابِ المسلمين ، وتَشْتيتِ معنوياتِهم ، ومن ثمَّ ينقضّونَ عليهم بالاشتراكِ مع يهودِ بني قُريظة من داخلِ المدينةِ .

* ولذلك فقد اتّفقَ بعضُ فُرسانِ قريش وقادتهم من مثل : أبو سُفيان بنُ حرب ، وخالد بنُ الوليد ، وعمرو بنُ العاص ، وضرارُ بنُ الخطاب ، وعكْرِمةُ بنُ أبي جهل ، وهُبيرةُ بن أبي هُبيرة ، ونوفلُ بنُ عبد الله ؛ اتّفقُوا على أنْ يقودوا عمليّةَ مناوشةِ المسلمين وإزعاجِهم بأنفسهم ؛ وراحوا ينفّذُون عملياتٍ بسيطةً لا تتعدّىٰ الجوَلَان بالخيلِ للإرهابِ من جانبِ قريش ، وتَرَامٍ بالنّبل ، إلى أنْ تطوّرَ القتالُ قليلاً من جانبِ الأحزاب ؛ حيث قامَ فريقٌ من فرسانِهم الأشدّاء ، وأبطالِهم المُغامرين باقتحامِ الخندق بخيلهم من ناحيةٍ ضيّقةٍ به ؛ فقد اقتحمَ عمرو بنُ عبد وِدّ العامريّ ، وعكْرِمةُ بنُ أبي جهل ، وضرارُ بنُ الخطّاب ، وهبيرةُ بنُ أبي وهْبٍ ، ونوفلُ بنُ عبد الله ، اقتحمَ هؤلاء الفُرسانُ ـ وكلُّهم من قريش ـ بخيلهم مضيقاً منَ الخندقِ ، وسارعَ إلى ملاقاتِهم ذوو البأس والفروسيّة من المسلمين ، وقطعُوا عليهم خطَّ الرجْعَة ، واشتبكُوا معهم في معركةٍ سريعةٍ وعنيفةٍ وحاسمةٍ أبادوا فيها رأْسَهم ، وأجبروا الباقين على الفِرار ، ومنهم ضرارُ بنُ الخطّاب الذي هربَ من سيوفِ المسلمين وأبطالِهم .

* وأمّا كبشُ الكتيبةِ عمرو بنُ عبد وِدّ العامريّ فكان قد حضَر معركةَ بدرٍ ، وذاقَ مرارةَ الهزيمةِ ، وجُرِحَ في المعركة ، ونذرَ ألا يمسّ رأسُهُ دهناً حتّى يقتُلَ محمّداً ، ولهذا كان أوّلُ الفُرسان المقتحمين بخيلهم الخندقَ نحو المسلمين ، فالتقاه عليُّ بنُ أبي طالب فبارزَه حتى قتلَه .

* قال ابنُ إسحاق : وكان عمرو بنُ عبد وِدّ قد قاتلَ يوم بدرٍ حتى أثبتَتْهُ الجراحة ، فلم يشهدْ يومَ أُحُدٍ ، فلما كان يوم الخندقِ خرجَ مُعْلماً ـ عليه

علامةٌ يُعرفُ بها ـ ليُرى مكانَه ، فلمّا وقفَ هو وخيله ، قال: مَنْ يبارز؟ فبرزَ له عليٌّ بنُ أبي طالب[1].

* وعندما توجَّهُ عليٌّ إلى عمروٍ ليبارزَه ، قالُ له عليّ: يا عمرو إنّك كنتَ تقولُ: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدٍ من ثلاثٍ إلا قبلتُها.

فقال له عمرو: أجَل؛ هذا صحيحٌ.

فقال له عليّ: إنّي أدعوكَ أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمّداً رسولُ الله ، وتُسْلمَ لِرَبِّ العالَمين.

فقال عمرو: يا بن أخي؛ أخّرْ عنّي هذه.

قال عليّ: وأخرى؛ ترجعُ إلى بلادك ، فإنْ يك محمّد رسولُ الله صادقاً كنتَ أسعدَ النّاسِ به ، وإنْ يكُ كاذباً كان الذي تُريد.

فقال عمرو: هذا ما لا تتحدّثُ به نساءُ قريش أبداً ، كيفَ وقد قَدرْتُ على استيفاء ما نذرْتُ.

ثمَّ قالَ عمرو: فَالثَّالثةُ ما هيَ؟

فقال عليٌّ: البِراز.

* فضحكَ فارسُ قريش عمرو ـ وكان فارساً مشْهُوراً مُعَمَّراً قد جاوزَ الثّمانين ـ ثمَّ قال لعليّ: إنَّ هذه لخصْلَةٌ ما كنتُ أظنُّ أحداً منَ العرب يروِّعُني بها.

* ثمّ قال لعليّ: لِمَ يا بنَ أخي؟ فواللهِ ما أحبُّ أنْ أقتلَكَ. فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: ولكنّي واللهِ أحبُّ أنْ أقتلك. فغضبَ عند ذلك عمرو غضَباً شديداً؛ ولما كان عمرو فارساً وعليٌّ راجلاً ، نزلَ عمرو عن فرسهِ ،

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٢٢٤ و ٢٢٥).

فعقَره ، وضربَ وجهه ، ثمَّ أقبل على عليّ فتنازلا بالسَّيف حتى قتلَه وأراحَ المسلمين من شرّه، وقد جُرِحَ عليّ بن أبي طالب جُرحاً بَسيطاً في رأسهِ أثناءَ المبارزة[1] .

وقال عليّ في ذلك أبياتاً منها :

نَصَرَ الحجارةَ منْ سَفَاهَةِ رأيهِ   ونَصَرْتُ ربَّ محمّدٍ بصَوابي
لاَ تحسبنَّ اللهَ خاذِلَ دِيْنِهِ   ونَبيِّه يا معشرَ الأَحْزَابِ[2]

* وبعد أنْ تمَّ القضاءُ على فارسِ قُريش ، وقائد الفدائيين المناوشين من فرسانهم عمرو بنِ عبد ودّ ، فرَّ باقي الرَّعيل القُرشيّ ، وخرجتْ بهم خيلُهم مسرعةً تسابقُ الرّيح منهزمةً نحو المضيق الذي اقتحموهُ منَ الخندقِ ، فطاردهم بعضُ فرسان المُسلمين ، ولحقَ الزُّبيرُ بنُ العوام نوفلَ بنَ عبد الله ، فضَربَهُ بالسَّيفِ ضربةً زُبيريّةً واحدةً شقّهُ نصفين حتّى وصلَتْ تلك الضَّربةُ إلى كاهلِ الفرسِ. فقيل للزُّبير: يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك؟!

فقال: واللهِ ما هو السَّيف ، ولكنّه السّاعدُ الذي يحملُ السَّيف. ولقد صدقَ الزّبير فلقد كانَ بحقّ فارسَ الشّجعانِ وليثَ الميدانِ وحواري النّبي ﷺ.

* ولقد حاولَ فارسانِ فدائيان من فرسانِ قريش الانتقامَ لِعَمرو بنِ عبد ودّ ، وهما ضرارُ بنُ الخطّاب ، وهبيرةُ بنُ أبي وهب ، حاول هذان الفارسان الفَتْكَ بعليّ بنِ أبي طالب ، ولكنّه ثبتَ أمامَهما ، وقاتَلَهما حتى

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب لمحمد أحمد باشميل (ص ٢١٥ و ٢١٦).
(٢) السيرة النبوية (٢/ ٢٢٥) ، قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعليّ.

هزمَهما ووليا الأدبارَ وبصحبتهما عكرمة بن أبي جهل الذي ألقىٰ برمحهِ عندما فرَّ منَ المعركة.

* وهكذا فشلَ ضِرارُ بنُ الخطّاب، ومَنْ معَه منَ ثلّةِ الفدائيين من فرسان مكّةَ، وعادَ يجرّرُ أذيالَ الهزيمةِ والخيبةِ بعد أنْ قتلَ المسلمون نفَرَيْن من أبطالِ قريش. وعندها كفَّتْ فرسانُ الأحزابِ عن مثلِ هذه المغامراتِ الحربيّةِ، وتوقّفت عملياتُ قفزِ الفرسانِ الأشداء بخيلهم عبْرَ الخندقِ، ولم يعد يستطعْ فرسانُ المشركين القيامَ بأيِّ مغامرةٍ من هذا النّوع.

* وطال الوقتُ على المشركين في حصارِهم، ومضى أكثرُ من عشرة أيّام على الحصارِ دون أنْ يحرزوا تقدماً، وبدأتِ الأطعمةُ تنضُبُ وتَقِلُّ ـ حيث ظنَّ أبو سفيان ومَنْ معه منَ المشركين أنّها معركةُ يومٍ أو بعض يوم، ثمّ يعودُ كلٌّ إلى بلدهِ بالخير الوفيرِ والنّصر العزيز ـ، وهذا ما جعلَ الخبيثَ حُيي بنَ أخطب يلبّي طلبَ أبي سُفيان، فيحمل له عشرينَ بعيراً كان أرسلَها له مع ضرارِ بنِ الخطّاب، حمّلَها له شعيراً وتَمرْاً وتيناً، ولكنّها وقعت في يدِ إحدى دوريّاتِ المسلمين، فأتوا بها رسولَ اللهِ ﷺ، فكانَتْ طعاماً لهم حتى نهايةِ المعركةِ، وعاد ضرارُ بنُ الخطَّاب ليخبرَ أبا سُفيانَ بما حدَثَ، فقال أبو سُفيان: إنَّ حُيياً لمشؤوم، قطعَ بنا ما نجِدُ ما نحملُ عليه إذا رجَعْنا[1].

* ولم تكنْ غزاةُ الخندقِ لِتمرَّ دون أنْ يسجّلَ ضرارٌ فيها بعضَ نَفَثَاتِهِ، ففي الخندقِ يقولُ ضرارُ قصيدته النّونية، حيث يفتخرُ بقوة جيشِهم، وحُسْنِ عدّته، وشدّته على الأعداء، وتسلّطه عليهم، يقول:

---

(١) شرح الزرقاني (٢/ ١٢٢).

ومُشْفِقــةٍ تَظــنُّ بنــا الظُّنُــونــا ... وقــدْ قُــدنَـا عَــرَنْـدسَـةً طَحُـونـا
كــأَنَّ زهــاءَهَــا أُحُــد إذَا مــا ... بَــدَتْ أَرْكَــانُــه للنَّــاظِــرينــا
تــرَىٰ الأبْــدانَ فيهــا مُسبِغَــاتٍ ... علــىٰ الأبطــالِ واليَلَــبَ الحَصينـا
وجُــرْداً كــالقِــداح مُسَــوّمـاتٍ ... نَــؤمُّ بِهَــا الغُــواةَ الخَــاطِيينــا
كــأنَّـهــمُ إذا صَــالُــوا وصُلْنــا ... ببـابِ الخنـدقَيْـن مُصَـافحُـونـا[1]

* ثمَّ إنَّ ضرارَ يتابعُ قصيدتَه هذه بهجاءِ المسلمين ويصفُ الحصار ، ويذكرُ سعداً ، ويتوعدهم بجولةٍ قادمة ، وزيارة حربية عمّا قريب فيقول :

أنــاسٌ لا تَــرىٰ فيهــم رشيْــداً ... وقــد قــالُــوا أَلَسْنَــا راشــدِينــا
فــأَحْجـرنــاهُــمُ شَهــراً كَـرِيتــاً ... وكنَّــا فــوقَهــم كــالقَــاهِــريْنـا
نُــراوحُهــم ونغْــدو كــلَّ يــومٍ ... عليهــم فــي السِّــلاحِ مُــدَجَّجينـا
بــأَيْــدينــا صَــوارِمٌ مُــرهَفَــاتٌ ... نَقُــدُّ بهــا المفَــارقَ والشُّــؤونــا

ومنها :

فلَــوْلاَ خنْــدقٌ كــانُــوا لــدَيْــهِ ... لَــدمَّــرنَــا عليهـــم أجمَعينــا
ولكــنْ حــالَ دونَهــمُ وكــانُــوا ... بــهِ مِــنْ خَــوفنَــا مُتَعــوّذينـا
فــإنْ نــرحَــلْ فــإنّــا قــد تــركْنَـا ... لَــدَى أبْيــاتِكــم سَعْــداً رَهينــا
إذا جُــنَّ الظَّــلام سمعــتَ نَــوْحَــىٰ ... علــى سَعْــدٍ يــرجِّعْــنَ الحَنينــا
وســوفَ نــزورُكــم عمّــا قــريــبٍ ... كمــا زُرْنــاكـــمُ مُتَــوازرينــا
بِجَمْــعٍ مــنْ كِنَــانَــة غيــر عُــزْلٍ ... كأُسْدِ الغَابِ قد حَمَتِ العَرينا[2]

---

(١) انظر : السِّيرة النّبوية (٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥). ومعنى : «العرنْدسة» : شدة القوة . يريد : كتيبة . و«زهاءها» : تقدير عددها . «الأبدان» : معناها هنا : الدروع . و«مسبغات» : كاملة . و«اليلب» : الترسة أو الدرق . و«الجرد» : الخيل العتاق . و«القداح» : السهام . و«مسومات» : مرسلة . و«نؤم» : نقصد .

(٢) السِّيرةُ النّبوية (٢/ ٢٥٥)؛ ومعنى «أحْجَرناهم» : حَصرنَاهم . و«شَهراً كريتاً» : تاماً كاملاً . و«المدجج» : الكامل السّلاح . و«الصّوارم» : السيوف . و«مرهفات» : =

إسلامُهُ ومَدْحُهُ النَّبيَّ ﷺ:

* كان ضرارُ بنُ الخطّاب شديدَ العداوةِ للدّينِ الحنيف، ولرسولِ الهدىٰ ﷺ، ولأصحابهِ الكرام ـ رضي الله عنهم ـ، فكانَ عنيفاً في خصومتهِ، شديداً في عداوته، وعندما يسكتُ سيفُه عن الحربِ، ينطلقُ لسانه في الحربِ، وإذا شاركَ في الحرب شاركَ بلسانِهِ وسنانِهِ، وسخَّر فروسيّتَه في حربِ الإسلام والمسلمين، فقد كان يريدُ أنْ يكتمَ أنفاسَ الإسلام المتردّدة في المدينةِ؛ ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرادَ به خيراً، وأرادَ أنْ يكونَ في سلْك دُرر الصَّحابة وممّن رضي عنهم.

* ولما كان يومُ الفتح، فتحَ اللهُ على قَلْب ضِرار، وامتلأتْ جوانحُه حبّاً للإسلام، وخصوصاً لما رنَّ في أغوارِ نفسه صوتُ الحقّ يناديه أنْ جاءَ نصرُ اللهِ والفتح، وهمسَ في وجدانه هامسٌ يقولُ له: هيّا إلى الإسلام، إلى النّجاة، إلى السَّعادة، فهاهم الكبراء قد انضمّوا إلى الإسلامِ، ومنهم: عمرو بنُ العاص، وخالد بنُ الوليد، وأبو سفيان بنُ الحارث بن عبد المطلب، والعبّاسُ بنُ عبد المطلب، وغيرهم منَ الكُبراء الأعلياء، الذين غدوا منْ أنصارِ الحبيبِ المُصطفى ﷺ.

* ويوم الفتحِ الأعظم، فتحَ اللهُ قُلوباً عمياً، وآذاناً صمّاً، ودقَّتِ

= قاطعة. و«تقدّ»: تقطع. و«المفارق»: جمع مفرق، وهو حيثُ ينفرقُ الشّعر في أعلى الجبهة. و«الشّؤون»: معناها هنا: مجمع العظام في أعلى الرّأس. و«جنّ الظلام»: اسودّ وادلهم. و«نوحى»: جماعة النّساء اللاتي ينُحْنَ على الميت. و«مُتوازرين»: مُتعاونين. و«العزل»: الذين لا سلاح معهم؛ الواحد: أعْزَل. و«الغَاب»: جمْعُ غابة، وهي الأجَمة والعرين، موضع الأسد.
ومن الجدير بالذكر أنّ كعبَ بنَ مالك قد ردَّ على ضِرَار بنِ الخطَّاب بقصيدة بنفس الوزن والقافيةِ. انظر (السّيرة النبوية ٢/ ٢٥٥ و ٢٥٦)

القُلُوبُ في شدَّةٍ داخلَ الصّدور ، وتعلّقتِ الأعين برسولِ اللهِ ﷺ الذي دخلَ مكَّة على راحلتهِ مُعتجراً بشقّةِ بُردٍ حمراءَ ، وإنّه لَيَضَعُ رأْسَه تواضُعاً لله عزّ وجلّ ، حينَ رأىٰ ما أكرمه اللهُ به منَ الفتحِ الأعظمِ ؛ وهنا راحَ ضرارُ بنُ الخطّاب يرنُو إلى رسول الله ﷺ في حبّ بعد أنْ قال ﷺ لأبي سُفيان: «يا أبا سفيان اليوم يومُ المرحمة ، اليوم أعزَّ اللهُ فيه قريشاً»[1] .

* وهزَّتْ أريحيّةُ الحبيبِ المصطفى ﷺ عدوَّ الأمسِ ضرارَ بنَ الخطاب الذي فعلَ بالمسلمين الأفاعيل يومَ أُحدٍ ، ونالوا منْ لسانِه وسِنانه شيئاً كثيراً ، وهنالك رقّت عاطفتُه وراقت سجيّته الشّعرية بأرقّ الكَلمات المنداة برحيقِ الإيمان والاعتذار ، فقال يومئذ بعد أنْ أسلمَ وصقلت نفسَه همساتُ الإيمان:

يَـا نَبـيَّ الهُـدَىٰ إليْـكَ لَجَـا ... حَـيُّ قُـريـشٍ وأنـتَ خَيْـرُ لَجـاءِ
حيْـنَ ضَـاقَـتْ عليْهِـم سَعـةُ الأَر ... ضِ وعَـادَاهُـم إلـهُ السَّمَـاءِ
والتقَـتْ حَلقَتَا البطَانِ على القَو ... مِ ونُـودُوا بـالصَّيْلَـم الصَّلْعَـاءِ
إنَّ سَعْـداً يـريـدُ قَـاصِمـةَ الظَّهْـ ... ـرِ بـأَهْـلِ الحُجـونِ وَالبَطْحَـاءِ
خـزْرَجـيٌّ لـو يستطيـعُ مـنَ الغَيْـ ... ـظِ رمَـانَـا بـالنّسـرِ والعـواءِ
وَغِـرُ الصَّـدْرِ لا يهـمُّ بشـيءٍ ... غيـر سفْـكِ الـدِّمَـا وسبْـي النِّسـاءِ
قـد تلظّـى علـى البِطَـاحِ وجـاءَتْ ... عنْـهُ هنْـدٌ بـالسَّـوءَةِ السَّـوآءِ
إذْ تنَـادىٰ بـذُلِّ حـيّ قـريـشٍ ... وابـنُ حَـرْبٍ بَـدا مـنَ الشُّهَـداءِ
فلئـنْ أقحـمَ اللـواء ونـادىٰ ... يـا حمـاةَ اللـواءِ أهْـلَ اللـواءِ
ثـمَّ ثـابَـتْ إليـهِ مـنْ فَهـمِ الخَـزْ ... رَجِ وَالأَوسِ أنْجُـمُ الهَيْجَـاءِ

(١) الاستيعاب (٢/ ٣٦) ، وقال النبي ﷺ هذه العبارة لأبي سفيان حينما قال سعدُ بنُ عبادة رضي الله عنه: اليوم يومُ الملحمة ، اليوم تُستحلُّ المرحمة ، اليوم أذلّ الله قريشاً. (الاستيعاب ٢/ ٣٥ و ٣٦) وانظر تفاصيل ذلك في كتب السيرة.

لتكونَنَّ بالبِطاحِ قريشٌ فقْعَةُ القاعِ في أكفِّ الإماءِ
فانْهَينَّه فإنَّه أسدُ الأُسْـ ـدِ لدىٰ الغابِ والغٌ في الدّماءِ
إنّه مطرقٌ يديرُ لنَا الأمْـ ـرَ سُكوناً كالحيّةِ الصَّمّاءِ[1]

* ولما سمعَ الحبيبُ المُصطفى ﷺ هذه الهمزِيّةَ من ضرارِ بنِ الخطّاب الذي جاءه مُسْلِماً مُسَلِّماً ، وعندها أرسلَ النَّبيُّ ﷺ إلى سعدِ بن عُبادة فنزعَ اللواءَ من يدِه ، وجعلَه بيدِ قيس ابنه ، ورأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللواءَ لم يخرجْ عنه إذ صارَ إلى ابنه قيسِ بنِ سعد بن عُبادة ـ رضي الله عنهما ـ[2] .

* وهكذا غدا ضِرارُ منَ المُسلمين ، وتهلّلَ وجههُ بالبشرِ ، وامتلأَ فؤادُه راحةً ، وانشرحَ صدرُه ، لأنَّ رسولَ الله ﷺ استجابَ له ، ونزعَ الرّايةَ من سعدِ بنِ عبادةَ ، ورأفَ بأهلِ مكّةَ وقال لهم: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [يوسُف: ٩٢] ، وعفا عنهم.

* وصدقَ اللهُ عزَّ وجلَّ عندما وصفَ رسولَه بقولهِ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]؛ وهذا ما جعلَ ضراراً ممن حَسُنَ إسلامهم ، وأحبّوه. ولما التحقَ رسولُ اللهِ ﷺ بالرَّفيقِ الأعلى ، ارتدتْ بعضُ قبائل العربِ عن الإسلامِ ، بينما ثبتَ ضرارُ بنُ الخطاب على الإسلامِ ، ولم تهزّه تلكم الحركات التي قامَ بها بعضُ المرتدين ، كما ثبتَ معه أهلُ مكّةَ المكرّمةِ ، لذا كانُوا جميعاً منَ الدّعامات القويّة التي دافعتْ عن حياضِ الإسلام ، وعن عقيدةِ المسلمين ، ثمَّ لمْ يَقِفْ ضرارٌ مكتوفَ الأيدي ، وإنّما جاهدَ بِسِنانه ولسانِه ، وله وقفاتٌ وآثارٌ وضيئةٌ في تاريخِ الفُرسان المجاهدين

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٣٦). و«البطان»: حزام يُجعل تحت بطنِ البعير. و«الصّيلم»: الدّاهية الشّديد. و«النّسر والعوّاء»: كوكبان. و«الفقعة»: نوع منَ الكمأة البيضاء الرخوة يشبه بها الرجل الذليل.
(٢) انظر: الاستيعاب (٢/ ٣٦ و ٣٧) بشيء من التصرف اليسير.

المُسلمين. وفي الفقرةِ التَّاليةِ نشهدُ جانباً من الإشراقاتِ الضِّراريّة تحتَ لواءِ الإسلام.

ضِـرَارٌ الـفَـارِسُ المُـجَاهِـدُ الـفَـاتِـحُ:

* تـوفـيَ سيّـدنـا وحبيبُنـا رسـولُ اللهِ ﷺ وهـو راضٍ عـن ضـرارِ بـنِ الخطّاب، وظلَّ ضرارٌ على العهدِ، فكانَ فارساً من فرسانِ المسلمين الذين وضعُوا ما يملكون تحتَ أمْرِ الإسلام، وشَهِدَ سلسلةً من المعاركِ شهدَ له فيها فرسَانُ الفُتوحات بكمالِ الفروسيّةِ وجلالِ البُطولة.

* ففي رحلةِ الجهادِ والجلاد شهدَ ضرارُ بنُ الخطاب معركةَ اليمامة، وأبلى بلاءً حسناً تحتَ رايةِ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ؛ وقاتلَ المرتدينَ قتالاً شديداً، حتى ثابَ مَنْ ثابَ رشدهُ منهم وعادَ إلى حياضِ الإسلام، ولما انتهتْ معاركُ الرِّدة وحروبُها، توجّهَ خالدُ بنُ الوليد إلى بلادِ العراقِ، وكان ضرارُ بنُ الخطّاب مع قوّاتِ خالد، فشهدَ كلَّ معاركِ العراق التي خاضَها خالدٌ هناك، ولم يتأخر عن واحدةٍ منها، بل كانَ من السَّوابق إليها، وكان هو الذي حاصَر «قَصْر الغَرِيِّيْن» في فتحِ الحيرة؛ ويُقال اسم القَصر «قصر العدسيين».

* وتحرّكَ ضرارٌ مع خالد ـ رضي الله عنهما ـ إلى أرضِ الشَّام بعد نَقْلِهِ إليها منَ العراقِ، فقد كان ضرارٌ من جملةِ الفُرسانِ الذين اختارهم خالد ليعاونوهُ في مهمّته الجديدة[1] التي أُوكلَتْ إليه في بلاد الشَّام، فقد شهدَ ضرارٌ تحت لواءِ خالدِ بنِ الوليد كافّةَ معاركهِ في طريقهِ منَ العراقِ إلى أرضِ الشَّام، كما تذكُرُ المصادر أنَّه شهدَ معه معركةَ اليرموكِ الحاسمةِ، وشهد مع سيّدنا أبي عُبيدة بن الجرّاح ـ رضي الله عنه ـ فَتْحَ الشَّام.

---

(١) انظر: أسد الغابة (٣/ ٤٠)؛ وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٠٥).

* وتشيرُ المصادرُ أيضاً إلى أنَّ ضرارَ بنَ الخطَّاب قد عادَ إلى العراقِ مع هاشمِ بنِ عتبةَ الزُّهري ، فشهدَ القادسيّة ، وفي هذه المعركةِ الشَّهيرةِ غنمَ ضرارٌ علَمَ الفُرْسِ الأكبرِ ، فعُوّضَ منه ثلاثين ألفاً ، وكانت قيمتُه ألفَ ألف ـ مليون ـ ومئتي ألف[1] .

* كما شهدَ ضرارُ بنُ الخطّاب فَتْحَ المدائنِ القديمةِ على الضِّفَّةِ الغربيّة من النَّهر؛ فلمّا رأىٰ ضرارٌ من المدائنِ القديمةِ إيوان كسرى في الضّفّة المقابلةِ من النّهرِ ، نادى بأعلىٰ صوتهِ : «اللهُ أكبر! هذا أبيض كسرى. . . . هذا ما وعدَ اللهُ ورسوله» . وكبَّرَ ضرارٌ وكبَّرَ النَّاسُ معه[2] .

* وما زلنا مع الفارسِ ضرار في بطولاتهِ وفروسيته مع الأبطالِ الفرسانِ ، فقد شهدَ تحتَ لواء هاشم بن عتبة الزّهري معركة «جلولاء» ، فلمّا رجعَ هاشم منتصراً من جلولاء إلى المدائن ، بلغَ الأَسَدُ في بَراثنِهِ سعدُ بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ أنَّ الهرمزانَ قد جمعَ جمعاً من القوّات الفارسيّـة في سَهْل «ماسبذان»[3] ، وهنا كتبَ سعد بنُ أبي وقّاص إلى القائدِ الأعلىٰ لقوّاتِ المسلمين أميرِ المؤمنين الفاروقِ عمرَ بنِ الخطاب في المدينةِ المنوّرةِ يعلمُه بالأمْرِ والحالِ؛ وهنا جاءتِ الأوامرُ العمريّة الفاروقيّة باختيارِ ضرار ليكونَ قائداً ، فكتبَ عمرُ إلىٰ سعد: ابعثْ إليه ضرارَ بنَ الخطَّاب فـي جنْـدٍ ، واجعلْ علـى مقدمته الهُذيل الأسديّ ، وعلى

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (٢/ ١٨٦).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد فارس ـ إيران ـ (ص ٩١) نقلاً عن الكامل لابن الأثير (٢/ ١٩٧).

(٣) «ماسبذان»: مدن عدة منها: أريوجان ، وهي مدينة حسَنَةٌ في الصّحراء بين الجبال ، ومدينة الرّد والسّيروان. وهي منطقةٌ واسعةٌ أُطلقَ عليها اسم مدينة ماسبذان ، وهي مدينةٌ مشهورةٌ بقربِ السّيروان كثيرة الشجر.

مجنبتَيْه عبد الله بن وهب الرّاسبيّ حليف بجيلَة ، والمضارب بن فلان العجليّ[1] .

* وامتثلَ سعدٌ الأمْرَ العُمريَّ ، وأرسلَ ضراراً بمن معه حتّى انتهى إلى سَهْلِ ماسبذان ، والتقىٰ هناك جنودَ الفرسِ وأبطالهم ، ولم يمهلِ المسلمون الفرسَ بل أسرعُوا في الهجومِ عليهم ، ورأىٰ ضرارٌ بعينِ بصيرته وخبرته الحربيّة أنَّ الأمرَ ينتهي إذا قُضِي على قائدِ الفرس ، فما كان منه إلاّ أنْ أسرعَ إلى مكان وجوده ، وانقضَّ عليه وأخذَهُ أسيراً ، ولمّا علمَ جيشُه بأسْرِه ، انهزمُوا عنه ، وولوا الأدبارَ ، وتفرّقُوا في الجِبالِ المحيطةِ بالمنطقةِ ، فدعاهم ضِرارٌ فاستجابُوا له .

* وأقامَ ضرار بماسبذانَ حتى تحوّلَ سعدُ بنُ أبي وقّاص منَ المدائنِ إلى الكوفة ، فأرسلَ إلى ضرار فنزلَ الكوفةَ ، واستخلفَ على ماسبذان ، وكان فتْحُ ماسبذان بعد فتْحِ حُلوان[2] .

* وهكذا ظلَّ ضرارُ بنُ الخطّاب غازياً يقاتلُ في سبيلِ اللهِ ، يَصِلُ الليلَ في النَّهار بطاعةِ اللهِ في هذا الميدانِ ، ليحظىٰ بالرّضوان من المَلِكِ المنّان .

شَذَرَاتٌ رَائِعَاتٌ مِنْ أَخْبَارِهِ :

* أخبارُ ضرار بن الخطّاب جميلةٌ ومتنوعةٌ ، وتجمعُ إلى الطَّرافةِ شيئاً من فروسيّته وشجاعتهِ التي شهدَ له الأصدقاءُ والأعداءُ؛ فقد كان ضرارٌ منَ الفُرسانِ الأبطالِ الذين يهتمّون بالحربِ وآلاتِهِ وعدّته ، فكان يقتني الخيلَ العتاقَ المشهورةَ ، وقد سبقَ أنْ أشرنا إلى أنّ ضِراراً كانت له فرسٌ تسمّى

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٣/ ١٤٣).

(٢) انظر : قادة فتح بلاد فارس (إيران) (ص ٩١ و ٩٢) بتصرف يسير .

«الحوّاء» ، وكان يعتني بها عنايةً فائقةً ، فهي ذخيرتُه عندما تستعرُ الحربُ ، وتشبكُ القنا ، وتلمعُ السُّيوف بين الأسنّةِ ، وغبارِ السَّنابك .

* ومنَ الطَّريفِ في الشَّذرات الضِّراريّةِ الجميلةِ أنَّ ضراراً ـ رضي الله عنه ـ كان له سيفٌ مشهورٌ من سيوفِ قريشٍ المشهورة ، وكان يسمّيه «السَّحاب» وفيه كان ينشدُ ويتغنّى قائلاً مخاطباً ميَّة :

فَمَا السَّحَابُ غَدَاةَ الحَرِّ منْ أحدٍ ... بِنَاكلِ الحدِّ إذْ عايَنْتُ غَسَّانَا
غَادَرْتُ منهم بجنْبِ القَاعِ ملحمةً ... صَرْعىٰ فَما عدلُوا يا ميُّ قَتْلَانا
فلَو رأيتهمُ والخَيْلُ تثْبِتُهم ... والبيضُ تأخذُهم مثْنَى ووحْدَانَا
أَيقنْتِ أَنَّ بني فِهْرٍ وإخوتَهم ... كانُوا لدىٰ القَاعِ يومَ الرَّوعِ فُرسَانا[1]

* ولعلَّه منَ المفيدِ هنا في رحلةِ الفروسيّة وذكْرِ السُّيوف أنْ نشيرَ إلىٰ السّيوفِ الشَّهيرة في قريش والتي خلَّدها أدبُنا الوضيءُ وتاريخنا المجيدُ التّليد .

* فمن أشهرِ السّيوفِ القرشيّة سيفُ سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ المعروف باسم : «ذو الفقار» ؛ كان هذا السَّيفُ للعاصِ بن منبه بن الحجّاج السَّهمي ، فقتلَه عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم بدرٍ ، وجاء بسيفهِ إلىٰ رسولِ الله ﷺ ، فنفَلَه إيّاه وفيه يقول :

لا سَيْفَ إلاّ ذُو الفقَار ... ولا فتَى إلاّ عَليّ ! !

* ومن السّيوفِ القُرشيّة «اللياح» سيفُ أسَدِ اللهِ وأسدِ رسولهِ سيّدنا حمزة بن عبدِ المطلب ـ رضي الله عنه وحشَرنا في معيّته ـ ، وقال رضي الله عنه يوم أُحد ، وقتلَ عثمان بن أبي طلحةَ ومعه اللواء :

---

(١) انظر : المنمق (ص ٤١٤) . ومعنى «غسانا» : يعني الأنصارَ وهم من غسّان . و«القاع» عدة مواضع ، والمراد هنا : القاع الذي بالمدينة . و«مي» : ترخيم مية . و«بني فهر» : يعني قريشاً .

لقَدْ ذاقَ عثمانُ يومَ الحرّ من أُحُدٍ ... وقْعَ اللياحِ فأوْدَىٰ وهو مذمومُ[1]
وذاقَ عتبــةُ فــي بَــدْرٍ وقيعتَــه ... تبّــاً لمصــرعِ شيــخٍ ثَــمّ مـذمـومُ[2]

* سيفُ عبدِ المطلب بنُ هاشم جدّ النّبي ﷺ كان من السُّيوف القرشيّة المشهورة ، واسمه: «العطشَان»: وقال:

مَنْ خَانَهُ سيْفُهُ في يومِ ملْحَمةٍ ... فإنَّ عطشانَ لم ينكلْ ولم يخُنِ
كمْ قطَّ منْ ساعدٍ يوماً وجمجمةٍ ... ومغْفَـرٍ «قُـرْدُمَـانـي» ومـنْ بـدنِ[3]

* وسيفُ عبدِ الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص اسمُه: «وَلُول» ، وقالَ يوم الجمل:

أنَــا ابــنُ عتّــاب وسيفــي ولُــولِ ... والمــوتُ دونَ الجَمَــلِ المُجلَّــلِ

* وسيفُ هُبيرة بن أبي وهب المخزوميّ اسمُه: الهذلول ، وقال يخاطبُ هُنَيدة:

كَمْ مِنْ كَميّ قَدْ سَلَبْتُ سِلاحَهُ ... وغَـادَرَهُ الهـذلـول يكْبـو مجـدّلاَ
وحَربٌ عِقامٌ قد شهدتُ مراسَها ... وطـاعنْـتُ فيهـا يـا هُنيـدةُ مُقْبِـلا

* وسيفُ الحارثِ بنِ هشام بن المغيرة اسمُه: «الأُخَيْرس» ، وقال في زمنِ عمر بالشَام:

فما جنّبَت خَيْلي بِفِحْل ولا ونَتْ ... ولا لمتُ يومَ الرَّوعِ وقْعَ الأخيرس[4]

---

(١) «يوم الحر»: اشتداد الحرب.
(٢) «عتبة»: يعني عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أحد سادات قريش ومجرميهم من الكفار.
(٣) «قُردُماني»: القردمان بالفارسية أصل الحديد وما يعمل منه.
(٤) «فِحْل»: بكسرِ الفَاء وسكون الحاء المهملة: موضعٌ بالأردنِ كان مسرحَ وقعةٍ عنيفةٍ بين الرّوم والمسلمين في أوائلِ خلافةِ عمر بنِ الخطّاب رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا في معيته.

* ومن السُّيوفِ المشهورةِ ، سيفُ عِكرمةَ بنِ أبي جهل واسمه «النّزيف» ، وله فيه شعر.

* وسيف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اسمه : «ذو الوشاح» كانت نعله[1] فضّة.

* وسيفُ عمرو بن عبد وِدّ العامريّ المقتول يوم الخندق ـ كما مرَّ معنا ـ اسمُه «الملدّ» ، وقال عمرو:

إنَّ الملدَّ لَسَيْفٌ ما ضربْتُ بهِ   يوماً منَ الدَّهْر إلا حزَّ أو كَسَرا
كمْ منْ كَبيرٍ سَقَاه الموتُ ضَاحيةً   ويَافِعٍ قَطّ لَمْ يُدْركْ بهِ كبَرا[2]

* وسيفُ عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ اسمُه : «اللج» ، وله به رجَزٌ في حروب الشّام.

* وسيفُ عمر بن سعد بن أبي وقّاص اسمه : «الملاء».

* وسيفُ خالدِ بنِ يزيد بن معاويةَ اسمُه : «الغمر» ، وله فيه شِعْر.

* وكان لخالدِ بنِ الوليد ـ رضي الله عنه ـ ثلاثةُ أسياف وهي : «المرسب» وهو ذو القرط ، و«الأدلق» ، و«القُرطُبي» ، وقال يوم مؤتة :

أنَا أبو سُليمانَ سَيْفي المرسبِ   ابنُ الوليدِ منْجبٌ لِمنْجِبِ
أعلُو بهِ كلّ امرىءٍ مكذّبِ   بأحمدَ المُطَهَّرِ المُطَيَّبِ

* وله أشعارٌ أخرىٰ كثيرة في أسيافهِ ، لا يتّسع المقام لذِكْرِها.

* وسيفُ زمعةَ بنِ الأسود بن المطلب ، اسمُه : «لسان الكلب».

* وسيفُ جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ اسمهُ «الغمام» ، يُقال :

---

(١) «نعلُه» : ما يكون أسفل غمد السَّيفِ منْ حديدٍ أو فضّة.
(٢) «ضاحية» : الدّاهية.

لما قدمَ جعفرُ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على النّجاشي أعطاهُ الغمام ، فقاتل به يوم مؤتة .

* وسيفُ عبد الله بنِ الحارث بنِ نوفل بن الحارث بن عبد المطلب اسمه : «الشّقيق» ، أراده معاوية على بيعه وأثْمنَ له به فأبىٰ ، وقال :

آلَيْتُ لا أَشْري الشَّقيقَ برغْبَةٍ   معَاويّ إنّي بالشَّقيقِ ضَنِيْنُ

* وسيفُ خالد بن سعيد بن العاص اسمُه «ذُعْلُوق» وله فيه رجزٌ قاله بالشَّام في قتال الرُّوم .

* وكان لسعيدِ بنِ زيد بن عمرو بن نفيل ـ رضي الله عنه ـ سَيْفان اسمهما : «الفائز والخليل» ، وقال :

أضربُ بالفَائزِ والخَليلِ   ضَرْبَ كريمٍ ماجدٍ بُهْلُولِ
ينْوي رِضَا الرّحمنِ والرّسولِ   حتّى أموتَ أو أرىٰ سَبيلي

* وسيفُ خالدِ بنِ المهاجر بن خالد بن الوليد اسمُه : «ذو الكفّ» له به شِعْر .

* وسيفُ أبي دَهْبَل الجمحيّ الشّاعر المشهور اسمُه : «المستلب» وقال :

أنَا أبو دَهْبل وهْب بنُ وهْبْ   أورثَني المجدَ أبٌ منْ بَعْدِ أَبْ
رمحي رُدينيٌّ وسيفي المُستَلَبْ

* وسيفُ محمد بن أبي الجهم العدويّ اسمُه : «القائم القاعد»[1] .

* وبعد هذه الجولةِ في أسماءِ سُيوف قريش ، وما قيل فيها ، نتابعُ الرّحلة الضِّرارية ، فقد كان ضرارٌ من فرسانِ العربِ الذين استخدموا كافّة

---

(١) انظر : المنمق (ص ٤١١ ـ ٤١٩) بتصرف واختصار .

أنواعِ السّلاح في معاركهم ، كالسّيف ، والرّمح ، والقَوس [1]، وغيرِها من سائر أنواع السّلاح الذي يستخدمُه الفارس.

* ومن شذراتِ أخبارِ ضرار قصّة وفاءِ أمّ غيلان التي صارتْ بحمايتها لضرارِ بنِ الخطّاب إحدى النّساء المُوفيات في العصر الجاهليّ.

* وقصّة ما ذكرتْهُ المصادرُ أنَّ هشام بن المغيرة كان قد قَتَل أبا أزيهر

---

(١) القوسُ: جمعُها قِسِيّ: والقسيُّ منَ الأسلحةِ المستخدمةِ في الحربِ في الجاهليّةِ والإسلام ، وهي أعوادٌ منَ الخشبِ الليّنِ المتينِ ، تُقوَّسُ كالهِلالِ ، ويثبّتُ فيها وتَرٌ من جلْدِ الإبلِ ، تُرمى به السّهام ، وأجودُ أنواعِها العصفوريّة. وقد نُسبتِ القسيّ إلى «ماسِخ» أو «ماسخة» ، وهو قوّاسٌ أزديّ ، ويُقال إنّه أوّلُ مَنْ عمل القسيّ عند التحام المعركةِ؛ قال طُفَيل الغَنوي:

فَما برِحُوا حتّى رأوا في ديارِهم لــواءً كظــلّ الطّــائــرِ المتقلّــبِ
رمَتْ عن قسيٍّ الماسخيّ رجالُنا بـأجـودَ مـا يُبتـاعُ مـن نبـلِ يثـربِ

كما نُسِبَتْ إلى «رضوى» ، وهي امرأةٌ مشهورةٌ بصُنعِها.

وكانتِ القوسُ رمزَ الرُّجولةِ ودليلَ الشّرف ، لأنّها رفيقُ البدوي ، ووسيلةُ عيشه ، وقد بلغتْ منزلةُ القوسِ عند العربيّ أنّه إذا أرادَ أنْ يلتزمَ بتنفيذِ أمْر ولم يستطعْهُ رهَنَ قوسَه ، وحتّى في قضَايَا الدّيات ، فهم يرهنونَها حتى يتمّ دفعها ، وإلى ذلك يشيرُ قرادُ بنُ حنشٍ:

ونحـنُ رهنّـا القـوسَ تمـثَ فُـوديَـتْ بـألـفٍ علـى ظهـرِ الفَـزاريّ أقْـرعَـا

ـ وكانَ للعربِ مهارةٌ عظمىٰ في استخدامِها ، لِما كانُوا عليه من حدّةِ البَصَر ، فقد جاءَ في العِقْدِ الفريد أنَّ العربيَّ كان يستطيعُ أنْ يرميَ بالنّبال ، فيصيبُ إحدىٰ عينَي الغزال دونَ العينِ الأخرى ، وكانَ أحدهُم يعلّقُ ظبياً بشجرةٍ ويرميه بالنّبال ، فيصيب أيَّ عضو شاءَ منْ أعضائِهِ ، حتى يرميَ فِقْراتِه فقرةً فقرةً ، فلا يخطىءُ واحدةً منها.

ـ وقد تردّدتْ أسماءُ القوسِ على ألسنةِ الشُّعراء في جميع مجالاتِ حياتِهم ، وكانَ الحديثُ يدورُ عن صنعِها وصنّاعِها ، والخشبِ الذي تتَّخذ منه ، وإنْ غلبَ شجرُ النّبع على جميعِ الأنواعِ الأخرىٰ التي كانت تُصنع منها. واهتمّ العربُ كذلك بصوتِها ولونِها ، وللشّماخ بنِ ضرار قصيدةٌ طويلةٌ ومشهورةٌ بوصفِ قوسهِ فلتُراجع.

الدّوسي ، فبلغَ قبيلة دوس ذلك ، فوثبوا على مَنْ كان فيهم منْ قريش فقتلُوه ، وحدث أنْ خرجَ ضرارُ بنُ الخطّاب في نَفَرٍ من قريش إلى أرضِ ذي يمن ، فنزلَ على امرأةٍ يُقال لها أمّ غيلان مولاة لدَوس ، وكانت تمشط النّساء، وتجهِّزُ العرائس، فأرادتْ دوس قَتْلَهم بأبي أُزَيْهِر ، فقامت دونهم أمّ غيلان ونسوة عندها ، وأدخلته في دِرْعها ، وذبّتْ قومها حتى منعتهم.

* ويقال: إنَّ دوساً لحقوا بضرار ، فاستجار بامرأة من دوس يُقال لها أمّ غيلان ، فأدخلته منزلَها وأجارَتْه ، وأقبلت دوس فلمّا رأتهم أمُّ غيلان ، أخرجتْ بناتها حُسَّراً دونَه وقالت: إنّي قد أجرتُه وحُرُماتُكم حُسَّرٌ دونه ، فإنْ شئتم فاهتكوا سِتراً، واستحلُّوا حُرمةً ، فتركوه لها ، فانصرفَ وهو يقولُ:

جَزَى اللهُ عنَّا أمَّ غَيلانَ صَالِحاً ... ونسوتَها إذْ هُنَّ شُعْثٌ عَواطِلُ
فَهُنَّ دفَعْنَ المَوْتَ بعْدَ اقْترابِهِ ... وقَدْ برزَتْ لِلثّائرينَ المَقَاتِلُ
دَعَتْ دعْوَةً دَوْسَاً فَسَالَتْ شعابُها ... بِرَجْلٍ وأَدَّتْهَا الشراجُ القَوابِلُ
وعَمْراً جزَاهُ اللهُ خَيْراً فَمَا وَنَىٰ ... وَمَا بَردَتْ مِنْهُ لديَّ المفَاصِلُ
فجرّدْتُ سيفي ثمّ قمْتُ بنَصْلِهِ ... وَعَنْ أيّ نَفْسٍ بعد نفْسي أقاتِلُ[1]

* قال ابنُ هشام: حدثني أبو عبيدة: أنَّ التي قامتْ دونَ ضرار أمّ جميل ، ويُقال أمّ غيلان ، قال: ويجوزُ أن تكون أمّ غيلان قامَتْ مع أمِّ جميل فيمن قامَ دونَه[2].

---

(١) «شعث»: جمع شعثاء ، وهنّ المتغيّرات الشّعور. و«عواطل»: جَمْعُ عَاطِلة ، وهيَ التي لا حُليّ لَها. و«دوس»: اسم قبيلة عربية. و«الشِّعاب»: جمع شِعْب. و«الشِّراج»: جمع شرجة: وهي مسيلُ الماءِ منَ الحرّةِ إلى السَّهْلِ. و«القوابل»: التي تقابل بعضها بعضاً. و«ونى»: برد وفتر. و«نصل السيف»: حده.

(٢) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها: السيرة النبوية (١/ ٤١٤ و ٤١٥) ، والمنمق (ص ٢٠٤) ، وديوان حسان بن ثابت (ص ٣٥٦ و ٣٥٧) ، ومختصر تاريخ دمشق=

وبهذا التّصرّفِ الجميل من أمّ غيلانَ سجّلها تاريخُ النّساء في عَصْرِها ، وسمّيت أمَّ غيلان ، إحدىٰ المُوفيات اللواتي ضُرِبَ بهنَّ المثَلُ في الوَفَاء[1] .

* وظلت حمايةُ أمّ غيلان لضرارِ بنِ الخطّاب ماثلةً أمامَ عينيها زمناً طويلاً إلى أنْ أصبحَ عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خليفةَ المسلمين ، فظنّتْ أنّه أخوه الشّقيق ، فأتته بالمدينةِ المنوّرة ترجو نوالَه ، فلمّا كلّمتْهُ وقصَّتْ عليه القَصَصَ ، أدركَ أنّها قد وهمَتْ ، وعرفَ القصَّة ، فقال لها : يا أمّ غيلان لسْتُ بأخيهِ إلاّ في الإسلام ، وهو غازٍ الآن بالشَّام ، وقد عرفْنَا مِنّتَكِ عليه ، فأعطاهَا على أنّها بنتُ سَبيل[2] .

* ومن شذراتِ أخبارِ ضرار أنَّه كان من شُعراء قريش المطبوعين

= (١١/ ١٥٦ و ١٥٧) ، والإصابة (٢/ ٢٠١). ومجمع الأمثال (٣/ ٤٥٠) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وغير ذلك كثير.

(١) منَ اللواتي ضُرِبَ المثَلُ بوفائِهنّ : خماعةُ بنتُ عوف بنِ محلّم التي أجارتْ مروان القرظ ، فيقال : أوفىٰ من خُماعة.
ـ ومنَ المُوفيات أيضاً فُكَيهة حيثُ يقال : أوفى من فُكَيهة. وهي امرأةٌ منْ بني قيسِ بنِ ثعلبة. قال حمزةُ : هي فُكيهةُ بنتُ قتادة بنِ مَشْنُوء خالةُ طرفَة بن العبد ، لأنّ أمَّ طرفةَ هي وردةُ بنتُ قتادة.
ـ وكانَ منْ وفائِها أنَّ السّليكَ بنَ سُلكة غَزا بكرَ بنَ وائل ، فأبطأَ ولم يجدْ غفلةً يلتمسها ، فرأىٰ القوم أثرَ قدم علىٰ الماءِ لم يعرفوهَا ، فكمنُوا له ، وأمهلوهُ حتى وَرَدَ وشربَ فامتلأَ ، فهاجُوا بهِ ، فعَدا ، فأثقله بطنه ، فولجَ قبَّة فكيهة ، فاستجارَها فأدخلَتْه تحتَ دِرْعَها ، فجاؤوا في أثرهِ فوجدُوه تحتَ ثوبها ، فانتزعوا خِمارَها ، فنادتْ إخوتها وولدها ، فجاؤوا عشرةً ، فمنعتهم عنه ، وفيها قالَ سُليك :

لَعَمـرُ أبيـكَ والأنبـاءُ تَنِمـي ... لنعْـمَ الجـارُ أخـتُ بنـي عـوارا
عَنيـتُ بهـا فُكيهـةَ حيـنَ قـامـتْ ... كنصـل السَّيـفِ فـانتـزعـوا الخِمـارا
مـنَ الخفـراتِ لـم تفضـحْ أخـاهَـا ... ولـم تـرفـعْ لـوالـدِهـا شَنـارا

(مجمع الأمثال ٣/ ٤٥٢ و ٤٥٣)

(٢) انظر : مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٥٧ و ١٥٨).

المجودين ، بل كانَ فارسَ قريش وشاعرهم ، ولم يكنْ في قريش أشعرَ منه ، حتى إنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ كان يُعْجَبُ بشعرِهِ لما فيه من حماسةٍ ومروءةٍ ومعانٍ وفضائلَ؛ فقد قال السَّائب بنُ يزيد: بينما نحنُ مع عبدِ الرحمن بنِ عوف ـ رضي الله عنه ـ في طريقِ الحجّ ، ونحنُ نؤمُّ مكّةَ اعتزلَ عبدُ الرحمن بنُ عوف الطَّريقَ ، ثمَّ قال لرباحِ بنِ المغترف: غَنِّنَا يا أبا حسَّان ـ وكان يحسن النَّصبَ ـ ، فبينما رباحٌ يغنيهم ، أدركهم عمرُ بنُ الخطاب في خلافَتِهِ ، فقال: ما هذا؟!

فقال عبدُ الرحمن بنُ عوف: ما بأس بهذا ، نلهو نقصِّرُ عنّا سفَرنا.

فقال عمرُ: فإنْ كنتَ آخذاً ، فعليكَ بشعْرِ ضرارِ بنِ الخطّاب[1] وهذا يدلُّ على إعجابِ النّاس بشعر ضرار ، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ، وعبد الرّحمن بن عوف.

* ومن أشعارِهِ الجميلةِ التي تزيّن سيرتَه ، وتشيرُ إلى بطولتِهِ وفروسيّته ، وتدلّ على أنَّه كان فارساً وفاتحاً وشجاعاً يحمي الذّمار ، تلك الأبيات اللاميّة التي قالَها عندما قادَ جيشاً منَ المسلمين لفتحِ منطقة ماسبذان وأسَرَ قائدَ الفرس:

ويومَ حبَسْنَا قومَ «آذين» جنْدَه	وقطراته عند اختلافِ العَوامِلِ
وزُرْدَ وآذيناً وفَهْداً وجمعَهم	غداةَ الوغىٰ بالمرهفاتِ الصَّواقلِ
فجاؤوا إلينا بعد غب لقائِنا	بماسبذانَ بعد تلكَ الزَّلازِل

* ولضرار أشعارٌ أخرى منثورةٌ في المصَادر[2] ، وهي تدلُّ على فحولتهِ ، وشهرتهِ ، وفروسيّته.

---

(١) انظر مثلاً: البصائر والذخائر (١/ ٤٦ و ٤٧). والوافي بالوفيات (١٦/ ٣٦٣).

* أمّا عن وفاتِه فمن المرجّح أنَّه توفي في خلافةِ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حوالي سنة (١٧ هـ) أو بعدَها بقليل. ولئن سكتَ التَّاريخُ بعد ذلك عن ذكْرِ أخبارِ ضرار ، لقد روىٰ كثيراً من محاسنِه في الفروسيّة والفتوحات ونصرةِ الإسلام ، فرضيَ اللهْ عن ضرار بنِ الخطاب ، وجعلَه في مستقرّ رحمته.

* * *




عمرو بن معدي كرب

* شاعر مشهور ، وفارس مغوار قبل الإسلام وبعده.
* شُهِد له بالقوة والشجاعة والبأس الشديد.
* صحابي معروف، يتصف بأخلاق فاضلة، وقوة نفس لا تُضاهى.






الـفـارسُ الـسَّيِّـد :

* هذا الفارسُ الشَّاعرُ واحدٌ منْ أئمةِ المشهورينَ منْ فرسانِ الطَّبقةِ الأولىٰ منَ المُخضرمينَ الذينَ اشتهروا في الجاهليةِ والإسلامِ ، وهو صاحبُ الغاراتِ والوقَائعِ المذكورةِ في تاريخِ الفُرسان في الجاهليّة والإسلام؛ وهو منْ مَذْحجٍ ، وفارسُ زَبيد وسيّدُها وشاعرهَا قبلَ الإسلام وبعدَه ، وله وفادةٌ علىٰ رسولِ الله ﷺ ، وكان شُجاعاً من فرسانِ العَرب المذكورينَ ، إنَّه عمرو بنُ معدي كرب بنِ عبد اللهِ بنِ عمرو الزَّبيدي[1] ، وكنيتُهُ أبو ثَور ، ينتهي نسبُه إلى قَحْطان ، وهو ابنُ خالَةِ الزِّبرقان بن بدر التَّميميّ .

* قالَ أبو نُعيم عن عمروٍ : له الوقائعُ المذكورةُ في الجاهليّةِ ، وأدركَ الإسلامَ ، فقدمَ علىٰ النَّبي ﷺ وعلَّمه التَّلبيةَ ، ولهُ في الإسلامِ بالقادسيّةِ بلاءٌ حَسَنٌ حين بعثَه عمرُ ـ رضي الله عنه ـ إلى سعدِ بنِ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ ، وكتبَ إليه أنْ يصْدُرَ عن مشورتهِ في الحربِ[2] .

* وقالَ ابنُ سعد : كان عمروُ فارسَ العَربِ .

---

(١) الإصابة (٧/ ١٤٤ ـ ١٤٨) ، وطبقات ابن سعد (٥/ ٥٢٥ و ٥٢٦) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠١ ـ ٣١٠) ، وسمط اللآلي (١/ ٦٣) ، وخزانة الأدب (٢/ ٤٤٤) ، والاشتقاق (ص ٤١١) ، والمفضليات (ص ٤٠٥) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٥) ، وقطوف الريحان (ص ٧٢ ـ ٧٤) ، وسرح العيون (ص ٤٣٦ ـ ٤٤٥) ، والأخبار الموفقيات (ص ١٦٦ و ٤٨٠ و ٤٨٢ و ٦٢٦) ، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٥١) ، وبلوغ الأرب (١/ ١٣١ ـ ١٣٤) ، والأغاني (انظر الفهارس) وغير ذلك من مصادر لا تحصى .

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠٢).

* وقال ابنُ قُتيبةَ: وكان عمرو منْ فرسانِ العربِ المشهورين بالبأسِ في الجاهليّة ، وأدركَ الإسلام[1] .

* كانتْ شجاعةُ عمرو بن معدي كرِب مُعترفاً بها بين فرسانِ العربِ في الجزيرةِ العربيّةِ جميعِها ، فقد كان طائِرَ الصِّيتِ في الفُروسيّةِ ، وقُدِّمَ على كثيرٍ منْ مشاهيرِ فُرسانِ عصرِه؛ قال أبو عُبيدة: كان عمرو بنُ معدي كرب فارسَ اليمنِ وهو مقدَّمٌ على زيدِ الخيلِ أحدِ فُرسانِ العرب المشهورين في الشِّدَّة والبأْس[2] .

* وعمرو هذا تحيطُ به السِّيادةُ والفروسيّةُ والرِّفعةُ من جميعِ الجوانب ، وتدلُّ أخبارهُ على أنَّ معدي كرب كانَ سيِّداً خطيراً وجيهاً في قومِهِ ، ومنْ ذوي الرِّئاسةِ والزَّعامةِ فيهم ، وكانَ معروفاً بالنَّجدةِ والفُروسيّةِ؛ وأمُّ عمروٍ وأمُّ أخيهِ عبدِ الله امرأةٌ منْ جرم ، من قُضاعة ، من بني الحارثِ بنِ كعب ، وكانت قد ارتحلتْ مع قومها إلى بني زَبيد هرباً من ثأرٍ لبني الحارث[3] ، وأمُّ عمروٍ هذه معدودةٌ منَ المُنجبات[4] .

* ويظهرُ منَ الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عن فارسِنا اليوم ، أنَّه قد نشأَ نشأةً لاهيةً ناعمةً في حجرِ أمِّه ، فلم يكنْ يلتفتُ إلى الفروسيّةِ ولا إلىٰ صهواتِ الجيادِ ، وإنّما كانت حياةُ الشَّرابِ روحَ حياتِه وحياةَ روحِهِ ، بالإضافةِ إلى أنَّه كانَ نهماً أكُولاً ، لذلك لم يجدْ فيهِ والدُهُ بغيتَه ، ولم

---

(١) انظر: الشعر والشعراء (١/ ٣٧٢).
(٢) الأغاني (١٤/ ٢٤) ، وانظر: الفروسية العربية في العصر الجاهلي (ص ٦٤) لسيد حنفي ، سلسلة اقرأ رقم (٢١١) ، واقرأ سيرة زيد الخيل في هذا الكتاب.
(٣) خزانة الأدب (٢/ ٤٢٢) ، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٤٠).
(٤) معاهد التنصيص (٢/ ٢٤٠).

يتوسمْ فيه نجابةَ الفُرسان ، وأطلقَ عليه لقَب «المائق»[1] ، فكان أنْ عُرِفَ بمائقِ بني زَبيد .

* ترىٰ هل بقيَ عمروُ بنُ معدي كرِب مائقَ بني زَبيد؟! هذا ما ستكشفُه لنا سُطور الصَّفحات التَّاليات .

فَارِسُ زَبَيْد:

* ظلَّ عمرو بنُ معدي كرب لاهياً عابثاً أكولاً منْصَرِفاً إلى اللهو والشَّراب ، لا يأْبَهُ لعظائمِ الأمورِ أو صغائرِها ، إلىٰ أنْ تعرَّضَ ذاتَ مرَّةٍ لتجرِبَةٍ صَقَلَتْهُ ، وعجمَتْ عودَه ، وجعَلَت اسمَه عالياً في فضاءِ الفُروسيّة ، وفسيحِ الشَّجاعة والبأْسِ ، بعد أن كان اسمُه مائقَ بني زبيد[2] .

* ففي قصّةٍ مفادُها أنَّ قبيلةَ خثْعم أرادتْ أنْ تغزوَ بني زبيد ، وبلغَ معدي كَرِب ذلك ، فجمعَ قومَه بني زبيد ، وتأَهَّبتْ القبيلةُ جميعها لصدِّ الخثعميّين وردّهم وردْعِ عدوانهم .

* ونُميَ الخبرُ إلى عمروٍ ، فجاءَ إلى أختِهِ فقال: أشبعيني فإنَّ غداً الكتيبةُ! .

* فلمّا جاءَ والدُ أخبرتْهُ ابنته بقولِ عمروٍ ، فاستنكرَ أبوهُ ذلك ، واستكثرَ عليه اهتمامه بالكتيبةِ فقال: هذا المائقُ يقولُ ذلك؟!

قالت: نعم يا أبي ، يبدو أنَّه مستعدٌّ لذلك .

قال: يا بُنيّة ، إذاً سَلِيْهِ ما يشبعُه .

* فسألتْ عمراً فقال: فَرْقٌ من ذُرَةٍ ، وعَنْزٌ رباعيّة . فصُنِعَ له ذلك ،

---

(١) «المائق»: الأحمق الذي لا رجاء فيه .

(٢) معاهد التنصيص (٢/ ٢٤٠).

وذُبح العنزُ ، وهُيىءَ له الطَّعام[1] ، فجلسَ حتى أتــى عليه جميعه ، ثمَّ نامَ .

* وجاءَ الصَّباحُ ، وأرسلتِ الشَّمسُ أشعَّتَها الفضيَّةَ على ديار بني زَبيد ، فإذا بخثعم قد أتتْهم مغيرةً ، واشتدَّ القتالُ ، واشتجرتِ الرِّماحُ ، واشتبكتِ السُّيوفُ ، ومنْ ثَمَّ استعرتِ الحربُ بينَ الفريقَيْن؛ فاستيقظَ عمرو ، ورفعَ رأسَه ، ونظرَ فرأىٰ لواءَ أبيهِ مرفوعاً ، فعادَ ونامَ .

* وبعد فترةٍ رفعَ رأْسه مرّةً ثانيةً ونظرَ ، فإذا بلواءِ أبيهِ قد زالَ ونَزَلَ ، فهبَّ مندفعاً نحو ساحةِ القتالِ كالنَّار المستعرةِ ، فلقيَ أباه منهزماً فقال له : انزلْ عن فرسِكَ فاليوم ظُلم .

فقال له أبوه : إليكَ عنّي يا مائِق ، واللهِ لا تصلحُ لشيءٍ! فنصحه جَمْعٌ منَ العشيرةِ وقالوا له : خلِّه أيُّها الرَّجُل وما يريدُ ، فإن قُتِلَ كفيتَ مؤونته ، وإنْ ظهرَ فهو لكَ وشرفٌ له وللعشيرةِ .

* فألقىٰ أبوه إليهِ سلاحَه ، فركبَ ورمىٰ خثعم بنفسه حتى خرجَ من بينِ

(١) جاءَ في أخبارِ عمرو بنِ معدي كرب أنّه كانَ أكولاً نهماً ، وقد جاءَ مرّةً عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وكانَ عمرُ يغدّي النّاس ، وقد جفّنَ لعشرة عشرة ، فأقْعده عمرُ مع عشرة ، فأكلُوا ونهضُوا ، ولم يقمْ عمرو ، فأقعدَ معه تكملة عشرة ، حتى أكلَ مع ثلاثين ثمّ قامَ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّه كانتْ لي مآكلُ في الجاهليةِ منعني منها الإسلامُ ، وقد صررْتُ في بطنِي صرّتَيْن ، وتركتُ بينهما هواء فَسَدَّه . فقال عمر : عليك حجارة من حجارةِ الحَرّة فَسُدَّه بهِ يا عمرو.
(الأغاني ١٤/ ٣١)
وعن الشَّعبيّ أنَّ عمرَ بَن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فرضَ لعمرو بن معدي كرب في الفيء ألفَيْن ، فقال له : يا أميرَ المؤمنين ، ألف ههنا ، وأومأَ إلى شقّ بطنه الأيمن ، وألفُ ههنا ، وأومأَ إلى شقَ بطنه الأيسر ، فما يكون ههنا؟ وأومأَ إلى وسطِ بطنه . فضحكَ عمرُ من كلام عمرو بن معدي كرب رضوان الله عليهما وزاده خمسمئة . (معاهد التّنصيص ٢/ ٢٤٣)

أظهرهم ، ثمَّ كرَّ عليهم ، وفعلَ ذلك مراراً ، فتشجَّعَ بنو زبيد وحملوا ، وهُزمتْ خثعمٌ ولاذوا بالـفِرار ، وقُهِروا ، فقيل لعمرو يومئذٍ «فارسُ زبيد»[1] .

* وهكذا أصبحَ عمرو فارسَ زبيدَ والعربِ ، كأنَّما اشترىٰ نفسَه وكرامتَه بهذه التّجرِبة الحقَّة التي غيَّرت مجرىٰ حياتِهِ ومكانتهِ في قومهِ ، وجعلتْه فارسَهم ومقدَّمهم بلا منازع .

* ومنذ تلكم الوقعة أخذتْ أخبارُ عمروِ بنِ معدي كرب تنتشرُ في الآفاقِ ، وراحتْ وقائِعُه ومغامراتُه ومغازيه تغزو قبائلَ العرب ، حتى أصبحَ الفارسَ المعلَّمَ المعروفَ الذي يخشىٰ لقاءَه الشُّجعانُ ، وغدا لا يَهَابُ أحداً من فرسانِ العربِ وصناديدهم .

* ولعلَّ عمراً قد جرَّب ألوانَ الفروسيّة مع شجعانِ العربِ وفرسانِهم ، وبارزَ مشاهيرهم حتى عَلِمَ مقدار شجاعتهِ ، وعُلِمَ مقدار ثباتِهِ ، وكان يقولُ في الجاهلية : لو سرتُ بظعينةٍ وحدي علىٰ مياهِ مَعدٍّ كلِّها ، ما خفتُ أنْ أُغْلَب عليها ، ما لمْ يلقَنِي حُرَّاهَا أو عَبْدَاها ، فأمّا الحرّان : فعامرُ بنُ الطُّفيل وعُتيبة بنُ الحارث بنِ شهاب؛ وأمَّا العبدان : فأسودُ بني عَبْس ـ يعني عنْتَرة ـ والسُّليك بن سَلكة؛ وكلُّهم قد لقيتُ ، فعامرُ سريعُ الطَّعنِ على الصَّوت ، وعُتيبة أوّلُ الخيلِ إذا غارتْ وآخرِها إذا آبَتْ ، وعنترةُ قليلُ الكبوةِ شديدُ الجلبِ ، والسُّليك بعيدُ الغارةِ كالليثِ الضَّاري[2] .

* وقد شهدَ لعمروٍ بالقوّةِ فُرسان أُولو قوّةٍ ، وأولو بأْسٍ شَديد ، وقد

---

(١) انظر : الأغاني (١٤/ ٢٤ و ٢٥) بتصرف ، وانظر : معاهد التّنصيص (٢/ ٢٤٠ و ٢٤١) .

(٢) انظر : الأغاني (١٤/ ٢٧) ، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٤٣) .

أثنىٰ علىٰ شجاعته العبّاسُ بنُ مرداس السُّلمي[1] ، وعندما سُئِل عمرو عن العبَّاسِ : ماذا تقول في العبّاسِ بنِ مرداس؟

قال : أقولُ فيه ما قال فيَّ :

إِذَا ماتَ عمروٌ قُلْتُ للخَيْلِ أوطئوا زَبيداً فقد أَوْدىٰ بنجديها عمرو[2]

شَجَاعَتُهُ وَأَخْلاقُهُ :

* لا شكَّ في أنَّ الشَّجاعةَ عمادُ الفَضائِل ، وذرْوَةُ المكارمِ ، ومَنْ فقَدَها لم تكتملْ فيه فضيلة ، ويعبَّرُ عنها بالصَّبْرِ وقوّةِ النَّفس .

* وقد وصفَ لنا الأخباريّون جانباً من شجاعةِ عمرو بنِ معدي كرب الزَّبيدي ، وذكروا أنَّه كان ذا قوّةٍ جسديّةٍ خارقةٍ وضعَتْه بينَ مصافِّ الشُّجعان الذين شهدتْ عمالقةُ الفروسيّة لهم بالبَسالةِ والقوّةِ والضَّخامة . وقد رُويتْ عن شجاعةِ[3] عمروٍ أخبارٌ أشْبَهَ بالأسطورةِ منها بالحقيقةِ والواقعيّةِ ،

---

(١) العبّاسُ بنُ مِرداس بنِ أبي عامر بن حارثة السُّلميّ ، ويكنىٰ أبا الهيثم ، وإيّاه يعني أخوه سُراقة بقولهِ يرثيه :
أعيـنُ ألا ابْكـي أبـا الهيثـم وأذري الـدَّمـوعَ ولا تَسْـأَمـي
وأمُّه الخنساءُ الشّاعرة بنتُ عمرو بن الشَّريد السُلميّة . وكانَ العبّاسُ فارساً شاعراً شديدَ العارضةِ والبيَان ، سيّداً في قومهِ من كِلا طرفَيْه ، وهو مخضرمٌ أدركَ الجاهليّة والإسلام ، ووفدَ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فلمّا أعطى المؤلّفة قلوبهم فضَّلَ عليه عُيينةَ بنَ حِصْن والأقرعَ بنَ حابس ، فقامَ وأنشده شِعْراً قالَه في ذلك ، فأمَر بلالاً فأعطاه حتى رضيَ. وأخبارُ العبّاسِ بنِ مرداس مشهورةٌ منتشرةٌ في كتبِ الأدب والتّاريخ وغيرها ، وقد استوفىٰ الأصفهاني في أغانيه معظمها . (الأغاني ١٤/ ٢٩٤ ـ ٣١٢).
(٢) انظر : الأغاني (١٤/ ٢٧).
(٣) الشَّجاعةُ عندَ اللقاءِ على ثلاثةِ أوْجُه :
الأوّلُ: رجلٌ إذا التقىٰ الجمعان، وتزاحفَ العَسْكران، واكتحلتِ الأحداقُ بالأحداقِ، برزَ منَ الصَّفِّ إلى وسطِ المعتركِ ، يحملُ ويكرُّ وينادي : هل منْ مبارز؟
الثَّاني : إذا نشبَ القومُ واختلطوا ، ولم يَدْرِ أحدٌ منهم مَنْ أين يأتيه الموتُ ، يكونُ =

ومعظمُها تدلُّ على شدَّتهِ وضخامتهِ ونهمهِ حتى بعد أنْ جاوزَ مئة عام .

* رُوي أنَّ رجُلاً جاءَه وهو واقفٌ على فرسٍ له بالكنَاسَةِ ، بعد أنْ جاوزَ المئة ، فقالَ الرَّجلُ في نفسِه : لأنظرنَّ ما بقيَ من قوّةِ أبي ثَور ، وأدخلَ يَدَه بين ساقَيْه وبينَ السَّرجِ ، وفَطِنَ عمرو فضمَّهما عليه ، وحرَّكَ فرسَه ، فجعلَ الرَّجُل يعدو مع الفَرس ، وهو لا يقدرُ أنَّ ينتزعَ يده ، حتى إذا بلغَ منه ، قال عمرو : يا بنَ أخي ، ما لَكَ؟!

قال : يدي تحتَ ساقِك!

فخلّىٰ عنه وقالَ له : يا بنَ أخي ، إنَّ في عمِّك لبقيّة[1] .

* وقد هيّأَتْ لعمروٍ خلائقه الجسمانيّة إلى جانبِ شجاعته وجرأته ، وحبّه للمغامرة أنْ يكونَ الفارسَ الذي لا يُفَضَّلُ عليه فارسٌ من العرب[2] . ولذا فقد كانَ سيِّدنا عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ مُعجباً بشخصيّته وهيكَلِهِ ، وكان إذا رآه عجبَ وتعجَّب منه ويقولُ : الحمدُ للهِ الذي خلقَنَا وخلقَ عمراً ، تعجّباً من عِظَم خلْقِهِ[3] .

= رابطَ الجأش ، ساكنَ القلب ، حاضرَ اللبّ ، لم يخالطْه الدّهش ، ولا تأخذهُ الحيرةُ ، فيتقلّبُ تقلبَ المالكِ لأموره ، القائمِ على نفسه .
الثَّالِث : إذا انهزمَ أصحابُه يلزمُ السَّاقَةَ ، ويضربُ في وجوهِ القوم ، ويحولُ بينهم وبينَ عدوّهم ، ويقوّي قلوبَ أصحابهِ ، ويُرَجّي الضّعيف ويمدّهم بالكلام الجميل ، ويشجّع نفوسَهم ، فمَنْ وقعَ أقامَه ، ومَنْ وقفَ حملَه ، ومن كبَا به فرسُه حَماهُ حتى ييأسَ العدوُّ منه ، وهذا أحمدُهم شجاعةً . وعن هذا قالوا : إنَّ المقاتلَ من وراءِ الفارّين كالمستغفر من وراء الغَافلين ، ومن أكْرم الكرم الدّفاعُ عن الحرم .
(المستطرف ٢/ ٥٦ و٥٧) طبعة دار صادر المحققة

(١) انظر : الأغاني (١٤/ ٣٠) طبعة دار الكتب بمصر عام (١٣٢٢ هـ) ، وانظر : معاهد التنصيص (٢/ ٢٤٨) ، وبلوغ الأرب (١/ ١٣٢) .
(٢) الإصابة (٥/ ٢) .
(٣) الأغاني (١٤/ ٢٧) .

* وكانتْ لعمروٍ أخلاقُ البدويّ في الشَّجاعةِ والنَّجدة ، مع بعضِ الإسرافِ في تصويرِ بطولتهِ إلى درجةِ التّهويل .

* وترسمُ كتبُ الأدبِ والأَسْمارِ والأخبارِ قَصَصاً طريفةً في مبالغةِ عمرو في ذكْرِ شجاعَته وفروسيّته ، ومنها أنَّه كان يذهبُ مع الأَشْرافِ إلى الكوفَةِ يتناشدون الأشعارَ ، ويتذاكرونَ أيَّامَ النَّاس كعادتِهم .

* وقفَ مرّةً إلى جانبِ خالدِ بنِ الصَّقعب النَّهديّ ، وأقبلَ عليه يحدّثُه ويقولُ : أغرتُ على بني نَهْدٍ، فخرجوا إليَّ مسترعفينَ بخالد بنِ الصَّقعب وهو يتقدَّمهم ، فطعنْتُه طعنةً فوقعَ ، وضربتُهُ بالصَّمصَامةِ حتى فاضَتْ روحه .

فقال له الرّجلُ : يا أبا ثور : أنَا مقتولك الذي تحدِّثُ!

فقال عمرو : اللهمّ غفراً ، إنّما أنتَ بِمُحَدَّثٍ فاستمعْ ؛ إنّما نتحدّثُ بمثلِ هذا وأشباهه ، لنرهبَ هذه المعدّية[1] .

* ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ الرِّواياتِ التي وصلتْ إلينا عن عمروٍ قد بالغتْ في تصويرهِ كاذباً ؛ ويبدو أن حبَّ الفخرِ كان يدفعُه إلى شيءٍ منَ المبالغةِ في القولِ ، خصوصاً أنَّ الصِّراعَ والتَّنافُسَ كان مستمراً بين القحطانيّة واليمانيّة في العَصْر الجاهليّ ، ولهذا كان عمرو يُغَالي في وصْفِ فروسيّتهِ وجرأتهِ ، ومنْ هُنا سُئِلَ خَلَفُ الأحمرُ ـ الرّاويةُ المشهورُ ـ عن ذلكَ فقال : كانَ عمرو يكذبُ باللسانِ ويصدقُ بالفعَال[2] .

* ولهذا يتألّفُ شعرُهُ الذي وصلَ إلينا في المقامِ الأوّلِ من شعرٍ في الحربِ ، وشعرٍ في الفَخْرِ بقبيلته . قال عنه ابنُ قُتيبة : وعمرو أحدُ مَنْ

---

(١) الأغاني (١٤/ ٣١) ، ويريد بالمعدية : العدنانيين من العرب أبناء معدّ بن عدنان .
(٢) معاهد التّنصيص (٢/ ٢٤٨) .

يَصْدُقُ عن نفسهِ في شعرِه[1]. وكان المرزبانيّ يراهُ منَ الفحولِ، بينما الأصمعيُّ لم يجعلْهُ منَ الفحول.

* ولعلَّ عمراً قد أثَّرت فيه عصبيّتُه القحطانيّةُ ضدَّ المُضريّةِ، فدفعَهُ ذلك إلى التَّهويلِ والإغراقِ والمبالغةِ.

* ومنَ الطَّبيعيِّ أنَّ فارساً كعمرو بنِ معدي كرب يعرفُ مقدارَ الفُرسان، فلا يقدرُ أنْ ينكرَ شجاعتَهم ومقدرتَهم أو تغلُّبَهم عليه إنْ جمعَتْ بينهما الأيَّام.

* فقد ذكروا أنَّ ربيعةَ بنَ مُكدَّم أحدَ فرسانِ العربِ وفتيانِهم وصناديدهم، قد طعنَ عمروَ بنَ معدي كرب فألقاهُ عن فرسِه وأخذَ فرسَه، وأنَّه لقِيَهُ مرّةً أخرى فوقعتِ الضَّربةُ في قربُوسِ السَّرج، فقَطعَتْه حتّى عضَّ السَّيف بكائبةِ ـ جَسَد ـ الفَرس، فَسَالَمه عمرو وانْصَرف[2].

---

(١) الشّعر والشّعراء (١/ ٣٧٣).

(٢) ذكرَ هذه الحادثة الزّبيرُ بنُ بكّار في «الموفقيّات» فقال ما مفادُه: أغارَ عمرو بنُ معدي كرب على كنانةَ، وانتهى إلى قبابٍ عظيمةٍ، وإبلٍ وغنمٍ، وانتهىٰ إلى قبّةٍ عظيمةٍ، وكشفَ عن جاريةٍ مثلَ المَهاة، فبكتْ وقالتْ لعمروٍ وقد عرفَتْه: أبكي على جوارٍ أترابٍ لي وهُنَّ في هذا الوادي، فهبطَ عمرو الوادي على فرسهِ، فألفىٰ رجلاً يخصفُ نعْلَه، فلمّا رآه علمَ أنَّ الجاريةَ قد خدعته، ولمّا رآه الرّجل قامَ غير مكترثٍ إليه وحملَ عليه وهو يقول:

قــد علمــتْ إذْ منحتنــي فــاهَــا ... ولحقتنـــي بكــــرةً ردَاهــــا
إنّــي ســأحمـي اليـومَ مِـنْ حمـاهـا ... يـا ليـتَ شعـري مـا الـذي دهـاهـا

فأجابَه عمروُ بنُ معدي كرب:

عمـروٌ علـى طـولِ السّـرى دهـاهَـا ... بـالخيـلِ يـزجيهـا علـىٰ وجَـاهَـا
حتى إذا حلَّ بها احتواهَا

ثم حملَ عمرو عليه وهو يقول:

أنــا ابــنُ عبـد اللهِ محمــودُ الشّيــم ... مُــؤْتَمــنُ الغيـبِ وفــيٌّ بــالــذّمــم
مِنْ خيرِ من يمشي بساقٍ وقدم

فحملَ عليه وهو يقول: =

* وهكذا تخلَّصَ عمرو منَ الغرورِ في أكثرَ من موقفٍ ، ولم يكنْ متهوِّراً رغمَ شجاعتِهِ وقوّتِهِ؛ يُروى أنَّ الصِّمةَ بنَ بكرِ الجُشَميّ ـ أبو دُريد بن الصِّمة ـ قد أغارَ في بني قيسٍ على بني زَبيد ، فاستاقَ أموالَهم وإبلَهم ، وسبىٰ فيمن سبىٰ أختَ عمرو ريحانةَ ، فتبِعَه عمروٌ ومعه أخوه عبدُ الله ابنا معدي كَرِب ، ثمَّ رجعَ عبدُ اللهِ واتّبعه عمرو وحْدَهُ ، وأخذَ يناشِدُ الصِّمةَ بنَ بكر أنْ يخلّيَ عن أختِهِ فلمْ يفعلْ ولم يستجبْ له ، فلمّا يئسَ رجعَ وهي تناديه بأعلىٰ صوتها: يا عمرو! يا عمرو! ولم يقدْر على انتزاعها منْ أسرِها ، فقال وصوتُها يتردَّدُ في نفسِهِ وسمْعِه:

أمِنْ ريحانةَ الدَّاعي السَّميعُ	يُؤرّقُني وأَصْحَابي هُجوعُ
سَباها الصِّمةُ الجُشَمي غَصْباً	كأنَّ بياضَ غرّتها صديعُ
وحالَتْ دونَها فُرسانُ قَيسٍ	تكشَّفُ عن سواعدِها الدّروعُ
إذا لم تستطعْ أمْراً فدَعْهُ	وجاوزْه إلىٰ ما تستطيعُ
وكيفَ تريدُ أنْ تُدعى حكيماً	وأنتَ لكلّ ما تهوىٰ تبوعُ
أشابَ الرّأسَ أيامٌ طوالٌ	وهمٌّ ما تبلغه الضّلوعُ[1]

* ومنَ الملاحظِ في هذهِ الأبياتِ الجميلةِ أنَّها منَ الشِّعْرِ المغنّىٰ ، ولعلَّه قد زِيْدَ في أبياتِها ، حيثُ تحفلُ بالعاطفةِ الصَّادِقَةِ الجيّاشة ، وإن كانتْ مسربلةً بالحزنِ واليأسِ ، ولكنّا مع هذا كلِّه نلمحُ صدْقَ عمرٍو مع

= أنا ابنُ ذي الأفيال أفيال البهم مَنْ يلقني يُودِ كما أودتْ إِرَم
أتركهُ لحماً على ظهرْ وضم
ثن تشَابكا ، وكاد الرّجلُ يظهرُ على عمرو ، ثم عرفَ عمرو أنَّه ربيعة بن مكّدم ، فتسالما وانصرفَا ارجعَيْن كلٌّ إلى قومه. (الأخبار الموفقيّات ص ٤٨٢ ـ ٤٨٥) بتصرّف واختصار.

(١) الإصابة (٢/ ٢٠) ، والأغاني (١٤/ ٣١) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٧٤) وغيرها كثير.

نفسهِ وعواطفِهِ ، كما نلمحُ الصَّراحَةَ الواضحةَ دونَ مغالطةٍ ، إذ لا يمتلكُ النَّجاةَ لأختهِ الأسيرةِ ، لذلك يلقي هذه التّجرِبة الحياتيّة من خلالِ هذه الحكمة:

إِذَا لَـمْ تَستَطِـعْ أمْـراً فَـدَعْـهُ وَجَـاوِزْهُ إلَـىٰ مـا تَسْتَطِيـع

* ولعلَّ منْ أخلاقِ عمرو الصَّراحة المطلقةَ ، وهذه أخلاقُ الفارسِ العربيّ الذي يعرفُ أقدارَ الفُرسانِ ومقدارَ شجاعتهم ، فهاهو يتحدَّثُ بصراحةٍ تامَّةٍ عن فرارِه ، حيثُ لم يجدْ بذلك عَيباً أو نقصاً ، إذِ المقامُ يقتضي ذلك ، لأنَّه يشعرُ بأنَّه لا يستطيعُ أنْ يستمرَّ في قتالِ بضعةِ فوارس أُولي بأسٍ شديدٍ وشجاعةٍ نَادِرةٍ.

* فالحربُ تستوجبُ في بعضِ الأحيانِ الفرار والهزيمة إذا شعرَ الفارسُ بدائرةِ الحربِ تدورُ عليهِ ، وعلمَ أنَّ بقاءَهُ في المعركةِ لا يكسبُه إلاّ القَتْل أو الأَسْر ، وهذا ما يدفعُه إلى الفرارِ منَ المعركةِ.

* وكانَ بعضُ الفرسانِ يدافعونَ عن فرارِهم هذا ، ويضْفُونَ عليه طابعاً منَ الشَّرعيّةِ ، ويدعمون دفاعهم بالحججِ والبراهين ليسوّغُوا لأنفسهم ذلك دون أنْ يجدوا في هذا الدِّفاعِ غضاضةً أو أمْراً يدعو إلى الخَجلِ ، فقالوا: الفرارُ في وقْتِهِ خيرٌ من الثَّبات في غيرِ وقتِه[1]. وقالوا أيضاً: الحِمَامُ في الإقدام ، والسَّلامةُ في الإحجام[2]. فهم لا يفرّون لأنَّهم جُبناءُ ، فهم شجعانٌ ، ولكنَّهم يَرَوْنَ أنَّ القتالَ لا يجديْهم نَفْعاً ، وإنَّ استمرارَهم في القتالِ يعني ورودهم موردَ الهلاكِ ، وذلك لاستحالةِ مقاومتهم أو كثرةِ خصومهم.

---

(١) انظر: نهاية الأرب للنّويري (٣/ ٣٥٠).
(٢) المصدر السابق بنفسه.

* فقد كان عمرو لا يجدُ غضاضةً من فرارِه في يومٍ من الأيّامِ ما دامتْ له مآثرُهُ في الأيّامِ الماضيّةِ. فقد حدَّثُوا أنَّه لقيَ مرَّةً بني عبس في أبطالِهم، ففرَّ هارباً وولّى ولم يعقّبْ، وقد سجَّلَ هذا التَّصرُّفَ بقولهِ يخاطبُ أخته ريحانةَ وقد فرَّ منْ بني عبس:

أجاعِلةٌ أمّ الثُّويرِ خزايةً عَليَّ فِراري إِذْ لقيتُ بني عَبْسِ
لَقيتُ أبا شَاسٍ وشَاساً ومالِكاً وقَيْساً فجاشَتْ منْ لقَائِهمُ نفْسي
لَقونا فَضمُّوا جانبيْنَا بِصَادقٍ منَ الطَّعنِ مثل النَّارِ في الحطَبِ اليَبْسِ
ولمّا دخلْنَا تحتَ فيءِ رماحِهم خبطتُ بكفي أطلبُ الأرضَ باللمسِ
وليس يُعابُ المرءُ منْ جُبْنِ يومهِ إذا عُرِفَتْ منه الشَّجاعةُ بالأمْسِ[1]

---

(١) انظر العقد الفريد (١/ ١٤٦).
يقولُ الجاحظُ: وقد يفرُّ الأعرابيُّ في الحربِ، فلا يفرُّ بالجبنِ عنِ الأعداء، وبالنّكولِ عن الأكْفَاء، بل يُخْرِجُ لذلك الفرار معنىً، ويجعلُ له مذهباً، ثمَّ لا يرضى حتّى يجعلَ ذلك المفخَر شعراً، ويشْهَرَه في الآفاق، قال مالكُ بنُ أبي كعب الخزرجي ـ شاعر جاهلي ـ في الفرار:

معاذَ الإلهِ أنْ تقولَ حليلتي ألا فرَّ عنّي مالكُ بنُ أبي كعبِ
أقاتلُ حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا عُمَّ الجبانُ من الكربِ

يقول: أنا وإنْ ولّيتُ هارباً حينَ لا أجدُ مقاتلاً، فقد وليتُ ومعي عقلي.
ـ وأتمُّ الفرسانِ في الحرب آلةً مَنْ عرفَ المفرّ كما يعرفُ المكرّ، يقولُ: فَلَسْتُ كمن يستفرغُه وَهَل الجبان، ولا كالذي يُعْجَلُ فيلجمُ ذنَبَ فرسهِ ويركبُه مشكولاً ـ شدَّ قوائمه بحبل ـ ويركلُه برجلهِ وهو مقيّدٌ، وينزلُ عن ظهرِه، ويظنُّ أنَّ سعيَه على رجلهِ أبلغُ من ركضِ فرسه في النّجا، قال زيدُ الخيلِ:

أقاتلُ حتى لا أرىٰ لي مقاتلاً وأنجو إذا لم ينجُ إلا المكيَّسُ
ولستُ بذي كُهرورةٍ غير أنّني إذا طلَعَتْ أولىٰ المغيرةِ أعبسُ

وقالَ الحارثُ بنُ هشام:

اللهُ يعْلَمُ ما تركتُ قِتالَهم حتَّى رمَوْا فرسي بأشقرَ مُزْبدِ
فَصددتُ عنهم والأحبَّةُ فيهم طمعاً لهم بعقاب يومٍ مُفْسِدِ=

* ولعلَّنا نعرفُ شيئاً من خلائقِ عمرو من خلالِ قوله :

لَيْسَ الجمالُ بمئزرٍ ... فاعْلَمْ وَإنْ رُدِّيتَ بُردا
إنَّ الجَمالَ مَآثرٌ ... ومَنَاقِبٌ أُورثْنَ حَمْدا[1]

* فلقد أرادَ عمرو منْ قولهِ هذا بأنَّ الجمالَ ليسَ فيما يُلبسُ من الثِّيابِ والخزِّ والحريرِ، ولكنَّ الجمالَ الحقيقيَّ للإنسانِ في أصولهِ الزّكيّةِ الزَّاكيةِ، ومنبتهِ الطَّيِّبِ الكريمِ، وأفعالِهِ الفاضلةِ التي تورثُ الشَّرفَ والمجدَ والرِّفْعةَ .

عَمْرو الصَّحَابيُّ الفَارِسُ :

* عمرو بنُ معدي كرِب الزّبيديُّ واحدٌ منَ الذينَ رضيَ اللهُ عنهم ، وهداهمْ إلىٰ الإسلام والدِّينِ الحنيفِ ، فقد كانَ له وفادةٌ علىٰ رسولِ الله ﷺ حيث قَدِمَ المدينةَ فأسلم[2] ، ثمَّ ارتدَّ بعدَ وفاتِهِ ﷺ فيمن ارتدَّ باليمنِ ، ثمَّ

= وعلمتُ أنّي إنْ أقاتل واحداً ... أُقْتَلْ ولا يضررْ عدوّي مشهدي
يقول: ليسَ منَ الصّواب أنْ أقفَ موقفاً أقاتلُ فيه باطلاً. وقال عمرو بنُ معدي كرب:
ولقَدْ أملأُ رجليَّ بها ... حذرَ الموتِ وإنّي لغرور
ولقد أعطِفُها كارهةً ... حين للنّفس من الموتِ هَرير
كلُّ ما ذلك منّي خلقٌ ... وبكلٍّ أنا في الرّوع جدير
فزعمَ أنَّ الفرارَ من أخلاقِهِ ، كما أنَّ الإقدامَ منْ أخلاقه .
(البرصان والعرجان ص ١٧ ـ ١٩)

(١) انظر : سرح العيون (٤٤٣).

(٢) ذكر العبّاسيُّ قصَّة إسلام عمروِ بنِ معدي كرب ومفادُها: أنَّ عَمْراً قدمَ في رجالٍ من بني زَبيد علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقال له: حيَّاكَ إلهُكَ أبيتَ اللّعْن. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لعنةَ اللهِ وملائكتهِ والنّاسِ أجمعين على الذين لا يؤمنون باللهِ واليومِ الآخر، فآمِنْ باللهِ يؤمنك يومَ الفزع الأكبر» فقال عمرو: وما الفزعُ الأكبر؟!
فشَرحَ ﷺ لهُ أهوالَ القيامةَ.
فقال عمرو: إنّي أسمعُ أمْراً عظيماً. =

هاجرَ إلى العراقِ فأسلمَ ، وشهد القادسيّة ، وله بها أثرُه وبلاؤه[1] ، كما كان له يومُها اليَد البيضَاءَ والبلاءَ الحسنَ والذّكْرَ المشهورَ ، حمل على فيلِ الأعاجمِ وعليه رسْتُم كبيرُ جيشِ الفُرسِ ، فجذَمَ عرقوبَيْه ، وسقطَ الفيلُ إلى الأرضِ ، وقُتِلَ رسْتُم ، وتمَّتِ الهزيمةُ ، وكانَ الفتحُ[2] .

* وتروي كتبُ السِّيرةِ النَّبويّةِ قصَّةَ إسلامِ عمرو بنِ معدي كَرب ، فتقولُ ما مفادُه : إنَّ وفْدَ زبيد قدمُوا علىٰ رسولِ الله ﷺ وعلى رأسِهم عمرو بنُ معدي كرب ، فأسلمَ وأسلمَ قومُه ، وكانَ عمرو قال لقيسِ بنِ مكْشوح المُرادي : يا قيسُ ، إنَّكَ سيّدُ قومِك ، فانطلقْ بنا إلى محمّدٍ لنبلوَ أمرَهُ ونعلمَ علْمَه ، فإنْ كان نبيّاً كما يقولُ ، فإنَّه لَنْ يخفىٰ عليك ، فأبىٰ عليه قيسٌ وسفَّه رأْيَه ، فجاءَ عمرو وأسلمَ ، فلمّا علمَ قيسٌ قال : خالَفنِي وتركَ أمري ورأيي ، وتوعَّد قيسٌ عَمْراً ، فقال عمرو منْ أبياتٍ :

فَمَنْ ذا عاذِري مِنْ ذي سِفَاهٍ ... يريد بنفسِهِ شدَّ المِزَاد
أُريدُ حَياتَهُ ويُريدُ قَتْلي ... عذيرَكَ مِنْ خليلِكَ مِنْ مُرادِ

* ولنستمعْ إلى قصّةِ إسلامِ عمروِ بنِ معدي كرب في هذه الأبيات الرّقيقات :

وفدَ الفارسُ الذي تَفْرُقُ الأَبْطَـ ... ـالُ منه وتَفْزعُ الفُرسَانُ
جاءَ عمروٌ وأيُّ قَرمٍ كعمروٍ ... حِيْن تُدعىٰ القُرومُ والشُّجعانُ
مالَهُ في الرِّجال كفؤٌ إذا مَا ... حَمِيَ الضَّربُ واسْتَحرَّ الطِّعَانُ

= فقالَ رسولُ الله ﷺ : «يا عمرو أسلمْ تَسْلَم» .
فأسلمَ وبايعَ لقومهِ على الإسلام ، وكان ذلك منصرفَ رسولِ الله ﷺ من تبوك ، وكانت في رجبَ سنة تسع من الهجرة (معاهد التّنصيص ٢/ ٢٤١) بتصرف .

(١) انظر : الشّعر والشّعراء لابن قتيبة (١/ ٣٧٢) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠١) مع الجمع والتصرّف .

(٢) قطوف الريحان (ص ٧٢) .

قَـالَ يـا قيسُ أنـتَ سيّـدُ قـومٍ ليـسَ فيهـم لغيـركَ اليـومَ شَـانُ
سِرْ مِعي ننظُرُ الـذي رَاحَ ينهـىٰ أنْ تُقـام الأَصْنَـامُ والأوثــانُ
إنّــهِ إنْ يكُــنْ نبيّــاً فلَــنْ يخـ ـفَـىٰ عَليْنـا الـدَّليْـلُ والبُـرهَـانُ
ومـنَ الحـقِّ أنْ يكـونَ مُطـاعـاً فعلَيْنــا الــوَلاَءُ والإيْمــانُ
قالَ يا عمروُ هَل أصَابكَ مَسٌّ فتَمــادىٰ الهــراءُ والهــذَيــانُ
مـا أنَـا بـالـذي يَليـنُ عِنَـانـي لابْـنِ أُنثـى إنْ لاَنَ منْـكَ العِنَـانُ
ذَهَـبَ الفـارِسُ الـزَّبيـديُّ فـرداً وتقضَّــىٰ البــذاءُ والبهتــانُ
يَطْلبُ السَّاحَةَ التي يُطلبُ الخَيْـ ـرُ بـأرجـائِهـا ويُـرجـى الأمـانُ
مَهْبِطُ الوحيْ يرتعُ الرُّوحُ فيها كُــلّ حيــنٍ ويَسْطــعُ البُــرهــانُ
رضــيَ البِــرَّ والمــروءةَ دينــاً فصَفَــتْ نفسُــه وطــابَ الجنــانُ
زالَ عنه الأذىٰ فما خَطْبُ قيسٍ إنَّ قيســاً لثــائِــرٌ حَــرَّانُ
قــالَ يــا ويحَــهُ آمــرُه أَمْـ ـــري فمِنْــهُ الإبَــاءُ والعِصْيَــانُ
لأُذيقَنَّــه الجَــزاءَ أليمــاً فَيـرىٰ مَـوضِعـي وكيـفَ يُـدانُ
هكـذا تَصْنَـعُ الجَهـالـةُ بـالنَّـا سِ فتَعْمــىٰ العُقــولُ والأذهــانُ
ومنَ النَّاسِ مبْصِرونَ يَروْنَ الحـ ـقَّ حقّــاً ومنهــمُ عمْيَــانُ[1]

* وتعالَ معي أيضاً، نقرأ قصّة إسلامِ عمرو في هذا النَّظم الأنيقِ الجميل:

أخْبـارُ خَيـرِ الخَلْـقِ فـي سَمْـعِ الجـزيـرةِ أَجْمعيـن
وَصَلتْ إلى أسماعِ عَمـ ـرِوٍ هَـبَّ كَيْمـا يَستَبيـن

(١) انظر: ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٤٥٥ و ٤٥٦) بتصرف يسير.
و«القرم»: السّيد العظيم الكريم. و«استحرّ»: اشتد. و«الهراء»: الكلام الكثير الفاسد. و«الهذيان»: التكلم بغير معقول. «لان عنانه»: انقاد. «تقضَّى البذء»: انتهى الفحش والسفه. «الروح»: جبريل. «الجنان»: القلب. «يدان»: يُجازى ويحاسب.

نَادىٰ علىٰ قَيْسِ بنِ مكـ ـشوحٍ زعيمِ الحَاضِرين
قَـد قَـالَ يـا قيـسُ أَلَـمْ تَسْمـعْ مقـالَ القَـائليـن
رجُــلٌ أتَــتْ أخْبَــارُهُ مِـنْ مكَّـةَ البَلَـدِ الأَميـن
فِيْــهِ النُّبُــوّةُ يــدَّعيْـ ـهـا مِـنْ إِلَـهِ العَـالَميـن
يــا قَيْــسُ إنّــكَ سَيِّــدٌ في القَومِ ضِمْنَ المُكْرَمين
فَلْنَنْطَلِــقْ حتّــى نَــرا ه ونَعْلَـمَ العِلْـمَ اليَقيْـن
إِذْ مــا عَلمْنــا صِـدْقَـه فَلْنَتّبِعْــــهُ مُبــادريْـــن
لكــنَّ قَيْســاً قَــدْ أبــىٰ أنْ يَسْتجيـبَ ويستكيـن
عَمـروٌ أتـىٰ للمُصْطَفـىٰ فـي قَـومِـهِ كـالـوافِـديـن
قـد أعْلنُـوا الإسـلامَ بيـ ـنَ يديهِ صَاروا مُسلمين
وأقـامَ عمـروٌ فـي زَبيـ ـدٍ قـومِـهِ فـي الآمنيـن
المُصْطَفــىٰ لبّــىٰ نــدا ءَ الحـقِّ بَيْنَ الخَـالِـديـن
فَـارْتـدَّ عمـروٌ بَعْـدَ مَـو تِ محمّدٍ في الكَافِرين
لكنَّـــه قـــد عَـــادَ لـ ـلإسْلامِ عَـوْدَ التَّـائبيـن
هــو شَــاعِـرٌ ومُقَـاتِـلٌ في الحَربِ ليسَ لهُ قَرين

* وعمرو بنُ معدي كرب قد روى حديثاً عن رسول الله ﷺ ، وروىٰ عنه شراحيلُ بنُ القعقاع ، وشَهِدَ اليرموك[1] .

* عن شراحيلِ بنِ القعقاع قال: قال عمرو بنُ معدي كرب: الحمدُ للهِ ، لقد كُنَّا من قريبٍ إذا حججنا قُلنا: لبيك اللهمّ ، لبيك تعظيماً إليك عذراً ، هذي زَبيد قد أتتكَ قَسْراً ، يقطَعْن خبّاً ، وجبَالاً وعْراً ، قد تركُوا الأندادَ خِلواً صفْراً ، يقطعْن من بين غضيٍّ وسمراً .

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠١)؛ وقال الهيثم بن عدي: أصيبت عينه يوم اليرموك.

* ونحنُ اليوم نقولُ كما علَّمنا رسولُ اللهِ ﷺ: «لبيكَ اللهمَّ لبيكَ ، لا شريكَ لكَ لبيك ، إنَّ الحمدَ والنِّعمة لك والمُلك ، لا شريكَ لك».

* وإنْ كنَّا لنمنعُ النَّاسُ أنْ يقفُوا بعرفةَ ـ وذاك في الجاهليّةِ ـ وإن كانَ موقفُهم ببطنِ مُحَسَّر عشيّة عرفةَ فَرَقاً منْ أنْ يخطفَنا الجِنُّ ، فقال لنا رسولُ اللهِ ﷺ: «أجيزوا بطْنَ عُرَنَةَ فإنّما هم إذا أسلموا إخوانكم»[١].

* وقالَ أبو نعيم عن عمروٍ وإسلامه: له الوقائعُ المذكورةُ في الجاهليةِ ، وأدركَ الإسلامَ ، فقدمَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ وعلَّمه التَّلبيّة ، وله في الإسلامِ بالقادسيةِ بلاءٌ حَسَنٌ حين بعثَه عمرُ إلى سعد بنِ أبي وقّاص ، وكتبَ إليه أنْ يصدرَ عن مشورتِه في الحربِ[٢].

* وخاضَ عمرو بنُ معدي كرب غمارَ القادسيّة ، وشرىٰ وباعَا ، وكانَ لسيفه غنَاءٌ وأيّ غنَاء ، وقد شهدَ له بذلك أحدُ فرسانِ القادسية قال: فنزلْنَا يوماً اشتدَّ فيه القتالُ بيننا وبينَ الفُرس ، فرأيتُ رجُلاً يفعلُ بالعدوِ يومئذٍ الأفاعيل ، قلتُ: مَنْ هذا جزَاهُ اللهُ خيراً؟!

قيل: عمروُ بنُ معدي كَرِب[٣].

* ويروي أبو عُبيدة أنَّ عمروَ بنَ معدي كرب حملَ يومَ القادسيةِ على مرزبانٍ ، وهو يرىٰ أنَّه رسْتُم ، فقتلَه ، فقال في ذلك:

أَلمِمْ بسَلْمى قبلَ أنْ تَظْعَنا ... إنَّ لسلمىٰ عنْدنَا دَيْدَنا
قَدْ عَلِمتْ سلمىٰ وأشياعُها ... مَا قَطَّرَ الفارسَ إلاّ أنَا
شككتُ بالرُّمحِ حيازيمَه ... فالخَيلُ تعدو رهباً بينَنا[٤]

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠١).
(٢) المصدر السابق (١٩/ ٣٠٢).
(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠٤).
(٤) المصدر السَّابق (١٩/ ٣٠٥).

* ويوم القادسية فعلَ عمرو الأفاعيل بالفُرس ، فقد كان عمرو يخطبُ النَّاس يومَها ويقول: أيُّها النَّاس ، كونوا أشدَّ حذراً إذا برزَ إلى أحدكم قِرنه ، فلا يَكِلْهُ إلى غيره ، إنَّ هؤلاء ـ معشرَ الأعاجم ـ إذا لقي أحدهم قِرنَه فهو تَيْس!

فبينما هو يحرضُهم ويرتجزُ ويقولُ:

أنـا أبـو ثَـور وسيفـي ذُو النّـون   أضـربُهـم ضـربَ غـلامٍ مجنـون

يَـالِ زبيـد إنَّهـم يمـوتـون

إذْ جاءتْه نشَّابَةٌ أصابَتْ قربوسَه فحملَ على صاحبها ، فأخذَه أخْذَ الجاريةِ ، فوضَعه بين الصَّفين ، ثمَّ احتزَّ رأسَه ، وقال: اصنعُوا هكذا[1].

* ويروي عمرو نفسُه فروسيته وما صنعَ بالفُرسِ وبالفيلةِ يوم القادسيّةِ ، فيقول: كانتْ خيلُ المسلمينَ تنفرُ من الفيلةِ يومَ القادسية ، وخيلُ الفرسِ لا تنفرُ ، فأمرتُ رجُلاً فترّسَ عنّي ، ثمّ دنوتُ منَ الفيلِ فضربتُ خَطْمه ، فقطعتُه ، فنفرَ ونفرتِ الفيلةُ ، فحطمت العَسْكَر ، وألحَّ المسلمون عليهم حتّى انهزموا[2].

* وكانَ عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ يعدُّه بمقامِ ألفِ فارس ، وذكرَ ابنُ حجر في «الإصابةِ» أنَّ عمراً حملَ يوم القادسيّة وحْدَه ، وجعلَ يضربُ الفُرسَ حتى لحقَ به المسلمون ، وقد أحدقَ به الأعداءُ وهو يضربُ فيهم بسيفِه ، فنحُّوهُم عنه[3].

* وكان لعمرو طريقةٌ بارعةٌ وعجيبةٌ في قتالِ الفُرس ، فقد كان يقاتلُ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠٦).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) الإصابة (٥/ ١٩).

فارساً ، ثمّ يقتحمُ عن فرسِه ، فيربطُ مقْوَده في حقْوِه ، فيقاتلُ آخر ، وهكذا كانَ يفعلُ بالعدوِّ الأفاعيل[١] .

* ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ عمراً كانَ في هذهِ الفُروسيّة ، وقد بلغَ منَ العمر عتيّاً ، وعمرُه يقتربُ من قَرْنٍ أو تجاوزَه بقليلٍ ، فقد كانَ ضخم الجثّة ، وكان آخر قومهِ في عبورِ نَهْر القادسيّة ، وفرسه تئِنُّ من ثقله[٢] .

* وكان سعدُ بنُ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ يثني على عمروٍ مع إعجابٍ بفروسيته ، فقد أوفده سعدٌ بعد فتحِ القادسيّة إلى عمرَ بنِ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ فسأله عمرُ عن سعد ، فقال عمرو : يا أميرَ المؤمنين ، هو لهم كالأَبِ ، أعرابيٌ في نَمِرَتهِ ، أسدٌ في تامورته[٣] ، نبطيٌّ في حبْوتهِ ، يقسم بالسَّوية ، ويعدلُ في القضية ، وينفرُ في السَّرية ، وينقلُ إلينا حقّنا ، كما تنقُلُ الذّرة[٤] . فقال عمر ـ وقد كان كتبَ إليه سعد يثني على عمرو ـ : لشَدَّ ما تقارضتما الثَّناء[٥] .

عَـمْـرو والـحَـرْبُ وَالـسِّـلاح :

* عمرو بنُ معدي كرب منْ فرسانِ العربِ المشهورين بالبأسِ والشِّدَّة والنَّجدةِ وقوّة الشّكيمةِ ، وقد خاضَ وقعاتٍ كثيرةً في حياتهِ ، حتى دُعيَ فارسَ العربِ لكثرةِ ما علمَ بواطنَ الحربِ وخباياهَا وزوايَاها .

* وفي ثنايا الحديثِ عن المعاركِ والوقائعِ سألَ عمرُ بنُ الخطَّاب عمراً ـ رضي الله عنهما ـ عنِ الحربِ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هي مرّةُ المذَاق ،

---

(١) الأغاني (١٤/ ٢٨).
(٢) الأغاني (١٤/ ٢٨).
(٣) «تامور» : عرين الأسد.
(٤) «الذرة» : النملة الحمراء الصغيرة.
(٥) انظر : الشعر والشعراء (١/ ٣٧٣).

إذا قلَّصتْ[1] عن ساق ، مَنْ صَبرَ فيها عُرِف ، ومن ضَعُفَ عنها تَلف ، وهي كما قال الشَّاعر :

الحَـرْبُ أوّلُ مـا تكـونُ فتيـةً	تسعـىٰ بـزينتهـا لكـلِّ جَهُـول
حتّى إذا استعرتْ وشبَّ ضِرامُها	عـادتْ عجـوزاً غيـر ذاتِ خَليـل
شَمطـاءُ جـزَّتْ رأسَهـا وتنكَّـرتْ	مكـروهـةٌ للّثـمِ والتَّقبيـل[2]

* وفي نفحةٍ أخرىٰ من نفحاتِ المعرفةِ الحربيّةِ يسألُ سيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب عمرو بن معدي كرب عن السِّلاح وألوانهِ وأنواعهِ وأشكالهِ وصفاتهِ ومهمّاتهِ في الحربِ واستخداماته ، حيث إنَّ السِّلاحَ روحُ حياةِ الفارسِ وحياةُ روحِه ، والسِّلاحُ عمادُ قوّتهِ وبقائِه في البَادِية .

* ومنَ الواضحِ أنَّ العربَ قد عَمِلُوا على تحسينِ أسلحتهم سعياً إلى المنفعةِ، ومحافظةً على أنفسهم ، ومقارعةً لأعدائهم ، وقد جاءَ اهتمامُهم بها للأسبابِ التي دفعتهم إلى الاهتمامِ بالخيلِ ـ كما مرَّ معنا في بعضِ مواضعِ هذا الكتاب ـ. فالسِّلاحُ عند العربي موضعُ تقديرٍ وإجلالٍ، ومثارُ احترامٍ وتقديس.

* ومنَ الطَّبيعي أنْ يتحدَّثَ الفرسانُ عن أسلحتِهم ، لأنَّها القوّةُ التي يستندون إليها في حياتِهم ، والعنصرُ الأساسُ الذي تعتمدُ عليه بطولاتهم ، والأسلحةُ التي يتحدَّثُ عنها الفُرسان لا تخرجُ عن نطاقِ الأسلحة التي عرفَها العَصْر الجاهليُّ ، سواء أكانت أسلحة هجوم: كالسَّيفِ والرُّمحِ والقوسِ والسَّهْم؛ أمْ أسلحة دفاع : كالدّرع والتّرس والمِغْفَر والبيضة.

* ولم يكنِ الحديثُ الذي يتحدَّثُ به الفُرسان عن هذه الأسلحةِ حديثاً عابراً ، وإنّما هو حديثُ المناجاةِ والإعجاب ، حديث الاهتمام بكلّ جزء

(١) «قلصت» : شمرت.

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٣٧٣) ، وانظر : سرح العيون (ص ٤٣٩).

من أجزائها ، وبكلّ ميزة من ميزاتها ، الحديثُ الذي يصفُ مضاءَها وقوّتَها ، ويصفُ عنصرَها وجوهرَها ، ويتحدَّثُ عن حبِّه لها ، وقيمتها بالنِّسبةِ لحياته ، هذا الحديثُ الذي كانَ يخرجُ من قلبهِ خالصاً دقيقاً ، فيصبحُ أغنيةً عذبةً يتمثلُها في مواضعِ الشِّدَّة ، ويتغنّى بها في ساحاتِ القتالِ ، ويسْمَرُ بها في مجالسِ الرِّجال.

* لذلك أجابَ عمروُ بنُ معدي كرب عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن السِّلاح بقوله: يا أميرَ المؤمنين ، الرُّمح[1] أخوك وربّما خانَك؛ والنَّبْلُ منايا تخطىءُ وتصيبُ ، والتُّرسُ هو المِجَنُّ وعليه تدورُ الدَّوائر ، والدّرع

---

(١) «الرّمح»: إنَّ الرمح مِنْ أسلحةِ الفارسِ الحَذِق ، وقد كانَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يقولُ: «عليكم بالقنَا والقسيّ ، فيها نُصِرَ نبيّكم ، وفُتِحَ لكم في البلاد».
وسُئِلَ أعرابيٌّ عن أحبِّ الرمّاح إلى نفسهِ فقال: المارِنُ المثقّفُ ، المقوّمُ المخطّفُ ، الذي إذا هززْتَه لم يتعطّفْ ، وإنْ طعنْتَ به لم يتقصَّف.
ثم سُئِلَ عن أبغضِ الرّماحِ إليه فقال: الأعصلُ عند الطِّعان ، المثلم السِّنان ، الذي إذا هززْتَه انعطف ، وإذا ضربتَ به انقصف.
وللرّمحِ أوصافٌ عدّة تبعاً لأوصافِه: فهو صعدة إذا كانتِ العصَا قد نبتتْ مستوية ، وهو لَدْنٌ ومارِنٌ إذا كان ليناً؛ وسمهريّ إذا كان شديداً؛ وصدقٌ إذا كان صُلباً ، وكذلك فصَّل العربُ أجزاءَه ، وأعطوا لكلّ جزءٍ اسماً.
فالرّمحُ يضارعُ السَّيفَ رفعةً وتعظيماً ، ولم تكنْ أهميتهُ أقلَّ منْ أهميّةِ السَّيف بالنِّسبةِ للفارسِ في المعركةِ ، فهو كثيراً ما يُذكرُ مع السَّيفِ ، قال عمرو بنُ كلثوم:

نطاعنُ ما تراخىٰ النّاسُ عنّا ... ونضربُ بالسّيوف إذا غشينا
بسُمْرٍ من قنا الخطيّ لدن ... ذوابل أو ببيضٍ يختلينا

وقال عنترةُ:

فطعنتهُ بالرّمحِ ثمّ علوتُه ... بمهندٍ صَافي الحديدةِ مخذمِ

وقال عمرو بنُ معدي كرب:

أعددتُ للحربِ فضفاضةً ... دِلاصاً تثنّى علىٰ الرّاهِش
وأجردَ مطرداً كالرّشاء ... وسيف سلامةَ ذي فائِش

مشْغَلةٌ للفَارس ، متعبةٌ للرَّاجل ، وإنّها لحصْنٌ حصين[١] .

* لقد كانَ اهتمامُ الفرسانِ واضحاً بالرّمحِ ، ولذلك بدأ فيه عمرو بنُ معدي كرب وشبّهه بالأخِ ، وبهذا يظهرُ اهتمام العربِ بالرّماح ، وأصولها فقالوا: رِماحاً يَزَنيّة ، وهي الرّماح التي تنْسَبُ إلى ذِي يزن[٢] ، وقالوا: رماحاً خطيّة ، وهي الرّماحُ التي تُنْسَبُ إلى الخطّ ، وهو موضعٌ باليمامة[٣] ، أو مرفأ السُّفن بالبحرين. وقالوا: رماحاً رُدينية ، وهي الرّماح التي تُنْسب إلى امرأةٍ تسمى رُدينة كانت تقوِّمُ القَنا بخطّ هَجَر ، وكان زوجها سَمْهَر يقوّم الرّماح أيضاً ونُسِبَ إليه نوع منها[٤] .

* وقد كانتِ العربُ تذكرُ القناةَ الصُّلبة التي لا تلينُ ، ولا تقبلُ التّقويم والتَّثقيف ، لتضربَ بها المثل في الخلافِ والإباء والامتناعِ والتّعسُّر على مَنْ يريدُ إكرامهم ، والتّعصُّب على من يريد تليينهم ، أو الغضّ منهم. أمّا حديثهم عن صفاتِ الرّماح فهو يدلُّ على تفضيلهم الرّمح الأصمَّ اللين علىٰ الرّمحِ الأجوفِ. وكان الفرسانُ يميلونَ إلى الرِّماحِ متوسطة الطُّول ، حتى يتمكّنوا منَ السَّيطرةِ عليه. وكان بعضُهم يميلُ إلى استعمالِ الرِّماح الطَّويلة.

* ومن شدّةِ إعجابِ الفُرسان بالرّماح وضعوا لها أَسْمَاء كثيرةً ، فإنْ كانَ الرّمحُ مضطرباً فهو عَاسِل ، وإنْ كان شديدَ الاضطرابِ فهو عسَّال

---

(١) اشتهرت أسلحة منسوبة إلى أصحابها من مثل: سيف علي ، صمصامة عمرو ، سيوف الخوارج ، قوس حاجب ، سهام الترك ، عصا الأعرج.

(٢) المخصص لابن سيده (٦/ ٣٣).

(٣) صحاح الجوهري (٣/ ١١٢٣).

(٤) الصحاح (٢/ ٦٨٩) و(٥/ ٢١٢٢).

وعراص؛ وإن كان ليناً فهو لَدِن ، وإن كانَ شديداً فهو سَمْهريّ ، وإن كان صُلْباً لا ينثني فهو صدْق .

* وكان عمرو بنُ معدي كرب يجيدُ القتالَ بجميعِ أنواعِ الأسلحةِ التي عُرفَتْ في عَصْره ، بل إنّنا نلمحُ في تاريخِ الأسلحةِ الحربيّةِ عند فرسانِ العربِ صمصامته التي أخذتْ مساحةً واسعةً منَ الشُّهرة ، حتى نُسِبَتْ إليه فقيل : صمصامةُ عمرو[1] .

* وصمصامةُ عمرو بن معدي كرب أشهرُ سيوفِ العرب ، وبها يضربُ المثل في كرمِ الجوهرِ ، وحُسْنِ المنظرِ والمخبر ، والمضَاء والتَّصميم ، وكان عمرو ـ وهو فارسُ اليمن ـ حسنَ الاستعمالِ له في الجاهليّة ، كثيرَ العنايةِ به في الإسلامِ ، وفيه يقولُ منْ شعر :

سَنَانٌ ماحِقٌ لا عَيْبَ فيهِ وصمْصَامي يَصمُّ إلىٰ العِظَام

* لقد كانَ السَّيفُ أقربَ الأسلحةِ إلى نفسِ العربيّ ، لأنَّه لا يستطيعُ الاستغناء عنه ، ولأنّه يستعملُه في معظمِ الأغراضِ ، لذا فإنَّ سيفَ عمرو قد اشتهرَ في الجاهليّة حتى ضُرِبَ به المثَل في شدّة المضَاء وكرمِ الجوهرِ وحسنِ المنظر .

* قال عبدُ الله بنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ لبعضِ اليمانيّين : لكم منَ السَّماء نجمُها ، ومن الكعبةِ ركنُها ، ومن السُّيوفِ صمصامُها ـ يعني سُهيلاً ، والرّكن اليماني ، وصمصامةَ عمرو ـ .

* وممن تمثّل بها من المتقدّمين عَمَيْثَل بن جزيّ في قوله :

---

(١) يروى أنه كان مكتوباً على الصمصامة هذا البيت :

ذكرٌ علىٰ ذكر يصولُ بصارم ذكرٌ يمانٍ في يمين يماني

(المستطرف ٢/ ٨٤)

أغـرُّ كمصبـاحِ الـدُّجنَّـة يتّقـي قـذىٰ الـزَّاد حتّى يُستفـادَ أطـايبُـه
أَخٌ ماجدٌ مَا خَانَني يومَ مشهدٍ كَما سيفُ عمروٍ لم تخنْه مضَاربُه

* ولما وهبَها عمروُ بنُ معدي كرب لخالد بنِ العاص عاملِ رسولِ الله ﷺ على اليمن قال فيه عمرو:

خَليلٌ لَمْ أخنْه ولم يخنّي إذَا ما الخَطْبُ أنحىٰ بالعظامِ
خَليلٌ لم أهبْه عَنْ قلاءٍ ولكنَّ التَّواهبَ لِلكرامِ
حَبَوتُ به كريماً مِنْ قُريشٍ فَسُرَّ به وصِيْنَ عنِ اللئامِ
وَوَدّعتُ الصَّفيَّ صفيَّ نفسي على الصّمصام أضْعَافَ السَّلام[1]

* قال ابنُ عساكر: كان لعمرو سيفٌ يسمّيه الصِّمصامة[2].

* ولحُسْنِ استخدامِ عمرو للسّلاح في الحروبِ، كان سيّدنا عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ شديدَ الإعجابِ بذلك، وبفروسيةِ وشجاعةِ عمرو[3]، فعدَّه بألفِ رجل؛ فقد أخرجَ الطَّبراني عن محمد بنِ سلام الجمحيّ قال: كتبَ عمرُ إلى سعد: إنّي أمددتُك بألفي رجُل، عمرو بن

---

(١) ثمار القلوب (ص ٦٢١ و ٦٢٢)، وقطوف الريحان (ص ٧٣)، والجليس الصالح (١/ ٥٦٦). وممنْ وصفَ شجاعتَه بضربِ السَّيفِ والرّمحِ زيدُ بنُ عليّ حيثُ قالَ:
السّيفُ يعرفُ عزمي عند هزّته والرّمحُ بي خَبِرٌ واللهُ لي وَزَرُ
إنّا لنأملُ ما كانتْ أوائلُنا مِنْ قبلُ تأمله إنْ ساعدَ القدَرُ
وفي السَّيف قال ابن الرّومي:
يقضي له الدرهم حاجاته والسيف يحميه من الحيف
(ديوان ابن الرومي ٤/ ١٥٨٥)

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠٢).

(٣) حُكي أنَّ سيِّدنا عمر بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لعمرو بنِ معدي كرب: ابعثْ لي الصَّمصامة.
فبعثَ بهِ إليه، فلم يَرَهُ كما بلغَه، فقالَ له في ذلك، فقالَ: إنّي بعثتُ إليكَ الصَّمصامة، ولم أبعثْ لكَ باليدِ التي تَضْرِبُ به. (سرح العيون ص ٤٤٤)

معدي كرب ، وطُليحة بن خويلد[1].

وفـاةُ فَـارِسِ الـعَـرب:

* كانَ عمرو بنُ معدي كرب صحابيّاً جليلاً ، وفارساً باسِلاً ، ومؤمناً مُسلماً ، وشجاعاً مِقْداماً ، عملَ على إعزازِ الإسلامِ ، ونَصْر دينِ الله ، وأوذي في اللهِ ، قال ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: عمرو بن معدي كرب ذهَبَتْ عينُه يومَ اليرموك[2].

* نعم أبلىٰ عمرو بلاءً حسناً يومَ اليرموك ، وقيل عنه يومها: إنَّه كانَ أشرفَ رجل برزَ ، ذلك أنَّه خرجَ إليه علْجٌ فقتله ، ثمّ آخر فقتَلَه ، وهكذا. . . . . . وانهزمَ الرُّوم ، ولم يتوقفْ ، وتبعَهم حتى أفنىٰ جمعاً عظيماً منهم ، وعلى الرّغم من أنَّ عينَه قد أُصيبت يومَ اليرموك ، فإنَّ ذلك لم يثْنِهِ عن مواصلةِ الجهاد[3].

* أما عن وفاةِ عمرو ، فتذكرُ بعضُ الرّوايات أنَّه قد استشهدَ بالقادسيةِ ، أو ماتَ عطَشاً بها[4] ، وقيل: قُتِل في وقعةِ نهاوند. وقيل: أصيبَ يوم نهاوند بجراحةٍ أثْبَتَتْه فأخذَ عمرو ينشدُ شعراً يفخرُ به ببلائه وهو يُحتضَرُ ، ودهمَهُ الفالجُ أثناءَ ذلك ، فماتَ به عند قرية تُدعى «روذة» من قرىٰ نهاوند ، ودُفِنَ على قارعةِ الطَّريق ، فقالت امرأتُه الجُعْفيّة ترثيه:

لَقَدْ غَادرَ الرّكبُ الذين تحمّلُوا ... بِرَوْذَةَ شَخْصَاً لا جَباناً ولا غَمرا

فقُـلْ لـزَبيـدٍ بـل لمـذجـحَ كلِّهـا ... رُزِئتُم أبا ثورٍ قريعَ الوغى عَمْرا

---

(1) الإصابة (٧/ ١٤٦).

(2) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٣٠٢).

(3) الإصابة (٥/ ١٩).

(4) الأغاني (١٤/ ٣١) ، ومعاهد التّنصيص (٢/ ٢٥١) ، وقطوف الريحان (ص ٧٣) ، والإصابة (٧/ ١٤٧).

فَإنْ تجزعُوا لا يغْنِ ذلك عنكمو ولكنْ سَلُوا الرّحمنَ يعقبُكم صَبْرا[1]

* ومات فارسُ العربِ عمرو بن معدي كرب وعمره يزيدُ عن مئةِ عام[2] ، ماتَ فارسُ العرب الذي قال عنه أبو عمرو بن العَلاء: لا يفضلُ عليه فارسٌ في العَرب ، وماتَ الفارسُ المسلم المجاهدُ بعد أنْ رضيَ الإسلام ديناً ، فرضيَ اللهُ عَنْه وأرضَاه.

* * *

(١) انظر: معاهد التنصيص (٢/ ٢٥١). وقال السّيوطي: كان عمرو شاعراً مُحسِناً مشهوراً بالشَّجاعة ، قُتِلَ يومَ القادسيّة ، وقيل: ماتَ عطشاً يومئذ ، وقيل: جُرِحَ في وقعةِ نهاوند ، فحُمِلَ فماتَ بقريةٍ من قُراها يُقال لها: روذة سنة (٢١ هـ). (شرح شواهد المغني ١/ ٤١٩)
وقال ابن عبد البرّ: كانَ شاعراً محسناً ، وهو فحلٌ في الشَّجاعة والشِّعر.

(٢) قال المرزباني: ماتَ عمرو بن معدي كرب في خلافةِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقد جاوزَ المئة بعشرين سنة ، وقيل: بخمسين.
وفي كتاب «المُعمِّرين» لابن أبي الدنيا ، أنَّه بلغَ المئة والخمسين. وهناك أقوالٌ وآراءُ وردتْ في المصادر وتجمعُ على أنَّ عمراً من المعمرين.




الباب الثّالث
فرسان من العصر الإسلامي

جَحدر بن معاوية
سيف الدّولة الحَمْداني
عبد الرّحيم محمُود
قَطَري بن الفُجاءة
القعقاع بن عمرو
مَعن بن زائدة
يزيد بن مزْيَد







جَحدر بن معاوية

* بطل شجاع، وفاتك شاعر، وأريب متصعلك.
* كان فارساً في اليمامة وما حولها، وجمع حوله ثلَّة من الصعاليك.
* دخل السجن مراراً، ثم طواه الحجاجُ تحت جناحه.






الفَارِسُ الجَرِيءُ المُتَصَعْلِكُ:

* هذا فارسٌ شهدتْ له فوارسُ عَصْرِه بالجرأةِ والفروسيّة والإقْدام ، وكانَ بطَلاً شُجاعاً فاتِكاً فقيراً شاعِراً لَسِناً أريباً متصَعْلِكاً .

* عاشَ في العَصْر الأمويّ ، ذلك العصرُ الذي ظهرَ فيه فرسانٌ خلَّدهمُ التَّاريخُ ، وأرّخَ أفعالَهم الزَّمنُ .

* ومنَ العجيبِ في سيرةِ هذا الفارس الصّميدع ، أنَّه اشتُهِر باللصوصيّة في عالَم اللّصوص الذين اخترقَتْ أعمالُهم الآفاقَ في شتّى البقاع .

* وهذا الفارسُ الجريءُ هو جَحْدَر بنُ معاويةَ بنِ جعدةَ العكليّ[1] ، وقد غَلبَ عليه في معظمِ الرّوايات لقب جَحدر[2] اللص ، ممّا يدلُّ على شهرتِه باللصوصية ، وخطورتِه فيها ، ومكانتِه بينَ اللصوص وشذّاذِ الآفاقِ ، وقطّاعِ الطُّرق في العصر الأمويّ .

* وصفَه أبو عليّ القالي بقوله: وكان لصّاً مبرّاً . وفَسَّر القالي كلمة المبرّ: بالغَالِب .

---

(١) الأمالي للقالي (١/ ٢٧٧ و٣٧٨) و(٣/ ٥٣) ، والمحاسن والأضداد للجاحظ (ص ١٠٤ ـ ١٠٨) ومعجم ما استعجم (١/ ١١٤١) ، وألف باء (٢/ ٥٠١) ، والحماسة البصرية (٢/ ٤٨٨) ، وخزانة الأدب (٤/ ٤٨٣) طبعة مصر . وخزانة الأدب أيضاً (٧/ ٤٣٥ ـ ٤٣٨) و(١١/ ٢١٨ و٢١٩) طبعة بيروت ، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٠٧ ـ ٤١٠) والأخبار الموفقيات (ص ١٧١ ـ ١٧٥) ، والمستطرف (٢/ ٧٩ ـ ٨١) طبعة دار صادر المحققة ، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٤٨٦) وغيرها كثير .

(٢) «جَحْدر»: الرّجلُ القصيرُ الجعْدُ ، والأنثىٰ جحدرَة . وجَحَد له: إذا صَرَعه ، وجَحدر: اسمُ رجلٍ . (لسان العرب ٤/ ١١٨)

* وعندما رحْنَا نستدلُّ على نَسبِ جَحْدرٍ هذا ، ألفينا أنَّه ينسبُ نَفْسَه في شعْرِه إلى بني كعبِ بنِ عمرو ، بَيْدَ أنَّ معظمَ المصادرِ تنسبُه إلى بني حنيفة.

* وتشيرُ أخبارُ جحدرَ إلى أنَّه كانَ من صعاليكِ عَصْرِه الذين دوَّخُوا البلادَ والعبادَ ، ومنَ المعروفِ أنَّ الصَّعاليكَ طائفةٌ قديمةٌ في جزيرةِ العربِ ، كان لها خطرُهَا وأدبُها قَبْلَ الإسلام وبَعْدَه.

* وتمتازُ الصَّعلكةُ ـ خصوصاً في العصر الجاهليّ ـ بتحلُّلِها منَ الالتزاماتِ القبليّةِ ، وبمسؤوليتها وحْدَها عن جرائرِها ، وبتخلّي قبائلها عنْها ، ورفْضِها سلوكيتها وتَبعاتها[1].

* والصِّفَةُ العامّةُ لها ، هي الفَقْر والتّشرُّد والاعتمادُ علىٰ الذَّاتِ في طلبِ المعاشِ ، حيثُ إنَّ الصُّعلوكَ مَنْ لا مال له ولا اعتمادَ ، لذلك عملوا علىٰ انتهاجِ الغارة والنَّهب سبيلاً إلى الحياةِ والمعاشِ ، فكان طابَعُ الصَّعْلكةِ ـ على الأغلب ـ عُدوانياً سيّىءَ الأَثرِ في نفوسِ العربِ لما في أعمالِ الصَّعاليكِ منَ السَّلْبِ والفَتْكِ والضَّراوةِ والعُدوان ، فكانَ النَّاسُ إذا نَجَوُا منهم أعلنُوا فرحَتَهُم ، ومنْ ذلك ما أوردَه «البكريُّ» من أنَّ بعض التُّجَّار في مطْلَع العَصر الأمويّ قد أعلَنَ فَرحَه بنجاتِهِ منْ هؤلاء الصَّعاليك قُطَّاع الطُّرق ، برجز قال فيه:

اللهُ نجَّــاكَ مِــنَ القَصيــمِ ... وَبَطْــنِ فَلْــجٍ وَبنــي تَميــمِ
وَمِــنْ غُـوَيـثٍ فـاتـحِ العُكُـومِ ... ومــن أبــي حَــرْدَبَـةَ الأثيــمِ
وَمَــالِــكٍ وسَيفِــهِ المسمــومِ ... ومــنْ شظَـاظِ الأحمـرِ الـزَّنيـمِ[2]

---

(١) اقرأ هذا بتوسع في سيرة عروة بن الورد في هذا الكتاب.

(٢) معجم ما استعجم (٣/ ١٠٢٧) بتصرف يسير. و«القصيم وفلج»: أماكن معروفة في=

* وإذا كانتْ أهـدافُ بعـضِ الصَّعاليـك على جانبٍ من النُّبل ـ كعروةَ بنِ الورد العبسيّ الذي عُرِف بتعاهده الفُقراء ومساعدتهم ـ فإنَّ الغالبيةَ منهم كانتْ نفوسُهُم تنطوي على شرٍّ عظيمٍ وخطرٍ جسيم ، إذْ كانُوا لُصوصاً وقطّاعاً يباغِتُون النَّاس ، ويصيبونَ الطَّريق ، ويعتدونَ علىٰ أموالِهم وعلىٰ حياتِهم أحياناً ، ولذلك اقترنتْ في حياةِ بعضِ الرِّجال الجاهليّين والأمويين الصّعلكة باللّصوصية حتى لا تفريق بينهما ، وبالجريمةِ والشَّرِّ أحياناً.

* وتدلُّ أخبارُ اللّصوصيّةِ علىٰ نشاطِ هؤلاء ، وعلىٰ أعمالِهم الخطرةِ ، وآثارِهم المرعبةِ ، فقد كان فريقٌ منهم يوغلُ في السَّرقةِ ، واستئصالِ أموالِ النَّاس حتى لا يكادُ يبقي لمن يباغتُهم شيئاً ، وكان بعضُهم قد اختصَّ بأنواعٍ من السَّرقة ، ودَرَبَ عليها ، وتمرَّسَ بأساليبها وخَبِرَهَا ، كالخاربِ الذي يسرقُ الإبلَ خاصّة ، والممترس الذي يسرقُ الإبلَ والغَنم.

* وكان آخرونَ منهم يعتدونَ علىٰ الأعراضِ مع عُدوانِهم علىٰ النُّفوسِ والأموالِ ، ويسمّى مَنْ يفعلُ هذه الجريرة: الطّمل ، ومعناه: اللّص الفاسِق.

* وقد عظُمَ خَطَرُ هؤلاء ومَهرُوا في صناعتِهم حتّى صار لها فنٌّ متْقَنٌ متخصِّصٌ ، وحتى تحاماهمُ النَّاس وخشُوا غدراتِهم.

* وليستْ هذه النزعةُ قاصرةً على عَصر وعلىٰ أمّة دون غيرِها ، فهي منْ نزعاتِ الإنسانِ قديماً وحديثاً ، وكان لها أنصارُها في العُصور الإسلاميّة ، فقد عَرفَ العصرُ العبّاسيُّ طائفةً من المُجّانِ الذين كانُوا في حقيقتِهم

= الجزيرة. و«أبو حردبة ومالك بن الريب»: لصان مازنيان. و«شظاظ وغويث» من اللصوص المشهورين. و«العكوم» جمع عكم: الحبل يشد به المتاع.

صعاليكَ فيما يتّصِلُ بجانبِ الإنفاقِ واللهو؛ أمّا غيرُ هؤلاء فكانَ منْهُم ـ في مختلفِ العُصور الإسلاميّة في المُدنِ وفي خارِجها ـ جماعةُ الفتيانِ الشُّطَّار العيَّارين.

* وقد نمتْ ظاهرةُ الصَّعْلكةِ وترعرعَتْ في محيطٍ ساعدَ على نموّها وبقائِها، فالصَّعْلكةُ الموسومةُ بالفَتْكِ والإجرامِ تحتاجُ إلى بيئةٍ يسهلُ فيها الكرُّ والفَرُّ والاختفاءُ، وتكثرُ المادَّةُ، والجزيرةُ العربيّةُ عالَمٌ كبيرٌ متنوِّعٌ يجمعُ الأضْدَادَ من الخصبِ والجدبِ، والسَّهلِ والجَبلِ، والرَّحْلِ والحَضَرِ. وفيها الطَّرق التي تؤدّي إلىٰ الأماكنِ المقدّسةِ وإلىٰ الموانىءِ التّجارية. ومن ثمّ كانتْ في الجاهليّةِ والإسلام خيرَ مَسرحٍ للصَّعاليك واللصوص. ولعلَّ أحداثَها وما يحصلُ فيها من نزعاتٍ وخلافاتٍ وثوراتٍ قد وفَّرَ للصَّعاليك حظّاً من النَّشاطِ في عدلِهم، مع فتورِ الطَّلب عنهم أحياناً، فكانوا يسرحونَ ويمرحون، وإذا ما طُلِبُوا فإنّهم سرعان ما يخْتَفون في مغاراتِ الجبالِ، أو في الواحاتِ، أو في مجاهل الصَّحراء.

* ويمكننا أنْ نقولَ: إنَّ منْ أسبابِ هذه الصَّعْلكةِ هو الجوعُ والفقرُ والحرمانُ في الدَّرجةِ الأولىٰ، وهناك أسبابٌ أخرىٰ ذاتية، فثمّةَ أناس فُطِرتْ نفوسُهم علىٰ شيءٍ من الأَنَفةِ والعزّةِ، ولم يرتفِعُوا إلىٰ مناصبَ مرموقةٍ بالطُّرقِ الحميدةِ، فتمرَّدُوا وسلكوا سبيلَ الصَّعْلكة وقطعوا الطَّريق، وخالفوا العُرفَ والقانونَ، وأظهروا البأْسَ والقوّةَ، بيد أنَّ هذه الفِرقة منَ الرِّجال لم تفقدهم الصَّعلكةُ مزاياهم الأصيْلة، ولم تَقْضِ اللّصوصية علىٰ نوازعِ الخيرِ عندهم، خصوصاً إذا جاءَهم الظَّرفُ المُناسب، عندها نجدُ معظمَهم قد استقامت سيرتُه، كما سنقرأ في سيرةِ جَحْدر الذي هزَّتْه الظُّروفُ الصَّالحةُ فَلاَنَ واستقامَ، وخرجَ بعد محنتِه

إنساناً مُسْتَصْلَحاً مأموناً يَعْملُ في خدمةِ الخلافةِ الأمويّة بَعْد أنْ خافَتْه البِلادُ والتّجّار.

* ولا بأس أنْ نشيرَ إلى بعضِ مشاهيرِ اللّصوص والصَّعاليك المحترفين في عَصْر جَحْدر العكليّ، حتّى تتوضحَ الصّورةُ أكثر، وحتى تعمّ الفائدةُ بإذنِ الله، وحتّى نعرف بعضَ صُور حياةِ هؤلاء النَّاس فيما خَلا منَ الزّمانِ، فإنَّ المعرفَةَ تزيدُ المرءَ أدَباً وعِلْماً.

* فقد ظهرتْ طائفةٌ منَ الصَّعاليكِ اللصوصِ في عَصْرِ بني أميّة، وكان فريقٌ منهم يؤْثرونَ الموتَ على مذلَّة الفَقْرِ، ومنهم صعلوكٌ خطيرٌ يُدعى «أبو النَّشناش»، وكانَ أبو النَّشناش هذا لصّاً من لُصوص بني تميم، يعترضُ القوافِلَ في شُذّاذٍ من أمثالِه بين طريقِ الحجاز والشَّام فيجتاحُها، فظفرَ به بعضُ عمّال مروانَ، فحبَسه وقيَّده مدّة فقال:

وسَائِلة أينَ ارتحالي وسَائِلٌ ... ومَنْ يسألِ الصُّعْلوك أينَ مذاهبُه

مذاهبُه أنَّ الفِجاجَ عَريضةٌ ... إذا ضَنَّ عنه بالنَّوالِ أقارِبُه

إذا المرءُ لم يَسْرحْ سواماً ولم يرحْ ... سَواماً ولم يَبْسُطْ له الوجهَ صاحبُه

فللْمَوت خيرٌ للفتى منْ قعودِه ... عديماً ومنْ مولىً تُعَاف مشاربُه

* ولكن ثمّة فئةٌ غلبَ عليها الشَّرُّ والإيذاءُ، وذهبتْ في طريقِ التَّصعْلُكِ واللّصوصية من غيرِ ارعواءِ أو شعورٍ بالإثم، حتى غدا ذلك عندهم جبلَّةً وهوىً، ومن هؤلاءِ المحترفين رجلٌ يُدعى «تليد الضَّبي»، فقد دخَل السِّجْنَ في أيّامِ عمرَ بنِ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ، ويُسَلَّطُ عليه العذابُ، ولا يُرْفَعُ عنه حتّى يجهرَ بالتَّوبةِ، وهو مشغولُ النَّفْسِ بغيرِ هذا المَطْلَب، حيث كان يحلمُ أنْ يُطْلَقَ سراحُه، ويقودَ عصابتَه، فيغيرَ على أصحابِ الإبلِ والنَّعمِ يسرقُ ويستاقُ منها ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً، وقد عبَّر تليدُ الضَّبي هذا عن نوازِعهِ في أبياتٍ قال فيها:

يقُـولُـونَ جَـاهَـرنَـا تَلِيْـدٌ بتَـوبـةٍ   وَفي النَّفس منّي عودةٌ سأعوُدها
ألَا ليتَ شِعري هل أقودنَّ عُصبةً   قليـلٌ لـربِّ العَـالميـنَ سُجـودُهَـا
وهل أطْرُدنَّ الدهرَ ما عشْتُ هَجمةً   معرضةَ الأفخاذِ سبحاً خدودُهَا
قضَـاعيـةٌ حـم الـذُّرى فتـربعـتْ   حمى جرشٍ قد طارَ عنها لبودَها[1]

* وهناك متصعْلِكُون كانُوا مستعدّين للجريمةِ نتيجةَ الفَقْرِ ، فاحتضنُوا الآثامَ ، وكرهوا النَّاس ، ومالُوا إلى التَّفرُّدِ والتّوحُّشِ خوفاً ونفوراً منهم ، ولذلك كانَ موقفُهم ممن يلْقَون خالياً منَ الرّحمةِ ، يأمرُ فيه الحقْدُ وينْهىٰ ، ومنْ مشاهيرِ هؤلاء: المُرَّارُ الفَقْعَسيّ ، والسّمهريُّ الأسديّ ، وتليدُ الضَّبي ، وعطاردُ بنُ قران ، والأُصَيْمر السَّعديّ ، واشتُهِرَ كذلك طهمان الدّارميّ الذي كان لصّاً مشهوراً في خلافةِ سيّدنا معاويةَ بن أبي سفيانَ ـ رضي الله عنهما ـ وسُجِنَ في نجرانَ ، وأسَرَهُ الخَوارِج وقطعُوا يَدَه؛ ومن شِعْره ـ وهو في سجنِ نجرانَ ما تذكَّرَهُ مع تأبّده مع زميلٍ له لصّ من بني عَبْس ـ قوله:

وإنّي والعَبْسِيُّ في أرضِ مذحَجٍ   غـريبـانِ شتَّـى الـدَّارِ مُخْتَلِفـان
غَـريبـانِ مَجْفُـوّانِ أكثـرُ همِّنـا   وجِيْـفُ مطـايـانـا بكـلّ مَكـانِ
فَمنْ يَرَ مَمْسانا وملقىٰ ركابنا   مـن النَّـاس يعلـمْ أنَّنـا سَبْعـانِ

* وممن اشتُهِر في هذا المِضْمار أيضاً ، واشتُهِر له بيت في الوَحْشَة منَ النَّاس: الأُصَيمر السَّعديّ ، حيثُ كان لصّاً متفرّداً مُطارَداً في صَدْر الدَّولة العبّاسيّة ، يقول الأصيمر:

عَوىٰ الذّئبُ فاسْتأْنَسْتُ بالذّئبِ إذ عوىٰ   وَصَـوَّتَ إنْسَـانٌ فَكِـدْتُ أطيـرُ
رَأىٰ اللهُ أنّـي لـلأنيـسِ لَشَـانـىءٌ   وتبغضُهـم لـيْ مقْلـةٌ وضَمِيـرُ

(١) انظر: معجم البلدان: جرش.

* ومن قَبلِ الأُصيمر بزمنٍ نلمسُ هذه المشاعر نفْسَها عند صُعلوك لصّ يُدعى «عبيد بن أيوب العنبريّ» وكان منَ اللصوص زمنَ بني أميّة ، يقولُ عبيد :

لقد خفْتُ حتّى لو تمرُّ حمامةٌ ... لقلتُ عدوٌّ أو طليعةُ مَعْشَرِ
فأصبحتُ كالوحشيّ يَتبعُ ما خَلاَ ... ويتركُ مأنوسَ البلادِ المُدَعْثَرِ
إذا قيلَ خيرٌ قلتُ هذي خديعةٌ ... وإنْ قيل شرٌّ قلتُ حقّ فشمِّرِ

* هذا وأخبارُ هؤلاء كثيرة تكَفَّلَتْ كتُبُ الأدبِ بذكْرِها ، واكتفينا بهذا القَدْر ، كيما نعود إلى سيرةِ جَحْدرِ بنِ معاويةَ العكليّ الذي بدأنا معه رحلتنا في رحابِ فرسان التّاريخ .

الفَارِسُ الفَاتِكُ:

* في سيرةِ جَحْدرِ بنِ معاويةَ عِظَةٌ وعبرةٌ لفرسانِ الصَّعاليكِ في العَصْرِ الأمويّ ، فقد كانَ من قُطّاع الطُّرقِ ، وكانتِ اليمامةُ وما حولَها مَسْرحاً لِسَرقاتِهِ وصعلكته ، وكان يؤمنُ أنَّ القوّةَ والسَّطْوَ خيرُ سبيلٍ لتأمينِ المعاش ، وأنَّ طلبَ الرِّزقِ من غيرِ فروسيّة أو حربٍ نوعٌ منَ العجزِ ، ولذلك زعمَ جَحْدرُ أنّه كانَ لا يسرقُ إلا عند الحاجةِ الماسّة ، فإذا بليتْ ثيابُه ، سرقَ ناقةً ليبتاعَ ثمنَها كسوة ، ثمّ يعودُ فقيراً ، وكان يرىٰ أنَّ هذا شريعةَ الحياة ، يقول جَحْدَرُ في هذا :

وَإنَّ امرأً يعدُو وحجْرٌ وراءَهُ ... وجوٌّ ولا يعزوهُما لَضَعيفُ
إذا حلّةٌ أبليتُها ابتعَتُ حلّةً ... بِسَانيةٍ طوعُ القيادِ عليفُ
سعى العبدُ أثرى ساعةً ثمّ ردَّه ... تذكُّرُ تنورٍ له ورغيفُ[1]

* وكانت بطولةُ جَحدرٍ وفروسيتُه مثارَ إعجابِ الصَّعاليكِ في اليمامةِ

---

(١) معجم البلدان : جو .

وما حولَها ، فالتفُّوا حولَه ، وجعلُوه زعيماً لهم يخطِّطُ لهم السَّرقاتِ ، ومن ثمَّ يتقدَّمُهم في تنفيذِها ، وكان على ما يبدو محبّباً إليهم مُطاعاً فيهم ، فكانَ لهم مكانةٌ كبيرةٌ في نفسهِ ، حتى إنَّه ذكرَهم في أحْلَكِ لحظاتِ حياته وهو في سِجْنِ الحجّاج .

* وتدلُّ أخبارُ جحدرَ أنَّه لما وقَع في سِجْنِ الحجّاج وقبضته ، أحسَّ بالذَّنْبِ ، وعادَ إلى سجيّةِ المُسلم ، وتخلّى عن الصَّعلكة وطرقها .

* إنَّ الشعورَ بالذَّنب إحساسٌ روحيٌّ دِينيٌّ ، كان نتيجةً لمخالطةِ الدِّين الإسلاميّ نفوسَ بعضِ المارقين علىٰ الدَّولةِ الأمويّة في عَصْر جَحدر ، فقد تذوَّقُوا لذَّة الإيمانِ باللهِ ، وتأثّروا بالتَّشريع الإسلاميّ وحكْمِه وحكمتِه ، فعادوا إلى جادَّة الصَّواب لمّا زُهِقَ الباطلُ الذي كانوا يسلكُون دَرْبَه ، وهذا ما حدثَ للفارسِ الفاتكِ جَحْدر الذي آبَ وتابَ لمّا وقعَ في طائِلة الحجّاج بنِ يوسُفَ الثَّقفيّ وأودعَه السِّجْنَ . ومنْ بينِ جدرانِ سجنِ الحجّاجِ تفجَّرتْ ينابيعُ المودَّةِ والشَّاعريّةِ اللطيفةِ الهامسةِ من نفسِ هذا الفاتِكِ الجريءِ الذي ملأَ الدُّنيا وشَغَلَ النَّاس بأفعالِهِ .

* ونحنُ مرسلو القولَ في ذلك ، لنعلمَ أيَّ نفْس كانَ يحملُها جَحْدرُ بنُ مالك بطلِ اليمامةِ وفارسِ نواصيها .

* تروي المصادرُ المتنوِّعةُ التي رسمتْ قصَّة جَحدر ، وأبانَتْ شجاعَته فقالت :

* كانَ بأرضِ اليمامةِ رجلٌ منْ بني حنيفةَ يُقال له : جَحْدرُ بنُ معاويةَ ـ أو ابنُ مالِك ـ العكْليّ ، وكان جحدرُ بَطَلاً شُجاعاً فاتِكاً شاعِراً ، وكان شديدَ البأْسِ والمراسِ ، قويَّ الشّكيمةِ ، طارَ صيتُه في البلادِ حتى عمَّ

اليمامةَ وما حولَها من البلادِ ، وكانَ قد غَلَبَ على أهل حَجر[1] وناحيتها وما يليها ، فقهرهم وأخافَهم حتّى استولىٰ علىٰ قلوبهم.

* وبلغَ ذلك منْ أمرِه أنْ عاثَ في أرضِ اليمامةِ فَساداً ، ورتَع دونَ أنْ يخشىٰ شوكةَ الوالي أو السُّلطان.

* ونُميَتْ أخبارُ جَحْدَرٍ وقَصَصُ بطْشهِ إلى الحجّاج ، فكتَب إلى إبراهيمَ بنِ العربيِّ[2] عامِلِهِ علىٰ اليمامةِ يؤنِّبُه ويلومُه ويوبِّخُه علىٰ تلاعبِ جَحْدرٍ بهِ ، وبأهلِ اليمامةِ ومَنْ حولَها ، وبتغلُّبه عليهم؛ ثمّ إنَّ الحجَّاجَ أمرَه أنْ يعدَّ العدّةَ وأنْ يتجرَّدَ في طلبِ جَحدر ، ويجتهدَ في إنهاءِ أمْرِه بأي وسيلةٍ يقدرُ عليها ، وأنْ يبعثَ به أسيراً إنْ ظفرَ به ، أو قَدرَ عليه.

---

(١) «حجر»: عاصمة اليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالي. (معجم البلدان: حجر).

(٢) إبراهيمُ بنُ العربي كِنانيٌّ ، وأمُّه أنصاريّة فاطمةُ بنتُ شريك ، ربّتْ مروانَ بنَ الحكم ، وأنقذتْ حياتَه يومَ الدّار ، يومَ مقْتلِ عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه ، وكانَ ابنُها إبراهيمُ مع آلِ مروان ، واشتركَ في حروبِهم ، وكانَ بصيراً بالإدارةِ ، ذا درايةٍ بالطُّرقِ والنَّواحي ، وأنقذَ حياةَ الوليدِ بنِ عبد الملك في عهدِ أبيهِ يومَ كادَ أنصارُ عمرو بن سعيد الأشْدق يقضونَ عليه ، ولما استتبَ الأمْرُ لعبدِ الملك ولّاه اليمامةَ. وقبضَ إبراهيمُ على جَحدر ، فمدَحَه فلم يخْلِ سبيلَه وأرسلَه إلى الحجاج.
وكانَ إبراهيمُ والياً شديدَ الضّبط لولايتهِ اليمامةِ ، وهي مخوفةٌ بعيدةٌ عن عاصمةِ الخلافةِ ، فكافحَ فيها اللصوص ، ونشرَ الأمن ، وأقرَّ الأمنَ حتى خشيَه العُصَاة ، وكان أميراً عليها مدّة عبدِ الملك وابنِه الوليد ، فلمّا استخلفَ سُليمان بن عبد الملك وثبَ عليه أعداؤُه وأثقلوه بالحديدِ ، وسيّروه إلى سجنِ المدينةِ ، وكان آسرُوه هم خصومه الشّاغبون عليه ، وليس للخليفةِ أَرَبٌ من سجنِه ، فتمنّى لو تواريٰ عن الأنظار في الأرض وهو الخبيرُ بدروبِها ومجاهِلها ، ولم يستسلمْ لأعدائه ، وفي ذلك يقولُ من أبيات:

لعمـركَ إنّـي يـوم سلْـع لـلائـم ... لِنَفْسـي ولكـنْ مـا يُـرَدُّ التّلـوُّمُ
أأمكنـتُ مـنْ نفسـي عـدوّي ضلّـةً ... ألهفـي علىٰ مـا فـاتَ لـو كنـتُ أعلـمُ
لعمـري لقـد كـانـت فجـاجٌ عـريضـة ... وليـلٌ سخـامـي الجنـاحَيْـن أدهـم

(معجم البلدان: سلع)

* ولما أنْ أتىٰ العاملَ إبراهيمَ بنَ العربي كتابُ الحجّاجِ وقرأَهَ وفهمَ مقصدَهُ، راحَ يفكِّرُ في وسيلةٍ يستطيعُ من خلالها أنْ ينهيَ أمْرَ جَحْدر العكلي، هنالك لمعتْ في خاطرِه فكرةٌ هَدَتْهُ إلىٰ طريقٍ قصيرٍ ميسَّرٍ ، ربّما يقدرُ من خلالهِ على الإيقاع بجَحْدَرٍ في شباكِهِ التي رسَمها له ونَصَبها كيما يقعَ في شَرَكها ويكونَ داخلَها ، ويأمنَ هو غضبَ الحجّاج ، إذْ كانَ تابعاً لإشْرافِهِ.

* وفي ليلةٍ طابَ هواؤُها ، وتألَّقُ نجْمُها ، أرسلَ إبراهيمُ بنُ العربيّ إلى فتيةٍ يثقُ بهم من بني حنْظَلة ، وقصَّ عليهم القَصَص الذي شَغَلَ بالَه ، وألهبَ جوفَه ، وأرَّقَه وجعله كاسفَ البالِ ، ثمّ أوعزَ إليهم أنْ يجرِّدُوا أنفسهم لخدمةِ النَّاسِ والتُّجَّارِ والقوافلِ ، وذلك بالإيقاع بجَحْدرٍ ، ومن ثمَّ وقْفِ اعتدائِهِ على المارَّة ، وعدوانِهِ على أهلِ حَجر. فقال الفتيةُ: وما عسانا أنْ نصنعَ أيُّها الأميرُ؟! قال: انطلقُوا إلى ناحيةِ جَحْدَر ، ثمّ ابعثُوا إليهِ أحدَكم وأعلموه أنّكم تريدونَ الانضمامَ إليهِ ، وشقَّ عصَا الطَّاعةِ وإرهابَ النَّاس.

* ثمَّ إنَّ إبراهيمَ بنَ العربيَّ جعلَ لهم جُعْلاً عظيماً إنْ همُ قتلُوا جَحْدراً، أو إنْ أتوا به أسيراً مكبّلاً بالسَّلاسلِ ، ومقروناً بالحبالِ ، كما أنَّه وعدهم أنْ يوفدَهُم إلىٰ الحجّاج بنِ يوسفَ إنْ هم ظفُروا بجحدرَ وأتوا به مكبّلاً.

* وانطلقَ الفتيةُ من حَجر ، حتّى إذا كانوا قَريباً من جحدرٍ ، أرسلُوا إليه أنَّهم يريدون صحبتَه ، والكينونةَ معه ، والانقطاعَ إليهِ ، والتحرُّزَ به ، والارتفاقَ معه ، فقد ملُّوا حياةَ المُدنِ والحضارةِ المجلوبةِ ، وطاعةَ الولاةِ ، ورغبُوا في حياةِ الحريةِ بينَ الوديانِ والتّلالِ والجبالِ.

* وانطلتِ الحيلةُ علىٰ جَحْدرٍ ، وانخدعَ وسكنَ إلىٰ قلوبهم التي أظهرتْ له الودَّ والحبَّ ، وركنَ إلى قولِهم المعسول ، فاطمأنَّ إليهم ، ووثقَ بهم ، وظنَّ كلَّ الظَّنِّ أنَّهم مخلصونَ له ، أوفياءُ في خدمتِهِ.

* وظلُّوا على حالِهم هذه مدَّةً من الزَّمان لا يرتابُ منهم ، ولا يشعرُ بما تكنُّه له نفوسُهم من الإيقاعِ به ، حتى كان ذات يومٍ منَ الأيّام ، رأوا منه ثِقَةً زائدةً بهم ، وأصابوا منه غرّةً ، فانقضوا عليه انقضاضَ الأسدِ علىٰ فريستِه ، ومن ثمَّ شدُّوهِ كتَافاً ، وأوثقوهُ في السَّلاسلِ ، ولما علمَ بِغَدرهم ، وعرفَ خطتَّهم وما يرمونَ إليه ، لم يلتفتْ إليهم ولا توسَّل لأحدٍ منهم ، بل ثَبَتَ كالجبلِ الأشمّ.

* وقدمَ الفتيةُ بجَحْدرٍ على عاملِ اليمامةِ ، وهم فرحونَ مستبشرون بما حقَّقوه من نجاحٍ ومن مكافأةٍ ومالٍ ، فلما وصلُوا ، أعطاهم ما وعدهم به ، ووجَّه جَحْدَراً معهم إلى الحجّاجِ بنِ يوسفَ الذي بهرتْه أخبارُ جَحْدرٍ.

* وسارَ الفتيةُ نحوَ العراقِ ومعهم جحدرُ بنُ معاوية وهو مشدودٌ عليهِ وثاقُه، فلما جازُوا به حَجراً ، أنشأَ يقولُ ويتغنّى بهذه النّونيةِ التي تَسيلُ رِقَّةً وعذوبةً:

أَلا قَـدْ هَـاجَـني فـازْدَدْتُ شَـوقـاً ... بكـاءُ حَمـامتَيْـن تَجَـاوبَـانِ
تَجـاوَبَتَـا بلحـنٍ أعجمـيٍّ ... علـى غصنَيْـنِ مـن غَـربٍ وبَـانِ
فقلـتُ لِصَاحِـبيَّ وكنْـتُ أحْـدو ... بِبَعـضِ القَـولِ مـاذَا تَحـدوَانِ
فَقَـالاَ الـدّارُ جَـامعـةٌ قَـريبـاً ... فَقُلْـتُ بَـلْ أنْتُمـا متمنّيـانِ
فكَـانَ البَـانُ أنْ بـانَـتْ سُليمـىٰ ... وفـي الغَـربِ اغتـرابٌ غيـرُ دانـي
إذا جَـاوزْتُمـا نخـلاتِ حَجْـر ... وأوديـةَ اليَمـامـةِ فـانْعِيـانـي
وقُـولا جَحَـدرٌ أمْسـىٰ هِينـاً ... يعـالـجُ وقْـعَ مصْقُـولٍ يَمـانـي
كذا المغرورُ في الدُّنيا سَيَرْدَىٰ ... وتهلكُـه المطـامـعُ والأمـانـي[1]

(١) الأخبار الموفقيات (ص ١٧٠ ـ ١٧٢) ، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٩) مع الجمع والتصرف. وانظر: خزانة الأدب (١١/ ٢١٨ و٢١٩) ، وغير ذلك من مصادر.

* وظلّ جَحْدرُ يترنَّمُ بالأَشْعارِ ، وبمثلِ هذه الرِّقائق والهمساتِ حتّى قدَم بهِ الفتيةُ علىٰ الحجّاجِ بنِ يوسُفَ ، وهناكَ ظهرتْ فروسيّة جحدرٍ التي أدهشتِ الحجّاج ومَنْ حولَه ، ترىٰ كيفَ كانَ ذلك؟!

جَحْدَرُ وَالحَجَّاجُ:

* قُلنا: إنَّ أخبارَ جَحْدر قدْ أدهشتِ الحجّاجَ وبهرتْهُ ، حتى غدا اسمُ جَحْدر يرنُّ في سَمْعِ الحجّاج صباحَ مساءَ ، لأنَّ جَحْدراً قد روَّعَ النَّاس وخرقَ الأَمْنَ ، فجدَّ الحجّاجُ في طلبهِ وأرسلَ إلى عامِله على حَجر فقبضَ عليهِ بالحيلةِ ، فلبثَ في سجنِ دوَّار[1] حقبةٍ ، وكان دخولُه السَّجن أوّلَ الصَّدمةِ ، إذ وجَدَ نفْسَه في وسَطٍ يزخرُ بالأشْرارِ ، وكان عند نفسهِ كَريماً كبيراً على ما كان يحترفُ منَ اللصوصيةِ ، وذا قضيةٍ ، جديراً بالإكْبار ، فكأنَّ غاراتِهِ وسرقاتِهِ كانتْ عنده نوعاً منَ الثَّورةِ على الظُّلمِ والفقرِ والاستئثارِ ، وتعبيراً عن سخطِ السَّاخطين يقودهُم للحصولِ علىٰ أرزاقِهم وحقوقهم بالقوّةِ.

* لهذا كلّه صَعُبَ عليه أنْ يُلْقىٰ مع ثلّةٍ منَ الأشرارِ ، وقد عبَّرَ عن هذا بقولِه في سجنه بالبيضَاء فقال:

أقولُ للصَّحْبِ في البيضاءِ دونكمُ محلّـة سـوَّدَتْ بيضَـاءَ أَقْطَـارِي
مأْوىٰ الفتوّةِ للأنذالِ مذْ خُلِقَتْ عند الكرام محلَّ الذُّلِّ والعَارِ[2]

---

(١) «دوار»: اسم سجنٍ؛ ذاقَ الضّيقَ فيه عددٌ من الشُّعراء الذين انتهجوا الصَّعلكة معاشاً ، وخرجُوا على المتَّبع من العُرفِ والنِّظامِ ، فكانَ هذا الحبسُ يجمعُهم من أطرافِ وقبائل شتّى على غيرِ ميعاد؛ قال جحدر:

كـانـتْ منـازلُنـا التـي كُنّـا بهـا شتّـى وألَّـفَ بيننـا دوَّارُ

(معجم البلدان: ٢/ ٤٧٨)

(٢) معجم البلدان: البيضاء.

* ونجدهُ يأسىٰ لحالِهِ ، ولنفسهِ الكبيرةِ فيقولُ من نونيته :

ستبْكي كُلُّ غانيةٍ عليهِ وكلُّ مخضَّبٍ رخْصِ البَنَانِ
وكُلّ فتىً لَه أدَبٌ وحلْمٌ معديٌّ كريمٌ غيرُ وانِ[1]

* ولذا فإنَّ جحدراً تصعْلَك وسخطَ علىٰ مَنْ يستولي على أرزاقِ النَّاسِ ، وعندما قُبِضَ عليه شعرَ بأنَّه قد سُجِنَ مظْلوماً ، وكان جَحْدَرُ ـ علىٰ ما يبدو ـ رجُلاً حرّاً ثقُلَ عليه السِّجنُ وأشقاهُ خسرانُ الحرّية ، ومن هنا كان عذابُه النَّفسيُّ الذي أسهمَ إسْهاماً عظيماً في عودتِه إلىٰ نقائِهِ[2] ، واستيقنَ أنْ لا سبيلَ إلى الحريةِ والأمنِ إلا بالمتَابِ والاستقامةِ ، فلاذَ بأميرِ اليمامةِ يمدحُه مخلصاً ، ويستجيرُ به منَ السَّجنِ والعذابِ ، ويبدو أنَّ لم يكن مَدْحاً عابِراً بل نيّةً صادقةً بتحوّلٍ نفسيّ سلوكيّ ، فلاذَ جحدرُ بخالقِهِ يسألُه العفوَ والتَّوبةَ والعصمةَ منَ الزَّللِ بلسانِ صدْقٍ ، ونيّةٍ صادقٍ نادمٍ راغبٍ في البراءَةِ ، فيقولُ في هذه الرّائية البديعة :

يا نفْسُ لا تجزعي إنّي إلى أمَدٍ وكلُّ نفسٍ إلى يومٍ ومقْدارِ
للهِ أنتِ فإنْ يعصِمِكِ فاعتصِمي وإنْ كَذبْتِ فحسبي اللهُ من جارِ
ادعيهِ سرّاً وناديه علانيةً واللهُ يعلمُ إعلاني وإسْراري
ومَا السَّعادَة في الدُّنيا لذي أمَلٍ إنَّ السَّعيدَ الذي ينجو منَ النَّار

---

(١) معجم البلدان : حجر .
(٢) كثيراً ما تكونُ الأزماتُ سبَباً للتخفّفِ من الأوزارِ وتناسي سلوكيّة غريبة عنِ النّفْسِ ألزمتها بها أحوال خاصّة ، فإذا حلّتِ الأزمةُ أتيحَ للمنحرفِ أنْ يتعرَّف علىٰ نفسهِ منْ جديدٍ ، وكذلك كانَ الحبْسُ لجحدر أزمة خانقة ، غير أنَّ ما لقيَ فيها منَ الضّيقِ والخوفِ أعادَ إلى نفسهِ صفاءَها حتّى خرجَ منها إنساناً قادِراً علىٰ الاستقامةِ ، وقد عبَّر مرَّةً بأنّه لو كانَ هناكَ عَدْلٌ ما مكثَ في سجن دوّار :
لو يتبعُ العدلُ فيما قد منيتُ بهِ أو يتبعُ الحقَّ ما عمّرت دوَّارا

* وبذلك نجدُ أنَّ جحدراً في هذه الهَمسات قد حظيَ بحظٍّ معيّنٍ من طهْرِ النَّفسِ ونقاءِ السَّريرة ، ولكنْ هل نفعتْ هذه الهمساتُ جحدراً؟! وهل علمَ الحجّاج حقيقة أمرِه وخبيئة نفسِه؟!

* ففي ساحةِ قَصْرِ الحجّاجِ وقفَ جحدرٌ شامخَ الرّأْسِ أمامَ الحجّاجِ ورهطِهِ ، غير آبِـهٍ بمَنْ حولَه ، تظهرُ على محيّاه علائم الشَّجاعة والشَّهامة .

* وبدأَ الحجّاجُ التَّحقيقَ معه ، فقالَ له: مَنْ أنْتَ؟ قال جحدرُ بثباتٍ وعزمٍ وهدوء: أنا جحدرُ بنُ مالك .

قال: أأنتَ جَحْدرُ؟

قال: نعم ـ أصلحَ اللهُ الأمير ـ أنا جحدرُ .

فقال الحجّاج: فما الذي حَملَك علىٰ ما كانَ منكَ ، وما صنعْتَ في اليمامةِ وفي حَجر؟!

قال جحدرُ بفصاحةِ بيانٍ وثباتِ جنانٍ: جراءةُ الجنَانِ ، وجفاءُ السُّلطانِ ، وكَلَبُ الزَّمانِ ، وقلَّةُ الإخوانِ ، وغدرُ الأَعْوانِ!!

* وتعجَّبُ الحجّاجُ مْن ثباتِ عقْلِهِ ورجاحتِه ومن منطقِه وشجاعتِه ، فقال له: ويحكَ يا جحدرُ ، وما الذي بلغَ من أمرِك فيجترىء جنانَك ، ويجفوكَ سُلطانُك ، ويكلَب زمانُك ، ويقلّ إخوانُك وأعوانُك؟!

قال جحدرُ وعلاماتُ الشَّجاعةِ تشهدُ له: لو بلاني الأميرُ ـ أكرمه اللهُ ورعَاه ـ لوجدني منْ صالِحي الأعوانِ ، وبُهُمِ الفرسانِ ، ولألفاني منْ أنصحِ رعيته له . وأمّا جراءةُ جنَاني فإنّي ما لقيتُ فارساً قطّ منَ الفرسانِ إلا كنْتُ عليهِ في نفسي مقْتَدِراً ، ولأمرِه مُهْمِلاً ، ولفروسيته مُحتقراً .

قال الحجّاجُ: يا جحدرُ ، إنَّا قاذفونَ بك في حَيْر[1] فيهِ أَسَدٌ عاقرٌ ضارٌّ ، فإنْ هو قَتَلك كفَانا مؤونتَك ، ولم نظلمكَ بما اقترفَتْ يداكَ ، وإنْ أنْتَ قتلْتَه خلّينا سبيلَك ، وأَحْسَنّا جائزتك ، وأكرمْنَا مثواكَ ورفعناكَ وجعلناكَ منَ المقرّبين.

قال جحدُر: نعم ـ أصلحَ اللهُ الأمير ـ قرّبْتَ المحنةَ ، وأعظمتَ المنّة ، فافعلْ ذلك إذا شئتَ ، فأنا جحدرُ بنُ مالك العكليّ. . .

قالَ الحجّاجُ: يا جحدرُ ، إنّا لسنا بتاركيكَ تقاتله إلا وأنتَ مكبَّلُ بالحديدِ.

قال جحدرُ: رضيتُ بهذا أيُّها الأميرُ ، واللهُ المُستَعان. . وقد قَرُبَ الفرجُ إنْ شاءَ اللهُ.

* وأمرَ الحجّاجُ بجحدرٍ ، فغُلَّتْ يمينُه إلى عنقِه ، وصُفِّدَ بالحديدِ ، وأرسَلَ به إلى الحَبْس ، كيما ينظرَ فيما قالَ له واشترطَ عليه. فقال جحدرُ لبعضِ مَنْ يخرجُ إلىٰ اليمن: تحملُ عنّي شعراً؟

قال: نعم.

فأنشأَ جحدرُ يقولُ هذه القصيدة التي تُعدُّ من غُررِ القصائِدِ:

تأوَّبَني فَبتُّ لها كَنِيْعاً[2] ... هموٌم لا تفارقُني حَواني

هي العُوَّادُ لا عُوادُ قومي ... أطلْنَ عيادَتي في ذَا المكانِ

إذَا ما قُلتُ قَد أجلَيْن عنّي ... ثَنَى ريْعانهنَّ عليَّ ثاني

---

(١) «الحير»: شبه الحظير ، أو الحمى.

(٢) «تأوبني»: أتاني ليلاً. «كنيعاً»: من كنع الرجل ، إذا خضع ولان. و«حوان»: من الحين وهو الهلاك. و«النفهة»: من نفهت نفسه: أعيت وكلت. و«آن»: انتهى حرّه.

فـإنَّ مقـرَّ منـزلهـنَّ قَلْبـي فقَـدْ أَنْفَهْنَـهُ فـالقلـبُ آنِ
أليـسَ اللهُ يعلـمُ أنَّ قلبـي يحبُّـك أيُّهـا البـرق اليمـانـي
وأهـوىٰ أنْ أعيـدَ إليـكَ طَـرفـي علـىٰ عـدواءَ مـن شُغُـلٍ وشَـان

* ومنها يتحدّث عن زوجِهِ في شوقٍ لها وهو في حَبْسه ، فيقولُ في هدأةِ الليلِ :

أليـسَ اللهُ يجمعُنـا أمّ عمـروٍ وإيّـانـا فـذاكَ لنَـا تَـدانـي
بلـىٰ وتـرىٰ الهـلالَ كمـا أرَاهُ ويعلـوهَـا النَّهـارُ كمـا عَـلاَنـي
فمـا بيـنَ التَّفـرُّقِ غيـرُ سَبْـعٍ بقيـنَ مـن المحـرَّمِ أو ثَمـانِ

* ومنها يذكرُ أصحابَه :

فَيَـا أخـويَّ مـن جُشْـم بـنِ سعـدٍ أَقِـلاّ اللّـومَ إنْ لـم تنْفَعَـانـي
وقُـولا جَحـدرٌ أمسـىٰ رهينـاً يحـاذِرُ وقْـع مصْقُـولٍ يَمـانـي
يُحَـاذرُ صـولـةَ الحجّـاجِ ظُلمـاً ومَـا الحجّـاجُ ظـلاّمـاً لجَـانـي

* ثمّ يلخِّصُ شجاعَتَه وما يؤولُ إليه أمْرُه فيقولُ :

أَلَـمْ تَـرنـي عَـدَيْـتُ أخـا حُـروبٍ إذا لـمْ أجْـنِ كنْـتُ مِجَـنَّ جَـانِ
فـإنْ أهلِـكْ فـربَّ فتـىٰ سيبكـي علـيَّ مهّـذبٍ رخْـصِ البَنَـان
ولـمْ أكُ مـا قضيـتُ ديـون نفسـي ولا حـقَّ المهنَّـد والسِّنَـانِ[1]

* ونلحظُ في نونيّةِ جحدرٍ هذه ألْواناً منَ الوجدانيّات ، حيثُ تبدأُ قصيدته بنغماتٍ حزينةٍ ، إذ استحضرَ همومَه وآلامَه وجسَّدها وأضفىٰ روحَه عليها ، ثمَّ أخذَ يتوجَّه بهمساتِهِ إلى العالَم الخارجيّ إلى الطَّبيعةِ الجميلةِ بما فيها من برقٍ ونيرانٍ ، ثمَّ إلى الأهلِ ، فيستدني زوجَه أمَّ عمرو منه لأنَّهما

---

(١) انظر : ألف باء للبلوي (٢/ ٥٠١) ، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٩) وخزانة الأدب (١١/ ٢١٨ و٢١٩) باختصار وتصرف .

على البعدِ يطلعُ عليهما قمرٌ واحدٌ ونهارٌ واحد ، ويرسلُ مع الرّكبان تحيّةً عطرةً مندّاةً بحرارةِ الوجدانِ ، فهم الذين ينتظرون عودةَ الفارسِ الحبيس على خوفٍ منهم أنْ تبطشَ به يدُ الحجّاج التي لا ترحم؛ ثم إنَّ جحدراً يرتدُّ إلى ذاتِهِ ليحدّثَ النّاسَ ويتحدَّثَ عن نفسهِ التي خُلِقَتْ للبطولةِ ، وأدّتِ رسالةَ الفروسيّة الحقّة.

* ونلحظُ في نونيّةِ جحدر هذه تلكم المشَاعرَ الغنيّةَ العاليةَ الملوَّنَةَ بالهمِّ والشَّوقِ والخوفِ والكبرياءِ ، ففيها رقّة الإنسانِ الحسَّاس ، وخشونةُ البدويّ الشَّرس معاً ، كما أنَّ فيها حقيقة الشَّاعرِ وسجاياه الطّيبة. لذلك يظهرُ لنا أنَّ الحجّاج ربّما سمعَ هذه الهمساتِ الحرّىٰ من جحدر وهو في سجنِه ، فاستشفَّ في شعرِه سماحةً وخُلقاً ورجولةً وشجاعةً وإباءً ورئاسةً ، فتغيّرتْ نظرتُه إليه ، والحجاجُ كما نعلمُ خبيرٌ بالرِّجال خبرةَ الصَّائغِ بالذّهب ، يعرفُ حقيقةَ الرّجالِ من خلالِ عقْلهِ وذكائِهِ وتجربتِه في العِراقِ ، ومن خلال معاملته للأمراءِ والخلفاءِ والشّجعان والعُلماء والشُّعراء وشتّى أنواعِ النَّاس.

جَحْدَرُ يَقْتُلُ أَسَداً ضَارِياً:

* بعد أنْ ألقىٰ الحجّاجُ بنُ يوسفَ جحدرَ بنَ معاوية ـ أو مالك ـ العكليّ في سجنِهِ[1] مكبّلاً مشدوداً عليه وثاقَه ، ويده مغلولة إلى عنقهِ ،

(١) لعلّهُ منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلىٰ فائدةٍ مهمّةٍ في هذا المجال ، وهي كثرةُ السُّجونِ والحُبوسِ في عَصْر الحجّاج وبني أميّة ، وذلك لما نجمَ في زمنِهم منَ الخلافِ والأحزابِ ، ويشهدُ على صحّة قولِنا عددُ المحبوسين الهائِل في عَهْدِ بعضِ الولاةِ بحاجتهم إلىٰ عددٍ منَ الحبوس ، حتى كان بعضُها في أيّام الحجّاج أَشْبَهَ بالمعسكراتِ المكشوفَةِ تضمُّ عشراتِ الآلافِ لحافُهُم العَراء ، وقد بنىٰ الحجّاج عَدَداً منها ، وأطلقَ عليها أسماءَ مختلفةً ، فقد بنى سجناً سمَّاه لَعْلَعاً في مكانٍ بالعراق يطلق عليهِ هذا الاسم ، ومنْ سجونِ الحجّاج أيضاً الدِّيماس ، وقد ذكَره =

كتَب إلى عامِلهِ علىٰ كَسْكَر[1] يأمرُهُ أنْ يبعثَ إليه بأسدٍ ضَارٍ وَرْدٍ ، إذا ما زأَرَ ورَدَ زئيرُه الفراتَ والنِّيلا ، فامتثلَ العاملُ الأَمْر ، وبعثَ إليهِ بأسدٍ شَرسٍ قد تغلَّب على أهلِ كَسْكر وتلك النَّاحيةِ ، وجعل الأسدُ في صندوقٍ يجرّهُ ثوران ضَخْمان على عَجَل ، فلما وردَ الأسدُ على الحجَّاجِ ، أمرَ بهِ فأُدْخِلَ في حَيرٍ ، وسُدَّ بابُ الحير ، وجوِّعَ ثلاثةَ أيّام كواملَ ، حتى غدا زئيره يُسْمَع من مكانٍ بعيد ، وقد استكلبَ من شدّة الجوعِ والعَطَش .

* ثمّ إنَّ الحجاجَ أرسلَ إلى جَحْدرٍ ، فأتي به من السَّجنِ ، ويده اليمنى مغلولةٌ إلى عنقهِ ، ثم أمْكِنَ جحدرُ من سيفٍ قاطعٍ صقيلٍ ، وجلسَ الحجّاجُ والنَّاس في منْظَرةٍ لهم يشهدون هذا اللقاءَ النَّادر في تاريخِ الفروسيّةِ العربيّة ، وينظرونَ إلى الأسدِ ما هو صانعٌ بِجَحْدر .

* ولما نظرَ الأسدُ إلى جَحدرٍ قد أقبلَ ، ومعه السَّيف ، وهو يرسفُ في قيودِه ، تهيّأ وتمطّى . . . فلمّا شاهدَ جحدر الأسدَ على تلك الهيئةِ أنشأَ يقولُ :

لَيْثٌ وليثٌ في مَجال ضَنْكِ كلاهُما ذوُ أَنَفٍ وفَنْكِ

= جَحْدر عندما نجا منه فقال :

إنَّ الليالي نجتْ بي فهيَ محسنةٌ لا شكَّ فيهِ منَ الدّيماسِ والأَسدِ

ـ ويظهرُ أنَّ الحجاجَ قد استصلحَ بعضَ الأمكنةِ القديمةِ ، وصيّرها سُجوناً ، وزحمَ فيها المحبوسين ، وكانتْ بعضُ حبوسهِ عراءً مكشوفةً ، فقد ذكر ياقوتُ الحمويُّ هذا فقال : قيل : إنَّه أُحْصِيَ في محبسِ الحجّاج ثلاثةٌ وثلاثونَ ألف إنسانٍ لم يُحْبَسوا في دمٍ ولا تبعةٍ ولا دَينٍ ، وأُحْصِي مَنْ قتلَه صَبْراً فبلغوا مئةً وعشرين ألفاً .

(معجم البلدان : واسط)

ـ وقال المسعودي : توفيَ الحجّاجُ وفي محبسهِ خمسونَ ألف رجلٍ وثلاثون ألف امرأة ، وكان حبْسُه حائراً لا شيءَ فيه يكنُّهم من حرٍّ ولا بَرْد ويُسْقَون الماءَ مشوباً بالرّماد . (التّنبيه والإشراف ص ٧٥)

(١) «كسكر» : كورة واسعة ، قصبتها واسط بين الكوفة والبصرة .

وشــدّةٍ فــي نَفْســهِ ومَحْــكِ   إنْ يكشــفِ اللهُ قِنَــاعَ الشَّــكِّ

مــنْ ظفَــري بِحَــاجَتــي وَدَرْكِ   فــذاكَ أحْــرىٰ منْــزِل بتــرْكِ[1]

* ولما نظرَ الأسدُ إلى جحدرٍ زأرَ زأرةً شديدةً ، وتمطّىٰ ، ونهضَ وزئيرَه قد وَرَدَ الفراتَ والنَّيلَ لقوّتِهِ وشدّته ، وزعقَ زعقةً دوتْ منها الجبالُ ، وارتاعَ أهلُ أرضٍ تلك النَّاحية من عظمةِ تلكم الزَّعقة المدوية ، وأقبل نحوه بحذَرٍ كأنَّه الطَّبيبُ الماهرُ الذي يجسُّ عليلاً ، ولما صار منْ جحدرٍ على قَدْرِ رمحٍ ، وثبَ إليهِ وثبةً شديدةً ، فتلقّاها جَحْدَرُ بالسَّيف المصقولِ الذي ادّخره لمثلِ هذه اللحظة الحاسمةِ ، فضربَه ضربةً علىٰ هامتِه ففلقَها حتَى خالَط ذبابُ السّيفِ لهواتِه ، فخرَّ الأسدُ معفّراً كأنَّه خيمةٌ قد صرعتْها الرِّيحُ ، وسقط جحدرُ بنُ مالكٍ على ظهْرِه من شدّةِ وثبةِ الأسدِ ، وموضعِ الكبولِ والحديدِ ، وتخضَّبت ثيابُه من دمِ الأسد ، فصرخَ الحجّاجُ والنَّاسُ أجمعون: اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبر ، وهتفَ جميعُهم: لا شلّتْ يمينُك أيُّها الفارسُ البطلُ الصِّنديد. . . بينما طارتْ نفوسُ الجُبَناء شعاعاً لمّا رأوا هذه الفروسية النَّادرة.

* وأعْجبَ الحجّاجُ بنُ يوسُف ذلك الفارس الأيّد وقال له بلسان الحقّ والإعجاب: لله درّك ما أنْجَبك! .

---

(١) جاء الرّجزُ في أشعار اللصوص (٢/ ٩٦) على النحو الآتي:

ليــثٌ وليــثُ فــي مجــالِ ضنْــكِ   كــلاهمــا ذُو قــوّة وسفْــكِ

وصــولــةٍ وبطشــةٍ وفَتْــكِ   إنْ يكشــفِ اللهُ قنــاعَ الشّــكّ

فــأنــت لــي فــي قبضتــي وملكــي

وجاء عند الجاحظ في المحاسن والأضداد (ص ١٠٦) شطراً زائد هو:

* الذئبُ يعوي والغرابُ يبكي *

بينما أخذَ جحدرُ العكليّ يترنَّمُ ويقولُ واصفاً قَتْل الأَسدِ المعفّر بالصّارم المصقولِ أمامَه:

يَا جُمْلُ إنّكِ لو رأيتِ بَسَالتي ... فـي يـومِ هيـجٍ مُـرْدَفٍ وعجَـاجِ
وتقـدُّمـي للّيْـثِ أرسـفُ نحـوَه ... حتّـى أكَـابِـرَهُ عَـنِ الأَحْـراجِ
جَهْـمٌ كـأنَّ جبينَـه لمـا بَـدا ... طَبَـقُ الـرَّحـا متفجِّـرُ الأَثْبـاجِ
يـرنُـو بنـاظـرتَيْـن تَحْسـبُ فيهمـا ... لمّـا أجَـالَهمـا شُعـاعَ سِـراجِ
وكـأنّمـا خيْطَـتْ عليـهِ عبـاءَةٌ ... بَـرقَـاءُ أو خَلَـقٌ مـنَ الـدّيبـاجِ
قِـرنَـانِ مُحْتَضَـرانِ قـد ربَّتْهمـا ... أمُّ المنيّـــةِ غيـــرَ ذاتِ نِتَــاجِ
وعلمـتُ أنّـي إنْ أبيـتُ نِـزَالـه ... أنّـي مـنَ الحجّـاجِ لستُ بِنَـاجِ
فمشيتُ أرسفُ في الحديدِ مكبّلاً ... بـالمـوتِ نَفْسـي عنـد ذاكَ أنَـاجِي
ففلقْـتُ هـامتَـه فخـرَّ كـأنَّـه ... أطـمٌ تَسَـاقَـطَ مـائـلَ الأبْـراجِ
ثـم انثنيـتُ وفـي ثيـابـي شـاهِـدٌ ... ممّـا جَرىٰ مـنْ شـاحـبِ الأَوْدَاجِ
أيقنـتُ أنّـي ذو حفـاظٍ مـاجـدٌ ... مـن سـرِّ أمْـلاكٍ ذوي أتْـواجِ
ممّـنْ يغـارُ علـى النِّسـاء حفيظـةً ... إذْ لا يثقـــنَ بغيـــرةِ الأزواجِ(١)

* ثمّ إنَّ الحجاجَ أمرَ بهِ، فأُخرِجَ منَ الحَيرِ، وفكَّ عنه قيودَه، وأكرمه، وأحسنَ جائزته، وقالَ له: يا جحدرُ، أنتَ فارسٌ بطلٌ تستحقُّ التّكريمَ والاحترامَ، فإنْ أحببتَ المقامَ معنَا فأقمْ، وإنْ أحببتَ أنْ نأذنَ لك بالانصرافِ إلىٰ بلادِك كيما تلحقَ بأهلكَ وصحبكَ على أنْ تضمنَ لنا ألا

---

(١) «يا جُمل»: جُمْل: اسم امرأة. و«البَسَالة»: الشّجاعة. و«أرسفُ»: أمشي بالقيدِ. و«الجَهْم»: العبوس، و«الأثباج»: ما بينَ الكاهلِ إلىٰ الظّهر. و«يرنُو»: ينظر. و«برقاء»: لماعة متلألئة. «قِرنان»: مثنى قرن، وهو المساوي لصاحبه في الشّجاعة وغيرها. و«مُحتضَران»: ميتان. و«أمُّ المنية»: الحياة والأعوام. و«الأدواج»: مفردها ودْجٌ: عرقٌ في العُنق. و«ذو حفاظ»: ذو الذّبّ عن المحارم والمنع لها. و«أملاك» جمع ملوك. و«أتواج» جمع تاج.

تحدثَ بها حَدثاً ، ولا تؤذي بها أحَداً ، ولا عابرَ سبيلٍ ، فأقمْ عندنا ، فنكرمك ، ونقرّب منْ منزلتكَ ، ونحسنُ جائزتك. فقال جحدرُ: بل أختارُ صحبةَ الأميرِ ، والكينونة معه.

ففرضَ له الحجّاجُ في شرفِ العَطاء ، وأقامَ ببابِه وسخّرَ قوّته وفروسيّتَه لحمايةِ الدَّولةِ وفعْلِ الخيراتِ ، وجعلَه من سُمّارِه وخواصّه[1] ، حتى ماتَ حَتْفَ أنفه[2].

* ولا بأْسَ بنَا ونحنُ نُوَدِّعُ سيرةَ جحدر بنِ معاوية أنْ نُودِعَ في هذا السِّفْرِ بعضَ القَصصِ التي حيْكت حولَ مَقْتَل الأُسُود منْ قِبَلِ فُرسانِ العربِ وشجعانهم ، كما نشيرَ إلىٰ بعضِ مَنْ وصَفَ الأَسد وأجادَ في ذلك.

* فقد شَاعَتْ قَصصٌ كثيرةٌ في تراثِنا حولَ مقْتَلِ الأسودِ ، وممّا يَعْذُبُ ذكْرُه هنا ويُسْتَحلىٰ ، ما ذكرَه الجاحِظُ في كتابِه المنسوبِ إليه «المحاسنُ والأَضْداد» عن قصَّة عاشقٍ لابنةِ عمّه ميّ كانتْ تأتيهِ ليلاً فيتناجَيان ساعةً ، ثمّ تنصرفُ ، وذاتَ يومٍ أبطأَتِ الفتاةُ عنِ ابنِ عمِّها ، وما كانَتْ تتأخّر ، فأوجسَ خيفةً في نفسهِ ، وقال: واللهِ ما أظنُّ ذلك التّأخيرُ من ابنةِ عمي ميّ إلا لأَمْرٍ حادثٍ ، ثمّ إنَّه أنشأ يتَشَاغلُ بهذهِ الأبيات:

مَـابَـالُ ميَّـةً لا تَـأْتـي كعَـادتِهـا ... هلْ هاجَها طَربٌ أو صَدهَا شُغُلُ
لكــنَّ قلبــيَ لا يَعْنيــهِ غيــرُكُــمُ ... حتّى المماتِ ولا لي غيرُكم أمَلُ
لو تعلمينَ الذي بي منْ فراقِكمُ ... لما اعتذرتِ ولا طابتْ لكِ العِلَلُ
نفْسي فداؤكِ قد أحللْتِ بي حُرَقاً ... تكادُ من حرها الأحشاءُ تنفصلُ

---

(١) انظر: المستطرف (٢/ ٧٩ ـ ٨١) ، والجليس والأنيس (٣/ ٨٧) ، والأخبار الموفقيات (ص ١٧١ ـ ١٧٥) مع الجمع والتصرف. وانظر: خزانة الأدب (٧/ ٤٣٥ ـ ٤٣٩) ، والمحاسن والأضداد(ص ١٠٤ ـ ١٠٨) وديوان جحدر (ص ١٧٠) والجليس الصالح الكافي (٣/ ٨٧ ـ ٩٠).

(٢) انظر: التذكرة الحمدونية (٢/ ٤٨٧).

* وقامَ الليلَ كلَّه ساهراً حتّى انفجرَ عمودُ الصُّبحِ ، ثمّ قام ومرَّ نحو الحيّ ، فوجدَ ابنةَ عمِّه قد افترسَها السَّبُع فأكلَ بعضَها وتركَ بعضها الآخر ، ثمَّ تناولَ سيفاً وأنشد :

كُنَّا علىٰ ظهرِها والعيشُ في مَهَلٍ والدهرُ يجمعُنا والدّارُ والوطَنُ
فخانَنَا الدهرُ في تفريقِ أُلفتِنا واليومَ يجمعُنا في بطنِها الكَفَنُ

* وانطلقَ العاشقُ الوامقُ يبحثُ عن الأسدِ الضّاري الذي فَجعهُ بأحبِّ النَّاسِ إليهِ ، فوجدَه في أَجمتِهِ ، فانقضَّ عليهِ وضربَه بالسَّيفِ ضربةً فصَرعهُ ، ثمّ التفتَ إليهِ وقال :

ألا أيّها الليثُ المدلّ بنفسهِ هُبِلْتَ لقد جرَّتْ يَداكَ لنا حُزنا
وغادرْتني فَرْداً وقد كنْتُ آلفاً وصيَّرتَ آفاقَ البلادِ لنا سجْنا
أَأَصْحَبُ دَهْراً خانَني بِفراقِها معاذَ إلهي أنْ أكونَ له خِدْنا[1]

* هذا وقد استهوتْ قَصصُ مَقْتلِ الأُسُود وقصَّةُ جحدر بنِ معاويةَ العكليّ أبي الفضلِ أحمد بنِ الحُسين المشهورِ باسمِ بديعِ الزّمانِ الهَمَذاني[2] المتوفىٰ في سنة (٣٩٨ هـ) ، حيث خصَّ منْ مقاماتِه البديعةِ

(١) المحاسنُ والأضدادُ (ص ١٠٨ ـ ١١١) ، وإعلامُ النَّاس (ص ١٧٨ ـ ١٨١) مع الجمعِ والتصرُّفِ والاختصار .

(٢) أبو الفَضلِ أحمدُ بنُ الحُسين بديعُ الزَّمان الهمذاني ، صاحبُ المقامات المشهورةِ والرّسائلِ الرّائعةِ، كان فصيحاً مفوّهاً وشاعراً مفْلقاً، وهو الكاتبُ المترسِّلُ، والشّاعرُ المجيدُ ، قدوةُ الحريريّ ، وقريع الخوارزميّ ، ووارثُ مكانته ، وهو معجزة همذَانِ، ونادرةُ الفَلَك، وفريدُ دهرِه روايةً وحفظاً، وغرّةُ عصْرِه بديهةً وذكاءً.
نشأ بهمذانَ ، ودرس العربيّة والأدبَ وبرعَ فيهما ، وروى عن ابن فارس كتابه «المُجمل» ، وطافَ في البلاد ، وألّفَ المقاماتِ بلفظٍ رشيق وسجع رقيق ، ونسج الحريريُّ على منوالها ، ومنْ رسائِلهِ: الماءُ إذا طالَ مكْثُه ظهرَ خبثُه ، وإذا سكنَ متنُه تحرّكَ نتْنُه ، وكذلك الضّيفُ يسمجُ لقاؤه ، إذا طالَ ثواؤُه ، ويثقل ظلّه إذا انتهى محلّه ، ومن كلامه : البديعُ شاعرٌ ناثر ، وهو في كلتيهما قد ضَرب بسهمٍ بعيدٍ=

المخترعةِ مقامةً خياليّةً جميلةً سمّاها: المقَامةَ البشريّة[1] ، وتخيلَّ بطلَها رجُلاً يسمّى بشرَ بنَ عَوَانة العبديّ ، ووَسَمَه بأنّه كَانَ صُعْلُوكاً[2] لصّاً فاتِكاً وفقيراً معدماً ، وأنّه أغارَ وسَطَا علىٰ ركْبٍ فيهم امرأة جميلة ، فتزوّج بها ، وأعْجِبَ بها إعجاباً شديداً ، ولكنَّها زعَمْت أنَّ له ابنةَ عمّ تُدعىٰ فاطمةَ أجْمَل منها وأمْلَح ، فبعثَ يخطبُها فرفضَ عمُّه بادىءَ الأَمْر ، فكثرُت مضرّاتُه لهم ، ووصلَ أذاه إليهم ، فاجتمعَ رجالٌ منَ الحيِّ وقالوا لعمّه: كفَّ عنّا هذا المجنون ، فقالَ: أمهلوني حتى أهلكه ببعضِ الحِيَل ، ثمّ إنَّ عمَّه استدنَاهُ وقال له: أزوّجكَ ابنتي فاطمة بشرط أنْ تسوقَ لها ألف ناقةٍ من نوق خُزاعة ـ وكان غرضُ العمّ أنْ يسلُك بشْرٌ الطَّريق بينَه وبينَ خزاعةَ فيفترسه الأسدُ ، لأنَّ العربَ قد كانت تحامتْ ذلكَ الطَّريق ، وكان فيه أسدٌ يسمّى دَاذاً ، وحيةٌ تدعىٰ شُجاعاً.

= المرمى ، واغترفَ من بحرٍ عميقِ الغَور ، إلا أنّه البحر العذْبُ الفراتُ. وهو في شعرِهِ لا يقلُّ عنْ نثرِه ، وله من قصيدة بائيّة في المديح:

أبىٰ المقامُ بدار الذُّلّ بي كَرَمٌ وهمّةٌ تصلُ التَّوحيد والخَبَبا
والدهرُ لو لم يخُنْ والشمسُ لو نطقَتْ والليثُ لو لم يُصَدْ والبحرُ لو عَذُبا

توفي في (١١ جمادى الآخرة سنة ٣٩٨) وعمره (٤٠ سنة). (وفيات الأعيان ١/ ١٢٨) و(شذرات الذهب ٤/ ٥١٢).

(١) المقامةُ البِشْريّة هي المقامةُ الواحدةَ والخمسونَ والأخيرةُ من المقاماتِ المطبوعةِ الموجودَةِ بينَ أيدينا ، بيْدَ أنَّ الهمذَانيَّ قد أملىٰ بنيسابور أربعمئة مقامةٍ ، وضاعَ معظمُها ، ولم يبقَ منها إلا واحداً وخمسين وهي الموجودةُ بينَ أيدي النّاس.

(٢) «الصُّعلوك»: الفقيرُ المُعْدم ، وسمّوا ذُؤبانَ العرب ولصوصَها صعاليك ، وصعالكة ، لأنَّ الفقرَ كثيراً ما يحملُ على السَّرقة ، وفي كلامِهم: الخَلَّةُ تدعو إلى السَّلة. أي الفقرُ يدعو إلى التَّسلل والسَّرقة. وصعالكةُ العرب وذؤبانُها وفتاكُها كثيرون منهم: المنتشر بنُ وهب الباهلي ، وأوفىٰ بن مطرَ المازنيّ ، والشّنفرى ، وتأبّط شراً ، وعمرو بن براق ، والسّليك بن السّلكة ، وعروة بن الورد المعروف بعروة الصّعاليك ، وغيرهم كثير في العصر الجاهلي.

* ثمَّ إنَّ بِشْراً سَلَك ذَلك الطَّريقَ فما نَصَفَه حتّى لقيَ الأَسد ، ففزَع حِصانُه وقمَصَ ، فنزَلَ وعَقَره ، ثمَّ اخترطَ سيفَه ، ودلَفَ بهِ إلىٰ الأسدِ واعترضَه وضربَه ضربةً واحدةً قطعة عَرضاً ، ثمَّ كتَبَ بدمِ الأسد على قميصهِ إلى ابنةِ عمّه فاطمة هذهِ الأبيات :

أفاطِمُ لو شَهدْتِ ببطنِ خَبْتٍ   وَقَدْ لاقىٰ الهزبْرُ أخَاكِ بشْرا[1]

إذاً لرأيتِ لَيْثاً زارَ لَيْثاً   هِزَبْراً أغْلبَاً لاقىٰ هِزَبْرا[2]

---

(١) «أفاطمُ»: «أَ» الهمزة: حرفُ وُضِعَ لنداءِ القريب. والهمزةَ لا صورةَ لها ، وذلك لأنَّ قُريشاً لم تكنِ الهمزةُ في كلامِهم ، فلم يصوّروها ، فما كُتِبَ بلغةِ قُريش تُرِكَ فيه الهمْزُ ، وما كُتِبَ بلغةِ غيرهم كُتِبَ على حسبِ حروفِ العِلَّة ، أو علىٰ حسبِ الحركاتِ ، والكسْر أقواها ، ثم الضّمّ ، ثم الفتح. و«فاطمُ»: منادى مرّخم ، والتّرخيم: هو حذْفُ آخرِ الكلمةِ حقيقةً أو تنزيلاً في النّداء على وجْه مخصوص. وقد حَذَفَ الشَّاعر هنا التّاء المربوطة من فاطمةَ فأصبحت «فاطم» وقال امرؤ القيس:

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التَّدللِ   وإنْ كنتِ قَدْ أزمعتِ صَرمي فأجْملي

و«خَبْت» اسمٌ لعدّةِ مواضعَ منها خَبْت بلدةٌ باليمن من قُرى زبيد ، وخبت ماء معروف لكلْب.

ـ وقد نسبَ بعضُ الرّواة هذه الأبيات لعمرو بنِ معدي كرب الزّبيدي ، حيث كتبَ عمرو إلى أختِه كبشةَ ، وكان له ابنة عمّ اسمها لميس:

أكبشةُ لو شهدتِ ببطنِ خَبْت   وقد لاقىٰ الهزبرُ أخاكِ عَمْرا

تظنُّ لميسُ أنَّ الليثَ مثلي   وأقوىٰ همّةً وأشدُّ صَبْرا

لقد خابَتْ ظنونُ لميس فيه   وأضحى البرُّ خالياً منْه قَفْرا

إنَّ الواقعَتيْن مختلفتان ، ولعلَّ الهمذانيَّ قد استوحىٰ قصيدتَه هذه من عمرو بن معدي كرب والله أعلم.

(٢) «الليث»: الأسدُ ، ومثله: الهزبر ، وللأسد فوق الثلاثمئة اسم ، أصل معظمها صفات ، وقد أوردَ الدّميري في كتابه حياة الحيوان معظمَها ، كما أصدرَ الأديب السّعودي هزاع عيد الشّمري كتاباً سمّاه: «معجم أسماء الأسد». ومن أسماءِ الأسد: البَيْهس ، البَهْنَس ، العربض ، المُرمل ، الشَّيْظَم ، النّجيد ، البَسور ، الحيدَر ، الحيدَرَة ، الغَضَنْفر ، المُهتصر ، الجَهم ، الغضوب ، الأغلب ، القِرضاب ، =

تَبهْنَسَ إذْ تَقَاعَسَ عنه مُهْري مُحاذَرةً فقلتُ عُقِرْتَ مُهْرا
أنلْ قدميَّ ظَهْرَ الأرضِ إنّي رأيتُ الأرضَ أثْبَتَ منْكَ ظَهْرا
وقلتُ له وقَدْ أبدىٰ نِصالاً محدَّدَةَ ووجْهاً مُكْفَهِرّا
يُكَفْكِفُ غِيلَةً إحدىٰ يَديهِ ويبْسطُ للوثُوب عليَّ أخْرىٰ
يدلُّ بمخلبٍ وبحدِّ نابٍ وباللَّحظَاتِ تَحْسَبهنَّ جَمْرا
وفي يُمنَايَ مَاضِي الحدّ أبْقَىٰ بمَضْربهِ قراعُ الموتِ أثْرَا
أَلَمْ يبلُغْكَ ما فَعَلَتْ ظُبَاهُ بِكَاظِمةٍ غَداةَ لقيتُ عَمْرا
وقَلبي مثْلُ قلبِكَ ليس يخْشَىٰ مُصَاولةً فكيفَ يخافُ ذَعْرا
وأنتَ تَرومُ للأشبالِ قُوتاً وأطلبُ لابنةِ الأعمامِ مُهْرا
فكيفَ تَسومُ مثلي أنْ يُوَلِّي ويجْعَلَ في يديكَ النَّفس قَسْرا
نصحتُكَ فالتمسْ يا ليثُ غيري طعَاماً إنَّ لحمي كانَ مُرَّا
فلما ظنَّ أنَّ الغِشَّ نُصْحِي وخالفني كأنِّي قُلْتُ هُجْرَا
مشىٰ ومشيتُ منْ أسَدَيْن رَامَا مَراماً كانَ إذْ طلبَاه وعْرَا
هزَزْتُ له الحُسَام فخلْتُ أنَّي سَللْتُ به لدىٰ الظَّلمَاء فَجْرا
وَجُدْتُ له بجائشَةٍ أَرَتْهُ بِأَنْ كَذَبَتْهُ مَا مَنَّتْه غَدْرَا
وأطلقْتُ المهنَّدَ منْ يميني فَقَدَّ لَهُ منَ الأَضْلاعِ عَشْرا
فَخَرَّ مجدّلاً بدمٍ كأنِّي هدمْتُ بهِ بناءً مُشْمَخِرّا
وقلْتُ له يعزُّ عليَّ أنِّي قَتَلْتُ مُنَاسِبي جَلَدًا وفَخْرا
ولكنْ رُمْتَ شيئاً لم يرمْهُ سِوَاكَ فلمْ أطِقْ يا ليثُ صَبْرا
تحاولُ أنْ تعلِّمَني فِراراً لَعَمْرُ أبيكَ قَد حاولْت نُكْرا
فلا تجزعْ فَقْد لاقيتَ حُرّاً يحاذرُ أنْ يُعابَ فَمُتَّ حُرَّا

= والقِرشب ، ومن كناه: أبو العباس ، أبو ضيغم ، أبو الأشبال ، وأبو الأبطال.
و«الهزبر»: في الأصل وصفٌ لا اسمٌ ، وهو الغليظ الضخم والشّديد الصلب.

فـإنْ تـكُ قَـد قُتِلْـتَ فليـسَ عَـاراً   فَقَـدْ لاقَيْـتَ ذا طَـرفَيْـن حُـرَّا[1]

* ولعلَّه منْ نافِلةِ القولِ وزيادةِ الفائدةِ أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ العربَ قد أبدعُوا في وصْفِ الأَسدِ بشعرِهم ونثْرهم ، وممنْ أجادَ وصْفَه نَثْراً وشعْراً أبو زبيد الطَّائي، ولنَقْتَطفْ فقراتٍ من وصفِ أبي زبيد للأَسَد، فقد وَرَدَ أنَّه دخَلَ على سيِّدنا عثمانَ بنِ عفَّان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ فقالَ له : بَلغَنِي أنَّك تجيدُ

(١) انظر : مقامات الهمذاني (ص ٢٦٢ ـ ٤٧٨) وقد أوردتُ القصيدة كاملةً لجمالِها ونُدرتها في المصَادر، ولما فيها من معان جميلة تبعث علىٰ الإعجاب بالهمذاني الذي ابتكرها. ومعنى «تَبَهْنَس» : تبخترَ واختالَ في مشيته . و«محاذرة» : من أجلِ الحذر . و«عُقِرَت مُهرا» أي قُطعَتْ قوائمك . و«أنلْ قدميَّ» : مكّنْها من ظهر الأرض . و«أبدى» : أظهرَ وأبان. و«النّصال» : جَمْع نَصْل وهو حديدُ السَّيف والسَّهْم والرّمح والسّكين و«مكفهرّا» : الوجهُ المكفهرّ ، القليل اللحم الغليظ الجلدة . «ويكفكف» : يقبض . و«غيلة» : خدعة أو اغتيالاً . و«يدلّ» : يتيهُ ويظهرُ تكبُّره . و«ماضي الحدّ» : السيف . و«ظباه» : الظُّبَـةُ : حد السيف . و«كاظمة» : اسم موضع . و«ذَعرا» : بفتح الذال : الخوف والفزع . و«ترومُ» : تطلب . و«الأشبال» : جمع شبل وهو ولد الأسد ، ويجمع على أشبل . و«ففيمَ» : استفهام عن السبب . و«تسوم» : تفاوض . و«قَسْرا» : قَهْرا . و«هُجْرا» : الهُجر : بالضّمّ : الهذَيان والخرافة كما يكون منَ الأبْلَه والنّائم . و«هززت الحسام» : حرّكْتُه . و«سللت» : شققت . و«جائِشة» : الجائشة : النفس . و«منّته» : أطمعته . و«المهند» : السيف الصارم . و«قدَّ» : قطع . و«خرّ» : سقط . و«مجدلاً» : مصروعاً . و«مشمخر» : شامخ عال مرتفع . و«يعزّ عليّ» : يصعب عليَّ . و«مناسبي» : مشابهي ومشاكلي . و«رمت» : طلبْتَ . و«نكرا» : المنكر . و«تجزع» : الجزعُ : انخلاعُ القلبِ وتألّم النَّفس من حادثٍ فظيعٍ ، أو أمرٍ شنيعٍ ينزلُ بالمرء فيفقدُهُ صوابَه ويضيعُ عليه تجلّده وصبره . و«يحاذر» : يخشى ويعملُ جَهْدَ طاقته وبمقدار وسعه . والمعنى : لا يؤلمكَ ولا تذهب نفسُك حسراتٍ ولا تحزن على ما نالكَ منّي ، وأصابَكَ منْ حدِّ حُسَامي ، والذي اصطدمْتَ به رجلٌ حرّ كريم يأبى الضيم و«ذا الطّرفين» : رجلٌ ذو الطّرفين : أي أبويْن معروفين أصيليْن ، والمعنى : إنْ كنتَ قد قُتِلْتَ ، فما ذلك بعارٍ عليك ، فليس منَ الشَّين أن تُقْتَلَ بيدي فإنني رجل ذو أبوين أصيلين معروفين ، فأَنا عريق في النسب ، شريف الحسب ، طيب الأصل حرّ ، وإنّما العارُ أنْ يُؤخذَ المرءُ بيدِ رجلٍ دنيء .

وصْفَ الأَسَد. فقال له أبو زبيد: لقد رأيتُ منْه منظَراً، وشهدتُ منْه مخبراً ما يزالُ ذِكْره يتجدَّدُ على قلبي، قال عثمانُ: هاتِ ما مرَّ علىٰ رأسِك منه.

فشرعَ أبو زبيد يصفُ الأسدَ، وكانَ ممّا قَاله: فأقْبَلَ يَتظَالَعُ في مشْيَتِهِ كأنَّه مَجْنُوب أو في هَجار، لِصَدْره نَحيْطٌ ولبلاعيمِهِ غَطيْط، وإذا هامَةٌ كالمِجَنّ، وخدٌّ كالمِسَنّ وعينان سَجْراوان كأنَّهما سِراجان يقدّان.... وله ساعدٌ مجدول، وعضدٌ مفْتُول..... ثمّ ضَرب بذنبهِ فأرهجَ، وكشَّر فأفْرجَ عن أنيابٍ مصقولةٍ غيرِ مغلولة، وفمٍ أشدق، كالغار الأخرق، ثمَّ تمطَّىٰ فأسرعَ بيديهِ، وحفَر وركَيْه برجلَيْه حتّى صار ظلُّه مثْلَيْه، ثم أقعى فاقشعرَّ، ثمَّ مثل فاكفهرَّ، ثم تجهَّم فازبأرّ... ثم أنشأَ أبو زبيد يصفُه شعراً ويقول:

عبوسٌ شَموسٌ مُصْلَخِدٌّ خُنَابِسٌ جريءٌ علىٰ الأَرْوَاحِ للقِرْنِ قَاهِرُ
مَنِيْعٌ ويحمي كلَّ وادٍ يَرومُهُ شَديدُ أُصُولِ الماضِغينَ مُكَابِرُ
بَراثنُه شَثْنٌ وعيناهُ في الدُّجى كجمْرِ الغَضَا في وجْهِه الشَّرُّ ظَاهِرُ
يُدِلُّ بأَنيابٍ حِدادٍ كأنَّها إذَا قَلَّصَ الأشْدَاقَ عنها الخَنَاجِرُ

* فقال عثمانُ: اكففْ لا أمَّ لكَ، فلَقَدْ أرعبْتَ قُلوبَ المسلمينَ، ووصفْتَه حتّى كأنّي أنظرُ إليه يريدُ يُواثبُني[1].

* وفي وصفِ الأسدِ يقولُ ابنُ الرُّومي من قصيدةٍ رائيةٍ طويلة منها:

فَما أَسَدٌ جَهْمُ المحيَّا شَتيمُه خَبَعْثَنَةٌ وَرْدُ السِّبالِ غَضنْفَرُ
مُسَمّىً بأسماءٍ فمنهنَّ ضَيْغَمٌ ومنهنَّ ضِرغَامٌ ومنهنَّ قَسْورُ
تظلُّ له غلْبُ الأسودِ خَواضعاً ضَوارِبَ بالأذقانِ حينَ يزمْجِرُ
لهَ ذمَراتٌ حينَ يُوعدُ قِرنَهُ تكادُ له صمُّ السِّلامِ تفطَّرُ

---

(١) انظر: المحاسن والأضداد (ص ١١٦ ـ ١١٩) بتصرف واختصار.

يـراهُ سَـرَاةَ الليـلِ والـدَّوُّ دُونَـهُ   قَـريبـاً بـأدنـىٰ مَسْمَـعٍ حيـنَ يَـزأَرُ
إذَا مَـا عَـلا متْنَ الطَّـريـق بِبَـرْكِـهِ   حَمى ظَهْرَه الرّكْبَانُ فالسَّفر أزْوَرُ
أَخُو وحْدةٍ تُغْنِيهِ عن كلِّ منْجِدٍ   لـه نَجْـدةٌ منهـا ونَصْـرٌ مـؤزَّرُ[1]

* وممَنْ وصَفَ الأسد فأبدعَ في وصْفِهِ وأجَادَ ابنُ المعتزّ أيضاً ، فقد وصفَ أسَداً في قصيدةٍ رائيّةٍ منْ أجْمَلِ شِعْرِه ، حيثُ وصفَ الأسدَ الذي يهزمُ الجيشَ ويأْتي لأشبالهِ كلّ يوم بصيدٍ منَ البَشَر أو الوحْشِ ، أمّا صوتُه فيزعْزِعُ أحْشَاءَ البلادِ والعبادِ ويذهلُ الأَبْطالَ ، وإذا ما ضَمَّ شبيهاً لَهُ بين كفّيهِ ، حسبْتَ أنَّه يداعبُ عَروساً ولكنَّ غلائلَها حمْرٌ ، اسمعْ إليهِ يقول :

وَمَا لَيْثُ غابٍ يهزِمُ الجيْشَ خَوْفُهُ   بمشَيةٍ وثَّابٍ علىٰ النَّهي والزَّجْرِ
يَجُـرُّ إلـىٰ أَشْبـالِـهِ كُـلَّ ليلَـةٍ   عَفيرةَ وحْشٍ أو قتيلاً منَ السَّفْرِ
إذَا مـا رأَوهُ طـارَ جمعُهـمُ معـاً   كَما طَيَّرَ النَّفْخُ التُّرابَ عنِ الجَمْرِ
جَريءٌ أبيٌّ يحْسَبُ الأَلْفَ واحِداً   بَعيـدٌ إذا مَـا كَـرَّ يـومـاً مـنَ الفَـرِّ
يُـزعـزعُ أحْشَـاءَ البـلادِ زئيـرُهُ   ويذهلُ أبطالَ الرِّجَالِ منَ الذُّعْرِ
إذا ضـمَّ قِـرنـاً بيـن كفّيـه خِلْتَـه   يُعاني عَروساً في غلائِلهَا الحمْرُ
فحـرَّمَ أرضَ الحَـائـرَيْـنِ ومـاءَهَـا   فَهَيْهاتَ مَنْ يَعْدُو علَيْها ومَنْ يَسْري
بـأَجْـرَأَ منْـهُ حَـدَّ بـأسٍ وعـزْمـةٍ   إِذَا ما نَزَا قَلْبُ الجبَانِ إلى النَّحرِ

* وللشَّريفِ الرّضيّ قصيدةٌ طويلةٌ في وصفِ الأَسد منها :

نَهيتُكَ عن شِعْبٍ عسيرٍ ولوجُهُ   بذي الرَّمْثِ قَدْ أعْيَا على النَّاس صِلُّهُ
فَـلاَ تَقْـربَـنَّ الغَـابَ يحْميـهِ ليْثُـهُ   وَدَعْ جَـانبـاً وَعْـراً علـىٰ مَـنْ يَحُلُّـهُ
كأنَّ علىٰ الأطوادِ مِنْ جزْعٍ بيشَةٍ   رَصيـد طَـريـقٍ ضَـلَّ مَـنْ يَسْتَـدلُّـهُ
تلفَّـعَ فـي ثِنْتَـيْ عَبَـاءٍ مُشبْـرَقٍ   أَصَـابيـغُ أَلْـوانِ الـدِّمـاءِ تَبُلُّـهُ

---

(١) ديوان ابن الرومي بتحقيق د. حسين نصار ؛ وانظر هناك القصيدة كاملة.

أَخُــو قَنَــصٍ كَفَّــاهُ كِفَّــةُ صيْــدِهِ   إذَا جَــاعَ يــومــاً والــذِّراعَــانِ حَبْلُــهُ
يُشَقِّقُ عنْ حبِّ القُلُوب بمخْصَفٍ   أزلَّ كمَـا جَلَّـى عـن الـرّمْـحِ نَصْلُـهُ
قَليــلُ ادّخَــارِ الــزَّاد يعْلَــمُ أنَّــه   متَىٰ مَا يُعَايِنْ مَطْعماً فهو آكِلُه[1]

* وإنْ كُنَّا نَـنْسىٰ وصْفَ الأُسودِ ، فلا يمكنُ أنْ ننسىٰ لاميّةَ أبي الطَّيِّب المتنبّي التي أخذَتْ مساحةً كبيرةً من صُدور الكتبِ والنَّاسِ على مرِّ العصور ، تلكَ القَصيدة الجميلة التّيّاهة على غيرِها والتي مَدَح فيها بدرَ بنَ عمّار ، وذكرَ الأسدَ وقد أعْجلَه بَدْرٌ ، فضربَه بسوطهِ ضربةً عفَّرَهُ وخضَّبه بالدّماءِ ، بعد أنْ كانَ الأسدُ متخضّباً بدمِ الفَوارس ، ولنسمعْ ولنقرأْ معاً مطْلعَ قصيدتِه الشَّهيرةِ حيثُ يقولُ:

في الخدِّ أنْ عزَمَ الخَليطُ رحيْلا   مَطَـرٌ يـزيـدُ بـه الخُـدودُ محُـولاَ
يـا نظـرةً نَفَـتِ الـرُّقَـادَ وغَـادَرَتْ   فـي حـدِّ قلبـي مـا حَييـتُ فُلـولاَ
وأَرىٰ تَــدلُّلَــك الكثيــرَ مُحَبَّبــاً   وأرَىٰ قليــلَ تَــدلُّــلٍ مَمْلُــولاَ
حِدَقُ الحِسانَ منَ الغَواني هِجْنَ لي يَــومَ الفِــراقِ صبــابــةً وعَليْــلاَ
حِـدَقٌ يُـذمُّ مـن القـواتِـلِ غيـرَهـا   بَـدْرُ بـنُ عمّـار بـنِ إسْمـاعيـلا
الفَــارِجُ الكُــربَ العِظَــامَ بمثلِهــا   والتَّــاركُ المَلِــكَ العــزيــزَ ذَليــلاَ
نَطِــقٌ إذَا حَــطَّ الكَــلامُ لثَــامَــهُ   أعطَــىٰ بمنطقِــهِ القُلــوبَ عُقُــولاَ
أَعْدىٰ الزَّمانَ سخاؤُهُ فَسَخَا بهِ   ولَقَـدْ يكـونُ بـهِ الـزَّمَـانُ بخيـلاَ

* ثـمَّ يـأتــي المُتنبّـي بعـد هـذا كُلّـه ليصـفَ الأسـدَ ، ويـذكـرُ أنَّ بدرَ بنَ عمار أهـاجَ أسَداً عن بقرةٍ افترسَها ، فوثب الأسدُ على كفلِ دابتهِ فأَعْجَلَه ، فضربَه بسوطهِ ، ودارَ به الجيش ، فقتلَ الأَسَد:

أمُعَفِّـرَ الليـثَ الهـزبـرَ بسـوطِـهِ   لمـنِ ادَّخَـرَت الصَّـارمَ المصقُـولاَ

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوان ابن المعتز.

وقَعَتْ علىٰ الأردنّ منْهُ بليَّةٌ　　نَضَدَتْ بها هَامَ الرِّفاق تلُولا
وَرْدٌ إذا وردَ البُحيرة شَارباً　　وَرَدَ الفُرات زئيرُه والنِّيلاَ
متخضّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ　　في غِيْلهِ من لبدتَيْه غيْلاَ
ما قُوبلَتْ عيناهُ إلا ظُنّتَا　　تحتَ الدُّجى نارَ الفريقِ حُلُولاَ
في وحْدَةِ الرُّهْبانِ إلاّ أنَّه　　لا يعرفُ التَّحريمَ والتَّحليْلا
يطأُ الثَّرىٰ مترفّقاً منْ تيههِ　　فكأنَّه آسٍ يجسُّ عَليْلاَ

* ثمَّ يصِفُ شجاعةَ بدر بنِ عمّار فيقول:

سبقَ التقاءكَهُ بوثبةِ هاجمٍ　　لو لمْ تصادمْه لجازَكَ مِيْلا
سمعَ ابنُ عمّته بهِ وبحالِهِ　　فَنَجا يهرولُ منْكَ أمْسِ مَهُولا

* وختمها بقوله:

ما كلُّ مَنْ طلبَ المعالي نافِذاً　　فيها ولا كلُّ الرِّجَالِ فُحولا[1]

* ومعذرة من القارىء الكريم، فلعلنا قد أطلنا في هذا المجال، واستطردنا، ولكن عذرنا عذوبة الأدب وجماله، وكل من يتذوق الأدب تندبه عذوبته أحياناً.

* ونعودُ إلىٰ جحدرِ بنِ معاويَة الذي فَتَح بابَ قَتْلِ الأسودِ لمنْ بعدَه، بيْدَ أنَّ التَّاريخ أَغْلقَ ستَارَتَه بعد تلكم الحادثة أمامَ الحجّاج، ولم نَعُدْ نَسْمع لجحدرٍ أثَراً ولا خَبراً، إلاّ أنَّ أُذُنَ التّاريخ الواعية قد نَقَلَتْ لنا أنباءَ فروسيّته، فكانَ منْ فرسانِ التَّاريخِ، وبَطلاً بارِزاً في تاريخِ الفُرسان.

* * *

(١) انظر: ديوان المتنبي (٣/ ٢٣٢ ـ ٢٤٥) بانتقاء واختصار والقصيدة تعدّ (٤٩ بيتاً).




سيف الدّولة الحَمْداني

* فارس مجاهد، وأديب مليح النظم، وفصيح بليغ، وكريم جواد.
* اجتمع عنده من الأمراء والأدباء ما لم يجتمع بباب أمير أو ملك.
* قال المتنبي في سيف الدولة:

فيوماً بِخَيلٍ تطرد الرومَ عنهم
ويوماً بجودٍ تطردُ الفقرَ والجدبا
سراياك تترى والدمستقُ هاربٌ
أَصاحِبُه قتلى وأموالُه نُهبى




حَامِلُ لِوَاءِ الجِهَادِ:

* مَنْ هذا الذي كانَ مقصد الوفودِ ، وكعبة الجودِ ، وفارس الإسلامِ ، وحامل لواءِ الجهاد؟!

* ومَنْ هذا الذي تمَّ له منَ الرُّوم أربعون وقْعةً ، أكثرها ينصرُه اللهُ عليهم؟

* ومَنْ هذا الفارسُ المعلمُ ذو الأدبِ الرّفيعِ والنَّظم المليح؟!

* بل مَنْ هذا الذي اجتمعَ ببابه منَ الشُّعراء ما لم يجتمع ببابِ مَلكٍ في عَصْرِه؟

* ومن هذا الذي شجَّع المعرفةَ ويُدعى مشجِّعَ العُلوم والآداب والفنون؟

* ومنْ هذا الذي جُمِعَ له منَ المدائحِ مجلَّدان ، ومدحه شاعرُ العربيّة ومالىءُ الدنيا وشاغلُ النَّاس؟!

* هذا الفارسُ الشَّاعرُ الجوادُ الكريمُ ، حسنةُ الزَّمانِ ، وهو أحدُ الأمراءِ الشّجعان ، والملوكُ الكثيري الإحسان ، سيفُ الدَّولة بنُ حَمْدان. . . أبو الحسن عليُّ بنُ عبد الله بنِ حَمْدان الحمدانيّ التَّغلبيّ الجزري[1] ، المولود في ذي الحجّة سنة (٣٠٣ هـ).

* افتتحَ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ ترجمته فقال: سيفُ الدَّولةِ عليُّ بنُ عبد الله بن حَمْدان صاحبُ حلب ، مقصدُ الوفود ، وكعبةُ الجود ، وفارسُ

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٧ ـ ١٨٩) ، وشذرات الذهب (٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥) ، والبداية والنهاية (١١/ ٢٦٣ و٢٩٤) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٨/ ١٠٧ ـ ١٠٩) ووفيات الأعيان (٣/ ٤٠١ ـ ٤٠٦) ، ويتيمة الدهر (١/ ١٥ ـ ٣٤) والنجوم الزاهرة (٤/ ١٦ ـ ١٨) ، والعبر (٢/ ٣٠٥ و٣٠٦) ، وغيرها كثير جداً جداً جداً.

الإسلام ، وحاملُ لواء الجهاد ، كان أديباً مليحَ النَّظم ، فيه تشَيُّع[١] .

* وهذا الفارسُ الشَّهيرُ في ميادين الفروسيّةِ والأدبِ قد اجتمعَ له أشياءُ نادرة ، قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: واتَّفقَ له أشياء غريبة ، منها أنَّ خطيبَه كان مصنّفُ الخُطب النّباتية أَحَدُ الفصحاء البُلغاء؛ ومنها أنَّ شاعره كان المتنبّي ، ومنها أنَّ مطربَه كان أبو نَصْر الفارابي ، وكان سيفُ الدّولة كريماً جواداً مُعْطياً للجزيل[٢] .

* وفي عَصْرِ سيفِ الدَّولـةِ في القرن الرّابـعِ الهجريّ برزَ فرسان مجلّون ، كان سيفُ الدَّولة أشهرهم في بلادِ الشَّام ، وما أدراكَ ما فُرسانُ بلادِ الشَّام؟! وبذلك لا نكادُ نتحدَّثُ عن الأُمَراء الفُرسانِ، والملوكِ الشُّجعان، إلا وجدنا لسيفِ الدَّولةِ النَّصيبَ الأوفى من الحديثِ عن بطولاتهِ وغزواتِه وفروسيتهِ، ومكارمهِ وأخباره، وناهيك بالمتنبّي[٣] الذي خلَّده في قصائِدِه وملاحمِه.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٨٧).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣).

(٣) «المُتَنبّي»: شَاعرُ الزَّمان ، أبو الطَّيِّب ، أحمدُ بنُ الحُسين بنِ حسن الجُعْفي الكوفي الأديب ، الشَّهير بالمتنبّي.
وُلدَ سنةَ (٣٠٣ هـ)، وأقامَ بالباديةِ، يقتبسُ اللغةَ والأخبار، وكانَ منْ أذكياءِ عَصْره. بلغَ الذِّروةَ في النَّظمِ ، وأربىٰ علىٰ المتقدّمين ، وسارَ ديوانُه في الآفاقِ، ومدحَ سيفَ الدَّولةِ ملكَ الشَّام، والخادمَ كافوراً صاحبَ مصر ، وعضدَ الدَّولةِ ملكَ فارس والعراق.
وكان يركبُ الخيلَ بزي العَرب ، وله شَارةٌ وغلمانٌ وهيئةٌ. وقد نالَ بالشِّعْر مالاً جليلاً ، يُقالُ: وصَلَ إليه منْ ابنِ العميد ثلاثونَ ألف دينار ، ونالَه من عضدِ الدَّولة مثلَها؛ وكان يُبخَّل ، وهو القائلُ:
لَـولا المَشقَّـةُ سَـادَ النَّـاسُ كُلُّهـمُ ... الجـودُ يفْقِـرُ والإقْـدَامُ قَتَّـالُ
ولهُ هكذا عدّة أبياتٍ فائقة ، يُضْرَبُ بها المثَل ، وكان معجباً بنفسهِ ، كثيرَ البأْو والتَّيه ، فَمُقِتَ لذلك ، قُتِلَ هو وولده مُحَسَّد وفتَاه في رمضانَ سنة (٣٥٤ هـ).
(سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٠٠ و٢٠١) بتصرف=

الـفـارِسُ الـسَّـيِّـدُ:

* لئن كان سيفُ الدَّولةِ فارسَ الحلباتِ ، لقد كان فارساً في كلِّ المكرماتِ ، فهو أحدُ أفرادِ الدَّهْر ، وأمراءِ النَّظمِ والنَّثْر ، خَلَعَ عليه أبو منصور الثّعالبي من فواضلِ كلامِهِ حُللاً سندسيّة ، أظهرَ فيه خلائقَه ومكارمَه في الجودِ والفروسيّة فقال:

* كان بنو حمدان مُلوكاً وأمراء ، أوجهُهم للصَّباحة ، وألسنتُهم للفصَاحة ، وأيديهم للسَّماحة ، وعقولُهم للرجاحةِ ، وسيفُ الدَّولة مشهورٌ بسيادتهم ، وواسطة قلادتِهم.

* وكان غرة الزَّمان ، وعماد الإسلام ، ومَنْ به سَداد الثغورِ وسداد الأمور ، وكانتْ وقائعُه في عُصَاةِ العربِ تكفّ بأسها ، وتنزعُ لباسَها ، وتفلُّ أنيابها ، وتذلّ صعابَها ، وتكفي الرعيَّة سوءَ آدابِها ، وغزواته تدركُ من طاغية الرّوم الثّار ، وتحسمُ شرهم المُثَار ، وتحسن في الإسلام الآثار ، وحضرته مقصدُ الوفود ، ومطلعُ الجود ، وقبلةُ الآمال ، ومحطُّ الرّجال ، وموسمُ الأدباء ، وحلبةُ الشُّعراء.

* ويُقالُ: إنَّه لم يجتمعْ قطّ ببابِ أحدٍ منَ الملوكِ ـ بعد الخُلفاء ـ ما اجتمعَ ببابه منْ شيوخِ الشِّعْر[1] ، ونجومِ الدّهْر؛ كان أديباً شاعِراً ، محبّاً

= أقول: عُنيَ القدماءُ والمحدثون بديوانِ المتنبي عنايةً فائقةً ، وأخذَ حظَّه وحظَّ غيرِه ، ونالَ شهرةً لم ينلْهَا شاعر قطّ.

(١) منْ شُعراء سيف الدَّولةِ الحَمْدَانيّ:
أبو فراس الحمدانيّ واسمه الحارثُ بنُ سعيد بنِ حمدان التَّغلبي ، وُلدَ سنة (٣٢٠ هـ) وماتَ سنة (٣٥٧ هـ). =

لجيدِ الشّعر ، شديدَ الاهتزاز لما يُمْدَحُ به[1] .

* وكان كلٌّ من أبي محمّد عبدِ اللهِ بنِ محمّد الفيّاض الكاتب ، وأبي الحُسين عليّ بن محمد الشّمشاطي ، قد اختار منْ مدائح الشُّعراء لسيفِ الدَّولة عشرة آلاف بيت ، كقولِ أبي الطَّيِّب المتنبّي[2] :

= وأبو المُطاع وجيهُ الدَّولةِ ، واسمُه الحسينُ بنُ الحَسن ناصرُ الدَّولة بن عبد الله بن حمدانَ المعروف أيضاً بذي القرنَيْن ، كان ابنُ أخي سيفِ الدّولة ، كان أديباً شاعراً ماتَ بمصْرَ سنة (٤٢٨ هـ) .
والمتنبّي أبو الطَّيِّب أحمدُ بنُ الحُسين ، وُلِدَ سنة (٣٠٣ هـ) ، ومات سنة (٣٥٤ هـ) .
والوأْواءُ الدّمشقي ، وهو أبو الفرج محمدُ بنُ أحمد الغسّاني ، توفيَ حوالي سنةِ (٣٧٠ هـ) .
وكشَاجم ، وهو أبو الفتح محمودُ بنُ الحُسين السِّندي ، الكاتبُ الشّاعر ، والنديمُ لسيفِ الدَّولة ، توفيَ حوالي سنة (٣٥٠ هـ) .
والصَّنوبري ، وهو أبو بكر أحمدُ بنُ محمّد الضّبي الأنطاكيّ ، كان أميناً لخزانةِ كتُبِ سيفِ الدَّولةِ ، توفي عام (٣٣٤ هـ) ، وكان الصَّنوبريُّ زهّاراً حيثُ وصفَ في شعرِه الحدائقَ والنَّباتاتِ والطَّبيعةَ ، وتحوّلها في فصولِ السَّنَةِ .
وأبو الفرج الببغاء ، واسمُه عبدُ الواحد بنُ نَصْر بن محمّد المخزوميّ ، وُلدَ سنة (٣١٣ هـ) ، كان شاعراً وناثراً ذَا مكانةٍ ، ماتَ سنة (٣٩٨ هـ) .
والنّامي ، وهو أبو العبّاس أحمدُ بنُ محمّد المصيصي الدّارمي النامي ، وُلدَ نحو سنة (٣٠٩ هـ) ، ماتَ بحلب سنة (٣٩٩ هـ) ، وكانَ من فحولِ شعراءِ عَصْره ، وله مصنّفات في الأدبِ ، وكانَ عالماً باللغة. وهناك شعراء آخرون لا يتّسعُ المقامُ لذكرِهم .

(١) انظر : يتيمة الدهر (١/ ١٥ و١٦).
(٢) وصفَ الثَّعالبيُّ المتنبّي بقولِه: نادرةُ الفُلْك ، وواسطةُ عقْد الدَّهر في صناعةِ الشّعر ، ثمّ هو شاعرُ سيفِ الدَّولةِ المنسوبِ إليه ، المشهورِ به ، إذْ هو الذي جذَبَ بضبْعِه ـ أخذَ بيده ـ ، ورفعَ منْ قَدْرِه ، ونفقَ سِعْرُ شعرِه ، وألقىٰ عليهِ شعاعَ سعادَتهِ ، حتّى سارَ ذكرُهُ مسيرَ الشَّمْس والقمر ، وسافرَ كلامُه في البدوِ والحضَر ، وكادتِ الليالي تنشدُه ، والأيّام تحفظُه. (يتيمة الدهر ١/ ١١٠)

خليلـيَّ إنَّـي لا أرىٰ غيـرَ شـاعِـرٍ فَلِمْ منهمُ الدَّعوىٰ ومنّي القصائدُ
فــلا تَعْجَبــا إنَّ السُّيــوفَ كثيــرةٌ ولكنَّ سيفَ الدَّولةِ اليوم واحدُ
لَهُ منْ كريمِ الطَّبعِ في الحربِ منْتَضٍ ومن عادةِ الإحسانِ والصَّفْحِ غامدُ
ولمّـا رأيْـتُ النَّـاسَ دونَ محلّـه تيقنْـتُ أنَّ الـدَّهْـرَ للنَّـاسِ نـاقِـدُ[1]

* ومن أبياتِ هذه القصيدة التي تفصحُ عن فروسيّة سيفِ الدَّولة ، وأنَّه مطبوعٌ على الشَّجاعةِ والنَّدىٰ ومجبولٌ عليهما ، ينهبُ أعمارَ أعدائه ، وأنَّه حسامُ الملك ولواءُ الدِّين ، فيقول:

وكلٌّ يرىٰ طُرْقَ الشَّجاعةِ والنَّدىٰ ولكـنَّ طبْـعَ النَّفْـسِ للنَّفْسِ قـائِـدُ
نَهَبْتَ من الأعمارِ ما لو حويْتَه لهنّئـتِ الـدُّنيـا بـأنَّـكَ خَـالِـدُ
فأنْتَ حُسَامُ الملْكِ واللهُ ضَاربٌ وأنــتَ لـواءُ الـدِّيْـنِ واللهُ عـاقـدُ

قَـاهِـرُ الـرُّومِ وَحَـامِـي الـثُّغُـور:

* لمَّا كانَ سيفُ الدَّولةِ في عزِّ الشَّباب وسنّ الرّجُولةِ والفتوّةِ والقوّةِ ، استولىٰ علىٰ أكثرِ الشَّام ، وذلك في سنةِ (٣٣٧ هـ) وعمرُهُ إذْ ذَاكَ لا يزيدُ عن (٣٤ سنة).

* وقد وقفَ سيفُ الدَّولةِ للرُّومِ وقفةَ الأبطالِ الأشداءِ الشُّجعانِ ، يردُّ غاراتِهم المتتاليةِ علىٰ أطرافِ بلاده ، ويدفعُ عدوانهم عن أرضِ الله ، ويوقعُ بهم إيقاعاً شديداً ، وكانتْ مقدرتُه الحربيةُ والقتاليةُ قد غلبت كلّ من كان في عَصْرِه منَ القوّاد والرّؤساء ، وأمراء المقاطعات الذين كانت تهمُّهم نفوسُهم ومطامعُهم ، ويعملونَ علىٰ انتكاسِ الدَّولة العربيّة وهلاكِها.

* وكان سيفُ الدَّولةِ يُؤَمِّلُ له أنْ يتسعَ ملكه اتّساعاً عظيماً ، لولا ما كان منَ الأحداث العظيمةِ ، ثمَّ ما كانَ في الدَّولةِ منْ دسائسِ الأعاجمِ التي

---

(١) انظر: يتيمة الدهر (١/ ١٦ و١٧) وديوان المتنبي (١/ ٢٧١ و٢٧٢).

فرّقتِ القلوب ، فلم تدعْ أمّةً منَ النَّاس إلا دخلَتْ بينهم فمزَّقَتهم شَرَّ ممزّق ، وجعلَتْ بعضَهم على بعضٍ حرباً وفسَاداً[1] .

* وكان بنو حَمْدان في الشَّام يرون فَسَادَ الأعاجِم ، وما يبذرونه منْ بذورٍ وسمومٍ لتفرقةِ العرب ، فانحازوا إلى الدولةِ العبّاسيّة ينصرونها ، وينصرونَ[2] الخليفة العبّاسي النّائم على كرسيّ الخلافةِ ، والذي لا يقدرُ على التصرفِ وحده في الأمورِ ، وقد أبدىٰ بنو حَمْدان من الدَّهاء والذّكاء ، وسَعَةِ الحيْلَةِ ، وحسنِ السِّياسةِ والتَّدبير ، وإدارةِ الأمور ما لا قِبَلَ لأحدٍ منْ أهلِ ذلك العَصْرِ في الإتيانِ بمثلهِ ، وقد أثبتَ بنو حمدان بسياستهم وحصافتِهم أنّهم كانوا يريدونَ إنقاذَ العربِ والإسلام من الفتنِ الباغيةِ التي فعلتْ أفاعيلَها لعهدهم في تضييع السُّلطان العربيّ ، وافتعال الشّوكة والعزّة إلىٰ الحكمِ العجميّ الشّعوبيّ الفاسِدِ الطّويةِ ، الباغي بكيدهِ الإيقاع بالعربِ ودينهم ولسانِهم[3] .

* وكانَ سيفُ الدَّولةِ الحمدانيّ درّةَ بني حَمْدان ، وكان من أكثرِهم دهَاءً ، ومن أوسعِهم حيْلةً ، بل ومنْ أشدّهم حبّاً للعربِ وديْنِهم ،

---

(١) انظر : المتنبّي لمحمود شاكر (ص ٣٠١) مكتبة الخانجي ـ مصر ـ ١٩٨٧ م .

(٢) قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: وكانَ الخليفةُ أرسلَ وهو ببغدادَ إلى ناصرِ الدَّولةِ بنِ حمدانَ نائبِ الموصل يستمدُّه ويستحثُّه علىٰ البريديّ ، فأرسلَ ناصرُ الدَّولةِ أخاه سيفَ الدَّولةِ عليّاً في جيشٍ كثيفٍ ، وخدمَ سيفَ الدَّولة الخليفةَ خدمةً كثيرةً ، ولقّب الخليفة ابنَ حمدان أخا سيفَ الدَّولة بناصرِ الدَّولة ، وجعلَه أميرَ الأمراء ، وخلعَ على أخيهِ أبي الحسن ولقّبه سيفَ الدَّولة .

(البداية والنهاية ١١/ ٢٠٢) بتصرف

وإلى هذا أشارَ أبو فراس الحمدانيّ بقوله :

ففينا لِدينِ اللهِ عزٌّ ومنعةٌ ... ومنّا لِدينِ الله سيفٌ وناصرُ

(٣) انظر : المتنبي (ص ٣٠٢) بشيء من الاختصار والتصرف .

وأكثرهم سعياً في ردّ الحكومةِ والسُّلطان إلى العرب ، كما كان منْ أعظمِهم همةً في مسَاعي المجدِ لنفسِهِ ولقومه ، وأكرمهم خُلُقاً آسِراً.

* ويُضاف إلى تلكم المكارم والمحاسن أنَّ سيفَ الدَّولةِ كان واسطةَ العِقْد الفريدِ لبني حَمْدان ، فقد كان من بينهم محبّاً للأدب والمعرفةِ ، قائماً على خدمتِه بإخلاصٍ ، وكان بطبيعتِه شَاعِراً حُلْوَ اللسانِ ، فصيحَ الكَلام ، خفيفَ الرُّوح ، بيانيَّ الفِكْر ، جيّد القريحةِ ، يحبُّ العربَ والعربيّة حبّاً مَلَكَ عليه مجامع فؤادِه ، وكان مبغِضاً للأعاجم ورطانتِهم ولسانِهم الذي أرادوا أنْ يغلبُوا به على فارس وغيرها.

شَـذَرَاتٌ مِـنْ بُطُولاتِـهِ وإقْدَامِـهِ :

* كان سيفُ الدَّولةِ عالي الهِمّة ، بعيدَ المنال ، يحبُّ معالي الأمور ، ويكرهُ سفاسفَها ، وكان بَطَلاً مغواراً لا يقرُّ له قرار ، ولا يركنُ ولا يستريحُ من معركةٍ إلا يفتتحُ معركةً أخرى مع الرُّوم ، ويقرعُهم برجالهِ وسيفه ، حتى إنَّ أبا فراس الحَمْدَانيّ قد امتدحَه بقصيدةٍ تحدَّثَ فيها عن همّتِهِ وكثرةِ غزواته ، وأنَّ المخلوقاتِ منْ رجالٍ وخيلٍ وإبل قد ضجَّتْ لطولِ القتالِ فقال :

قَدْ ضَجَّ جيشُكَ منْ طُولِ القِتَالِ بهِ	وقَـدْ شكَتْـكَ إلينـا الخيـلُ والإبـلُ
وقد دَرىٰ الرُّومُ مذْ جاورتَ أرضهمُ	أنْ ليس يعصِمُهم سَهْلٌ ولا جَبَلُ
في كلِّ يومٍ تزورُ الثَّغْرَ لا ضَجَرٌ	يثنيـكَ عنْـهُ ولا شغْـلٌ ولا مَلَـلُ
فالنَّفسُ جَاهِدةٌ والعينُ ساهِرةٌ	والجيشُ منْهَمِكٌ والمالُ مبتذلُ[1]

* وتروي أخبارُ سيفِ الدَّولةِ شذرات من بطولاته التي هي غرّةٌ في جبينِ الدَّهْر ، وواسطةٌ في عقْدٍ ثمين ، فقد غَزَا الرُّومَ أربعينَ غزوةً كانت له ،

---

(١) انظر : يتيمة الدهر (١/ ٢٨).

وكانت عليه ، ومع هذا لم يفترْ عزمُه ، ولم تَنْثَنِ همّته ، بل صلبتْ قناتُه ، وقويت شوكتُه ، فمن غزواته أنَّه أغارَ على زبطرة ، وعرقة ، وملطية ونواحيها ، فقتلَ وأحرقَ وسبىٰ ، وانثنىٰ قافِلاً إلى دَرْبِ موزار فوجدَ عليه قسطنطينَ بنَ فردس الدّمستق ، فأوقعَ به ، وقتلَ صناديدَ رجالهِ ، وعقب إلىٰ بلدانه ، وقد تراجعَ من هرب منها ، فأعظمَ القَتْل ، وأكثرَ الغنائم.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ سيفَ الدَّولةِ قد فَعلَ ما لم يفعلْه أحدٌ قَبْلَه ، إذ عبَر نَهْرَ الفُرات إلىٰ بلد الرّوم ، حتى أغارَ على بطنِ هنزيط ، فلما رأىٰ فردس بُعْدَ مغزاه ، وخلوَ بلاد الشّام منه ، غزَا نواحي أنطاكية؛ فأَسْرىٰ سيفُ الدَّولةِ يطوي المراحلَ لا ينتظر متأخراً ، ولا يلوي على متقدّم ، حتّى عارضَه بمرعش ، فأوقعَ به وهزمه ، وقتلَ رؤوس البطارقة ، وأسر قُسطنطين بن الدّمستق ، وأصَابتِ الدّمستقَ ضربةٌ في وجههِ ، وأكثرَ الشُّعراءُ في هذهِ الوقعةِ ، فقالَ أبو الطَّيِّب المتنبّي قصيدتَه الدَّاليةَ الجميلةَ الشَّهيرة:

لِكُلِّ امرىءٍ منْ دَهْرِهِ مَا تَعوَّدَا ... وعَاداتُ سَيْفِ الدَّولَةِ الطَّعْنُ في العِدا
وربَّ مـريـدٍ ضـرَّهُ ضـرَّ نَفْسـه ... وهادٍ إليهِ الجيش أهدىٰ وما هَدى
تظـلُّ ملـوكُ الأرضِ خـاشعـةً لـه ... تفـارقُـه هلْكـىٰ وتلقـاهُ سُجَّـدَا
سريتَ إلى جيحانَ منْ أرضِ آمدٍ ... ثـلاثـاً لقـد أدنـاكَ ركْـضٌ وأبْعَـدا
عرضْتَ له دونَ الحياةِ وطرفهِ ... وأبْصَـرَ سيـفَ اللهِ منْـك مجـرَّدَا
ومـا طلَبَـتْ زُرْقُ الأسنَّـةِ غيـره ... ولكـنَّ قسطنطيـنَ كـانَ لـه الفِـدا

* ويستمرُّ المتنبّي في قصيدتِهِ الجميلةِ يذكرُ انتصار سيف الدَّولةِ وفوزِه حتى يصلَ إلى هذه الحِكَم الجميلة:

إذا أنتَ أكْرمْتَ الكريمَ ملكْتَه ... وإنْ أنْـتَ أكـرمْـتَ اللئيـمَ تمـرَّدَا
ووضْعُ النَّدىٰ في موضعِ السَّيْفِ بالعُلا ... مضرٌّ كوضْعِ السَّيْفِ في موضعِ النَّدى

وما الدَّهْرُ إلا منْ رُواةِ قَلائدي إذا قُلْتُ شِعْراً أصبحَ الدَّهر مُنْشِدا
ودَعْ كلَّ صوتٍ غيرَ صوتي فإنَّني أنا الصَّائحُ المحكيُّ والآخر الصَّدى[1]

* وأمّا أبو فراس ، فقد نسجَ رائعةً أخرىٰ لا تقلُّ جمالاً عن داليةِ المتنبّي أفصح فيها عن شجاعةِ سيف الدّولة ، ورسمِ خصائلهِ الحربيّةِ ، وانتصارِه على قسطنطين فقال :

وَآبَ بقُسْطَنطيــنَ وهــو مُكَبَّــلٌ تحــفُّ بطــاريــقٌ بــهِ وزرازِرُ
ووَلّى علىٰ الرَّسمِ الدُّمستقُ هارباً وفي وجْهِهِ عذْرٌ من السَّيفِ عاذرُ
فـدىٰ نَفْسَـه بـابـنٍ عليـهِ كنفْسِـهِ وللشـدَّة الصَّمـاءِ تُقْنـىٰ الـذَّخـائِـرُ
وقد يُقْطَعُ العضْوُ النَّفيسُ لغيرِه وتُـدْفَـعُ بـالأَمْرِ الكَبيرِ الكَبـائِرُ[2]

* وسار سيفُ الدّولةِ كي يبنيَ الحَدثَ[3] في بلادِ الرُّومِ ، فعظمَ ذلك على مَلِكِ الرُّوم ، واشتدَّ عليه الأمْرُ ، وأقامَه المقيمُ المُقْعِدُ ، فجمعَ عظماءَ أهلِ مملكته وقوادَه ، ومن يعتمد عليهم ، ثمَّ جهزهم بالصَّليبِ الأعظمِ الذي يدّخره لمهماتِ الأمور وعظائمِ الأحداث وجلائلِ الأعمال ، ثم جعلَ عليهم فردس الدّمستق ثائراً بابنهِ قسطنطين في عددٍ منَ الجنودِ لا يُحْصىٰ ، وساروا حتى سدُّوا الأفق ، وأحاطُوا بعسكر سيف الدَّولة الحَمْداني .

* وبدأتِ المعركةُ ، والتهبتِ الحربُ ، واشتدَّ الخَطْبُ ، واحمرتِ الحدقُ ، وضاقتِ الأنفاسُ ، وكثر الرُّومُ علىٰ جيشِ سيف الدَّولة ، وبلغتِ

---

(١) ديوان المتنبي (١/ ٢٨١ ـ ٢٩١).
(٢) انظر : يتيمة الدهر (١/ ٢٩). و«الزَّرازِر» : جمعُ الزَّرزار ، وهو الذّكي الخفيف. و«تقنى» : تُدخر . و«الذَّخائر» : جمع ذخيرة : ماتذخره لوقت الحاجة.
(٣) «الحدَث» : القلعةُ المشهورةُ التي بناها سيفُ الدَّولة ، وهي في بلاد الرُّوم ، وعليها كانت الوقعة المشهورة بينه وبينهم.

القلوبُ الحناجرَ ، وساءت ظنونُ المسلمين ، وكادتْ تزيغُ قلوبهم ، ثمّ أنزلَ الله عزَّ وجلَّ نَصْره علىٰ المسلمين ، وهنالك حَمَلَ سيفُ الدّولةِ حملةً حَمْدانيّةً صادقةً ، أظهرَ فيها براعتَه الحربيّة ، وبسالَتَه القتالية ، وراحَ يخرقُ صفوفَ الرُّومِ طلباً للدّمستق ، فألقىٰ اللهُ الرُّعْبَ بقلبِ الدمستق ، فولّى هارباً ، ولم يعقبْ ، وأُسِرَ صهرُه وابنُ بنته ، وقُتِلَ في هذه الموقعةِ كثيرٌ منَ الرُّوم وأعلاجِهم ، وأكثر الشُّعراء في هذهِ الوقعةِ ، ووصفوها ورسموها وخلّدوها ، وخلّدوا انتصار سيفِ الدّولةِ ، فقال أبو الطَّيِّب ، وذكر الحَدَثَ :

عَلى قَدْرِ أهْلِ العزمِ تأتي العَزائمُ ... وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارِمُ

يكَلِّفُ سَيفُ الدَّولةِ الجيشَ همَّهُ ... وقد عجزتْ عنه الجيوشُ الخضارمُ

ويطلبُ عنْدَ النَّاس ما عند نفسِه ... وذلكَ ما لا تدَّعيهِ الضَّراغِمُ

هل الحَدثُ الحمراءُ تعرفُ لونُها ... وتعلمُ أيّ السَّاقيَيْن الغمائمُ

* ومنها يذكرُ بناء الحَدَثِ :

بَنَاهَا فأَعْلىٰ والقَنا تقرعُ القَنا ... وموجُ المنايا حولَها متلاطمُ

وكانَ بها مثلَ الجنونِ فأصبحتْ ... ومن جثَثِ القتلى عليها تمائمُ

وكيفَ ترجّي الرّومُ والروسُ هَدْمَها ... وذا الطَّعْنِ أسَّاسٌ لها ودعَائِم

* ثم يذكرُ كثرةَ الرُّوم :

أتوكَ يجرّونَ الحديدَ كأنَّهم ... سَروا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ

خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربُ زحْفُه ... وفي أذنِ الجوزاءِ منهُ زَمازِمُ

* ثمّ يصفُ شجاعتَه وثباته :

وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ ... كأنَّكَ في جفْنِ الرَّدىٰ وهو نائِمُ

تجاوزتَ مقدار الشَّجاعةِ والنُّهىٰ ... إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عالمُ

نثرتَهم فوقَ الأُحيدبِ نثرةً ... كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدَّراهمُ

* ثم يذكرُ فرار الدمستقِ ، وقَتْل ولدِه وصهرِه فيقول :

أفي كلّ يومٍ ذا الدّمستقُ مقدمٌ قَفَاه على الإقدامِ للوجهِ لائمُ

وقد فجعْتَه بابنهِ وابنِ صهْرِه وبالصِّهر حملاتُ الأميرِ الغواشمُ[1]

* وهكذا كانتْ غزواتُ سيفِ الدَّولة وحروبه كثيرةً مع الرّومِ الذين أجلبُوا عليهِ بخيلهم ورجلهم ، وكانت نيّةُ سيفِ الدّولةِ ضمّ أشتات البلاد الشّامية تحتَ سُلْطانه ، ولكنّ الحروبَ قد استهلكت كلّ قوّته ، فلم يجدْ متّسعاً لنيّتِه في توطيد حكمهِ في الشّام ، ولكنّه استجمعَ قوّتَه فمالَ على العِراق ، وردَّ أمْرَ الحكْمِ إلىٰ نِصَابهِ.

* يقولُ محمود محمّد شاكر : ونحنُ نظنُّ أنَّ السَّببَ في كثرةِ غزواتِ الرُّوم في عَهْدِ سيف الدّولةِ لبلاد الشَّام وأطرافها أنَّ الذين كانوا يفتنون النَّاسَ ببغدادَ منَ الأعاجم والرومِ والتركِ والدّيلم لينالوا ما يريدون ، علموا بأمرِ سيف الدَّولة ، وما اعتزمَ منَ الميلِ عليهم ميلةً رابيةً ، فأوعزوا إلى ملك الرّوم أنْ يقاتِلَه ، وأوقعوا في قلبهِ أنَّ سيْفَ الدَّولة إنّما يريدُ أنْ يزيلَ الملْكَ من بينِ يديه ، ويغلبه على بلادِه ، فتمَّ لهم بذلك ما أرادوا من صرفِ

---

(١) انظر : ديوان المتنبي (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٩٠) باختصار وتصرف واختيار.
قال ابنُ خالويه : لما لحقَ الدمستقُ ما لحقَه ، وأُسِرَ ابنُه وابنُ أخيه ، وماتَ في حبْسِ سيفِ الدّولة ؛ جَمَعَ عَساكِره ، وقصدَ الثّغور ، فسارَ إليه سيفُ الدَّولة ، والتقوا عند الحدَثِ ، وسيفُ الدولة نازلٌ عليهم ، فلما أشرفَ الدّمستقُ علىٰ الأُحَيدب ـ وهو جبلٌ مطلٌّ عليها ـ هالَ المسلمين ما رأوا وتسلّلوا عن سيفِ الدَّولةِ ، وكان في عدّة يسيرةٍ ممن بقيَ معه ، فحملَ عليهم سيفُ الدَّولةِ فيمن ثبتَ معه ، وكانَ له بصيرة ، فأنزلَ اللهُ الصَّبر والنّصر ، فولّىٰ الدّمستق هارباً ، وأُسِرَ صهرُه وابنُ بنته وقرابات له ، فاستبقاهما سيفُ الدَّولة وقَتَلَ الباقي.
ويدلُّ كلام ابن خالويه أنَّ ذلك كان سنَة ٣٤٣ هـ. وكذلك قال ياقُوت : إنَّ خروجَ سيفِ الدَّولة لبناءِ الحدث كانَ سنة ٣٤٣ هـ.

سيف الدّولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلالِ أرضهم ، وانتزاعِ السُّلطان من أيديهم ، وكان سيفُ الدَّولةِ علىٰ عِلْمٍ بما يبيّتون له منَ المكْرَ ، فكان ينازلُ الرّومَ ويواقعُهم ، ويعُدُّ انتصاره وهزيمةَ الرّوم انتصاراً لدعوتهِ العربيةِ ، وهزيمةً للأعاجمِ أصحاب هذا المكْر ، وهزيمةً لمن وقعَ في حبائِلهم منَ العربِ الذين لهم سلطان هؤلاء؛ ولذلك كان وقْع انتصارِه في العراق ، وما وراء دجلة كوقعِ الصَّاعقة على رؤوسِ الفتنة ، وعلى الذين تولّوا كِبْرَ هذا المكر السّيىءِ والكَيدِ الخفيّ .

* وأجَدَّتْ هذه الوقائع ـ التي انتصرَ فيها سيف الدَّولة على جيوشِ الروم ـ عداوة أصحاب السّلطان منَ الأعاجمِ لدولة بني حَمْدان ، فطفقوا يعملون على تفريق شَمْل من اجتمعَ إلى سيفِ الدَّولةِ ، وآزره ونصره ممن كان بالموصلِ والشَّام وغيرهما ، وبذلوا في مسعاتهم أموالاً وذخائراً ، ولولا ما كان عليه سيفُ الدّولةِ منَ الكرمِ والسَّخاء وبسطِ اليدِ للعافين والمريدين طبيعةً مركّبةً في أصلِ خلقهِ لأعيوه ، ولأخرجوا منْ سلطانه أكثر مَنْ دان له ، ورضي به وبحكمه ، ولأعانهم على ذلك ما يرون منَ المظالمِ التي ارتكبها سيفُ الدولة مدَّة حكمه وسُلطانه[1] .

* وهكذا كانَ سيفُ الدَّولةِ سيفاً مُصْلتاً على أربابِ الفتنِ وأعلامَ المكائدِ ، وكبراء الأعاجم وكُبَّار المفسدين ، مدركاً للمكايد التي كانُوا يحيكونها ، خبيراً بما تكنّه نفوسهم ، ولذا فقد كان مضطلعاً بأعباء كثيرة منها: إيقاظ الهمم العربية ، ومنها: القضاء على الفتَن التي أوهَتْ قوّة الدّولة العربية ، وفتّت في عضدها .

* وكان سيفُ الدَّولةِ الرّجلَ الضَّربَ الشَّجاعَ المستبسل الذي لا يهابُ

---

(١) انظر: المتنبي (ص ٣٠٣ و٣٠٤).

ولا يفتر ، بل يتقحّم ولا يزداد علىٰ البلاء إلا مضاءً وعزيمةً وإقداماً ، وهو الرجلُ الذي ينفذُ في بصره وبصيرته إلىٰ عواقبِ الأمور ، فلا يغْفُلُ ولا ينامُ ولا تغمضُ له عينٌ ، ولا يصبر على ضيمٍ. فهو الرَّجلُ العربيُّ المخلصُ الذي أعملَ فكْرَه في إنقاذِ **أمّته** ، وجاهدَ في سبيلِ ذلك بقلبِهِ ولسانِهِ وفكْرِه وسنَانِهِ ، فقد انطوتْ جوانحهُ على الجهادِ وقتالِ الرّوم وإزاحتهم عن البلادِ العربية ، وإراحةِ العباد **من شرّ**هم ومن حقدهم الدَّفين.

مَـجْـدٌ وشُــهْـرَةٌ:

* لعلَّ سيفَ الدَّولةِ الحَمْدَاني أشْهَرُ أميرٍ عربيٍّ خلَّدَتْهُ مدائحُ أميرِ شعراءِ عصْرِه وهو أبو الطِّيِّب المتنبّي ، فقد رسَمَ أبو الطّيّب في قصائِدِه سيفَ الدَّولة أبدعَ رسْمٍ وأحلاه ، وكأنَّ صورةَ سيفِ الدَّولةِ ماثلةٌ في الأذهان في كلّ عصرٍ وأوان ، ولعلّ سِرَّ خلودِ الرَّجُلَيْن أنَّ سيفَ الدَّولةِ كانَ أمير العربِ في الشَّام ، فأحبَّه المتنبّي وأمَّلَ فيهِ الخيرَ والبركةَ والنَّصْرَ لآرائِهِ وأفكارِه التي تلتقي مع آراءِ سيفِ الدَّولةِ ، كما أنَّ المتنبّي كانَ أميرَ شعراء عَصْرِه ، وفارسَ اللّسان والسِّنان ، فَرَاحَ يسبغُ على سيفِ الدّولةِ حُللاً فواضِلها منْ ألوانِ البَيان وروائعِ الأشعارِ ، ورائقِ النَّظْم.

* وتلألأَ مجدُ سيفِ الدَّولةِ في شِعْر المتنبّي فقرّبَه ، وزادَه عطاءً وإقطاعاً ، وأسبغَ عليه نعمةً ظاهرةَ الجودِ ، فتفجَّرتْ حيالها عبقريةُ المتنبّي التي كانَ يلحظُها سيفُ الدَّولةِ بحسنِ فراستِه وذكائِه ، حيث عَلِمَ أنَّ أبا الطَّيِّب هذا سيكونُ مخلِّدَ ذِكْرِه ، وحافظَ عهدِه وأخبارِه وصفاته في شعرِه الذي يبلغُ أذنَ الجوزاءِ ، ويُشَرِّقُ ويغرِّبُ ويحظىٰ بمسَاحةٍ واسعةٍ مِنْ نفوسِ النَّاس بمختلفِ البُلدَان.

* إنَّ سيفَ الدَّولةِ رجلٌ آتاه اللهُ فَهْماً وذكَاءً ، فليسَ مثلُه يغْفُل عن عبقريةِ المتنبّي الصَّارخة ، فقد كانَ سيْفُ الدَّولةِ أديباً شاعِراً ، قد اجتمعتْ

لهُ منْ أداةِ الأدبِ والشِّعْر أداةً كاملةً متقنةً ، وكان بصيراً بنقدِ الشِّعر ، نافذاً في إدراكِ أسرارِ البَيان ، ممّا جعلَ المتنبّي يجيدُ الشِّعْر ، ويقلِّبُ المَعاني ، ويختارُ منها ما يشاء ، ويصْطَفي منَ الألفاظِ ما يتناسبُ مع المعاني والمُناسَبة التي يقولُ فيها أشعارَه وقصائِده.

* لذلك فقد بقيَ المتنبّي في ظلِّ سَيْفِ الدَّولة بضعة عشَر عاماً[1] يقولُ فيه الشِّعر ممجّداً له ، ورافعاً منْ ذكْره ، وذكْر غزواتِه وحروبِه ، ووصفَه ووصفَ انتصاراته على الروم.

* وقد رووا أنَّ سيفَ الدَّولة أنفذَ هديةً إلىٰ المتنبّي سنَة (٣٥١ هـ) ، فأهداهُ قصيدةً لاميّة كتبَها منَ الكوفة إلى حلبَ يذكرُ فيها بطولاتِه الخارقة ، وغزواتِهِ المتتالية للرّوم ومنها:

لَيْسَ إلآكَ يا عَليُّ هُمامٌ ... سَيفُه دُونَ عرضِهِ مَسْلُولُ
أنتَ طول الحياةِ للرُّوم غازٍ ... فمتىٰ الوعدُ أنْ يكونَ القُفول
وسوىٰ الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِك رومٌ ... فعَلىٰ أيّ جانبيكَ تميلُ
قَعدَ النّاسُ كلُّهم عنْ مساعيـ ... ـكَ وقَامَتْ بها القَنا والنُّصُولُ[2]

* وهكذا سجّل المتنبّي مَجْدَ وشهرةَ سيْفِ الدَّوْلةِ ، فكانَ فارسَ التَّاريخِ الحَمْدانيّ ، وفارسَ بني حَمْدان ، وفارسَ الفُرسان في عَصْرِه.

مِنْ مَزَايَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ:

* هو ذا سيفُ الدَّولةِ الحَمْداني قد عرفْنَا شيئاً عن فروسيّته وشُهرته ومكانَتِه بينَ فُرسان التَّاريخ العربيّ ، بل ورجاله المشَاهير الميامين الذين عملُوا علىٰ إثراءِ بني يعرب بكلّ محاسنِ الفَضَائِل وفضائِل المحاسنِ.

---

(١) (من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦).
(٢) انظر: ديوان المتنبي (٣/١٤٨ ـ ١٥٨) والقصيدة مؤلفة من (٤٢ بيتاً).

* وكان سيفُ الدَّولةِ من طلاب العُلا ، ومن المتيّمين ببيضِ المَعالي ، سَطَع نجمُه ، وصَعِدَتْ همّتُه في سماءِ المكارمِ ، وكانَ سَيْفاً أقامَ عمودَ الدِّيْن بهمَّته القَعْسَاء ، وكانتِ المنَايَا خَدماً له في أيّامِ وقائِعِه ، وإذا انتضىٰ أسيافَه في المعارِكِ ، فإنَّ غُمودهنَّ هامُ الكُماةِ منَ الرُّوم .

* لقد كان سيفُ الدَّولةِ البطلَ العربيَّ الأبيَّ الكميَّ الذي ثبتَ في وجْهِ الرُّوم مدّةً منَ الزَّمنِ ، وردَّ عاديتهم عن بلاد الشَّام منْ غاراتِهم وحكمهم ، فقد أنشأَ دولَتَه في ظرفٍ حرجٍ منْ ظروفِ العربِ والمسلمين ، وذلك حين قامَ «نقْفُور فوقاس الثَّاني» يلوِّحُ بمطامِعِه الهوجاء ، ويزمجرُ بأمانيه الواسعَةِ في استردادِ بلاد الشَّام ، والنَّفاذِ منها حتى إلى الحجازِ ، وكان ضعْفُ الخلافةِ في بغداد ، وتشتّت قُواها ، ممّا أغراهُ علىٰ الطَّمع وشجَّعَه على الإقدام ، بيد أنَّه لقيَ الجبلَ الشَّامخ الذي تحطَّمَتْ عليه آمالُه وتبعثرتْ فيهِ مطامعُه؛ هذا الجَبلُ هو سيفُ الدَّولةِ الذي واجَهه بفروسيّته وشجاعتهِ وبسالتِه ، فلوىٰ عزمه وردَّه خائباً ، وتغلغلَ في صميمِ بلاده ، واشتبكَ معه بمعاركَ كانتْ من أجملِ ما سطّرتْه صفحاتُ تاريخنا الحربيّ والأدبيّ والسِّياسيّ ، وحسْبُك أنَّها أظهرتْ بَطَلاً مغْواراً ، وفارساً منْ طرازٍ فريدٍ كسيفِ الدَّوْلَة الحَمْدانيّ ، كما أبرزتْ بضعةَ شُعراء من مشاهيرِ شُعراء الدّنيا وفي مقدمتهم : أبو الطّيّب المتنبّي؛ وأبو فِراس الحَمْداني ، وكانت تلكم المعارك كفيلةً بحمايةِ البلادِ وحفْظها من كيدِ وغَدْر الرّوم إلى ما شاء الله .

* ومنَ العجيبِ أنَّ سيفَ الدَّولَةِ كانَ فارساً في معظمِ الميادين النَّافعة ، فقد كان مجلياً سبَّاقاً في الميدان الحربي ، كما كانَ سابقاً في ميادين العُلوم والآداب والفُنون ، حيث جمعَ في بلاطه ثلّةً منْ أعلياءِ عُلماء عَصْره ، وأكابرِ مصْرِه منَ الشُّعراء والأدباء والفلاسفة ، وكلُّهم كانَ من الأخيار

الذين حافظوا وساعدوا على توثيق تراثِ الأمّة العربيّة ، وجعلَ ثقافتها الأولىٰ بين معارف دنيا ذلك العصر .

* ولعلَّ منْ أبرزِ مزايا سيفِ الدَّولة التي جذبتْ إليه أفرادَ الدَّهْر ، وأفذاذَ العَصْر ، تلك الشَّجاعةُ والجرأةُ والإقدامُ، كذلك حروبُه المتعدّدةُ ، وجودُهُ الفيّاض ، وحبُّه للأدبِ ، وبصرُه بالشِّعر والشُّعراء ، فكانَ يعزّزُ فيهم روحَ المنافسةِ ، وروحَ العِلْم ، فغدا قصْرُه ـ إنْ صحَّ القول ـ دائرةَ معارف ، وبيتَ حكمةٍ ، وكعبةَ العِلْمِ في دنيا العلْم عصْرَ ذاك .

* ولقد كانت شجاعةُ سيفِ الدَّولةِ تشهدُ له وهو في ريعان الصِّبا وزمنَ الفتوّة ، فقد بدأَ غزو الرُّوم ومحاربتهم في سنّ مبكّرة لا يتجاوزُ عمرُه عقْدَيْن من الزَّمن في الوقتِ الذي كان أقرانُه ينعمونَ بالنّوم ، والتلذّذِ برياحين البسَاتين ، ولهو الشَّباب .

* وكان سيفُ الدَّولة بطَلاً مِقْداماً ، لم يكفَّ عن المعاركِ أبداً ، وإنّما كانَ يباشِرها بنفسهِ ، راكباً وماشياً فارساً وراجلاً ، وظلّ كذلك قرابةَ ثلث قَرْنٍ من الزَّمن حتى وافتْه المنيّة ، فلا يكاد يمرُّ عليه عامٌ أو بعضُ عامٍ إلاّ نراه في سَيرٍ إلى الحربِ إمّا غازياً أو مُدافعاً ، وكان مُنتصراً مرّاتٍ منهزماً مرّة .

* قال عنه الإمامُ الذَّهبي ـ رحمه الله ـ: وله غزو ما اتّفقَ لملِكٍ غيره ، وكان يُضْرَبُ بشجاعتَه المثَل ، وله وقْعٌ في النُّفوسِ فالله يرحمُه[1] .

* وعن كثرةِ مغازيهِ تروي الأخبارُ أنَّه كانَ كُلَّما رجعَ منْ غزوةٍ نفضَ ما علَقَ بِثيابِه من غبارٍ حتَّى جمعَه قَدْرَ لَبِنَةٍ ؛ قال الذَّهبي : وكانَ قد جمعَ من

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٨).

الغُبار الذي يقعُ عليه وقْتَ المصافّاة ما جُبِلَ في قَدْرِ الكفّ ، وأوصى أنْ يوضَع علىٰ خدّهِ[1] .

* ومهما يكن منْ أمرٍ في هذا ، فإنَّ في هذا القولِ دليلٌ جميلٌ علىٰ كثرةِ غزواتِ سيفِ الدولة وحروبهِ مع الرُّوم .

* ومنَ الطَّبيعي ـ بعد أنْ عرفْنَا هذا كلّه ـ أنْ تقترنَ شجاعة سيفِ الدَّولة بفروسيةٍ ماهرة ، فيظهرُ سيفُ الدَّولة منْ أشهر فُرسانِ عَصْره ، وربّما يصلح أنْ نسمّيه : «سيفَ دَوْلَةِ الخَيْل» لكثرةِ ركوبه إيّاها ، فقد كان يُرىٰ راكباً الخيل ، غازياً عليها ، وكان يطاعنُ بالرّمح ، ويجالدُ بالسَّيف ، ويستعملُ أحياناً نوعاً من السِّلاح يعرف بالمُسْتَوفي[2] .

* وقد عُرِفَ سيفُ الدَّولةِ بفروسيةٍ عربيةٍ محْضَةٍ ، كما عُرِفَ بحُبِّهِ وعصبيته للعَرب ، ولعلّه كانَ ممثلَ العروبةِ الوحيد ذا الصَّوتِ المسموع في ذلك العَصْر ؛ وهذه أقوالُ شعراءِ عَصْرِه تشهدُ له بذلك ، بل إنَّ عروبتَه هذه كانت منَ الأسبابِ الرئيسيّة التي جعلتِ المتنبّي ـ وهو شاعرُ العربيّة الأكبرُ والأَشْهرُ ـ يتّصلُ به ذاك الاتّصال الوثيق ، فمَثَّلا في عَصْرِهما النّزعة العربيّةَ سياسةً وأدباً ظلَّ محفوظاً في الأذهانِ إلى هذا الزَّمان .

* وممّا هو جديرٌ بالذّكْرِ أن نشيرَ إلى مملكةِ سيفِ الدَّولةِ الواسعةِ التي حمَاها بفروسيتهِ وشجاعتهِ ، فقد كانت مملكتُه تمتازُ بكثرةِ المُدن المهمّة في بلاد الشَّام من مثل : حلب ، وأنطاكية ، وقنْسرين ، ومنْبج ، وبالِس ، ومعرّة النّعمان ، ومعرّة مصريْن ، وسرميْن ، وكفر طاب ، وأفاميا ، وإعزاز ، وحماة ، وحمص ، وطرطوس ، وغيرها ؛ كما أنّها كانت تمتازُ بكثرةِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٩) .
(٢) «المستوفي» : عمودٌ من حديدٍ طولُه ذِرَاعان ، مربّع الشَّكْل ، له مقبضٌ مستدير .

الثُّغور التي تسمّى: الثّغور الجزريّة، لأنّ أكثرَ المرابطين بها منْ أهلِ الجزيرة.

* ومنَ الثُّغور المهمّة أيضاً: المُصيْصَة، وأدنة، ومرعش، وطرطوس، والحدَث، وزبطرة، وملطية، وسميساط، ورعبان، ودلوك، يُضاف إلى ذلك كُلّه: ديار بكر التي وُلِدَ فيها سيفُ الدَّولة، ثم دُفِنَ في إحدىٰ مدنها وهي ميافارقين، وديار مُضَر التي كانتِ الرَّقَّةُ عاصمةً لها، ثم ما تمَّ له فتحه من بلاد أرمينية.

* وفي سيرةِ سيفِ الدَّولة وبطولته وقفاتٌ تلفتُ النَّظَر، حيث نلمحُ أنَّه قائدٌ محاربٌ جريءٌ جرأةً واضحةً، دفعته إلى أنْ يغزو البيزنطيّين أكثر من مرّة، وكان ما يزالُ في منتصفِ العقْدِ الثَّالث من عمره، فقد أوغلَ بجيشهِ ذي العدَدِ المحدود داخلَ الأراضي البيزنطيّة، فاضطر الدّمستقُ أنْ يخرجَ إليهِ على رأسِ مئتي ألف محارب وهم في أحسنِ تجهيز حربي، فأنزلَ اللهُ نَصْره على سيفِ الدَّولة، وأسرَ سبعينَ بطْريقاً، واستولىٰ على سريرِ الدُّمستق وكرسيه.

* وممّا يدلُّ علىٰ شجاعةِ وجرأةِ سيفِ الدَّولة أيضاً، ما قام به من غزو الرّوم، ولم يكدْ يمضي علىٰ الغزوة السَّابقة سنتان، وتوغّله في أراضي الإمبراطورية البيزنطيّة، ووصوله إلى مواضعَ لم تطأْهَا قَدَما مُسلمٍ من قبْلُ، وتحدّيهِ للإمبراطور، ونزوله إلىٰ قلونْيَة.

* وقد التقىٰ سيفُ الدَّولة أباطرةً مشهورين في عَصْرِهم بالفروسيّة، فتغلَّب عليهم، ومنهم: برداس فوكاس، وأخوه نقْفُور فوكاس، ومنْ قبلهما قسطنطين ليكابنيوس الذي تحدّاه سيفُ الدَّولة في غزواتهِ قبل الملك.

* فأمّا القائدُ الفارسُ البيزنطي برداس، فقد التقى سيفَ الدَّولة في بضْعِ معاركَ، ولم يحرزْ نَصْراً واحداً رغم كثَافةِ جيوشه وكثرة جنودِه، وإنّما

كان يفقدُ في كلّ معركة جانباً كبيراً من جيشهِ ، وعدداً خطيراً من بطارقتهِ وقواده ، وكان سيىء الحظّ حينما التقىٰ سيفَ الدَّولة قرب مرعش سنة (٣٤٢ هـ) ، وفي هذهِ المعركة جُرِحَ برداس في وجههِ ، ووقعَ ابنه قُسطنطين أسيراً في يَدِ سيْفِ الدَّولة ، فضلاً عن أسرى آخرين منَ القوّاد .

* وكانت هذه المعركة منْ أكبرِ النّكبات التي مرَّت على الرُّوم ، حيث حَزِنَ برداس حُزْناً شديداً على أسْرِ ولده ، ودخل الدّير مترهّباً ، وتسابقَ شعراء سيفِ الدَّولة فوصفوا هذه الحادثة وصْفاً بارعاً ، ومنهم المتنبّي الذي شَدَا بقصيدةٍ لاميّةٍ رائعةٍ مطلعُها :

لَيالِيَّ بَعْدَ الظَّاعنينَ شُكولُ طوالٌ وليلُ العاشقينَ طَويلُ

* ومنها يذكرُ قسطنطين بنَ الدّمْستُق مقدم الرّوم وكيفية أسْره ، وكيفَ هربَ الدّمستق ، وسلّمَ ابنه للرّماح الخطيّةِ هارباً عنه ، وتركَه في قبضةِ الأَسْر ، فيقول :

علىٰ قَلْبِ قُسطنطينَ منْه تعجّبٌ وإنْ كانَ في سَاقَيْهِ منْه كُبولُ
لَعَلّك يوماً يا دمستقُ عائدٌ فكمْ هاربٍ ممّا إليهِ يؤولُ
نجوتَ بإحدىٰ مهجتيكَ جريحةً وخلفْتَ إحدىٰ مهجتيكَ تسيلَ
أَتُسْلِمُ للخطِّيّة ابنكَ هارباً ويَسْكُنَ في الدُّنيا إِلَيْكَ خَليل[1]

سَيْفُ الدَّوْلَةِ شَخْصِيّةٌ بُطُوليّةٌ :

* في رحابِ فرسانِ التّاريخِ وأبطالِهم وبطولاتِهم ، تطلعُ علينا بطولاتُ سيفِ الدَّولة الفذّة التي كان لها شأنٌ خطيرٌ في دفْعِ العدوان البيزنطي عن الأرضِ العربية .

* وتروي الأخبارُ «السَّيفيّة» أنَّ سيفَ الدَّولةِ قد وقفَ متحدّياً متصدّياً في

(١) انظر : ديوان المتنبي (٣/ ٩٥ ـ ١٠٦) والقصيدة طويلة تعد (٦٥ بيتاً) .

الميدان يناجزُ ويحاربُ جيوشَ الإمبراطوريّة البيزنطيّة الكبرىٰ في تلكم الفترة الحرجَة التي كانت فيها قوة الدّولة العبّاسيّة أوهىٰ من خيطِ العنكبوت، وكانت قد تمزّقَتْ شذَرَ مذَر، وتقاذفتها أطماعُ الطّامعين من كلّ مكان، حتى إنَّ النّزعةَ الشُّعوبية قد برزت بروزاً واضحاً ، وأخذت تتحكّم وتفرضُ رأيها ، وتعمل جهدها كي تقضيَ على العنصرِ العربيّ والرّوحِ العربيّة التي تشرَّفتْ بالإسلام.

* وفي هذه الفترة العصيبَةِ الحرجةِ ، نهضَ سيفُ الدَّولةِ الحَمْداني نهضةَ الغيورين، وأسَّسَ الدَّولة الحمدانيّة في حلب، ومن ثمَّ اتَّخذ من قلعتِها الحصينةِ معقلاً ليردَّ الغُزاةَ عنها ، وليصونَ الأرضَ العربيّة من الغزواتِ البيزنطيّة[1].

* نعم إنَّ سيفَ الدَّولةِ له عاداتٌ حلوةٌ منها الطَّعْنُ في العِدا ، كلّما كرَّرَ العِدا العُدوان على العربِ والمسلمين ، فسيفُ الدَّولةِ والحمْدانيون بطنٌ منْ تَغْلِب بن وائل ، أي أنّهم ينحدرون من أصْلٍ عربيّ صميم صريحٍ منَ العدنانيّة التي ولدت العربية ، ونشأتْ في كنفِها.

* وخاضَ سيفُ الدَّولةِ المعاركَ المتواصلةَ مع البيزنطيين للحفاظِ على ذيّاك المجدِ الأثيلِ العريق ، حتى إنَّ معاركَه وغزواته كانت أغاريدَ نشوى علىٰ أفواهِ الشُّعراء وشَفَةِ الزَّمن ولحنِ الخلود.

---

(١) لعلَّ دورَ البطولةِ الرّائع الذي صنعَه سيفُ الدَّولة في ردّ البيزنطيين عن جسمِ الدّولةِ العربيةِ الإسلاميةِ ، قد جاءَ منْ بعدهِ فرسان أشداءُ صنَعوا مجداً مؤثّلاً ، فقد جاءَ عمادُ الدّين زنكي ، ونور الدّين محمود ، وصلاحُ الدّين الأيوبي ، وردّوا حملاتِ الغزاة الأوربيين الذين تجلببوا في رداءِ الصَّليبيين ، ودحروهم في أكثرَ منْ معركة شهيرة منَ المعاركِ الإسلاميةِ في التّاريخ ، وحسبك حطين اسماً لامعاً في جبين التاريخ.

* وكان يروقُ لسيف الدَّولة أنْ يصحبَ معه الشّعراء[١] كيما يروا معاركَه وانتصاراته ، فإذا وصفُوا أعمالَه ، وصفوا معاركَه ، وحقيقة غزواته وبطولاته ، ولم يهيموا في أوديةِ الخيَال ، أو يسيروا علىٰ جناحَيْن فوقَ السَّحاب ، يسمعُون ولا يرون ، لذا جاءتْ أوصافُهم تطابقُ واقعَ سيف الدَّولةِ .

* ولعلَّ قصائدَ المتنبّي التي تسمّى «السَّيفيات» ، والتي جاوزت ثمانينَ قصيدة[٢] ، هي روائعُ عالميّة في تصويرِ المعاركِ الحمْدانيّة بقيادة الشّخصيّة الفذّة الحربية سيف الدّولة .

* فقد رافقَ المتنبّي سيفَ الدَّولةِ في غَزواتهِ ، وشهدَ بعضَ معاركهِ فوصفَ البطولةَ العربيّة وصفاً دقيقاً ، كما وصفَ شخصية سيفِ الدّولة أدقَّ وصْف ، اسمعْ إليهِ يقول :

فَيوماً بخيلٍ تطرُد الرُّومَ عنهمُ ... ويوماً بجودٍ تطردُ الفَقْر والجدْبَا
سَراياكَ تترىٰ والدُّمستقُ هاربٌ ... أَصَاحِبُهُ قَتْلىٰ وأمْوالُهُ نهْبَىٰ[٣]

---

(١) قال ابنُ العماد الحنبلي : وأخبارُه كثيرةٌ مع شعراء وقته ، كالمتنبي ، والسّري الرفاء ، والنّامي ، والوأواء ، وتلك الطبقة . (شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤)

(٢) ظلَّ المتنبّي تسعَ سنين كواملَ لم يفارقْ سيفَ الدّولة ، ولا سيما في فتراتِ الجهادِ التي مرّتْ في حياتِه ، وقد ذهبَ الدكتور طه حسين إلى أنَّ شعر المتنبي في سيفِ الدَّولة إنْ لم يكنْ من أجملِ شعرِه وأروعِه وأحقّه بالبقاءِ ، فهو منْ أجملِ الشّعر العربي كلّه ، وأحقّه بالبقاء .

(٣) لازم المتنبي سيفَ الدولة تسع سنين أتحفتِ الأدب العربي بأجمل ما يتحفُ به شاعر ، وضمّت إلى قائمةِ فحول شعراءِ العربيـة شاعراً عقمتِ العربيـةُ أن تلدَ مثله .
وقد خلّد المتنبي سيفَ الدولةِ بقصائدِه الحِسَان ، وخلّد سيف الدّولة المتنبي بعطاياه الحِسان .

* هذا ولو رحتُ أستقصي لكَ مثْلَ هذهِ الأخبار ، لما وسعَ المجالُ هنا ، وحسبُنا بما علمْنَا من هذه الأخبار والصّور التي ترسمُ معالَم شخصيّة سيف الدَّولة ، وتقرّبها إلىٰ الأذهانِ ، وخصوصاً بما وصفَه المتنبّي[١] .

* وكانت دولته نيفاً وعشرين سنَة ، وبقيَ بعده ابنه سَعْدُ الدّولة في ولاية حلبَ خمساً وعشرين سنة[٢] ، وبعده ولده أبو الفضل ، وبموتهِ انقرضَ مُلْك بني سيفِ الدَّولة ، وغربت شمسُها ، وأفَل نجمُها[٣] .

الشُّجَاعُ الجَوادُ وشَذَراتٌ مِنْ أَخْبَارِه :

* يجودُ علينا التّاريخُ بأخبارِ جُودِ سيفِ الدَّولةِ بما يرطّبُ الأسماعَ والقلوبَ ، فقد قيل : إنَّه في عيدٍ نفَّذَ إلى النَّاس ضَحايا لا تُعَدُّ كثرةً ، فبعثَ إلى اثني عشَر ألف إنسانٍ ، فكان أكثرُ ما يبعثُ إلى الكثير منهم مئة رأسٍ ، وتوفيتْ أختُه ، فخلَّفَتْ له خمسمئة ألف دينار ، فافتكَّ بجميعها أسرى[٤] .

* وجودُ سيفِ الدَّولةِ مُتَعالَمٌ مشهورٌ معروفٌ ، وانفجارُ ينابيعِ جوده

---

(١) عطفَ الأميرُ العربيُّ الجوادُ سيفُ الدَّولة الحمدانيّ علىٰ الشّاعر العربي الكبير أبي الطَّيِّب المتنبّي ، وأُعْجِبَ بمزاياهُ وأدناهُ وقرَّبه إليه وأغدقَ عليه .
وكانتْ عطايا سيفِ الدّولة الحمدانيّ وهباتُه وصِلاتُه لأبي الطّيّب المتنبّي عظيمةً وذات شأنٍ وقيمةٍ ، فقد ذكرَ البغداديُّ في «خزانته» أنَّ ما ناله المتنبّي من سيفِ الدّولةِ في أربعِ سنين بلغَ خمسةً وثلاثين ألف دينارٍ ، وكان يعطيه في كلّ سنةٍ ثلاثة آلاف دينار علىَ ثلاثِ قصائد ما عدا العطايا الخاصّة .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٩) وشذرات الذهب (٤/ ٢٩٣) .

(٣) شذرات الذهب (٤/ ٢٩٣) .
وللمزيد من سيرةِ سيف الدّولة الحمداني تُراجَعُ كتب التّاريخ المتخصّصة حيث استوفَتْ كثيراً من أخبارِه .

(٤) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٨) .

على الشُّعراء معروفٌ لدى النّاس ، ذكرَ الثَّعالبيُّ في «يتيمةِ الدَّهْر» قال: حدَثني أبو الحسن عليُّ بنُ محمد العلويّ الحُسيني الحمْداني قال: كنتُ واقفاً في السّماطين بين يدي سَيْفِ الدَّولة بحلب ، والشُّعراء ينشدونَه ، فتقدَّم إليه أعرابي رثّ الهيئةِ ، فاستأذنَ الحجابَ في الإنشادِ ، فأذنوا له ، فأنشدَ:

أنْتَ عَليٌّ وهَذهِ حلبُ ... قد نَفَدَ الزَّادُ وانتَهىٰ الطَّلَبُ
عبدُك الدّهْرُ قَدْ أضَرَّ بنا ... إلَيْكَ منْ جُورِ عبدِك الهربُ

فقال سيف الدّولةِ: أحسنتَ ، ولله أنتَ! وأمرَ له بمئتي دينار[1].

* ومن أخبارِه المُطربة التي تدلُّ علىٰ أدبهِ وفهمِهِ للشّعر ، ما ورد أنَّ أبا فِراس الحمْداني[2] ، كان يوماً بين يديه في نَفَرٍ من ندمائِه ، فقال لهم

---

(١) يتيمة الدهر (١/ ٢٠).
(٢) أبو فراس؛ الأميرُ أبو فراس الحارث بنُ سعيد بن حمدان التَّغلبيّ هو ابنُ عمّ سيفِ الدَّولة الحمدانيّ.
قال عنه الذّهبي: الأميرُ أبو فِراس الشّاعرُ المفْلِقُ ، وكانَ رأساً في الفروسيّةِ والجودِ وبراعةِ الأدب.
وقال عنه الثّعالبيّ: كان فَردَ دهْره ، وشمسَ عصرِه أدباً وفضلاً ، وكَرَماً ونُبلاً ، ومجداً وبلاغةً وبراعةً ، وفروسيةً وشجاعةً ، وشعرهُ مشهورٌ سائرٌ بينَ الحسنِ والجودةِ ، والسُّهولةِ والجزالةِ ، والعذوبةِ والفخامةِ ، والحلاوة والمتانة ، ومعه رواءُ الطّبع ، وسمةُ الظّرف ، وعزّةُ المُلْك ، وكان الصّاحب يقول: بُدِىءَ الشِّعْرُ بملكٍ ، وخُتم بملك. يعني امرأَ القيس وأبا فراس. وكانَ المتنبّي يشهدُ له بالتّقدم والتّبريز ، ويتحامىٰ جانبه ، فلا ينبري لمباراتِه ، ولا يجترىءُ على مجاراتِه ، وإنّما لم يمدحْه ومدحَ مَنْ دونَه منْ آل حمدان تهيّباً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً. وكان سيفُ الدّولة يُعْجَبُ جدّاً بمحاسنِ أبي فراس ، ويميّزه بالإكرام عن سائرِ قومه ، ويصطنعه لنفسهِ ، ويصطحبُه في غزواتِه ، ويستخلفه على أعماله.
أسرتْهُ الرُّوم جريحاً ، فبقيَ بقسطنطينية أعواماً ، ثمّ فداه سيف الدولة منهم بأموال ، وأعطاهُ أموالاً جزيلةً وخيلاً ومماليك. =

سيفُ الدَّولة: أيّكم يجيزُ قَولي، وليسَ له إلّا سيدي - يعني أبا فراس -:

لَـــكَ جِسْمـــي تُعلِّـــهُ فَـــدَمـــي لـــم تحُلُّـــه
لَـــكَ مـــنْ قَلْبـــي المكـــا ن فَلِـــمْ لا تحلّـــه

فارتجَلَ أبو فِراس وقال:

أَنـــا إنْ كنْـــتُ مَـــالِكـــاً فَلِـــيَ الأَمْـــرُ كلُّـــهُ

فاستحسنَه وأعطاهُ ضيعةً بمنبج تغلّ ألفَي دينار[1].

* ومنَ الطَّرائفِ الجميلةِ في مجالسِ سيْفِ الدَّولةِ ما قاله أبو الحسن السّلامي الشّاعر: مدحَ الخالديان سيفَ الدَّولة بن حَمْدان بقصيدةٍ أوّلها:

تَصُـــدُّ ودارُهَـــا صَـــدَدُ وتـــوعـــدُه ولا تَعِـــدُ
وقَـــد قَتَلَتْـــهُ ظَـــالِمـــةً فـــلا عقْـــلٌ ولا قَـــوَدُ

ومنها في مدحهِ:

فَـــوجْـــهٌ كُلُّـــهُ قَمـــرٌ وســـائِـــرُ جسْمـــه أَسَـــدُ

فأعجِبَ بها سيف الدّولة، واستحسنَ هذا البيت منها، وجعل يردّد إنشادَه، فدخل عليه الشَّيظمي الشَّاعر، فقال له: اسمعْ هذا البيت، وأنشده إيّاه، فقال له الشَّيظمي: احمدْ ربَّك، فإنَّه جعلكَ من عجائبِ البحر[2].

* ومنَ الطَّرائفِ أيضاً ما رواه أبو القاسم عُثمانُ بنُ محمد العراقيّ قاضي عَيْن زَرْبَةَ فقال: حضرتُ مجلسَ الأميرِ سيفِ الدَّولة بحلبَ، وقد

= قُتِلَ أبو فراس سنة (٣٥٧ هـ) وعمرُه (٣٧ سنة).
(سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٩٦ و١٩٧) و(يتيمة الدهر ١/ ٣٥) مع الجمع والتصرف.

(١) يتيمة الدهر (١/ ٢١)، وشذرات الذهب (٤/ ٢٩٥)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٠٣).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ١٠٨).

وافاه القاضي أبو نصر محمّد بن محمد النَّيسابوري ، فطرحَ من كُمّه كيْساً فارغاً ودُرجاً فيه شعرٌ استأذن في إنشادِه ، فأذِنَ له ، فأنشدَ قصيدةً أوّلُها:

حِبَاؤُكَ معْتادٌ وأمرُكَ نافِذٌ وعبدُكَ محتاجٌ إلىٰ ألفِ درهَمِ

فلما فرغَ من إنشادِه ، ضحكَ سيفُ الدَّولة ضِحْكاً شديداً ، وأمرَ له بألفِ درهم ، فجُعِلَتْ في الكيسِ الفارغِ الذي كان معه(١) .

* ولسيفِ الدَّولة أخبارٌ جميلةٌ مع علماء عَصْره ومع الأدباء ، فقد نشطتْ حركة التّأليف في ظلّه نشاطاً رائعاً ، وقصّة كتاب «الأغاني» لأبي الفَرج الأصفهاني معروفة ، فقد ألّف أبو الفرج هذا الكتاب بعيداً عن حلبَ ، وأهداه إلىٰ الأميرِ الأديبِ سيفِ الدَّولة فأعطاه ألف دينار.

* وهناك كتُبٌ ومعارفُ كثيرة أُلِّفتْ في ظلالِ سيْفِ الدَّولة من مثلِ كتُب الطِّبّ والهندسةِ والرّياضيات واللغة وعلومها والجغرافية وغيرِها؛ وظهرَ علماءُ مشهورون منْ مثلِ: ابن خالويه ، وابن جنّي ، وأبو عليّ الفارسي ، وابن حوقَل، والخالديان، والسّري الرّفّاء ، وكَشَاجم وغيرهم كثيرون لا يُحْصَون.

* وكان سيفُ الدَّولة ذا خصائص أدبيّة عظيمة ، من عمقِ المعرفةِ وعلو الثّقافة ، وطولِ الباع في الأدب ونقْدِه ، وسمو المنزلةِ مع نفاذ النَّظر ، وكلّ هذه الخصائص كانت حافزاً على نشاطِ الحركةِ العلميّة حتى أصبحت حلب عصْرَ ذاك عاصمة العلْمِ والأدبِ والثَّقافَةِ ، ومركزاً لأثرىٰ المكاتبِ لا سيما مكتبة سيف الدَّولة التي كان الأخَوانِ الخالديّان قَيّمَيْنِ عليها.

* وكان سيفُ الدّولةِ شاعراً حسنَ النَّظم له من الأشعار الرّائعة ما يشبه قلائد الدُّرّ في النُّحور ، من ذلك أنَّه كانت له جاريةٌ منْ بناتِ ملوكِ الرُّوم في

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٤٠٤).

غايةِ الجمالِ ، فحَسدَهَا بقيّة الحظَايا لقربها منه ، ومحلِّها من قلبه ، وعَزَمْنَ على إيقاعِ مكروهٍ بها من سمّ أو غيره ، فبلغَه الخبرُ ، وخافَ عليها ، فنقلها إلى بعضِ الحصونِ احتياطاً وقال:

راقَبَتْني العُيونُ فيكِ فأشْفَقْـ ـتُ ولم أخْلُ قطُّ منْ إشفاقِ
ورأيتُ العدوَّ يحسُدني فيـ ـكِ مجداً يا أنفسَ الأعلاقِ
فتمنيتُ أنْ تكوني بعيداً والذي بيننا مِنَ الودّ باقِ
ربّ هجر يكونُ من خوفِ هجرٍ وفراقٍ يكون من خوفِ الفراقِ

* ومن شعرِه أيضاً:

أقبّلهُ على جزَعٍ كشربِ الطَّائرِ الفَزِعِ
رأىٰ ماءً فأطمَعَه وخافَ عواقِبَ الطَّمَعِ
وصَادفَ خلسةً فدنَا ولم يلتذَّ بالجُرَعِ[1]

* ومن رائقِ شعْرِه ورقائق نظْمِه قوله:

تجنّى عليَّ الذّنب والذّنبُ ذنبُه وعاتَبني ظُلماً وفي شقّه العَتْبُ
وأعرضَ لما صارَ قلبي بكفّهِ فهلا جَفَاني حين كان لي القلبُ
إذا برِمَ المولى بخدمةِ عبدِه تجنّى لهُ ذنباً وإنْ لم يكنْ ذنبُ[2]

* وله أيضاً:

قد جرىٰ في دَمْعِه دمُه فإلىٰ كمْ أنْتَ تظْلمُه
ردّ عنه الطَّرف منكَ فقد جَرَحَتْهُ منْك أسهمُه
كيفَ يسطيعُ التّجلّد مَنْ خطراتُ الوهْمِ تُؤلمُه[3]

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٤٠٢).

(٢) يتيمة الدهر (١/ ٣٣) ، ومعاني الحمداني هذه تشبه قولَ الآخر:

وإذا ما الجفاءُ جهّزَ جيشاً سبقَتْه طليعةُ مَنْ تجنّى

(٣) المصدر السابق نفسه ، وانظر البداية والنهاية (١١/ ٢٦٤).

* ولسيفِ الدَّولة شِعرٌ جميلٌ في الإخوانيات يرتقي إلى درجةِ الفحول ، ومنه أنَّه قد جَرتْ بينَه وبين أخيه ناصر الدّولة وحْشةٌ ، فكتبَ إليهِ من شعره :

لَسْتُ أجفو وإنْ جفوتَ ولا أتـ ـركَ حقّاً عليَّ في كلِّ حَالِ
إنّما أنتَ والدٌ والأبُ الجا في يجازىٰ بالصَّبْرِ والاحتمالِ

* وكتب إليه مرّة أخرى :

رضيتُ لكَ العُليا وقد كنْتَ أهلَها وقلتُ وهلْ بيني وبينَ أخي فَرقُ
ولم يكُ بي عنها نكولٌ وإنّما تجافيتُ عن حقّي ليبقى لكَ الحقّ
ولا بدَّ لي من أنْ أكونَ مُصلياً إذا كنتُ أرضى أنْ يكونَ لك السَّبق[1]

* ومن محاسنِ شعْرِ سيفِ الدَّولَة ، قولُه في وصف قوسِ قزح ، وقد أبدعَ فيه كلَّ الإبداع :

وساقٍ صبيحٍ للصَّبوحِ دعوتُه فَقَامَ وفي أجْفَانِهِ سِنَةُ الغُمْضِ
يطوفُ بكاساتِ العُقَار كأنجمٍ فمنْ بين منقضّ عليها ومنفضِّ
وقد نشرتْ أيدي الجنوب مُطارِفاً على الجوّ دُكناً والحواشي على الأرضِ
يطرّزُها قوسُ السَّحاب بأصْفَرٍ علىٰ أحمرٍ في أخْضرٍ إثر مُبْيَضِّ
كأذيالِ خُودٍ أَقْبلَتْ في غَلائلٍ مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ منْ بعضِ

* وهذا من التَّشبيهات الملوكيّة التي لا يكادُ يخطرُ مثلها لغيرهم ، ولا يكادُ يحضر مثلها للسّوقة[2] .

وَغَابَ النَّجْمُ :

* عاشَ سيفُ الدَّولةِ الحَمْداني في القرنِ الرَّابعِ الهجْري ، وكان علمَ

---

(١) انظر : يتيمة الدهر (١/ ٣٣) ، وشذرات الذهب (٤/ ٢٩٤) .
(٢) شذرات الذهب (٤/ ٢٩٥) ، ويتيمة الدهر (١/ ٣١) مع الجمع .

الفُرسان وفارسَ الأعلام ، وظلَّ نجمُه يتألّق قرابَة نصف قرنٍ من الزَّمان ، إلى أنْ وافتْه المنيّة وله بضعٌ وخمسونَ سنة .

* قال ابنُ العماد: وفيها ـ أي سنة ٤٥٦ هـ ـ سيف الدّولة عليُّ بن عبد الله بن حمدان بن حمدون التّغلبي الجزري ، صاحب الشّام بحلب ، في صفر ، وله بضعٌ وخمسون سنة ، وكان بطَلاً شجاعاً كثيرَ الجِهاد ، جيّد الرّأي ، عارفاً بالأدبِ والشّعر ، جَواداً ممدّحاً[1] .

* أما كيفَ ثوىٰ البطلُ ، فتذكرُ أخباره أنَّه مات بالفالجِ ، وقيل بعُسْرِ البول[2] .

* قال الذَّهبي: ولما احتضِرَ أخذَ علىٰ الأمراء العهدَ لابنه أبي المعَالي ، ماتَ يوم الجُمعَة قبل الصَّلاة وغُسِّلَ ثمّ عمل بصَبرٍ ومُرّ ، وقنوين كافور ، ومئة مثقال غالية ، وكفِّنَ في أثواب قيمتها ألف دينار ، وكبَّرَ عليه القَاضي العلوي خمْساً ، ولما بلغَ معزّ الدّولة بالعراق موتَه ، جزع عليهِ وقال: أيامي لا تطولُ بعده ، وكذا وقعَ ، ثمّ نقلوه إلىٰ ميافارقين ، فَدُفِنَ عند أمّه[3] .

* قال ابن خَلّكان: وكان قد جُمِعَ من نَفْضِ الغبار الذي يجتمعَ عليهِ في غزواتِهِ شيئاً ، وعمله لبنةً بقدرِ الكفّ ، وأوصىٰ أن يُوضعَ خدّه عليها في لحده ، فنفّذَتْ وصيّته في ذلك[4] .

* وقال ابن كثير عن وفيَات سنة (٣٥٦ هـ): توفي ـ سيفُ الدَّولة ـ

(١) شذرات الذهب (٤/ ٢٩٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٨) ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٨/ ١٠٩) والبداية والنهاية (١١/ ٢٦٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٨و١٨٩).
(٤) وفيات الأعيان (٣/ ٤٠٥).

بحلب ، وحُمِلَ تابوته إلىٰ ميافارقين فدفنَ بها وعمره ثلاثٌ وخمسونَ سنة[1].

* هذا هو الفارسُ سيفُ الدَّولة الحمْداني الذي بنى بفروسيته مَجْداً مؤثلاً لبني حَمْدان ولبني العروبةِ ، فكان من خيرِ فُرسان تاريخ عَصْره الذين فازوا بالصّيتِ الحَسنِ ، فكانوا من عمالقةِ التَّاريخ العربيّ الوضيء.

* فرحم اللهُ سيفَ الدَّولة ، وكلّ مَنْ نصحَ للإسلام وبلادِ المُسْلمين.

* * *

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٦٤).




عبد الرّحيم محمود

* واحد ممن باعوا نفوسهم لله تعالى؛ لتكون رايةُ الحق خفاقة، فحظي بالشهادة بعد جهادٍ طويل.
* هو صاحب البيت المشهور:

سأحملُ روحي على راحتي
وأُلقي بها في مَهاوي الرَّدى

* شاعر مقاتل، قدَّم روحه لتحيا فلسطين حرة كريمة.




هَـذَا الـبَطَـلُ الـشُّـجَاعُ الشَّاعِـرُ:

* ممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ الشِّعْر الصَّادقَ الصَّافي شعورٌ ينبعثُ منْ أعماقِ القلبِ ، فيحدثُ في نفوسِ سامعيه منَ الأثرِ ما أحدثَه في نَفْسِ قائلهِ قبل أنْ يتجاوزَ فؤادَه ومن ثمّ لسانَه؛ إذ:

إنَّ الكَـلامَ لَفـي الفُـؤَادِ وإنَّمـا جُعِـلَ اللّسـانُ علـىٰ الفـؤادِ دليْـلا

* ومنَ المعلومِ أنَّ بواعثَ الشِّعْرِ تتعدَّدُ ، لا لتعددِ البواعثِ الخارجيّةِ فحسْب ، وإنّما طبيعةُ الشَّاعر وتربيتُه ، وتكوينُه النّفسي ، تؤثّرُ في استجابةِ الشّاعرِ للبواعثِ الخارجيّة ، فالشَّاعرُ الفارسُ تهزُّهُ مواقفُ الحربِ والبطولةِ ، فيستجيبُ لها؛ والشَّاعرُ الذي لم يؤْتِهِ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ القلبَ الشُّجاع يستجيبُ لصدىٰ المعركةِ ولا يخوضُها؛ والشَّاعر الذي يرىٰ متعتَه في زقٍّ ومزمار ، يستجيبُ لما يحقّقُ له شهوتَه ، ولذلك تباينتِ الشُّعراء في أقوالِهم وأفعالِهم ، وانعكسَ هذا علىٰ أشعارِهم ، وهذا ما نلاحظُه عندما نتتبّعُ الشَّعراء عبرَ العصورِ، لندرسَ اهتماماتِهم واتجاهاتِهم. فإذا استعرضتَ أسماءَ الشُّعراء في العَصْر الجاهليّ ، وصدرِ الإسلامِ ، فإنَّك واجدٌ عدداً كبيراً منَ الشُّعراءِ الفرسانِ ، أو الفرسان الشُّعراء ، ولكنْ هل استمرَّ هذا المدُّ الشِّعري الفروسيّ إلىٰ عصورٍ أخرىٰ؟! وخصوصاً العَصْر الحديث.

* ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الفروسيّة قد ضعُفَتْ قليلاً بُعيدَ العصرِ العبّاسي ، ولكنْ إذا وصلْنا إلىٰ العصرِ الحديثِ وجدنا الفروسيّة الأولىٰ تعودُ إلىٰ الشُّعراء ، ولعلَّ الظُّروفَ التي رافقتْ إحياءَها تشبهُ الظُّروف التي جمعت بين الفروسيّةِ والشِّعر في صدرِ الإسلامِ وعصر بني أميّـة.

* ففي العصرِ الحديثِ ابتُليت بعضُ الأقطارِ العربيّة ، بل معظمُ الأقطار العربيّةِ بالغزو والاحتلالِ الأوربيّ بعد زوالِ الدَّولةِ التّركيّة بُعيدَ انتهاءِ الحربِ العالميّة الأولىٰ ، فهبَّ الشَّعبُ لطردِ الأعداءِ فكانت ثورةً عارمةً ، يشاركُ فيها كلّ إنسانٍ قادرٍ علىٰ الجهاد .

* وكانتْ فلسطينُ من بين البلادِ العربيّةِ التي خُصَّتْ بداهيتَيْن اثنتَيْن تسيلان سُمّاً ناقعاً زعَافاً ، وهاتان الدّهيتان هما : الإنكليزُ ، واليهودُ ، وما أدراك ما هُما؟!

فكان لابدَّ من مضاعفةِ الجهدِ والجهادِ ، وكانَ الشُّعراء في الطّليعة ، كلٌّ يشاركُ بما يقدرُ عليه ، فتولى عددٌ منهم الجهادَ باللسانِ والدَّعوةِ إلى النَّفيرِ وتنويرِ الأذهان، وجمعَ بعضُهم بين الشِّعرِ والسَّيف، أو بين الشّعر ونارِ البنادق .

* وكان ممَّنْ شاركَ بسيفهِ وقلمهِ ضيفُ هذه الصَّفحات الذي كتبَ اللهُ له الشَّهادَةَ في سبيلهِ .

* ففي همساتِ الأبطالِ ، وفي عزماتِ الشُّجعان ، كانت تردَّدُ الكلمات الحماسيّة من لسانه، وتنثالُ عبقات التّوحيدِ من فؤادِه العامرِ بمحبّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وحبِّ الأرضِ المقدّسةِ ، أرضِ النُّبوات ، والإسراءِ ، كان ينشدُ ويقول :

نَحنُ لمْ نحملِ السُّيوفَ لهدْرٍ ... بل لإحقاقِ ضائعٍ مَهْدورِ
نحنُ لم نرفعِ المشَاعلَ لحرَ ... قٍ ولكنْ للهُدىٰ والتَّنويرِ
نحنُ لمْ نطعنِ الضَّميرَ ولكنْ ... بِقَنَانا احتمىٰ طعينُ الضَّميرِ
كانَ فينا نَصْرُ الضَّعيف المعنّى ... وانْجِبارُ المُحَطَّمِ المكسورِ

* وهذا البطلُ الكريمُ ، واحدٌ ممن باعوا نفوسَهم للهِ عزَّ وجلَّ ، لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا ، ورايةُ الحقّ هي المرفوعةُ الخفّاقةُ ، فخطيَ بالشَّهادَةِ

بعد أنْ جاهدَ بسلاحِهِ ولسانِهِ. . . . . أمّا سلاحُه فقد أغمدَه في صُدور اليهودِ الصَّهاينةِ الغَاصبين؛ وأمّا شعرُهُ فقد غَدا أنشودةً نشوىٰ ترتسمُ على شَفَةِ الزَّمن ، وملحمةً جذْلىٰ يتغنّى بها الأبطالُ والنَّاسُ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ وعصْرٍ ومصْرٍ. فتعالوا ـ أحبّائي ـ نستمعُ ونقرأُ هذه القصيدةَ الجميلةَ العَطِرةَ الحماسيّة ، كيما نقتربَ من شخصيّـةِ قائِلها ، وكيما نعرفَ بطولتَه وجرأَتَه:

سَـأَحْمِـلُ رُوحـي علـىٰ رَاحَتـي ... وأُلقـي بهَـا فـي مَهـاوي الـرَّدَىٰ
فـإِمّـا حيـاةٌ تَسـرُّ الصَّـديـق ... وإمّـا ممـاتٌ يغيـظُ العِـدَا
ونفـسُ الشَّـريـفِ لهَـا غـايَتـان ... ورُودُ المنَـايـا ونَيْـلُ المُنـىٰ
وما العيشُ لا عشْتُ إنْ لم أكنْ ... مخـوفَ الجنـابِ حـرامَ الحِمَـىٰ
إذا قلـتُ أصغـىٰ لـي العَـالَمـون ... ودوَّىٰ مَقـالـي بيـنَ الـوَرىٰ
لعمـركَ إنّـي أرىٰ مَصْـرعـي ... ولكـنْ أغـذُّ إليـهِ الخُطـا
أرىٰ مقْتلـي دونَ حقّـي السَّليب ... ودونَ بـلادي هـو المُبْتَغـىٰ
يلـذُّ لأذْنَـى سمـاعِ الصَّليـل ... ويبْهِـجُ نفسـي مَسيـلُ الـدِّمـا
وجسمٌ تجنَدْلَ في الصَّحصَحان ... تنـاوشـه جَـارِحَـاتُ الفَـلا
فمنْـهُ نصيـبٌ لأُسْـدِ السَّمـا ... ومنـهُ نصيـبٌ لأسـدِ الشَّـرىٰ
كَسَـا دمُـهُ الأرضَ بـالأرجـوان ... وأثْقـلَ بـالعِطْـرِ ريـحَ الصَّبـا
وعفَّـرَ منْـهُ بَهِـيَّ الجبيـن ... ولكـن عفَـاراً يـزيـدُ البَهَـا
وبـانَ علـىٰ شفتَيْـه ابتسَـام ... معـانيـهِ هـزءٌ يهـذي الـدّنـا
ونـامَ ليحلـمَ حلْـمَ الخُلـود ... ويهنـأَ فيـهِ بـأحلـىٰ المُنـىٰ
لعمـركَ هـذا ممـاتُ الـرِّجـال ... فَمَـنْ رامَ مـوتـاً شـريفـاً فَـذَا
فكيـفَ اصْطِبـاري لكيـدِ الحقـود ... وكيـفَ احتمـالـي لِسَـوْمِ الأَذى
أخَـوفـاً وعنـدي تهـونُ الحيـاة ... وذلاًّ وإنّـي لـربّ الإبـا

بقَلْبي سأَرمي وجوهَ العُداة   وقلبي حديدٌ وناري لَظىٰ
وأحمْي حِياضي بحدِّ الحُسَام   فيعلمُ قومي بأنّي الفتَى[1]

* وهذا البطلُ الشَّاعرُ لم يكنْ قوّالاً ، بل حَملَ روحَه علىٰ راحتِهِ ، وخاضَ غمارَ الحربِ وحظيَ بالشَّهادة ، وغاظَ الأعداءَ ، إنَّه عبدُ الرَّحيم الشَّيخ محمود عبد الحليم وكنيتُه أبو الطَّيِّب[2].

عَبْدُ الرَّحيمِ والنَّشأةُ الصَّافِيَة:

* في واحدةٍ منَ القُرىٰ الجميلةِ منْ أعمالِ نابلس ، وفي قريةٍ وادعةٍ جميلةٍ تُدعى «عِنَبْتَا» أو «عنَبْته» وُلدَ عبد الرحيم محمود سنَة (١٩١٣ م)؛ وفي عنبتا أبصرَ عبدُ الرحيم النّور ، فهذهِ القريةُ الجميلةُ كانتْ ساحرةَ الطَّبيعةِ ، تحفُّ بها الأشجارُ المثمرةُ ، وخاصّة أشجارُ اللوزِ والزَّيتون.

* وفوقَ أرضِ هذه القريةِ الوادعةِ الجميلةِ التي تقعُ بين نابلس وطُول كَرم ، كانتْ نشأةُ عبدِ الرحيم محمود ، حيث كانت نبعتُه منْ أسرةٍ اشتُهرتْ بالعلمِ والفقهِ ، فسمّيتْ لذلك «عائلةَ الفُقَهاء».

* وكان والدُهُ الشَّيخ محمود ممّن حَباهُ اللهُ العِلْمَ ، وكان قد درسَ في الأَزْهَر ، حيث تبحَّر في علومِ الدِّين واللغةِ وأصولِ الفقْهِ الإسلاميّ ، وعندما تخرَّجَ في الأزهرِ عملَ في القضاءِ الشّرعي ، ثمّ مفتشاً في الدَّولة

(١) ديوانه (ص ١٢٠ و١٢١) والبيتُ الأخيرُ: وأحمي حَياضي. . . يذكّرنا بقول طرفةَ بن العبد في معلّقته:
إذا القومُ قالُوا مَنْ فتىً خلْتُ أنّني   عنيتُ فلمْ أكسلْ ولمْ أتبلّدِ
(٢) الشّاعر عبد الرحيم محمود بطلُ معركة الشّجرة؛ وديوان عبد الرحيم محمود تقديم وجمع د. كامل السّوافيري ـ دار العودة بيروت ط٢ ١٩٨٠ م والبطولة في الشّعر العربي لشوقي ضيف (ص ١٤٣) ، والأدب العربي المعاصر في فلسطين (ص ١٦١ ـ ١٦٧) ، وشاعران من جبل النار (ص ٢٢٩ ـ ٣٧٩) وكتب وصحف ومقالات كثيرة لا تحصر.

العثمانيّة ، ثمّ عملَ محامياً شرعيّاً في أواخرِ حياته .

* وقد عُرِفَ الشيخُ محمود في قريةِ عنبتا بالطِّيْبِ والورعِ والتَّقوى ، كما كانَ شغوفاً بالأدبِ والنَّظم وقولِ العتابا في المناسباتِ الاجتماعيّةِ ، وكان كذلك منَ الشُّيوخ الظُّرفاءِ النَّاقدين لبعضِ العاداتِ الاجتماعيّة .

* وحينما بلغَ عبدُ الرحيم ربيعَه السَّابع ، دخلَ مدرسةَ القريةِ الابتدائيّة ، وفيها تلقّىٰ معارفَه الأولىٰ ، وتخرَّجَ فيها سنَة (١٩٢٥ م) ، حيث كانتِ الشَّهادةُ الابتدائيةُ يومذاك في الصَّف الخامسِ الابتدائي. وخلال هذه المرحلةِ كان الفتىٰ عبد الرحيم قد تأثّر بالأدبِ ، وظهرتْ ميولُه إلىٰ حبِّ الأدبِ ونظمِ الشّعرِ وهو في عمر الزَّهْر.

* ولمّا تخرّجَ عبد الرحيم منَ المرحلةِ الابتدائيةِ ، فرحَ به أهلُه وذووه ، لا سيما أنَّه كانَ منَ المتفوقينَ ، فقد كانت علائمُ الذّكاءِ والنَّجابةِ تشعُّ من عينيه ، إذ حفظَ القرآن الكريمَ وختَمه وهو ما يزالُ طريّ العُود ، فاحتفلَ أهلُه بذلك ، وأقاموا له حفْلاً ، وأركبوه فرساً ، وأحاطوا به وهم مستبشرون بحفظهِ للقُرآن ، وبحصولِه علىٰ الشّهادةِ الابتدائيّة .

* ولما شبَّ عبدُ الرحيمِ عن الطَّوق قليلاً ، كبرت أحلامُه وآمالُه معه ، ولم يكتفِ بشهادتهِ الابتدائيةِ الأولىٰ ، وأحبَّ أنْ يواصلَ الطَّريقَ العِلميَّ ، فاتَّجه لإكمالِ تحصيله حيث ذهبَ إلىٰ طولكرم[1] ابنةِ نابلس ، كيما يتابعَ

---

(١) شَدَا أحدُ أبناءِ طُولكرم بهذهِ الأبياتِ الجميلةِ يحيّي فيها بلدتَه السَّاحرةَ المغناجَ ، فقال منْ قصيدةٍ بائيةٍ لطيفةٍ عنوانُها «إلىٰ طولكرم» :

أطلّي علىٰ الكونِ لا تغربي	تباركْتِ منْ بلدٍ طيِّبِ
تباركَ فيكِ ضميرُ الحياةِ	وأفرخَ في روحِكِ المُخصبِ
وأهدتْ لكِ الطّيرُ ألحانَها	أغاريْدَ منْ وحيكِ المُعجبِ=

دراستَه في الصَّفَيْن: السَّادس والسَّابع في مدرسةِ طول كرم ، ثم يلتحق بعد ذلك بثانويةِ النَّجاح في نابلس ، وكانت هذه الثَّانويةُ قد شَهِدتْ تخرُّج عددٍ منْ مشاهيرِ رجالاتِ فلسطينَ من علماءَ وقادةٍ وشعراءَ ، وقد التقىٰ عبدُ الرحيم عدداً منهم ، وارتبطَ وإيّاهم بصداقاتٍ حميمةٍ ، أثَّرتْ فيه وبحياتِه كما سنرىٰ فيما بعد إن شَاء الله.

ثَـقَـافَـتُـهُ وأَسَاتِـذَتُـهُ:

* لم يكنْ عبدُ الرحيم محمود منَ الطُّلاب الذين يكْتَفُون بالمناهجِ الدراسيّة ، ليحقّقُوا آمالَهم بالحصولِ على شهادةٍ علميّةٍ ، أو عملٍ وظيفي ، وإنّما كانَ عالي الهمّة ، شغوفاً بالعِلْمِ والمعرفةِ ، فإلىٰ جانبِ دروسهِ التَّعْليميّة المقرّرةِ ، قرأَ وحفظَ القرآنَ الكريمَ ، وتأثَّر بهِ وبآياتِه ، ثم عكفَ على كتُب التَّفسيرِ يعبُّ منها ، ويقرأُ كذلك كتبَ الحديثِ النَّبوي الشَّريف ، وراحَ ينهلُ منْ آدابِ اللغةِ العربيّةِ وعلومها ما استطاعَ إلى ذلك

= ـ ومنها يذكرُ شجاعةَ أبنائِها:

صمدتِ علىٰ زعزع النَّائبات ... صمودَ كريمٍ شجاعٍ أَبي
وروّيتِ من دمِكِ العبقريّ ... سُهولكِ يا للثَّرىٰ المخْضَبِ
قوافل من مُهجٍ حرّةٍ ... سفحتِ دمَاها على السَّبْسَبِ

ـ ومنها:

أفيقي علىٰ الدَّهر يا طولكرم ... أطلّي علىٰ الكونِ لا تَرهَبي
فإنْ سَلبُوكِ ثراكِ الخصيبَ ... وأخْنوا علىٰ سهلِكِ المُعْشبِ
فإنّا سنلفظُهم كالنّواةِ ... وليسَ لهم بَعْدُ منْ مَهْرَبِ
فإنْ أقبلُوا في إهابِ الأُسود ... لسوفَ يفرّونَ كالأرْنَبِ

ـ ثم يختمُها بقوله:

فإنْ أسدلَ الليلُ أسْتَاره ... أطلّي علىٰ الكونِ في موكبِ
ففي وجنتَيك شروقُ الحياة ... وفي خافقَيك صلاةُ نَبي

(ديوان أمطار الحزن والدم ص ٧٧ ـ ٧٩) لراضي صدوق

سبيلاً ، وشُغِفَ بالشِّعْر والشُّعراءِ الأقدمين وكذلك أحبَّ وأُعْجِب بعمالقةِ المعاصرين ، حيثُ تتلمذَ علىٰ يدِ عددٍ منَ الأدباءِ والشُّعراء ومنهم: قدري طوقان [1]، والشَّاعرُ المِفَنُّ الغِرّيـدُ إبراهيمُ طُوقان[2] وغيرهُما ، وذلكَ

---

(١) قَدري حافظ طُوقان ، وُلدَ في نابلس سنة (١٩١٠ م) ، درسَ في كليّةِ النجاح ثمّ في بيروت إذْ حصلَ على إجازةِ الرّياضيات سنةَ ١٩٢٩ م ، وعادَ إلى نابلس ، حيثُ أوكلَتْ إليه عدّة مَهام ومنها إدارة كليّة النّجاح التي تخرّج فيها معظمُ مشاهير الأدباء من مثل: إبراهيم طُوقان ، ومحمّد العدناني ، وعمر فروخ وغيرهم.
شاركَ قدري طُوقان في أحداث بلادِه ، وفي المظاهراتِ ، ونُفي عن بلدِه ، ولما حدثت كارثةُ (١٩٤٨ م) اختيرَ عضواً في البرلمان الأردنيّ ، ثمّ اختيرَ وزيراً للخارجيّةِ للأردن في مصرَ ، وعاشَ قدري أعزبَ مترهّباً في محرابِ العلْمِ والمعرفةِ يجوبُ آفاقَ العالم ، ويوالي نشْرَ الآثارِ ، ويزيح التّراب عن تراثِ العرب في الرّياضيات والعلوم والفلك إلى أنْ توفيَ في (٢٦ شباط عام ١٩٧١ م) في بيروت ، ثم نقِلَ جثمانُه إلى نابلس حيث رقدَ إلى جوارِ ابن عمّه إبراهيم طوقان. وقد جمع قدري بينَ العلم والأدبِ وآثاره تشهدُ له بذلك. (الأدب العربي المعاصر في فلسطين ص ٣٣٥ ـ ٣٤٠) باختصار.

(٢) إبراهيمُ عبد الفتّاح طُوقان؛ وُلِدَ في مدينةِ نابلس سنَة (١٩٠٥ م) ، وفيها تلقّى دراسَتَه الابتدائيّة ، ثمّ في مدرسةِ الرَّشاد الغربيّة ، ثمَّ في القُدس حيثُ درسَ المرحلةَ الثَّانويَّة ، وهناكَ تعلّق باللغةِ العربيّةِ وشُغِفَ بها حبّاً ، وخُصوصاً في الشّعْرِ العربيّ القديمِ ، ثمَّ ذهبَ إلىٰ بيروتَ سنة (١٩٢٣ م) وقضىٰ فيها ستّ سنواتٍ نالَ في نهايتها شهادةَ الجامعة في الآدابِ سنة (١٩٢٩ م) ثمّ سافرَ إلى مصْرَ ، ولم يمكثْ بها طويلاً ، حيث عادَ إلى نابلس وعملَ مدرّساً للغةِ العربيّةِ في مدرسة النّجاحِ الوطنيّةِ ، ولم يكنْ يحبُّ مهنةَ التَّعليم ، بيد أنّه حبّبَ إلى طلابه حبّ الأدبِ والشّعر ، وقد عارضَ أحمد شوقي في قصيدتِه الشّهيرة «المعلّم» فقال إبراهيم قصيدةً تبلغ (١٤ بيتاً) ومنها هذه الأبياتُ التي تظْهِرُ خفَّة ظلّه وفنّه الشعري:

شَـوقـي يقـولُ ومـا درىٰ بمصيبتـي ... «قـــم للمعلّــــم وفّــــهِ التّبجيــــلا»
اقعـدْ فـديتـك هـلْ يكـونُ مبجّـلاً ... مَـنْ كـانَ للنَّـشء الصِّغـار خليـلا
لـو جـرَّب التعليـمَ شـوقـي سـاعـةً ... لقضــىٰ الحيـاةَ شقـاوةً وخمـولا

وختمها بقوله:

وأرى حمـــاراً بعـــد ذلـــك كلِّـــه ... رفـــع المضـــافَ إليـــه والمفعـــولا=

قرابةَ خَمْس سَنَواتٍ من عام (١٩٢٨ م) إلى عام (١٩٣٣ م).

* وكانَ إبراهيمُ طوقان آنذاك أستاذاً للأدبِ العربيِّ في ثانويةِ نابلس ، وقد تعلَّمَ عبد الرحيم محمود منْه ألوانَ الشِّعر وفنونِهِ ، والأدبَ العربيَّ بجميعِ أشكالِهِ ، وتوثَّقَتْ عرا الصَّداقَةِ وأواصرِها بينَ إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود، وقويت هذه الصَّداقة مع مرورِ الأيّام وتوالي الأعوام.

* ولما اشتدَّ ساعدُ عبد الرحيم محمود في الشِّعر ، وتعلَّم القوافي ، أخذَ ينظمُ القصائدَ الشّعرية في مختلفِ المناسبات ، ويقرأُ ما ينظمُه أمامَ أستاذِه إبراهيم طُوقان ، وأمامَ أصدقائِه وزملائِه ، فأخذوا يشجّعونَه علىٰ المُضي في هذا الطَّريق.

* وكانَ عبد الرحيم قد تعلَّم وهو في المدرسةِ ضرورةَ مجابهةِ الأخطارِ التي تُصيبُ فلسطينَ والعربَ ، ومن هنا بُذِرتْ في نفسهِ أصولُ تحدّي

= لا تعجبوا إن صحتُ فيكم صيحة ووقعتُ ما بين البنوك قتيلا
يا مَنْ يريدُ الانتحارَ وجدته إنَّ المعلمَ لا يعيشُ طويلا
وإبراهيمُ طوقان شاعرُ فلسطين ، حيثُ صوَّرَ آلامَها وآمالَها وأحلامَها ، وقد نالَ حظّاً منَ الشُّهرة ، حيثُ برعَ في جميعِ فنونِ الشعرِ ، ومن مشاهيرِ قصائِده السّائرة بين النّاس قصيدة الشّهيد ومنها:

عَبَسَ الخطبُ فابتسمْ وطغىٰ الهولُ فاقتحمْ
رابطَ الجأشِ والنُّهى ثابتَ القلبِ والقدمْ
لم يبالِ الأذىٰ ولمْ يثْنِهِ طارىءُ الألمْ
نفسُه طَوعُ همّةٍ وجمَتْ دونها الهِمَمْ

ومن شعره يخاطبُ زعماء فلسطين:

أنتمُ المخلصونَ للوطنيّة أنتمُ الحاملونَ عبءَ القَضيّة
أنتم العاملونَ من غيرِ قولٍ باركَ اللهُ في الزّنود القويّة

هذا وأخباره كثيرةٌ جداً لا يستطيع الباحثُ إجمالَها هنا ، توفي إبراهيم في (٢ أيار سنة ١٩٤١ م) ودُفن في نابلس عن (عدة مراجع ومقالات وأبحاث).

المستعمرين ، وردّ كيدِ الخائنين ، فانخرطَ في سلْكِ الشّرطة الفلسطينيّة ، وكانت ترتبطُ إدارياً بسلطةِ الانتدابِ البريطاني .

* وذاتَ يومٍ طلبتْ منه إدارةُ الشَّرطة أنْ يلاحقَ أحدَ الثُّوار ويأتيَ به إلىٰ السُّلطة الإنكليزيّة ، هنالك رفضَ عبد الرحيم هذا الطّلب ، وأوعزَ إلى البطلِ الثَّائر أنْ يتوارىٰ عن الأعينِ ، وأنْ يكونَ حذِراً يترقَّبُ الأخطارَ ويرقُبها منْ كلِّ مكَان .

* وبهذا التَّصرُّفِ الكريمِ ضربَ البطلُ عبدُ الرحيم محمود أروعَ الأمثلةِ في صدْق الإيمانِ ، وحبِّ الوطنِ والأبطالِ ، وتركَ عملَه غير آسفٍ عليه ، ولا أسِفٍ على موردِه الضَّئيل منه ، علىٰ الرِّغمِ من أنَّه المصدرُ الوحيدُ لعيشه ، وهذا لَعْمري لونٌ منْ ألوانِ البطولةِ والشَّجاعةِ الحقّة[1] ، والجرأةِ النَّادرة ، والصِّدقِ في حبِّ الوطن والانتماءِ إليه ، والإخلاصِ لأبنائِهِ؛ بل كان شعارُه قوله :

العُرْبُ ما خَضَعُوا لِسُلْطَة قَيصرٍ   يــومــاً ولا هــانُــوا أمــامَ تجبُّــرِ

---

(١) الشّجاعةُ العظمىٰ ليستْ مقصورةٌ على ميادينِ النّزالِ والجلادِ ، وليستْ ميزةً منْ مزايا الأبطال والفُرسان والشّجعان وحدهم.
فهناكَ شجاعةُ الجهادِ السّلْميّ لتحريرِ الوطن ، وشجاعةُ الثّبات على العقيدة مهما نزلَ بصاحبِها منْ عذابٍ ، وعُرِضَ على مواردِ الهلاك ، وشجاعةُ الرّأي الصُّراح حيثُ يُـؤْثِـرُ الناسُ التّقية والكتمان ، أو الممالأة والنّفاق.
وشجاعةُ الدّفاع عن حقٍّ مهضوم ، أو عن ضعيفٍ مُسْتَذَلّ مظْلُوم.
وشجاعةُ الدعوَة إلىٰ الإصلاحِ في مجتمعٍ مستكينٍ إلىٰ ما يعاني من سُوءِ الحالِ.
وشجاعةُ الأوفياءِ الذين كانتْ سلامتُهم محقّقة في تحلّلهم منَ الوفاءِ ، ولكنهم آثروا الوفاءَ بالعهدِ علىٰ السَّلامة.
فهؤلاء كلّهم شجعانٌ ، بل هم أبطالٌ ، لأنَّهم أقدموا ما لمْ يقدمْ عليهِ النُّظراء والأقران. وإذاً فالبطولةُ كما تكونُ في ميدانِ الحربِ تكون في مجال السَّلام.
(البطولةُ والأبطال لأحمد الحوفي ص ١٠ و١١) بتصرف يسير.

لا يصبرونَ علىٰ أذىً مهما يكُنْ والحـرُّ إنْ يُسَـمِ الأَذَى لـم يصْبِـرِ

رِحْلَـةُ الـجِهَـادِ وَالـكِفَـاحِ :

* عندما تخرَّج عبدُ الرحيم محمود في ثانويةِ نابلس ، اختارتْه إدارتُها كيما يكونَ محاضراً في الثَّانويةِ نفسِها ، وأسندتْ إليه تدريسَ اللّغة العربيّةِ وآدابِها .

* وكانَ عبدُ الرحيم محمود يربيّ طلاّبَه على ارتشافِ رحيقِ الأدبِ وتذوّقهِ، كما كانَ يغرسُ فيهم التَّربية القويمةَ المبنيةَ على الإيمانِ والأخلاقِ الكريمةِ، ولم يتوقفْ عند هذا المجالِ فحسب ، وإنّما راحَ يفصحُ لطلابهِ ويفضحُ زيفَ الصَّهاينةِ، وتآمرهم لتهويـدِ الأرضِ والوطنِ فاضحاً أساليبَهم المُقنَّعة المزيَّفَة .

* ذكرَ الشّاعرُ الفلسطينيُّ خالد أبو خالد ـ وكان أحدَ تلامذةِ عبد الرحيم محمود ـ بضعةَ سطورٍ منْ ذكرياتِهِ عن أستاذِه الشّاعرِ الثائر عبد الرحيم فقال : كنتُ تلميذاً من تلامذةِ الشَّاعر عبدِ الرحيمِ محمود ، ولم يكنْ يعلّمُنا الكلمةَ فقط ، بل كانَ يدرّبنا ويلقنُنا القواعدَ العسكريّة وفنونَ القتال[1] .

* وبهذهِ الرُّوحِ العذبةِ الصَّافية التي تحبُّ الفِداءَ كان عبدُ الرحيم محمود يحثُّ طلاَّبَه على حملِ السّلاح في وجْهِ العدوّ الرّابض المتربّصِ بالشَّعْب الآمنِ الدَّوائر ، وكانت قصيدتُه وكلماتُه السّائرةُ قد ردّدتها جنباتُ الرِّيفِ الفلسطينيّ ، بل وجنباتُ البلاد المجاورة :

سَـأَحْمِـلُ رُوحـي علـىٰ راحَتـي وأُلقـي بِهَـا فـي مَهـاوي الـرَّدىٰ
فـإمّـا حيـاةٌ تَسـرُّ الصَّـديـق وَإمّـا مَمـاتٌ يغيـظُ العِـدا[2]

---

(١) انظر : الشاعر عبد الرحيم محمود (ص ١٩).

(٢) ديوانه (ص ١٢٠ و١٢١) والقصيدة (١٩ بيتاً) أوردناها كاملة في مطلع ترجمته .

* وبدأتْ رحلةُ الثَّورةِ والجهادِ ضدَّ الصَّهاينةِ منذ عام (١٩٢٩ م) ، ومنْ أبرزِها ثورةُ البراقِ الشَّريفِ ، حيث رفضَ شعبُ فلسطينَ الصَّهيونيّةَ ، وبادر فحملَ السِّلاحَ في وجهِ بريطانيا والصُّهيونية معاً ، وبعد فترةٍ وجيزةٍ منَ ثورةِ الشَّعبِ وانتفاضتِه ، تمكَّنَ البريطانيون والصَّهاينةُ من إجهاضِ الانتفاضةِ ، وزَجَّ المعتدون النَّاقمون حوالي مئتَيْ فلسطيني في السُّجون ، وأعدَمَتْ بريطانيا ثلاثةً منْ أبناءِ الشَّعب منَ المجاهدين؛ فقد أعدمتْ «فؤاد حِجازي» من صَفد ، و«محمد جمجوم» منَ الخليل ، «وعطا الزِّير» منَ الخليل أيضاً ، وذلك في (١٧ تموز عام ١٩٣٠ م) وتأثَّر لهذهِ الجريمةِ المؤلمةِ جميعُ أبناءِ البلاد ، وقد هزَّتْ هذه الحادثةُ الشَّاعر إبراهيمَ طُوقان ، فرثاهم بقصيدةٍ جميلةٍ عنوانها «الثُّلاثاء الحمراء» ، وقد تردَّدت هذه القصيدةُ على كلِّ الشِّفاه ، حيثُ صوَّر عمليّةَ الإعدامِ البشعة المنافيةِ لحقوقِ الإنسانِ ، وقصيدتُه في رثاءِ الأبطال الثَّلاثة مشهورةٌ معروفةٌ ، ومنها ما قالَه في رثاءِ عطا الزِّير ، ذلك الرَّجلِ الصّبورِ الجذلِ بلقاءِ ربِّه ، والذي طلبَ الحِنَّاء قبلَ دنوِ أجلهِ وإعدامهِ ، فخضَّبَ بها يَديْهِ ورجلَيْه ، ليلقىٰ الله عزَّ وجلَّ وهو على هيئةِ الشُّهداء الأبرار ، لنسمعَ إلى إبراهيم طوقان ، وهو يشدو هذه الأبيات بأعذب الألحان:

أنَـا سـاعَـةُ الـرّجُـلِ الصَّبـور ... أنـا سـاعـةُ القَلْـبِ الكبيْـر

رمـزُ الشَّبـاب إلـىٰ النِّهـا ... يـةِ فـي الخطيـرِ مـنَ الأُمْـور

بَطَلـي أشـدُّ علـىٰ لقـاءِ المـو ... تِ مـنْ صُـمِّ الصُّخُـور

جَـذْلانَ يـرتقـب الـرَّدىٰ ... فـاعْجَـبْ لمـوتٍ فـي سُـرور

يلقـىٰ الإلـهَ مخضَّـبَ الكفَّـ ... ـيْـنِ فـي يـومِ النُّشـور

قسمـاً بـروحِـكَ يـا عَطـا ... ءُ وجنّـةِ الملـكِ القَـديـر

وصغَـارِكَ الأشبـالِ تبـ ... ـكـي الليـثَ بـالـدَّمْعِ الغَـزيـر

مـــا أنقـــذَ الـــوطـــنَ المفـــدّىٰ   غيـــــــرُ صبّـــــــارٍ جَسُـــــــور

* وتأثَّر عبدُ الرحيم محمود بقصيدةِ أستاذِه إبراهيم طوقان التي رثىٰ فيها الأبطال الثّلاثة وخصوصاً قوله :

مـــا أَنْقـــذَ الـــوَطَـــنَ المُفَـــدَّىٰ   غَيـــــــرُ صَبَّـــــــار جَسُـــــــور

* وهنا قرَّرَ عبدُ الرحيم أنْ يتركَ عملَه في التَّعليم ، ثمَّ اشترىٰ بندقيةً ، وتـدرَّبَ علـىٰ السِّـلاح وفنـونِ القتـالِ ، وانخـرطَ مـع حـركـةِ الشَّيـخِ عزِ الدِّين القَسَّام وأبطالِه الذين وجدُوا في شخصيّته كلَّ عناصرِ البطلِ المناضلِ الثّائِر .

* وكانَ الشَّيخُ عز الدّين القَسّام القادم من سورية ، قد كوَّنَ نواةً ممتازةً من المحاربينَ ضدّ المعتدين الصَّهاينة ، وأخذَ في توعيةِ الشَّعبِ في كلّ مكانٍ منْ أرضِ النُّبوات ، واستطاعَ بأسلوبِه المؤثّرِ الصّادق أنْ يجمعَ حولَه الآلافَ منَ الثُّوار ، ومن ثمَّ انطلقَ بثورةٍ شعبيةٍ من بلدةِ «يَعْبُد» قربَ «جَنِيْن» في (١٥/ ١١/ ١٩٣٥ م) ، فقامتِ القوّاتُ البريطانيّةُ ، وطوَّقَتِ المنطقة ، وطلبُوا من القسَّام والثّوار تسليمَ أنفسهم ، إلاّ أنَّ البَطلَ عز الدّين القسَّام أجابَهم بصوتٍ جهوري : إنّنا لن نستسلمَ ، لا . . . . لا . . . لن نستسلمَ ، إنَّ هذا جهادٌ في سبيلِ اللهِ والوطنِ ؛ اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ .

* وأطلقَ القسَّامُ ، ومعه فتيةٌ آمنوا بربِّهم ، الرَّصاصَ على جنودِ بريطانيا وهو يُنادي أصحابَه بعزّةِ المؤمنِ والفارسِ الشُّجاع : موتُوا شُهداء ، موتُوا شُهداء ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ .

* وظلَّ القسَّام يقاتِلُ حتى سقطَ شهيداً[1] ، ونالَ الشَّهادَة أيضاً عددٌ منْ

---

(١) اقرأ هذهِ الأبياتِ التي تحيي الشّهيد؛ وهي للشّاعر مُحيي الدِّين الحاج عيسىٰ الصَّفدي المولود سنة (١٩٠٠ م) والمتوفىٰ سنة (١٩٧٤ م): =

أصحابهِ ، كما أُسِرَ آخرون وكان استشهادُ القسَّام أليماً علىٰ النَّاسِ بعامّةٍ ، وعلىٰ عبدِ الرحيم محمود خاصّة ، فقد نظَم قصيدةً ميميّةً طويلةً تبلغُ (٣١ بيتاً) عنوانُها: «عيد الجامعة العربيّة» ، وأشارَ في آخرها إلىٰ أنَّ الدَّربَ الذي سَلكَهُ القسَّام ، هو الدَّربُ القويمُ الصَّحيح:

واغْصبْ حُقوقَكَ قطّ لا تَسْتَجْدِهَا ... إنَّ الأُلىٰ سَلبُوا الحقوقَ لِئَامُ

هذهِ طريقُكَ للحياةِ فلا تَحِدْ ... قد سَارَهَا مِنْ قبلِكَ القَسّامُ

* ومنَ الجديرِ بالذكْر أنَّ البطلَ عبد الرحيم محمود لم يكنْ يتركُ أيَّ مناسبةٍ تضيعُ عليه ، دون أنْ يتركَ فيها أثراً من همساتِهِ ، أو يتحدَّثَ عن قضيتهِ الكبرىٰ ، فقد حدثَ أنْ مرَّ الأميرُ سعودُ بنُ عبد العزيز آل سعود بقريةِ عنبْتَا بلدِ المناضل عبد الرحيم محمود في (١٤ آب ١٩٣٣ م) متوجّهاً إلىٰ مدينةِ القدسِ ، فاغتنمَ عبد الرحيم محمود هذه الفرصةَ الذَّهبيّةَ ، وانبرىٰ فألقىٰ بين يدي الأمير سعود قصيدتَه الشَّهيرة «نجم السُّعود» ، أجْملَ فيها للأميرِ قضية الشَّعب الفلسطينيّ ومأساتِه ، وهو يتعرَّضُ لأبشع عدوانٍ شَرسٍ حاقدٍ ، يريدُ أنْ يجتثَّه من جذورِه الثَّابتة العميقةِ ، ثمَّ إنَّه توجَّه بخطابهِ إلى الأميرِ سعود ليخبرَهُ بأنَّ المسجدَ الأقصىٰ في خَطرٍ ، وهل جئتَ أيُّها الأميرُ تزورُه ، أم تودِّعُه قبل الضَّياع؟ وكأنَّ عبد الرحيم محمود قد أحسَّ بأنَّ هذا المسجدَ العظيمَ هُو هدفٌ منْ أهدافِ الصَّهاينةِ الملاعين ، وكأنَّ إحساسَه أخبرَه قبل ثُلث قَرنٍ بأنَّ هذا المسجدَ سيُسْبىٰ ويُباحُ حرمُه ، اسمعْ إلىٰ عبدِ الرحيم حيثُ يقولُ:

= إلىٰ رُوحِ كُلِّ شَهيدٍ مضىٰ ... يكافحُ والثّأرُ مِنْ قَصْدِهِ
فَسَالَ الدَّمُ الحرُّ فَوق الثَّرىٰ ... وفاءً بما كانَ مِنْ عَهْدِهِ
فقُلْ للذي ضَلَّ في دَربهِ ... وأذْهَلَه الخطبُ عنْ رشدِهِ
دماءُ الشّهيدِ منارُ الطّريق ... لِمَنْ يحفظُ العَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ

نجمُ السُّعودِ وفي جبينِكَ مطْلَعُه　　أنّى توجَّه ركْبُ عزّك يتْبَعُه
سَهلاً نزلتَ ولو نزلتَ بممْحِلٍ　　يوماً لأَمْرعَ منْ نزولكَ بلقعُه
والقومُ قومُك يا أميرُ إذا النَّوى　　فَرقَتْه آمالَ العروبةِ تجْمعُه

ومنْها:

يا ذَا الأميرُ أَمامَ عينِك شاعِرٌ　　ضُمَّتْ على الشّكوىٰ المريرةِ أضلعُه
شكوىٰ وتحلو للمضيمِ شكاتُه　　عندَ الأميرِ وإنْ ترقْرَقَ أدمعُه

* ثمَّ يقولُ هذا البيتَ الرّائعَ الذي استجلىٰ فيهِ حقيقةً ، وكأنَّه يرىٰ بأمِّ عينه مصيرَ الأقصىٰ ؛ فأرهفْ سَمْعَك ـ عزيزي القارىء ـ وتأمَّل معْنَاه جيّداً:

المسْجِدُ الأقصىٰ أجئْتَ تزورُه　　أمْ جئتَ منْ قبلَ الضياع تودعُه

ثم يقول متابعاً تصوير ما سَيحْدُث:

حَرَمٌ يُباحُ لكلِّ أوْكَعَ آبقٍ　　ولكلِّ أفاك شريدٍ أَرْبُعُه
والطّاعنونَ وبُوركَتْ جنباتُه　　أبناؤُه أَعْظِمْ بطعنٍ يُوجعُه
وغَداً وما أدناهُ لا يَبقى سِوىٰ　　دَمْعٌ لنَا يَهْمِي وسِنّ نقرعُه
ويقرِّبُ الأمْرَ العصيبَ أسافِلٌ　　عجلُوا علينا بالذي نتوقّعُه

* ثمَّ يختمُها بقولهِ:

سِرْ يا أميرُ ورافقتْكَ عنايةٌ　　نجم السُّعود وفي جبينكَ مطلعُه[1]

* ويروىٰ أنَّ الأميرَ سُعود قد انفجرَ باكياً عندما سَمِعَ هذه القصيدةَ المؤثّرةَ البَديعةَ الرّائعةَ ، ثمَّ طلبَ منَ البطلِ الشّابّ الغضّ الصّامد الثّابت إعادة القصيدة ، فامتثلَ عبد الرحيم محمود ـ رحمه الله ـ ذلك ، وأعادَ على مسامع الأمير وصحبه من قوله:

المَسْجدُ الأقصىٰ أجئتَ تزورُهُ　　أم جئْتَ منْ قبلِ الضّياعِ تُودّعه

---

(١) انظر ديوانه حيث تجد القصيدة كاملة. وانظر: شاعران من جبل النار (ص ٢٦٠).

* ولعلّه أعادَ هذا البيتَ مراراً ، لما له من وقعٍ في نفس الأميرِ سعود الذي زادَ بكاؤُه وهو يسمعُ من عبد الرحيم محمود أبياته المؤثّرة.

* وظلَّ البطلُ المجاهدُ الشَّاب عبد الرحيم محمود يتابعُ رحلةَ الجهادِ ، فانضمَّ إلى كتائبِ المجاهدين في «جَبَل النَّار» تحتَ قيادةِ البطلِ المجاهدِ عبد الرحيم الحاج محمّد ، وأخذَ يقتحمُ كلَّ الأخطارِ ، ويركبُ الأهوال ، أمَلاً في أنْ يظفرَ بشرفِ الاستشهادِ في حومةِ الميدان ، بيد أنَّ عنايةَ الله عزَّ وجلَّ كانتْ ترعاهُ وتحفظُه ، وتدّخرُه إلى معاركَ أخرىٰ في سنواتٍ تالية ، بينما استشهد عبد الرحيم الحاج محمّد وهو يؤدّي واجبَه الوطنيّ ضدَّ أعداءِ الله ؛ نعم ماتَ القائدُ عبدِ الرحيم الحاج محمّد شهيداً ، فخلّدَ استشهادَه ربيبُه في البطولةِ عبد الرحيم محمود في قصيدةٍ داليّةٍ طويلةٍ عنوانُها «البطل الشَّهيد» فقال في مطلعِها :

أَإذا أنْشَدْتُ يوفيكَ نَشيدي ... حقّك الواجبَ يا خيرَ شهيدِ
أيّ لفظٍ يَسَعُ المعنىٰ الذي ... منْكَ أستوحيهِ يا وحيَ قَصيدي

ومنها :

أقْفَر الميدانُ مِنْ فُرسَانِهِ ... وخَلا منْ أهْلِه غابُ الأُسودِ
حَسْرتا للدِّينِ والمجدِ الذي ... قد أُصيبَا فيكَ بالرّكنِ الوطيدِ
إنَّ يوماً قد رُزئْنا بكَ فيهِ ... جاعلٌ أيّامنَا سُوداً بِسودِ
كلّ بيتٍ لكَ فيهِ مأْتَمٌ ... يندبُ النَّاسَ بهِ أغلىٰ فقيدِ
برزَتْ فيهِ المصُوناتُ ضُحىً ... صَارخاتٍ قارعاتٍ للخدودِ

ومنها يوجّه كلماتِهِ للشهيد الذي كان يرجو الموتَ في سبيلِ الله :

أيّها القائِدُ هَذي مِيْتَةٌ ... طَالَما رجّيتها منذُ البَعيد
مَصْرَعُ الأبْطَالِ ما بينَ القَنَا ... في الميَادينِ ورفّاتِ البُنود
يا شهيداً قد تخذْنا قبساً ... منْهُ يهدينا إلى النَّهجِ السَّديد

متَّ في الحربِ شَريفاً لم تطِقْ   ربْقَــــة الأَسْــــرِ وَلاَ ذُلَّ العبيـــــد
هكـــذا العَـــارُ مَـــريـــرٌ وِرْدُهُ   والـرَّدى للحـرِّ مَعْسـولُ الـورود

* وهكذا كانَ المقاتلُ البطلُ عبد الرحيم محمود يرثي قائِدَه وزميلَه في الكفَاحِ بذوبِ قلبهِ الثَّائر ، الذي لا يقرُّ له قرار إلاّ في ميادينِ القتالِ ، فقد كان عشقُه للسِّلاحِ مُساوياً حبّه للوطنِ ، فإذا ابتعَد عن سلاحِهِ ، أحسَّ بالألَمِ المريرِ يعصرُ قلْبَه ، فكأنَّه أضاعَ إصراره وعزمه وتصميمه ، وعن هذا المعنىٰ يعبّرُ أبو الطَّيِّب عبد الرحيم محمود؛ ويذكر غايتَه العظيمة فيقول:

كَشّري مَا شئْتِ يا سُودَ الليالي   فــأبــوا الطَّيِّــب عشّــاق النّــزال
إنْ تقاعستُ عن الحربِ فإنّي   مجـرمٌ يقْعُـدُ عـن شـأْو المعَـالـي
غـايتـي ألقـىٰ المنـايَـا عـاجـلاً   في مجالِ العِلْم أو سَاحِ النِّضالِ

* وعندما توقفتِ الثَّورةُ في فلسطين سنة (١٩٣٩ م) وخبَتْ نيرانُ الثُّوار ، أخذتْ زبانيةُ بريطانيا تطارِدُ عبد الرحيم محمود وتضطهدُه ، وتحاربُه في رزقه ، حيث رأتْ في أشعارِه وقصائدِه الحماسيّة حافزاً من أكبرِ الحوافزِ في تحريكِ الجماهير الغاضبةِ نحو ثورةٍ عامّةٍ عارمة ، كما أنَّها رأتْ في سلاحِه ـ الذي يصوّبُه إلى كلّ مستعمر غاصب ـ الخطر كلّه ، وحاولت أنْ تقبضَ عليه بكلّ ما وسعها ، لكنّه أفلتَ منها ، وتمكّن من مغادرةِ مسْقَطِ رأسهِ ومهوىٰ فؤادِه ومرتَع طفولته فلسطين الحبيبة أرض النّبّوات ، غادرها وذهبَ إلى العراق ، حيث عملَ هناك مدرّساً ، ولكنَّه درس أيضاً الفنون العسكريّة إذ التحقَ بالكليّةِ الحربيّةِ هناك ، وتخرَّجَ فيها برتبةِ «ملازم» بعد تدريب شاقّ ، جعلَ منه بطلاً لا يَهاب الموت.

* وقد أبتْ همّةُ الشَّاعرِ وعزيمته ، إلاّ أنْ يشاركَ في ثورة رشيد عالي الكيلاني التي اندلعتْ في العراق عام (١٩٤٠ م) ، وبعد أنْ خمدتْ هذه الثَّورة تقلَّبَ عبد الرحيم محمود في وظائف تعليميّة كان آخرُهَا معلّماً للغة

العربيّة في بغدادَ ، ثمّ مدرساً في مدرسةِ العشَّا بالبصرة ، وقد أفادَ منه طلبة العِلْم هناك بما حبَاهُ اللهُ من فصاحةٍ وتمكُّنٍ في اللغة العربية وآدابها .

* لقد أقامَ الشَّاعر المجاهدُ ، والبطلُ الغرّيد عبد الرحيم محمود في العراقِ زهاءَ ثلاثة أعْوامٍ من عام (١٩٣٩ م إلى ١٩٤٢ م) ، وكانتْ أعواماً سِماناً ، التقىٰ خلالَها كِبارَ شعراءِ العراق وعمالقة مفكّريه وأدبائِه ، وأفادَ منهم ، وكان خلال هذه الأعوام موضعَ الحفاوةِ والتّكريمِ من أبناءِ العِراقِ الأماجيد ، وكانتْ له مساجلاتٌ مع أعلامِ الشِّعر العراقي من مثل : معروف الرّصافي ، ومهدي الجواهريّ ، وغيرهما[1] .

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ أيّامَ الاغترابِ التي قضَاها عبد الرحيم محمود بعيداً عن بلدِه قد شحذت همّته ، وأعطَتْه دفعاً قوياً في مواصلةِ الجهاد ، فهو لم ينْسَ وطنَه لحظةً واحدةً ، بل ظلَّتْ أطلالُ أوطانهِ مرسومةً بين حنايا أضالعه ، وفي سُويداء قلبهِ ، يرىٰ وطنَه في كلّ شيءٍ ، في ضوءِ الشَّمس ، ونورِ القمر ، والنسيمِ العذب ، كما يراهُ في فم كلّ زهرة فوّاحة ، وفي خرير الجدولِ الصَّافي ، بل وفي كلّ دمعةٍ منسكبةٍ من عينٍ حزينة .

* وخلال إقامته بالعراقِ كان له نظمٌ رائقٌ ، وأشعارٌ جميلةٌ ، إلاّ أنَّ تاريخَه الأدبي والشّعري لم يحفظْ ولم يحتفظْ له إلاّ بقصيدةٍ رائيّةٍ واحدة ، يتشوَّقُ فيها إلىٰ بلدِه فلسطين ، ويحنُّ إلىٰ ترابِهَا ، حيثُ تكفيهِ حفنةٌ منْ ترابِ الوطنِ يضعُها تحتَ خدِّه إذا ماتَ بعيداً عنه ، يقولُ البطلُ عبدُ الرحيم محمود في مطْلَع رائيته الجميلةِ :

فكرةٌ قَدْ خالطَتْ كلَّ الفِكَر ... صورةٌ قَدْ مازَجَتْ كُلَّ الصُّور
هيَ في دُنياي سِرٌّ مثلمَا ... قد غَدا اسمُ اللهِ سرّاً في السُّور

---

(١) انظر : ديوانه (ص ٢٨) بتصرف يسير .

تلـكَ أوطـانـي وهـذا رسمُهـا ... فـي سُـويـداءِ فـؤادي مُحْتَفَـر

تتـراءىٰ لـي علـىٰ بهجتِهـا ... حيثما قلَّبْتَ فـي الكـونِ النَّظَـر

في ضياءِ الشَّمْسِ في نورِ القمَر ... في النَّسيمِ العَذْبِ في ثَغْرِ الزَّهَر

في خَريرِ الجدولِ الصَّافي وفي ... صَخَـب النَّهْـرِ وأمـواجِ البَحـر

في هتونِ الدَّمعِ منْ هولِ النَّوى ... واسمُهـا مـلءُ تَسـابيـحِ السَّحـر

يـا بـلادي يـا مَنـى قلبـي إنْ ... تَسْلمـي لـي أنـتِ فـالـدنيـا هَـدر

ومنها:

مُنيتي فـي غُـربتي قبلَ الـرّدى ... أنْ أُملـي مـنْ مجـاليـكِ البَصـر

ظمئـتْ نفسـي لمغنـاكِ فَهـل ... يطفـيء الحـرقـةَ بـالعُـودِ القَـدر

خَبـرٌ ينقُلـه ريـحُ الصَّبـا ... ويـذيـعُ الـزَّهـر أنسـامُ الخَبـر

ويُـلاقـي كُـلَّ إلْـفٍ إلْفَـه ... ويلمّـان الشَّتيـتَ المنتشِـر

يـا بـلادي أَرشفينـي قطـرةً ... كـلُّ مـاءٍ غيـرُ مـا فيـك كَـدَر

ليـتَ مِـنْ ذاكَ الثَّرى لـي حفنـةٌ ... أتملّـىٰ مـن شَـذَا التُّـرب العَطِـر

تحـتَ خـدّي إنْ أَمُـتْ فَـرشَتُهـا ... وإذا عشْـتُ فيكفينـي الأثَـر

فمتـىٰ أرجـعُ يـا ربّـي متـىٰ ... لأرىٰ حُلْـمَ غـرامـي المُنْتَظَـر

ليـتَ لـي أجنحـةَ البـرقِ فـلا ... أقطـعُ البيْـدَ بـوعثـاءِ السَّفـر

يـا تُـرىٰ عُشّـي كمـا خلّفْتُـه ... لـم يـزلْ فيـهِ فـراخٌ لـمْ تَطِـر

وحَبيبـي يـا حَنينـي للـذي ... لـم يخُـنْ عَهْـدَ ودادي وصَبَـر(١)

البَطَلُ الشَّهِيْدُ:

* بعد أنْ هَدَأَتِ الأحوالُ في فلسطين في أعقابِ سنة (١٩٤١ م)، عادَ

---

(١) انظر: ديوانه (ص ١٣٦ ـ ١٣٩) وشاعران من جبل النار (ص ٢٧٩ و٢٨٠) مع الجمع والتصرف.

الشَّاعر البطلُ إلى وطنهِ مبتهَج الفؤاد ، قريرَ العين ، طيِّبَ النَّفس ، بعد أن كانَ شديد الظّمأ لمغاني بلادِه التي روّاها بمعاني فؤادِه ، وهناكَ أخذَ يسمعَ غناء الطَّيرِ في أشجارِه بأنغامٍ تُرقصُ أعطافَ الشَّجر ، وهناك لقيَ أحبابَه وأترابَه ومعارفَه وخلاّنَه.

* وفي مدرسةِ النَّجاح لمعَ نجْمُه مرّةً ثانية ، حيث تابعَ عمله بعد غيابٍ طويل ، وراحَ يعلِّمُ طلاّبَه عيونَ الأدبِ العربيّ ، ويغرسُ في نفوسِهم حُبَّ الوطن ، وكانت قريحتُه الغنيّةُ بالشِّعرِ تفيضُ بحماسِ الكلماتِ ، فيرسلُ أغاريدَهُ الوطنيةَ ، وأهازيجَه الحماسيَّة في آفاق فلسطين ، ويغرّدُ علىٰ أرواحِها ، ويطربُ القلوبَ ويصقلُ النَّفوسَ ، فاسمعْ إليهِ في هذه القصيدةِ الملتهبةِ حماسَاً وشجاعةً ، وهو يدعو خلالها إلى الجهادِ دعوةً إيجابيةً ، ويرسمُ صورةَ النّضال الحقّ :

دَعَا الوَطَنُ الذَّبيحُ إلىٰ الجهادِ   فخـفَّ لِفَـرطِ فـرحَتـهِ فُـؤَادي
وسَـابقـتُ النَّسيـمَ ولا افتخـارٌ   أليـسَ علـيَّ أنْ أفْـدي بِـلادي
حَملتُ على يَدي رُوحي وقَلْبي   ومـا حمَّلْتُهـا إلاّ عتَـادي

* فهذه صورةٌ حقيقيّةٌ للجهادِ والدّفاع عن الحقّ السَّليب ، وهذه الصّورةُ بعيدة عن عواطفِ الكلماتِ ، فالمجاهدُ عبد الرحيم محمود لم يحملْ روحه وقلْبه في يدٍ ، وسلاحُه في الأخرى ، ليثيرَ الشفقةَ في النُّفوس ، أو يحرِّكَ المشاعر الحزينةَ لحالِهِ ، وإنّما يرسمُ طريقَ الجهادِ الحقيقيّ ، ويسْخَرُ منَ الجبانِ الرّعديد الذي قَعَدَ وتكاسلَ وجبُنَ عن مقاومةِ المحتلّين ، ثم يدعوه ليقعدَ في حضْنِ أمّه كالطِّفْل ، وتكفي الجبانَ هذه الخسّة والمهانة ، ويتابعُ عبد الرحيم محمود داليته فيقول :

وقلـتُ لمَـنْ يخـافُ مـنَ المنَـايـا   أتفـرقُ مـنْ مجـابهـةِ الأَعـادي
أتقعـدُ والحمـىٰ يـرجـوكَ عـونـاً   وتجبـنُ عـن مصـاولـةِ الأعـادي

فـدونَـك حضْـن أمِّـك فـاقْتعِـدهُ وحسْبُـك خسَّـةً هـذا التَّهـادي

فلـلأوطـانِ أجْنَـادُ شِـدَادٌ يكيلـونَ الـدَّمَـارَ لكـلِّ عَـادي

تراهم في الوغىٰ أسداً غضباناً مغـاويـراً إذا نـادىٰ المنـادي

بنـي وطنـي دنَـا يـومُ الضَّحـايـا أغـرّ علـىٰ رُبـى أرضِ المَعـادِ

ومَنْ للحربِ إنْ هاجَتْ لظَاها ومَـنْ إلاكمـو قَـدْحُ الـزِّنـادِ[1]

* وفي خلال سِتّةِ أعوامٍ منَ عام (١٩٤٢ ـ ١٩٤٨ م) ، نظمَ عبد الرحيم محمود أكثرَ قصائِده الحماسيّة البطوليّة ، ونشَرها في صحفِ فلسطين ، وظلّ كذلكَ يلتهبُ حماسَاً إلى أنْ صدَر قرارُ التَّقسيم الجائرِ في (١٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ م). وقامتِ الحربُ بينَ العربِ واليهودِ.

* هنالك هبَّ عبدُ الرحيم محمود ليقفَ في وجْهَ اليهود وحلفائِهم الذين تآمروا لاغتصاب فردوس بلاد الشَّام وقبلةِ المسلمين الأولىٰ ، هبَّ الفتى الشّاعرُ البطلُ الفارسُ كيما يجاهد في سبيلِ اللهِ ، وتركَ التَّدريسَ مرّة أخرىٰ ، فقد أزفتْ ساعةُ الجهادِ ، وحانَ موعدُ اللقاء ، وعليه أنْ يلبيَ النّداء ، ليكونَ شهيداً من أحفادِ الأبرار الذين سبقوه منْ قَبْل.

* ووقفَ البطلُ الشَّاب أمامَ طلاّبه يخاطبُهم: أيّها الإخوان ، لقد انتهتِ الدّراسَةُ في الكليّةِ بسببِ القرارِ الجائرِ وعدمِ الاستقرارِ ، وإني أرىٰ الحماسَ في وجوهكم ، وإنَّ الكلامَ لا يفيدُ ، ماذا ستعملون بصراحة ؟!؟ هل ستحاربون عدوّكم بالعصيّ؟ الرّجل فينا يجبُ أنْ يخوضَ المعركةَ

(١) انظر: ديوانه (ص ١٤٠ ـ ١٤٣) والقصيدة تعد (٢٠ بيتاً) وتشبه هذه القصيدةُ التي تدعو الشَّعبَ إلىٰ النضالِ قصيدة أخرىٰ لعبد الرزاق الهاشميّ العراقي:

وطنـي العـزيـزُ إلـىٰ متـىٰ متكبّـدٌ كـلَّ اضطهـاد

يـا أيّهـا الشعـبُ الـذي اضطهـدوكَ كـم لـك مـنْ أيـاد

رتعـوا بنعمتـك التـي درّتْ علـى حَسَـب المـراد

بنفسه ، يجبُ أنْ يتجنَّدَ. . . اتركوا الفوضىٰ أيّها الإخوان ، وعليكم بالتّنظيم والتّدريب والوحدة[1] .

* وتركَ عبد الرحيم محمود بلدَه ، وسافرَ في منتصفِ شهر كانون الثاني (عام ١٩٤٨ م) إلى بيروتَ ، ثمَّ سافرَ إلى الشَّام ، وتدرَّبَ في معسكرِ «قَطَنا» جنوبي دمشق ، وعرفَ ما استجدَّ من سلاحٍ ، وتعلَّم أسرارَ القِتال ، والتحقَ بجيشِ الإنقاذِ ، ورابطَ في بلدةِ «بلْعَا» القريبةِ من طولكرم ، ثمَّ اشترك في معركةِ «بيار عدس» مع سريةٍ من فوجِ حطّين ، حيثُ قاتلَ بالبندقيّةِ ، وبالشَّجاعةِ الممزوجةِ بالإيمانِ بالله .

* وفي شهر نيسان من عام (١٩٤٨ م) عُيّنَ عبد الرحيم محمود آمِراً للانضباطِ في مدينةِ طولكرم ، متوليّاً مسؤوليّة حمايتها والدّفاع عنها .

* وكان بطلُنا المقدامُ يدوِّنُ مشاهداتِه وملاحظاتِه في مذكّراتٍ دأَبَ على تدوينها وتسجيلها يوماً بيوم ، ثمَّ إنَّه اشتركَ بعد ذلك في النِّضال الذي قامَ حولَ الرّمْلة ، وفي قطاعِ النَّاصرة ، وكان خلال ذلك قد رُقّيَ إلى رتبة ملازم أوّل ، وكانَ مساعداً لآمرِ الفوجِ المسؤول عن النّاصرة .

* وعندما اشتدتْ معاركُ قرية الشَّجرة[2] ، أَمَّهَا عبد الرحيم محمود ليسهمَ في دَرْءِ الرّدىٰ عنها من كيدِ المعتدين .

---

(١) انظر: الشاعر عبد الرحيم محمود (ص ٥٠) بتصرف يسير .

(٢) «الشَّجرة»: قريـةٌ عربيـةٌ منْ أعمالِ طبريـةِ ، كانَ يسكنها حسَب الإحصاءِ الرسميّ (سنَة ١٩٤٨ ، ٧٧٠ نسمة) معظمُهم منَ المسلمين ، ومساحتها (١٠٠ دونم) ، وذكرهَا ياقوتُ الحمويّ فقال: الشّجرةُ اسمُ قريةٍ بفلسطين ، فيها قبرُ صدّيق ابن صالح النبي عليه السَّلام ، وقبرُ دحيةَ الكلبيّ. (معجم البلدان ٣/ ٣٢٥).
أقول: دحيةُ الكلبي الصَّحابي ـ رضي الله عنه ـ سكنَ المِزّة ، القرية المعروفة قرب دمشق ، وبقي إلى خلافة سيّدنا معاوية رضي الله عنهما .

* وفي يومِ (١٣ تموز سنة ١٩٤٨ م) نشبتْ معركةٌ حاميةٌ بين العربِ واليهود في قرية الشَّجرة ، وهبَّ عبد الرحيم محمود ينافحُ ويجاهدُ ويجالدُ اليهودَ ، هنالك ويومَها لقي الأسدُ الباسلُ المجاهدُ مصْرعَه في ميدانِ الشَّرفِ وحومةِ الحقّ ، فقد أصابَتْه رصاصَةٌ في عنقِهِ ووجهه ، فقضَتْ علىٰ حياتِهِ.

* وسكَتْ البطلُ الغرّيدُ. . . سكتَ البطلُ الشَّهيدُ ، ولكنَّه كانَ قبل أنْ يلفظَ أنفاسَه الأخيرةَ يهلِّلُ ويكبّر ويذكرُ الله عزَّ وجلَّ ، وكانَ يردِّدُ ـ وهو محمولٌ على محفّة علىٰ أكتافِ أصحابِه الذين نقلُوه إلى مستشفى الميدان[1] ـ هذه الكلمات :

احْملُــــونـــــي احملُــــونـــــي واحْـــــذَرُوا أنْ تتـــــركُـــونـــــي
يــــــا فلسْطِيـــــــنُ وَدَاعــــــاً خَـــــالِصــــاً مـــن كُـــلّ هـــونِ
وَخُــــذونـــــي لا تخـــــافُــــوا حيثُمـــــا مُـــــتُّ ادفنُـــونـــــي

* ثم استمرَّتْ شفتاه تتحرّكان بالشَّهادة ، إلى أنْ تلاشىٰ صوتُه ، وصعِدَتْ روحُه إلىٰ ربّها راضيةً مرضيةً ، لأنّها حظيتْ بالشَّهادة العظمىٰ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَ ، بينما كان يردِّدُ زملاؤه وأصحابُه في الجهاد قوله :

سـأحمـلُ روحـي علـىٰ راحَتـي وأُلقـي بهـا فـي مُهـاوي الـرَّدَى
فــإمّــا حيــاةٌ تَســرُّ الصِّــديــق وإمّـــا ممـــاتٌ يغيـــظُ العـــدا

* ودُفِنَ البطلُ الشَّهيدُ في مدينةِ النَّاصرة حيثُ رغبته ، وذلك قبل أنْ تسقطَ في أيدي الصَّهاينة الغاشمين. . . . دُفِنَ البطلُ الشَّابُ وهو في ميعةِ

---

(١) قال أحدُ أقرباء عبد الرحيم محمود : نُقِلَ عبد الرحيم إلى مستشفى الميدانِ بعد أنْ حَمَله أصحابُه على محفّة ، إلا أنَّ السَّيارة التي نقلتْه قد تدهورت قبلَ أنْ يَصِل. (شاعران من جبل النار ص ٢٤١).

الصِّبا وريعانِ الشَّباب حيث كان عمره (٣٥ عاماً) ، إلا أنَّ البطلَ عبد الرحيم محمود سيظلُّ شاباً ، وستظلُّ كلماته شابّة جميلةٌ مدوّية ما دام هنالك جنودٌ بواسلُ يقاتلون في سبيلِ الله .

* رحمك الله يا أبا الطَّيِّب[1] . . . وطيِّب ثَراك ، وأكرمكَ برحمته مع الشُّهداء والصَّالحين .

* * *

(١) لعبد الرحيم محمود ولدان هما : الطيب ، وطلال . وابنة تسمى : رقية .




قَطَري بن الفُجاءة

* سُمِّي بأمير الموت لشجاعته ، وفروسيته ، وبسالته.
* خطيب فصيح ، وبليغ مبين ، وصاحب لسان ذرب ، وشاعر مجيد.
* رأس الخوارج ، ودُعي أمير المؤمنين عشرين سنة.




أمِـيْـرُ الْـمَـوْتِ:

* أميرُ الموتِ؛ اسْمٌ غريبٌ وطريفٌ حقّاً ، أميرُ الموتِ اسمٌ أطْلقَه النَّاسُ علىٰ فارسٍ هذه الصَّفَحاتِ ، لشجاعتِه وفروسيّتِهِ وبسالتِه في ساحاتِ الميادينِ والمعاركِ ، فكانَ يطاعنُ في قُبُلٍ ، ويحمي عَنْ دُبُر .

* ومَع هذا كلِّه ، فهو معدودٌ في جملةِ خطباءِ العَربِ المشهورينَ بالبلاغةِ والفَصَاحةِ والبيانِ واللَّسَن .

* ذكَروا أنَّه كانَ فارساً شجاعاً شَاعِراً مجيداً ، وكان رئيسَ الخوارجِ ، وسلّمُوا عليه بأميرِ المؤمنينَ عشرينَ سنَة ، وكانَ خطيباً فصيْحاً ، ولهُ خطبةٌ في ذمِّ الدُّنيا ، انتهىٰ فيها منَ البلاغةِ إلى الغايةِ[1] .

* عاشَ هذا الفارسُ الشَّاعرُ الخطيبُ المقْدَام في القرنِ الهجريّ الأوَّل ، وبلغَ صيتُ شجاعتِهِ أطرافَ الجزيرةِ العربيةِ حتى سمّوه أميرَ الموت .

* وكانَ هذا الفارسُ ذا المراسِ الشَّديدِ من فرسانِ الأزارقةِ الشَّراة وشجعانِهم، اشتركَ في أيّامِهم ومعارِكهم العديدةِ عندما حاربُوا مصعبَ[2]

---

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشريشي (١/ ٢٣٢).

(٢) مُصعَبُ بنُ الزَّبير بنِ العَوّام القُرشيّ الأَسَديّ ، وَليَ العِراق لأخيهِ عبدِ اللهِ ، وكانَ شجاعاً ممدّحاً جميلاً جواداً ، اختصَّه عُبيد الله بنُ قيس الرُّقيات بأجملِ مدائحهِ وخصوصاً الهمزيّة المشهورة ومنها:

إنّمـــا مصعـــبٌ شهـــابٌ مـــنَ اللهِ تجلَّـــتْ عـــن وجهــهِ الظَّلمـــاءُ

قال عبدُ الملك بنُ مروان يوماً لجلسائِه: مَنْ أشجعُ العرب؟ قالوا: شَبيبُ بنُ يزيد الشَّيباني الخارجيّ؛ فقال عبدُ الملك: أشجعُ النَّاس رجلٌ جمعَ بينَ سكينةَ بنتِ =

ابنَ الزُّبير بنِ العوّام في العراقِ ، وخرجُوا عنْ طاعتِه وسلطانِه في خلافةِ أخيه عبدِ اللهِ بنِ الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ.

* وحينما ماتَ قائدُهم وأميرهُم الزّبيرُ بنُ عليّ السّليطيّ سنَة (٦٨ هـ) ، بايَعَهُ الأزارقةُ بإشارةٍ منه أميراً عليهم[١] ، وسلّموا عليه بالخلافةِ ، ودعوه أميرَ المؤمنين .

* ترىٰ مَنْ هذا الفارسُ الخطيبُ الصِّنديدُ الذي دوَّخَ البلادَ والعبادَ ، وصارتْ سيرتُه أحدوثةً في كُلِّ وادٍ ونادٍ؟

* الإمامُ شمس الدِّيْن الذَّهبيّ يُعْطينا اسمَه وملامِحَه في مفتتحِ ترجمتِه لهُ فيقول ما نصُّه : قطريُّ بنُ الفُجاءة الأميرُ أبو نَعامَة التَّميميّ المازنيّ ، البَطلُ المشهورُ ، رأْسُ الخوارجِ ، خرجَ زمنَ ابنِ الزُّبير ، وهَزَمَ الجيوشَ ، واستفحلَ بلاؤُه[٢] .

* وتقولُ المصادرُ الأخرىٰ : إنَّه أبو نَعامَة قطريُّ بنُ الفَجاءة[٣] واسمُ

= الحُسين ، وعائشةَ بنتِ طلحة ، وليَ العراقَ فأصابَ ثلاثة ملايين ، وأُعْطِي الأمان فأبىٰ ، ومشىٰ بسيفه؛ ذلك مصعبُ بنُ الزَّبير ، لا مَنْ قطع الجُسور وفرَّ هَاهنا مرّة وها هنا مرّة . وكانَ مُصعب يسمّى آنيةَ النَّحل لجودِه ، وكان جميلاً شديدَ العارضة ، وكانَ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ يقفُه ومُصْعَباً فينظرُ أيّهما أحْسَن ، ثمّ يقول : ما خَلَق الله شيئاً أحْسنَ منكما . قُتِل في موقعةِ دير جاثليق ، وكانتْ بينه وبين عبد الملك بن مروان سنة (٧٢ هـ) ، وأخباره كثيرة جدّاً ـ رحمه الله . (التّبيين ص ٢٣٧) بتصرّف

(١) وإلى هذا أشارَ الحريريّ ـ رحمه اللهِ ـ في مقاماتِهِ فقال : فقلَّدوه في هذا الأمْرِ الزَّعامة ، تقليدَ الخوارجِ أبَا نَعامة . (شرح مقامات الحريري ١/ ٢٣٠)

(٢) انظر : سير أعلام النّبلاء (١/ ١٥٤) .

(٣) النّجوم الزّاهرة (١/ ١٩٧) ، والوافي بالوفيات (٢٤/ ٢٤٨ و٢٤٩) ، وحاشية على شرحِ بانَتْ سُعاد لابن هشام (١/ ٣١٠) ، ووفيات الأعيان (٤/ ٩٣ ـ ٩٥) ، وسمْط اللآلي (١/ ٥٩٠) وأمالي المُرتضى (١/ ٦٣٦ و٦٣٧) وخزانة الأدب (١٠/ ١٧٤ ـ ١٧٩) وسير أعلام النّبلاء (٤/ ١٥١ و١٥٢) ، وزَهْر الآداب (ص ٧٨٦=

الفجاءةِ جعونةُ بنُ مازن المازنيّ وقيل التَّميميّ ـ ، كان أحدَ رؤوسِ الخوارجِ ومشاهيرَهُم وفرسانَهم. والفجاءةُ: لقَبٌ لأبيهِ ، وسمِّي الفجاءة لأنَّه غابَ دهْراً باليمنِ ، ثمَّ جاءَهم فجاءةً.

* قالَ البغداديُّ في «الخِزانةِ» عن قَطَريٍّ: وقطريٌّ هوَ رأسُ الخوارجِ ، كان أحدَ الأبطالِ المذكورينَ ، خرجَ في مدّةِ ابن الزُّبير ، وبقيَ يقاتلُ ويستظهرُ بضع[1] عشرةَ سنة ، وسُلِّمَ عليهِ بإمْرةِ المؤمنين ، وجهَّزَ عليهِ

= و١٠٢٧ و١٠٢٨) والحماسَةُ البصريّة (١/ ١٣٠ و١٣١) رقم (٨٧) ، والبرصانُ والعرجانُ والعميانُ والحولانُ (ص ٩٦ و٩٧ و٣٢٦) والعقدُ الفريدُ (انظر الفهارس ٧/ ١٤٣) والكاملُ للمبرّد في مواطن عديدة ، وعيون الأخبار (١/ ١٧٣) و(٢/ ٢٥٠) ، وسرح العيون (ص ٢٠١ و٢٠٢ و٢٠٤) والأخبار الطّوال (ص ٢٧٥ و٢٧٧ و٢٨٠و٣٠٥) والأغاني (انظر الفهارس ٢٦/ ٤٠١) وشرح مقامات الحريري (١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤) وشذرات الذهب (١/ ٣٢٤ و٣٢٥) ومجلة الدرعية ـ السنة الأولى ـ العدد الثاني آب ١٩٩٨ م (ص ١٣٠ ـ ٢٤٧) ، والمعارف (ص ٤١١) وغيرها كثير.

(١) «بضع»: البِضْعُ ومثله البِضْعَة ، وهو ما بينَ الثَّلاثِ إلى التّسع ، وحكمُه تأنيثاً وتذكيراً في الإفراد والتّركيبِ: حكْمُ «تسع وتسعةٍ»؛ تقول: «بِضْعُ سنين» و«بضْعَةَ عشرَ رجلاً» و«بِضْعَ عشرةَ امرأةً» ولا يُستَعملُ فيما زادَ على العشرين ، وأجازَه بعضُهم ، ورُويَ في الحديثِ: «بضْعاً وثلاثينَ مَلكاً» وجعله النّحاةُ كالمصدرِ فلا يُجْمعُ ولا يُثنّى. ويُعْربُ حسبَ موقعِه في الجملةِ ، ويُسْتَعملُ مفرداً ـ وهنا يكونُ معدودُه مُضَافاً إليه ـ مثل: زارنَي بضْعُ طالباتٍ. ونعرب «بضعُ»: فاعلُ زَار مرفوع بالضّمة الظّاهرة ، وهو مُضافٌ. و«طالباتٍ»: مُضاف إليه مجرور بالكسرة. ومركباً مع العَشَرة ـ وهنا يُعربُ كالعَددِ المركب ـ ويكونُ معدودُه منصوباً على التّمييز مثل: شاهدتُ بضعةَ عشرَ تلميذاً أو بضْعَ عشرة تلميذةً. وتعرب «بضعةَ عشر»: اسم مركب مبني على فتح الجزءين في محل نصب مفعول به ، و«تلميذاً»: تمييز منصوب بالفتحة؛ ونعرب كذلك: «بضع عشرة تلميذة» إعراب «بضعة عشر تلميذاً» ويكونُ معطوفاً ـ وهنا يكونُ معدودُه منصوباً على التّمييز أيضاً ـ مثل: «أملِكُ بضعةً وعشرين ألفَ دينارٍ» ونعرب «بضعةً» مفعولٌ بِهِ منصوب وعلامةُ نصبهِ الفتحةُ الظَّاهرةُ علىْ آخره. و«عشرين»: الواو حرفُ عطف مبنيّ على الفتحِ لا محل له من =

الحجاجُ جيشاً بَعْدَ جيشٍ وهو يستظهرُ عليهم ، ويكسرُهم ، وتغلَّبَ على نواحي فارسٍ وغيرِها ، ووقائعُه مشهورة[1] .

* وقال الحصريُّ القيروانيُّ في «زَهْرِه» : وكان أطولَ الخوارجِ أيّاماً ، وأحدهم شوكةً ، وكان شاعِراً جَواداً[2] .

فُروسِيَّته ومَذْهَبُهُ وخَوفُ النَّاسِ مِنْهُ :

* كان قطريُّ بنُ الفجاءةِ المازنيّ واحداً منْ أشدَّاءِ فرسانٍ وأبطالِ عصْرِ بني أميّةَ ، ـ ذلك العَصْرُ البَهيُّ الذي تمخَّضَ عن مشاهيرِ فرسانِ الدُّنيا وأشدّائِهم وفاتحي البلادِ في الشَّرق والغربِ ـ فلقَدْ طارَ صيتُ قطريّ في أحْشَاءِ البلاد ، وخشيَ منْ لقائِه الأبطالُ الشِّداد ، الذين يُسْمَعُ صوتهم في كلِّ نَاد وَوَاد ، وقد لقي في معارِكه وحروبِه عدداً منْ صناديدِ الفُرسانِ القادة ، وقادةِ الفرسانِ ، وسادةِ الأبطالِ وأبطالِ السَّادة ، من مثلِ البطل الصِّنديد : عمرُ بنُ عُبيد الله بن معْمَر التَّيْميّ ؛ وفارس عصره : المهلَّبُ[3]

= الإعراب ، «عشرين» : اسمٌ معطوفٌ منصوبٌ بالياء لأنَّه مُلْحَقٌ بجمعِ المذكّر السَّالم . و«ألفَ» : تمييزٌ منصوبٌ وعلامةُ نصبِهِ الفتحة الظّاهرة على آخرِه ، وهو مُضاف ، و«دينارٍ» : مضافٌ إليه مجرور وعلامةُ جرّه الكسرة الظّاهرة على آخره .

(١) خزانة الأدب للبغدادي (١٠/ ١٧٧ و١٧٨) طبعة دار الكتب العلمية في بيروت .

(٢) انظر : زهر الآداب للحصري (٢/ ١٠٢٧) .

(٣) المهلّبُ بنُ أبي صفرة الأزديّ أميرُ خراسان ، صاحبُ الحروبِ والفتوحِ ، أميرُ عبد الملك بن مروان على خراسانَ ، وأبو صُفرة هو ظالمُ بنُ سراف الأزديّ الذي نزلَ البصرة . وكانَ المهلّبُ يكنى أبا سَعيد ، وكان منْ أشجعِ النَّاس ، وحمَى مدينةَ البصرةِ منَ الشّراة الخوارجِ ، بعد جلاءِ أهلها عنها ، إلاّ مَنْ كانت به قوّة ، فهي تسمّى بصرةَ المهلّب . قال أبو إسحاق السّبيعيّ الهمذانيّ ـ رحمه الله ـ : لم أرَ أميراً أيمنَ نقيبةً ، ولا أشجعَ لقاءً ، ولا أبعدَ ممّا يكره ، ولا أقربَ مما يحبّ منَ المهلّبِ بن أبي صفرة ، ومولدهُ عام الفتح ، ولأبيهِ صُحبة . ولَي المهلّب خراسانَ خمسَ سنين وماتَ بمدينة «مرو الرّوذ» في سنة (٨٢ هـ) ، واستخلفَ ابنه يزيدَ بنَ =

ابنُ أبي صفْرة الأزديّ وأولادُه الميامين: المفضّل ، المغيرة ، يزيد ، ومذْرك ، وغيرهُم ممّن لا يحْصَون.

* وكانَ قطريٌّ مع هذا كُلِّه وذاك كما قالَ أبو عثمان الجاحظُ: يَدِيْنُ بالاستعْرَاضِ ، والسّباءِ ، وقَتْلِ الأطْفَال[1] ، ولهذا انتشرَ صيتُ الأزارقةِ بأنَّهم منْ أصحابِ الشَّرِّ والفَتْكِ ، وكان قطريٌّ منْ بينهم شديدَ الغُلّوِ في الدِّيْنِ ، شديدَ البأسِ في مواجهةِ خصومِه ، والبطش بهم.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ الأزارقةَ قومٌ من الخوارج ، ولا بأْسَ أنْ نتعرَّفَ شيئاً عنِ الخوارجِ ، كيما تظْهرَ الصّورةُ بشكْلٍ أوضح ، وكيما نتعرَّفَ مذهبَهم وعقيدتَهم.

* فالخوارجُ طائفةٌ شعارُهَا «لا حكْمَ إلاَّ للهِ» جمعَ بينها التَّطرُّفُ في كُلّ شيءٍ ، في التّفكيرِ ، في الشُّعور ، فَهُمْ أقوياءُ ألدّاءُ في خصوماتِهم.

* وقد لقيتِ الخلافةُ الأمويّةُ وإماراتُها منهم عَنتاً وضيقاً وإرهاقاً ، فهم متطرّفون في آرائِهم الدّينية ، ولهم وجهاتُ نظرٍ خاصَّة لا تعدو أرنبةَ أنوفهم؛ منهم مَنْ يحكم بالكفْر على المسلمينَ عامّةً! والعياذُ باللهِ تباركَ وتعالى ، ويقولُ غُلاتُهم والمتعمّقُون منهم في المذهب: إنَّ العملَ جزءٌ منَ الإيمان ، فمن ارتكبَ منَ المسلمين معصيةً بِتَرْكهِ فَرضاً ، أو إثباتِهِ منكَراً فليسَ بمنجيه منَ الكفْر اعتقادُ الوحدانيّة والنُّبوّة؛ واحتجّوا على ذلكَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧][2]

= المهلب ، ويزيدُ ابنُ ثلاثين سنة ، فعزلَه عبد الملك برأيِ منَ الحجاج وولّى قتيبةَ بنَ مسلم. (المعارف ص ٣٩٩ و٤٠٠) و(شذرات الذهب ١/ ٣٣٤ و٣٣٥)

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ١٣٤).

(٢) المؤمنونَ الموصولةُ قلوبُهم باللهِ ، النديةُ أرواحُهم بروحِهِ ، الشّاعرون بنفحاتِهِ المُحْيِيَة الرّخيّة ، لا ييأسُون من روحِ الله ، ولو أحاطَ بهم الكربِ ، واشتدَّ بهم =

قالوا: فيجوز أنْ يكونَ مرتكبُ الكبيرةِ مؤمناً ، ولكنْ لا يطمعُ في عفوِ اللهِ ، وما دامَ المسلمون لا يَرونَ ذلك ، فهم كفّارٌ أوجبَ اللهُ مقاتلتهم ، متطرفون في كلّ شيء ، وشِعْرهُم يقذفُ بالحِمم.

* وأصلُ الخوارجِ قومٌ كانُوا مع عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في حَرْبِ صفّين وخرجُوا عليه ، والحقيقةُ أنّهم غدرُوا به وخرجُوا عليهِ ـ وليسَ هنا موضع التَّفْصيل ـ ثمّ نادوا: «لا حكْمَ إلا لله» ، وقالوا: نحنُ الشُّراة[1] ، اشترينا الحياةَ الآخرةَ بالدّنيا؛ قال اليشكريُّ:

يَهْوىٰ وترفعُهُ الرِّماح كأنَّه ... شلْوٌ تَنَشَّبَ في مَخالبِ ضَارِ
فثوىٰ صَريعاً والرّماحُ تنوشُهُ ... إنَّ الشّراةَ قصيرةُ الأعمارِ

* وقال مَعْدانُ الإيّاديُّ:

سَلامٌ عَلى مَنْ بايَعَ اللهَ شَارياً ... وليسَ علىٰ الحزبِ المقيمِ سَلامُ[2]

* ومن شعرِ معاذ بنِ جوين الخارجيّ يحرضُ أصحابَه على الخروج:

أَلا أيُّها الشَّارونَ قد حان لامْرىءٍ ... شَرىٰ نَفْسَه لله أنْ يترحَّلا[3]

* وقد سارَ إليهم سيّدنا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ في أربعةِ آلاف مقاتل عقِبَ موقعةِ صفّين ، حين أنكروا التّحكيم ، وانحازُوا إلى حروراء ، وأبوا

= الضّيق ، وإنَّ المؤمنَ لَفِي روحٍ منْ ظلالِ إيمانِه ، وفي أُنْسٍ منْ صِلَته بربّه ، وفي طمأنينةٍ من ثقتهِ باللهِ ، وهو في مضايق الشّدّة ومخانقِ الكروب ، فما أعظمَ نعمةَ الإيمان باللهِ ومعرفةِ الله!!.

(١) «الشّراة»: منْ شَرى بمعنى غضِبَ ، أو لأنّهم شرُوا أنفسَهم ـ أي باعُوها ـ للهِ تعالى أخْذاً منَ الآيةِ الكريمة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ، لأنَّ طابعَ نشاطهم كانَ الجهادَ في سبيل الله ، وقتال الذين حكموا الرّجال في أمْر الله. (الأخبار الطوال ص ٢٠٦)
(٢) انظر: الكامل للمبرّد (٢/ ١٢٢) ، طبعة مكتبة المعارف ببيروت.
(٣) شعرُ الخوارج لإحسان عبّاس (ص ٨) نقلاً عن تاريخِ الطّبري.

دخولَ الكوفةِ مع سيِّدنا عليّ ـ رضوان الله عليه وحشَرنا في معيّتِه ـ ، فحاولَ إقناعَهم غير مرّة ، فلمْ يقتنعْ أكثرُهُم ، واجتمعوا بالنَّهروانِ ، واستخلَفُوا عليهم عبدَ اللهِ بنَ وهب الرّاسبيّ ، وأخذوا يفسدونَ في الأرضِ ، فذهبَ إليهم عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ وقاتَلهم في موقعةِ النَّهروان حتّى أبادهم[١] ، وبعد اغتيالِ سيِّدنا عليّ ـ رضي الله عنه ـ تصدعتْ جبهتُهم ، واغْروْرَبَ أمرهُم ، فانقسموا إلى فرقٍ كثيرة[٢] أشْهرهَا:

الأزَارِقَةُ: وهم أتباعُ نافعِ بنِ الأزرقِ من بني حنيفة ، المكنىٰ بأبي راشد ، وكان مقدّماً في فقْهِ الخوارجِ ، ثمَّ انضمَّ إليهمِ كثيرٌ منَ الموالي ، وصاروا مثلَ العربَ حماسةً في الدّفاعِ عن مذهبِهم ، وانتهتْ زعامتُهم أخيراً إلى قطريّ بن الفجاءة ، ثمّ انقسموا عليهِ ، فبقي فريقٌ معه ، وتخلَّى عنه فريقٌ إلى عبد ربّه الصَّغير. وكان نفوذُهم بالقُربِ منَ البصرة وبفارس وكِرْمان ، وهذه الفرقةُ أكثرُ فِرقهم عدداً ، وأعظمُها قوّةً ، ولهم تعاليمُ شتى[٣] ، وهم أشدُّ الخوارجِ تطرّفاً ، اعتبروا سائرَ المسلمين كفّاراً وحرَّمُوا على أنفسهم الزَّواج إلاّ منهم ، وحرّموا أكْلَ ذبائحِ المسلمين ، وحرّموا إرثَهم ، قالوا: هم ككفّارِ العربِ ، فالإسلامُ أو القتالُ ، وبهذا استحلُّوا قَتْل شيوخهم ونسائِهم ، واستحلَّوا قَتْل الأطفال ، لأنَّهم مشركون كآبائِهم مخلّدون في النَّار ، لذلك كانت لهم غلظةٌ علىٰ مخالفيهم من المسلمين[٤] ، وبغضاً لهم ، وأشدّهم على أنفسِهم أيضاً؛ فلا عجبَ في أنْ

---

(١) انظر: الشّعر السّياسي لأحمد الشّايب (ص ١٤٦).

(٢) ذكرَ البغداديُّ في كتابهِ «الفَرق بين الفِرق» أنَّ عددَها عشرون فرقة.

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ١٠٩ و١٢٢) والفَرق بين الفِرَق (ص ٦٢) ، وشرح نهج البلاغة (١/ ٣٨١).

(٤) ذكرَ المبرّدُ في «كامِله» قصّةً مفادُها أنَّ واصِلَ بنَ عطاء أبا حُذيفة أقبلَ في رُفْقةٍ معه ، فوقعُوا في أيدي الخوارج ، فقال عطاءٌ لأهل الرُّفقة: دعوني وإيّاهم ـ وكانوا=

مَقَتَهمُ المسلمونَ ، وحاربَهم المهلّبُ بنُ أبي صُفْرة في خلافةِ عبدِ الله بنِ الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ لمّا نَدَبَهُ لحربهم مصعبُ بنُ الزّبير والي العِراق ، ثمَّ حاربَهم في ولايةِ الحجّاجِ بنِ يوسُف علىٰ العراقِ ، حتى قضىٰ عليهم .

النَّجديَّةُ أو النَّجدات: وهم أتباعُ نجدةَ بنِ عامر الحنفيّ ، خالفُوا الأزارقةَ ، وقالوا عن المسلمين: إنّهم أعداءُ الإسلام ، لكنّهم موحّدونَ باللهِ ، ومؤمنون بالرَّسولِ ﷺ ، فَلِمَ لا نتزاوجُ منهم ، ونتوارثُ وإيّاهم؟!

الصُّفْريّة: وهم أتباعُ زيادِ بنِ الأصفر ، ولذلك يسمّون صُفْريةً أو زياديّة. وهم أقلُّ تطرّفاً منَ الأزارقةِ ، فهم لا يكفّرون العقيدةَ مثلاً كالأزارقةِ ، وهم يجتمعون في أشياءَ كالقولِ بالقياس. وقد تزعّمهم شبيبُ بنُ يزيد ، ثم شوذب ـ بسطام اليشكريّ ـ ، ثم الضّحاكُ بنُ قيس الشَّيباني .

الإباضيّة: وهم أتباعُ عبدِ الله بنِ إباض التَّميميّ الذي عاش في النصفِ الثَّاني من القرنِ الهجريّ الأوّل ، في عَصْر سيّدنا معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، ومبادِئُهُ أقربُ إلىٰ الاعتدال .

* وكان الخوارجُ يقاتلونَ عن عقيدةٍ ، ويريدونَ الجهادَ في سبيلها إيماناً بقولِ قائلهم :

أريدُ ثوابَ اللهِ يوماً بطعنةٍ . . .

* لقد آمنوا بدعوتهم الدِّينيةِ ، وبدعوتهم السِّياسية إيماناً يَقِفُ العقلُ

= قد أشرفُوا علىٰ العَطب ـ ، فخرجَ إليهم ، فقالوا: ما أنتَ وأصحابُك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعُوا كلامَ الله ويعرفُوا حدودَه. فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلّمونا. فجعلُوا يعلّمونه أحكامَهم ، وجعلَ يقولُ: قد قبلتُ أنا ومَنْ معي. قالوا: فامْضُوا مصاحَبينَ فإنّنا إخوانكم ، قال: ليس ذلك لكم ، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ فساروا بأجمعِهم حتى بلّغوهم المأمن (الكامل ٢/ ١٢٢) بتصرف .

عنده حائراً ، واحتملُوا القَتْلَ والصَّلبَ والتَّشهيرَ وأنواعَ العذابِ وألوانَه صابرينَ مستبسلينَ ، فاسمعْ لقولِ فروةَ بنِ نوفل الذي يتحدَّثُ عن الموتِ وتقطيعِ الأوصال ، ولكنَّه يَصِلُ إلى نتيجةٍ أنَّ كلَّ هذا يهونُ إذا نَجا منَ النَّار :

مَا إنْ أُبالي إذا أَرْواحُنا قُبِضَتْ ... مـاذا فَعلتُـم بـأوصـالٍ وأَبْشَـارِ

تَجْـري المجـرّةُ والنَّسـرانِ بينَهمـا ... والشَّمْسُ والقَمر السَّاري بمقْدارِ

وقَـدْ عَلِمـتُ وخيـرُ القَـولِ أنْفَعُـه ... أنَّ السَّعيدَ الذي ينْجو منَ النَّارِ[1]

* وكانَ هؤلاء الخوارجُ كلّما وجدوا جوّاً صالحاً لدعوتهم ودعواهم ، طارُوا إليه زرافاتٍ طَيْرَ جَرادٍ منْتَشر فنفخُوا فيه ، ومن ذلك أنّهم استغلُّوا الرُّوحَ الشُّعوبيّةَ. ومن الأمثلة أنَّه في زمنِ هشامِ بنِ عبد الملك حطَّتِ الرِّحالَ بالمغرب جماعاتٌ من الخوارجِ ، وأخذتْ تؤلِّبُ البربرَ الذين ثارُوا وهزَمُوا جيشاً بعثَه هشامٌ لقتالِهم ، وانتصروا عليهم في واقعةِ «مَقْدور» ، وسجّلُوا انتصاراً علىٰ العربِ بمساعدةِ الخوارج .

* على أنَّ الخوارجَ على قِلّةِ عددهم برعُوا في أنواعِ الكرِّ والفَرِّ براعةً مدهشةً ، فكانوا يقاتلونَ عشرات ومئات ، وتُجرّدُ عليهمُ الدَّولةُ مئاتٍ وألوفاً فينتصرون عليها في بعضِ الأحايين والأوقات .

* ومن ذلك أنَّ عُبيدَ الله بنَ زياد أَمَرَ برجلٍ منهم هو عروةُ بنُ أديّة فَبُتِرتْ يداهُ ورجْلاه ، ثمَّ سألَه : كيفَ ترىٰ؟ قال : أرىٰ أنَّك أفسدتَ دُنياي وأفسدتَ آخرتك . فأمرَ به وبابنَتهِ فقُتِلا . ثمَّ خرجَ أخوه مرداسُ بنُ أديّة في أربعينَ رجُلاً منَ الخوارجِ ، ورابطُوا بالأهواز ، فأرسلَ إليهم ابنُ زياد ألفي جندي ، فهزمَهم الخوارجُ في معركةٍ حاسمةٍ في «آسِك» ، ممّا جَعَل شاعراً

---

(١) شعر الخوارج (ص ٥).

منْ شُعراء الخوارجِ هو عيسىٰ بنُ فاتك يشيدُ بهذا الانتصارِ الذي أحرزَهُ عددٌ قليلٌ علىٰ جيشٍ منظّمٍ بقيادة أسلم بنِ زُرعةَ بنِ حصن التّميميّ ، وذلك فيما زَعم عيسى بأنَّ انتصارهم نتيجةَ الإيمانِ وتقوىٰ الخوارجِ ، فقال عيسى قصيدةً ضمَّنها واقتبسَ خلالَها آيةً منَ القُرآنِ الكريم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]:

فلمَّا أَصْبحُوا صَلُّوا وقَامُوا ... إلى الجُرْدِ العِتَاق مُسَوَّمينَا
فلمّا استجمعُوا حملُوا عليهم ... فظَلَّ ذوو الجَعائِلِ يُقْتَلونَا
بقيّةَ يومِهم حتّى أتاهُم ... سوادُ الليلِ فيه يُراوغُونَا
يقولُ بَصيْرهُم لمّا أتاهُمْ ... بِأَنَّ القومَ وَلُّوا هَاربينَا
أَأَلْفَا مُؤْمنٍ فيما زَعَمتُم ... وَيَهزِمُهُم بآسِكَ أربعُونَا
كذبْتُم ليسَ ذاك كما زعمتُم ... ولكنَّ الخوارجَ مؤمنُونَا
همُ الفئةُ القليلةُ غيرَ شَكٍّ ... عَلىٰ الفئةِ الكثيرة يُنْصرونا[1]

* ويتّضحُ لنا أنَّ مذهبَ الخوارجَ الدّيني كان سياسياً ، ثم خَلَطَ بعضُهم بالمذهبِ السّياسي مذْهباً دينياً مُتطرفاً ، وغَبَشَتِ الرُّؤية على كثيرٍ منهم ، واختلطَ لديهم الحابلُ بالنَّابل ، وأوَّلُوا كثيراً منَ الآياتِ القرآنيّةِ الكريمةِ وبعضَ الأحاديثِ الشَّريفة ، لِيُبرّرُوا مذهبَهم ، كما تأوّلُوا ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] و[يوسُف: ٤٠ و٦٧] ، بأنَّ المُراد لا حكومة إلاّ لله ، أي لا حاجَة إلىٰ إمام. وقد سمعهم سيّدنا عليٌّ ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ يقولون هذه العبارة فقال: كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطل.

---

(١) انظر: الكامل (٢/ ١٨٦) وتاريخ الطبري (٥/ ٣١٤) ، وعيون الأخبار (١/ ١٦٣) و«الجرْدُ العتاق»: الخيلُ الجيادُ الكريمة. و«مسوّمين»: معلّمين ، دلالة على بأسِهم وعدم مبالاتهم بمن أمامهم. و«ذوو الجعائل»: جنود بني أمية المأجورون. و«آسك»: موضعٌ بهمدان كانت الموقعةُ فيه.

* فمنَ البديهي والمُسَلَّم به أنَّه لا بدَّ للنَّاسِ منْ حاكمٍ يرعىٰ مصَالِحَهُمْ ، ويسوسُ شؤونَهم ، ويحميهم منَ العدو ، ويأخذُ للضَّعيف منَ القويّ. لذلك نرى أنَّ مذهبَ الخوارج بعامّة يتَّصِفُ بسذاجةِ آرائِهم وغلبةِ البَداوةِ على تعاليمهم[1].

* ولكنْ مع هذا وذاكَ كانتْ أخلاقُهم العامّـة تتّسمُ بالتَّقوىٰ والشَّجاعة.

* أمّا تقواهم فتظهرُ في العبادةِ والزُّهدِ والتّأثُّر في آياتِ الذّكْرِ الحكيمِ ، وبما جاءَ فيها منَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ ، لذا فقد ظهرتْ علىٰ وجوهِهم آثارُ العبادةِ وعلىٰ جباهِهم لطول السُّجود ، لذلك نجدُ هذه الصَّورة في قول عيسىٰ بن فاتِك الحبطيّ عندما رثىٰ مرادسَ بنَ أديةَ ، وداودَ بنَ شَبَث ، ومن قُتِل معهما:

أَلا في اللهِ لاَ في النّاسِ شَالَتْ ... بِـداود وَإِخْـوتِـهِ الجـذُوعُ
مَضـوا قَتْـلاً وتمـزيقـاً وصَلْبـاً ... تَحـومُ عليهـمُ طيـرٌ وُقُـوعُ
إذا مَـا الليـلُ أظْلـم كـابَـدُوه ... فيسفـرُ عنهـمُ وهُـمُ ركـوعُ
أَطَـارَ الخـوفُ نـومَهـمُ فقـامُـوا ... وأهـلُ الأمْـن فـي الـدّنيـا هُجـوعُ

* وأمّا شجاعتُهم فكانت مضربَ الأمثـالِ ، لأنَّهم كانوا يرونَ الاستشهادَ حلْوَ المذاقِ ، عطرَ الانتشاق ، فتهافتُوا على القتالِ في غيرِ مبالاة ، وكانت بطولتُهم تلفتُ الأنظار ، بِغَضِّ النَّظر عن تعصُّبِهم وشططهم.

* وتروي المصادرُ قَصَصاً خياليّة عنْ صبرِهم وشجاعتهم ، فقد طُعِنَ أحدهم ، ونفذَ فيه الرُّمحُ ، فجعلَ يسعىٰ إلىٰ قاتِلهِ ، والرُّمحُ فيه ويقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

---

(١) انظر: أدب السياسة في العصر الأموي (ص ١٠٥) بشيء من التصرف.

* ومن قَصصِ ثباتِهم على عقيدتهم وحسنِ تبصّرهم بمواقعِ الكَلام ما أوردَه أبو العبّاس المبرّد في «كامله» قال: ذكروا أن عبد المَلكِ بنَ مروان أُتي برجلٍ منهم ، فبحثَه فرأىٰ منه ما شاءَ فهماً وعلماً ، ثمَّ بحثَه فرأىٰ ما شاءَ أرباً ودَهْياً ، فرغبَ فيه ، واستدعاه إلىٰ الرجوع عن مذهبِهِ ، فرآهُ مستبصراً محقّقاً ، فزادَه في الاستدعاءِ ، فقال له: لِتُغْنِكَ الأولىٰ عن الثَّانية ، وقد قُلْتَ فسمِعْتُ فاسْمَعْ أُقَـلْ. قال: قُلْ. فجعلَ يبسطُ له من قولِ الخوارجِ ، ويزيّنُ له منْ مذهبِهم بلسانٍ طلقٍ ، وألفاظٍ بيّنة ومعانٍ قريبة. فقالَ عبدُ الملك بعد ذلك ـ على معرفتِهِ ـ: لقد كادَ يوقعُ في خاطري أنَّ الجنَة خُلِقَتْ لهم ، وأنّي أولىٰ بالجهادِ منهم. ثمَّ رجعتُ إلىٰ ما ثبَّتَ اللهُ عليَّ من الحجّةِ ، وقرَّرَ في قلبي من الحقّ. فقلتُ له: لله الآخرةُ والدّنيا وقد سلَّطني اللهُ في الدُّنيا ومكَّنَ لنا فيها ، وأراكَ لسْتَ تجيبُ بالقولِ؛ واللهِ لأقتُلنَّك إنْ لَمْ تُطِعْ.

* وبينما كانَ عبدُ الملك يهدّدُه بالقَتْل ، إذا بابنهِ مروانَ يدخلُ عليه باكياً لِضَرْبِ المؤدّب إيّاه ، فشقَّ ذلك على عبد الملك ، فأقبلَ عليه الخارجيُّ ، فقال له: دَعْه يبكي فإنَّه أرحبُ لشدقهِ وأصحُّ وأذهبُ لصوتِه ، وأحرىٰ أنْ لا تأبىٰ عليه عينُه إذا حضرتْهُ طاعةُ ربّه ، فاستدعىٰ عبرتَها. فأعجب من ذلك قوله عبد الملك ، فقال له متعجِّباً: أما يشْغَلُك ما أنْتَ فيه ، وبعَرَضِهِ عن هذا؟

فقال الخارجيُّ: ما ينبغي أنْ يشْغَلَ المؤمنَ عنْ قولِ الحقّ شيءٌ.

* فأمرَ عبدُ الملك بحبسهِ ، وصَفَح عن قَتْلهِ ، وقال بعد يعتذرُ إليه: لولا أنْ تفسدَ أكثرَ رعيّتي ما حبستُك ، ثمّ إنّ عبد الملك قال: مَنْ شكَّكني ووهَّمني حتّى مالَتْ بي عصمةُ اللهِ ، فغيرُ بعيدٍ أنْ يستهويَ مَنْ بَعْدي. وكانَ

عبدُ الملك منَ الرّأي والعِلْم بموضع[1]. وما أدراكَ ما عبد الملك[2].

* وكانتْ نساءُ الخوارجِ مثلَ رجالهنَّ شجاعةً وصلابةً وعزماً وعنَاداً ،

---

(١) انظر: الكامل للمبرد (٢/ ١٧٠ و١٧١).

(٢) عبدُ الملك بنُ مروانَ بنِ الحكمِ القرشيّ الأمويّ ، وُلِدَ بالمدينةِ سنَة (٢٦ هـ) ، في خلافةِ سَيِّدنا عثمانَ بنِ عفَّان ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ، وولّاه سيّدُنا معاويةُ ـ رضوانُ الله عليه ـ إمارةَ المدينةِ سنة (٤٢ هـ) ، وأمرَهُ أنْ يشتيَ بالمسلمينَ بأرضِ الرُّوم ، فركبَ بالنَّاس البحرَ ، وهو أوَّل مَنْ شَتَا بِهم ، وهو أوّلُ مَنْ سمّي في الإسلام بعبدِ الملك.

قال عنه ابنُ سَعْد في «طبقاته»: كانَ عبداً ناسِكاً قبلَ الخلافةِ (طبقات ابن سعد ٥/ ٢٣٤) وقال ابنُ كثير في «بدايته»: كانَ عبدُ الملك قبلَ الخلافَةِ من العُبَّاد الزُّهّاد الفقراء الملازمين للمسجدِ وتلاوةِ القُرآن. . . . وكانَ حازماً فَطِناً سائساً لأمورِ الدنيا ، لا يَكِلُ أمْرَ دنياه إلىٰ غيرِه. (البداية والنّهاية ٩/ ٦٢ و٦٣) بتصرّف

روىٰ عبدُ الملك الحديثَ عن أبيهِ مروان ، وجابرٍ ، وأبي سَعيد الخدري ، وأبي هُريرة ، وابنِ عمر ، ومعاويةَ ، وأمِّنا أمِّ سلمة وبريرة مولاة أمِّنا عائشة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

وروى عنه جماعةٌ منهم: خالدُ بنُ معدان ، وعروةُ بنُ الزَّبير ، والزّهريُّ ، ورجاءُ بنُ حيوة ، وجريرُ بن عثمان ، وعمرو بن الحارث. ولذلك عدَّهُ أبو الزّناد في الفقْهِ في طبقة ابنِ المسيَّب.

وشهدَ له الثّقات بالعِلْمِ والمعرفةِ ، قال نافعٌ مولىٰ عبدِ الله بنِ عمر وهو عالمُ المدينة المنورة في عَصْره: لقد رأيتُ المدينةَ ، وما فيها شابٌ أشدّ تشميراً ، ولا أفْقَهَ ، ولا أقرأ لكتابِ الله من عبد الملك بن مروان.

وقال الشّعبي الفقيهُ والتَّابعي المشهور: ما جالستُ أحَداً إلا وجدْتُ لي الفضل عليهِ إلا عبد الملك بن مروان ، فإنّي ما ذاكرتُه حديثاً إلاّ زادني منه ، ولا شِعراً إلا زادَني فيه. (البداية والنّهاية ٩/ ٦٢)

وقال سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: وَلَدَ النَّاس أبْناء ، وولَدَ مروانُ وَالداً. وناهيكَ بهذه الشّهادة الكريمة من أحد نُجباء الصَّحابة وعلمائهم.

ولعبدِ الملك أوّليات كثيرة ذكرَها العسكريُّ في «الأوائل» وأخبارُه كثيرة جداً يمكن أن يُفْرَدَ لها عدّة مجلّدات. مات عبدُ الملك بدمشق في يوم الخميسِ منتصف شهر شوال سنة (٨٦ هـ) وعمرُه ستّون سنة ودُفن بباب الجابية الصَّغير (عدة مصادر).

وكُنَّ يشتركْنَ معَ الرِّجالِ في أمورِهم ، وكُنَّ يَرُحْنَ إلىٰ الحروبِ والزُّحوف معهم ، ويتقدمْنَ إلى الحتوفِ وهنَّ غيرُ خائفاتٍ ولا وجِلاَتٍ.

* وكانَ ابنُ زياد شديدَ الغيظِ منهنّ ، تكادُ تنشقُّ مرارتُه منْهنَّ ، لأنَّ اشتراكهُنَّ في الحروبِ يلهبُ حماسةَ الرِّجالِ ، ويزيدُ منْ شجاعتِهم. لذلك أقسمَ ابنُ زيادٍ لئنْ ظفرَ بخارجيّةٍ ليجعلنَّهَا نكَالاً وعبرةً لغيرِها منْ جماعتها وحزْبها ومَنْ لفَّ لفَّها.

* وكانَ منَ الخوارجِ منَ المجتهداتِ «البَلْجاء» وهي امرأةٌ من بني حرام بنِ يربوع ، وكانت تقيّةً عالمةً جريئةً مجاهدةً ، وسمعَ مرداسُ بنُ حُدَير أبو بلال من غيلانَ بنِ خرشةَ الضَّبيَّ أنَّ عُبيدَ الله بنَ زياد يذكرُ البلْجَاء ، وأنّه سيقتُلُها. فمضىٰ إليها أبو بلالٍ وقالَ لها: يا هذه استتِري منْ هذا المسرفِ على نفْسِه ، فإنَّ هذا الجبَّارَ العنيدَ قد ذكَركِ وأحسبُه سيأخذُك وينكِّلُ بكِ ، ونصحَها بأنْ تهربَ. فقالت له بكلماتٍ تفلُّ الحديد: إنْ يأخذْني فهو أشقىٰ بي ، فأمّا أنَا فمَا أحبُّ أنْ يعنتَ إنسانٌ بسببي. فوجَّه إليها عُبيدُ اللهِ بنُ زياد ، فأتىٰ بها ، فقَطَع يديْهَا ورجلَيْها ورمىٰ بها في السُّوقِ. فمرّ أبو بلالٍ والنّاسُ مجتمعون فقالَ: مَا هَذا؟

فقالوا: البَلْجَاء.

فعرّجَ عليها ، فنظرَ إليها ، ثمَّ عضَّ على لحيتهِ وقالَ لنفسِه: لَهذهِ أطْيَبُ عنْ بقيّةِ الدّنيا منْكَ يا مِرْدَاس[1].

---

(١) انظر: الكامل للمبرد (٢/ ١٨١ و١٨٢) وهناك فارقٌ كبيرٌ بينَ البَلْجَاء هذه وامرأة تصْلحُ نفسَها وتتجمَّل وتتصابىٰ. فقد ذكرَ أبو العبّاسُ المبرد قصَّة طريفةً عن هذا المجال فقال عن أعرابي يدعى أبا الزوائد كما جاء في الهادي (٤/ ٩٥): أنشدني أبو زَيد قال: نظرَ شيخٌ منَ الأعراب إلىٰ امرأتِهِ تتصنَّع وهي عجوزٌ فقال:

عَجـوزٌ تـرجّـي أنْ تكـونَ فتيّـةً ... وقد لُحِبَ الجنْبانِ واحْدَودَبَ الظَّهْرُ=

* ومنهنَّ أمُّ شبيب بن يزيد الشّيباني زعيم الصُّفرية ، وزوجه غَزَالة ، وكان لهما شَأْنٌ في حروب الصّفرية عظيم[1] .

* ومنَ المفيدِ هنا في هذا المجالِ خُصوصاً أنْ نشيرَ أيضاً إلى تعصُّبِهم الذي أسَّسُوه على جُرفٍ هَارٍ فَانْهارَ ، ولم يقرَّ لهُ قَرار ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلىٰ سَذَاجتهم التي استقوهَا من بيئتِهم ، وكذلك بداوتهم ، وقلّة مرونتهم وضيق ثقافتِهم ، وقد ولَّدَ هذا كلُّه عندهم اعتدادَهم بأنفسِهم إلىٰ حدِّ الغُرور ، وظنُّوا أنَّهم همُ النَّاس ، وهمُ همُ العَالِمون ، وزادَ الطِّين بلَّة أنَّهم صَدَّقُوا ما يعتادُهم منَ التَّوهُّم ، فتمسّكُوا بظواهِرِ النُّصوص ، وفهموها كما يريدونَ هُمْ وحدَهم ، ولهذا عشَّشَ الخلافُ بينَهم وفرَّخَ وباضَ ، وصارَ بُغَاثاً ثمَّ استَنْسر ، وتعدَّدَتْ فرقُهُم ، وحاربَهم خصومُهم بسلاحِ التَّفرقَةِ الذي سلُّوه علىٰ أنفسِهم ، لذا فقد كان المهلَّبُ بنُ أبي صفرةَ الأزديّ عند محاربته للأزارقةِ يدسُّ بينهم من يثيرُ الخلافَ والشِّقاق ، ويستثيرهم[2] .

= تـدسُّ إلـىٰ العطَّـارِ سلْعَـةَ بيتهـا ... وهل يُصْلِحُ العَطَّار ما أفسدَ الدَّهْرُ
ومـا غـرّنـي إلا خضـابٌ بكفِّهـا ... وكحـلٌ بعينيهـا وأثـوابُهـا الصُّفْـرُ
وجـاؤوا بهـا قبـلَ المحـاقِ بليلـةٍ ... فكـانَ مُحـاقـاً كلُّـه ذلـك الشَّهْـر

فقالت له امرأته :

ألَـمْ تَـرَ أنْ النَّـابَ تحلـبُ عُلْبـةً ... ويُتْـرَكُ ثِلْـبٌ لا ضِـرابٌ ولا ظَهْـرُ

ثمَّ استغاثَتْ بالنّساء ، فاجتمعَ النّساءُ عليه فضربْنَه. (الكامل ١/ ١٨٢ و١٨٣) ومعنى قوله «لَحُب الجنْبان» : قلّ لحمها. و«تدسُّ إلى العطّار سلعَةَ بيتها» : يريد السّويق والدّقيق وما أشبه ذلك. و«النّاب» : تريدُ فيها منفعة على كل حال. و«علبة» : إناء من جلد.

(١) قد أفرذْنا في هذا الكتاب باباً خاصّاً للفارساتِ من نساءِ الخَوارجِ وغيرهنّ.

(٢) انظر : شرح نهج البلاغة (١/ ٤٠٠) بشيء من التصرف ، والكامل للمبرد في مواضع.

* ومعَ هذا كلّه ظلُّوا متمسّكِيْنَ بتعصُّبِهم الهزيلِ المقيتِ ، علىٰ الرغم منْ أنَّ سيِّدنَا عَليّاً ـ رضوان الله عليه ـ خطبَ فيهم ، وأبْطَل آراءَهم ، وأبانَ توهُّمَهم ، وأراهم الشَّرَكَ الذي وقعُوا فيه ، بَيْدَ أنَّهم عمُوا وصمُّوا وأعرضُوا ولم يستجيبوا لَهُ. قال عليٌّ ـ عليه سحائِب الرّضوان ـ: فإنْ أبيتُم إلاّ أنْ تزعُمُوا أنّي أخطأْتُ وضللْتُ ، فَلِمَ تضلّونَ عامّة أمّةِ محمّد ﷺ ، وتأخذونَهم بخطئي ، وتكفّرونَهم بذنوبي؟!

سيوفُكم علىٰ عواتِقِكم ، تضعونَها مواضعَ البُرء والسّقم ، وتخلِطُونَ مَنْ أذنبَ بمنْ لمْ يذْنِب ، وقد علمتم أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رجَمَ الزَّاني المُحْصَن ثمَّ صلَّى عليه ، ثمَّ ورَّثَه أهْلَه؛ وقطعَ يَدَ السَّارق ، وجلَدَ الزَّاني غير المُحْصَن ، ثمّ قسمَ عليهما الفَيء ، ونكَحا المُسْلمات؛ فأخذهم رسولُ الله ﷺ بذنوبهم ، وأقامَ حقَّ اللهِ فيهم ، ولم يمنعْهُم سَهْمَهم منَ الإسلامِ ، ولم يُخْرِجْ أسماءهم منْ بينِ أهْلِهِ.

* وبهذا ناقشَهم عليٌّ ـ رضوان الله عليه ـ بأعمالِ رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ ، لأنَّ العملَ لا يقبل تأويلات ، فلا مجالَ فيه للمُناقَشةِ ، والنَّظر السَّطْحي ، والتّفكير المتحيّز إلى جانبِ الهوىٰ ، لأنَّهم كانوا يتمسّكون بظاهِر النَّصِّ ، ولكنَّهم استبدّوا بآرائِهم ، ولم يستجيبوا له[1].

* ومن أمثلةِ تناقُضِهم أنَّ عبدَ الرحمن بنَ مُلْجم قد قتَلَ عَليّاً ـ رضي اللهُ عنه ـ ، وبقيَ مع هذا يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَ ، فلمّا همُّوا بقطْعِ لسانِهِ شقَّ ذلك عليه وجزِعَ ، فسُئِلَ عنْ ذلك ، فقال: أحببْتُ ألاّ يزالَ فمي بذكْرِ الله رطْباً!!!.

* ومنها أنّهم التقوا عبد اللهِ بنَ خبّاب وهمُّوا بقتْلِهِ ، فوثَبَ رجلٌ منهم

---

(١) انظر: أدب السياسة (ص ١١٠ و١١١) بتصرف يسير.

علىٰ رطْبةٍ فوضَعها في فَمِهِ ، فصاحُوا به ، فلفظَها تورُّعاً. وعرضَ لأحدِهم خنْزيرٌ ، فضربَه الرّجُل فقتَلَه ، فقالوا: هذا فَسادٌ في الأرضِ. فقال عبدُ الله بنُ خبّاب: مَا عليَّ منكُم بأْسٌ إذاً ، إنّي لمسلمٌ ، ولكنّهم ذبَحوه ، ثمّ سامُوا نَصْرانيّاً نخلةً له ، فقال: هي لكم ، فقالوا: ما كنّا لنأخذها إلاّ بثمن.

فقال: ما أعجبَ هذا!؟! أتقتلونَ مثَل عبدِ الله بنِ خبّاب ، ولا تقبلون منّي ثمر نخلة[1]؟!!

* وقد مرَّ معنا من قَبْلُ كيفَ مرَّ بهم واصلُ بنُ عطاء ووقعَ بأيديهم ، وادّعى أنَّه مشْرِكٌ مستجيرٌ ، لأنَّ هذه الدعوى تنجيه أكثر منْ إسلامِه المخالفِ لمذهبِهم.

* ومن أمثلةِ تناقضاتِهم المضحكةِ السَّاذَجةِ أَنْ خَطَبَ عبد الجبار إلىٰ ثعْلب ابنتَه ـ وكلاهما منَ العَجارِدة ـ ، فسألَه ثعلبُ أنْ يَمْهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسلَ الخاطبُ إلى أمِّ الفتاةِ يسألُها: هل بلغَتْ وأقرّتْ بالإسلام؟ فإنْ كان ذلك لم أُبَالِ بمهْرِها.

فقالتِ الأمُّ: ابنتي مسلمةٌ بلغتْ أو لم تبلُغْ.

فاختلفَ الخاطبُ وأبو الفتاةِ وأمُّها ، وتدخَّل عبد الكريم بن عَجْرد ـ رئيسُهم ـ ، فاختارَ البراءَة منَ الأطفالِ ، ونشأَت فِرقَةُ الثَّعالِبة[2].

* وبمثل هذِه الأشياء تلاشىٰ الخوارجُ ، وخَبَتْ نارهُم ، ولكنّهم مع هذا كُلّه انتزعوا إعجابَ خصومهم بشجاعتِهم وإقدامهم.

---

(١) انظر: الكامل للمبرد وفيه كثير من أمثلة هذه القصص.
(٢) انظر: ضحى الإسلام (٣/ ٣٣٣).

* قال البراءُ بنُ قبيصة للمهلّب: ما رأيتُ قطّ أصبرَ ، ولا أبْأَسَ منَ القومِ الذين يقاتلونَك.

* وقالَ للحجّاج لمّا عاد إليه: رأيتُ قوماً لا يعينُ عليهم إلاّ الله. وأمثلةُ هذا كثير فيما وردَ منْ أخبارِهم ، ولكنّا نكتفي بهذا القَدر ، ونعود لنصحبَ قطريّاً في فروسيّتِهِ.

* ذكرَ أبو عثمانَ الجاحظُ أنَّه كانت لقطري كُنْيتَان: كنيةٌ في السِّلْم؛ وهو أبو محمّد ، وكنيةٌ في الحرب؛ وهو أبو نَعامَة[1] ، ونَعامَة فَرسُه[2].

* وكان يرتجزُ ويذكرُ كنيته ويقولُ:

أنَـا أبـو نَعَـامَـةَ الشَّيـخُ الهِبَـل أنَا الذي وُلدْتُ في أخرىٰ الإبل

* ويظهرُ منَ الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عن قطريّ بن الفجاءة ، أنَّه كانَ به شيءٌ منَ البَرَصِ ، قال أبو عثمان الجاحظُ في ذلك: ومنَ البُرصانِ السَّادةِ والأشرافِ الخطباءِ ، والفرسانِ المذكورين ، والخوارجِ المتقدّمين ابنُ الفُجاءة ، وكذلك كان ابنُه ، وكذلك كانَ أخوالُ أبيهِ ، لا يُعرفُ في البَرصِ أعرقَ من ابن قطري المذكور في هذا الكتابِ ، فإنَّه المُقابل المُدابر[3] ، والمُعمُّ المُخْول[4] ، لأنَّ أخواله بنو الحَبْناء ، وأعمامُه آلُ الفجاءة[5].

---

(١) انظر: البيان والتبيين (٣/ ١٣٤).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٨٥).
(٣) «المقابل المدابر»: يقال: رجل مقابل مدابر: كريم الطرفين من قبل أبيه وأمه.
(٤) «المعم المخول»: هو الكريم الأعمام والأخوال.
(٥) انظر: البرصان والعرجان والعميان والحولان (ص ٩٦).

* وفي «المحبّر» ذكر محمّد بنُ حبيب قطرياً بأنَّه من البُرصِ الأشراف[1].

* ويبدو أنَّ آلَ الفُجاءة وذريّتَهم كانوا بُرصاً وبهم وَضَحٌ ، ويظهرُ ذلك في هذهِ القصَّة التي رواها الجاحظُ عن أبي عُبيدة وأبي الحَسنِ قال:

خرجَ جُرمُوز المازنيّ ـ أخو قطريّ ـ إلى قطريّ بنِ الفُجاءة ، وهو بينَ الصَّفَّيْن ، فقال له: بلغَني أنَّكَ تشتري السَّيف بعشرين ألف درهم وأكثر ، أفلا أبعثُ إليك بني تجْبُرهم[2] وتغنيهم؟ قال قطريٌّ: إنْ بعثتَ إليَّ بهم ضربْتُ أعناقَهم وبعثتُ إليك برؤوسهم! قال جُرموز: يا عجَباً ، بنوك وعيالُك في منزلي بالبصرةِ أمُونُهم ، وأبعثُ ببني تضربُ أعناقَهم؟!

قال قطري: إنَّ الذي صنعتَ بعيالي شيءٌ تَراهُ في دِينكَ ، والذي أصنعُ بعيالك شيءٌ أراهُ في دِيني.

قال جُرمُوز: هل أصبتَ بَعْدي وَلَداً؟

قال: نَعَم[3].

فدعَا بغلامٍ شابّ علىٰ بِرذَون؛ فقال جُرموز: لعلّكَ أفْسَدتْه بشيءٍ من هذه الأعاجم ، وهذه السَّبايا؟!

قال: معاذَ اللهِ ، أمُّه الوَجْناءُ بنْتُ الحَبْنَاء.

ثمَّ قال: يا جُرمُوز ، إنَّ بهِ العلامةَ التي بنَا أهْلَ البيتِ ـ يعني الوضَح ،

---

(١) انظر: المحبر.

(٢) «تجبرهم»: جَبَره: أغْنَاهُ بَعْد فَقْر ، وأحسنَ إليه.

(٣) ذكر ابنُ قُتيبة أنَّه لا عقبَ لقطريّ (المعارف ص ٤١١) بينما تذكرُ هذه الرّواية أنّ لهُ غلاماً شاباً يقاتِلُ معه؛ وقد ذكُروا أنَّ له حفيدةً ، وكانت امرأةً برزةً حسناءَ ، ولها خبرٌ في الأغاني وغيره. (شرح مقامات الحريري ١/ ٢٣٥ و٢٣٦) بتصرف

أي البَرص ـ ، يقولُ: إنْ رأيته فاعْرِفْهُ. وهو جُرموز بنُ الفُجاءة ، أخو قطريّ بنُ الفجاءة[1].

* ولهذا فقد كانتِ الجماعةُ منْ أهلِ السُّنَّة يسمُّون قطرياً: سيّدَ الكُفَّار ، وقد أُثِرَ هذا عن رجلٍ منْ أصحابِ المهلّب بنِ أبي صُفرة منْ عبدِ القيسِ أنَّه قال:

سَائِلْ بِنَا عمرَو القَنا وجُنودَهُ ... وَأَبا نَعامةَ سيِّدَ الكُفَّار[2]

* وسَرَتْ صفاتُ شجاعةِ قطريّ بينَ رجالِ عَصْره ، وبين فرسانِهم كما تَسْري النّيرانُ في هشيمِ الحصَاد ، وخافَه الفرسانُ والشُّجعان وخصوصاً عندما يعلمونَ أنَّه في حومةِ الميدانِ ، حيثُ كان فارساً مُلثَّماً ، فقد حُكي عنه أنَّه قد خرجَ ذاتَ مرّةٍ في بعضِ حروبهِ ، وكان على فرسٍ أعْجَفَ[3] ،

---

(١) انظر: البُرصَان والعُرجَان والعُميَان والحُولان (ص ٩٦ و٩٧) ومنَ المفيدِ والجميلِ والممتعِ هنا ، أنْ نسجِّلَ في هذا الموضع قِصّةً طريفةً حدثَتْ لأخي قطريّ مع الحجاجِ بنِ يوسُف ، لنعلمَ أيّ رجلٍ كانَ قطري بن الفجاءة.
فقد رُوي أنَّ الحجاجَ قال لأخيهِ: لأقتلنَّك.
فقال: لِمَ ذَلك؟
قال: لخروجِ أخيك.
قال: فإنَّ معي كتابَ أميرِ المؤمنين ألاَّ تأخذني بذنبِ أخي.
قال: هاتِهِ.
قال: فمعي أوكدُ منه.
قال: ما هوَ؟
قال: كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، حيثُ يقولُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] ، فعجبَ منه ، وخلّى سبيله.
(وفيات الأعيان ٤/ ٩٤) و(الوافي بالوفيات ٢٤/ ٢٤٩).

(٢) انظر: الكامل للمبرد (٢/ ٣٠٢) طبعة دارِ المعارف ببيروت. والكامل (٣/ ١٣٥٩) طبعة مؤسسة الرسالة المحققة. وأبو نَعامة هو قَطَري.

(٣) «أعجَف»: هزيل ، والأنثىٰ عجْفَاء ، والجمعُ عِجاف. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٣].

وبيده عمود خشَب ، فدعَا إلىٰ المبارزَةِ ، فبرزَ إليه رجلٌ ، فحسَر له قطريٌّ عن وجههِ ، فلمّا رآهُ الرَّجلُ ولّىٰ عنه ، فقال له قطريّ : إلىٰ أينَ؟

فقال : لا يستحيِيّ الإنسانُ أنْ يفرَّ منك[1] .

* وحدَّثَ رجلٌ منَ العربِ قال : انهزمنَا من قطريّ وأصحابِه ، فأدركني رجلٌ علىٰ فرسٍ ، فسمعتُ حِسّاً منكَراً خَلْفي ، فالتفتُّ ، فإذا أنا بقطريّ ، فيئستُ من الحياةِ ، فلمّا عرفَني قالَ : اشدُدْ عنانَها ، وأوجعَ خاصِرَتها ، قطعَ اللهُ يديك .

قال : ففعلتُ فنجوتُ منه[2] .

* وهكذا كانَ الفرسانُ يخافونَ قطريّاً ويحسبونَ له ألفَ حسابٍ ، ومن كلامِ العربِ في بعضِ فرسانِهم أنّهم قالوا : ما استحيا شجاعٌ قطّ أنْ يفرَّ منْ عبد اللهِ بنِ خازم ، وقطريّ بنِ الفجاءة صاحبِ الأزارقةِ[3] .

* ولهذا عدَّهُ ابنُ عبد ربّه منْ فرسانِ العربِ في الإسلامِ حيثُ قال : ومنْ فرسانِ العربِ في الإسلام : أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب ، والزُّبيرُ بنُ العوَّام ، وطلحةُ بن عُبيد الله ـ رضي الله عنهم ـ ، وعبدُ الله بنُ خازم السُّلمي ، وعبّادُ بنُ الحُصَين ، وعُميرُ بنُ الحُبَاب ، وقطريُّ بنُ الفجاءة ، والحَريشُ بنُ هلال السَّعديّ ، وشبيبٌ الحَروريُّ[1] .

* وتذكرُ أخبارُ قطريّ أنَّ الفرسانَ كانوا يهابونَ لقاءَه ، حتى إنّ كثيراً

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٩٣) والوافي بالوفيات (٢٤/ ٢٤٨) .

(٢) عيون الأخبار (١/ ١٧٣) .

(٣) العقد الفريد (١/ ١١٧) ، بتصرّف يسير جداً . وكانَ شبيبٌ الحروريّ يصيحُ في جنباتِ الجيش فلا يلوي أحدٌ على أحدٍ ، وفيه يقولُ الشّاعر :

إنْ صَاحَ يوماً حسبتَ الصَّخْرَ منْحَدِراً ... والريحَ عاصفةً والموجَ ينْحَدرُ

منهم قد عصُوا الولاةَ ، وهربُوا منهم ، لأنّهم أرادوا بَعْثَهم إلىٰ لقاءِ قطريّ ، ومنهم سوّارُ بنُ المضرّب السّعديَّ الذي فَرَّ منَ الحجّاج ، وأخبرَه بأنَّه لن يذهبَ إلى قطريّ ما دامَ قومُه موجودين والفلاةَ من ورائِه وأمامِه :

أَقَاتِليَ الحجّاجُ إنْ لَمْ أَزَرْ لَه ... دَرابِ وأتركْ عنْدَ هنْدٍ فُؤاديَا

فإنْ كانَ لا يرضيك حتَّى تردَّني ... إلىٰ قَطريٍّ ما إخَالُكَ رَاضيَا

أيرجو بنو مروانَ سمْعي وطاعَتي ... وقَومي تَميمٌ والفَلاةُ ورائيا[1]

* ومنْ طريفِ أخبارِ الخوارجِ قولُ قطريّ بن الفجاءة المازني لأبي خَالدٍ القَنانيّ ، وكانَ منْ قَعَدِ الخَوارج :

أبا خَالدٍ اِنْفِرْ فَلَسْتَ بخَالدٍ ... وَمَا جَعَلَ الرّحمنُ عذْراً لِقاعِدِ

أتزعمُ أنَّ الخارجيَّ علىٰ الهُدىٰ ... وأنتَ مقيمٌ بينَ لصٍّ وجَاحِدِ

فكتبَ إليهِ أبو خَالد :

لقد زادَ الحياةَ إليَّ حُبّاً ... بناتي إنَّهنَّ منَ الضِّعافِ

أُحَاذِرُ أنْ يَرينَ الفَقْر بَعْدي ... وأنْ يشربْنَ رنْقاً بعد صَافِ

وأنْ يَعْرينَ إنْ كُسِيَ الجَواري ... فَتَنْبُو العَيْنُ عن كَرَمٍ عِجافِ

وَأنْ يضطرهُنَّ الدَّهْرُ بَعْدي ... إلىٰ غمرٍ غَلَيْظِ القَلْب جَافِ

ولَولاَ ذاكَ قد سوَّمْتُ مُهْري ... وفي الرّحمنِ للضُّعَفَاء كَافِ

أَبَانَا مَنْ لنا إنْ غبْتَ عنَّا ... وصَارَ الحيُّ بعْدَكَ في اختلافِ[2]

---

(١) خزانة الأدب (٧/ ٥٠ و٥١) بتصرف ، طبعة بيروت. و«دراب» : يريد دراب جرد. بلد من فارس. و«ورائيا» : بين يدي ، أي : قدامي.

(٢) انظر : الكامل (٢/ ١٢٤) طبعة مكتبة المعارف ببيروت ، والكامل (٣/ ١٠٨١ و١٠٨٢). ومنَ الجدير بالذّكر أنّني قد توسَّعْتُ في رعايةِ الآباءِ للبنات في كتابي الشَّهير «الطّفْل في ضوءِ القرآنِ والسُّنّة والأدبِ» فليراجع وأرجو الله أنْ ينفعَ به الخاص والعام.

* ومن طرائفِ أخبارِ قطريّ بنِ الفجاءة أنَّ حُصينَ بنَ حفصةَ السَّعدي[1] قد هجَا قطريَّ بنَ الفَجاءة ، وعيَّرَهُ بالهربِ منَ المهلّبِ بنِ أبي صُفرة ، فقال قصيدةً منها:

أيا قَطريَّ بنَ الفُجاءة أَمَا لَنا ... منَ النَّصفِ شيءٌ غير فعْل الجبَابِر
أمَا تستحي يا بنَ الفُجاءة منَ التي ... لبستَ بها عَاراً وأنْتَ مهاجِرُ[2]
أفي كلّ يومٍ للمهلّب أسلَمَتْ ... له شفتاكَ الغمّ والقلْبَ طَائِرُ[3]
فحتّى متّى هذا الفِرارُ مخافةً ... وأنتَ وليٌّ والمهلَّبُ كافِرُ
فأنتَ الذي لا نستطيعَ فراقهَ ... حياتُك لا نَفْع وموتُك ضائِرُ
فَمُتْ قَطري إنَّ في الموتِ راحةٌ ... وأنتَ لديه لا محالة صَائِرُ

قَطَرِيٌّ والحَجَّاجُ بنُ يُوسُفَ:

* كانَ قطريُّ بنُ الفجاءَةِ سيّداً شريفاً ، وفارساً مِقْداماً ، وفصيحاً بليغاً ، ناهيك بشجاعتهِ النّادرة بين فُرسان عَصْرِه.

* وكانت له معَ الحجّاجِ بنِ يوسفَ أخبارٌ في نواحٍ متعددة ، ففي

---

(١) كانَ حصينُ بنُ حفصةَ السَّعديّ منْ أصحابِ قطريّ بنِ الفجاءة ، ثمَّ خالَفَه حين قَتَلَ ابنَ عمّه عامرَ بنَ عمرو السَّعدي ، لأنَّه قال لقطري ، وقد بلغَه أنّه يريدُ الهربَ: إنْ قاتلتَ قاتلتُ معكَ ، وإنْ هربْتَ فأنَا أبرأُ إلىٰ اللهِ منكَ. ثمّ عزمَ قطريٌّ على قَتْلِ حُصين نَفْسه ، فهربَ منْه ، وصارَ إلى المهلّب واستأْمنَه ، فعفَا عنه وأجازَه.
(وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٧)

(٢) ويُروىٰ هذا البيتُ علىٰ النَّحو الآتي:
أيا قطريّ الخيرِ إنْ كنْتُ هارباً ... ستلبسنا عاراً وأنْتَ مهاجِرُ
(الأخبار الطوال ص ٢٧٧)

(٣) ويُروى هذا البيت:
إذْ قيلَ قد جَاءَ المهلّبُ أسلَمَتْ ... له شفتاكَ الغمَّ والقلْبُ طائِرُ
(الأخبار الطوال ص ٢٧٧)

الحربِ استظهرَ عليه قطريٌّ مرّاتٍ ومرات.

* كما كانت بينَه وبينَ الحجّاج مكاتباتٌ ورسائلُ ومخاطباتٌ تدلُّ على قوّةِ قلْبِ قطريّ، وشدّةِ بأسِهِ، كما تشيرُ إلى تمكّنِهِ منْ بلاغَةِ الخِطَاب.

* فقد وردَ أنَّ الحجَّاجَ كتَب كتاباً إلىٰ قطريّ قال فيه، بسم الله الرحمن الرحيم، منَ الحجّاجِ بنِ يوسُفَ إلى قطريّ بنِ الفجاءة، سلامٌ عليك المُوَحّدُ الله، والمُصَلَّىٰ عليه محمّد عليه السّلام، أمّا بَعْدُ:

فإنّك كنْتَ أعرابيّاً بدويّاً تستطعمُ الكِسْرة، وتخفُّ إلى التّمرة، ثم خرجتَ تحاولُ ما ليسَ لك بحقّ، واعترضتَ على كتابِ اللهِ، ومرقْتَ من سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، فارجعْ عمّا أنْتَ عليهِ، بما زُيّنَ لك، فقد آن لك.

* وأنفذَ الحجّاجُ الكتابَ مع الغضبانِ بنِ القبعثرىٰ الشَّيباني، فلمّا أوصَلَ الغضبانُ الكتابَ إلى قَطَري، قال: يا غلامُ، ازْبُرْ هذه الصَّحيفةَ، فتَلا عليهِ ما فيها، فتنهَّدَ قطريٌّ الصُّعداء، فقال: يا غضبانُ ألفيتني محزوناً، وأنشأَ يقولُ أبياتاً منها:

فيا كَبِداً منْ غيرِ جُوعٍ ولا ظَما	ويا كبداً منْ وجْدِ أمِّ حَكيمِ
فَلو شَهدتْنِي يومَ دُولابَ أبْصَرتْ	طعانَ فتىٰ في الحربِ غيرِ لئيمِ
غداةَ طفَتْ عَلماءِ بكرُ بنُ وائلٍ	وعُجْنا صدورَ الخيلِ نحوَ تَميمِ
وكانَ بعبدِ القَيْس أوّل حدّها	وآبَ عميدُ الأزْدِ غيرَ ذميمِ

يعني المهلَّبَ؛ وأمّ حكيم هذه امرأةٌ منَ الخوارجِ قُتِلَتْ بين يدَيه، ثمَّ قال: يا غلامُ اكتبْ:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ من قطريّ بنِ الفُجاءة إلىٰ الحجَّاجِ بنِ يُوسف، سلامٌ على مَنِ اتّبعَ الهدىٰ. ذكَرتَ في كتابِكَ أنّي كنْتُ بدويّاً أستطعمُ الكَسْرةَ، وأبدرُ إلىٰ التَّمرةِ، وباللهِ لقد قلتَ زوراً، بل اللهُ بصّرني

من دِيْنه ما أعماكَ عنه إذْ أنتَ سائحٌ في الضَّلالةِ غرِقٌ في غمراتِ الكُفْر ، ذكرتَ أنَّ الضرورة طالَتْ بي ، فهلاّ برزَ لي من حزبكَ مَنْ نال الشَّبع واتّكأَ فاتَّدعَ؟ أمَا واللهِ لئن أبرزَ اللهُ صفحتَك ، وأظهرَ لي صلْعَتَك ، لَتُنكرنَّ شبعَكَ ، ولتعلمنَّ أنَّ مقارعةَ الأبطالِ ليسَ كتسطيرِ الأَمْثال[1] .

الفَارِسُ الخَطِيْبُ الشَّاعِرُ:

* لم يكنْ قطريُّ بنُ الفُجاءة متفرِّداً في الشَّجاعةِ في ميادينِ الجلادِ والنّزالِ ، وفي ألوانِ الفروسيّةِ ، بل حَبَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لسَاناً فصيحاً ، وبلاغةً وبياناً ، فقد كانَ خطيباً مشهوداً له بالباعِ الطَّويلِ بذلك .

---

(١) انظرْ: الكامل (١/ ٢٢٢ و٢٢٣) طبعة مكتبة المعارف ببيروت ، ومنَ الطَّرائفِ الجميلةِ الحلوةِ المغْنَاج أنَّ الحجّاجَ قال لرجلٍ منَ الخوارجِ: واللهِ إنّي لأبغضُكم.
فقالَ له الخارجيُّ: أدخلَ اللهُ أشدَّنا بغضاً لصاحبهِ الجنَّة . (الكامل ١/ ٣٥٥)
ومنَ الجديرِ بالذِّكْرِ أنّ كثيراً منَ الخوارجِ كانتْ تصدرُ عنهم كلماتٍ تنمُّ عن حكمةٍ وتجربةٍ وخبرة ، ومنهم المستوردُ بنُ عُلَّفَة الخارجي التّميميّ الذي أُثِرتْ عنه كلماتٌ سائراتٌ .
قال المبرّدُ: وكانَ المُسْتَورِدُ كثيرَ الصَّلاةِ ، شَديدَ الاجتهادِ ، ولَهُ آدابٌ يُوصي بها ، وهي محفوظةٌ عنه .
كانَ يقولُ: إذَا أفضَيْتُ بِسرّي إلىٰ صديقي فأفْشَاهُ لم أَلُمْهُ ، لأنّي أولىٰ بحفظه .
وكان يقولُ: لا تُفْشِ إلىٰ أحدٍ سرّاً وإنْ كانَ مخلصاً ، إلاّ علىٰ جهةِ المُشَاورةِ .
وكان يقولُ: كُنْ أحرصَ على حفْظِ سرّ صاحبك منك علىٰ حقْنِ دمكَ .
وكان يقولُ: أوّلُ ما يدلُّ عليهِ عائبُ النَّاس معرفتُه بالعُيوب ، ولا يعيبُ إلاّ مَعيب .
وكان يقولُ: المالُ غيرُ باقٍ عليكَ ، فاشْتَرِ من الحمدِ ما يبقى عليك .
وكان يقولُ: بذلُ المالِ في حقّه استدعاءٌ للمزيدِ منَ الجَوادِ .
وكان يكثرُ أنْ يقولَ: لو مُلّكْتُ الأرضَ بحذافيرها ، ثمّ دُعيتَ إلى أنْ أستفيدَ خطيئةً بها ما فَعلْتُ . (الكامل ٣/ ١١٦٣) طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت
و(الكامل ٣/ ٩٧٧ و٩٧٨ و٩٨٠) مصر

* قال ابنُ خلّكان في «وفيَاته»: وهو معدودٌ في جملةِ خطباءِ العربِ المشهورينَ بالبلاغَةِ والفَصَاحة[1].

* وقالَ الذَّهبيُّ في «سِيَرِه»: وكانَ خَطيباً بليغاً كبيرَ المحلّ منْ أفرادِ زمَانهِ[2].

* وقال البغداديُّ في «خِزانَته»: وكانَ مع شجاعَتِهِ منَ البُلغَاء، ولهُ شعْرٌ جيّد[3].

* وأشارَ الجاحظُ قبْلَهم إلىٰ أنَّه منْ خطباءِ الخوارجِ، وأنَّ له خطبةً طويلةً مشهورةً، وكلامٌ كثيرٌ محفوظ[4].

* ومنْ روائعِ خُطَبِهِ تلكَ الخطبة الشَّهيرة في ذمّ الدنيا، والتي أوردَها الجاحظُ وغيرُه، وهذه جُمَلٌ منها...

* قالَ أبو عثمان الجاحظُ: صَعِدَ قطريُّ بنُ الفجاءةِ منبرَ الأزَارقَةِ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: أمّا بعد: فإنّي أحذّركم الدّنيا، فإنّها حلوةٌ خَضِرةٌ، حُفَّتْ بالشَّهواتِ، وراقَتْ بالقليلِ، وتحبَّبت بالعاجلةِ، وغمرتْ بالآمالِ، وتحلَّتْ بالأماني، وازيّنَتْ بالغرور، لا تدومُ خُضرتها، ولا تُؤْمَنُ فجعتُها؛ غدَّارةٌ ضرّارةٌ، وحائلةٌ زائلةٌ، ونافذةٌ بائدةٌ، لا تعدو إذا هي تناهَتْ إلى أمنيةِ أهلِ الرغبةِ فيها، والرّضا عنها، أنْ تكونَ كما قال اللهُ عزَ وجلَ: ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٩٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٢).
(٣) خزانة الأدب (١٠/ ١٨٧).
(٤) البيان والتبيين (١/ ١٨٥).

* ومنها: اعْلَمُوا ، وأنتم تعلمون ، أنّكم تاركوها إلىٰ الأبدِ ، فإنّما هي كما نَعَتْ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] ، فاتّعِظُوا فيها بالذين قال الله تعالىٰ فيهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصّلت: ١٥] ، واتّعِظُوا بِمَنْ رأيتم منْ إخوانِكم كيف حُمِلُوا إلى قبورهم. فلا يُدْعون ركْباناً ، وأُنْزِلُوا الأجداثَ فلا يُدعون ضيفاناً ، وجُعل لهم من الضَّريح أكْنَانٌ ، ومنَ التّراب أكْفانٌ ، ومنَ الرُّفات جيران ، فهم جيرةٌ لا يجيبون داعياً ، ولا يمنعون ضَيماً ، إنْ أُخْصِبُوا لم يفرحُوا ، وإن قُحِطُوا لم يقنطُوا ، جَمْعٌ وهُمْ آحَاد ، جيرةٌ وهم أبْعَاد ، مُتَناؤون يُزَارون ولا يَزُورون. . .

* وهي خطبةٌ جميلةٌ وطويلةٌ تبلغُ بضْعَ صَفَحاتٍ اختتَمها بقولِه: فاحذرُوا ما حذَّركمُ اللهُ ، وانتفعُوا بمواعظِهِ ، واعتصموا بحبلهِ ، عَصَمَنا اللهُ وإيّاكم بطاعتِهِ ، ورزَقَنا وإياكم أداءَ حقِّهِ ، ثمَّ نَزَلَ(١).

* وهكذا نلحظُ أنَّ خُطَبَ قطريّ ورسَائِلَه تنمُّ عن فحولةٍ بلاغيّةٍ ، وجُمَلٍ جيّاشَةٍ رنَّانَةٍ ، خاليةٍ من حُوشيّ الكلامِ وتكلُّفِهِ ، وهي معَ هذا تدلُّ علىٰ إيمانٍ عميقٍ زاهدٍ بالدنيا ، ومحذّرٍ من عاقبةٍ أخرويّة ، وهي أيضاً على نقيضٍ تام ممّا أشيعَ وعُرِفَ عنه من استحلالِ دماءِ المسلمين ، وسبي ذَراريْهِم ، وتقتيلِ أطفالِهم ـ والله أعلمُ بحاله ـ(٢).

* وتتبدّىٰ شجاعةُ قطريٍّ وفروسيّته من خلالِ أشعارِه الكثيرة التي تفيضُ

---

(١) انظر: البيان والتّبيين (٢/ ٣٥٠) والعقد الفريد (٤/ ١٤٣) وعيون الأخبار (٢/ ٢٥٠) ، ونهاية الأرب (٧/ ٢٥٠) وصبح الأعشى (١/ ٢٢٣) ، والكامل للمبرد (٣/ ١٠٨٦) وشرح نهج البلاغة (٧/ ٢٢٦) ومنسوبة عنده لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) انظر: مجلة الدرعية (ص ٢٤٢) العدد الثاني ـ السَّنة الأولى ـ آب ١٩٩٨ م.

حماسةً ولهيباً وجودةَ سَبْكٍ ، ناهيك بفحولتِهِ الشِّعْريّةِ ، ومقدرته على نظْمِ الكلامِ وتأثيرِه في النُّفوس . نعم في النفوس التي تتذّوق الأدب .

* فقد كانَ قطريٌّ رجلاً مِقْداماً شُجاعاً جريئاً لا يهابُ الأهوالَ ، كثيرَ الوقائع والحروب ، قويَّ النَّفس ، رابطَ الجأشِ والنُّهى ، لا يخشىٰ الموتَ ، قال عنه الإمام الذّهبي : وله وقائعُ مشهورةٌ ، وشجاعةٌ لم يُسْمَعُ بمثلِها ، وشعرٌ فصيحٌ سائِر[1] .

* وله القصيدةُ الشَّهيرةُ في عالَم الحماسةِ والحربِ ومخاطبةِ النَّفس ، التي قال عنها ابنُ خلَّكان : وهي تشجِّعُ أجبنَ خلقِ الله ، وما صَدَرَتْ إلا عن نفسٍ أبيّـةٍ وشهامةٍ عربيّة[2] .

* وقد احتوتْ كثيرٌ منَ المصادرِ هذه القصيدةَ بين دفتيها ، وأشارتْ إلى قائِلها ، فدعونا الآن نقرأ هذه القصيدة التي يخاطبُ فيها نَفْسَه ، ويبثُّ فيها الشَّجاعة :

أقـولُ لهـا وقـد طَـارَتْ شَعَـاعـاً	مِـنَ الأَبْطَـالِ ويْحَـكِ لَـنْ تُـراعـي
فـإنَّـكِ لـو سَـأَلْـتِ بقـاءَ يـومٍ	عَلىٰ الأَجَلِ الذي لكِ لنْ تُطاعي
فَصَبـراً فـي مَجـالِ المـوتِ صَبـراً	فمــا نَيْــلُ الخلُــودِ بمستَطَــاعِ[3]
ولا ثــوبُ البقــاءِ بثــوبِ عــزٍّ	فيطوىٰ عنْ أخي الخَنَعِ اليَراعِ[4]
سَبيــلُ المـوتِ غـايـةُ كُـلِّ حـيّ	فــداعيــهِ لأَهــلِ الأَرضِ دَاعــي

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥١).

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٩٤).

(٣) هذا البيتُ منَ الشّواهد النّحويّةِ ، والشَّاهدُ فيهِ قولُه : «فَصَبْراً» ، حيثُ حذفَ منْهُ فعْلَه وهو الطَّلَب ، أي اصْبري .

(٤) «أخو الخنع» : الذّليل . و«اليَراع» : الجبَان ، وأصْل اليَراع : القَصَبةُ لا جوفَ لها ، والرّجُل الذي لا قَلْبَ له ، أي جَبان ، فاستُعِيرَ لَهُ .

وَمَــنْ لا يُعتَبَــط يســأمْ ويهــرمْ　　وتسلمُــه المَنــونُ إلــىٰ انقطــاع
وَمَــا للمــرْءِ خَيــرٌ فــي حَيــاةٍ　　إذا مَــا عُــدَّ مِــنْ سَقَــطِ المتَــاعِ[1]

* ومنْ شِعْرِه الحَماسيّ الشَّهيرِ:

أَبَــتْ لــي عفَّتــي وأبــىٰ بــلائــي　　وأخْـذي الحمْـدَ بـالثَّمَـنِ الـرَّبيـحِ
وإمْسَـاكـي علىٰ المكـروهِ نَفْسي　　وضَـرْبـي هـامـةَ البَطَـلِ المُشيـحِ
وقَـولـي كلّما جَشَـأتْ وجَـاشَـتْ　　مكـانَـكِ تُحْمَـدي أو تستَـريحـي
لأَدْفَـعَ عـنْ مـآثـرَ صَـالحـاتٍ　　وأحمـي بعْـدُ عن عـرضٍ صحيـحِ

* ومنْ شعْرِه يرتجزُ في الحربِ، ويذكرُ الشَّهادةَ والموتَ، ويشيرُ إلى إقدامِه وعَدمِ فرارِه منَ الزَّحْفِ، ثمّ يدعو اللهَ أنْ يجعلَه منَ العُبّاد الأتقياء:

حتّــى متــىٰ تخطئُنــي الشَّهــادَه　　والمــوتُ فــي أعنــاقِنَــا قــلادَه
لَيْـسَ الفـرارُ فـي الـوغـىٰ بِعَـادَه　　يـا ربِّ زدْنـي فـي التُّقـى عِبَـاده
وَفــي الحَيــاةِ بعــدَهــا زهَــادَه

* ومنْ شِعره عندما قتَلَ عمرو بنَ عامر السَّعديّ الذي اتَّهمَ قطريّاً بالهربِ منْ وجْهِ المُهلّبِ بنِ أبي صُفرة، فَفَارقَه على أثَرِ ذلك جَماعةٌ منْ أصحابِه، وبقيَ مغموماً، وضاقَ به الأمْرُ، ولم يَدْرِ ما يصنعُ، فأنْشَأَ يقولُ قصيدةً منها:

أقولُ لنفْسِي حينَ طالَ حصَارُهَا　　وفَـارقَهـا للحـادثـاتِ نَصيـرُهَـا
لكِ الخيرُ موتي إنَّ في الخيرِ راحةً　　فيـأْتـي عليهَـا حَيْنُهـا مـا يضيـرُهَـا

---

(1) وردتْ هذه القصيدة في مصادرَ كثيرةٍ منها: أمالي المُرتضى (١/ ٦٣٦ و٦٣٧) ووفيَات الأعيان (٤/ ٩٤)، والبدايةُ والنّهاية (٩/ ٣٠ و٣١)، ونهايةُ الأرب (٣/ ٢٢٧)، وشذراتُ الذّهب (١/ ٣٢٤)، وسير أعلام النّبلاء (٤/ ١٥١ و١٥٢)، والحماسة البصريّة (١/ ١٣٠)، وحماسة أبي تمام (١/ ٢٤)، والوافي بالوفيات (٢٤/ ٢٤٩)، وشعر الخوارج (ص ٤٢ و٤٣) وغيرها كثير.

فلو أنَّها ترجُو الحياةَ عذرتُها ولكنَّها للموتِ يُحْدىٰ بعيرُهَا
وقد كُنْتُ أُوفي للمهلّبِ صاعَه ويشجىٰ بنا والخيلُ تُثْنَى نحورها
إذَا مَا أَتَتْ خيلٌ لخيلٍ لقيتُها بأقرانِها أُسْداً تدانىٰ زئيرُهَا[١]

* ولقَطَريّ أبياتٌ تدلُّ على علوٍّ همّته وإقدامِه ، اختارها أبو تمّام الطّائي في حماسَتِهِ[٢] ، والأبياتُ تفيضُ بالقوّةِ ، وتدلُّ على الشَّجاعةِ المتأصِّلَةِ في نفسهِ ، كما تدلُّ على النّهايةِ في الإقدامِ ، وعدم الرّكونِ إلى الجُبْن ، والتّعرُّضِ إلى الموت ومنازلةِ الأبطالِ والكُماة. . . . والأبيات هي :

لا يَرْكَنَنْ أحدٌ إلىٰ الإحْجَامِ يومَ الوغىٰ متخوّفاً لِحَمَامِ
فلقَدْ أراني للرِّماحِ دريّةً منْ عَنْ يميني مرّةً وأمَامي[٣]
حتّى خضبْتُ بما تحدَّر منْ دمي أكنافَ سَرْجي أو عنانَ لجامي
ثمّ انصرفتُ وقد أصبْتُ ولم أُصَبْ جَذَعَ البصيرةِ قَارحَ الإقْدامِ
متعرّضاً للموتِ أضربُ مُعلماً بُهَمَ الحروبِ مُشَهَّرَ الإعْلامِ
أدعو الكماةَ إلى النّزالِ ولا أرىٰ نَحْرَ الكريمِ علىٰ القَنا بحرامِ

* وقال البغداديُّ عن قطري : وله حكاياتٌ وأشعارٌ ظريفة[٤]. ومن شعرِه الرّائق قصيدتُه الميميّةُ الجميلةُ التي زيّنَتْ جِيْدَ المصادر ، وهي :

لَعمركَ إنّي في الحياةِ لزاهِدٌ وفي العيشِ ما لمْ ألْقَ أمَّ حكيمِ
منَ الخفراتِ البيضِ لم يُرَ مثْلُها شفاءٌ لذي بثٍّ ولا لسقيمِ
لعمركَ إنّي يومَ ألطمُ وجهَها على نائباتِ الدّهر جِدُّ لئيمِ

---

(١) الفتوح لابن أعثم (٢/ ٨٥).
(٢) حماسة أبي تمام (١/ ٣٥) حيث أورد من القصيدة أربعة أبياتَ فقط .
(٣) «عن» : معناها هنا : اسم بمعنى جانب ، لدخول حرف الجر عليها .
(٤) حاشية على شرح بانت سعاد (١/ ٣١١) .

ولو شَهِدتْني يومَ دُولابَ أبْصَرت طِعانَ فتىٰ في الحربِ غَيْرَ ذَميمِ
غَداةَ طفَتْ عَلْمَاءِ بكرُ بنُ وائلٍ وعُجْنَا صدورَ الخيلِ نَحو تميمِ
وكانَ لعبدِ القَيْسِ أوّلُ جَدِّهَا وأَحْلافِهَا مِنْ يَحْصُبٍ وسليمِ
وظلَّتْ شُيوخُ الأَزْدِ في حومةِ الوغىٰ تعومُ وظَلْنَا في الجِلادِ نَعُوم
فلم أرَ يوماً كَانَ أكثرَ مُقْعَصاً يَمُجُّ دماً مِنْ فائظٍ وكَليمِ
وضاربةٍ خدّاً كريماً علىٰ فتىٰ أغرَّ بجيبِ الأُمَّهاتِ كريمِ
أصيبَ بدولابٍ ولم تكُ موطناً لهُ أرضُ دُولابٍ وديرُ حَميمِ
فلو شَهِدتْنا يومَ ذاكَ وخيلُنا تبيحُ منَ الكفَّار كلَّ حَريمِ
رَأَتْ فِتْيةً باعوا الإلهَ نفوسَهم بجنّاتِ عَدْنٍ عندَه ونعيمِ[1]

* ومن شعرِه الحماسيّ قصيدةٌ يائيّةٌ جميلةٌ وأوّلُها:

إلىٰ كَمْ تُعاديني السُّيوفُ ولا أرىٰ مَضَارِبَهَا تُهْدي إِليَّ حَمامِيَا

* ومنْها:

وأدعُوا الكُماةَ للنّزالِ إذَا القَنَا تحطَّمَ فيما بينَنا منْ طِعَانيا
ولَسْتُ أرىٰ نَفْساً تموتُ إذا دَنَتْ منَ الموتِ حتّى يبعثَ اللهُ داعيَا
إذا استَلَبَ الخوفُ الرِّجال قلوبَهم حبَسْنَا على الموتِ النُّفوس الغَواليا

* وممّا يدلُّ على فحولةِ قطريّ وشجاعته ما وردَ عند «الحُصريّ» في «زَهْرِه» قال: قالَ أبو حاتِم: أتيتُ أبا عُبيدَة ومعي شِعْرُ عروةَ بنِ الورد، فقال لي: ما معَكَ؟

قلتُ: شعْرُ عروةَ بنِ الورد.

---

(١) الكامل (٣/ ١٢٢٦ و١٢٢٧) و«عَلْماء»: يريدُ علىٰ الماءِ، فإنَّ العربَ إذا التقتْ في مثلِ هذا لامَان استجازوا حذفَ إحداهما استثقالاً للتّضعيف. و«دولاب» أعجمي معرب، وكلّ ما كانَ منَ الأسماءِ الأعجميّة نكرة بغير الألف واللام، فإذا دخَلَته الألف واللام فقد صار معرباً.

قال: شعرُ فقيرٍ ، يحملُه فقيرٌ ، ليقرأَه على فقير.

قلتُ: ما معي شعْرٌ غيره ، فأَنْشِدْني أنتَ ما شئتَ ، فأنْشَدني لقطريّ بنِ الفُجاءة:

يا رُبَّ ظلِّ عقابٍ قد وقَيْتُ بهِ مُهْري منَ الشَّمْسِ والأبطالُ تَجْتلدُ
وربَّ يومِ حمىً أرعيتُ عقوتَه خَيلي اقتساراً وأطرافُ القَنا قِصَدُ
ويَومِ لَهْوٍ لأَهْلِ الخفضِ ظلَّ بهِ لهوي اصْطلاءُ الوغىٰ ونارُه تَقِدُ
مُشَهَّراً موقفي والحربُ كاشفةٌ عنها القناع وبحرُ الموتِ يطّرِدُ
وربّ هَاجرةٍ تَغْلي مَراجلُها مخرتُها بمطايا غارةٍ تَخِدُ
تجتابُ أوديةَ الأفزاع آمنةً كأنَّها أُسُدٌ تقتادُها أُسُدُ
فإنْ أمتْ حتْفَ أنفي لا أَمُتْ كَمداً على الطّعان وقصر العاجزُ الكَمَدُ
ولم أقلْ لم أُسَاقِ الموتَ شاربَه في كأْسِه والمنايا شرّعٌ وُرُدُ

ثم قال: هذا واللهِ هو الشِّعْر ، لا مَا يتعلَّلُون بهِ منْ أشْعارِ المخَانيث[1].

* هذا وأشعارُ ومقطّعاتُ قطريّ بنِ الفجاءة كثيرةٌ منثورةٌ في ثنايا كتُبِ الأدبِ والتّاريخ واللّغة وغيرِها ، وكلُّها تشيرُ إلى بسالتِه وإقدامِه ، وأنّه معدودٌ أحدَ فرسانِ العَصْرِ الأمويّ الأشداء ، وأحدَ شُجعان الخوارجِ في القرن الهجريّ الأوّل ، بل وأحدَ الشُّعراء المجيدين والفُرسان المجلّين.

* قال عنه «لِيْفي ديلافيدا»: كان قطريُّ بنُ الفجاءة مثل عددٍ من مشاهيرِ الخوارجِ ، ذا موهبةٍ حقيقيّة في الشِّعْرِ والخطابةِ ، ذكرَ الجاحظُ خطبةً من خطبهِ ، ويتضّح في القِطَعِ التي وصَلَتْ إلينا منْ شعرِه أسلوبٌ رفيعٌ ، واحتقارٌ بطوليٌّ للموتِ ، تجعلُ صاحبَها في الصَّفِّ الأوّلِ من شعراءِ الخوارج[2].

---

(١) انظر: زهر الآداب للحصري (٢/ ١٠٢٧ و١٠٢٨).
(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية.

مَـوْتُـهُ ونـهَـايَـتُـه :

* كان قطريٌّ قد دوّخَ البلادَ والعبادَ ، وطارَ صيتُه في الأصقاعِ ، وتذكرُ المصادرُ أنَّه أعيَا الحجّاجَ بنَ يوسفَ وأعجزَه ، إلى أنْ عَجَمَ الحجّاج فوارِسَه ، ورماه بفارسٍ مِقْدام هو سفيانُ بنُ الأبْرد الكلبيّ ، وأرسلَه في جيشٍ كثيف ، واجتمعَ معه إسحاق بنُ محمّد بنِ الأشعث في جيشٍ لأهلِ الكوفةِ ، فأقبلا في طلبِ قَطَري ، فأدركُوه في شِعبٍ من شعابِ طبرسْتَان ، فقاتلوه ، فتفرَّقَ عنه أصحابُه ، وسقَطَ عن دابته ، فَتَدهَدْ ـ تدحرجَ ـ إلى أسْفَلِ الشِّعْب، وأتاهُ علْجٌ منْ أهلِ البلدِ وهو لا يعرفُه ، فقالَ له قطري : اسْقِني الماءَ .

فقال العلجُ : أعْطِني شيئاً .

فقال : ما معي إلاّ سلاحي ، وإنْ أتيتَنِي بالماءِ فهو لكَ . فانطلقَ العِلْجُ حتّى أشرفَ على قَطري ، ثم حَدَر عليهِ حجراً عظيماً من فوقهِ ، فأصابَ وركه فأوهَنَه ، وصاحَ بالنَّاسِ فأقبلوا نحوه ، وجاءَ نَفَرٌ منْ أهلِ الكوفَةِ فقتلُوه ، وكان المباشِرُ لقتلِهِ سَوْدةُ بنُ أبجرَ بنِ الحارث الدّارميّ التَّميميّ ، وجعفرُ بنُ عبد الرحمن بنِ مخنف ، والصّباح بنُ محمد بنِ الأشعث ، وعمرُ بنُ أبي الصَّلت ، وكلُّ هؤلاء ادّعى قَتْله . ثمّ إنّهم أرسلوا رأْسَه إلىٰ الحجّاج بنِ يوسُف ، فسيّرَه إلى عبدِ الملك بنِ مروان ، وذلك في سنَةِ (٧٧ هـ)[1] .

* وقيل : إنَّ قَتْله كانَ بطبرسْتانَ في سَنَة (٧٩ هـ) .

---

(١) انظر : خزانة الأدب (١٠/١٧٨) ونهاية الأرب (٢١/١٥٩) ووفيات الأعيان (٤/٩٣) مع الجمع والتصرف. وانظر : الأخبار الطوال (ص ٢٨٠) ، وشذرات الذهب (١/ ٣٢٥) .

* وقيل: عثَر به فرسُه ، فاندقَّتْ فخِذُه فماتَ ، فأُخِذَ رأْسُه ، فجيءَ به إلىٰ الحجّاج[1] .

* وانقرضتْ فِرقَةُ الأزارقةِ بعد مقْتَل قطريّ ، فكان أوّلُهم نافع بن الأزرق ، وآخرهم قَطري ، واتَّصل أمرهم بضعاً وعشرينَ سنة .

* وهكذا انتهتْ حياةُ فارسٍ منْ فرسانِ التَّاريخِ تركَ ذِكْراً ودويّاً في ميدانِ الفُروسيّة .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٩٤) وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٢) .






القعقاع بن عمرو

* بطل صنديد، وفارس ذو بأس شديد، وماجد راشد.
* قال فيه أبو بكر الصديق: لا يُهْزَمُ جيشٌ فيه القعقاع. وقال أيضاً: صوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل.
* صحابي كبير، وشاعر معروف، وله أبيات مشهورة.




زَيْنُ الفُرْسَان :

* مِنَ الطَّبيعيّ أنْ تكونَ سيرةُ هذا الفارسِ البطلِ العبقريِّ إمتاعاً للأسْماعِ ، ونزهةً للمجالِسِ ، وأنساً للمجالسِ ، ومجالسِ الأنْس ، فهو مثارُ إعجابِ عبقريّ أصحابِ رسولِ الله ﷺ سيّدنا عمر بن الخطاب ـ عليه سحائب الرّضوان ـ.

* كانَ هذا الفارسُ الصِّنديدُ ، ذو البأسِ الشَّديد يحملُ كلَّ يوم ثلاثينَ حملةً على الأعداءِ ، ويقتلُ في كلّ حملةٍ بطلاً منْ أبطال الشِّرْكِ والضَّلال ، حتّى غدا اسمهُ مخيفاً بينَ صفوفهم ، وصوتهُ يجلجِلُ في آذانِهم ، ويقرعُ قلوبَهم ، ويهزُّ نفوسَهم.

* ومنَ الطَّبيعيّ في حياةِ هذا الفارسِ الكريم أنْ يحفلَ بهِ أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ، وأنْ يكونَ ممّنْ شملتْهُم مكْرُمةُ الخليفةِ عمرَ اعترافاً بجهادهم ، وتكريماً لِبَسالتهم وإقدامهم ، كما أنَّ أخاهُ عاصماً ممَّن نالَ شرفَ التَّكريم أيضاً ، فكانت هدِّيتُه سيفاً قاطعاً ، بعد أنْ أصبحتِ الخيلُ العرابُ هديةً لبطلِ حلقتِنا وضيفِ صفحاتِنا ، حيث قال يذكرُ يوم أغْواث :

لَم تَعْرفِ الخيلُ العرابُ سَواءَنا ... عشيَّةَ أغْواثٍ بجنبِ القَوادسِ
عَشِيَّةَ رُحْنَا بالرِّماح كأنَّها ... على القومِ ألوانُ الطُّيور الرسَارِس[1]

* وهذا الفارسُ الماجدُ ، قال فيهِ الخليفةُ الرَّاشدُ سيِّدُنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه سحائب الرّضوان ـ: لا يُهْزَمُ جيشٌ فيهِ مثلُه.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٥٤٥) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦١ م. ومعجم البلدان (١/ ٢٢٥ و٢٢٦).

* وإذا قالَ عنه سيِّدُنا أبو بكْرٍ ذلك ، فمعنى هذا أنَّ الجيشَ الذي يكونُ فيه بطلُنا جيشٌ ظافِرٌ منتصرٌ بإذنِ الله ، فأبو بكْر ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ ينظرُ إلى الأبطالِ بعينِ البصيرة. ومَنْ كسيِّدنا أبي بكْر في معرفةِ الرِّجالِ وأحوالِهم؟!! ومَنْ كَثَاني اثنينِ الذي يعرفُ مكانةَ الأبطالِ والمجاهدين المُخلصين؟!!

* ترى مَنْ هذا الفارسُ الذي أعْجبَ به صدِّيقُ الأُمَّة الأوَّل ، ووزيرُ النَّبي المبجّل؟ ومَنْ هذا البطلُ الذي يرتفعُ صوتهُ عالياً في كلِّ معركةٍ ، وهو يستجيبُ لكلِّ دعاء ، ويلبّي كلَّ نداء؟!

* تعالوا ـ أحبّائي ـ نتعرفُ ملامحَ شخصيته وفروسيّتَه منْ قوله:

يَـدْعُـونَ قَعْقَـاعـاً لِكُـلِّ كَـريهـةٍ   فَيجيـبُ قَعْقَـاعٌ دُعَـاءَ الهَـاتِـفِ

* وهذا الفارسُ العملاق نفسُه ، كان يرتجزُ في إحدى حملاتهِ في فتح الصَّعيد ويقول:

أنَـا الهُمـامُ الفـارِسُ القَعْقـاعُ   لَيْـثٌ شجـاعٌ ضيغَـمٌ مُطَـاعُ
وبحُسَـامـي تنْشَـوي الأَصْـلاعُ   وتُقْطَـعُ الهـامـاتُ والأَضْـلاعُ
مـنَ الحيـاةِ تُقْطَـعُ الأَطْمَـاعُ   وتُهْـدَمُ الحصـونُ والقِـلاعُ
يفـرُّ مَـنْ أغـرىٰ بـهِ النّـزاعُ   منّـي إذا مـا احتلـتِ الأَدْراعُ
ولـلأعـادي طـالَ منّـي البَـاعُ   وسَيّـدٌ مهـذبٌ شُجـاعُ[1]

---

(١) منَ الواضِح أنَّ للشّعرِ قدرةً على تصوير الأحداثِ ، وأستطيعُ أنْ أقولَ: إنَّ الشّعْر يمكّنُنا منَ الوصولِ إلى خَبايا الزّوايا التي لا تصلُ إليها عيونُ الباحثين ، فمن خلالِ الشِّعر نستشفُّ أحياناً شخصيّةَ الفارسِ الذي نترجمُ له ، ونستقرىء منها أخبارَه ، وقد نتعرَّفُ بعضَ الجزئيّاتِ في تكوينِ صورةِ الفارسِ ، فالشّعْرُ صورةُ الحَدَثِ ، ودليلُ الحقيقةِ ، فهو ديوانُ العربِ والمقيِّدُ لأيّامِها ، والشّاهدُ على أحكامِها ، وهو فخرها العظيم ، وقسطاسُها المستقيم. =

* ها قد عرفناهُ ، وعرفنا صوتَه الذي يخلعُ قلوبَ الأعداءِ ، ويرطّبُ قلوبَ المؤمنين المجاهدين . . . إنَّه القعقاعُ بنُ عمرو التَّميميّ[1] ، أحدُ فرسانِ مدرسة النُّبوة المحمديّةِ ، وأحدُ فرسانِ القادسيّة ، فقد كانَ منَ الفرسانِ الشُّجعانِ في قبيلةِ تميم في الجاهليّةِ والإسلامِ ، حيثُ ذكروا له صُحْبة ، فأكرِمْ بها مِنْ خلَّة ! .

* قال ابنُ الأثير : رُوي عنه أنَّه قال : شهدتُ وفاةَ النَّبي ﷺ . رواه سيفُ بن عمر ، وسيفٌ متروكُ الحديث[2] .

* وقال أيضاً عنه : وللقعقاع أثرٌ عظيمٌ في قتال الفُرس في القادسيّة وغيرها ، وكان منْ أشجعِ النَّاسِ وأعظمِهم بلاءً . . . وهو الذي قال فيه أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ : صوتُ القعقاعِ في الجيش خيرٌ منْ ألفِ رجل[3] .

«مَـاذَا أَعْـدَدْتَ لِـلْجِهَـادِ» ؟

* فارسُنا القعقاعُ بنُ عمرو التَّميميّ فارسٌ مجيدٌ ، نَذَرَ نفسَه وروحَه

= وإنَّ الأبياتِ التي قرأناها أعلاه ، تشيرُ إلى فروسيّة قائِلها وشجاعتهِ ، وتدلُّ على أنَّه فارسُ الملمات ، ومفرج كربات الذين ينادونه في ساحاتِ القتال .

(١) المصادرُ التي تحدّثت عن القعقاعِ بنِ عمرو التّميمي كثيرةٌ جداً ومنها : الإصابة في تمييز الصّحابة (٨/ ١٦٨ و١٦٩) ترجمة رقم (٧١٢١) ، وأسدُ الغابة طبعة بيروت المحقّقة (٤/ ٣٩٧) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢١/ ٨٨ ـ ٩٠) ، والأغاني (انظر الفهارس) ، والكاملُ في التّاريخ لابن الأثير (انظر الفهارس) وتاريخُ الطبري في مواضع متفرّقة ، وكذلك معجمُ البلدان في مواضعَ متفرقة أيضاً ، وأيّام العَربِ فـي الإسـلام (ص ١٨٥ و١٨٧ و٢٠١ و٢١٨ و٢٧٨ و٢٨٥ و٢٩٨ و٢٩٩ و٣٢٤ و٣٢٧ و٣٥٤ ـ ٣٥٦) ، والاستيعاب (٩/ ١٥٩) ترجمة رقم (٢١٢١) ، وغيرها كثير .

(٢) أسد الغابة (٤/ ٣٩٧) ، والاستيعاب (٩/ ١٥٩) ترجمة رقم (٢١٢١) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه بشيء من الاختصار .

لخدمةِ وإعلاءِ دِيْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقد شاركَ وساهَم في حربِ أعداءِ اللهِ ، وأعداءِ الإسلام ، وكانَ له نصيبٌ وافرٌ منَ الانتصاراتِ على الفُرسِ في أيّام القادسيّةِ ، وهي يومُ أغْواث ، ويومُ عمواس ، ويومُ ليلةِ الهَرير.

* وكانَ القَعْقاع[1] أسَداً شجاعاً في الكرّ والفَرّ ، مشهوراً بحملاته الشَّديدة العاصفة علىٰ الأعداء ، حتّى بلغت حملاتهُ في أحدِ الأيّامِ خمسينَ حملةً، ولك أنْ تتصوَّر تلكَ الحمَلاتِ، والخوضَ في صفوفِ الأعداء، والخروجَ منها ظافراً سَالماً ، وهو يرعبُ الأعداءَ بصوتهِ الجهورِي ، وعزمِهِ المشهور.

* لهذا كلِّه كانَ سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ شديدَ الإعجابِ بالقعقاع ، وكم أثنىٰ عليهِ وعلى صوتهِ الجهوريّ القويّ الذي يزرعُ الهَلعَ ويخلعُ أفئدةَ الأعداءِ فقال: لَصَوتُ القعقاعِ في الجيشِ خيرٌ منْ

---

(١) «القَعْقاع»: منْ معانِيها في معاجم اللغة: القَعْقعةُ: حكايةُ أصواتِ السِّلاح والتِّرَسَةِ والجُلودِ اليابسةِ والحجارةِ والرّعدِ والحُليِّ ونحوها ، قال النَّابغةُ:

يُسهَّدُ منْ ليلِ التّمام سليمُها ... لحَلْيِ النِّساءِ في يديهِ قَعاقِعُ

وذلكَ أنَّ الملدوغَ يُوضَعُ في يديهِ شيءٌ منَ الحَلْي لئلاَّ ينامُ فيدبُ السُّمُّ في جَسَدِهِ فيقتله. وتقعقعَ الشّيءُ: اضطربَ وتحرَّك. وقعقعتُه وقعقعتُ به: حركْتُه.

وفي حديثِ أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: قعقَعوا لكَ بالسِّلاحِ فطارَ فؤادُك. وفي المثل: فلانٌ لا يُقعْقَعُ له بالشّنانِ؛ أي لا يُخْدَعُ ولا يُروَّعُ. والتّقعقعُ: التّحرّكُ.

وتقعقع الشيء: صَوّتَ عند التّحريك ، والاسم القَعْقاع. وفي الحديث: أنَّ ابناً لبنتِ النّبي ﷺ حُضِرَ فدخلَ النّبيُّ ﷺ ، فجيءَ بالصَّبيّ ونفسُه تقعقَعُ أي: تضطربُ. والقعقعةُ: حكايةُ حركةٍ لشيءٍ يُسْمع له صوتٌ ، ومنه حديث أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ: شرُّ النّساءِ السَّلْفَعة التي تُسْمَعُ لأسنانِها قَعْقَعة.

ورجلٌ قعقاعٌ وقعقعاني: تَسْمَعُ لمفاصلِ رجليه تقعقعاً إذا مشى. والقعقعةُ: تتابعُ صوت الرّعدِ في شدّة ، وجمعهُ القعاقع. ورجل قعاقع: كثير الصوت. وتقعقعَ بنا الزَّمان: وذلك من قلّةِ الخير وضيق السِّعر وجورِ السّلطان. والقعقاع: الحمر النَّافِض تقعقع الأضراس.

انظر (فقه اللغة ص ١٩٩) و(لسان العرب ٨/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨) بتصرف

ألفِ رجُل! . فأكرمْ بها من شهادةِ صدْقٍ من صِدِّيقِ الأُمَّة؛ شهادةٌ صدّيقيّةٌ كريمةٌ مايزالُ أريجها يعطّرُ سَمْعَ الدُّنيا وأسماعَ النَّاس إلىٰ ما يشاءُ الله .

* ومنَ الجميلِ في سيرةِ القعقاعِ بنِ عمرو أنَّه يُعَدُّ من الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ ، وتعدُّ صحبتهُ لرسولِ الله ﷺ مفتاحَ كلِّ خير ، بل الخير كلّه ، كما كانتْ مواقفه الكريمةُ البدايةَ الوضيئة التي وضَعَتْ حياته على طريقِ المجاهدين الذين همُّهم أنْ تكونَ كلمةُ الله هي العُليا ، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى . كما أنَّ السُّؤالَ الكريمَ الذي سألَه إيّاه رسولُ الله ﷺ يمثِّلُ الإعدادَ الكاملَ للفروسيّةِ الحقَّةِ ، والجهادِ الكريم في رحلةِ حياتِهِ التي لم يطلبْ فيها سوىٰ مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولم يحققْ بها إلا الحياةَ الكريمةَ لكلّ المؤمنين الذينَ وضَعُوا أنفسَهم في خدمةِ الرِّسَالةِ المحمديةِ الكريمةِ وتحقيقِ مبادئها .

* إنَّ السُّؤالَ الكريمَ الذي سألَه رسولُ الله ﷺ للقعقاعِ بنِ عمرو كان كبيراً في كلّ المعاني التي دارتْ في نفسِ الفارسِ المؤمنِ؛ الذي روىٰ لنا صيغةَ ذلك السُّؤال فقال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «ما أعددتَ للجهادِ»؟

قلتُ: طاعةَ اللهِ ورسولَه ، والخيلَ.

قال: «تلك الغَايةُ»[1] .

* وإذا ما صحَّ الخبرُ ، فقد كانتِ الفكرةُ في روحِ السُّؤال بارزةً ، وكانتِ العلامةُ في إعطاءِ الجواب واضحةً . . . نعم كان الجوابُ واضِحاً قولاً وفعلاً ، وقد أثبتَ القعقاعَ ذلك فقال:

ولقد شَهدتُ البرَق برقَ تهَامةٍ   يَهـدِيْ المقَـانِـبَ راكـب العيَّـارِ

---

(١) انظر: الإصابة (٨/ ١٦٨) ترجمة رقم (٧١٢١). والحديثُ ذكرهُ سيفُ بنُ عمر عن عمرو بنِ تمّام عن أبيهِ عن القعقاعِ. وسيفُ هذا متروكٌ ، فَبطُلَ الحديث .

في جُندِ سَيفِ اللهِ سَيف مُحمّدٍ وَالسَّابقيـن بسُنَّـةِ الأَحْـرارِ
لـم تنفـرجْ عنّـي الأُمـورُ مفتّنـاً إنَّ الخيـارَ همـو بنـو الأَخْيَـارِ

* ويذكرُ ابنُ حجرٍ في الإصابةِ قصَّةَ شهودِ القعقاع بن عمرو وفاةَ النَّبيّ ﷺ فيقولُ: قالَ القعقاعُ بنُ عمرو: شهدتُ وفاةَ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا صلَّيْنَا الظُّهر جاء رجلٌ حتّى قامَ في المسجدِ، فأخبرَ بعضُهم أنَّ الأنصارَ قد أجمعوا أنْ يولُّوا سَعْداً يعني ابنَ عُبادة، ويتركُوا عَهْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، فاستوحشَ المُهاجِرون(١).

* ثمّ ينقلُ عن ابنِ عسَاكر قوله: يُقال: إنَّ له صُحبةً، كان أحد فرسانِ العربِ وشعرائِهم، شهدَ فتْحَ دمشق، وأكثرَ فتوح العراقِ، وله في ذلك أشعارٌ موافقةٌ مشهورة، وذكر سيفُ عن محمّد وطلحة: أنَّه كانَ من أصحابِ النّبي ﷺ(٢).

مَـآثِـرُ وشَـهَـادَاتٌ:

* هو ذا الفارسُ المؤمنُ يرسمُ لوحةً من لوحاتِ البطولةِ في ميدان الجهادِ، وذلك بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، فيقدِّمُ دليلَ إيمانِه وهو يَمْثُلُ لأمْرِ سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي اللهُ عنْه وأرضَاه ـ ليقودَ حملةً لتأديبِ علقمةَ بنِ عُلاثة(٣) الذي لم يدخلِ الإيمانُ قلْبَه، فارتدَّ بعدَ وفاةِ رسولِ الله ﷺ،

---

(١) الإصابة (٨/ ١٦٩) ترجمة رقم (٧١٢١). قال ابن السكن: سيف بن عمر ضعيف.
(٢) المصدر السابق عينه. ولفظ ابن عساكر: «يُقال»: ليس فيه تثبّت، ولم يذكر من ذكر ذلك إلا سيف بن عمر الذي ضعفوه. بيد أن أخبار القعقاع انتشرت في العصر الراشدي المبارك.
(٣) انظر: الأغاني (١٥/ ٥٦) طبعة مصر. و(١٦/ ٣١٦ و٣١٧) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت. وروىٰ الأصفهانيُّ قصَّةَ أسْرِ القعقاع لعلقمةَ فقال: كانَ علقمةُ بنُ علاثةَ قد أسلَمَ، ثم ارتدَّ في حياةِ النَّبي ﷺ، ثمَّ خرجَ بعد فتح الطَّائفِ حتّى لحقَ بالشَّام مرتّداً، فلما توفيَ النَّبيُّ ﷺ أقبلَ مسرعاً، حتّى عَسْكر في بني كعب، مقدّماً=

ويتحركُ القعقاعُ على رأسِ هذه الحملةِ ، وهو يضعُ وصيّةَ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ نصبَ عينَيْه كيما يعودَ بالمرتدِّ أسيراً[1] ، ومن ثمَّ يُسْكِتُ ويخمدُ صوتَ الباطِل ، ويوقفُ زحفَ المرتدين .

* ويظلُّ القعقاعُ القائدَ الفارسَ ، والفارسَ القائدَ المقاتلَ لإعلاءِ كلمةِ الله ، ويبرهِنُ على إيمانِهِ الصَّادقِ ، وعلى وفائِهِ وإخلاصِهِ للإسلام والمسلمين بالعَملِ المتواصلِ في ساحاتِ الجهاد ، حتى كانتْ قولةُ سيدنا أبي بكْر ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ : «لا يُهْزم جيشٌ فيه مثل القعقاع» . وذلك عندما طلبَ خالد بنُ الوليد مَدَداً منْ أبي بكْر .

* وظلَّتْ مقولةُ الصِّدِّيقِ الصَّادقة الصَّحيحة تتردَّدُ في ديوانِ الأيَّامِ على مَسْمَعِ المجاهدينَ عند كلّ معركَةٍ ، فقد وجدوا في القَعْقاعِ عَلماً بارِزاً من أعلامِ القادةِ ، ومنْ قادةِ الأعْلام ، بل ومنَ الفرسانِ الذين سجّلوا في ديوانِ العظَائم أجملَ الصَّفحاتِ وأكرمَ البطولاتِ في العَهْد الرَّاشديّ ، وجعلوا أعمالَهم رمزاً لكلّ الأبطالِ والفُرسانِ في التَّاريخِ الإسلاميّ والعربيّ .

* ولعلّنا نقتربُ أكثرَ منَ القعقاعِ بنِ عمرو ، ونفْهَمُ شخصيّتَه الحربيّةَ

= رجْـلاً ومؤخّراً أخرىٰ ، وبلغ ذلك أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ ، فبعثَ إليه سريةً ، وأمَّر عليها القعقاعَ بنَ عمرو ، وقال : يا قعقاعُ ، سِرْ حتى تغيرَ على علقمةَ بنِ علاثة ، لعلك تأخذهُ لي أو تقتله ، واعْلَمْ أنَّ شفاءَ النفس الحرص ، فاصنع ما عندك .

فخرجَ في تلك السَّريةِ حتى أغارَ على الماءِ الذي عليه علقمةُ ، وكانَ لا يبرحُ أنْ يكونَ على رحْلٍ ، فسابَقَهم على فرسِهِ مراكضةً ، وأسلمَ أهْله وولده ، واستبىٰ القعقاعُ امرأةَ علقمةَ وبناتِهِ ونساءَه ومَنْ أَقامَ مِنَ الرّجال ، فاتّقوهُ بالإسلام ، فقدمَ بهم على أبي بكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ فجحدتْ زوجتُه وولدهُ أنْ يكونوا مالؤوا علقمةَ على أمْرِهِ ، وكانوا مقيمينَ في الدَّار ، ولم يكنْ بلغَه عنهم غيرُ ذلك ، وقالوا لأبي بكْر : ما ذنْبُنا نحن فيما صنَع علقمة؟ فأرسلَهم ، ثم أسلمَ علقمةُ ، فقَبِل ذلك، منه . (الأغاني ١٦/٣١٦ و٣١٧)

عندما نقرأُ تلكم الأخبارَ الجميلةَ التي تروي شجاعتَه ، وتنقلُ إلينا شهادةَ عباقرةِ القادة ، وقادةِ العباقرة ، ومَنْ مثلُ عبقريّ الصّحابةِ عمر بنِ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ الذي كتَبَ إلى سعدِ بنِ أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ:

أيّ فارسٍ كانَ أفرسَ في القادسيّة؟

فكتبَ إليهِ: إنّي لَمْ أرَ مثلَ القعقاعِ بنِ عمرو ، حملَ في يومٍ ثلاثينَ حملةً ، يقتلُ في كُلِّ حملةٍ بطلاً . . . ! . .

* وكانَ القعقاعُ بنُ عمرو قد غَنِم أدراعَ كسرىٰ وفيها درعٌ[1] لهرقل ،

---

(١) «الدّرع»: لبُوس حديد ، يُذَكّر ويؤنَّث ، وله أسماء كثيرة. . .(نهاية الأرب ٦/ ٢٤١ ـ ٢٤٥). فالدرع إذاً: ثوبٌ ينْسَجُ من زَرَدِ الحديد ، يُلَبس في الحربِ ، ولهُ أكمامٌ قصيرةٌ تَصِلُ إلى منتصفِ الذِّراع ، ويُصْنَعُ أحياناً من حلقاتٍ معدنيةٍ صغيرةٍ ، متداخل بعضُها في بعض ، وجرى لبْس الدِّرع على ثوبٍ منَ النَّسيج المبطّن أشبه بوسادةٍ تحتَ حلقاتِ المعدن أو صفائِحِهِ الرَّفيعةِ.
وقد استحبَّ الفارسُ العربيُّ الدُّروعَ المضاعفةَ التي نُسِجَتْ حلقَتَيْن حلقَتَيْن ، والتي تغشىٰ القدمَ والكفَّ والبَنانَ. وكانوا يميلونَ إلى لبسِ الدّروع الواسِعَة السَّابغةِ التي تفضلُ على أطرافِ الفارسِ ، والصُّلبةِ المتينةِ التي تتثلَّمُ عليها السُّيوفُ ، وتتكسّر عندها السِّهام ، قال عبدُ قيس بنُ خفاف البرجميّ يصِفُ قوّة درعهِ واتّساعها:
وسَابِغَة مِنْ جياد الدُّرو ع تسمعُ للسَّيفِ فيها صَليلا
كماءِ الغديرِ زفته الدَّبُور يجرُّ المدجّج منها فضُولا
* ونالت الدُّروعُ احترامَ الفارسِ العربيّ ، فكانَ يعتزُّ بها ، وكانَ الفرسانُ يتوارثُونَها ويحتفظونَ بها ، وقد رُوي أنَّ امرأَ القيسِ قد ورثَ عن أبيهِ خمسةَ دروع وهي: الفضفاضَةُ ، والضَّافيةُ ، والمحصَنَةُ ، والخريقُ ، وأمُّ الذّيول. وكان بنو آكلِ المرار يتوارثُونها مَلِكاً عن ملك ، وقد اعتنى بها الفارسُ العربيُّ عنايةً فائقةً ، فكان يجلوها بعد انتهاءِ المعركة ، ويضعها في أماكنَ خاصّة خشيةَ الصَّدأ والتَّلَف.
* ومن أسماء الدرع: بَصيرة ، جَارِن ، جوشن ، حلقة ، دِلاص ، دُلامِص ، دِخاس ، دَرِمة ، ذائلة ، زَغْفة ، سُلوقية ، سابريّة ، سابغة ، سُكّ ، سَرْد ، سَنَّور ، صَمُوت ، فضفاضة ، قضَّاء ، لأمَة ، لَبُوس ، مَاذِيَّة ، مسرودة ، نَثْرة ، =

ودرعٌ لخاقان ، ودرعٌ للنُّعمان ، وغَنِمَ كذلك سيف[1] النُّعمان ، وسيفَ كسْرى ، فأرسلهما سعْدٌ إلى سيِّدنا عمر[2] ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ.

* لقد كانَ القعقاعُ يَداً مؤمنةً قويّةً تُلْحِقُ الهزائمَ بأعداءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقد شهدَ فتوحَ دمشق ، وأكثرَ فتوح العراق ، وكان اسمُه يلمعُ في سماءِ العظائمِ ، وكانتِ الكتيبةُ التي يكونُ فيها منَ الكتائب المهمّةِ الظَّافِرةِ ، حتى

= نَثْلَة ، يَلَب . وقد تفنَّنَ الشُّعراءُ على مرّ العُصور بوصف الدّروع في أشعارهم . انظر (نهاية الأرب ٦/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥) ، و(فقه اللغة ص ٢٣٠)

(١) «السَّيفُ» : يُصْنَعُ من مادّة الحديدِ ، مشتقٌّ منْ قولِهم : سافَ مالَه ، أي هلكَ ، فلمّا كانَ السَّيفُ سَبَباً للهلاكِ سمّي سَيفاً ، والجمعُ : أسياف وسُيوف ، وهو السِّلاح الرئيسيّ في الحربِ قديماً ، ويستخدمُ للاشتباكِ القريبِ بالعدوِ ، وله عدّة مسمّيات استناداً لمكان صنعه ، أو اسم صانِعه ، وأهمّها :
١ ـ السَّيفُ اليمانيّ وهو المنسوبُ صناعتُه إلى اليمن .
٢ ـ السَّيفُ الهنداويّ أو المهنّد المصنوعُ في الهند .
٣ ـ السَّيفُ المشرفيّ المصنوعُ في مشارفِ الشَّام .
٤ ـ السَّيفُ البصراويّ المصنوعُ في بصرىٰ الشّام .
٥ ـ السَّيف القلعيّ المصنوعُ في قلعة موضِعٌ بالبادية .
٦ ـ السَّيفُ الحاري المصنوعُ في الحيرة .
٧ ـ السَّيف الحنيفيّ المنسوبُ إلى أحنف أوّلُ عربي صنعها .
ولأهميةِ السّيف في الجيشِ المسلم ، فقد ذكَره رسولُ الله ﷺ فقال : «الجنَّةُ تحتَ ظلالِ السُّيوف» . وقد استوفى النّويريُّ أسماءَ السَّيفِ وما قيل فيه منَ الأسماءِ والنُّعوتِ والأوصافِ على حروفِ المعجم . (نهاية الأرب ٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٦)

(٢) لما قُدِمَ بسيفِ كسرىٰ ومنطقتهِ وزبردجهِ على عمرَ ـ رضي الله عنه ـ قال : إنَّ أقواماً أدّوا هذا لذوو أمانة .
فقال عليّ ـ رضوان الله عليه ـ : إنَّكَ عففْتَ فعفَّتِ الرّعيةُ .
* وكانَ منْ جملةِ ما أُرسلَ القطفُ ، وهو ستّون ذراعاً في ستينَ ذراعاً بساطاً واحداً مقدار جريب ، فيه طرقٌ كالزّهور ، وفصوصٌ كالأنهار ، وخلال ذلك كالدّير ، في حافاتهِ كالأرض المزروعة ، والأرضِ المبقلة بالنَّبات في الرَّبيع ، وكانوا يعدّونه للشّتاء إذا هبَّت الرَّياحينُ فكانوا إذا أرادوا الشّراب ، شربوا عليه فكأنَّهم في رياض .

إنَّ سعدَ بنَ أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ كانَ معجباً بكتيبةِ الخَرْسَاء ، وهي كتيبةُ القعقاعِ بنِ عمرو.

القَعْقَاعُ وَبُطولاتٌ نادِرَةٌ:

* بطولاتُ القعقاعِ بنِ عمرو مشهورةٌ في عَالَم الفُرسانِ المؤمنين الذين اشترى اللهُ منهم أنْفسَهم ، إذْ علمُوا أنَّ ثمنَ ذلك الجنَّة ، فراحُوا يقاتِلون ويُقْتَلُون في سبيلِ اللهِ ، وأظهروا منَ البطولاتِ الخارقةِ ، والفروسيّةِ النَّادرة التي رسمتْها يدُ التَّاريخ بأمانةٍ ، لتفصحَ عن تضحياتِهم ، وعن عبقرياتهم الحربيّة.

* والقعقاعُ بنُ عمرو من مشاهيرِ الفُرسانِ المسلمين ، ووقائعهُ مشهورةٌ متعَالَمةٌ في بطونِ الأسْفَار ، وصُدورِ المصادرِ ، وصفحاتِ التَّاريخ ، بل وفي وجدانِ محبّي الصَّحابةِ الكرام جميعهم ، ومحبّي أبطالِ المسلمين وفرسانِهم الذين فتحوا القُلوبَ والبلادَ.

* ولنْ أستطيعَ ـ عزيزي القارىء ـ أنْ أحدِّثَك عن بطولاتِ القعقاعِ جميعها ، ولكنّي سأقفُ وإيّاكَ عند شذراتٍ منها ، وعند مواقفَ يظهرُ من خلالها الإبداعُ في فنونِ القيادةِ العسكريّةِ ، والجنديّةِ الإسلاميّة ، والرُّوح الفدائيّة، وكلّ ألوان الفروسيّة التي تزيّن جِيْدَ تاريخنا بعقودِ الدُّرّ ودرِّ العُقود.

* وقبل أنْ نتحدَّثَ عن بعضِ بطولاتِ القعقاع وقيادته الحكيمةِ[1] ،

---

(١) إنَّه لا ينبغي أنْ يقدَّمَ علىٰ الجيشِ إلا الرَّجل ذو البسالةِ والنّجدة والشّجاعة والجرأة ، ثابتُ الجأش ، صارمُ القلب ، صادقُ البأس ، ممن قد توسّط الحروبَ،ومارسَ الرِّجال ومارسوه ، ونازلَ الأقران ، وقارعَ الأبطال ، عارفاً بمواضع الفُرص ، خبيراً بمواضع القَلْب والميمنةِ والميسرةِ منَ الحروب ، فإنَّه إذا كان كذلَك ، وصدر الكُلُّ عن رأيهِ كانوا جميعاً كأنّهم مثله ، فإنَّه إنْ رأى لقراعِ =

دعني أخبركَ عن بعضِ أسرارِ القيادَةِ وفنونها في عَصْر القَعْقَاعِ.

* فالقيادةُ مصطلحٌ تميِّزُ إنساناً عن سِواه في مزايا ومعارفَ وخصائصَ متوافقة في مجالِ الخبرةِ الحربيّة، وتؤهّلهُ لقيادةِ الناسِ في بيئتِهِ ومحيطه، وتمكّنِهِ منَ التَّصرُّفِ الصَّحيح والإدارةِ العسكريّةِ وتوجيهها لتنفيذِ المهمّات الموكولةِ إليها.

* وكانتِ الصَّحراءُ هي المعهدُ الذي تخرَّج فيهِ القَادةُ العربُ بادىء الأمرِ، ومن ثمّ قادوا الجيشَ المسلمَ الذي حطّم الفرسَ والرُّومَ، وكان الخلفاءُ الرَّاشدونَ يختارون الرَّجل المُناسب للمكانِ المُناسبِ.

ولقد استندَ الخلفاءُ في اختيارِهم هذا على مبادىءِ الفروسيّةِ العربيّةِ التي ثَبَتَتْ أصولُها وقواعدُهَا وتقاليدُهَا عبرَ العصورِ، وصقلتْها العقيدةُ الإسلاميّةُ. فقد كانَ الفارسُ العربيُّ ذا فكْرٍ ثاقبٍ، وخيالٍ خصْبٍ خلاَّق، وكانتْ حياتهُ التي عاشَها تجعلُه في حالةِ تأهُّبٍ دائمٍ للدّفاعِ عن نفسهِ وعشيرتهِ، وغرستْ فيه روحَ الإقدامِ والبَسالةِ والشَّجاعةِ والخلقِ المتينِ، ممّا نتجَ عنه الحزمُ وسَعَةُ الفكْرِ وعدم التّردّد، والفِراسة والصَّلابة وتحديد الغايةِ والبديهة.

* وقد كانت كلُّ هذه الصِّفات متوفّرةً في شخصيّةِ ضيفنا القعقاع، لذلك كانَ قائداً، وكان فارساً، وكانَ بطلاً، وكان جُندياً، وكان يمثِّل كلَّ ألوانِ البطلِ والبُطولة.

* وسأنتقلُ وأنقلُكَ ـ عزيزي القارىء ـ إلى رياضِ بطولاتِ القعقاعِ، ونستنشقُ عبيرَ قَصَصهِ في معاركَ ومواقفَ متعددةٍ، في بلدانٍ متعدّدة، وأوقاتٍ متعدّدة، وأماكنَ متعددةٍ، لنعرفَ أيَّ فارسٍ كان هذا الرَّجل.

= الكتاب وجهاً، وإلا ردَّ الغَنَم إلى الزَّريبةِ. (المستطرف ٢/٥٨) طبعة دار صادر

* فمن قَصصِ فروسيّته وبطولاتِه العظيمةِ في بلادِ العراقِ ، أنّه كان هناك فارسٌ يُدعىٰ غَرْقَدة ، زالَ عن ظهر فرسه ، فوقعَ في النَّهرِ ، والفَرسُ تنفضُ أعرافَها عرياً ، والغريقُ طافٍ لا يحسنُ السِّباحةَ. ولما رآه القَعقاعُ على تلك الصُّورةِ ، ثنى عنانَ فرسِه إليهِ ، فأخذَ بيدهِ ، فجرَّه حتَّى عبرَ ، ولما نَجا الفارِسُ ـ وكانَ من أشدّ النَّاسِ بطولةً ـ ، قال لمنقذِه: أعجِزَ الأخواتُ أنْ يلدنَ مثلك يا قَعْقَاع!؟!.

* ومن نوادرِ بطولةِ القعقاعِ ما جاء في التَّواريخِ التي تقولُ: خرجَ القعقاعُ بنُ عمرو يومَ المدائنِ في الطَّلبِ ، فلحقَ بفارسيّ يحمي النَّاس ، فاقتتلا ، فقَتَله؛ فوجدَ مع المقتولِ جنيبةً عليها عيْبَتَان وغلافان ، في أحدهما خمسةُ أسيافٍ ، وفي الآخر ستةُ أسيافٍ ، وإذا في العَيبتَيْن أدراعٌ: درعُ كسرىٰ ، ومغْفَرهُ ، وساقاه ، وساعداه ، ودرعُ هرقل ، ودرعُ خاقان ، ودرعُ داهر ، ودرعُ بَهْرام شوبين ، ودرعُ سياوخش ، ودرعُ النُّعمان. وكانوا استلبُوا ما لم يرثوا ، استلبوها أيّام غاراتِهم خاقَانَ ، وهرقلَ ، وداهر ، وأمّا النُّعمانُ وبهرامُ فحين هَرَبا ، وخرجَا على كسرىٰ.

* وأمّا أحدُ الغِلافين ، ففيه سيفُ كسرىٰ ، وهرمز ، وقباذ ، وفيروز ، فجاء به إلى سَعْد، فقال: اخترْ إحدىٰ الأسياف ، فاختار منها سيفَ هرقل ، وأعطاهُ درعَ بهرام ، وأمّا سائرُهَا فنفَّلَها في كتيبةِ الخَرساء ، إلا سيفَ كسرى والنُّعمان ، فإنَّه بعثَ بهما إلى عمر مع حليّ كسرىٰ وثيابِه وتاجِه.

* ومنْ روائعِ البطولةِ القعقاعيّةِ الفذَّة ، ما صَنعه بطلنا صبيحةَ يومِ أغواث في القادسيّة بالعراقِ ، إذ عهد إلى جنده أنْ يتقطّعُوا أعْشَاراً ، وهم ألفٌ ، فكلّما بلغَ عشرة في سيرهم مدىٰ البَصر ، سرَّحُوا في آثارِهم عشرة. وقد أرادَ القعقاعُ بهذا التّصّرف أنْ يوقعَ الرُّعب في قلوبِ الفُرس.

* وتقدّم القعقاعُ في العَشرةِ الأولىٰ ، وأتى الجيشَ ، فسلَّم عليهم ، وبشَّرهم بوصولِ الجنودِ، ثمَّ خطبَهم وحثَّهم وأمرهم أنْ يصنعُوا كما يصنعُ هو.

* ثمَّ تقدَّمَ إلى ساحةِ القتالِ ، ونادىٰ : مَنْ يبارزُ؟ فقال فيه الجيشُ قولَ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ : لا يُهْزَمُ جيشٌ فيهِ القعقاع. وسكنُوا إليه ، فبرزَ إليه ذو الحاجب ، فسأله القَعقاعُ : مَنْ أنْتَ؟

قال : أنا بَهْمَنْ جاذَويه.

فنادىٰ القعقاعُ بأعلى صوتهِ : يالَثَارَاتِ أبي عُبيد ، وسليط ، وأصحابِ الجِسْر.

* واجتلدا ، ولم يمْهلْه القعقاعُ حتّى جنْدلَه وجعلَه كأمْسِ الدَّابر ، واستبشرَ النَّاسُ بقتل الحاجبيّ، وانكسرت همّةُ الفرسِ لذلك، وتنشَّط المُسلمون.

* ثمَّ إنَّ القعقاعَ نادى بأعلى صوتِه على الفرس : مَنْ يبارز؟ فخرجَ إليه رجُلان ، أحدهما البيرُزَان؛ والآخرُ البِنْدَوان؛ فانضمَّ إلى القعقاعِ الحارثُ بن ظبيان ، فبارزَ القعقاعُ البيرُزان فضربهُ ضربةً عظيمةً أطارَ بها رأسه ، وبارزَ ابن ظبيان البِندوان فضربَه أيضاً وأطار رأسَه عن كتفَيْه.

* وحملَ القعقاعُ على صفوفِ الفُرس وجعلَ يقولُ : يا معاشرَ المسلمين؛ باشروهم بالسُّيوف ، فإنّما يُحصَدُ النَّاس بها[1].

* واجتلدَ النَّاسُ ، وتحمَّسوا لكلام القعقاع ، وخرجوا منْ كلّ ناحيةٍ ، وبدأت الحربُ والطِّعان ، وزادَ النَّاس نشَاطاً أنْ لمْ يروا فيلَة الفرسِ بينَهم؛ وحملَ بنو عمِّ القَعقاع يومئذٍ عشرةً من الرَّجَّالة على إبلٍ قد ألبسوها ، فهيَ

---

(١) انظر : أيام العرب في الإسلام (ص ٢٧٨ و٢٧٩) بتصرف.

مجلَّلةٌ مبرقعةٌ ، تشبهُ الفيلةَ ، ولقيَ أهلُ فارسٍ منَ الإبلِ يومَ أغواث الشَّدائد والأهوال.

* ومن شدّةِ احتدام الحربِ ونشاطِ المسلمينِ ، ظهرتْ همّةُ النِّساء في ذلكَ اليومِ وفي تلكَ الحربِ الضَّارية ، فقد روتِ المصادرُ أنَّه قد ظَهرتِ امرأةٌ في المَيْدان من النَّخع ، كان لها بنون أربعة حضروا حربَ القادسيّة ، فخطبت فيهم تحمّسهم ، وتضري بخطابِها الجنودَ ، فقالت: أيّ بني! إنَّكم أسلمتم فلمْ تبدّلُوا ، وهاجرتُم فلم تثوبوا ، ولم تنْبُ بكم البلادُ ، ولم تقحمكم السَّنة ، ثمّ جئتمْ بأمِّكم عجوزٌ كبيرةٌ ، فوضعتُموها بين يدي أهل فارسٍ ، واللهِ إنَّكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، كما إنّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أوّل القتال وآخره ، وموتُوا كراماً[1].

* فأقبوا يشتدّون ، فلمّا غابُوا عنها ، رفعتْ كفَّيْها إلى السَّماءِ ، وهي تدعو اللهَ عزَّ وجلَّ وتقولُ في دعائِها: اللهمَّ ادفعْ عن بنيّ ، ولا تجعلْ يومَهم قَبْل يومي.

* فرجعُوا إليها بعد أنْ أبلُوا بلاءً حَسَناً ، وأحسنُوا القتالَ ، ما كُلِمَ رجلٌ كَلْماً واحِداً[2].

---

(١) وَهِمَ كثيرٌ منَ الكتّاب والمؤرّخين ، فنسبُوا كلمات هذه العجوز النخعيّة إلى الخنساء ، وقد أثبتنا بالدَّلائلِ القاطعةِ بُطْلان ذلك في كتابنا «نساء من المشرق العربي» ترجمة الخنساء، ولا أدري منْ أين جاءَ وهْمُ كثيرين فنسبوا ذلك للخنساء ، ومنهم مثلاً: صاحب كتاب أعلام النساء انظر. (أعلام النساء ١/ ٣٦٨ و٣٦٩)

(٢) من العجيبِ أنَّ الذين نسبوا الكلماتِ للخنساء ، جعلُوا أبناءَها الأربعة يموتُون شهداءَ في معركةِ القادسيّةِ، وكلّ واحدٍ منهم يرتجزُ بضعةَ أبياتٍ ثمَّ يستشهد ، ويقولُ الرَّاوي: وعندما بلَغَها خَبَر استشهادِهم قالت: الحمدُ للهِ الذي شرّفني بقتلِهم ، وأرجو من ربيّ أنْ يجمعني بهم في مستقرّ رحمتهِ. ثمّ كان عمر بنُ الخطّاب ـ رضي =

* وبمثل هذهِ الشَّجاعة وهذا الإقدام زَرعَ القعقاعُ روحَ البسالةِ في نفوسِ النَّاسِ ، فما أكرمه منْ فارس ! وما أعظمَها منْ بطولة ! ! .

* لقد حملَ القعقاعُ في يوم أغواثَ ثلاثينَ حملةً ، كلّما طلعتْ فرقةٌ من الفرسِ حملَ عليها ، وأصابَ فيها حتى قتلَ ثلاثينَ فارساً ، وكان آخرهم : جمهر الهَمَذَاني[1] .

* لقد كانَ قلبُ القعقاعِ وسيفُه إلى لقاءِ العدوّ أسبقَ منَ الخيلِ التي يركبُها ، وكانتْ مشاعِرُهُ بواجبِ الجهادِ أسرعَ من خطواتِ الطَّريقِ التي امتدَّتْ بعيدةً بعيدةَ .

* فقد أُنيطَتْ بالقعقاعِ مسؤولية الإشرافِ على الشُّؤونِ العسكريّة في الكُوفَةِ ، وحفْظِ الأمْنِ بها ، وذلكَ في خلافةِ سيِّدنا عثمانَ بنِ عفّانِ ـ عليه سحائب الرّضوان ـ .

* وبعد اغتيالِ سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ امتلكتِ القعقاعَ رغبةُ الاعتزالِ ، وأحبّ أنْ يعيشَ أيّامَ ولحظاتِ بطولتِه التي كان فيها مثالاً للقائـدِ الجسورِ ، والفارسِ الشُّجاع ، والصَّوتِ الـمُؤمن ، بعد أنْ خاضَ أشـدَّ المعاركِ ضراوةَ ، وسجَّل أروعَ الانتصارات ، وكان عند حد قول سيدنا أبي بكر ـ رضي الله عنـه ـ: لا يُـهزمُ جيشٌ فيه مثْلُ القعقاع .

= الله عنه ـ يعطيها أرزاقَ أولادِها الأربعة لكلّ واحدٍ مئتي درهم حتى قُبض. (أعلام النّساء ١/ ٣٧٠). وقد صحّحنا هذا المفهومَ الخاطىء في كتابنا: «نساء من المشرق العربي» فليراجع ، وليتأكدِ القارىءُ هل كان للخنساء أربعة أولاد من رجل واحد؟

(١) قال ابنُ عساكر: كتبَ عمرُ إلى سَعْد ـ رضي الله عنهما ـ: أيّ فارس أيّام القادسيّة كانَ أفرس ، وأيّ راجلٍ كان أرجل ، وأيّ راكبٍ كانَ أثبت؟
فكتب إليه: لم أرَ فارساً مثلَ العقعاع بنِ عمرو ، حملَ في يومٍ ثلاثين حملةً ، ويقتلُ في كلّ حملة كمياً. (مختصر تاريخ مدينة دمشق ٢١/ ٩٠). و«الكميّ»: الشجاع المتكمّي في سلاحِهِ.

* لقد حفلتْ حياةُ القعقاعِ بأحداثٍ جسيمةٍ ، وحقَّقت إنجازاتٍ خالدةً تمثَّلَتْ في الأيَّام التي خاضَها ، واستطاعَ أنْ يسجِّلَ من خلالِها أجملَ آياتِ البطولةِ في التَّاريخِ الإسلاميّ والعربيّ ، بل وفي تاريخ الفُتوحات.

* ومنَ الجديرِ بالذكْر أنَّ القعقاعَ منَ الشُّعراء الفُرسان الذين رسمُوا بطولاتِهم في أشعارِهم وأراجيزِهم ومقطعاتِهم ، فقد ذكرَ في أشعارِه كثيراً منَ المواقع المهمّة منْ مثلِ: ذات السَّلاسل ، والولَجة ، والقادسيّة ، وجَلولاَء ، ونهاوند ، واليَرموك ، وأغْواث ، وغيرها من المواقع التي أبلىٰ فيها البلاءَ الحسنَ والشَّجاعةَ المتميزة[1] ، والمكيدةَ في الحرب[2] .

* ونلمحُ في شعرِ القعقاعِ جانباً آخرَ لا يقلُّ أهميّة عن ذكْرِ المواقعِ ، وهو أسماءُ أعلامِ الفُرس الذينَ جنْدلَهم وهزمَهم وسقطوا في المعارِك ، أو

---

(١) يُقال: الشّجاعُ محبَّبُ حتّى إلى عدوّه ، والجبانُ مبغَّضٌ حتّى إلى أُمِّهِ.

(٢) المكيدة في الحربِ والخداع من ألوانِ النّجاح والظفر ، رويَ عن النّبي ﷺ أنّه قال: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ» ـ فتح الخاء وضمّها ـ. وكانَ ﷺ إذا غَزَا أخذَ طريقاً وهو يريدُ أخرى ويقولُ: «الحربُ خدعةٌ».
* وكانَ مالكُ بنُ عبد الله الخثعميّ وهو على الصَّافَّةِ ـ الجماعةُ تُقَام وتُصَفُّ للحرب ـ يقوم في النَّاسِ ، إذا أرادَ أنْ يرحلَ ، فيحمدُ اللهَ ويثني عليه ، ثمّ يقولُ: إنّي دارِبٌ في الغداةِ دربَ كذا ، فتتفرَّقُ الجواسيسُ عنه بذلك ، فإذا أصبحَ سلكَ بالنّاسِ طريقاً غيرها ، فكانتِ الرُّومُ تسمّيه الثّعلب. (نهاية الأرب ٦/ ١٧٦)
* وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: عليكم في الحرب بالمكيدةِ، فإنّها أبلغُ منَ النجدَّة.
* وسئِلَ بعضُ أهلِ التّمرّس بالحروبِ: أيّ المكايدِ فيها أحْزَم؟ فقال: إذكاءُ العيونِ ـ أي بثُّ الجواسيس ـ، وإفشاءُ الغلبةِ، واستطلاعُ الأخبار، وإظهارُ السّرور ، وإماتة الفَرَق ـ الخوف ـ، والاحتراسُ منَ البطانةِ، من غير إقصاءٍ لمستَنْصِحٍ ، ولا استنصاح لمستغشٍ ، وإشغالُ النَّاس عمّا هم فيه منَ الحرب بغيره. وقال حكيمٌ: اللطفُ في الحيلةِ أجدىٰ الوسيلة ، وقيل: مَنْ لمْ يتأمّل الأمْرَ بعين عقْلهِ لم يقعْ سيفُ حيلته إلاّ على مقاتِله ، والتَّثبُّت يسهِّلُ طريق الرأي إلى الإصابة، والعجلةُ تضمنُ العثرة.

لاذُوا بالفِرار فكان منهم: الفيرُزان ، ومهْرَان ، وهرمز ، وقباذ ، وقارن ، وكسرىٰ ، وغيرهم كثيرون ، ممّن كانَ يذكرُ منَ الفرسِ والأعاجمِ ، ولم يغْفلِ الرُّومَ الذين قاتَلهم في بلاد الشَّام.

* وكانَ القعقاعُ يستمدُّ مفاخره منْ ماضيهِ المشرقِ المُتَمثِّل بآبائِه الصِّيد الذين عُرِفوا بالمكارمِ، وكان هذا كلُّه يدفعُه إلى أنْ يتحدَّثَ عن شجاعتهِ وفروسيّته.

* كما كان القعقاعُ مُعجباً بالفُرسان والفروسيّة ، حتّى في الأحوالِ الاجتماعيةِ ، كالزَّواج مثلاً ، فقد كان شديدَ الإعجابِ بشجاعةِ بُكير بن عبد الله الليثيّ وفروسيته؛ ففي قصّةٍ أوردَها الطَّبريُّ ، ومفادُها أنَّ أروىٰ بنتَ عامرِ الهلاليّة أخت زوجهِ هُنيدة ، قد خطبَها ثلاثةٌ من أكابِر القَوم وذِروةِ المجد ، وهم: بُكيرُ بنُ عبد الله الليثي ، وعتبةُ بنُ فرقد السُّلمي ، وسِمَاكُ بنَ خَرشَة الأنصاريّ ، فقالت أروىٰ لأختِها هُنيدة زوج القعقَاع: استشيري زوجَك أيّهم يراهُ لنا. فكانَ رأيهُ يميلُ إلى الفارسِ الشُّجاعِ الذي اشتُهر بساحاتِ القتال ، وعُرِفَ عند احتدامِ المعاركِ ، واشتجار الرّماح ، وهو بكيرٌ الليثي ، ولذلك قالَ القعقاعُ لزوجهِ هُنيدة: سأصفهُم في الشِّعر ، فانظري لأختكِ ، وأنشد:

إنْ كنْتِ حَاولْتِ الدَّراهمَ فانكَحي ... سِمَاكاً أخَا الأَنْصار أو ابنَ فَرقَدِ
وإنْ كنتِ حاولتِ الطَّعَانَ تيمّمي ... بُكَيراً إذَا ما الخيلُ جالَتْ عنَ الرَّدي
وكَلُّهـمُ فـي ذِرْوَةِ المجـدِ نَـازِلٌ ... فشـأنكـمُ إنَّ البيـانَ عـنَ الغَـدِ[1]

* ومن هنا وصفَ ابنُ عساكر القعقاعَ بالفروسيّة ، وشهدَ له بجزالةِ الشّعر وفحولتهِ فقال: يُقال إنَّ له صحبةً ، وكانَ أحدَ فرسانِ العربِ

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٨١).

الموصوفين ، وشعراءَهم المعروفين ، شهدَ اليرموكَ ، وفتْحَ دمشق ، وشَهِدَ أكثرَ وقائعِ أهل العراق مع الفرس ، وكانت له في ذلك مواقفُ مشكورةٌ ، ووقائعُ مشهورةٌ[١].

* وذكره ابنُ عبد البرّ فقال عنه وعن أخيهِ عاصم : هو أخو عاصم بنِ عمرو التّميمي ، وكان لهما البلاءُ الجميلُ ، والمقاماتُ المحمودةُ في القادسيّة لهما ولهاشم بن عُتبةَ ، وعمرو بن معدي كرب[٢].

شَـذَرَاتٌ مـنْ فُـروسيّـتِـهِ :

* شهدنا بعضَ ألوانِ فروسيّة القعقاعِ في يوم أغواثَ ، ونعودُ الآنَ لنشهدَ ضروباً من بطولتهِ وفروسيّته في هذا اليوم الأغرّ المعْطَار ، فقد كانَ القعقاعُ يكبِّرُ عندما كان يرىَ جماعةً منْ أصحابهِ ، ثم يكبّرُ المسلمونَ بعده ، ويحملُ علىٰ الكفَّار ثم يحملون .

* ومن المطربِ والجميل في فروسيّة فارسنا القَعقاع وصحبهِ يومِ أغواثَ ، أنَّه قد حملَ بنو عمّه عشرة عشرة على إبلٍ قد ألبسوها وهي مجلّلـةٌ مبرقعةٌ ، وأطافتْ بهم خيولُهم تحميهم ، وأمرهم القعقاعُ أنْ يحملوها على خيلِ الفُرس يتشبّهون بالفيلةِ ، ففعلوا بهم في هذا اليومِ ، وهو يومُ أغواثَ ـ كما فعلتْ فارسُ يومَ أرماث ـ ، فجعلتْ خيلُ الفرسِ تفـرُّ منها ، وركبتها خيولُ المسلمين ، فلمّا رأى الـنَّاسُ ذلك سُـرُّوا بهم ، فلقيَ الفرسُ يومَ أغواث أعظمَ ما لقي المسلمون من الفِيلةِ يومَ أرماث .

وظلَّ القعقاعُ ومَنْ معه منْ فرسانِ المدرسةِ المحمديّة العظيمة ، وأبطالِ المسلمين يقاتلونَ يومَ أغواث وليلتهم ، حتى كانت ليلةُ أغواث تُدعىٰ ليلةَ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٢١/ ٨٨).

(٢) الاستيعاب (٩/ ١٥٩).

السَّواد ، وقد قَتَل المسلمون فيها عامّة أعلاجِ الفُرس ، وعندما قَتَل القعقاعُ بزرجمهرَ الهمذاني ارتجزَ فقال:

حَبوتُه جيَّاشةً بالنَّفْسِ ... هدَّارةً مثلَ شُعَاعِ الشَّمْسِ
في يومِ أغواثٍ قليل الفُرسِ ... أنْخُسُ بالقومِ أشَدَّ النَّخْسِ
حتَّى تفيضَ معْشَري ونَفْسي[1]

*وفي يومِ عمواس أبدعَ القعقاعُ في فنِّ الفروسيّة والقتالِ أيّما إبداع ، فكان يومها عقْلاً مدبّراً ، وفارساً مجرّباً ، ورجُلاً محنّكاً ، ومؤمناً حصيفاً ، إذ استخدمَ ذكاءَه في إهلاكِ الفيلةِ التي استخدمها الفُرس في حربِ المسلمينِ. واستطاعَ القعقاعُ وأخوه عاصم بنُ عمرو أنْ يضَعا رمحيهما في عينِ الفيل الأبيضِ ، فاضطربتْ صفوفُ الفرسِ ، وكُتِبَ النَّصْرُ للمسلمينَ ، فللَّه درُّ أبطالِ المسلمينَ حين هزّوا العوالي والرِّماح وصدّوا العدو!! . ولله درُّ فارسِ المعامعِ والوقائعِ القعقاعِ بنِ عمرو الذي أنشدَ أبياتاً في تلكَ الوقعةِ منها:

فإنْ كنْتُ قاتلْتُ العَدوَّ فَلَلْتُه ... فإنّي لألْقَىٰ في الحُروبِ الدَّواهيَا
فُيولاً أَرَاهَا كَاللُّيوثِ مغيرةً ... أُسَمِّلُ أعْيَاناً لها ومآقِيا[2]

* وفي ليلةِ الهَريرِ[3] ، أبلى القعقاعُ أعظمَ البلاءِ ضدَّ الفرسِ ، فكان

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٤٧).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٥٥٧). ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ عاصمَ بنَ عمرو أخا القَعقاع كانَ كذلك بطلاً فارساً شديدَ البأسِ ، سَملَ عيونَ الفيلةِ كأخيهِ ، وقد استنجدَ سعدُ بنُ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ في هذا الموقفِ الحرجِ بمهارةِ القعقاع في تخليصِ المسلمينَ منْ أذىٰ هذه الفيلةِ ، التي لم يعهدِ العربُ في جاهليتهم مثلهَا ، حتى وفّق اللهُ القعقاع لهذهِ الحيلةِ في القضاءِ عليها.

(٣) انظر: الكامل في التّاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٣٤) ، وسمّيت ليلةَ الهَرير بذلك ، لترك الكلام فيها ، وإنّما كانوا يهرّون هَريراً.

أوّلَ مَنْ زاحَفَ الفُرسَ؛ وقالَ سعدُ بنُ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ عندئذٍ: اللهمّ اغفرِها له، وانصرهُ فقد أذنتُ له إذ لم يستأذنّي.

* وظلَّ القعقاعُ والمسلمون يقاتلونَ طوالَ تلك الليلة، وقد أفرغَ اللهُ الصَّبر عليهم إفراغاً، ولما مضى الليلُ، وأسفَر الصُّبحُ، انتمىٰ النَّاس، فاستُدِلَّ بذلك على أنَّ المسلمين هم الأعْلَون، وأنَّ المشركين هم الأسفلون، وكان أوّلُ شيءٍ سمعه نصفَ الليل الباقي صوت القَعْقاعِ وهو يرتجزُ ويقولُ:

نحــنُ قتلْنَــا مَعْشــراً وزَائِــدا | أربعـــةً وخَمْســـةً وَوَاحِـــدَا
تحســبُ فـوقَ اللّبـدِ الأوسَـاوِدا | حتّـى إذا مـاتُـوا دعـوتُ جَـاهِـدَا
اللهَ ربــيّ واحْتَــرَزْتُ عَــامِــدا[1]

* لقد كانَ القعقاعُ ـ رضي الله عنه ـ فارسَ الوقائعِ، وكان يسجِّل مآثرَه بأشعارِه العِذاب، ومنها يومُ اليرموك، ذلك اليومِ المشهور في تاريخِ المسلمين، حيثُ أنشدَ قصيدةً قافيّةً منها قوله هذه الأبيات:

أَلَـمْ تَـرنـا علـى اليَـرمُـوكِ فُـزْنـا | كمَـا فُـزْنــا بــأيّــامِ العِــراقِ
فتَحْنـا قَبْلَهـا بُصْـرىٰ وكـانَـتْ | محـرّمـةَ الجنـابِ لـدى البعَـاقِ
قتَلْنَـا الـرُّومَ حتّـى مـا تسـاوي | علـىٰ اليـرمـوك ثَفْـروق الـوِرَاقِ

* وفي يوم دمشقَ قال:

أقمنَا علىٰ داري سُليمان أشْهراً | نُجالِدُ رُوْماً قد حمُوا بالصَّوارمِ
لمَّـا رأوا بـابَـي دمشـقَ يجوزُهُـم | وتَـدْمُـر عضّـوا منهـمُ بـالأبـاهِـمِ

* وقال في حمصَ الآخرة:

يـدعـونَ قَعْقـاعـاً لكـلّ كـريهـةٍ | فيجيـبُ قعقـاعٌ دعــاءَ الهَـاتِـفِ

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٦٢)، والكامل في التاريخ (٢/ ٤٨٠).

سِرْنا إلى حمصٍ نُريدُ عَدوَّهَا   سَيْرَ المُحامي مِنْ وراءِ اللآهِفِ
حتّـى إذا قُلْنَـا دَنَـونَـا منهـمُ   ضَـرَبَ الإلـهُ وجوهَهَـم بِصَـوارِفِ

* وقال في الحيرَةِ وما فَعَلَه المُسلمونَ بِها:

ويـومَ أحطْنَـا بـالقُصُـور تتـابَعَـتْ   علىٰ الحيرةِ الرّوحاء إحدى المصَارِفِ
حطَطْنَاهم منها وقد كادَ عرشُهم   يميـلُ بـه فِعْـل الجبَـانِ المُخَـالِفِ

* وأشعارُ القعقاعِ في المعاركِ التي خاضَها كثيرةٌ جداً ، وهي مبثوثةٌ في ثنايا المصادرِ ، وأعطافِ كتبِ الأدبِ ، والتَّاريخ والتَّراجم ، وقد اخترنا منها ما يفي بالغرضِ.

* وهكذا عاشَ القعقاعُ بنُ عمرو فارساً أبيّاً سعيداً وماتَ سعيداً وقد شهِدَ انتشارَ الإسلام في الشَّام والعراقِ وكثير من البلادِ ، فرحمَ اللهُ القعقاعَ بنَ عمرو التَّميميّ ورضيَ الله عنه وجزاهُ عنِ المسلمينَ خيراً[1].

* * *

(١) لم تُشِرْ معظمُ المصادرِ إلى سَنةِ وفاةِ القَعقاع بنِ عمرو ، غيرَ أنَّ خيرَ الدِّين الزَّركلي ـ رحمه الله ـ قال: توفي حوالي سنة (٤٠ هـ). وقال: سكنَ الكوفةَ ، وأدركَ وقعةَ صفّين ، فحضرَها مع عليّ ، وكان يتقلّد في أوقاتِ الزّينة سيفَ هرقل ، (مَلِك الرُّوم) ، ويلبسُ درعَ بَهرام (مَلِك الفُرس) وهما ممّا أصابَه منَ الغنائم في حربِ فارس. (الأعلام ٥/ ٢٠١ و٢٠٢)




مَعن بن زائدة

* أمير فارس شجاع ، وأحد أفراد الدهر في الجود والسخاء ، بل هو رأس الأسخياء بين أمراء عصره.
* له مواقف كثيرة تشهد له بالكرم الأصيل ، والعطاء الجزيل.
* رثاه كثير من الشعراء ، وحزنوا لفقده.




شَرَفٌ عَلَى شَرَفٍ:

* قالَ مروانُ بنُ حفصةَ يمتدحُ فارسَ حلقتِنا؛ وكان قد قصدَهُ من اليمامة إلى اليمنِ من قصيدةٍ طويلةٍ منها:

لولاَ رجَاؤُكَ ما تَخَطَّتْ ناقَتي ... عَرْضَ الدَّبِيلِ ولا قُرَىٰ نَجْرَانِ
مَعْنُ بنُ زَائدةَ الذي زِيدَتْ بهِ ... شَرفاً على شَرفٍ بنو شَيْبانِ
إنْ عُدَّ أيَّامُ الفَعالِ فإنَّما ... يومَاهُ يومُ ندىً ويومُ طِعَانِ[1]

* وقالَ مروانُ أيضاً يمدحُه:

قد أمَّنَ اللهُ مِنْ خوفٍ ومن عَدَمٍ ... مَنْ كانَ مَعْنٌ له جاراً منَ الزَّمَنِ
معنُ بنُ زائدةَ المُوفي بذمَّتِهِ ... والمُشْتَري المجدَ بالغَالي منَ الثَّمنِ
يرى العَطَايا التي تبقىٰ محامِدُهَا ... غُنْماً إذا عَدَّها المُعْطي منَ الغَبنِ
بنىٰ لشَيْبانَ مَجْداً لا زوالَ لَهُ ... حتَّى تزولَ ذُرا الأركانِ من حَضَنِ[2]

* نعم فهذا فارسٌ منْ فُرسانِ العرب الشُّجعان، وهو أحدُ أفرادِ الدَّهر في ميدانِ الفروسيّة والسَّخاءِ، إنَّه معنُ بنُ زائدةَ بنِ عبد الله أبو الوليد الشَّيباني[3]، أميرُ العربِ، وأحدُ أبطالِ الإسلامِ، وعينُ الأجوادِ، ورأسُ

---

(١) انظر: شعر مروانَ بنِ أبي حفصة (ص ١٠٦)، والقصيدةُ تعدُّ (٢١ بيتاً)، ومعنى «خطَّتْ»: تجاوزَتْ. «الدَّبيل»: موضعٌ يتاخِمُ أعراضَ اليمامة. «نجران»: منْ مخاليفِ اليمن. «النَّدى»: الجود.

(٢) المصدرُ السَّابق عينهُ (ص ١٠٩)، و«العدَمُ»: الفَقْر. و«الجُور»: الظُّلم. و«الذّمة»: العَهدُ. و«الغُنْم»: الغنيمةُ والخيرُ والنّماء. و«الغبن»: النَّقص أو الجَهْل أو الغفلة. و«حضن»: جبلٌ بأعلى نجد.

(٣) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٥ ـ ٢٤٤)، وسير أعلام النّبلاء (٧/ ١٩٧ و١٩٨)، والبداية والنّهاية (١٠/ ٣٨ و٧٦ و١٠٩ و١٥٤ و١٧٩)، ووفيّاتُ الأعيان (٥/ ٢٤٤ ـ ٢٥٤)، وأمالي المُرتضى (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٧)، ونوادرُ المخطوطات (٢/ ١٩٥)، والمستجادُ=

الأسخياءِ بين أمراء عَصْرِهِ ، وفرسانِ دَهْرِه .

* كانَ جَواداً شُجاعاً ، جَزْلَ العَطَاءِ ، كثيرَ المعروفِ ، ممدحاً مقصوداً ، وكان مِنْ صَحابةِ المنصورِ الخليفةِ العبّاسيّ ببغدادَ لما بنيَتْ ، وكان سَمْحاً جَوَاداً ، منَ مشاهيرِ أجواد الدُّنيا وأسخيائِهم وكرمائِهم. وله يقولُ مروانُ بنُ أبي حفصةَ يذكرُ جودَه وشمائِلَه منْ بائيةٍ حلوةٍ منها هذه الأبيات :

كَفَىٰ القَبائِلَ مَعْنٌ كُلَّ معضلَةٍ ... يُحْمَىٰ بَها الدِّينُ أو يُرعىٰ بها الحَسَبُ
كَنْزُ المحامِدِ والتَّقْوىٰ دفاتِرُهُ ... وليسَ منْ كنزِهِ الأَوراقُ والذَّهَبُ
إِنَّ الفَوارِسَ من شيبانَ قد عُرِفُوا ... بالصِّدقِ إنْ نزلُوا والموتِ إنْ ركبُوا
قُلْ للجَوادِ الذي يَسْعىٰ ليدرِكَهُ ... أَقْصِرْ فما لَكَ إلاَّ الفوتُ والطَّلبُ[1]

* كان معنُ بنُ زائدةَ في أيّامِ بني أميّةَ متنقّلاً بين الولاياتِ ، ومنقطعاً إلى يزيدَ بنِ عمرو بن هبيرةَ الفَزاريّ[2] أمير

= من فَعْلات الأجواد (ص ٤ و٧٤ و١٧٥ و١٨٦ و١٩١ و٢٠٠ و٢٠١ و٢٣٦ و٢٥٢) ، والعبرُ للذَّهبي (١/ ٢١٧) ، وقطوفُ الريحان (ص ٣١٨ ـ ٣٢٢) ، ونوادرُ الخُلفاء المسمّى: إعلام النّاس بما جرىٰ للبرامكة مع بني العبّاس (ص ٢٧٦ ـ ٢٨٣) ، وشرح ديوان مروان بن أبي حفصة (انظر الفهارس) وغيرها.

(١) شرح ديوان مروان بن أبي حفصة (ص ٢٠) والقصيدة عشرة أبيات. ومعنى «كفى»: أغنىٰ. و«المعضلة»: المسألة الصعبة ، والخطة الضيقة. «الحسب»: الفعال الحسن من الشجاعة والجود وحسن الخلق والوفاء. و«الشغب»: تهييج الشر.

(٢) يزيدُ بنُ عمرَ بن هُبيرة الفزاريّ أبو خالد ، أميرُ العراقَيْن لمروانَ بنِ محمّد الأمويّ ، كانَ شَهماً طويلاً شجاعاً خطيباً مفوّهاً جَوَاداً ، مفرطَ الأكلِ ، ولَما تواقَعَ هو وبنو العبَّاس هربَ إلى واسطَ ، فحاصروهُ بها ، وثبتَ معه معنُ بنُ زائدةَ الشَّيبانيّ ، وكان أبو جعفر المنصور أخو السَّفّاح يعيّره فيقول: ابنُ هبيرة يخندقُ على نفْسه كالنِّساءِ ، فأرسلَ إليه ابنُ هبيرة أن ابرزْ إليّ. =

العراقين[1] ، ولما تملَّكَ آلُ العبَّاس ، وانتقلتِ الدَّولةُ إليهم ، وجرىٰ ما جرىٰ بينَ أبي جعفر المنصور ، وبينَ يزيدَ بنِ عمرو بنِ هُبيرة[2] ، منْ محاصرتِهِ بمدينةِ واسط ، ما هو مشهورٌ ومتعالمٌ في التَّاريخ ، أبلىٰ معْنٌ يومئذٍ بلاءً حَسَناً ، فلما قُتِلَ يزيد بن عمر رثاهُ معْنِ رثاءً حارّاً فقالَ:

أَلاَ إنَّ عَيْناً لم تَجُدْ يومَ واسطٍ ... عَلَيْكَ بجاري دمعِها لَجَمودُ

عشيّةَ قامَ النَّائحاتُ وشُقِّقتْ ... جيوبٌ بأيدي مأتمٍ وخُدودُ

فإِنْ تُمْسِ مهجورَ الفِناء فَطَالَما ... أقامَ بهِ بعد الوفودِ وفودُ

= فقال المنصورُ: خنزيرٌ قالَ لأَسَدٍ: ابرزْ إليَّ ، فقالَ الأسدُ: ما أنتَ بكفءٍ لي قالَ الخنزيرُ: لأعرفنَّ السِّباعَ أنَّكَ جبنْتَ. فقال الأسدُ: احتمالُ ذلك أيسرُ من تلطّخ براثني بدَمِك ، ثمَّ أمنه المنصورُ وغدَرَ بهِ وقالَ: لا يعزُّ مُلْكٌ وأنت فيه. وقُتل ابنُ هبيرة بواسط يومَ الإثنين لثلاث عشرة بقينَ من ذي القعدة سنة (١٣٢ هـ) وأخبارُه ومحاسنُه كثيرةٌ مشهورةٌ منثورةٌ في كتب التّراجم والتّواريخ.

(وفيات الأعيان ٦/ ٣١٣ ـ ٣٢١) و(شذرات الذهب ٢/ ١٤٨)

(١) «العِراقان»: أو المِصران: الكوفةُ والبصرةُ. وأوّلُ مَن جُمِعَ له المِصْران: زيادُ بن أبيه ثم ابنه عُبيد الله ، ومصعبُ بنُ الزبير ، وبشرُ بنُ مروان ، والحجّاجُ بنُ يوسف ، ويزيدُ بن المهلّب ، ومسلمةُ بنُ عبد الملك ، وعمرُ بنُ هُبيرة الفزاريّ ، وخالدُ بنُ عبد الله القسريّ ، ويوسفُ بنُ عمر الثَّقفي ، وعبدُ الله بنُ عمر بنِ عبد العزيز ، ويزيدُ بنُ عمر بن هُبيرة ، ولم يُجْمَعِ العراقان لأحدٍ بعد هؤلاء.

(المعارف ص ٥٧١)

(٢) لما حاصرَ المنصورُ ابنَ هبيرة ، بعثَ إليه ابنُ هبيرة: لأشهرنَّ امتناعَك ولأعيرنَّك به. فقال المنصورُ: مثَلُنا كما قيل: إنَّ خنزيراً بعثَ إلى الأسدِ وقال: قاتلني فقال الأسدُ: لَسْتَ بكفؤي ، ومتى قتلتُك لم يكنْ لي فخرٌ ، وإنْ قتلْتَني لحقَني وصْمٌ عظيم.

فقال الخنزيرُ: لأخبرنَّ السِّباع بنكولك.

فقال الأسدُ: احتمال العارِ في ذلك أيسرُ منَ التَّلطخ بدمك.

(التذكرة الحمدونية ٢/ ٤٩٧)

فـإِنَّـك لـم تبعُـدْ علـىٰ متعَهّـدٍ بلىٰ كلُّ مَنْ تحتَ التُّرابِ بعيدُ[1]

* وخافَ معنٌ من أبي جعفر المنصُور ، فاستترَ عنه مدَّةً منَ الزَّمانِ ، واختفىٰ عن الأعيُنِ ، وكانَ الطَّلَبُ عليه حثيثاً ، وطُلِبَ في كُلّ مكَانٍ[2].

* وجرىٰ لمعنٍ في مدّة اختفائِهِ حوادثُ وغرائب تستحقُّ التَّسجيل لجمالِها وطرافتِها ، وها نحنُ مرسلُو القولَ في بعضِها لما فيها من فضائلَ لطيفةٍ ، وفوائدَ جليلةٍ ، ودروسٍ وعبرٍ في دنيا الجوادِ والسَّخاء والفروسيّة الحقّة ، التي تفصحُ عن القوةِ الحقيقيةِ للمرء ، إذا ما تغلَّب على الأنانيّة.

وهبْتُـكَ لِنَـفْسِـكَ وَلِجُـودِكَ الـمَـأْثُـور:

* هذه قصّةٌ جميلةٌ مغناجٌ في محاسنِ الجودِ والسَّخاءِ ، حدثَتْ لمعنِ بنِ زائدةَ الشَّيباني ، وهي تُنْبي عن فروسيّةٍ عظيمةٍ في هذا الميدان. ودعونا نستمعُ إلى مَعْنٍ نفسِهِ وهو يروي أحداثَ هذه القصّة النَّادرة العجيبة لشاعِره الأثيرِ مروانَ بنِ أبي حفصة ، حيثُ يقولُ مروان:

* أخبرَني معنُ بنُ زائدة ـ وهو يومئذٍ متولّي بلادَ اليمن ـ أنَّ الخليفةَ أبا جَعْفر المنصور قدَ جَدَّ في طَلَبي وطلْبَتي ، وجعلَ لمن يحملُني إليهِ مالاً جَزيلاً ، وأعطياتٍ كثيرة.

* ولما علمتُ بشدّةِ الطَّلَبِ وكثرةِ الطَّالبين ، اضطررتُ لذلك أنْ تعرضَّتُ للشَّمْسِ حتّى لوَّحْتُ وجْهي ، ثمَّ خفَفْتُ عارضي ، ولبستُ جبَّةَ صوفٍ ، وركبتُ جَملاً ، ومن ثمَّ خرجتُ متوجّهاً إلى الباديةِ كيما أقيم بها حتّى يخفَّ عنّي الطَّلب.

* وانتهزتُ الفرصةَ ، وخرجتُ ذاتَ يومٍ من بابِ حَرْبٍ ـ أحد أبوابِ

---

(١) وتنسب هذه الأبيات لغيره.

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٢٤٥) ، وأمالي المرتضى (١/ ٢٢٣) مع الجمع والتصرف.

بغداد ـ ، تبعَني أسودُ وهو متقلّدٌ سيفاً حتى إذا ما غبتُ عنِ الحرسِ والنَّاس والعامّة ، أخذ بخطامِ الجَمَلِ ، ثمَّ أناخَه ، وقبضَ علىٰ يدي ، فتوجَّسْتُ منه خيفةً وقلتُ له : ما بكَ يا هذا؟

قال : أنتَ طلْبَةُ أميرِ المؤمنين أبي جعفر المنصُور .

فقلتُ : هداكَ اللهُ ، ومَنْ أنا حتّى أُطْلَب وأكونَ بغية أميرِ المؤمنين المنصور؟

فقال : أنت معنُ بنُ زائدة بنِ عبد الله بنِ زائدة الشَّيباني .

قلتُ له في هدوء : يا هذا ، اتّقِ اللهَ عزّ وجلَّ ، وأينَ أنَا من معنِ بنِ زائدةَ الذي تزعُم؟ !

فقال : دعْ عنْكَ هذا ، فواللهِ إنّي لأَعْرَفُ بكَ منْكَ ، فلا تُمارِ ، أو تحاول الإنكار .

* ولما رأيتُ من هذا العبد الأسود الجِدَّ وعدمَ الهَزْلِ قلتُ له : يا وجْهَ الخيرِ ، هذا جوهرٌ ذو قيمةٍ عظيمةٍ قد حملتُه معي ، وقيمتُه أضعاف ما جعلَه أبو جعفر المنصور لمن يجيئه بي ، فخذْهُ ولا تكنْ سَبباً في سَفْكِ دمي .

قال : هاتِه ، قد قبلتُ ذلك منْك .

* فأخرجتُ إليه الجوهرَ والذَّهَبَ ، فنظرَ إليه ساعةً ، ثمَّ قال : صدقتَ يا معنُ في قيمته وثمنه ، ولستُ قابله حتّى أسألكَ عن شيءٍ ، فإنْ صدقتني أطلقتُك تذهب حيثما تريد . فقلتُ له والأملُ يتراقَصُ أمامي وروحُ الحياةِ قد رُدَّتْ لي : قلْ ما تشاء يا هَذا؟

قال الأسودُ : إنَّ النَّاسَ ـ على اختلافِ طبقاتِهم ـ قد وصفوكَ بالجودِ والسَّخاءِ والكرمِ والعَطَاءِ الذي ما بعده عطاءٌ أَلَيسَ كذلكَ يا أبا الوليد؟

قلتُ: بلى يا وَجْهَ الخيْرِ.

قال: إذاً، أخبرني يا مَعْنُ، هل وهبْتَ مالَك كلَّه قطّ في حياتكَ؟

قلتُ: لا، لمْ أهَبْ مَالي، ولم يحدثْ ذلك.

قال: أخبرني، هل وهبتَ ثلثَ مالِكَ إذاً؟

قلت: لا، ولا ثلْثَ مالي.

ومازالَ معي حتّى بلغَ العُشْر، فاستحييتُ منه وقلتُ له: أظنُّ أنّي قد فعلتُ هذا مرّة، ووهبتُ عشْرَ مالي لأحدِ المادحين.

قال الأسودُ في هدوء: يا معنُ، واللهِ ما ذاك بعظيمٍ ولا كبيرٍ ولا كثيرٍ، وأنا واللهِ راجلٌ، ورزقي منْ أبي جعفر المنصور في كلّ شهر عشرون درهماً ليس غير، وهذا الجوهرُ الذي لك بين يدي قيمتُه ألوفُ الدّنانير، وقد وهبتُه لكَ، ووهبتك لنفسِكَ، ولجودِكَ المأثور عنك بين النَّاسِ، ولتعلمَ أنَّ في هذه الدُّنيا مَنْ هو أجودُ منْكَ، وأكثرُ سخاءً وكرماً وشجاعةَ نفسٍ، فلا تعجبك نفسك، ولتحْقِرْ بعد هذا كلَّ جود فعلته، ولا تتوقّفْ عن مَكْرمة.

* ثمَّ إنَّ الأسودَ رمىٰ العِقْدَ في حِجْري، وتركَ خطامَ الجمَل، وولّى منصرِفاً عنّي نحو بغداد؛ فقلتُ: يا هذا، قد واللهِ فضحْتَني، ولَسَفْكُ دَمي أهونُ عليَّ ممّا فعلتَ، فخذْ ما دفعتُه لكَ، فإنّي غنيٌّ عنه، ولستُ في حاجةٍ إليه، وقد خرجتُ عنه لكَ.

* فضحكَ من قولي، ثمَّ قال لي: يا معنُ، أردتَ أنْ تكذّبني في مقالي هذا، واللهِ لا أخذتُه، ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً أبداً.

* ثمَّ إنَّ الأسودَ مضىٰ لسبيلهِ، فواللهِ لقد طلبتُهُ وبحثْتُ عنه بعد أنْ أُمِّنْتُ، وبذلتُ لمن يجيءُ به ما شاء، فما عرفتُ له خبراً، وكأنَّ الأرضَ

قد ابتلعته ، أو السَّماءَ قد اختطفته ، وخفي عنّي أثره وخبره[1] .

فُروسيَّةُ مَعن يَوْمَ الهَاشِمِيَّة :

* كان معنُ بنُ زائدةَ الشَّيباني أحدَ فرسانِ العرب الشُّجعانِ والأشدّاءِ في صَدْرِ الخلافة العبّاسيّة ، وكان لفروسيتهِ وبطولتهِ مقامٌ محمودٌ ، وغناءٌ معروفٌ إذا ادلهمَّ خطبٌ ، أو عبَس أمْرٌ ، أو حزمَ رأيٌ ، وكان مع هذا كلِّه مايزالُ متوارياً عن عينِ أبي جعفر المنصور ، مُستتراً عن أعوانِهِ الذين يرصدونَه ويترصَّدونه ، فكان إذا خرجَ من مخبئِه ، خرجَ متنكّراً ، كيلا يرتابَ منه النَّاس ، أو يفطنَ له أحدٌ منَ القوم .

* وفي شهرِ ذي القعدة منْ سنةِ (١٣٤ هـ) كان معنُ بنُ زائدة مايزالُ متوارياً مُستتراً ، لا يخرجُ إلاَّ في غايةِ الحذرِ والحيطة ، ولكنَّه كانَ واثقاً منْ تنكّره ومن خروجهِ ودخولهِ ، فكانَ قريباً من مكانِ إقامةِ أبي جعفر المنصور ، يترقّبُ الأخبارَ ، ويتعرّفُ الأحوالَ ، ويلتقطُ شذراتٍ من حياةِ النَّاسِ ، حتى كان يوم الهاشمية[2] ، فإنَّه خرجَ كعادته متنكّراً ، معتماً بعمامة ، ملثّماً لا يظهرُ منه سوىٰ عينَيه تلوحان ، وتشهدان له بالشَّجاعة والبَسَالة ، فنظرَ إلى القومِ الخراسانيّة والرَّاونديّة[3] ، وقد وثبوا على

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (٥/ ٢٤٥ و٢٤٦) ، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٢٧٣ و٢٧٤) مع الجمع والتصرف. وانظر : قطوف الريحان (ص ٣١٩) ، والأغاني (١٠/ ٨٨) ، والفرج بعد الشدة (٤/ ٥١ ـ ٥٣) ، ومحاضرات الأدباء (١/ ٥٨٨) ونهاية الأرب (٣/ ٢١١ و٢١٢) .

(٢) «الهاشمية» : مدينة بناها أبو العباس السفاح بالقرب من الكوفة .

(٣) «الرَّاونديّة» : في سنةِ (١٤١ هـ) خرجَتْ علىٰ المنصور طائفةٌ يقالُ لها الرَّاوندية ، وأصلُهم منْ خراسانَ ، وهم على رأيِ أبي مُسْلِم الخراسانيّ يقولون بالتَّناسُخ ، ويزعُمون أنَّ ربَّهم الذي يطعمُهم ويسقيهم هو أبو جَعْفر المنصور ، وأنَّ الهيثَمَ بنَ معاويةَ هو جبريلُ ـ قبَّحهم اللهُ وأخزاهم ـ . =

أبي جعفر المنصور ، وكادوا يبطشونَ به ، فلمّا عاينَ معنُ ذلك طار صوابُه ، وتقدَّمَ إلى القومِ الخراسانيين ، ومن ثمَّ أخذَ بلجام بغلةِ أبي جعفر المنصور ، وجعلَ يقاتلُ قدَّام المنصورِ قتالاً عجيباً أبانَ فيه عن نجدةٍ وشهامةٍ وفروسيةٍ ، وجعل يضربُهم بسيفهِ ، ويرميهم بحملاتهِ القويةِ حتى أفرجُوا له ، وتفرقُوا عنه ، فكان النَّصرُ على يدهِ وهو مقنَّعٌ في الحديد.

* ولما أفرجَ عن المنصور ، قال هل: مَنْ أنت ويحك ، ومنْ تكون؟!

= فأتوا يوماً قَصْرَ المنصور ، فجعلُوا يطوفُونَ به ويقولُون: هذا قَصْرُ ربِّنا ، فحبَسَ المنصورُ مئتَيْن منْ رؤسائِهم فغضبُوا ، ثمَّ ثارُوا ودخلُوا السّجنَ قَهْراً واستخرجوا مَنْ فيهِ منْ أصحابِهم ، وقصدُوا نحوَ المنصور وهمْ في ستمئةٍ ، فتنادىٰ النّاسُ وغُلّقَتْ أبوابُ البَلدِ ، فخرجَ المنصورُ ، وركبَ دابّةً ، وقصدَ نحو الرَّاوندية ، وجاءَ النَّاسُ منْ كلِّ ناحيةٍ ، وجاءَ معن بنُ زائدةَ الشَّيباني ، فلمّا رأى المنصور ، ترجَّل وأخذَ بلجام دابّة المنصور وقال: يا أميرَ المؤمنين ارجعْ! نحنُ نكفيكَهم ، فأبى وقامَ أهلُ الأسواقِ ، وجاءَت الجيوشُ فحصدوهم عنْ آخرِهم ، ولم يبقَ منهم بقيّة ، وكان كلّ ذلكَ بالمدينةِ الهاشميّة منَ الكوفة.

ولما فرغَ المنصورُ منْ قتالِ الرَّاونديّة صلىٰ الظُّهر ، ثمَّ أتيَ بالطَّعام فقال: أينَ معنُ بنُ زائدة؟ وأمْسَك عنِ الطَّعامِ حتى جاء معنٌ فأجلسَه إلى جنبهِ ، ثم أخذَ في شكرِه ، لما رأىٰ مِنْ شهامتهِ وفروسيّته يومئذٍ. فقال معنُ: واللهِ يا أميرَ المؤمنين لقد جئتُ وإنّي لوجلٌ ، فلما رأيتُ استهانتَك بهم ، وإقدامَك عليهم ، قويَ قلبي واطمأنَّ ، وما ظننتُ أنَّ أحداً يكونُ في الحربِ هكذا ، فذاك الذي شجّعني يا أميرَ المؤمنين.

فأمرَ له المنصورُ بعشرةِ آلاف ورضيَ عنه ، وولاَّه اليمنَ ، لمَّا رآه صَدَقَ في قتالِه ، وعفَا عنه بعد أن كانَ معنٌ مختفياً منَ المنصور مدّة.

ويقال: إنَّ المنصورَ قال عن نفْسهِ: أخطأتُ في ثلاث:

قتلتُ أبا مُسْلم الخراسانيّ وأنا في جماعةٍ قليلة.

وحينَ خرجتُ إلى الشَّام ، ولو اختلفَ سَيْفان بالعراقِ لذهبتِ الخلافةُ.

ويوم الرَّاوندية لو أصابني سَهْم غَرْب ـ طائش ـ لذهبتُ ضياعاً.

وهذا منْ حزمهِ وصَرامته. (البداية والنّهاية (١/ ٧٥ و٧٦) بتصرف

* فكشفَ معنٌ اللثامَ عن وجههِ وقال: أنا طلبتُكَ معنُ بنُ زائدةَ الشَّيباني، فَمُرْ أمْرَكَ يا أمير المؤمنين، فها أنا بينَ يديك، وطوع أمرِك.

* فابتسمَ أبو جعفر المنصور وسُرَّ بهِ، وأمَّنَه، وقدَّمه، وعظَّمه، وأكرمَه، ثم كسَاه، وجعل له رتبةً ومرتبةً، وصار من خواصّهِ وقوّادهِ ومقدميه ومُستشاريه، ثمّ قلَّده ولاية اليمنِ مكافأةً له، وأحسنَ مثْواه[1].

مَـعْـنٌ والـمَنْصُـور:

* في حياةِ معنِ بنِ زائدةَ الشَّيباني مواقفُ جميلةٌ رائعةٌ تدلُّ على كرمِ الأَصْلِ، وطيبِ المحتدِ، وحسنِ المخبرِ، كما تَطْربُ لها الأسماعُ، وتلذُّ الأفواه بذكرِها وقراءتها.

* وهناك بعضُ الأخبارِ اللطيفةِ جَرَتْ لمعنٍ مع أبي جعفرِ المنصور، تشيرُ إلى ذكائهِ وجودهِ ونُبْلهِ.

* منْ ذلك أنَّ معناً دخلَ على المنصورِ في بعض الأيَّامِ، فلما نظرَ إليهِ، رحّبَ به وقال له: هِيهِ[2] يا معن! تعطي مروانَ بنَ أبي حفصةَ مئة ألفِ درهمٍ على أن قالَ لك:

معنُ بنُ زائدةَ الذي زِيدَتْ بهِ   شَرفاً على شرفٍ بنو شَيبانِ

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٢/ ١٩٢) وغيره من مصادر عن الرَّاوندية. والرَّاوندية: نسبة إلى ريوند، كورةٌ من نواحي نَيْسابور. (الأنساب ٦/ ٢١٢)
حدَّث أبو بكر الهُذَليّ عن فسادِ معتقدِ الرَّاوندية فقال: اطّلعَ المنصورُ، فقال رجلٌ إلى جانبي: هذا ربُّ العزّة يطعمُنا ويرزقُنا!. (شذرات الذهب ٢/ ١٩٢)

(٢) «هِيهِ»: هيهِ اسمُ صوتٍ لزجرِ الحيوان مبنيّ على الكسر لا محلَّ له منَ الإعرابِ، وقد جعَلَها بعضُهم اسمَ فعل أمْر معناهُ الطَّلب إلى محدّثكَ الاستزادَةَ في حديثه.

فقال معنُ: كلا يا أمير المؤمنين ، لم أعطهِ لذاك ، وإنَّما أعطيتهُ على قولهِ:

مازلتَ يومَ الهاشميّة مُعْلناً بِالسَّيفِ دونَ خليفةِ الرّحمنِ
فمنَعْتَ حوزَتَه وكنْتَ وقاءَهُ منْ وقْعِ كلِّ مهنّدٍ وسِنانِ

فقال له المنصور: أحسنتَ يا معنُ... وزادكَ الله خيراً وجُوداً[1].

* ويذكرُ الشَّريف المرتضى في «أماليه» ، في خبرٍ آخر أنَّ معناً دخلَ على المنصورِ ذات مرّةٍ ، فقال له: ويلكَ يا معنُ ، ما أظنُّ ما يُقال فيك منْ ظلمكَ لأهلِ اليمن ، واعتسافِكَ إيَّاهم إلا حقّاً!

قال معنٌ: وكيف ذاكَ يا أميرَ المؤمنين؟

قال: بلغني أنَّكَ أعطيتَ شاعِراً كان يلزمُك ألفَي دينار ، وهذا منَ السَّرف الذي لا شيء مثله.

فقال معنٌ: يا أمير المؤمنين ، إنَّما أعطيتهُ من فضولِ مالي ، وغلاَّت ضياعي ، وفضَلات رِزْقي ، ثمَّ إنّي كففْتُه عن عرضي ، وقضيتُ الواجبَ من حقّه عَليَّ ، وقَصْدِهِ إليَّ ، وملازمته لي.

قال: فجعلَ المنصور ينكتُ بقضيبٍ في يدهِ الأرضَ ، ولم يعاودْه القَول[2].

---

(١) انظرْ: أمَالي المُرتضى (١/ ٢٢٤) ، ووَفيَات الأعيْان (٥/ ٢٤٦) مع الجمع والتَّصرُّف. وانظر القصيدة كاملةً في ديوان مروان. (ص ١٠٦ ـ ١٠٨)

(٢) انظر: أمالي المرتضى (١/ ٢٢٤) بتصرّف يسير. ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ المنصورَ كانَ قد أرادَ أنْ يقطعَ الحِلْفَ بينَ ربيعة واليمن ، فقلَّد عقبةَ بنَ مسلم الهنائيَ اليمامةَ والبحرين والبصرةَ ، وقلَّد معنَ بن زائدة الشّيباني اليمنَ ، وبسط أيديَهما في القتل ، وأخْذِ الأموالِ ، فأسرعَ كلُّ واحدٍ منهما في قوم صاحبهِ ، وصارتْ بينَهما الطَّوائِل ، فانقطعَ الحلْفُ. وكانَ عقبةُ ظالماً مهيباً ، فقتلَه رجلٌ منْ ربيعةَ في =

وممّا يُستجادُ ذكْره من فعلاتِ الأجوادِ من مثل معنِ بنِ زائدةَ ، ما جاء أنَّه دخلَ يوماً على المنصور وقد أَسَنَّ ، واشتَعل رأْسُه شيباً ، فقال له المنصور: كبرتَ يا معن؛ فقال: في طاعتكَ يا أمير المؤمنين[1].

فقال: وإنَّك لَجلْدٌ.

فقال: على أعدائِكَ يا أميرَ المؤمنين.

فقال المنصور: وفيكَ بقيّةٌ..

قال معنٌ: هي لك يا أميرَ المؤمنين.

* وقال له المنصور يوماً: يا معنُ ، ما أكثر وقوع الناس في قومكَ!

فقال: يا أميرَ المؤمنين:

إنَّ العَـرانيـنَ تلْقَـاهَـا مُحسَّـدَةَ ولا تَـرى لِلئَـامِ النَّـاسِ حُسَّـادا[2]

= المسجدِ ، وقُتِلَ مكانَه ، فضُربَ به المثل فقيل: أجرأُ منْ قاتِلِ عقبة.
وقُتِلَ معنُ بعده غيلةً ، قتلَه قومٌ منَ الخوارجِ ، وهو يلي طَبرِسْتَان ، وكانَ قد كَتَبَ إلى عقبةَ: كفّ حتّى أكفّ.
فكتبَ إليهِ عقبةُ: لا واللهِ أوتعلم أيّنا أسبقُ زواملَه إلى النَّار.
(جمهرة الأمثال ١/ ٢٧٤)

(١) وفياتُ الأعيان (٥/ ٢٤٧) ، وسيرُ أعلام النّبلاء (٧/ ٩٧ و٩٨) ، والمستجادُ منْ فعلاتِ الأجْواد (ص ٢٥٢). وعُرِضَ هذا الكلام على عبدِ الرحمنِ بنِ زيد ـ زاهد أهل البصرة في زمانه ـ فقال: ويحَ هذا ، ما تركَ لربِّه شيئاً.

(٢) قُطوفُ الريحان (ص ٣٢١). والحسَدُ مرضٌ عظيمٌ يعْسُرُ عِلاجُه لأنَّ الإنسانَ الحسودَ لا يرضيه شيءٌ إلاّ زوالَ النعمة عنِ المحسود ، لذلك قيل: الحسودُ غضبان على القدر ، والقدرُ لا يَعْتبه ، قال منصورٌ الفقيه:
ألا قُـلْ لمـنْ بـاتَ لـي حَـاسـداً أتـدري علـىٰ مَـنْ أسـأتَ الأَدَبْ
أسـأْتَ علـىٰ الله فـي فَضْلِـهِ إذا أنْـتَ لـم تـرضَ مـا قَـدْ وهَـبْ
واقرأ كتابنا «الحَسَد» حيثُ تجد فيه أشياء مفيدة بإذن الله عز وجل.

الجَوَادُ السَّخِيُّ الشُّجَاعُ:

* لمعنِ بنِ زائدة أخبارٌ مطربةٌ في السَّخاءِ والكرمِ، وفي البأسِ والشَّجاعةِ، وله نظْمٌ جيّد[1]، وأشعارٌ جيّدة، وأكثرُها في الشَّجاعةِ والحماسةِ. وقد ذكَره أبو عبد الله بنُ المنجم في كتاب «البارع»، وأوردَ له عدَّة مقاطيع، ومنْ ذلكَ قولُه في خطاب ابن أخي عبد الجبَّار بن عبد الرحمن، وقد رآه معنٌ يتبخترُ بين السِّماطين، وكان قبل ذلك قد لقيَ الخوارجَ، ففرَّ منهم ولم يعقبْ:

هلاَّ مشيتَ كذَا غداةَ لَقِيتَهُم ... وصَبَرتَ عنْدَ الموتِ يا خطَّابُ

نجَّاكَ خوَّارُ العَنَانِ كأنَّه ... تَحتَ العَجاج إذا استحثَّ عقَابُ

وتركْتَ صَحْبَكَ والرِّماحُ تنوشُهم ... وكذَاكَ مَنْ قَعَدَتْ بهِ الأحسابُ

* وممَّا ينْسَبُ إليهِ قوله:

دعيْني أنفِق الأَمْوالَ حتَّى ... أعفُّ الأكرمينَ عنِ اللئامِ[2]

* ومن بدائعِ روائعِ أخبارِ معن وشعرِهِ، ما ذكره أبو عُبيدة قال: وقفَ شاعرٌ ببابِ معنِ بنِ زائدة حَوْلاً لا يصِلُ إليه، وكان معنٌ شديدَ الحجاب، فلمّا طالَ مقامه، سأل الحاجب أنْ يوصلَ له رقْعة ـ وكان الحاجبُ حَدباً عليه ـ فأوصلَ الرّقعة، فإذا فيها:

إذَا كانَ الجَوادُ لهُ حِجَابٌ ... فَمَا فَضْلُ الجَوادِ على البخيلِ؟

فألقى معنُ الرّقْعَة إلى كُتَّابهِ وقال: أجيبوه عن بيتهِ؛ فخلطُوا وأكثروا،

---

(١) قالوا: السّخيُّ مَنْ كانَ مسروراً ببذلهِ، مسرعاً بعطائِهِ، لا يلتمسُ عرضَ دنيا فيحبطُ عمله، ولا طلبَ مكافأةٍ فيسقطُ شكْره، ويكونُ مثلُهُ فيما أعطىٰ مثلَ الصَّائِدِ الذي يلقي الحبَّ للطَّير، لا يريدُ نفعَها، ولكنْ نفع نفسِه. (التذكرة الحمدونية ٢/ ٢٨٥ و٢٨٦).

(٢) انظر: نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس (ص ٢٢٧).

ولم يأتوا بمعنى ، فأخذَ الرقعةَ وكتبَ فيها:

إذَا كــانَ الجــوادُ قَليــلَ مــالٍ ولــمْ يُعْــذَرْ تَعلَّــلْ بــالحِجــابِ

فقال الشَاعر: إنَّا للهِ ، أيؤيسني منْ معروفهِ؟ ثمَّ ارتحلَ منصرفاً؛ فسألَ معنٌ عنْه فأُخْبِر بانصرافهِ ، فأتبعَهُ بعشرة آلافٍ وقال: هي لك عندنا في كلّ زَوْرةٍ[1].

* وشاعريّةُ مَعْنٍ ومقدرته علىٰ النَّظم قد شَهِدَ له بها فحولُ شعراءِ عَصْره ، من ذلك ما أورده الخطيبُ البغداديُّ قال: مدحَ مطيعُ بنُ إيّاس معنَ بنَ زائدة ، فقال له معن: إنْ شئتَ مدحتُك ، وإنْ شئتَ أَثَبتكَ ، فاستحيا من اختيارِ الثَّواب ، وكرهَ اختيار المدح وكتبَ إليه:

ثَنــاءٌ مــنْ أميــرٍ خيــرُ كَسْــبٍ لصَــاحــبِ مغْنَــم وأخــي ثَــراءِ

ولكــنَّ الــزَّمــانَ بَــرَى عِظَــامــي ومــا مثْــل الــدَّراهــمِ مــن دَوَاءِ

فأمَر لهُ بألفِ دينار[2].

* وكان معنٌ يدركُ بواطنَ الكلام ، ويعرفُ مواقعَه ، وينقدُ ما ضَعُفَ منه ، أو ما وضعَ في غيرِ موضعهِ ، فقد وردَ أنَّ حُسينَ بنَ مطير ـ شاعرٌ منْ مخضرمي الدَّولتَيْن الأمويّة والعباسيّة ـ قد وفدَ على معنِ بنِ زائدةَ لما وليَ اليمن ، فلما دخلَ عليه أنْشَدهُ:

أتيتُـكَ إذْ لَـمْ يبـقَ غيـرَك جـابـرٌ ولاَ واهِبٌ يُعطي اللُّهى والرَّغائبا

فقال له معنٌ: يا أخا بني أسد ، ليسَ هذا بمدحٍ ، إنَّما المدح قول نهارِ بن توسعة في مسمعِ بنِ مالك بن مسمع:

قَلَّــدتْــهُ عُــرا الأُمُــورِ نِــزَارٌ قَبْـلَ أنْ يهلِـكَ السَّـراةُ البُحـورُ[1]

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٨).

(٢) انظر خزانة الأدب (٥/ ٤٥٥).

* وأخبارُ جُودِ[1] معن ، وأخبارُ شعره وفهمه للشِّعر تملأُ الصَّفَحات بغررِ الفَوائدِ ، ودررِ القلائدِ ، وتصقلُ النَّفوسَ ، وتهذِّبُ الطِّباعَ ؛ فقد كان معنٌ أجودَ العربِ ، وكان يقال : حدِّثْ عن معنٍ ولا حرج[2] . فما أجمل الجُود وأكرِمْ بالأَجْواد[3] .

---

(١) الظَّاهرُ ـ والله أعلم ـ أنَّ الجودَ سجيَّةٌ وفطرةٌ قد فطرَ اللهُ النَّاسَ عليها ، ومن ادّعى الجودَ ولم تكنْ فيهِ بذرةُ السَّخاءِ ، فإنَّ الأفعالَ ستفضحُهُ وتكشفُ أحوالَه ، وتنشرُ مخبرَه .
فقد رُوي أنَّه عظُمَ على طيء موت حاتم ، فادّعى أخوهُ أنْ يخلفَه ، فقالت له أمُّه : هيهاتَ هيهات ، فشتّان ما بينَ خلقيكُما ، وضعْتُه فبقي سبعةَ أيّام لا يرضعُ حتّى ألقمتُ أحدَ ثديي طفْلاً منَ الجيرانِ ، وكنتَ أنتَ راضعاً أحدَهُما وآخذاً الآخرَ بيدِك ، فأنّى لكَ؟!
(٢) انظر : المعارف (ص ٣١٤) .
(٣) حقيقةُ الجودِ بذلُ المالِ ، قال ربُّنا عزَّ وجل : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، فالجودُ منْ جودِ اللهِ تعالى ، ومَنْ جادَ فإنَّ اللهَ يجودُ عليهِ ، والسَّخاءُ منَ الإيمانِ ، والإيمانُ في الجنَّة .
قال عليُّ بنُ عبد الله بن عبّاس : سَادَةُ النَّاسِ في الدُّنيا الأَسْخياء .
وقال بعضُ الحكماء : الجوادُ مَنْ جادَ بمالهِ وصانَ نفسه عنْ مالِ غيرهِ .
وقيل لعمرو بن عبيد : ما الكرم؟ فقال : أنْ تكونَ بمالِك متبرّعاً ، وعن مالِ غيرِك متورّعاً .
ويُقال : مراتبُ السَّخاء ثلاثة : سخاءٌ ، وجودٌ ، وإيثار .
فالسَّخاءُ إعطاءُ الأقلّ ، وإمساكُ الأكثر .
والجودُ إعطاءُ الأكثر وإمساكُ الأقلّ .
والإيثارُ إعطاءُ الكلّ من غيرِ إمْساك بشيءٍ ، وهو أشرفُ درجاتِ الكرَم ، وبه استحقّوا ثناءَ الله عزَّ وجلَّ فيهم في قولهِ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ ﴾ [الحشر : ٩] . فالجودُ زكاةُ السَّعادةِ ، والإيثارُ على النّفس موجبٌ لاسمِ الكرم .
وقال عليُّ بنُ الحسين : الكريمُ يبتهجُ بفضلهِ ، واللئيمُ يفتخرُ بمالِهِ .
وقال الحسينُ بنُ عليّ ـ رضي الله عنهما ـ : مَنْ جادَ سادَ ، ومنْ بخلَ رَذُل ، وإنَّ أجودَ النَّاس مَنْ أعطى مَنْ لا يرجوه . =

* ومن أخبارِ وذكاءِ معنٍ ما رواه عمر بنُ شبّة قال: اجتمعَ عند معنِ بن أبي زائدة ، ابنُ أبي عاصية ، وابن أبي حفْصَةَ ، والضَّمريّ ، فقال: لينشدني كلّ واحدٍ منكم أمدحَ بيتٍ قال فيَّ ، فأنشدَهُ ابنُ أبي حفصة:

مَسَحتْ ربيعةُ وجْهَ معنٍ سَابقاً   لمَّا جَرى وجرىٰ ذَوو الأَحْسَابِ
خلَّىَ الطَّريقَ لهُ الجيادُ قَواصِراً   منْ دونِ غايتهِ وهُنَّ كَوابي

فقال له معنٌ: الجود يعثرُ ، فيُمْسح وجهه من العثَارِ والغبار وغيرهما. وأنشده الضَّمريّ:

أنْتَ امرؤُ همّك المعَالي   ودلو معروفكَ الرَّبيعُ
وشأْنُك الحمدُ نَشْتريهِ   يشيعُه عنْكَ ما يُشيعُ

فقال له: ما أحسنَ ما قُلْتَ! إلا أنَّك لمْ تُسَمِّني ولم تذكرني ، فمن شاءَ انتحله؛ وأنشده ابن أبي عاصية:

إنْ زالَ معنُ بني زيادٍ لم يزَلْ   لِنَدى إلىٰ بلدٍ بعيرُ مُسَافر

ففضَّلَه عليهم[1].

= وقيل ليزيدَ بنِ معاويةَ: ما الجودُ؟ قال: أنْ تعطيَ المالَ مَنْ لا تعرف ، فإنَّه لا يصيرُ إليهِ حتّى يتخطّى مَنْ تعرِف.
وقيل: الجود أنصرُ منَ الجنود ، ومَنْ بخلَ بمالهِ سَمَح بعرضِهِ.
وقال أحمدُ بنُ محمد بنِ عبد ربه: لو لمْ يكنْ في الكرمِ إلا أنَّه منْ صفاتِ اللهِ تعالى ، تسمّى بها فهو الكريمُ عزّ وجلَّ. وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه».
وقيل لعبدِ الله بنِ جعفر: إنَّك قد أسرفْتَ في بذلِ المالِ. قال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد عوّدني بعادةٍ أنْ يتفضّل عليّ ، وعوّدته أنْ أتفضّل علىٰ عبادِهِ ، وأخافُ أنْ أقطعَ العادةَ فيقطعَ عنّي.

(١) انظر: أمالي المرتضى (١/ ٢٢٦).

* وذكرَ الصَّاحبُ بنُ عباد[1] ، أنَّه قرأَ في أخبارِ معنِ بنِ زائدة الشَّيباني : أنَّ رجلاً قال له : احملني أيّها الأمير ، فأمَرَ له بناقةٍ وفرسٍ وبغلٍ وحمارٍ وجاريةٍ ثمَّ قال : لو علمتُ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى خلقَ مركوباً غير هذا لحملتُك عليهِ ، وقد أمرنَا لك منَ الخزِّ بجُبَّة ، وقميصٍ وعمامةٍ ودرَّاعةٍ وسراويل ومنديل ومُطْرَف ورداء وكساءٍ وجوربٍ وكيسٍ ، ولو علمنا لباساً آخر يتّخذُ منَ الخزّ لأعطيناكه[2] .

* وممّا يُستحلىٰ ذكْرُهُ ، وتُسْتَجلى محاسنُه ، ويستجادُ تدوينهُ ،

---

(١) الصَّاحبُ بنُ عبّاد، أبو القاسم إسماعيلُ بنُ أبي الحسن عباد بنُ العبّاس الطَّالقاني ، كانَ نادرة الدّهرِ ، وأعجوبةَ العَصْر في فضائِله ومكارِمه وكرمِه ، قال عنه الثَّعالبيّ في «اليتيمة» : ليستْ تحضُرني عبارةٌ أرضَاها للإفصاحِ عن علو محله في العِلْم والأدَبِ ، وجلالَةِ شَأْنِهِ في الجودِ والكرم ، وتفرّده بالغاياتِ في المحاسنِ ، وجمعهِ أشتاتَ المفاخرِ ، لأنَّ همَّةَ قولي تنخَفضُ عن بلوغِ أدنىٰ فضائِلهِ ومعاليْهِ ، وجَهْدَ وصفي يقصرُ عن أيسرِ فواضِلهِ ومَسَاعِيهِ.
* وقال أبو بكر الخَوارزميّ في حقّه : الصَّاحبُ نشأَ منَ الوزارةِ في حجْرِها ، ودبَّ ودرَجَ من وكرِها ، ورضعَ أفاويقَ درّها ، وورِثَها عن آبائِهِ ، كما قال أبو سعيد الرّستميّ في حقه :

وَرِثَ الـوَزَارَةَ كـابِـراً عـنْ كـابـرٍ ... مَـوصُـولَـةَ الإسنـادِ بـالإسنـادِ
يـروي عـنِ العبَّـاسِ عبـادٌ وزا ... رتُـه وإسمـاعيـلُ مـن عبَّـادِ

* واجتمعَ عنده منَ الشُّعراءِ ما لم يجتمعْ عند غيرِه ، ومدحُوه بغررِ المدائحِ ، وكانَ حسنَ الأجوبةِ سريعَها ، ونوادرُه كثيرةٌ ، وله مصنّفاتٌ تشهدُ بعلوِ كعبه في العربيّةِ ، ولهُ رسائلُ بديعة ، ونظمٌ جيّدٌ ، فمنه :

وشَـادنٍ جمـالُـه ... تقْصُـرُ عنْـه صِفَتِـي
أهـوىٰ لتقبيـلِ يـدي ... فقلـتُ قبّـلْ شَفَتـي

وُلدَ الصاحبُ بنُ عبّاد سنة (٣٢٦ هـ) بإصْطَخر ، وتوفيَ سنةَ (٣٨٥ هـ) في الرّي ، وأخباره مشهورةٌ منثورةٌ في كتبِ الأدب والتّراجم.
(وفيات الأعيان ١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٣)

(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٢٩) ، والمستجاد (ص ٢٣٦).

ويعْذُبُ تكرارُه ، وما ورد بأنَّ يحيىٰ بنَ منصور الذُّهليّ كان قد تنسَّكَ وتركَ الشّعر ، ولما وليَ معنُ بنُ زائدة اليمن ، بلغَه أفعالُ معنٍ وجودُهُ وكرمُهُ ، فوفدَ إليه ومدحَه ، فقال مروانُ بنُ أبي حفصةَ في ذلك :

لا تَعدمُوا راحَتَيْ مَعْنٍ فإنَّهما ... بالجودِ أفْتَنَتَا يحيىٰ بنَ منْصُورِ

لمَّا رأىٰ راحَتي معنٍ تَدَفَّقَتَا ... بنائِلٍ منْ عطاءٍ غيرِ منْزُورِ

ألقىٰ المُسوحَ التي قد كان يلبَسُها ... وظلَّ للشِّعْرِ ذا رَصْفٍ وتحبيرِ[1]

* وذكر مروانُ جودَ معنٍ وسخاءَه وشجاعته من قصيدةٍ عينيةٍ طويلةٍ منها :

ومَا الغَيْثُ إذْ عمَّ البلادَ بصوبِهِ ... على النَّاسِ منْ معروفِ معنٍ بأَوْسَعَا

لهُ راحتَانِ الحتْفُ والغَيْثُ فيهما ... أبىٰ اللهُ إلاَّ أنْ تضرَّ وتَنْفَعا

نجيبُ مناجيبٍ وسيِّدُ سادةٍ ... ذُرا المجدِ منْ فَرعَيْ نزارٍ تفرَّعا[2]

* وتذكرُ المصادرُ وكتبُ الأَسْمارِ والأدبِ أنَّ معنَ بنَ زائدةَ أُتي بثلاثمئة أسير ، فأمر بضربِ أعناقِهم ، فقال له شابٌّ منهم: يا أخا بني شَيبان ، نناشِدكَ اللهَ ألا تقتلنا عطاشاً! .

فقال : اسقوهم ماءً .

فلمّا شربوا قال : يا أخا بني شَيبانَ ، نناشِدكَ اللهَ أنْ لا تقتل أضيافَك .

فقال : أطلقوهم[3] .

* ويروي التَّنوخي هذه القصَّة على النَّحوِ الآتي فقال : أُتيَ معنُ بنُ زائدة بأسرى ، فعرضَهم على السَّيفِ ، فقال له بعضُهم : نحن أسراكَ أيّها الأمير

---

(١) انظر : ديوان مروان (ص ٥٧) ، والأغاني (١٠/ ١١٥) مع الجمع والتصرّف اليسير .

(٢) انظر : ديوان مروان (ص ٦٤ و٦٥) والقصيدة تعد (٢٨ بيتاً) ومعنى : «الصَّوب» : المطر . و«المعروف» : الجود . و«النَّجيب» : الفاضل الكريم السّخي .

(٣) أمالي المرتضى المسمى غرر الفوائد ودرر القلائد (١/ ٢٢٦ و٢٢٧) .

ونحنُ نحتاجُ إلى شيءٍ منَ الطَّعامِ ، فأمَر لهم بذلك ، فأتي بأنطاعٍ فبُسطَتْ وأُتي بالطَّعامِ ، فقال لأصحابه: أمعِنُوا في الأكل ، ومعنٌ ينظُرُ إليهم ويتعجَّبُ منهم ، فلمّا فرغُوا منْ أكلِهم قامَ فقال: أيّها الأمير ، قد كُنّا قَبْلُ أسْراكَ ، ونحنُ الآن أضيافُك ، فانظرْ ماذا تصْنَع بأضيافِك. فعفا عنهم وخلَّى سبيلَهم. فقال له بعضُ مَنْ حضرَ: ما ندري أيُّها الأميرُ أيّ يومَيْكَ أشْرف: يومُ ظفرك ، أو يومُ عفْوك[1]!

وذكرَ صاحبُ شرطة معْنٍ قال: بينما أنا على رأسِ معن ، إذا براكبٍ يوضع ، فقال معنٌ: ما أحسبُ الرجلَ يريد غيري ، ثمَّ قال لحاجبهِ: لا تحجبه ، فجاء حتّى مثُلَ بين يديه وقال:

أصْلَحَكَ اللهُ قلَّ ما بِيَدي ... فما أطيقُ العيالَ إذْ كثَروا
ألحَّ دهْرٌ رمىٰ بكلْكَلِهِ ... فأرسَلوني إليكَ وانْتظرُوا

فقال معنٌ وأخذته أريحيّةٌ: لا جرمَ ، واللهِ لأعجلنَ أوبتكَ. ثمَّ قال: يا غلام ، ناقتي الفُلانية ، وألف دينار ، فدفعَها إليه وهو لا يعرفُه[2].

* وأتى أعرابيٌّ إلى معنٍ ومعه نطْعٌ فيه صبيٌّ حينَ ولد ، فاستأذنَ عليه ، فلمّا دخلَ دَهْدَهَ الصَّبي بين يديهِ وقال:

سمَّيْتُ مَعْناً بمعنٍ ثمَّ قُلْتُ لَهُ ... هذا سمي فتىً في النَّاسِ محمودُ
أنتَ الجوَادُ ومنْكَ الجودُ نَعْرفُه ... ما مثْلُ جودِكَ معهودٌ وموجُودُ
أمسَتْ يمينُك منْ جودٍ مصوّرةً ... لا بلْ يمينُك منْها صُوِّرَ الجودُ

قال معن: كم الأبياتُ؟

---

(١) المستجاد من فعلات الأجواد (ص ١٩١).

(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣٦) والتّذكرة الحمدونية (٢/ ٧٦) ، وذِكرَ ابنُ حمدون أنَّ القصَّة حدثَتْ مع عمرَ بنِ هبيرة ، ثم نَقَل قولَ المبرّد قال: بلغَني أنَّ الخبرَ لمعن ، وذلك عندي أصحّ.

قال: ثلاثةٌ.

قال: أعطوه ثلاثمئة دينار، لو كنتَ زدتَ لزدْنَاكَ.

قال: حسْبُك[1] ما سمعْتَ، وحَسْبي ما أخذتُ[2].

* وذكر التَّنوخي أنَّ رجُلاً أقامَ على بابِ معنٍ مدّةً لا يصلُ إليهِ، فلمّا طال مقامه، كتبَ إليهِ رقعةً فيها:

فَما في يديكَ الخيرُ يا مَعْنُ كلّه ... وفي الأرضِ أسبابٌ وفيها مذَاهبُ

سَتَأْتي بنَاتُ العُمْرِ مَا أَنْتَ صَانعٌ ... إذا فُتّشَتْ عند الإيابِ الحقائبُ

---

(١) «حَسْبُك»: حَسْبُ، تكون:
١ ـ بمعنى «كِفاية»، فلا تُستعْمَلُ إلاَّ مُضَافة، وتُعرب حَسَبَ موقعها في الجملةِ، فتأْتي نَعْتاً كما في قولِكَ: «مررتُ بتلميذٍ حسْبُك منْ تلميذٍ». وحَالاً نحو: «هذا عبدُ اللهِ حسْبُك من مجتهدٍ». ومبتدأ نحو قولهِ عزّ وجلَّ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨]. واسْماً للنّواسخِ نحو قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢]... إلخ...
ومنَّ التّراكيب الشَّائعةِ: حَسْبي اللهُ، وبحسب الله؛ ويُعْرَبُ التّركيبُ الأوّلُ كالتّالي: «حَسْبي»: مبتدأٌ مرفوعٌ بالضَّمةِ المقدّرة علىٰ ما قَبْل ياءِ المتكلّم منعَ منْ ظهورهَا اشتغالُ المحلّ بالحركةِ المُنَاسِبَةِ لليَاءِ، وهو مضافٌ. والياءُ ضميرٌ متّصل مبني على السّكون في محلّ جرٍّ بالإضافةِ. «الله»: لفظُ الجلالة خبرٌ مرفوعٌ بالضّمة لفظاً ويُعْربُ التّركيبُ الثّاني كَالتّالي: «بحَسْبي»: الباءُ حرفُ جرّ زائد مبنيّ علىٰ الكَسْر لا محل له منَ الإعرابِ. «حَسْبي»: مبتدأ مرفوع.
٢ ـ بمعنى «لا غير»، فتبنَى على الضم وتعرب نعتاً إذا كان الاسم قبلها نكرة نحو: رأيت تلميذاً حسب. وحالاً إذا كان الاسم قبلها معرفة، نحو: شاهدت زيداً حسب. و«حَسْبَ»: في المثال الأول اسمٌ مبنيٌّ على الضم في محلّ نصبِ صفة لـ: زيداً. و«حَسْب»: في المثالِ الثّاني اسمٌ مبنيٌّ على الضّمّ في محلّ نصبِ حال.
وقد تُزادُ عليها الفَاء نحو: نجحَ الطّالبُ فحسْبُ.
فالفاءُ حرفٌ زائدٌ مبنيٌّ على الفتح لا محلَّ له منَ الإعراب.
وحسبُ: اسمٌ مبني على الضّم في محلّ رفعِ نَعْت.

(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٤٢٠).

ووكلَ مَنْ يوصلها إليهِ وسارَ ، فلمّا وصلتْ إليه وقرأَها ، أمرَ بِردِّهِ وقال: واللهِ لَيُفَتّشَنَّ عن خيرٍ كثير ، وأمرَ فمُلئَتْ حقيبته دراهم[1].

* ومنَ اللطائفِ «المَعْنِيَّةِ» ـ نِسْبَـةً إلى مَعْن ـ في رحابِ الجودِ ما أوردَه الأتليديُّ في «نَوادره» قال: كانَ معنُ بنُ زائدةَ في بعضِ صُيوده ، فعطشَ فلم يجدْ مع غلمانهِ ، فبينمَا هو كذلك ، وإذا بثلاثِ جَوارٍ قد أقبلنَ حاملات ثلاثَ قِربٍ ، فسقيْنَه ، فطلبَ شيئاً منَ المالِ مع غلمانه فلم يجدْهُ ، فدفَع لكلّ واحدةٍ منهنَّ عشرة أَسْهُم منْ كنانتِهِ نصولُها من الذَّهب ، فقالت إحداهنَّ: ويلكنَّ ، لم تكن هذه الشّمائل إلا لمعنِ بنِ زائدة ، فلْتَقلْ كلُّ واحدةٍ منكنّ شيئاً منَ الأبياتِ ، فقالتِ الأولى:

يُـركِّـبُ فـي السِّهـامِ نُصُـولَ تِبْـرٍ ... ويَـرمـي للعِـدَا كَـرَمـاً وَجُـودَا
فللْمَـرضَـىٰ عـلاجٌ مـنْ جِـرَاحٍ ... وأكْفَـانٌ لمـن سَكَـنَ اللّحُـودَا

* وقالتِ الثَّانيةُ:

ومُحـاربٌ مـنْ فـرطِ جُـودِ بنَـانِـهِ ... عَمَّـتْ مكـارِمُـهُ الأقـاربَ والعِـدَا
صيغَتْ نُصولِ سهامهِ من عَسْجَدٍ ... كـي لا يفـوتُهُمـا التَّقـاربُ والنَّـدى

وقالتِ الثَّالثة:

ومن جُودِهِ يرمي العداةَ بأسْهُمٍ ... منَ الذَّهبِ الإبريزِ صيْغَتْ نصولُها
لينْفِقَهـا المجـروحُ عنـد انقطـاعِـهِ ... ويشتـري الأكفـانَ منْهـا قتيلُهـا[2]

---

(١) انظر: المستجاد (ص ١٨٦ و١٨٧). ومعنى «بنات العمر»: أو بناتَ العمْ ، كبناتِ الدَّهر من اصطلاحاتِهم ، وبناتُ الدّهر: حوادثهُ ومصائبهُ ، أو اللَّيالي والأيّام. ويقولُ حاتم: «فدتكَ بناتُ الدَّهرِ أمي وخالتي». و«ليفتشنَّ»: الأَوْلىٰ ليتكشفنَّ ، وتكشّف: ظهر.

(٢) انظر: نوادر الخلفاء المسمّى إعلام الناس (ص ٢٧٩). والقصّةُ ـ كما يراها القارىءُ الكريم ـ مصنوعةٌ ومصوغةٌ وموضوعةٌ ، ولكنْ أثبتّها كاملةً وحرفياً لطرافتها. ومنَ =

* ومن القصصِ الجميلِ الذي حُكي عن كريمِ الكُرماء، وفارسِ الأجوادِ في عَصْرِه معن بن زائدة، والذي كان يُقال عنه: حدّث عن البحرِ ولا حَرج، وعن معنٍ ولا حَرَج، ما رويَ عن سخائِهِ وفراسَتِهِ، أنَّه جاءَه شاعرٌ ممن يؤمّل جودَه، فَمُنِعَ من الدخول عليه مدّة منَ الزَّمنِ، ولم يتهيأ له الدُّخول، فلاحظَ أنَّه يخرج في رابعةِ النَّهار يغتسلُ في برْكَةِ بستانٍ له تغذِّيها قنطرةٌ من خارجِ البُستان، فكتبَ بيتاً في قطعةِ خشب، ثمَّ رمَاها في القنطرةِ وقْتَ وجودِ مَعْن في البركة، فلمّا وصلَتْ إليه قرأَ ما كتب عليها، فإذا هو مكتوبٌ فيها هذا البيت:

أيا جُودَ مَعْنٍ نَاجِ مَعْنَاً بِحَاجَتي فَمـا لـي إلىٰ مَعْـنٍ سـواكَ رسُـولُ

فخرجَ وجلسَ في مجلسهِ، وليس وقت جلوس، وقال: عليَّ بناقشِ هذا البيت، فتفرَّقوا يطلبون الرَّجُلَ الشَّاعرَ، فأتوه به، فقال له معنٌ: يا هذا، رسولُكَ قد بلَّغَ، ما حملك علىٰ ما فعلتَ من الكتابةِ والنَّقْشِ على الخشَبَـةِ؟!

فقال الرجلُ: منذ سنةٍ وأنا أحاولُ الدُّخولَ عليكَ، ومنعني من الانصرافِ الثَّقة بحصولِ مطلوبي[1].

فأقسمَ معنٌ ألا يتَّخذ حاجِباً بعدها، وأعطاهُ ألفَ درهم وجلسَ أربعينَ

= الملاحظِ أنَّ هذه القصَّة منْ نَسْجِ أحدِ هُواة الأدبِ والقصّةِ والشّعْر، ولكنَّه هاوٍ لم يتقنْ حرفةَ الأدبِ إتقاناً صحيحاً، حيثُ لغتُها ركيكة وغيرُ قوية والحبكةُ فيها ضعيفةٌ هزيلةٌ، ونظْمُ الشّعرِ علىٰ لسانِ الجوارِ تظهرُ عليهِ فحولةُ الرّجالِ لا رقّة النّساء، ثمّ كيف يخرجُ مَعْنٌ الأمير الفارس إلى الصَّيد ولا يأخذُ عبيدهُ الماء، بل كيف ينسى المالَ ولا ينسىُ نصالَه الذَّهبية!!!؟... و...؟!

(١) انظر: قطوف الريحان (ص ٣٢١) ونوادر الخلفاء (ص ٢٧٦ و٢٧٧) مع الجمع والتصرف؛ وفي النفس شيء من هذه القصة وأمثالها.

يوماً ، كلَّما نظرَ إلى الخشبةِ يسألُ عنه ، فإذا حضرَ أعطاه ألفَ درهم ، فحسَدَه بعضُ النَّاس وقال: لو اطَّلعَ أميرُ المؤمنين على ما أنفقَ معنٌ منْ بيتِ المال عليكَ عزَلَه واستردَّه منك؛ فشردَ الرَّجلُ ، فلما كان اليوم الحادي والأربعون سألَ عنه فلم يُوجدْ ، فقال: سبحان اللهِ لقد ظَنَّ بنا غير الذي أردنا به ، واللهِ لو مكثَ عمره لأعطيته ألف درهم كلّما نظرتُ هذا البيت.

* وهناك قصَصٌ شعريّة تحكي جودَ معنِ بنِ زائدةَ ، ولعلَّ معظم هذه القصص منْ نسجِ القُصَّاص ، وبعض المخلّدين في السُّجون ممن كانوا يحترفون صناعةَ الأدب.

* ومن تلكم القصص هذه القصّة المشهورة المتعالمَة بين النَاس والتي تحكي حلْمَ معنٍ وتفصُح عن جُوده ، فقد ذكر «ديابُ الأيليديّ» وغيره أنَّ مَعْناً كان لا يغيظُ أحداً ، ولا أحدٌ يغيظه ، فقال بعضُ الشُّعراء: أنا أغيظُه لكم ، ولو كان قلبُه من حَجَرٍ ، فراهنوه على مئةِ بعير؛ إنْ أغاظَه أخذها ، وإنْ لم يُغِظْهُ دفعَ مثلها.

* وعمدَ الرَّجل إلى جملٍ فذبَحه وسلَخه ، ولبسَ الجلْدَ مثل الثَّوب ، وجعلَ اللحمَ منْ خارجٍ ، والشَّعْر من داخِلٍ ، والذُّباب يقعُ عليه ، ولبسَ برجليه نعلَيْن من جلدِ الجملِ ، وجعل اللحم من خارجٍ والشَّعر من ناحية رجليه ، وجلس بين يدي معنٍ على هذه الصُّورة المشروحة[1] ، ومدَّ رجليه في وجههِ وقال:

أنَــا واللهِ لا أُبْــدِي سَــلامــاً   علــىٰ معْــنِ المسمّــى بــالأَميــرِ

(١) لاحظِ الدَّجَلَ والكذبَ والسَّذاجَةَ في هذا الكلام السَّخيفِ الذي يدلُّ علىٰ حماقةِ ناسجِهِ ، وعلى ضعف خياله ، فهل كانَ معنُ بنَ زائدَة سهلَ الحجابِ والدّخول عليه إلى هذا الحدّ وبهذه الصّورة ، ولو كان أحْلَم العرب ، ولكنَّ القصّاص والنّساجون لهم أفانين في هذا المجال ليروّجوا بضاعتهم الهزيلة.

فقال له معنٌ: السَّلام لله!! إنْ سلَّمتَ ردَدْنا عليك وإنْ لم تسلّمْ ما عتبْنَا عليكَ. فقال الشاعر:

ولا أَنْــزِلْ بِــلاداً أنْــتَ فيهــا   ولــو حُــزْتَ الشَّــآمَ مــعَ الثُّغــورِ

فقال له معنٌ: يا هذا، البلادُ بلادُ الله عزَّ وجلَّ، إنْ نزلتَ فمرحباً بك، وإنْ رحلتَ كانَ اللهُ في عونكَ وفي ترحالك. فقال الشَّاعر وقد أرادَ أنْ يستفزَّه:

وأرحــلُ عــنْ بــلادِكَ ألــفَ شَهْـرٍ   أجِــدُّ السَّيْــرَ فــي أعْلَــىٰ القُفُــورِ

فقال له معنٌ: مصحوباً بالسَّلامة. فقال الشاعر ـ وقد أراد أنْ يغيّر موجةَ الإثارة كما زعموا ـ:

أتــذكــرُ إذْ قميصُــك جلْــدَ شَــاةٍ   وإذْ نَعْــلاكَ مــنْ جلْــدِ البَعيــرِ

فقال له: أعرفُ ذلك وأذكرهُ ولا أنكره. فقال الشَّاعر:

وَتــأْوي كُــلَّ مصْطَبَــةٍ وسُــوق   بــلا عبْــدٍ لــديْــكَ ولا وَزيــرِ

فقال معنٌ: ما نسيتُ ذلك يا أخَا العرب. فقال الشَّاعر:

ونــومُــك فــي الشِّتــاءِ بــلا لحــافٍ   وأكلُــكَ دائمــاً خبْــزَ الشَّعيــرِ

فقال: الحمدُ لله على كلّ حال. فقال الشَّاعر:

وفـــي يمْنـــاكَ عكّـــازٌ قـــويٌّ   تــذودُ بــه الكــلابَ عــنِ الهَــريــرِ

فقال له: ما خفي عليك خبرها إذ هي كعصَا موسىٰ عليه السَّلام. وتحيّر الشَّاعرُ من معنٍ وأسقطَ في يدهِ، فحاول أن يثيرَه من ناحيةٍ أخرى فقال:

فَسُبْحَــانَ الــذي أعْطَــاكَ مُلْكــاً   وعلَّمَــكَ القُعَــودَ علــى السَّــريــرِ

فقال له معنٌ: بفضلِ اللهِ لا بفضلِكَ. فقال الشَّاعر:

فَعَجِّــل يــا بــنَ نــاقِصَــةٍ بمــالٍ   فــإنّي قــد عــزمْــتُ علــى المسيــرِ

فأمر له معنٌ مئة دينار، ولكنَّ الشَّاعر كانتِ السَّفاهة منْ عناوينِ إثارته

لمعنِ بن زائدة ، وعلى الرّغم منْ أنَّه دعاه بابن ناقصة ، لكنَّ ذلك لم يُثِرْ ولم يغْضِبْ مَعْناً ، هناك اندفعَ يقول:

قليلٌ ما أمرتَ بهِ فإنّي لأطْمَعُ منْكَ الشَّيءِ الكثيرِ

فأمرَ له بمئتي دينار أخرى ، فقال الشَّاعر:

فَثلِّث إذ ملكتَ الملك رزقاً بلا عقلٍ ولا جاهٍ خطيرِ

فأمرَ له بثلاثمئةِ دينارٍ ، فقال الشاعر:

ولا أدَبٍ كَسِبْتَ بهِ المَعالي ولا خُلُقٍ ولا رأيٍ منيرِ

فأمرَ له بأربعمئةِ دينار ، فقال الشاعر:

فمنْكَ الجودُ والإفْضَالُ حقّاً وفيضُ يديْكَ كَالبحر الغَزير

فأمر له بخمسمئةِ دينار ، ومازال يطلبُ منه الزّيادة حتى استكمل ألفي دينار أخرى ، فأخذَها وانصرفَ متعجّباً من حلمِ معْنٍ وجُوده وعدمِ انتقامهِ منه ، ثمَّ قال في نفسه: مثل هذا لا ينبغي أنْ يُهجىٰ بل يُمْدَحَ ، واغتسلَ ولبس ثيابه ورجعَ إليه ، فسلَّم عليه وامتدحَه ، واعتذرَ له بأن الذي حملَه على هجوه تلكم المئة بعير التي صار الرّهان عليها في نظير إغاظَتِهِ ، فأمرَ له بمئةِ بعير يدفعُها في نظرَ الرّهان ، وبمئةِ بعيرٍ أخرى لنفسه ، فأخذَها الرَّجل وانصرفَ مسروراً[1] .

---

(١) انظر: نوادر الخلفاء المسمّى إعلام الناس (ص ٢٨١ ـ ٢٨٣) ، وقطوف الريحان (ص ٣٢٠) مع الجمع والتّصرف. وانظر: شذرات الذهب (٢/ ٢٣٨ و٢٣٩) والقصّة كما يرَاها القارىءُ الحبيبُ الكريمُ محبوكةَ الصُّنْع ، حاولَ واضعها ومؤلّفها أنْ يجيدَ قَدْر استطاعته في ترتيبها وصَوغها وتركيبها ، ونحنُ بدورنا نشكّ في صحّتها وحدوثِها واستحالتِها. فهي علىٰ الأغلبِ منْ وضع وصُنْع السُّمَّار الذين جعلُوا منَ الأباطيلِ أسماراً يتحلّون بها في قطعِ أوقاتِهم وأوقاتِ النَّاس وتسْليتهم ، وزيادةِ رصيدٍ آخرَ إلى كتبِ الأدبِ والأخبار ، وإلصاق قصّة إلى واحدٍ منَ المشاهيرِ لتسيرَ بين النَّاس ، مع ذكْر المشوّقاتِ والمُثيراتِ. وقصّةُ مَعْنٍ مع هذا الشاعر =

* ومما يُضافُ إلى رصيدِ معنِ بن أبي زائدة في ميدان الجودِ ، ما ذكرَه ابنُ مفْلحٍ قال: قال معنُ بنُ أبي زائدةَ لرجلٍ من بني شَيبان: ما هذه الغيبَةُ المنساة؟

قال: أبقىٰ الله الأمير في نِعَم زائدة ، وكرامةٍ دائمة ، ما غابَ أيّها الأميرُ عن العين مَنْ ذكرَه القلْبُ ، ومازالَ شوقي إلى الأميرِ شديداً ، وهو دون ما يجب له عليَّ وذكْري له كثيرٌ ، وهو دون قَدْره عندي ، ولكنْ جفوةُ الحجابِ ، وقلّةُ بِشْر الغِلْمان يمنعاني من الإتيان.

فأمرَ بتسهيلِ أمرهِ ، وأحسنَ مثواه[1].

* وهكذا عَلِمَ معنٌ أنَّ الجودَ سيبقى وسيزول كلّ شيء، ولله درّ القائل:

كُلُّ الأُمورِ تزولُ عَنْكَ وتنقَضِي إلاَّ الثَّناءَ فإنَّه لكَ بَاقِ
لو أنّني خُيِّرتُ كُلَّ فَضيْلَةٍ ما اخْتَرْتُ غيرَ مكَارمِ الأَخْلاقِ

* ومن القصصِ المغناجِ الذي يداعبُ الخواطر والأحاسيسَ ، ويصقل الطّباع ويهذّب النّفوس ، ويجلبُ الفائدة ، ما ورد أنَّ أبا جعفر المنصور لما ولّىٰ معن بن زائدة اليمن قصَدَه قومٌ منْ أهلِ الكوفةِ ، فنظرَ إليهم وهم في هيئةٍ رديئةٍ ، فأنشأ يقول:

إذا نوبةٌ نابتْ صديقَك فاغْتَنِمْ مَرمَّتَها فالدَّهْرُ في النَّاسِ قُلَّبُ
فأحْسَنُ ثَوبَيْكَ الذي هو لابِسٌ وأفْرَهُ مُهْرَيْكَ الذي هو يُرْكَبُ
وبَادِرْ بمعروفٍ إذا كنْتَ قَادِراً زَوالَ اقتدارٍ أو غنىً عنك يذهبُ

= المتنكّر تشبهُ إلى حدّ ما ، ما يسمّونه اليومَ «الكاميرا الخفيّة» التي تُعْرَضُ في الشّاشاتِ الصَّغيرةِ والقَنواتِ الفضائية ، بَيْدَ أنَّ قصّة مَعْنٍ مصنوعة لكنّها تتّفقُ في الإثارة مع الكاميرا الخفيّة ، والقارىء الحصيفُ يدرك أنَّ قصة معن والشّاعر هي تبيانُ مثالبِ معْنٍ وقومه بالإضافةِ إلى أشياء أخرى يدركُها الفطن.

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٧٤).

فقال له رجلٌ: ألا أنشدكَ أحسنَ منْ هذا لابنِ هرمة؟

قال: هات. فأنشأَ يقول:

وللنَّفْسِ تَارَاتٌ تُحَلُّ بها العُرَا ... وتسْخُو عن المالِ النُّفوسُ الشَّحائِحُ
إِذَا المرءُ لم ينفَعْكَ حيّاً فنفْعُهُ ... أقلُّ إذَا ضُمَّتْ عليهِ الصَّفَائِحُ
لأيَّةِ حَالٍ يمنعُ المرْءَ مَالَه ... غَداً فَغَداً والموتُ غادٍ ورائحُ

فقال له معنٌ: أحسنتَ واللهِ، وإن كانَ الشِّعر لغيرِك، يا غلامُ أعْطِهِ أربعة آلاف.

فقال الغلامُ: أجعَلُها دنانير أو دراهم؟

قال معنٌ: واللهِ لا تكون همّتُك أرفعَ من همّتي، يا غلامُ صَفِّرْهَا له[١].

* وهكذا رأىٰ معن أنَّ المالَ لا يبقىٰ، فأبقىٰ له حَمْداً، وأبقى لنفسهِ ذكْراً حَميداً، فكان كما وصفَ بعضُهم أحد الأجواد:

فأنْتَ النَّدىٰ وابنُ النَّدىٰ وأخُو النَّدى ... حليفُ النَّدى ما للنّدىٰ عنْكَ مذْهَبُ

* وكان قيسُ بنُ عاصم الصَّحابي ـ رضي الله عنه ـ يقولُ: الجوادُ سيّدُ قومِهِ[٢]. والحقيقة؛ فالجوادُ الكريمُ سيّد[٣] قومه وغيرهم، إذ الجودُ

---

(١) الآداب الشّرعية (٣/ ٣١٤)، والمعنى اجعلها من الذهب.

(٢) انظر: الآداب الشرعية (٣/ ٣١٣).

(٣) «سيد»: السَّيّد، يُطلَقُ على الرَّبِّ المالِك، والشَّريفِ، والفاضِلِ، والكريمِ الحكيمِ، ومتحمّل أذى قومه، والزّوجِ، والرئيس، والمقدّم.
وأصلُه منْ سَادَ يَسُود، فقُلبتِ الواو ياءً لأجْلِ الياء السَّاكنة قَبْلها، ثمَّ أُدْغمتْ.
ووزن سَيِّد: فَيْعل، وهمْ سَادة، وزنهُ: فَعَلَة بالتّحريك، مثل: سريّ وسَرَاة، ولا نظير لهما، يدلُّ على ذلك أنَّه يُجْمَعُ على سَيائِد بالهمز مثل: تبيْع وتبائِع، وأفيْل وأفائِل. وعند البصريّين وزن سيّد: فَيْعِل، وجمعَ على فَعلَة، كأنَّهم جمعوا سائِداً مثل: قائِد وقادَة، وذائِد وذادة، وقالُوا: إنَّما جَمَعَتِ العربُ السَّيِّد والجيّد على سيائِد وجيائِد بالهمز على غيرِ قياس، لأنَّ جمعَ فَيْعَل فَياعِل بلا همز. =

يكسبُ صاحِبَه هيبةً ومكانةً في نفوسِ النَّاس؛ أمّا البخيلُ فهو عنوان كلّ قبيح ، قال منصور الفقيه:

مَـا بـالبخيـلِ انتفـاعٌ والكلْـبُ ينفـعُ أهْلَـهْ
فَنَـزِّهِ الكَلْـب عـنْ أن تـرىٰ أخَـا البُخْـل مثْلَـهْ

كـيْفَ مَـاتَ مَـعْـن؟

* في سنةِ (١٥٢ هـ) ماتَ معنُ بنُ زائدةَ في سِجِسْتَان لمَّا كان والياً عليها؛ وسببُ موته أنَّ الخوارجَ وثبتْ عليه وهو يحتجمُ فقتلوه ، فقتلهم ابنُ أخيه يزيدُ بنُ مزيد الأمير.

* وذكر الخطيبُ البغداديُّ أنَّ أبا جعفر المنصور قد ولّى معناً سجسْتَان ، فنزلَ «بُسْت» وأساءَ السيرة في أهلِها فقتلوه.

* وذكر ابنُ الونَّان في «حديقَته» أنَّ معنَ بنَ زَائدة قد وليَ سجستان في آخرِ عمره ، وفي سنَةِ (١٥١ هـ) كان له صنَّاع يعملونَ له شغْلاً ، فاندسَّ فيهم قومٌ منَ الخوارجِ فقتلوه بسجستان بمدينةِ بُسْت وهو يحتجمُ ، فتتبَّعهم ابنُ أخيه يزيدُ بنُ مزيد بن زائدة فقتلَهم عن آخرِهم[1].

* وقال ابنُ العماد في شَذراته: وفيها ـ أي: سنة (١٥١ هـ) قتلتِ الخوارجُ غيلةً معنَ بنَ زائدة الشّيباني الأمير بسجستان ، وكان قد وليها عام أوّل ، وكان أحدَ الأبطال الأجوادِ. . . ولما عظُمَ صيتُه اندسَّ له جماعةٌ من

= * وجاءَ في الحديثِ عن بريدةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولُوا للمنافقِ سيّد ، فإنَّه إنْ يكُ سيّداً ، فقَدْ أسخطتمُ ربّكم عزَّ وجلَّ» أخرجه أبو داود (٤٩٧٧) وأحمد (٥/٣٤٦ و٣٤٧) وهو صحيح. وفي لفظ آخر عن النسائي في «اليوم والليلة»: «لا تقولُوا للمنافِق سيّدنا ، إنْ يكن سيدكم. . .».

(١) حديقة ابن الونان (ص ٣٢١).

الخوارجِ في ضيعةٍ له بسجستان فقتلوه وهو يحتجمُ ، فتبعهم ابنُ أخيه فقتلَهم جميعهم[1] .

* ولم يكن مقتلُ معنٍ عابراً ، وإنَّما سجّلَتْهُ ألسنةُ الشَّعراء على خَدّ الأيَّام وجيْدِ المصَادر ، ورثاه عددٌ منْ أكابرِ شُعراء عَصْره ، وممن أبدعَ في رثائه مروانُ بنُ أبي حفصةَ الذي صاغَ قصيدةً لاميّة طويلةً في رثائه، قال في مطلعها :

مضَىٰ لسبيْلِهِ معنٌ وأبقىٰ ... مكَارمَ لنْ تبيدَ ولنْ تُنَالا
كأنَّ الشَّمْسَ يومَ أُصيْب مَعْنٌ ... منَ الإظْلام مُلْبَسَةٌ جِلاَلاَ
وعُطِّلَتِ الثُّغورُ لفَقْدِ مَعْنٍ ... وقد يُروىٰ بها الأَسَلُ النِّهالاَ

ومنها :

أَصَابَ الموتَ يومَ أصَابَ معْناً ... منَ الأحياءِ أكرمُهمْ فَعَالا
وكانَ النَّاسُ كلُّهم لمعْنٍ ... إلى أنْ زارَ حفْرتَه عيَالا
ولم يكُ طالِبٌ للعُرفِ ينْوي ... إلى غيرِ ابنِ زائدةَ ارتجالاَ
مضىٰ مَنْ كانَ يحملُ كلَّ ثقْلٍ ... ويسبقُ فَضْل نائِله السُّؤالا
وما عَمد الوفودُ لمثلِ مَعْنٍ ... ولا حطُّوا بساحَتِهِ ترحالاَ
ولا بلَغَتْ أكفُّ ذوي العَطَايا ... يميناً منْ يديهِ ولا شِمَالا
وليتَ الشَّامتينَ به فَدَوْهُ ... وليْتَ العُمر مُدَّ له فَطَالاَ
ولم يكُ كنْزُه ذهباً ولكنْ ... سيوفَ الهِنْدِ والحَلَقَ المُذَالا
وذُخْراً منْ محامدَ باقياتٍ ... وفَضْلَ تقىً به التَّفْضيلُ نَالا

---

(١) شذرات الذهب (٢/ ٢٣٧ و٢٣٩) بتصرف واختصار. وأوردَ ابنُ العماد حادثةً رائعةً لمعنٍ أحببتُ ذكْرها لأنَّها تزيدُ في رصيده في حبّه للعُلماء. قال ابنُ العماد: لما طلبَ المنصورُ سفيانَ الثّوري ، فرَّ سفيانُ إلى اليمن ، فكانَ يقرأُ على النَّاس أحاديثَ الضِّيافةِ ليضيفوه ، ويكتفي عن سؤالِهم ، فاتهم بالسّرقةِ ، ورُفع إلى مَعن بن زائدة ، فتعرَّفه حتى عرفَه ، فقال: اذهبْ حيث شئت ، فلو كنتَ تحتَ قدمي ما أخرجتك. (شذرات الذهب ٢/ ٢٣٩)

ومنها:

مضى لسبيلهِ مَنْ كنْتَ ترجُو ... بهِ عَثَراتُ دَهْرِك أنْ تُقالا

كأنَّ الليلَ وَاصَلَ بَعْد مَعْنٍ ... ليالِيَ قد قُرِنَّ بهِ فَطَالاَ

وقُلْنَا أينَ نرحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ... وقد ذَهَبَ النَّوالُ فلاَ نَوالاَ

سيذكُرك الخليفةُ غَيْرَ قالٍ ... إذا هو في الأُمورِ بلا الرّجَالا

ولا ينسىٰ وقائِعَكَ اللواتي ... علىٰ أعدائهِ جُعِلَتْ وَبَالا

ثمَّ ختَمها بقولهِ يذكر أنَّه لن يشدَّ رحْلَه لغيرِهِ:

وألقىٰ رحْلَه أسَفاً وآلىٰ ... يميناً لا يَشُدُّ له حِبَالا[1]

* قال أحمدُ بنُ خلكان: وهذه المرثيةُ منْ أحسنِ المراثي.

* وقال عبدُ الله بنُ المعتزّ: دخل مروانُ بنُ أبي حفصة على جعفر البرمكيّ، فقال له: ويحك أنشدني مرثيتَك في معنِ بنِ زائدة.

فقال: بل أنشدك مديحي فيك.

فقال جعفرُ: أنشدني مرثيتكَ في معْنٍ، فأَنْشَأَ يقولُ:

وكانَ النَّاسُ كلُّهمُ لمعْنٍ ... إلى أنْ زارَ حُفْرتَهُ عيَالا

حتَّى فرغَ من القصيدةِ، فلما فرغَ من إنشادِها، قال جعفر: هل أثابَك على هذه المرثية أحدٌ من ولدِ معن أو من أهْلِهِ شيئاً؟

قال مروان: لا.

قال جعفر: فلو كان معنٌ حيّاً، ثمَّ سمعها منك، كم كان يثيبك عليها؟

قال: أصلح اللهُ الوزير، أربعمئة دينار.

---

(١) انظر: ديوان مروان (ص ٧٩ ـ ٨٣) وهي قصيدة طويلة وجميلة تعد (٥٤ بيتاً) وقد نقلها كثير ممن ترجموا لمعن في كتبهم.

قال جعفر: فإنَّا نظنُّ أنَّه كان لا يرضىٰ لك بذلك، قد أمرنا لك عن معنٍ ـ رحمه الله تعالى ـ بالضِّعفِ ممّا ظننْتَ، وزدناك نحنُ مثل ذلك، فاقبضْ منَ الخازنِ ألفاً وستمئة دينار قبل أن تنصرفَ إلى رحلك، فقبضَ المال وانصرف[1].

ويقال: إنَّ مروانَ بنَ أبي حفصة ـ بعد هذه القصيدة ـ لم ينتفع بشعرهِ، فإنَّه كان إذا مدحَ خليفةً أو مَنْ دونَه قال له: أنت قلتَ في مرثيتك:

وقُلْنا أينَ نرحلُ بَعْدَ مَعْنٍ ... وقد ذَهَبَ النَّوالُ فلا نَوالاَ

فلا يعطيه الممدوحُ شيئاً، ولا يسمعُ قصيدتَه[2].

* وروي أنَّ عبد الله بنَ طاهر كان يوماً عند المأمون، فقال له: يا أبا العبّاس، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشِّعر في خلافةِ بني هاشم؟

قال: أمير المؤمنين أعرف بهذا منّي.

قال: قُلْ على كلّ حال.

قال عبد الله: أشعرهم الذي يقولُ في معن بن زائدة:

أيا قبْرَ معنٍ كنْتَ أوَّلَ حفرةٍ ... منَ الأرضِ خُطَّتْ للسَّماحة مَضْجَعا

أيا قبر مَعْنٍ كيفَ واريتَ جُودَه ... وقد كانَ منْه البرُّ والبحرُ مُتْرعَا

بلىٰ قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ ... ولو كانَ حيّاً ضقتَ حتّى تصدّعَا

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٢٥١ و٢٥٢) بتصرف واختصار.
وقال مروانُ بنُ أبي حفصةَ يمدحُ جعفرَ البرمكيّ، وقد وَصَلَه علىٰ مرثيتهِ اللاميّة في معنِ بنِ زائدة الشّيباني:

نَفَحْتَ مكافئاً عن قبرِ مَعْنٍ ... لنَا ممّا تجودُ به سِجَالاَ
فعجَّلْتَ العطيّةَ يا بنَ يحيىٰ ... بتأديةٍ ولم تُرِدِ المَطَالاَ
فكافأ عن صَدَى معنٍ جوادٌ ... بأجْوَد راحةٍ بذلَتْ نَوالا

(ديوان مروان ص ٨٤)

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٢٥١ و٢٥٢) ولعل هذا القول من المبالغة.

* والأبياتُ للحُسين بنِ مطير الأسديّ ، وهي تزيدُ على هذا المقدار وأولها:

أَلِمَّـا علـىٰ معْـنٍ ثـمَّ قُـولا لقبْـرِه سقَتكَ الغَوادي مربعاً ثمَّ مربَعَا

* ومنها:

فـتىً عِـيْـشَ فـي معـروفـهِ بعـد مـوهِ كما كانَ بَعْد السَّيْلِ مجراهُ مرتَعَا
ولمّا مضىٰ معْنٌ مضى الجودُ وانقضىٰ وأصبحَ عِرنينُ المكارمِ أجْدَعَا[1]

* ومن روائعِ بدائعِ الرّثاء قول مروان في معنٍ:

يا مَنْ بمطلعِ شَمْسٍ ثمّ مغْرِبهَا إنَّ السَّخـاءَ عليكـم غيـرُ مـردودِ
قُلْ للعُفاةِ أريحوا العيْسَ منْ طلَبٍ ما بعْدَ مَعْنٍ حليفِ الجودِ منْ جُودِ
قُـلْ للمنيّـةِ لا تُبْقـي علـى أحـدٍ إذْ مَاتَ مَعْنٌ فما ميْتٌ بمفقودِ[2]

* وبعد ، فهذه شذراتٌ جميلةٌ منْ سيرةِ فارسٍ جوادٍ عرفَ الجودُ كفَّه فلازمَه ، وعرفتِ الشجاعةُ قلبَه فلزمتْه ، فكانَ من فرسانِ الأجوادِ في دنيا التّاريخ ، وفي تاريخِ الدُّنيا.

* * *

(١) أمالي المرتضى (١/ ٢٢٧) ، ووفيات الأعيان (٥/ ٢٥٤) ، وقطوف الريحان (ص ٣٢٢). وما أجملَ قولَ الشّاعرِ في امتداحِ أحدِ الأسخياءِ الأجْوَاد:

وإذَا الـرِّجَـالُ تصـرّفَـتْ أهـواؤُهـا فهـواهُ لحظـةُ سـائِـلٍ أو آمـلِ
ويكـادُ مـنْ فـرطِ السَّخـاءِ بنـانـهُ حُـبّ العَطَـاء يقـولُ هـل مـنْ سـائِـلِ

(التذكرة الحمدونية ٢/ ٢٧٤)

(٢) ديوان مروان (ص ٤٠).




يزيد بن مزيَد

* أحد الأبطال والأجواد، وهو ابنُ أخي الأمير معن بن زائدة.
* هو القائل:

منْ جاد بنفسه عند اللقاء، وبماله عند العطاء، فقد جاد بنفسيه كلتيهما.

* امتدحه كبار الشعراء، كمسلم بن الوليد.




الـفَـارِسُ الأَمِيْـرُ الـشَّهِيْـرُ :

* لا شكَّ في أنَّ الشُّهرةَ منْ بعضِ مكاسبِ الدُّنيا ، يقتنصُها المرءُ منْ أبوابٍ متفرّقةٍ وسبلٍ متشعّبةٍ ؛ وقد كانتِ الشّهرةُ في القديم تحتاجُ إلى جهْدٍ خاص وسمعةٍ تتناقلُها الرّكبان حتى ينتشر صيتُ الإنسانِ ، ويعرفَ الناسُ خِلالَه وخَلائقَه .

* أمَّا الشهرةُ اليوم فهي مفتّحةُ الأبوابِ ، سهلةُ المنالِ ، سريعةُ الانتشارِ ، دعَمتْها المدنيَّةُ الحديثةُ المتنوعة والملونةُ والميسّرةُ وفي مقدمتها: وسائلُ الإعلامِ المرئية والمسموعةِ والمقروءةِ ، فَمَنْ ذا الذي لا يسمعُ اليوم بأسماءِ الممثّلين والممثّلات والمطربين والمُطربات؟! والفَارغين والفارغات؟! بينما نجدُ كثيراً منَ الدَّارسين وأنصافَ المثقفين وأرباعَ المُطَّلعين وثلاثةَ أرباع المتعلّمين لا يعرفون عظماء العربِ والمسلمين ، ممن سطّروا أجملَ الأعمالِ في دنيا العِلْم والمعرفة .

ومهما ازداد ـ الآن ـ عددُ قراء شعر المتنبي ، ومؤلفات الجاحِظُ والغَزالي وابن خلدون ، وغيرهم منَ الأدباءِ والعُلماء ، فإنَّ المتحلّقين حولَ الشَّاشاتِ الصَّغيرة أكثرُ ، وعددُ الذين يرتادون الملاعبَ المتنوعة أكثرُ وأكثر .

* يقول عبَّاس العقّاد في كتابهِ «الفُصول» : وقد عجبَتْ إحدى صحفِ فرنسا منَ الحفاوة التي قُوبل بها شَارلي شَابْلنْ في لندن ، وقارنَتْ بين فتورِ الجماهيرِ قبل أصحاب الفضلِ عليها من المخترعين والمُصلحين ، وبين شغفِها بالمُضحكينَ وتهليلها لهم وإقبالِها العظيمِ عليهم ، وضربتِ الصَّحيفةُ مثَلاً بالطَّبيبِ «فنسان» صاحب لقَاح التّيفوس ، وقالتْ وهي

تستغربُ ما تقول: ترىٰ لو كان هذا الطَّبيبُ بينَ الجموع المُهللة لشارلي شابلن أما كانوا يُنَحّونَه عنِ الطَّريق ، ويزورُّون عنه ليقبلُوا على بطلِهم العزيز؟!

* نقول: ذلك ليس ببعيد. . . . ولَعْمري إنَّ الإنسان ليرى شيئاً منَ العَدْل في هذه الأطوارِ التي تشاهدُ في الجماهير ، فإنَّ الممثّل الهزليّ لَنْ يظفرَ بعد موتهِ بكثيرٍ ولا قليلٍ منَ الإعجاب الذي هو حقيقٌ به ، فمنَ الإنصافِ أنْ يُكَافأَ في حياتهِ هذه المكافأة على إضحاكِ النّاسِ ، مع أنَّ ذكر «فنسان» وأمثالِهِ لا يُنْسَى بعد موتهم ، والإعجاب بهم يبقىٰ زماناً وهم ترابٌ في لُحودهم[1] .

* إذاً ، فليسَ صاحب الشُّهرة الواسِعَة في حياته سعيداً بشهرتهِ أبدَ الدَّهْر ، وإنَّما تكون سعادتهُ خالدةً حينما تحكمُ الأجيال على عبقريته وخلوده ، وحينما تصحح الأحكام التي يصدرها النَّاس جزافاً منقادينَ إلى العواطف ، مأخوذينَ بالأهواء .

* ونحنُ اليومَ نطّلعُ علىٰ حياةِ فارسٍ بطلٍ منَ الأمراءِ المشهورين ، ومنَ الشُّجعان المعروفينَ في العَصْر الذَّهبي العبّاسي في القرنِ الثاني الهجريّ؛

---

(١) انظر: الفصول للعقاد. ومن الجدير بالذّكر أنَّ كثيراً منَ النَّاس في أيّامنا هذه يحفظُ أسماءَ كثيرٍ من الممثلات والمطرباتِ وغيرهم منْ أهل مدرسةِ الفنّ ، أو يحفظُ أسماء فريق كرة قدم أو سلّة أو «علّة» ويعرفُ حياةَ وأخبارَ المُصارعين الأجانبِ الذين تشبهُ أسماؤهم أسماء العفَاريت في بعض الكُتب القديمةِ ، ولو سألتَ أحدهم عن أسماءِ العشرةِ المبشّرين بالجنّة ، أو أسماءِ زوجات النَّبي ﷺ ، أو أسماء الخلفاء الرَّاشدين لفتحَ فاهُ وما درىٰ شيئاً. ومنَ العجيبِ أنَّ بعضَ المحطّات قد استقبلتْ بعضهنَّ ، فانهالتِ التّليفونات والفاكْسَات والرّسائل عليها حتى إنّ المذيعَ قال: خلال دقائق وصلنا أكثر من عشرة آلاف فاكس وهاتف وكلّهم يطلبون الحديث مع السّيدة؟ و. . نسأل الله اللطف.

وهذا الفارسُ ممّن طارتْ شهرتُه ، ورصَّعَتِ الأيَّامُ أعمالَه ونقشتها على جبهةِ التَّاريخ ليراها مَنْ جاءَ بعده.

* ولن أدعَكَ ـ عزيزي القارىء ـ تذهبُ بعيداً كيما تعرف هذا الفارس الشَّهير الذي ننظمُه في سلْكِ دُرر فرسانِ التَّاريخ ، أولئكَ الذين رسموا بشجاعتهم أجملَ صورِ البطولةِ ، وزيّنوا جيْدَ الدَّهر بحلي أفعالِهم البيضِ الزُّهر.

* والآن إليكمو بطاقة فارسِ الأجوادِ الأسخياءِ ، وجوادِ الفرسانِ الأمراء. . . يزيدُ بنُ مزيد بنِ زائدةَ أميرُ العربِ ، أبو خالد الشَّيباني ، أحدُ الأبطالِ والأجوادِ ، وهو ابنُ أخي الأمير معن بن زائدةَ الجواد الشَّهير المشهور[1].

* وكان يزيدُ هذا يقولُ دائماً ـ وقد جمعَ بينَ الجُود وبين الشَّجاعة ـ: مَنْ جادَ بنفسهِ عنْدَ اللقاء ، وبمالِهِ عند العَطَاء ، فقد جادَ بنفسَيْه كلتَيْهما[2].

* وسيرةُ يزيد بنِ مزيد تزيدُ في رصيدِ الفُرسان الكرماء ، من بني زائدةَ وغيرهم ممن نحفلُ بهم في موسوعتنا هذه التي تحملُ بين جوانحها خفقَاتٍ رائعاتٍ من أخبارِهم التي تطْرَبُ لها القلوبُ والنُّفوس.

* فيزيدُ بنُ مزيدَ أحدُ الأمراءِ الوجَهاء ، وأحدُ الفُرسان الكُبراء في الدَّولةِ العبّاسيّة ، وقد امتدَحَه كبراءُ الشُّعراء ، ومنهم مسلمُ بنُ الوليد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٧١ ـ ٧٣) ، والمعارف (ص ٤١٣ و٤١٤) ، ووفيات الأعيان (٦/ ٣٢٧ ـ ٣٤٢) ، ومرآة الجنان (١/ ٤٠٠) ، والأغاني (انظر الفهارس) ، وديوان صريع الغواني (انظر الفهارس ص ٤٧٨ و٤٧٩) ، وخزانة الأدب (٣/ ٥٤) ، والمستجاد (ص ٤ و٥ و١٠٠ و١٠٨ و١٠٩) ، والكامل (ص ٦٥٣ و٨٩٤ و٩٤٣) وغيرها كثير.

(٢) انظر: نهاية الأرب (٣/ ٢١٤).

الأنصاريّ الذي رأى في يزيدَ بن مزيد البطولةَ والشَّجاعة والفروسيّة والكرَم والسَّخاء ، والنَّسبَ العريق في بني شَيبان[١] .

* ويَزيدُ بنُ مزيد الشَّيباني منْ أسرةٍ رفيعةٍ في العروبةِ ، مشهورة بالنّدى والبأْس ، شاركتْ في نصرةِ الخلافة العبّاسيّة ، ودعمِ الحكْم كيما يقومَ على سوقِهِ ثابتَ الأساسِ ، قويَّ الأركان.

* فقد كانَ عمُّه معنُ بنُ زائدة الشَّيبانيُّ الأميرُ الجوادُ الشَّهيرُ ، عَلَماً بارِزاً ، ونجماً لامِعاً يُشَارُ إليه بالبنان ، وكان يزيدُ ابنُ أخيه شبيهاً بعمّه مَعْن ، ناهيك[٢] بأنَّه فتى من فتيانِ الأماجدِ الذين حفروا برؤوسِ أسنَّتهم ،

---

(١) «بنو شَيبان»: بنو شَيبان منْ أصل عدنانيّ ، وهمْ منْ هاماتِ ربيعةَ في الجاهليَّةِ ، وهمْ أبطالُ معركةِ ذي قار الشَّهيرة ، وقد امتدَّ بهم المجدُ في الإسلامِ ، فكانَ منهم بيوتاتٌ سجّلَ لها التَّاريخُ صفحاتٍ خالداتٍ وضيئات.
* وكانَ بنو شيبانَ طلائعَ الفتحِ الإسلاميّ في العِراق.
* وقيل: ليسَ في العربِ أعزُّ من شيبانَ داراً ، ولا أكثرَ حليفاً.
* واشتُهر كثيرون منْ رجالاتِ وأبطالِ وفرسانِ بني شيبان في التَّاريخ ، وحسبُك المثنّى بن حارثة الشَّيباني ، الذي مالَه في زمانِهِ منْ ثانِ ، فقد كانَ منْ أشرافِ بني شَيبان ، وكانَ أوّلَ قائدٍ عربي تجرأ على مهاجمةِ الإمبراطوريّة السَّاسَانية في عقر دارها ، وقد نالَ المثنّى شرفَ الصُّحبةِ النَّبويةِ ، فكانَ منَ الطّيبين الأخيار ، والفُرسَان الأطهار الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه.

(٢) «ناهيك»: يُقال: ناهيكَ بكَذا ، أيْ حَسْبُك وكافيكَ بكذا ، نحو: ناهيكَ بِدِيْنِ الله ، أي دين اللهِ كافيكَ عن طلبِ غيرِه. «ناهيك»: خَبر مقدَّم مرفوع بالضّمةِ المقدّرةِ على الياء للثّقل ، وهو مُضَاف. والكاف ضمير متّصل مبني على الفتْح في محلّ جرٍ بالإضافةِ. «بدين»: الباء حرفُ جرّ زائد مبني علىٰ الكسرِ لا محلَّ له منَ الإعراب. «دين»: اسمُ مجرور لفظاً مرفوعُ محلاً على أنَّه مبتدأ مؤخّر ، وهو مُضاف. «الله»: لفظُ الجلالةِ مُضاف إليه مجرور بالكَسْرةِ الظَّاهرةِ. ونحو: هذا عبد اللهِ ناهيكَ منْ رجُلٍ. «نَاهيكَ»: حالٌ منصوبة بالفتحة ، ونحو: هذا رجلٌ ناهيكَ منْ رجُل. «ناهيك»: نعتٌ مرفوعٌ ، «رجل»: اسمٌ مجرور لفظاً منصوب محلاً للتَّمييز. وتتعدّى ناهيكَ بالباء وبـ«مِنْ».

وأشفارِ سيوفهم سطورَ المجدِ والخلودِ والرّفعةِ[1] ، وبسطوا أيديهم فكانتْ ركاباً مريحاً ممراحاً للمعوزين ، ونشروا أموالهم للمعتفين ، فقد كانتِ الدَّراهمُ والدَّنانيرُ على أكفّهم عابرات سبيل إلى جيوبِ الآخرين ، فكانوا صوىً في طريقِ الأمنِ والخيرِ والحبّ ، وأعلاماً في السِّلْم والحربِ والجلاد ، عليهم تُعْقَدُ الآمالُ الكبار ، وقد شهدتْ جوارحُ التَّاريخِ بمزاياهم ، واعترفَتْ بأقدارهم ، فصفاتُهم تجري فُراتاً على ألسنةِ المادحين ، وهذا مسلمُ بن الوليد يوفَّقُ في امتداحِ يزيد بن مزيد ، إذ الجودُ والكرمُ بكفَّيْه فيقول :

يَا أكْرَم النَّاسِ منْ عُجْمٍ ومنْ عَربٍ بَعْدَ الخليفَةِ يا ضرغَامةَ العَربِ

* ويوغلُ مسلم بنُ الوليد بمديحِ يزيد ، فيجعلُه عزّ الخلافةِ العبّاسيّة ، ويجعلُ الخلفاء العبّاسيين حكّاماً ، فيقولُ من قصيدةٍ ميميةٍ رائعةٍ في يزيد :

إذَا الخلافَةُ عُدَّتْ كنْتَ أَنْتَ لَها عزّاً وكانَ بنو العبَّاسِ حُكَّاما[2]

* ولعلَّنا نرى أنَّ موقفَ مسلم بن الوليد من يزيدَ بنِ مزيد هو موقفٌ عجيبٌ في الإعجابِ به ، وإكباره وإنزاله منزلةً ضخمةً واسعةً ، فقد وردَ أنَّه قال فيما قال : إنَّه لولا يزيدُ لأضحى الملكُ مخذولاً ، ولأفسدته عاهاتُ تعملُ فيه حتى تقتلَه .

* ولم يكتفِ مسلم بهذا ، بل جعلَ يزيد كالأجل يسعى إلى الأعداءِ في

---

(١) ولهذا قالَ مسلمُ بنُ الوليد في بني زائدةَ الشّجعان الفُرسان ، والقوّادِ العُظماء ، الذين يمنعونَ الرّعيةَ منَ العدوِّ ، فتكون في أمْنٍ ، ويكون عدوّها في خوفٍ من هؤلاء أنْ يوقعُوا بهم العقوبة :

سلّوا السُّيوفَ فأغشُوا مَنْ يحاربُهم خبطاً بهـا غيـرَ مـا نكْـلٍ ولا وُكُـلِ
الـزّائـديّـون قـومٌ فـي رمـاحِهـمُ خوفُ المخيف وأمنُ الخائف الوجلِ

(٢) انظر ديوان : مسلم بن الوليد ، صريع الغواني (ص ٦٧) .

الحربِ ، فيستلّ أرواحَهم بفروسيته حينما يريدُ ذلك ، وهو يخوضُ ساحاتِ الوغى ضاحكَ الوجْهِ باسمَ الثَّغْر ، كما وصفَ فروسيّة يزيد بجميع الألوان المُغريةِ الأخّاذةِ ، ومنها أنَّه جعلَه يطعمُ الطَّيرَ من جُثَثِ أعدائِهِ ، فالطيرُ تتبعه في كلّ مَكَانٍ يجالدُ فيه ويقاتِلُ الأعداءَ ، هنالك تحومُ عصائب الطَّير حولَه والتي عوَّدَها على ذلك ، حيث تنتظرُ العيش والشّبع على يديهِ من خلالِ قائمِ سيفه الذي يجندلُ به الأَبْطَالَ.

* وكان ليزيدَ أكثرُ منْ كنْيَةٍ ، فقد ذكرَ الجاحظُ أنَّ يزيد بنَ مزيد كان يكْنى في السِّلم بأبي خَالد ، وفي الحربِ بأبي الزّبير ، وقال مسلم بنُ الوليد الأنصاري:

لـولا سُيـوفُ أبـي الـزُّبيـر وخَيلُـه نَشَـر الـوليـدُ بسيفـهِ الضَّحـاكـا[1]

مِـنْ شِـيَـمِ يَـزيْـد وَأَخْـبَـارِهِ:

* قال الشَّاعر:

لقد شَرعَتْ كَفَّا يزيدَ بنِ مزيدٍ شـرائـعَ جُـودٍ لا يُنـادي وليْـدُهَـا

* قد لا تحيطُ الأقلامُ في رسْم شيمِ فارسنا اليوم ، وقد لا يقدرُ الباحثُ أنْ يجمعَ أشتاتِ أخبارِه كيما ينضدهَا في هذا الكتابِ ، ولكنَّنا ننظمُ أزاهرَ منْ محاسِنِه في طاقاتٍ جميلةٍ تنفحُ بريّاها القلوبَ الظَّامئاتِ لأخبارِ الفُرسانِ الأجوادِ في التَّاريخِ الإسلاميّ والعربيّ علىٰ مرِّ العُصورِ والأعوامِ والأيّام.

* وتطالعُنا سيرةُ يزيد بن مزيدَ الفَارس الجواد بأنباءِ جُوده ، وجودِ الشَّيبانيين الذين شغلُوا ساحاتِ المكارم بأنداءِ كَرمِهم ورشحاتِ أكفّهم ، فقد بَنَتِ المكارمُ والمحاسنُ وسطَ راحاتِهم منازِلاً ، وجعلوا أموالَهم مباحةً

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٣٤٢).

بينَ الأنَام ، فإذا أغلقتِ المكارمُ أبوابَها وأوصدتها ، كانت أيديهم لقفْلِها مفتاحاً.

* ولعلّنا نجدُ هذا كلّه في هذهِ المعاني الجميلة الرَّاقصة التي صاغها صريعُ الغواني مسلمُ بنُ الوليد في يزيد فقال:

فافْخَرْ فما لَكَ في شَيْبانَ منْ مَثَلٍ ... كـذاكَ مَـا لِبَنـي شيبـانَ مـنْ مَثَـلِ
تَشَاغَلَ النَّاسُ بالدُّنيا وزُخْرفها ... وأَنْتَ منْ بذلك المعروف في شُغُلِ
يأْبَىٰ لِسَانُكَ منْع الجودِ سَائِله ... فمـا يُلَجْلِـجُ بيـنَ الجـودِ والبُخـلِ
صدَّقْتَ ظنّي وصدَّقتَ الظُّنونَ بهِ ... وحطَّ جودُكَ عَقْدَ الرَّحل عنْ جَمَلي[1]

* ولعلَّ الجودَ والكرم[2] وبسط اليدِ من أبرز صفاتِ فارسنا يزيد بن

---

(١) انظر: ديوان صريع الغواني (ص ٢١ ـ ٢٣) بتصرّف ، وهذه الأبيات مِنْ قصيدةٍ جميلةٍ تعدُّ (٧٩ بيتاً) ، وهي منْ أشهر قصائد ديوانه وأجملها ، وقد سارتْ أبياتُها بينَ النَّاس والمصادر.

(٢) الجودُ والكرمُ منْ أعلىٰ صفاتِ الإنسانِ الكاملِ ، ومنْ أجملِ ما يتحلّى بهِ المؤمِنُ ، على عكْسِ البُخْل واللؤمِ الذي هو مجْمَعُ كلّ سُوء. قال سيّدنا عليّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: البخلُ جامعٌ لمساوىءِ العُيوب ، وهو زمامٌ يُقادُ بهِ إلى كلّ سُوء. (التذكرة الحمدونية ٢/ ٣٢٢)

وقيل لحبّى المدنية: ما السُّقم الذي لا يَبْرأ ، والجرحُ الذي لا يَنْدَمل؟!
قالت: حاجةُ الكريم إلى اللئيمِ الذي لا يَجْدي عليه.
* وقال الخطّابي: الشّحُّ في المنع أبلغُ منَ البخْلِ.
* وقال سلمانُ الفارسيّ ـ رضي الله عنه ـ: إذا ماتَ السَّخيُّ قالتِ الأرضُ والحفظةُ: ربّ تجاوزْ عن عبدِكَ في الدّنيا بسخائِهِ ، وإذا ماتَ البخيلُ قالَتْ: اللهمّ احجبْ هذا العبدَ عن الجنّةِ ، كما حجبَ عبادَكَ عما جعلْتَ في يديْه منَ الدُّنيا.
* وقال بعضُ الحكماء: مَنْ كانَ بخيلاً ورثَ مالَه عدوّه.
* ووصفَ أعرابيٌّ رجلاً فقال: لقد صَغُرَ في عيني لِعِظمِ الدُّنيا في عَيْنه.
* وذمَّ أعرابي قوماً فقال: يصومونَ عن المعروف ويفطرون علىٰ الفَواحش.
(مختصر منهاج القاصدين ص ٣٦)=

مزيد الشَّيباني ، فجودُهُ وعطاياهُ تأتي شتى لمؤمّليه ، وإن كانُوا بعيداً في بلادٍ بعيدة ، فهو مطبوعٌ على العَطَاءِ ، فليس يُعطي على حسن لطفٍ في السُّؤال ، ولكنّه يعطي كلَّ النَّاس مَنْ أحسنَ منهم السُّوال ومَنْ لم يُحْسِن.

* وكان يزيدُ بنُ مزيد شديدَ التَّيقُّظ ، يستعدُّ دائماً لمهمّاتِ الأمورِ وجسامِها ، فإذا ما دعا الدَّاعي ، كانَ على أتمّ استعداد أيّاً كان الدَّاعي.

ولعلَّنا نتعرفُ شيئاً عن شيمِ وأخبارِ يزيد منْ خلالِ حديثهِ عن نفسهِ ، وبيان شمائِله وخلالِه.

* قال يزيدُ: أرسلَ إليَّ الرَّشيدُ يوماً في وقتٍ لا يُرسِلُ فيه إلىٰ مثلي ، فأتيتهُ لابِساً سِلاحي ، مستعدّاً لأمرٍ إنْ أرادَه ، فلمّا رآني ضحكَ إليّ ، ثمَّ قال: يا يزيدُ خبّرني؛ مَن الذي يقولُ فيك:

تَراهُ في الأَمْنِ في دِرْعٍ مضَاعَفةٍ لا يأْمَنُ الدَّهْرَ أنْ يُدعى علىٰ عَجَلِ
لله مِنْ هاشمٍ في أرضهِ جَبَلٌ وأنْتَ وابناكَ رُكْنَا ذلكَ الجَبَلِ

فقلتُ: لا أعرفُهُ يا أميرَ المؤمنين.

فقال: سوءةً لكَ من سيّدِ قوم يُمْدَحُ بمثلِ هذا الشّعر ولا يعرفُ قائلَه ، وقد بلغَ أمير المؤمنين فرواهُ ووصلَ قائِلَه ، وهو مسلمُ بنُ الوليد!!

فانصرفتُ ، فدعوتُ بهِ ووصلتهُ وواليته[1].

* وحدَّثَ ذو الهِدْمَيْن قال: دخلَ يزيدُ بنُ مزيدَ علىٰ الرشيدِ ، فقال له: يا يزيد مَنْ الذي يقول فيك:

لا يَعْبَقُ الطّيْبُ خَدَّيهِ ومفْرِقَه ولا يُمسِّحُ عينَيْه منَ الكُحُل

---

(١) معاهد التنصيص (٣/ ٥٨ و٥٩) ، والأغاني (١٩/ ٤٠ و٤١) ، وديوان صريع الغواني (ص ١٢).

قد عوَّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وثقْنَ بها فهُـنَّ يَتْبَعنَـه فـي كُـلّ مُـرْتَحَـلِ[1]

فقال: لا أعرفُ قائِلَه يا أميرَ المؤمنين!

فقال له هارون: أيُقَالُ فيك مثْلُ هذا الشِّعْرِ ولا تعرفُ قائِله؟!

فخرجَ من عنده خَجِلاً، فلمّا صارَ إلى منزلِه دعا حاجِبَه فقال له: مَنْ بالبابِ مِنَ الشُّعراء؟

قال: مسلمُ بنُ الوليد.

فقال: وكيفَ حجبْته عنّي فلمْ تعلمْني بمكانِهِ؟

قال: أخبرتُه أنَّك مُضَيَّقٌ ـ ضاقَ عليه معاشه وقلَّ ما بيده ـ، وأنَّه ليس في يديكَ شيءٌ تعطيه إيّاه، وسألته الإمْساكَ والمقام أيّاماً إلى أنْ تتسعَ.

قال: فأنكرَ عليه ذلك وقال: أدخلْهُ إليَّ. فأدخلَه إليه فأنشدَه قولَه:

أُجْررتُ حَبْلَ خَليعٍ في الصِّبَا غَزِلُ وشَمَّرت هِمَمُ العُذَّالِ في عَذَلي

رَدَّ البكاءُ على العينِ الطَّموحِ هوىً مفـرَّقٌ بيـنَ تـوديـعٍ ومُـرتَحـلِ

أمَا كفىٰ البَيْنَ أَنَّ أُرْمىٰ بأسْهُمِهِ حتّى رَماني بلحظِ الأعينِ النُّجُلِ

ممَّا جَنَتْ لي وإنْ كانَتْ منىً صَدَقَتْ صبَابـةً خُلَسُ التَّسليـم بـالمُقَـلِ

فقال له: قد أمرنَا لكَ بخمسينَ ألف درهم، فاقبضْها واعذِرْ، فخرجَ الحاجبُ فقال لمسلم بنِ الوليد: قد أمر لي يزيدُ أنْ أرهنَ ضيعةً من ضياعهِ على مئةِ ألف درهم، خمسونَ ألفاً لك، وخمسون ألفاً لنفقَته، وأعطاه

---

(١) قال النَّابغةُ الذّبياني:

إذا ما غَزوا بالجيش حلّقَ فوقَهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعَصَائبِ

وقال حميدُ بنُ ثور الهلالي:

إذا ما غدا يوماً رأيتَ غيابةً منَ الطَّيرِ ينظُرنَ الذي هو صانِعُ

فتناول مسلم بن الوليد معنى البيتين في قوله:

قد عوّدَ الطّيرَ عاداتٍ وثْقنَ بهَا فهنَّ يتبَعْنه في كلّ مرتَحل

إيّاها. وكتبَ صاحب الخَبر بذلكَ إلى الرّشيدِ، فأمرَ ليزيد بمئتي ألف درهم وقال: اقضِ الخمسين الألف التي أخذَها الشَّاعر وزدْه مثلَها، وخذْ مئةَ ألف لنَفَقتك، فافتكَّ ضيعتَه، وأعطِ مُسلماً خمسينَ ألفاً أخرى[1].

* وليزيدَ بنِ مزيد أخبارٌ مطربةٌ مع الخليفةِ هارون الرّشيد، تدلُّ على عقْلِهِ وذكائهِ وهمّته وحصافته وعلو كعبهِ في أدبِ مجالسةِ الملوك؛ فقد روي أنَّ هارونَ الرَّشيد قال ليزيد يوماً: يا يزيد، إنّي قد أعددتك لأمرٍ كبير.

فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ تعالى قد أعدَّ لك منّي قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطةً لطاعتك، وسيفاً مشحوذاً على عدوك، فإذا شئت فقُلْ[2].

* وليزيد موقفٌ طريفٌ ورائع مع الرَّشيد أيضاً، فقد وردَ أنَّ الرَّشيد قالَ له في لعبِ الصَّوالجة: كنْ مع عيسىٰ بن جعفر. فأبى يزيد، فغضبَ الرّشيدُ وقال: تأنفُ أنْ تكونَ معه؟! فقال: قد حلفتُ لأميرِ المؤمنين أنْ لا أكونَ عليه في جدّ ولا هزل[3].

* وقيل: إنَّ الرشيدَ قال ليزيد يوماً: يا يزيدُ، ما أكثر أمراء المؤمنين في قومِكَ!

قال: نعم إلاَّ أنَّ منابرهم الجذوع[4].

* ومنَ الجديرِ بالذِّكر أنَّ يزيدَ كان والياً بأرمينية، فعزله عنها هارون

---

(1) انظر: الأغاني (١٩/ ٤١ و٤٢) ومعاهد التنصيص (٣/ ٥٩).
(2) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣٧).
(3) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣٧).
(4) سير أعلام النبلاء (٩/ ٧١) ويعني: الجذوع التي يُصْلَبون عليها إذا قُتِلُوا.

الرَّشيد في سنة (١٧٢ هـ) ، ثمّ ولاه إيَّاها ، وضمَّ إليها أذربيجان سنة (١٨٣ هـ)[١] .

* كما أنَّ يزيدَ وليَ اليمن[٢] ، ولما كانَ والياً عليها ، قصده أبو الشَّمقمق مروان بن محمّد ـ مولى مروان بن محمّد الجعديّ آخر خلفاء بني أميّة ـ الشَّاعر الكوفي المشهور ، وكُنيته أبو محمد ، وكان مشْهوراً بأبي الشَّمقمق، وهو في حال رثّة، وكان راجلاً، فمدحَه وشرحَ حالَه بقوله:

رحَلَ المطيَّ إليكَ طلاَّبُ النَّدى ... ورحلتُ نحوَكَ ناقةً نَعْلَيَّه

إذْ لمْ تكنْ لي يا يزيدُ مطيّةٌ ... فجعلتُها لي في السِّفَار مَطيّه

ومنْها قولُه:

تنْتابُ أكرم وائلٍ في بيتها ... حَسَباً وقبّةُ مَجْدِها مبنيّه

أعْني يزيداً سيفَ آلِ محمّد ... فرَّاجَ كلّ شديدةٍ مخْشيّه

يوماهُ يومٌ للمواهبِ والجَدَا ... خَضِلٌ ويومُ دمٍ وخطْفُ منيّه

ولقد أتيتُكَ واثقاً بكَ عالماً ... أنْ لَسْتَ تسمعُ مدحةً بِنَسِيَّه

فقال يزيدُ: صدقتَ يا شمقمقي ، ولستُ أقبل مدحةً بنسيّةٍ ـ بأَجَلٍ ـ ، أعطوه ألفَ دينار[٣] .

* ولهذا امتدحه منصورُ بنُ سلمة النّمري الشَّاعر المعروف ، بقصيدةٍ طويلةٍ بائيةٍ أحسنَ فيها كلَّ الإحسان ، ومنها هذا البيتُ الجميل:

لو لَمْ يكنْ لبني شيبانَ من حَسَبٍ ... سوى يزيدَ لفاتوا النَّاس بالحَسَبِ

* وأوردَ مولىً يزيد بن مزيد خبراً عن علو همّة يزيد فقال: ركبَ يزيدُ

---

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٧١).
(٣) انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٣٣٦) بتصرف يسير جداً.

يوماً إلى الرشيدِ ، فتغلّفَ بغاليَةٍ ـ طِيْب ـ ثمَّ لَمْ يلبثْ أنْ عادَ ، فدعا بطستٍ ، فغَسَل الغاليةَ ، وقالَ: كرهت أنْ أكذّبَ قول مسلم بنِ الوليد:

لا يَعْبَقُ الطِّيْبُ خدَّيْه ومَفْرِقهِ ولا يُمسِّحَ عينَيْه منَ الكُحُلِ[1]

* وكانَ يزيدُ حصيفاً يدركُ بواطنَ الكلامِ ، كما كان حازماً فَطِناً ، فقد ذكرَ الأصفهاني أنَّ مسلمَ بنَ الوليد كانَ جالساً بين يدي يزيدَ بنِ مزيد ، فأتاه كتابٌ فيه مهمٌّ له ، فقرأَه سرّاً ووضعه ، ثمّ أعاد قراءتَه ووضعَه ، ثمَّ أرادَ القيام ، فقال له مسلم بنُ الوليد:

الحزمُ تحريقُه إنْ كنْتَ ذا حَذَرٍ وإنَّما الحزمُ سوءُ الظَّنِّ بالنَّاسِ
لَقَدْ أَتَاكَ وقد أدَّىٰ أمانَتَه فاجْعَلْ صيانَتَه في بطْنِ أرمَاسِ

فضحكَ يزيدُ وقال: صدقتَ لعمري ، وخرَّقَ الكتابَ ، وأمرَ بإحراقهِ[1].

* وليزيد بعضُ الأخبارِ الطَّريفة الممتعةِ ، فقد أوردَ أبو العبّاس المبرّد هذه الطّرفة في «كامِله» فقال: نَظَرَ يزيدُ بنُ مزيد الشَّيباني إلى رجلٍ ذي لحيةٍ عظيمة ، وقد تلفَّفتْ علىٰ صدره ، فإذا هو خاضِبٌ ، فقال: إنَّك من لحيتك في مؤونَةٍ!

فقال: أجَل ولذلك أقولُ:

لَها دِرهَمٌ للدَّهْنِ في كلّ جُمْعَةٍ وآخرُ للحنَّاء يَبْتَدرَانِ
ولَوْلَا نَوَالٌ مِنْ يزيدَ بنِ مَزْيدِ لَصَوَّتَ في حافَاتِها الجَلَمَانِ[2]

---

(1) انظر: الأغاني (١٩/ ٤٦).

(2) انظر: الكامل (٢/ ١٢٨) طبعة مصر ، والكامل (٢/ ٦٥٣) طبعة مؤسّسة الرّسالة في بيروت ، وسير أعلام النّبلاء (٩/ ٧٢) ، ووفياتُ الأعْيان (٦/ ٣٣٦) ، و«الجَلَمان»: بفتح الجيمِ واللامِ ، تثنيةُ جَلم ، وهو المقصّ. قال المبرد: قال أعرابي: =

عُـلُـوّ همَّتِـهِ:

* كان يزيدُ بنُ مزيدَ عالي الهمّة ، متأهّباً لكلِّ الملماتِ في جميعِ الأحوالِ ، وقد عُرِفَ بهذه الصِّفَة منذُ نُعومَةِ أظفارهِ ، حتى إنَّ عمَّه معنَ بنَ زائدة كان شديد الإعجابِ بعلوّ همته ، وكمالِ مروءته ، فكان يقدّمُه علىٰ أولادِه ، لأنَّه احتلَّ منْ نفسِه مكاناً رحْباً فسيحاً.

* رويَ أنَّ معنَ بنَ زائدةَ كان يقدّمُ ابنَ أخيه يزيد علىٰ أولادِه ، وينوّه به ، ويرفعُ منْ شأنِهِ في كُلّ مناسَبةٍ ، فغارتِ امرأتُه منْ ذلك ، ووجدتْ في نفسِها ، وعاتبتْه عتاباً مَريراً ، وكلَّمته وقالت: يا هذا؛ كمْ تقدّمُ يزيدَ ابنَ أخيك ، وتؤخّرُ بنيكَ وهم همو في الذِّروةِ والمجدِ ، ولو قدّمتهم لتقدّمُوا ، ولو رفعتَهم لارتفعوا.

فقال لها مَعْنٌ: يا هذه ، إنَّ يزيدَ ابن أخي قريبٌ منّي ، ثمَّ إنَّ له عليَّ حقّ الولد إذ كنْت عمُّه ، وبعْدُ فإنَّ أولادي ألْوطُ بقلبي ، وأدنىٰ منْ نفسي ، ولكنّني لا أجدُ عندهم منَ الغَناء ما عنده ، ولو كانَ ما يضطلعُ به يزيد في بعيدٍ ، لصارَ قريباً ، أو عدواً لصَار حَبيباً ، ألاَ ترينَ علوّ همّته ، وكمالَ مروءته ، وحسنَ أدبهِ؟! قالتْ: إنَّك تبالغُ كثيراً في ذلك.

قالَ: إذاً ، سأريكِ في هذه الليلةِ ما تبسُطينَ به عذري ، وترينَ فَضْله على أولادي.

= كـلُّ امـرىءٍ ذي لحيـةٍ عَثْـولِيَّـةٍ يقـومُ عليهـا ظـنَّ أنَّ لـه فَضْـلا
وما الفضلُ في طولِ السِّبال وعرضِها إذا اللهُ لـم يجعـلْ لصـاحِبهـا عقْـلا

و«عثولية»: كثيرة ، وقال بعض المحدثين:

ومـا حسـنُ الـرِّجـالِ لهـمْ بفخـرٍ إذا مَـا أخْطَـأ الحسـنَ البَيـانُ
كفـىٰ بـالمـرءِ عيبـاً أنْ تـراهُ لـه وجْـهٌ وليـسَ لـه لسَـانُ

* ثمَّ إنَّ معناً لما احلولكَ الليلُ وعَسْعَس ، نادى أحدَ خدمهِ ، وقال له: يا غلام ، اذهبْ فادعُ جسَّاساً وزائدةَ ، وعبدَ الله ، وفُلاناً وفلاناً ، حتّى أتى على ذِكْرِ أولادِه جميعاً ، فلمْ يلبثوا أنْ جاؤُوا في الغلائلِ المطيّبة والثّياب الليّنة ، والنِّعال السِّنْدية ، مكتحلين ، متعطّرين ، ـ وذلك بعد هدأةٍ منَ الليل ـ فسلّموا وجلسُوا في بطء.

* ونظر معنٌ إلى أولادِه ، وهم علىٰ تلك الهيئةِ وتلك الحالةِ ، ثمَّ نظرَ إلى امرأتهِ ولم يتكلمْ شيئاً ، وبعدها نادىٰ غلامَه وقال له: يا غلامُ ، ادعُ يزيدَ ابنَ أخي.

* فخرجَ الغلامُ سريعاً ، ونادىٰ يزيدَ ، فلم يلبثْ أنْ دخلَ على عمّه عَجِلاً وعليه سلاحُه ، ووضعَ رمْحَه ببابِ المجلس ، ثمَّ دخَل فسلَّم؛ فقال له معْنٌ: ما هذه الهيئة يا أبا الزُّبَير؟

فقال: جاءني رسولُ الأمير لَيْلاً ، فخفْتُ أنْ يكونَ حدث ، وسبقَ وهمي إلى أنَّه يريدُني لمهمّ منَ الأمورِ ، فلبستُ سلاحي ، وقلتُ: إنْ كانَ الأمرُ كذلك مضيتُ لأمْرِه ولم أعرجْ ، وإن كانَ علىٰ غيرِ ذلك ، فَنَزْعُ ثياب الحربِ عنّي من أسهلِ وأهونِ الأشياء وأيسرها.

فقال معنُ له ولأولادِه بعد أنْ أكرمَهم: انصرفُوا في حفظِ الله وتوفيقهِ.

* فلما خرجُوا قالت زوجتهُ: قد تبيَّنَ لي عذْرُكَ الآن ، وعجبَتْ من فطنةِ يزيد وهمّته ، وانقطعَ عتابُها لزوجها ، فأنشد معنٌ متمثّلاً:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا ... وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإِقْدامَا

وَجَعَلَتْهُ مَلكاً هُمامَا[1]

---

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣٣) بتصرف يسير. وقوله: «نفْس عصام سوَّدت عصاما» منْ أمثالِ العربِ المشهورةِ. قالَ العسْكريُّ: هوَ عصامُ بنُ شَهَبر الجِرْميُّ ، وكانَ منْ =

* هذا وقد أشارَ إلى علوّ همّةِ يزيد مسلمُ بن الوليد بقوله:

تَرَاهُ في الأَمْنِ في درْعٍ مُضَاعَفَةٍ ... لا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَىٰ عَلَى عَجَلِ

* وهذا البيت من قصيدةٍ مشهورةٍ لمسلم بن الوليد في امتداحِ يزيد، وله قصّةٌ ظريفةٌ ساقَها صاحبُ «الأغاني» وغيره، وقد أشرنَا إليها في الفقْرة السَّابقة، وأنَّها حدثت مع هارون الرشيد.

* ومما حدثَ ليزيد مع هارون الرّشيدِ، ما حكاه يزيدُ بنُ مزيد عن نفسِه فقال: أرسلَ إليَّ الرَّشيدُ ليلاً يدعوني، فأوجستُ منه خيفةً فقال: أنتَ القائلُ: أنا ركْنُ الدَّولةِ والثَّائرُ لها، والضَّارب أعناقَ بغاتِها، لا أُمَّ لك؛ أيّ ركنٍ لك، وأيّ ثائر أنْتَ؟ وهل كان منكَ فيها إلا نفخة أرنب رعَبَتْ قطاةً جثَمَت بمفحَصِها؟

= أشدِّ النَّاسِ بأساً، وأبينَهم لِسَاناً، وأحزَمَهم رأياً، وكانَ علىٰ جلّ أمْرِ النُّعمانِ، ولم يكنْ في بيتِ قومهِ أدنىٰ منْه، فقالَ له رجلٌ: كيفَ نزلتَ هذه المنزلةَ منَ المَلِكِ وأنتَ دنيءُ الأصْلِ؟ فقال:

نفْسُ عِصَامٍ سوَّدَتْ عِصَامَا ... وعلَّمتْهُ الكرَّ والإقْدامَا
وجعلتْهُ مَلِكاً هُمامَا

والناسُ يقولونُ لمن يفتخرُ بنفسهِ: عصاميّ، ولمن يفتخرُ بآبائِه عظَاميّ.
وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أبطأَ بِهِ عملُه لم يسرعْ بهِ نَسَبُه» (أخرجَهُ مسلم ٤/ ٣٠٧٤) عن أبي هريرة مرفوعاً.
وقال أبو العتاهية:

هلْ ينفَعُ المرء في فَهَاهَتِهِ ... مِنْ عَقْلِ جدٍّ مضىٰ وعقْلِ أَبِ
ما المرءُ إلاَّ ابنُ نفسِهِ فَبِها ... يُعْرَفُ عندَ التَّحصيلِ لا النسبِ
كُن ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ أَدَباً ... يغنيكَ محمودُه عنِ النَّسبِ

* وكتبَ أبو الفضْل بنُ العميد: أظنّك ممنْ لا يعلمُ أنَّ المتعلِّقَ بالأنسابِ متمسِّكٌ بأضعفِ الأسْبابِ؛ وأنَّه لن يغنيَ عنك تالدٌ موروثٌ إذا لم يَشِدْهُ من جهتِكَ طارفٌ حديث.

قلت: يا أميرَ المؤمنين ، ما قلتُ هذا ، إنّما قلتُ: أنا عبدُ الدَّولةِ والفائز بها.

فأطرقَ وجعلَ ينحلُّ غضبه عن وجههِ ، ثمَّ ضحكَ ، فقلت: أَسَرُّ من هذا قَولي:

خِلافَةُ اللهِ في هارونَ ثابتَةٌ　　وفي بَنِيهِ إلىٰ أنْ يُنْفَخَ الصُّورُ

إرثُ النَّبيّ لكمْ منْ دونِ غيرِكمُ　　حقٌّ منَ اللهِ في القُرآنِ مَسْطُورُ

فقال: يا فضل ، أعطِه مئتَي ألف درهمٍ قبل أنْ يصبح(١).

* ومما أثِر عن علوّ همّة يزيد بن مزيد ، وشهرتهِ ونجدتهِ هذه الحكاية اللطيفة ، التي أوردَها ابنُ خَلِّكان عن بعضِهم فقال:

كنتُ مع يزيد بن مزيد ، فإذا صائحٌ في الليلِ: يا يزيدَ بنَ مزيد ، فقال يزيد: عليَّ بهذا الصَّائح.

فلما جيء به قالَ له: ما حملَك على أنْ ناديتَ بهذا الاسم؟! قال: نفقَتْ دابّتي ، ونفدَتْ نفقتي ، وسمعتُ قول الشَّاعر فتيمنْتُ به.

فقال: وما قالَ الشَّاعر؟ فأنْشَدَ:

إذا قيلَ مَنْ للمَجْدِ والجُودِ والنَّدىٰ　　فَنادِ بصَوْتٍ يا يزيدَ بنَ مزْيَدِ

فلما سمعَ يزيد مقالَته ، هشَّ له وقال له: أتعرفُ يزيدَ بنَ مزيد؟

قال: لا واللهِ.

قال: أنا هو ، وأمَرَ له بفرسٍ أبْلَقٍ كان به مُعْجبَاً ، وبمئةِ دينار(٢).

تلكم المكارمُ والأخلاقُ الحِسَان التي كان يزيدُ بنُ مزيد يتخلَّقُ بها ،

---

(١) انظر: التذكرة الحمدونية (٢/ ١٤٢) طبعة دار صادر الأولى ١٩٩٦ م.

(٢) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣٧).

ألا ما أجملَ وأكرمَ تلك الشّمائل!! ولله درُّ القَائِلِ:

عَشِقَ المكارمَ فهو مشتغلٌ بها ... والمكرماتُ قليلةُ العُشَّاقِ
وأقامَ سوقاً للثَّناء ولم تكُنْ ... سوقُ الثَّناء تُعَدُّ في الأَسْواقِ
بثَّ الصَّنائعَ في البلادِ فأَصْبَحَتْ ... تُجبىٰ إليه محامدُ الأَخْلاقِ

يَزيدُ ومقْتَلُ الوَلِيْدِ بنِ طَرِيْف:

* كانَ يزيدُ بنُ مزيدَ الشَّيباني واحداً منَ الفُرسانِ الشُّجعانِ الذين دعمُوا الخلافةَ العبّاسيّة ببأسِهم وبطولتِهم وشجاعتِهم[1]، وهو الذي قَتَلَ رأْسَ الخوارجِ وفارسهم الوليدَ بنَ طريف الشَّاري.

* وكانَ الخليفةُ هارون الرّشيد ـ رحمه الله ـ يحبُّ البطلَ الفارسَ الصِّنديدَ يزيدَ بنَ مزيد الشَّيباني ويقدّمه على غيرِه من فرسانِ عَصْرِه، وكذلك كان يقدّم عمّه معن بن زائدة، ممّا أثارَ حقدَ البرامكةِ الذين كانُوا

---

(١) منَ الأدلّةِ علىٰ أنَّ يزيدَ بنَ مزيد كانَ سَنَداً قويّاً للخلافةِ العبّاسيّةِ، ما وردَ أنَّه خرجَ في سَنَةِ (١٦٠ هـ) رجلٌ بخراسانَ علىٰ المهديّ مُنْكِراً عليه أحوالَه وسيرتَه وما يتعاطاهُ، يُقَالُ له: يوسُفُ البرم، والتفَّ عليه خَلْقٌ كثيرٌ، وتفاقَمَ الأمْرُ، وعظُمَ الخطبُ به، فتوجَّه إليهِ يزيدُ بنُ مزيد فلقِيَه، فاقْتتلا قِتالاً شَديداً، حتّى تنازَلا وتعانَقَا، فأَسَرَ يزيدُ بنُ مزيدَ يوسفَ هذا، وأسرَ جماعةً منْ أصحابِهِ، فبعثَهم إلى المهديّ، فأُدْخِلُوا عليه، وقد حُمِلُوا علىٰ جمالٍ مُحوَّلَةٌ وجوهُهم إلى ناحيةِ أذنابِ الإبلِ، فأمَر الخليفةَ هرثمةَ أنْ يقطعَ يدَي يوسُفَ ورجلَيْه، ثمَّ تُضْرَبُ عنقُه وأعناقُ مَنْ معه، وصلَبَهم على جسْرِ دجلةَ الأكبر ممّا يلي عسْكر المهديّ، وأطفأَ اللهُ ثائرتَهم، وكفىٰ شرّهم. (البداية والنّهاية ١٠/ ١٣١)

* وفي سنةِ (١٨٣ هـ) خرجت الخزرُ على النَّاسِ من ثلمةِ أرمينية، فعاثُوا في تلكَ البلادِ فساداً، وسبُوا منَ المسلمين وأهلِ الذِّمَّة نحواً من مئة ألف، وقتلوا بشَراً كثيراً، وانهزمَ نائبُ أرمينية سعيدُ بنُ مسلم، فأرسلَ الرشيدُ إليهم خازم بن خزيمة ويزيد بن مزيد في جيوشٍ كثيفةٍ، فأصلحوا ما فَسَدَ في تلكَ البلاد.

(البداية والنهاية ١٠/ ١٨٣)

أعداءً ليزيدَ ، ويحسدونه على مكانتِهِ منْ هارونَ الرَّشيد[1] .

* ومن العجيبِ أنَّ البرامكةَ وزراءَ هارونَ الرّشيدِ همُ الذين دبّروا ضِدَّ يزيدَ بنِ مزيدَ لإبعادِه عن حُبِّ الخليفةِ وعطفهِ ، فقد اهتبلُوا فرصةً خطيرةً منْ أخطرِ ما مرَّ على الدّولة العباسيّة في عَصْر الرَّشيد ، وهي قوّةُ الوليدِ بنِ طريف الشَّاري الشَّيباني زعيم الخوارجِ ، وفارسهم ومقدمهم ضدّ هارون الرَّشيد ، وزيَّنُوا للخليفةِ أنْ يرسلَ جيشاً بقيادةِ يزيد لحربهِ ، وهنا أصبح يزيدُ بنُ مزيد بين أمرَيْن حَرجَيْن:

---

(١) ممَّا يدلُّ علىٰ عداوَةِ البرامِكَةِ وحَسَدِهم ليزيدَ بنِ مزيد ومعنِ بنِ زائدة ما أوردَهُ الأصفهانيّ قال: دخلَ سَلمُ الخاسِر علىٰ الرشيدِ ، وعندَه العبّاسُ بنُ محمّد ، وجعفرُ بنُ يحيىٰ ، فأنشدَه قوله فيه: «حضَرَ الرَّحيلُ وشدّتِ الأحْدَاجُ. . .».
فلما انتهى إلى قوله:
إنَّ المنـايَـا فـي السُّيـوفِ كـوامِـنٌ حتّـى يُهيِّجَهـا فتـىً هيَّـاجُ
فقالَ الرشيدُ: كانَ ذلك معنُ بنُ زائدةَ.
فقال: صدق أمير المؤمنين ، ثم أنشد حتى انتهى إلى قوله:
ومُـدَجَّـجٍ يغشـىٰ المضيـقَ بسيفِـهِ حتّـى يكـونَ بسيفِـهِ الإفْـراجُ
فقال الرشيدُ: ذلك يزيدُ بنُ مزيد.
فقال: صدقَ أميرُ المؤمنين.
فاغتاظَ جعفرُ بنُ يحيىٰ ، وكانَ يزيدُ بنُ مزيدَ عدوّاً للبرامكةِ ، مُصَافياً للفضلِ بن الرَّبيع ، فلمّا انتهى إلى قولِهِ:
نـزَلَـتْ نجـومُ الليـلِ فـوقَ رؤوسِهـم ولكُـلِّ قـومٍ كـوكَـبٌ وهَّـاجُ
قالَ له جعفرُ بنُ يحيَى: منْ قلَّةِ الشِّعْر حتّى تمدحَ أميرَ المؤمنين بشعْرٍ قيلَ في غيرِه! هذا لبشَّار في فلانِ التَّميميّ ، فقال الرشيد: ما تقولُ يا سَلم؟ صدقَ يا سيّدي ، وهلْ أنا إلاَّ جزءٌ منْ محاسنِ بشّار ، هل أنطقُ إلا بفضْلِ منطقِه ، وحياتك يا سيّدي إنّي لأروي له تسعةَ آلاف بيت ، ما يعرفُ أحدٌ غيري منها شيئاً. فضحكَ الرشيدُ ، وقال: ما أحسنَ الصِّدق! امضِ في شعْرِك ، وأمَرَ لهُ بمئة ألف درهم.
(الأغاني ١٩/ ٣٠٠ و٣٠١)

الأوَّلُ: إمَّا أن يحاربَ ابنَ عمِّه الوليدَ بنَ طريف الشَّيباني ، فيقتلَه أو يُقتلَ ، وبذلك يرضي الخليفة الرّشيد.

الثّاني : إما أنْ يقفَ إلى جانبِ ابنِ عمّه الوليدِ بنِ طريف ، وعندها يقعُ في غَضَبِ الخليفة.

* وعندما انتصرَ يزيدُ ضدَّ الخارجينَ على الخليفةِ العربيّ القرشيّ ، سكتَ البرامكةُ وأُلجِمُوا حينَ أخفقتْ مساعيهم فيما دبّروه سرّاً ، وأظهروا الفرحَ لهذا ، وهم على غيظٍ وحنقٍ شديدٍ ، تكادُ أفئدتُهم تنفطِرُ منْ ذلك[1].

* أما قصَّةُ مَقْتلِ الوليدِ بن طريف على يدِ يزيدَ بنِ مزيد ، فقد ذكرتْها كثيرٌ منَ المصادرِ التَّاريخية والأدبيّة.

* فقد كانَ الوليدُ بنُ طريف بنِ الصَّلت الشَّيباني الشَّاري أحدَ الشُّجعانِ الطُّغَاةِ الأبطالِ ، وكانَ رأسَ الخوارجِ ، يقيمُ في نصيبين والخابورِ وهاتيكَ النَّواحي ببلادِ الجزيرةِ ، وخرجَ في خلافةِ هارون الرّشيد ، وبغىٰ في الأرض الفَسَادَ ، وحشدَ جموعاً كثيرةً حولَه ، وعظُمَ جمعُهُ منَ الشُّراةِ حتَّى انتشروا في تلكَ البلادِ ، ونهضَ إليهم عاملُ ديار ربيعة فقتلوه ، وصارَ إلى ديارِ مُضَر ، فحصروا عبدَ الملك بنَ صالح بنِ عليّ العبّاسي بالرَّقَّةِ ،

---

(١) قال الدكتور جميل سُلطان عن مكائدِ الأعاجمِ وبلاياهم: وكانَ منْ بلايا الأعاجم على هذه الأمّةِ أنْ أفْسَدوا لها عقائِدَهَا وآراءَها في كلِّ شَيء ، حتّى في المنكر المكروهِ ، فقد صيّروه مُسْتَظرفاً طبيعيّاً في دولتِهم ، وفيما وليَهم منَ الدُّول ، فلم يكنْ يستشعِرُ معظمُ الناس في ذلك استنكاراً ، لأنَّ الأخلاقَ نسبيةٌ ، وأحكام البشرِ تتغيّرُ بتغيّرِ الأزمانِ ، وهكذا انتقمَ الفرسُ منَ العربِ الفاتحين انتقامَيْن: تقويضَ المُلْكِ العربيّ الخالص؛ وإفسادَ الأخلاق العربيّة الفاضلة.

(مسلم بن الوليد ص ١٣٦)

فاستشار هارون الرّشيد يحيىٰ بنَ خالد البرمكي فيمن يوجّهه لحربِ الوليدِ بن طريف الشَّيباني ، فقال له يحيىٰ: يا أميرَ المؤمنين ، وجِّه إليه موسىٰ بنَ حازم التَّميمي ، فإنَّ فرعونَ كان اسمُه الوليد ، فغرّقَه موسى عليه السَّلام.

* فوجَّه الرشيدُ موسى بنَ حازم التَّميميّ إلى الوليدِ في جيشٍ كثيف ، لكنَّ الوليدَ لاقَاهُ في أصحابهِ وجماعته ، وهزمَه الوليد وقتَلَه ، وشتَّتَ جيشَه وفرقَ جموعَه.

* ولما بلغَ الرشيدُ ذلك وجَّه إليه معمر بنَ عيسى العبديّ ، فكانت بينهما عدّةُ وقائع بناحيةِ دار منْ ديار ربيعة ، فلما اتَّصل ذلك ، وكثرت جموعُ الوليد ، وظهرَ هذا الظُّهور العظيم ، قالَ الرشيد: ليس لها إلاَّ الأعرابي يزيد بن مزيد الشَّيباني؛ فقال بكر بنُ النَّطَّاح الشَّاعر:

لا تبعثنَّ إلى ربيعةَ غيرَهَا ... إنَّ الحديدَ بغيرهِ لا يُفْلِحُ

* فوجَّهَ الرّشيدُ إليه يزيدَ بنَ مزيد[1] في عَسْكرٍ ضَخْم ، وأمره

---

(١) جاءَ في كتابِ «المُختار من شِعْرِ بشّار» طبعة مصر عام (١٩٣٤ م) ، عن سببِ قتْلِ الوليدِ بن طريف مايلي: ماتَ الوليدُ مقْتولاً ، قتلَه ابنُ عمِّه يزيد بن مزيد الشَّيباني ، وسببُ قَتْلِهِ إيَّاه أنَّ الوليدَ بنَ طريف كانَ خرجَ علىٰ الرَّشيد ، فدعَا الرشيدُ يزيدَ بنَ مزيد ، فقال له: يا يزيدُ مَنِ القائِلُ:

لله مَنْ هاشمٍ في أرضِهِ جَبَلٌ ... وأنتَ وابنَاكَ ركْنَا ذلكَ الجَبَلِ
قد عظَّموكَ فما تُدعى لهيّنَةٍ ... إلاَّ لمعضلةٍ تَسْتَنُّ في العَضَلِ

قال: هوَ في شِعْر مُسلمِ بنِ الوليد.
قال: ففي مَنْ قالَه مُسلم؟
قال: في عبدك يا أمير المؤمنين!
قال: دعوتك لحرب الوليد بن طريف الشيباني.
فقال: يا أمير المؤمنين ، لو ندبتَ رجلاً من غيرِ عشيرتهِ.
فقال الرشيدُ: إنّي لم أَدْعُكَ للمشَاورة. =

بمناجزَتهِ ، فقصده يزيدُ ، وجعل الوليدُ يراوغهُ ويزيدُ يتبعه ، وكان الوليدُ ذا مكْر ودهَاء ، ثم كانتْ بينهما حربٌ صعبة .

* وكانتِ البرامكةُ منحرفةً عن يزيدَ بن مزيد ويكيدون له كلَّما سنحتْ لهم الفرصةُ بذلك ، وهنا أوغَروا صدْرَ الرَّشيدِ ، وأغْروا به عنده وقالوا له : يا أميرَ المؤمنين : إنَّ يزيدَ بنَ مزيد الشَّيباني يراعي الوليدَ لأجلِ الرَّحِمِ بينَهما ، وإلاَّ فشوكةُ الوليدِ بنِ طريف يسيرةٌ وسهلةٌ ، وقناته ليستْ صلبةً .

* وبلغَ الرشيدُ ممُاطَلةَ يزيد بن مزيد له ، فوجَّهَ إليه خيلاً بعد خَيْل ، ثمَّ بعثَ إليهِ مَنْ يعنّفه ـ بعد مقالَة البرامكة فيه وافترائهم عليه ـ وقال له : لو وجّهتُ أحدَ الخَدم لقامَ بأكثر مما تقومُ به ، ولكنّك مداهنٌ متعصّبٌ ، وأميرُ المؤمنين يقسمُ بالله لئن أخّرْتَ مناجزةُ الوليدِ ، ليبعثنَّ إليك من يحملُ رأْسَكَ إلى أميرِ المؤمنين .

* فسارَ يزيدُ في طلبه ، ثمَّ نزل يصلّي الصُّبح ، فلم يستتم صلاته حتى طلعَ الوليدُ عليه في عَسْكره ، واصطفّتِ الخيلان وتزاحفَ النَّاس .

= فقال يزيد : السَّمْعُ والطَّاعة .

* فخرجَ حتّى شارفَ عَسْكرَ الوليدِ بنِ طريف ، فكتبَ الوليدُ إليهِ مِراراً ينْهَاهُ عن قتالِهِ ، ويستعطِفُه ويوبّخُهُ ويدعوه إلى الخلافِ علىٰ الرَّشيدِ ، وقالَ له في بعضِ الكتبِ إليه : أَمَا تستحيي أنْ تكونَ عَوناً للظَّالمين على الدَّعوةِ إلى الحقّ والنَّاصحينَ للهِ ولرسوله ، وأنا ابنُ عمّك؟! فواللهِ لئن أنتَ وافقتني علىٰ هذا الأمْرِ فاجتمعْنا عليهِ ، لا أطاقنا أحدٌ ، وإنْ لم تفعلْ فواللهِ لئن قتلْتَني لتوهينَّ عزَّكَ ، ولئن قتلتُك لأوهينَّ عزّي .

* فلَمْ يلتفتْ إليه يزيدُ وقاتَلَه حتّى ظفرَ بهِ وهزمَ أصحابَه ، وكتبَ إلى الرشيد بالفتح ، فَسُرَّ الرشيدُ بذلك وابتهجَ له ، ورمىٰ بكتابِهِ إلى عيسىٰ بنِ جعفر ، فقال له : اقرأْ ، فلمّا قرأهُ عيسى قال : يا أميرَ المؤمنينَ ، أتدري ما يقولُ هذا وقومُهُ؟! قال : وما يقولون؟ قال : يقولون : لولا نحنُ لانفكّتِ الأرضُ بأهلِها .

* وقد ورد أنَّ الوليدَ بنَ طريف كان ينشدُ:

أنَا الوليدُ بنُ طريف الشَّاري ... قَسْورةٌ لا يُصْطَلىٰ بنَاري

جورُكم أَخْرجَني منْ دَاري

* ويروىٰ أنَّ الوليدَ كان يقولُ في مخاطبةِ يزيد بنَ مزيد:

ستَعْلَمُ يا يزيدُ إذاَ التقَيْنَا ... بِشَطِّ الزَّابِ أيّ فَتىً يكونُ

* ولما شبَّتِ الحربُ، واشتدَّت شوكتُها، والتهبتْ نارُها، ناداه يزيدُ: يا وليد ما حاجتك إلى التّستُّر بالرّجال؟ ابرزْ إِليَّ.

فقال الوليدُ: نعم واللهِ.

* فبرزَ الوليدُ، وبرزَ إليه يزيد، ووقفَ العَسْكَران فلم يتحركْ منهما أحدٌ، فتطاردا ساعةً، وكلٌّ واحدٍ منهما لا يقدرُ على صاحبهِ، حتى مضَتْ ساعاتٌ منَ النَّهار، فأمكنتْ يزيدُ فيه الفرصةَ، فضربَ رجْلَه فسَقَطَ، وصاحَ يزيدُ بخيلهِ فسقطُوا عليه، واحتزّوا رأْسَه، وذلك في سنة (١٧٩ هـ)، عشيّة أوّل خميسٍ في شَهْر رمضَان[١].

* ثمَّ إنَّ يزيدَ وجَّهَ برأسِ الوليدِ بنِ طريف[٢] إلى الرَّشيد، وبكتابِ

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٣١ و٣٢ و٣٢٧ و٣٢٩) بتصرف. وقال ابنُ العماد في حوادث سنَةِ (١٧٩ هـ): فيها كانتْ فتنةُ الوليدِ بن طريف الشَّاري الخارجيّ، وأحدِ الشُّراة وهم الخوارجُ، وسمّوا بذلك لقولِهم: شَرينا أنفسَنا في طاعةِ الله، أيْ بعنَاها بالجنّةِ حينَ فارقْنَا الأئمة الجبابرة. وكانَ الوليدُ أحدَ الشّجعان، وندبَ الرشيدُ لحربهِ يزيدَ بنَ مزيد بن زائدة، ومكثَ يزيدُ مدّة يماكِرُه ويخادِعُه، وكانتِ البرامكةُ منحرفةً عن يزيد، فقالوا للرَّشيد: إنَّه مُداهِن. فأرسلَ إليه يتوعّده، فناجزَه يزيدُ فظفر به، ولما انهزمَ تبعهُ يزيدُ بنفسه حتّى أدركَه علىٰ مسافةٍ بعيدة، فقتلَه، واحتزَّ رأسه. (شذرات الذَّهب ٢/ ٣٤٩) بتصرف واختصار

(٢) يُقال: إنَّه لمَّا انكسرَ جيشُ الوليد، وانهزمَ تبعَه يزيدُ بنفسهِ حتّى لحقَه على مسافَة بعيدة، فقتلَه وأخذَ رأْسَه. (وفيات الأعيان ٦/ ٣٣)

الفَتْح مع ابنهِ أسد بنِ يزيد ، وفي ذلك يقولُ مُسْلمُ بنُ الوليد في يزيد قصيدة مشهورة منها :

لـولا يَـزيـدُ وأيّـامٌ لَـه سَلَفَـتْ ... عاشَ الوليدُ معَ الغَاوينَ أعْوامَا
سَلَّ الخليفةُ سَيفاً من بني مَطَرٍ ... يمضي فيخترقُ الأَجْسَاد والهَامَا
حمَى الخلافةَ والإسلامَ فامتنَعا ... كالليثِ يحمي معَ الأَشْبالِ آجَامَا
أكْـرمْ بـهِ وبـآبـاءٍ لَـهُ سَلفُـوا ... أبقـوا مـنَ المجـدِ أيّـامـاً وأيّـامَـا
أردىٰ الوليدَ همامٌ منْ بني مَطَرٍ ... يـزيـدُه الـروعُ يـومَ الـرَّوع إِقْـدامَـا

* ولما انصرفَ يزيدُ بالظَّفَر إلى بابِ الرَّشيد ، حُجِبَ برأي البرامكةِ ، وأظهرَ الرشيدُ السُّخْطَ عليه ، فقال : وحقّ أمير المؤمنين لأُصيّفَنَّ وأشتونَّ علىٰ فرسي أو أدخلَ ، فارتفعَ الخبرُ بذلك ، فأذنَ له ، فدخلَ وقدَّمه ، ورفعَ مرتبتَه ، وضحكَ وسُرَّ ، وأقبلَ يصيحُ : مَرحَباً بالأعرابي حتّى دخلَ وأُجْلِسَ وأكرِمَ وعُرِفَ بلاؤُه ، ونقاءُ صَدْره ، وقال له الرّشيد :

يا يزيدُ ، ما أكثر أمراء المؤمنين في قومكَ؟!

قال : نعم إلا أنَّ منابرهم الجذوع ـ يعني الجذوع التي يُصْلَبون عليها إذا قُتِلُوا[1] ـ

* ومدحَ يزيدَ مسلمُ بنُ الوليدِ بقصيدةٍ ذكَر فيها مقْتَلَ الوليدِ بنِ طريفٍ فقال من قصيدته اللاميّة المشْهورة :

يفْتَرُّ عندَ افْترارِ الحربِ مُبتسماً ... إذا تغيَّـرَ وجْـهُ الفَـارِسِ البَطَـلِ
مُوفٍ علىٰ مُهجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ ... كـأَنَّـه أجَـلٌ يَسْعـىٰ إلـى أمَـلِ
يَنالُ بالرِّفْقِ ما تَعْيا الرِّجالُ بهِ ... كالموتِ مُستعْجِلاً يأْتي على مَهَلِ

إلى أنْ يقولَ :

---

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢٩) ، ومعاهد التنصيص (٣/ ١٦٢) مع الجمع والتصرف .

والمَارِقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفْتَ لَهُ بِعَـارِضٍ للمنَـايـا مُسْبِـلٍ هَطِـلِ
لَـو أنَّ غَيْـرَ شَـريكـيٍّ أطـافَ بـهِ فازَ الوليدُ بقدحِ النَّاضِلِ الخَضِلِ
ما كانَ جَمْعُهمُ لمّا دلفْتَ لَهم إلاَّ كمثْـلِ جَـرَادٍ ريْـعَ مُنْجَفِـلِ[1]

* وقد روي أنَّ هارونَ الرشيد لما جهَّزَ يزيدَ بنَ مزيد إلى حربِ الوليد بنِ طريف أعطاهُ ذا الفقَار سيف النَّبيّ ﷺ وقال له: خذْهُ يا يزيد، فإنَّك سَتُنْصَرُ به، فأخذَهُ ومضىٰ، وفي ذلك يقولُ مسلمُ بنُ الوليد:

أذْكَـرتَ سَيْـفَ رسـول اللهِ سنَّتَـهِ وبأسَ أوَّلِ مَنْ صَلَّى ومَنْ صَامَا

يعني بأسَ عليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إذ كان هو الضَّارب به[2].

* ومنَ الجدير بالذكْر أنَّ الوليدَ بنَ طريف قد رثتْه أختهُ الفارعةُ[3] ببضع قصائدَ ومقطّعات، ومنها القصيدةُ الفائيّة المشهورة التي منها هذه الأبيات:

أيا شَجر الخابورِ مالَكَ مُورقاً كأنَّكَ لم تَحْزَنْ على ابنِ طريفِ
فتىً لا يحبُّ الزَّادَ إلا مِنَ التُّقىٰ ولا المـالَ إلا مـن قنـاً وسيـوفِ[4]

ومنها:

حَليفَ النَّدى ما عاشَ يرضىٰ به النّدى فإنْ ماتَ لا يرضىٰ النَّدى بحليفِ
فـإنْ يـكُ أرداهُ يـزيـدُ بـنُ مـزيـد فـرُبَّ زُحـوفٍ لفَّهـا بـزحُـوفِ
عـليـهِ سَـلامُ اللهِ وقْفـاً فإنّـني أرىٰ الموتَ وقّاعاً بكلّ شريفِ

---

(١) معاهد التنصيص (٣/ ١٦٣).
(٢) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢٩). وقالَ الأصمعيُّ: رأيتُ الرَّشيدَ بطُوس متقلّداً سيفاً، فقالَ: يا أصمعيُّ، ألا أريكَ ذَا الفقَار؟! قلتُ: بلىٰ، جعلني اللهُ فداكَ. فقال: استلَّ سيفي هذا، فاستللتُه، فرأيتُ فيه ثماني عشرةَ فقارة.
(وفيات الأعيان ٦/ ٣٣٠)
(٣) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب في الباب الأخير تحت عنوان: فارسات من التاريخ.
(٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٧٣).

* ومن مراثيها فيه قولها:

ذَكَـرتُ الـوليـدَ وأيّـامَـه ... إذا الأرضُ مـنْ شَخْصِـهِ بلْقَـعُ

أضَـاعَـكَ قـومُـك فَلْيطْلبـوا ... إفـادةَ مثـلِ الـذي ضيَّعُـوا[1]

وَدَاعاً أَبَا النُّجَباءِ:

* ظلَّ الفارسُ البطلُ يزيدُ بنُ مزيد أميرَ السَّاحاتِ وشجاعَ المعامع طيلةَ حياته؛ والكلامُ عنه طَويلٌ طويلٌ، والكلامُ شجونٌ يتعلَّق بعضُه ببعض، ومحاسنُ يزيد كثيرة كثيرة، لا تتَّسِعُ هذه العُجالةُ لجمعِ أشتاتِها، ونظمِها في هذا العقْد النَّفيس.

* وامتدتِ الحياةُ بيزيدَ إلى سنَةِ (١٨٥ هـ)، حيثُ وافَتْه المنيّةُ، ورثاهُ عددٌ من الأماثِل وأكابرِ الشُّعراء، وذكروا جودَه وكرمَه وشجاعتَه، وعدَّدوا مآثِره وأياديه البيْضِ في مجالِ اللّسان والسِّنان.

* ورثاه مسلمُ بن الوليدِ، وبكاه بكاءً حاراً وجادت عيناه بدمع هَتُون، وفي مثلِ يزيد تَسخو البواكي، فهو البطلُ النّجيد، والفارسُ النَّجيب، والكريمُ الجوادُ، فها هو مسلم بنُ الوليد لا يكادُ يصدِّقُ النَّبأَ المؤلمَ، نبأَ وفاةِ يزيد الذي هَصَره الموتُ، ويتساءلُ مسلم كيفَ يُودي الموت حامي المجد والإسلام؟ وكيف تتماسكُ الأرضُ فلا تميدُ؟ وتقفُ دعائم الإسلام فلا تميلُ؟ بل كيف لا تُهدُّ نزار لمصرعه ولا تتهدَّم الأمجادُ لفقْدِهِ؟ يقولُ مسلمُ بنُ الوليد في مرثاتِهِ الدَّالية[2] والتي مطلعُها:

أَحَـقٌّ أنَّـه أودَىٰ يـزيـدُ ... تـأمَّـلْ أيُّهـا الـدَّاعـي المُشيْـدُ

---

(١) معاهد التنصيص (٣/ ١٦٣). وللفارعة قصيدةً أخرىٰ داليّة أوّلها:

يـا بنـي وَائـلَ لقـد فجعتكـم ... مـنْ يـزيـدَ سيـوفُـه بـالـوليـد

(٢) ذكر ابنُ خلّكان أنَّ هذه القصيدة قالَها أبو محمد عبدُ الله بنُ أيوب التّيمي الشَّاعر المشهور.

تـأمَّـلْ مَـنْ نَعيْتَ وكيـفَ فَـاهَـتْ ... بـهِ شَفَتَـاكَ كـانَ بهـا الصَّعيـدُ
أحَـامـي المجـدِ والإسـلامِ أودىٰ ... فَمـا لـلأرضِ ويحـكَ لا تميْـدُ
تـأمَّـل هـلْ تَـرَىٰ الإسـلامَ مـالَـتْ ... دعـائمُـه وهَـلْ شَـابَ الـوليـدُ
وهـلْ شيْمَـتْ سيـوفُ بنـي نِـزارٍ ... وهلْ وُضِعَتْ علىٰ الخيلِ اللَّبودُ

ومنها:

أمَـا هُـدَّتْ لِمصْـرعِـهِ نـزارٌ ... بلـىٰ وتقـوَّضَ المجـدُ المشيـدُ
وحـلَّ ضـريحُـه إذْ حـلَّ فيـه ... طـريـفُ المجـدِ والحَسَـبُ التَّليـدُ
أمَـا واللهِ لا تنفـكُّ عينـي ... عليـكَ بـدمعِهـا أبـداً تجـودُ
أبعـد يـزيـدَ تختـزنُ البـواكـي ... دُمـوعـاً أو تُصَـان لهـا خُـدود
فـإنْ يهلـكْ يـزيـدُ فكـلّ حـيّ ... فَـريْـسٌ للمنيّـةِ أو طـريـدُ
ألَـمْ تعجـبْ لـه أنَّ المنَـايـا ... فتكْـنَ بـهِ وهُـنَّ لـه جنـودُ
لقـد عـزّىٰ ربيعـةَ أنَّ يـومـاً ... عليهـا مثـل يـومـكَ لا يعـودُ(١)

* ويروى أنَّ يزيدَ بنَ مزيد قد ماتَ في بلدٍ يسمّى «بردعة» أو «برذعة»، في أقصى أذربيجان فرثَاه مسلمُ بنُ الوليد بأبياتٍ منها:

قَبْـرٌ ببـرذَعَـةَ استسـرَّ ضـريحُـه ... خطـراً تقـاصَـرُ دونَـه الأَخْطـارُ
أبقـىٰ الـزَّمـانُ علـىٰ معـدٍّ بعـدَه ... حُـزنـاً كعمـرِ الـزَّهْـرِ ليسَ يُعـارُ
نفضَـتْ بكَ الأحلاسَ آمالُ الغنى ... واستـرجعـتْ نُـزَّاعهـا الأَمْصـارُ
فاذْهَبْ كما ذهَبَتْ غوادي مُزْنَةٍ ... أثنـىٰ عليهـا السَّهْـل والأَوْعَـارُ(٢)

---

(١) ديوان صريع الغواني (ص ١٤٧ ـ ١٤٩) والقصيدة تعد (١٨ بيتاً). وانظر: وفيات الأعيان (٦/٣٣٨)، ومسلم بن الوليد لجميل سلطان (ص ١٨٨ و١٨٩) طبعة دار الأنوار بيروت ١٩٦٧ م. وغير ذلك من مصادر.

(٢) ديوان صريع الغواني (ص ٣١٣ و٣١٤) باختصار؛ وانظر: وفيات الأعيان (٦/٣٣٩).

* وقيل: إنَّ هذا البيتَ الأخيرَ أبلغُ شيءٍ قيل في المَراثي[1].

* ورثاه منصور النّمري فقال:

أَبَا خَالِدٍ مَا كانَ أَدْهَىٰ مصيبةً أَصَابتْ معدّاً يومَ أصْبحتَ ثَاويا

لعمري لئِنْ سُرَّ الأعادي فأَظْهروا شَماتاً لقد مرّوا بربعكَ خاليَا

فإنْ يكُ أفْنَتْه الليالي وأوشكتْ فإنَّ له ذِكْراً سيفني اللياليَا[2]

* ومن الجدير بالذّكر أنَّه كانَ ليزيد ولدان نجيبان جَليلان سيّدان هما: خالدُ بنُ يزيد ممدوح أبي تمام الطَّائي، وله فيه أحسن المدائح وقد تضمّنَها ديوانهُ.

* وابنه الآخر محمدُ بن يزيد، وكان موصوفاً بالكرم، وأنَّه لا يردُّ طالباً، فإنْ لم يحضرْهُ مالٌ لم يقلْ لا، بل يَعِدْ ثمَّ يعجّل العِدَة.

* فرحم اللهُ يزيدَ بنَ مزيد وأولادَه جميعاً، وجعلنا من الأجوادِ الكُرماء، وحشَرنا في معيّة سيِّد الأنبياء.

* * *

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣٩).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣٤٠).




الباب الرّابع
فارسات من التّاريخ

أُمُّ حكيم الخارجيّة

أُمُّ قِرفَة الفَزاريّة

خَولة بنت الأزور

سَجَاح بنت الحارث

غزالة الحَروريّة

فاطمة بنت الخُرشب

ليلى بنت طريف







أُمُّ حكيم الخارجيّة

* من فارسات الخوارج، ومن أشجع الناس في العصر الأموي، ومن أجملهم، وأشدهم تمسكاً بدينها.
* تجيد ألوان الفروسية، وتتقن أساليب القتال.
* زوجة قطري بن الفجاءة، زعيم الخوارج.




الـمَـرْأَةُ والفُروسِيَّـةُ:

* قد يتبادرُ إلىٰ ذهنِ القارىء الكريمِ سؤالٌ مفادُهُ: إنَّ صنعةَ الحربِ والفروسيّةِ ينهضُ بها الرِّجال؟!

* وللجوابِ عن هذا السُّؤال نقولُ: لقد تركتْ نساؤُنا قديماً بصماتٍ رائعاتٍ في مجالِ الفروسيّة، وكُنَّ فارساتٍ شاعراتٍ مقاتلاتٍ محارباتٍ، وما تزالُ المرأةُ العربيّةُ إلى وقتِنا الحاضر تُظْهِرُ من ألوانِ الشَّجاعَةِ والفداءِ والتَّضحيةِ ما يجعلُها جديرةً بلقبِ الفروسيّة.

* صحيحٌ أنَّ النّساءَ قواريرُ رقيقةٌ، ويجبُ الرِّفقُ بهنَّ، إلاَّ أننا نلمحُ منْ بعضهنَّ شدّة المِراسِ وقوّة البأس ما ينسينا تلكمُ الرِّقّة والنُّعومة والدَّعَة.

* والمرأةُ إذا أتقنتْ صنعةَ الحربِ، فإنَّها تبدعُ فيها كالرَّجُلِ، ومنَ الملفتِ للنَّظرِ أنَّه في القُرىٰ البعيدةِ عن المُدن ـ أحياناً ـ تحصلُ مُشَاجراتٌ بينَ النِّساء أكثر مما يقعُ بينَ الرِّجال، وما أسرعَ ما تشتبكُ النِّساءُ في المناوشاتِ اللفظيّة، ثمّ تتطوّرُ هذه العمليّات الكلاميّة وسرعانَ ما تظهرُ بعدَها عمليّاتٌ حقيقية، فيبدأُ العضُّ وشدّ الشَّعْرِ، والضَّربِ، والمُصارعةِ على أوسعِ نطاق.

* ومنَ العجيبِ والملفتِ للنَّظَر، أنّي رأيتُ مرّةً أحدَ الرّجال يَعْرجُ قليلاً ويتأوَّهُ، فسألتهُ عن السَّبب فقال بالحرفِ الواحدِ: «إنَّ هذهِ الملعونة ـ زوجته ـ قد عضَّتني عضَّة منكرةً في لبّة رجلي، كادَتْ تمزّق اللَّحم»!!. وكانتْ هذه العضَّاضة؛ هذه المرَّة مَدَنيّة متحضّرة ولَم تكنْ منَ القُرى[1].

---

(١) كثير من الجرائم التي نسمع بها في وقتنا الحالي، أو تطلع بها علينا بعض الجرائد سببها المرأة، أو هي بطلتها.

* لذا فإنَّه منَ السَّطحيّةِ والسَّذاجةِ التَّافِهةِ أحياناً ، أنْ نجاري مَنْ يزعُمُ أنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من رقّةٍ ، وصوِّرَتْ من رخاوةٍ ولينٍ؛ فإذا كانَ أبو البَشَر آدم ـ عليه السَّلام ـ قد خُلِقَ منْ طينٍ لازبٍ ـ لَيِّن ـ ، فإنَّ أمّ البشر حوّاء قد خُلِقَتْ من ضِلع آدمَ ، والضِّلَعُ ـ كما تعلمُ عزيزي القارىء ـ عظمٌ صلْبٌ غير قابل للثَّني والليونة . . . ! . . ! .

* ومنْ هنا تميَّزَتِ المرأةُ بالميزاتِ التي يتمتَّع بها الرَّجُل فهي قادرةٌ على التَّمريضِ ، واحتمالِ مشاهدِ الأَلم منَ المرضى ، وإذا ما خالطَتْ ذلك نسبة من خصائص الرُّجولية ، فقد تمَّ المرادُ ، وأضحتِ المرأةُ ندّاً للرَّجُل في مجالِ الشَّجاعةِ والفروسيةِ[1] .

* وأودُّ أنْ أهمسَ في أذنِ القارىءِ الكريمِ ، وأذكّرَه بأنَّ المرأةَ عندما تحاربُ وتناضلُ ، لا تخرجُ عن استعدادِها الأصليّ وعن أنوثتِها التي فَطَرَها اللهُ عليها ، ولكنَّ كثيراً منَ النِّساءِ يؤدينَ دورَ الفُروسيّة في نجاحٍ كبيرٍ ، وتاريخِ نسائِنا المُسلمات ـ مثلاً ـ في عَصْرِ النُّبوّة ، يشهدُ لهنَّ بذلك .

* أمَّا فارسةُ اليوم فهيَ امرأةٌ منَ النِّساءِ المُحاربات ، ومن فارساتِ الخوارجِ يُقال لها : أمُّ حكيم الخارجيّة[2] ، التي وصفوها بأنَّها كانَتْ منْ أشجعِ النَّاسِ في العَصْر الأمويّ ، وتركَتْ دويّاً عظيماً في دُنيا الفروسيّة ،

---

(١) انظر كتاب : نساء محاربات بشيء من التصرف في مواطن متفرقة .

(٢) الأغاني (٦/ ١٤٨ و١٤٩ و١٥١ و١٥٧ و١٥٩) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٢٣ و٢٢٤) والتذكرة الحمدونية (٢/ ٤٤٧) ، وشرح مقامات الحريري (١/ ١٠٢) طبعة مصورة ، وكذلك شرح مقامات الحريري المحققة (١/ ٢٣٣ و٢٣٤) ، والحماسة البصرية (١/ ٢٥٦) رقم (١٧٢) ، والكامل للمبرد (١/ ٣٧٩) و(٣/ ٢٩٧) طبعة مصر المحققة ، والكامل (٣/ ١٢٢٦) طبعة مؤسسة الرسالة ، وحاشية على شرح بانت سعاد (١/ ٣١٠) . وغيرها .

وفضاء البطولةِ. ولا عجبَ أنْ نَجِدَ امرأةً ذاتِ سوارٍ وخمارٍ يُشْهَدُ لها بالبطولةِ والشَّجاعةِ والفُروسيّة ، لأنَّه كانَ عندها استعدادٌ فطريٌّ واجتماعيٌّ ورثَتْه منْ محيطها وممنْ حولَها من فرسانِ الخوارجِ.

* وذكرَ ابنُ حزم الأندلسيّ نسبَها في «جَمْهرتهِ» فقال: وأمُّ حكيمٍ بنتُ عمرو بن قَيْس بنِ عامر بن جَعْدةَ بن ثعلبةَ بن سالم بن مالك بن واقف ، التي يقول فيها الشَّاعر:

لَعمـركَ إنّـي فـي الحيـاةِ لَـزَاهـدٌ وفي العَيْشِ ما لم ألْقَ أمَّ حكيمِ

وقد قيل: إنَّ هذا البيت لقطري بنِ الفُجاءة[1].

وقيل: إنَّ هذا البيت لأبي سَهْم الخارجيّ[2].

* وقال البغداديُّ في شَرحهِ على بانَتْ سُعاد: وأمُّ حكيمٍ امرأةٌ من الخوارج كانَتْ مع قَطري بنِ الفُجاءة ، وكانت من أشجعِ النَّاسِ وأجملِهم حُسْناً ، وأحسنِهم بدينهم تمسُّكاً[3].

* ويُجْمِعُ كلُّ مَنْ ترجمَ لأمِّ حكيم هذه بأنَّه كانت فارسةَ تتسلَّحُ بالشَّجاعةِ التي يتسلَّح بها فرسانُ الخوارجِ ، وكذلك نساؤُهم ، فالشَّجاعةُ عدّتُهم ظاهرة وباطنة ، وهي مفخرتُهم يلبسونَها وتلبسُهم ، فهم لا يحتمونَ وراءَ الأسوارِ ، ولا يخافونَ على ذاتِ سِوار ، بل ألِفُوا أنْ يدافعوا عن أنفسِهم ، ويتجافوا عن الهُجوع ، واثقين بنفوسِهم رجالاً ونساءً وشيباً وولْداناً ، مدلّين ببأسِهم ، فقد صارَ البأْسُ خُلقاً ، والشَّجاعةُ سجيّةً ، والبطولةُ طبعاً وعادةً. ، . . . «لكلِّ امرىءٍ من دهْرهِ ما تعوَّدا»[4]. . .

---

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ٣٤٤).

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٢٢٣).

(٣) حاشية على شرح بانت سعاد (١/ ٣١٠).

(٤) هذا مطلع من قصيدة مشهورة للمتنبي في سيف الدولة الحمداني.

* وإذا تقصَّينا حياةَ فارساتِ الخوارجِ ألفينا أنَّ الشَّجاعةَ قد نَبَتَتْ معهنَّ كما تنْبُتُ الأصابعُ في اليدِ ، وأنَّها قد تمشَّت في مفاصلهنَّ كتمشّي البُرءِ في السَّقم.

* وكيف لا تكونُ أمّ حكيم ـ وشبيهاتُها ـ منَ الشَّجاعة بمكانٍ وقد نشأَتْ في بيئةٍ ارتضعتِ الفروسيّة من المَهْدِ ، وامتدحتِ البطولةَ والإقدامَ عند اشتداد العُود ، وطالما سمعت أمُّ حكيم قَعْقَعة السِّلاح ، وصياحَ المقاتلين ، وشاهدتْ حملاتِ الفُرسان والأَبْطال ، ورأتْ كذلك اشتباك الرِّماح واشتجار السّيوف ، ومقارعةَ القسيّ ، وصفيرَ النّبال.

* لذلك نشأتْ أمُّ حكيم تحبُّ الفروسيّة ، وتُكْبرُ البطولة ، وترى أنَّ الفروسيةَ ليستْ وقفاً علىٰ الرّجال ، وإنّما هي مُلْكٌ أيضاً وحقٌّ لربّاتِ الحِجال.

ومنَ المعروفِ أنَّ الإسلامَ قد أباحَ للمرأةِ أنْ تجاهدَ ، وقد أباحَ رسولُ الله ﷺ استخدامَ المرأةِ في التّمريضِ في عهدهِ النّبويّ ، حتى إنَّ بعضَ زوجاتِه كُنَّ في شرفِ معيّتهِ في بعضِ مغازيه ، حيثُ قُمنَ بخدمتِهِ ، وكذلك بعضُ نساءِ الصَّحابة كُنَّ يحضرنَ الميدانَ ، ويقُمْنَ بما في استطاعتهنَّ من الخدماتِ ومساعدةِ المجاهدين؛ ومنهنّ: أمُّ سليم الأنصاريّة ، وأمُّ عطيّة ، وأمُّ عمارة نسيبةُ بنتُ كعب ، وأمُّ حرام بنتِ مِلْحان وغيرهنَّ منَ الآسياتِ الطّبيباتِ من مثل رُفيدةَ الأسلميّة الصَّحابية؛ فقد أقامت هذه المرأةُ الفاضلةُ خيمةً لمداواةِ جرحى المسلمينَ الذين ليسَ لهم مِنْ أهليهم وذوي قرابتِهم مَنْ يقومُ عليهم ، ويتولّى أمورهم ، وكانَتْ هذه الخيمةُ الميمونةُ في ناحيةٍ من مسجدِ رسولِ الله ﷺ بالمدينةِ المنوّرة ، ولما جُرِحَ سعدُ بنُ معاذ ـ رضي الله عنه ـ في غزوةِ الخندقِ ، أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ قومَه أنْ يكونَ سعدٌ عندَ رُفيدةَ فقال: «اجعلوهُ في خيمةِ رفيدةَ

حتّى أعودَه من قريب»[1]. ولله درّ أحمد محرم إذ تحدَّثَ عن هذه السَّيِّدةِ الفاضلةِ فقال قصيدةً نونيّةً جميلةً تفيضُ حناناً ورقّةً منها هذهِ الأبيات الكاشفات:

رُفيدَةُ عَلّمِي النَّاسَ الحنَانَا ... وَزيدي قومَكِ العَالينَ شَانَا

خُذِي الجرحَىٰ إليْكِ فأكرمِيْهم ... وَطُوفي حولَهم آناً فآنَا

وإنْ هَجعَ النّيامُ فلا تنامِي ... عنِ الصَّوتِ المردَّد حيثُ كَانَا

أعيْني السَّاهرينَ علىٰ كُلوم ... تُؤرّقُهُم فمثلُكِ مَنْ أَعَانَا

همُ الأَهْلُونَ مَا عَرفُوا أنيْساً ... سِوَاكِ لهمْ ولا وَجَدُوا مكَانَا

حَبَاكِ اللهُ مِنْ تقواهُ قَلْباً ... وسَوَّىٰ منْ مراحِمِهِ البَنَانَا

ضُيوفُ اللهِ عندَكِ في محلّ ... تُذكِّرُنَا مَحاسِنُه الجنَانَا

فيالَكِ خَيْمةً للبرِّ فيها ... جَلالٌ لا يُرامُ ولا يُدَانىٰ

رُفيدةُ جَاهِدي ودَعي الهُوينىٰ ... فما شَرَفُ الحياةِ لمن تَوَانىٰ

وربَّ مُجاهدٍ بَلَغَ الثُّريَّا ... وما عَرَفَ الضِّرابَ ولا الطِّعانا

وكَمْ هَزَّ المَمالِكَ في عُلاهَا ... فتىً ما هَزَّ سيفاً أو سِنَانا

رُفَيدَةُ ذَلكَ الإسلامُ حقّاً ... تبارَكَ مَنْ هداكِ ومَنْ هَدانا[2]

* وفي عهدِ الخلفاءِ الرّاشدينَ تابَعَ الخلفاءُ سُنَّةَ رسولِ الله ﷺ في هذا المجالِ، فقد أباحُوا للمرأةِ المُسلمة ولنساءِ المسلمينَ أنْ يرافقْنَ المُجاهدينَ ـ عن تطوّعٍ منهنَّ ـ ويقمْنَ بالمعاونةِ في شُؤونِ الحربِ والدّفاع.

* وسنذكر عدداً ممّنْ خُضْنَ الحروبَ في الصَّفحات التَّالية:

---

(١) انظر: تفسير الخازن (٥/ ٢٠٨).

(٢) انظر: ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٢٤٨ و٢٤٩) بانتقاء واختصار.

١ ـ أَزْدةُ بنتُ الحارثِ بنِ كَلَدَةَ:

* مجاهدةٌ جليلةٌ خاضَتْ ساحاتِ الوغىٰ بكلّ بسالةٍ ورباطةِ جأْش، وحازتِ النَّصرَ المبينَ علىٰ الأعداء. وكانتْ أزدةُ عند عتبةَ بنِ غزوانَ، وجعلتْ مِنْ جلبابِها عَلَماً رفعَتْه في ميدانِ الجهادِ في محاربةِ العدوّ المشركِ الفارسيّ.

* ذكرَ المؤرّخونَ أنَّه أجمعَ أهلُ مَيْسَانَ ـ بلدة بالعراق ـ للمسلمين وعليهم الفَلْيَكان، فلقيهم المغيرةُ بنُ شعبةَ بالمَرْغابِ ـ نهر بالبصرة ـ وقد خلّفَ العدوَّ دونَ نهرِ دَجْلةَ. فقالت أزدةُ بنتُ الحارث لجماعةِ النّساءِ المحارباتِ معها: إنَّ رجالَنا في نحْرِ العدوّ، ونحنُ خلوفٌ، ولا آمَنُ أنْ يخالفُوا إلينا، وليس عندنا مَنْ يمنعُنا، وأخافُ أنْ يكثرَ العدوُّ علىٰ المسلمينَ، فيهزموهم، فلو خرجْنَا لأَمِنَّا ممَّا نخافُ منْ مخالفةِ العدوّ إلينا، ويظنّ المشركون أنّا عددٌ مددٌ قد أتىٰ المسلمينَ، فيكسرهمْ ذلك وهي مكيدةٌ، فأجبْنَها إلى ما رأت، فاعتقدتْ لواءً من خمارِهَا، واتَّخذَتِ النِّساءُ راياتٍ من خُمرهنَّ، ومضينَ وهي أمامهنَّ وهي ترتجزُ وتقولُ:

يا ناصِرَ الإسلامِ صفّاً بعد صَفْ إنْ تُهزموا وتُدبروا عنّا نَخَفْ

أو يغلبوكُمْ يغمزُوا فينا الغَلَفْ

* ثمَّ انتهينَ إليهم والمشركون يقاتلونهم؛ فلمَّا رأىٰ المشركونَ الرَّاياتِ مقبلةً ظنُّوا أنَّ عدداً أتىٰ المسلمين فانكشفُوا واتّبعهم المسلمون، فقتلُوا منهم عدّةً، وفتحَ اللهُ تلك المدينة للمُسلمين(١).

٢ ـ أمُّ عبدِ الله بنتُ يزيد الكَلبيّة:

* هذهِ مجاهدةٌ جريئةٌ شَهِدَ لها تاريخُ النِّساءِ بالفروسيّةِ والجرأةِ

---

(١) انظر: فتوح البلدان (ص ٤٢١)، وأعلام النساء (١/ ٤١ و٤٢) مع الجمع والتصرف.

والإقدامِ ، فإنّها قد حضرتْ معركةَ اليرموكِ مع نَفَرٍ منَ النّساءِ ، وكانَ زوجُها حبيبُ بنُ مسلمة قائداً للجيشِ الإسلاميّ في محاربةِ الرُّوم من قبلِ معاويةَ بنِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، ولمّا قامَ ورَكبَ ليلاً للهجومِ على جيشِ العدوّ قالت له: أينَ تذهبُ يا حبيب؟!

فأجابَ قائلاً: إمّا أظفرُ على خيامِ هذا الطّاغية ، أو أذهبُ إلى الجنّة.

* وذهبَ زوجها وظفرَ بخيامِ الطّاغية ، لكنّه وجدهَا قد سبقَتْه إلى ميدانِ القتال عند سرادق الطاغية[1].

٣ ـ مَزروعَةُ بنْتُ حَملُوق الحِمْيَريّة:

* وهذه امرأةٌ كانتْ منْ أفصحِ نساءِ زمانِها ، وأشدّهم بأْساً ، يُقال: إنّها خرجَتْ مع بَعْثِ الشّام لحربِ الرّوم ، فأُسِرَ ابنُها صابرُ بنُ أوس في وقعةِ أنطاكية ، فجعلَتْ أمُّه تندبهُ وتقول:

أيا وَلَدي قد زادَ شوقي تلهّفاً ... وقد حَرَقَتْ منّي الشّؤونَ المدامعُ
وقَدْ أضرمَتْ نارُ المصيبةِ شُعلةً ... وقد حميتْ منّي الحشَا والأضَالعُ
وأسْأَلُ عنْكَ الرّكبَ هل يُخبرونَني ... بحالِكَ كيما تستكنَّ المضاجعُ
فلم يكُ فيهم مخبرٌ عنك صادقٌ ... ولا فيهمُ مَنْ قالَ إنَّك راجعُ
فيا ولَدي مذْ غبْتَ كدَّرْتَ عيشَتي ... فقلبيَ مصدوعٌ وطرفيَ دامعُ
وفكريَ مسقُومٌ وعقليَ مُوْلَهٌ ... ودمعيَ مسْفُوحٌ وداريْ بلاقعُ
فإنْ تكُ حيّاً صمتُ للهِ حجّةً ... وَإنْ تكُنِ الأُخرى فمَا الحرُّ جازعُ[2]

* وهناك أخرياتٌ كانَ لهنَّ كبيرُ الأثرِ في الفتوحاتِ؛ وانتصاراتِ المسلمين في المشرقِ والمغربِ.

---

(١) فتوح البلدان (ص ٢٣٥) بتصرف يسير.
(٢) ديوان الخنساء (ص ١٨١) طبعة دار التراث ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

* وكانَ للنّساء دورٌ كبيرٌ في عَهْدِ الخُلفاء وصَدْرِ الإسلامِ في تشجيعِ المُقاتلين ، فقد ذكرَ الأزديّ المتوفىٰ سنة (١٦٨ هـ) أنَّ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ أمرَ نساءَ المسلمين في معركةِ اليرموك أنْ يضربْنَ مَنْ يدركْنَه هارباً من مُقاتلةِ المسلمين، فكانتِ النّساءُ تستقبلُ من هُزِمَ منهم ومعهنَّ عمد البيوتِ ، فأخذنَ يضربْنَ بها وجوهَهم ويقُلْنَ: لستُم ببعُولتنا إنْ لمْ تمنعُونا.

* كما كانَ لخولةَ بنتِ ثعلبةَ رجزٌ مشهورٌ وشِعْرٌ مذكورٌ في تلك الموقعة ، وكذلك هندُ بنتُ عتبةَ أنشدتْ رجزاً حماسيّاً يلهبُ النّفوس ، ويثيرُ الهِمَمَ ، كما أنَّ البلاذري قد أشارَ إلى قتال النّساءِ وهندِ فقال: وقاتلَ يوم اليرموك نساءٌ منَ المسلمين قتالاً شديداً وجعلتْ هند بنْتُ عتبة أمّ معاوية بن أبي سُفيان تقول: عضِّدوا الغُلْفان بسيوفكم[1]. وفي تلكم المعركةِ ذاتها قال أحدُ المقاتلةِ: فلقد كانتِ النّساءُ أشدَّ علينا من غلْظَةِ الرُّوم.

* وكذلك فعلَتِ النِّساءُ الأفاعيلَ بالرُّوم في أجنادين ، فقد ذكرَ الأزديّ هذا فقال: وأقبلَ خالدٌ يسيرُ بالنَّاسِ ، وما يقرُّ في مكانٍ واحدٍ ، يحرضُ النَّاس ، وقد أمرَ نساءَ المسلمين فاحتزمْنَ ، وقُمْنَ وراءَ النَّاسِ فهنَّ يدعونَ اللهَ ويستغثْنَ ، فكلّما مَرَّ بهنَّ رجلٌ من المنهزمينَ ، دفَعْنَ أولادهنَّ إليهِ وقلْنَ له: قاتِلوا دونَ أولادكم ونسائِكم[2].

* وذكر ابنُ عبد ربّه وغيرهُ أنَّ الزَّرقاءَ بنتَ عدي الهمدانيّة كانت يوم صفّين تحضُّ جنودَ عليّ بن أبي طالب وتقولُ: أيّها النّاس: إنَّ المصباحَ لا يضيءُ معَ الشَّمس ، ولا تبدو الكواكبُ مع القَمر ، ولا يقطعُ الحديدَ إلاَّ الحديد ، إيْهاً في الحربِ قُدماً غير ناكثين ، ولا مُتشاكسين[3].

---

(١) انظر: فتوح البلدان (ص ١٦٠).

(٢) الجيش والقتال في صدر الإسلام (ص ١٣٧) نقلاً عن الأزدي (ص ٦٠).

(٣) العقد الفريد (١/ ٢١٣).

* وفي المعركةِ عينها كانتْ عكْرشةُ بنتُ الأطشّ متقلّدةً حمائل السَّيف تقاتلُ مع عليّ ، وتحضُّ قومَها علىٰ القتال[1] .

* ومن العجيبِ أنَّه ظهرتْ في العصرِ الرَّاشديّ همّةٌ عجيبةٌ لنساء المسلمين في الحربِ ، فقد ظهرت امرأةٌ في الميدانِ منَ النَّخع ، كان لها بنون أربعة حضَروا حربَ القادسيّة ، فخطبتْ فيهم تحمّسُهم ، وتضري بخطابِها الجُنود ، فقالت: أيّ بني؛ إنّكم أسلمتم فلم تبدّلُوا ، وهاجرتم فلمْ تثوبُوا ، ولم تنبُ بكمُ البلادُ ، ولم تقحمْكُمْ السّنة ، ثمّ جئتمْ بأمِّكم ، عجوزٌ كبيرةٌ ، فوضعتموهَا بينَ أيدي أهلِ فارس ، واللهِ إنّكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، كما إنَّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحْتُ خالَكم ، انطلقُوا فاشهدوا أوّلَ القتال وآخِره ، وموتُوا كِراماً.

* فأقبلُوا يشتدّون ، فلمّا غابُوا عنها ، رفعتْ أكفَّها إلى السَّماء ، وهي تدعو الله وتقول في دعائِها: اللهم ادْفَعْ عن بنيّ، ولا تجعَل يومَهم قَبْل يومي.

* فرجعُوا إليها بعد أنْ أبلوا بلاءً حسَناً ، وأحسنُوا القتالَ ، ما كُلِمَ ـ ما جُرِحَ ـ رجلٌ كَلْماً واحداً[2] .

* وكانتِ النِّساءُ بالإضافةِ إلى تلكم الأدوار الحربيّة أو الدّفاعيّة التي يقمنَ بها ، كُنَّ يرافقْنَ المجاهدينَ الفاتحينَ ويقمنَ بمداواةِ الجرحىٰ ، ففي معركةِ اليرموك قمنَ بمداواةِ الجرحىٰ ، وكذلك فعلْنَ في معركةِ القادسيّةِ ، فعن أمِّ كثير امرأةِ همام بنِ الحارث النَّخعيّ قالت: شهدْنَا القادسيّةَ مع سعدِ بنِ أبي وقَّاص مع أزواجِنا ، فلمّا أتانا أنْ قد فُرِغَ منَ النَّاس ، شددْنَا علينا ثيابنَا ، وأخذْنَا الهراوي ، ثمّ أَتَيْنا القَتْلى ، فمن كانَ منَ المسلمين

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢١٥).

(٢) انظر: خلافة الصديق والفاروق لعبد العزيز الثعالبي (ص ٢٤٠ و٢٤١) طبعة دار ابن كثير بدمشق. وقد فصّلنا هذه القصة في كتابنا «نساء من المشرق العربي».

سقيْناهُ ، ورفعناهُ ، ومن كانَ منَ المشركين أجهزْنَا عليه ، ومعنا الصِّبيانُ نوليهم استلابَ قتلى المشركين[١].

* وذكرَ المسعودي في «مروجِهِ»: أنَّ الرّثيثَ كان يُـنْـقَـلُ إلى النِّساء لعلاجِهِ[٢] ، كما قامتِ النّساءُ والصّبيان بحفرِ القبور لدفنِ الشّهداء[١].

* وقامتِ المرأةُ المسلمةُ إلى جانبِ التّمريض وتشجيعِ المقاتلينَ بخدماتِ أخرىٰ كالسِّقايةِ ، وإعداد الطّعام ، وغَزْلِ الشّعْرِ ، ومناولة السّهام ، وخياطة الثّياب ، وتزفير القرب ، ووردَ أنَّهنَّ قُمْنَ بسقايةِ المقاتلينَ في معركةِ اليرموكِ ، وكذلك في معركةِ أجنادينَ. وقامتِ النِّساءُ كذلك بهذهِ المهمّةِ في معركةِ صفّين ، قالَ المسعودي: وتقدَّم عمّارُ بنُ ياسر فقاتلَ ، ثمَّ رجعَ إلى موضعِهِ فاستسقىٰ ، فأَتَتْهُ امرأةٌ منْ نساءِ بني شَيبان من مصافّهم بِعُسٍّ فيه لَبن[٣].

* وقد تقومُ المرأةُ بإعدادِ طعَام المجاهدينَ أيضاً ، فقد ذكرَ الأزديُّ أنَّ النّساءَ كُنَّ يقمنَ بإعدادِ الطّعام للمقاتلةِ في معركةِ اليرموك[٤].

* إلاَّ أنَّ نساءَ الخوارجِ ـ وخصوصاً الفارسات منهنّ والمُقاتلات ـ فقد كُنَّ يقمنَ بأعباءِ الحربِ بكلّ ما فيها منْ متاعبَ ومشاقّ ومصاعبَ ، ولم يكنَّ يرضينَ أنْ يخرجنَ من أجلِ إعدادِ طعامٍ أو سقاية محاربِ أو مداواتهِ فقط ، وإنَّما كان جلَّ همّهنَّ خوض المعامعِ وإبرازِ بطولتهنَّ بين صليلِ السُّيوف واشتجار الرّماح وعلى صَهَواتِ الجياد ، كما كانت تفعل أمُّ حكيم الخارجية.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٧/ ٤٦) بتصرف يسير جداً.

(٢) مروج الذهب للمسعودي (٢/ ٣١٧).

(٣) مروج الذهب (٢/ ٣٨١).

(٤) الجيش والقتال في صدر الإسلام (ص ١٤٦).

* إنَّ المرأةَ الخارجيّة لم تكن منزويةً عن الحروب والجلادِ ، بل إنَّها أسهمتْ فيها بنصيبٍ كبيرٍ ، وجهدٍ مأثورٍ ، ملأَ صدورَ المصادرِ ، وثنايا كتُبِ الأدبِ والتّأريخ والتّراجم ، بيد أنَّه لم يُفْرِدْ لهُ مؤلّفٌ ـ فيما أعلمُ ـ كتاباً متخصّصاً؛ وأرجو الله عزّ وجلَّ أنْ يعطيَني القوّةَ والجَلَدَ والصَّبْرَ لكي أَسُدَّ جُزءاً منْ هذا الفَراغِ الكبير الذي تحتاجُه المكتبةُ العربيّة ، والمرأةُ العربيّةُ ، والمكتبةُ النَّسويّة ، لتسيرَ النِّساءُ على بصيرةٍ من أمرهنَّ ، ويعرفْنَ الخبيثَ مِن الطَّيِّب ، ومَنْ يقتدينَ بالنِّساء الصَّالحات اللواتي قدَّمْنَ الخيرَ والعِلْم لبناتِ حوَّاء .

شَجَاعَةُ أُمِّ حَكِيْم :

* في ساحاتِ الحروبِ بذلتْ أمُّ حكيم جهداً متميّزاً ، وكانت في مقدّمةِ المحاربين ، تقاتِلُ وتقارِعُ ، ولم تكنْ كغيرِها من النِّساءِ تقتصرُ على إثارةِ العواطفِ ، أو على مدِّ المحاربين بالطِّعامِ والشَّراب ، وتضميدِ جراحهم ، ويروي تاريخها أنَّها حاربتْ كما يحارِبُ الأبطالُ ، وأدارتْ قُطْبَ الحربِ في بعضِ الأحيانِ ، وأحياناً كانت تقودُ فرقةً مِنْ فرقِ الجيش .

* وعلى الرّغمِ منْ أنَّ أبا عُثمان الجاحظ قد ذكرَ أمَّ حكيم هذه في مصنَّفاتِهِ ، كما ذكرَ غيرَها منْ نساءِ الخوارجِ ، إلاَّ أنَّه قد ظلَمها بعضَ الشّيء عندما قال: والمرأةُ إذا ضعُفَتْ عن كلِّ شيءٍ ، نزَعَتْ إلى الصّراخ والولولَة ، التماساً للرحمةِ ، واستجلاباً للغياث منْ حُمَاتِها وكفاتِها ، أو من أهلِ الحسْبَة في أمرِها[١] .

* والآن ، قبل أنْ نتعرّفَ شجاعةَ أمِّ حكيم التي لا نعرفُ اسمَها ، وإنَّما نعرفُها بهذِه الكنيةِ ، دعونا نعرفُ شيئاً عن صفاتِها وشمائِلها .

---

(١) انظر : الحيوان للجاحظ (٦/ ٢٧٩).

* فقد ذكروا أنَّها امرأةٌ منَ الخوارجِ الذينَ علا صيتُهم في العَصْرِ الأمويّ ، وأنَّها كانَتْ منْ أجملِ نساءِ عَصرِها ، وأملحهنَّ وأصبحهنَّ ، وقد خطبَها جماعةٌ منْ مشاهيرِهم ورؤسائِهم فردَّتْهم خائبين[1] .

* وقيل: إنَّها كانتْ زوجاً لقطريّ بنِ الفُجاءة الفارسِ المشهورِ وقد ذكرها في شِعْره. قال أبو العبّاس الشَّريشي: وأمُّ حكيم التي شبَّبَ بها ، كانَتْ معه في عَسْكرِ الإباضيّة ، وكانتْ منْ أشجعِ النَّاسِ ، وأجملِهم وجهاً ، وأحسنِهم بديْنِهِ متمسّكاً ، وكان قطريٌّ يحبُّها ويجلُّها[2] .

* أمَّا شجاعتُها فقد كانتْ شيئاً يُكْتَبُ في التَّواريخِ ويُحكىٰ في المجالسِ ، روي أنَّها كانت تجيدُ ألوانَ الفروسيّة ، وتتقنُ أساليبَ القِتَالِ ، وكانتْ في الحربِ تَحملُ علىٰ النَّاس ، وتقاتلُهم وتناجزُهم وتُرهِبُهم ، وقد أخبرَ مَنْ شاهدَهَا في تلك الحروبِ أنَّها كانت ترتجزُ فتقول:

أحْمِلُ رأساً قد سئِمْتُ حَمْلَهْ ... وقد مللْتُ دَهْنَهُ وغَسْلَهْ

أَلا فتىً يَحْمِلُ عنّي ثقْلَهْ

قال[3] : والخوارجُ يفدُّونَها بالآباءِ والأُمَّهات، فما رأيتُ قبلَها ولا بعدَها مثلَها[4] .

* وكان نجمُ أُمِّ حكيم قد لمعَ في ليالي عَصْرِها ، واحتلَّتْ شهرتُها

---

(١) انظر: التذكرة الحمدونية (٢/ ٤٤٧) بتصرف يسير جداً.

(٢) انظر: شرح مقامات الحريري (١/ ٢٣٤).

(٣) ذكرَ الأصفهانيّ هذه القصّة عن ميمونَ بنِ هارونَ قال: حُدّثْتُ أنَّ امرأةً منَ الخوارج كانَتْ مع قطريّ بنِ الفجاءة يُقال لها أمُّ حكيم ، وكانتْ منْ أشجع النَّاس ، وأجملِهم وجْهاً ، وأحسنِهم بدينهم تمسّكاً ، وخطبَها جماعَةٌ منهم ، فردّتهم ، ولم تجبْ إلىٰ ذلك. (الأغاني ٦/ ١٥٩)

(٤) انظر: الأغاني (٦/ ١٥٩) ، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٤٤٧) ، وشرح مقامات الحريري (١/ ٢٣٤).

مساحةً عظيمةً بين فارساتِ عَصْرِها ، بل ونساء القوم ، فقد جمعَتْ بين الفروسيّةِ والجمالِ والفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ ، ولهذا تهافتَ عليها جماعةٌ منْ أشرافِ الخوارجِ وشجعانِهم يخطبونَها ، فردَّتْهم ردّاً جميلاً ، وأفهمَتْهم أنَّها تنظرُ إلى أعلى وأرفع منْ هذا وقالت:

أَلا إنَّ وجْهـاً حَسَّــنَ اللهُ خَلْقَــه لأَجْدَرُ أنْ يُلْفَى به الحُسْنُ جَامعَا
وأكرِمُ هذا الجِرْمَ عنْ أنْ يَنالَه تـورّكُ فَحْـلٍ همُّـه أنْ يُجـامِعَـا[1]

* ولعلَّنا نستطيعُ أنْ نشبِّه أمَّ حكيم هذه بامرأةٍ فارسةٍ خارجية هي غزالةُ الحروريّة وزوجُها شبيبُ بنُ يزيد ، وقد قرأْنا سيرتَها في هذهِ الموسوعةِ الجميلة ، حيث كانت كلتاهما بالمكانِ الأوفىٰ منَ الشَّجاعةِ ، وكانت أمُّ حكيم وغزالةُ لا تُرَيَان إلاَّ في المواقفِ الخَطِرة منَ المعمعَةِ.

* فقد كانتْ أمُّ حكيم هذه ممن يرىٰ رأْيَ الخوارجِ ويأخذُ بطريقتِهم ، ووقفتْ بشجاعةٍ وثباتٍ أمامَ عقيدتها هذه ، حيث إنَّ الخوارجَ قومٌ يبتغونَ الكمالَ في الخلافةِ ، فهم يريدونَ الإمامَ العادلَ الثَّبْتَ الذي ينزلُ منَ الأمرِ على شورىٰ المسلمين ، وهذا هو المبدأُ الذي خرجُوا بهِ ، وقاتلوا النَّاسَ عليه ، على أنَّهم أسرفُوا وأفرطُوا فيه ، وغلوا غلواً كبيراً ، حتى حسبُوا كلَّ وزْرٍ كُفْراً يُقَاتَلُ مقترفُه ويقْتَلُ عليه.

* وكانَ الخوارجُ في أوّلِ أمرِهم قطعةً من جنْدِ سيّدنا عليٍّ بنِ أبي طالب ـ رضوان الله عليه وحشَرنا في معيّته ـ ، فلمّا رضيَ بالتَّحكيمِ في خلافتهِ ، قالوا: علامَ يقتتلُ المسلمون وأمراؤُهم في شكٍّ منْ أمرِهم.

---

(١) شرح مقامات الحريري (١/ ٢٣٤) ، وقد علَّقَ الشَّريشي تعليقاً جميلاً على هذَيْن البَيتَيْن فقال: أين هذهِ من أمّ خارجةَ ، واسمُها عمرة بنت سَعد ، كان يُقال لها: خِطْب ، فتقول: نِكْح. وضُرِب بها المثَل فقيل: أسرعُ منْ نكاحِ أمِّ خارجة.
(شرح مقامات الحريري ١/ ٢٣٤)

* ومنذُ ذلك اليوم انفصلوا عن سيِّدنا عليّ ـ رضي الله عنه ـ واستجازوا قتالَه ، وقتالَ مَنْ بعدِه منَ الخُلفَاء.

* ومنَ المُسلَّم به أنَّ حجَّتَهم في الخروج علىٰ سيّدنا عليّ ـ رضي الله عنه ـ داحِضَةٌ ، فقد يكونُ التّحكيم ممّا يبعثُه اليقين بالحقّ ، والثّقة بالعناية ، كذلك شرعَ الخوارجُ لأنفسِهم قتال كلّ خليفة ، لأنَّه اتَّخذ خلافةَ رسولِ الله ﷺ تُراثاً عن أبيهِ ، وحَسبَ المسلمين سواه هَملاً ، فساقَهم بغير عَهْد منهم ولا رضا.

* وقد استبسلَ هؤلاء الخوارجُ ـ رجالاً ونساء ـ في سبيل غايتهم ، حتى غدوا مضاربَ الأمثالِ في البَسالة والجسَارةِ والجرأةِ والإقدام.

* ولعلَّ أوضحَ ظاهرةٍ نراها في فريقِ الخوارج وجماعاتِهم ، نباهةُ ذكْر المرأةِ[1] ، ونزوعُها منازع القادةِ الكُفَاةِ ، وقيامُها في الطرفِ القصيّ من

---

(١) منْ ذلك ما وردَ عنْ أمِّ علقمةَ الخارجيّة ـ وكانت من ربّاتِ الفصاحةِ والبلاغةِ والشَّجاعةِ وقوّةِ الحجّة ـ فقد ذكَر الرَّاغبُ الأصفهانيُّ في «محاضراتِهِ» أنه أتيَ بها إلى الحجّاج بنِ يُوسفَ ، فقيل لها: وافقيهِ في المذهبِ فقد يظهرُ الشّركُ بالمكْر.
فقالتْ: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].
فقال لَها: قد خَبطْتِ النَّاسَ بسيفِكِ يا عدوّةَ اللهِ خبْطَ عَشْواء.
فقالت: لقد خفتُ اللهَ خوفاً صيّركَ في عيني أصغرَ منْ ذبابٍ ـ وكانت منكَّسةً ـ
فقال: ارفَعي رأسَكِ وانظري إليَّ..
فقالت: أكرهُ أنْ أنظرَ إلىٰ مَنْ لا ينظرُ اللهُ إليهِ.
فقال: يا أهلَ الشَّام ، ما تقولونَ في دَمِ هذه؟
قالوا: حَلالٌ.
فقالت: لقد كانَ جلساءُ أخيك فرعون أرحمَ منْ جلسائِك حيثُ استشارهم في أمْرِ موسىٰ ، فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾. فقتَلَها. (أعلام النّساء ٣/ ٣٢٩)
* وفي النَّفس شيءٌ من هذهِ القصّة التي يبدو عليها أثرُ التَّصنُّع والوضع من نواحٍ كثيرة منها: أنَّ الحجّاجَ قال: يا أهل الشّام ، وكانَ بالعراقِ ، ومنها أنَّ أم علقمة =

تفديةِ العرض ، والتّضحيةِ في سبيلهِ ، وهذا ما نلمحُه في سيرةِ أمّ حكيم الخارجيّة .

* ويروي التّاريخُ النّسويُّ أنَّ نساءَ الخوارجِ قد احتملنَ النّكالَ والوبالَ ، فلم يكُ شيءٌ يروعهنَّ أمامَ عقيدتهنَّ التي تلقينَها عن قناعةٍ كاملةٍ ، ولا يثلم غرضهن ، أو يحول غايتهنَّ ، بل كُنَّ يزددنَ ثباتاً ويقيناً وقوةً ، حتى إنَّ المرأةَ منهنّ كانت تُقَادُ إلى القَتْلِ غير خائفة ، ولا هيّابة ، بل صابرة راضية كأُمّ علقمةَ التي قتلَها الحجّاج ، وغيرِها كثيرات ممن حفظَ التّاريخُ ، وكثيرات ممن نسيَهم ، واندثرت أخبارهنَّ مع مرورِ الأيّام .

أمُّ حَكيمٍ وَشِعْرُ قَطَرِيّ :

* قُلنا : إنَّ أمَّ حكيم كانتْ من نساءِ الخوارجِ المشهوراتِ في عصرِها ومصْرِها ، وكانت منْ أجملِ النِّساءِ وجْهاً ، وأملحِهم طلعةً ، وأكثرِهم تمسّكاً بدينه ، وتبعتْ زوجَها قطريَ بنَ الفُجاءة الذي تلقَّبَ بأميرِ المؤمنين ، واستمدَّ من امرأتهِ أمّ حكيم الجليلَ منَ الرأي ، والشّديدَ منَ القوة ، لأنَّ أمّ حكيم كانتْ من أتمّ النّساء ذكاءً ومضاءً ، ونفاذَ رأي ، وقوة

= هذهِ قالت للحجّاج : كانَ جلساءُ أخيك فرعون ، والحجّاج لم يكنْ شبيهاً بفرعون ، بل لا تجرؤُ امرأةٌ أنْ تتفوّه بمثلِ ذلك في مثلِ هذا المقام . والله أعلم بالصواب .

* ومنَ الأمثلةِ أيضاً على تخليدِ المرأةِ ، وذكْرِ مآثرِها أنَّ مالكَ المزموم ـ وكانَ رجلاً من بني عامر بنِ ذهل منَ الخوارج ـ كان قد خلَّد ذكْرَ امرأته أمَّ العلاء في رثائِه لها فقال :

أُمْرُرْ على الجَدثِ الذي حلَّتْ به	أمّ العَلاء فَنَادِهَا لو تَسْمَعُ
أنّى حللْتِ وكنتِ جدَّ فروقه	بلداً يمرُّ به الشُّجاع فيفزعُ
صَلَّى عَليكِ اللهُ مِنْ مفقودةٍ	إذْ لا يلائِمُك المكانُ البلقعُ
فلقد تركتِ صغيرةً مرحومةً	لم تَدْرِ ما جَزَعٌ عليك فتجزعُ
وإذا سمعتُ أنينَها في ليلِها	طفقت عليك شؤونُ عيني تدمعُ

بيان ، ناهيكَ بالجمالِ والحُسْنِ والشَّجاعة ، لذا فإنَّ قطريّاً قد ذكرها في أشدّ المواقفِ حَرجاً ، فقالَ في يوم دُولاب:

لعمرُكَ[1] إنّي في الحياةِ لَزَاهِدٌ وفي العَيْشِ ما لَمْ أَلْقَ أمَّ حكيم
منَ الخَفِراتِ البيْضِ لم يُرَ مثلُها شفَـاءً لـذي بـثٍّ ولا لسقيـمِ
فيا كبِداً منْ غيرِ جُوعٍ ولا ظَمَا ويـا كبـداً مـنْ وَجْـدِ أمِّ حَكيـمِ
ولو شَهدتني يوم دُولابَ أبصَرتْ طِعَانَ فتىً في الحربِ غيرَ ذميمِ

ومنها:

وضَاربةٍ خدّاً كريماً على فتىً أغـرَّ نجيـبِ الأُمَّهـاتِ كـريـمِ
أصيْبَ بِدُولابٍ ولم تكُ مَوطناً لـهُ أرضُ دولابٍ وديـرِ حَميـمِ[2]
فلـو شَهـدتْنَـا يـومَ ذاكَ وخيلُنـا تبيـحُ مـنَ الكفَّـار كُـلَّ حَـريـمِ
رأتْ فتيـةً بـاعُـوا الإلـهَ نُفُـوسَهـم بجنَّـاتِ عَـدْنٍ عنْـدهِ ونعيـمِ[3]

---

(١) «لعمرك»: عَمْرَكَ: هذا اللفظ يرد كثيراً في أقسام العرب أو تأكيداتها ، وأصله قسم بالعمر أو دعاء بطول العمر. ومعناه في اللغة: العَمْرُ والعُمُرُ والعُمْرُ: الحياة. يقال: طال عَمْرُهُ وعُمْرُه لُغتان فصيحتان. وفي القَسَم: الفتحُ لا غير. يُقال: لَعَمْري، لَعْمرُك.
قال الجوهري: معنى «لعمرُ الله» و«عمرِ الله»: أحلفُ ببقاءِ اللهِ ودَوَامِهِ ، وإذا قُلتَ: «عَمْرَكَ الله» فكأنك قلت: بتعميرك الله ، أي: بإقرارك له بالبقاء ، وقول عمر بن أبي ربيعة:
أيُّهـا المنكـحُ الثُّـريـا سُهيـلاً عَمْـرَكَ اللهُ كيـفَ يلتقيـان
يريد: سألتُ اللهَ أنْ يطيلَ عمرَك ، لأنَّه لم يُرِدِ القسمَ بذلكَ ، بل استعمله في القسمِ السُّؤالي. و«لَعَمْري ولَعَمْرك»: يرفعونَه بالابتداء ويضمرون الخبرَ ، كأنَّهم يقولون: لعمرك قَسَمي أو يميني.
(٢) «دير حميم»: موضع بالأهواز.
(٣) انظر: الأغاني (٦/ ١٥٧) ، وشرح مقامات الحريري (١/ ٢٣٣ و٢٣٤) ، والكامل (٣/ ٢٩٧ و٢٩٨) ، وهي قصيدةٌ مؤلفة منْ (١٢ بيتاً) ، وهي موجودةٌ في مصادرَ كثيرة وبأعداد أبيات مختلفة ، وقد تنازَعَها أكثرُ من شاعر.

* وفي أغانيه أوردَ أبو الفرج الأصفهانيّ ثلاثةَ أبياتٍ فيها ذكْر أمّ حكيم ، والأبيات هي :

إذا قُلْتُ تَسْلو النَّفْسُ أو تَنْتَهي المُنَى أبـىٰ القلْـبُ إلاَّ حُـبَّ أمِّ حَكيـمِ

منعَّمَـــةٌ صَفْـــراءُ حُلْـــوٌ دَلالُهـــا أبيــتُ بهَــا بَعْــدَ الهــدوءِ أهيــمُ[1]

قَطُوفُ الخُطَا محطوطةُ المَتْنِ زانَها مــع الحُسْـــنِ خَلْـــقٌ في الجمـــالِ عَميمُ[2]

* ويقولُ الأصفهانيُّ : الشِّعْرُ مختلَفٌ في قائِلِهِ ، فمنَ الرُّواة مَنْ يرويهِ لصالح بنِ عبد الله العبشميّ ، ومنهم مَنْ يرويه لقطري بنِ الفُجاءة المازنيّ ، ومنهم مَنْ يرويه لعبدَةَ بنِ هلال اليشكريّ .

* ومنَ الواضحِ لكلّ ذي بصيرة أنَّ القصيدتَيْن مختلفتان في الغرض ، وإن اتّفقتا في القافيةِ والوزْن ، والظَّاهر أنَّهما لشاعرين يختلفُ مشربُ كلّ واحد منهما عن الآخر ، فالقصيدةُ الأولىٰ المنسوبةُ لقطري ذات معانٍ حربيةٍ قتاليّة ، يودُّ الشَّاعرُ من خلالِ أبياتها أنْ تشاهدَ أمّ حكيم زوجُه شجاعتَه وفروسيتَه يومَ دولاب ، هو ينخرطُ في صفوفِ الفُرسان يشري ويبيعُ ، ويذكرُ نَدمَه وإفراطَه في لطْمِ وجهها عند غياب الحلْم والتَّعقُّل .

* بيدَ أنّنا نجدُ الأبياتِ الثَّلاثةَ الأخرىٰ هي أبياتٌ ذات غرضٍ غزليّ ليسَ غير ، وفيها تغزّلٌ واضحٌ بامرأةٍ تُدعىٰ : أمّ حكيم ، وهي كما يظهرُ منَ الأبيات ذات دلالٍ ونعيم وجمال وكمالٍ وحسن وجسم .

---

(١) في هذا البيت إقواءٌ ، حيثُ الذي قبلَه مكْسورٌ ، وهذا مرفوعٌ .

(٢) انظر : الأغاني (٦/١٤٨ و١٤٩) ، طبعة بيروت . ومعنى : «الهدوء» : الهدء ، والمقصود به الهزيعُ الأخيرُ منَ الليلِ . و«قَطُوف» : القطوفُ منَ الدَّواب : البطيءُ ، وقيل : هو الضَّيق المشي . و«محطوطةُ المتْن» : ممدودته .

* وفي كتابهِ «الكامل» ، أوردَ المبرّدُ مطلع قصيدة لقطري على النّحو التّالي:

فَيا كَبِداً مِنْ غَيرِ جُوعٍ ولا ظَمَا   وواكبـداً مـنْ وَجْـدِ أمّ حكيـمِ

ثمَّ قال: وأمُّ حكيم هذه امرأةٌ منَ الخوارج قُتِلَتْ بين يديه[1].

* وهكذا طوىٰ التّاريخُ صفحةَ فارسةٍ من فارساتِهِ قُدِّرَ لها أنْ تُقْتَلَ بينَ صليلِ السُّيوف وهمسِ الرِّماح ، وبذلك سجّلَتْ بطلةً في فارساتِ التَّاريخِ.

* * *

---

(١) انظر: الكامل للمبرد (١/ ٢٢٣) ، طبعة مكتبة دار المعارف ببيروت.




أُمُّ قِرفَةَ الفَزاريّة

* ضُرِب بها المثل حتى قيل: أعز من أم قرفة.
* عُلِّق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم.
* شاعرة مشهورة من شاعرات العرب.




امْـرَأَةٌ زَعيْمَـةٌ وقَـائِـدَةٌ:

* بذلتِ النِّساءُ قَديماً جهْداً بارزاً في معظمِ الأمورِ المهمّةِ؛ التي جاذبْنَ فيها الرِّجالَ أرديةَ المجدِ.

* وقد بذلتِ المرأةُ العربيةُ المشرقيّة[1] في ماضِيها الغابرِ جهداً واضحاً في الحربِ وإدارتها ، بل وقيامها على سَاق ، فقد كانت بعضُ الحرائرِ في مقدمةِ المحاربين ، تفعلُ كما يفعل الرّجالُ في ميادين القتال ، وساحاتِ النّزال ، وضَرْبِ هاماتِ الأبطال.

* وهذا لا يعني أنَّه كان للمرأةِ العربيةِ قديماً دورٌ ثانويٌّ لا يُؤْبَهُ له ، وذلك من تحريضِ حميّةِ الفُرسان المحاربين وإثارةِ عواطفهم ، وتنشيطِ مشاعرهم ، وكذلك إمداد المقاتلين بحاجاتهم منْ شرابٍ وطعامٍ وسلاحٍ ، ومن ثمّ تضميد جراحاتِهم ، والعنايةِ بأحوالهم وشؤونهم ، حتى يتابعون الحربَ والنّزال.

وقد برزتْ في ساحةِ التَّاريخ النَّسويّ العربيّ نساءٌ كان لهنَّ نصيبٌ موفورٌ ، في مجال الزَّعامةِ والقيادةِ الحربية ، بل وممارستها ما يمارسُ الصَّناديدُ منْ لظىٰ الحروبِ وفواجِعها.

* ومنَ العادةِ المتوارثَةِ في الحروبِ أنَّ قيادةَ الجيش لا تُناطُ إلا بالبطَل الجريءِ الجلْد الصَّبور المحنّك المُطاع ، وإنَّ القائدَ لَيُصرِّفُ جنْدَه ، ويدبّرُ الخُططَ للنَّصْر والظَّفر ، فإذا كانتِ المرأةُ العربيّةُ قد سَمَتْ إلى هذهِ الرتبةِ

---

(١) للمزيد منْ أخبارِ النّساء المشرقيّات وصور أخبارهنّ وأعمالهنَّ، اقرأ كتابنَا «نساء من المشرق العربي» حيثُ تجد فيهِ ما يسرُّ العينَ والقلبَ بإذن الله.

العاليةِ ، فإنَّ ذلك إقرارٌ منْ جماعةِ الرجال والأبطال بسمو مكانتها ، وعظمتها ، ودليلٌ أيضاً على خضوعهم لَها وطاعتها[1].

* ومنْ هؤلاء القائداتِ اللواتي رسمتْ أعمالَهن ريشةُ التَّاريخِ رقاش الطَّيئية ، ورَقَاش هذه ، امرأةٌ منْ قبيلةِ طيء ، كاهنة جاهليّة ، كانت ذات حزم ورأي ونفوذٍ وبطش ، وكانت تغزو بقومِها طيء ، وكانوا يتيمنُون بها وبرأيها ، حيثُ غزتْ بهم مراراً ، وكان الظَّفرُ حليفَها ، فأغارتْ يوماً على قبيلةِ إياد بن نزار فغنمت ، وسبَتْ ، وكان فيما أصابت فتىً جميلاً ، فتزوَّجَتْه وحَمَلَتْ منه ، فلم يلبثْ أنْ دنا وقْتُ الغزو ، فقالوا لها: الغزوُ يا رقَاش ، فاغزِي إنْ كنتِ تريدين.

فقالت: رُوَيدَ الغَزْوَ يَنْمَرِق[2] ، فأرسلتْها مثلاً ، ثمّ إنَّهم جاؤوا لعادتِهم فوجدوها نفَسَاء قد ولدتْ غلاماً ، فقال بعضُ شعراءِ طيء يتهكّمُ فيها:

نُـبِّئْتُ أنَّ رَقَاش بَعْدَ شِمَاسِها ... حَبِلَتْ وقَدْ ولَدَتْ غُلاماً أكْحلاَ
واللهُ يُحْظِيْهـا ويـرفَـعُ بُضْعَهـا ... واللهُ يُلْقِحُهـا كِشَـافـاً مقْبِـلاَ
كَانَتْ رَقَاش تقودُ جَيْشاً جَحفلاً ... فَصَبَتْ وحُقّ لمنْ صَبا أنْ يَحْبَلا[3]

---

(١) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي (ص ٤٣٥) بتصرف.
(٢) معنى المثل: أمْهِلِ الغزوَ حتّى يخرجَ الولدُ. ويُضْرَبُ في التمكّثِ وانتظارِ العاقِبَةِ.
(٣) انظر: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٢٥ و٢٦) رقم (١٥٢٨) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. وانظر جمهرة الأمثال (١/ ٣٩٣) ، وأعلام النساء (١/ ٤٥٢) ، والمرأة في الشّعر الجاهلي (ص ٤٣٥) ، مع الجمع والتصرّف ، ومعنى «يُلْقِحها»: يُغْلي مهرها. و«الكشاف»: الحمل على الناقة بعد نتاجها.
* وعلّقَ الدكتور أحمد الحُوفي علىٰ الأبياتِ السَّابقة تعليقاً جَميلاً فقالَ: ويظهرُ لي منْ حَنَقِ الشَّاعر عليها ، أنَّه كانَ يظنّها قد انسلختْ منْ أنوثتِها ، أو انسلختْ منها أنوثتُها ، فلما حملَتْ ووضعَتْ استبانَ له أنَّ القائدة الحازمةَ الأريبةَ مازالتْ أنثى =

* وظهرت امرأةٌ قائدةٌ أخرى في تميمٍ ، وهي من حيث الوزنِ الصَّرفي على وزن رقَاشِ ، وهذه الزَّعيمة الخطيرة هي «سَجَاح» ، التي تزعمت قومها ، وتقدمتْهم في الحرب ، بل تطاولتْ أكثر من هذا وعملَتْ نبيّةً ، نعم تنبّأتْ وزعمتْ أنّه يُوحىٰ إليها ، ودان لها كثيرٌ ممن حولَها وآمنوا بها .

* وهذه قائدةٌ أخرى منَ النِّساء ، اشتهرتْ بكنيتِها واسمِها ، وكانت زعيمةً خطيرةً في قومها ، ومن سوءِ حظِّها وتعاستِها أنَّها كانت تناوىءُ رسولَ الله ﷺ ، وتناوىءُ أصحابَه الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ؛ ولعلها لو آمنت مع أمثالِها لكان لها في التَّاريخِ النَّسوي نصيبٌ وشأْنٌ؛ ولكنْ لعداوتها ولؤمها ختمَ اللهُ على قَلْبِها وعلىٰ سمعها وعلى بصرِها غشاوة فهي لا تبصرُ طريقَ الهدىٰ والحقّ والنّور المحمديّ .

* ومن العجيبِ في أخبارِ[1] هذه القائدةِ الكافرةِ أنَّ قومَها كانوا يأتمرون بأمرها ، ولا يحيدون عَنْ إشارتها وإمضائها ، فضلَّتْ وضلُّوا وأضلُّوا ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٤]؛ تلكم المرأةُ القائدةُ الزَّعيمة هي أمُّ قرفةَ الفزاريّة ، واسمُها فاطمةُ بنتُ

= تتزوَّج وتحملُ وتلد ، فخيبتْ ظنَّه ، ولعلَّه سخطَ أيضاً لأنَّه خشيَ ألا يكون في رجالِ القبيلةِ مَنْ يخلفُها في القيادة وبثّ الحماسة ويُمْن الزّعامة ، فيعجزون عنِ الغارة واكتساب الغنائم . . . (المرأة في الشعر الجاهلي ص ٤٣٥ و٤٣٦)

(١) جوامع السِّيرة النبوية (ص ١٩) ، وجمهرة الأمثال (٢/١٥٨) ، وأعلام النساء (٤/ ٥٦ ـ ٥٨) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٥٧) ، وتاريخ الخميس (٢/ ١٣) ونهاية الأرب (١٧/ ٢١٠ و٢١١) ، وعيون الأثر (٢/ ١٥٦ و١٥٧) ، ولسان العرب (٩/ ٢٨٢) ، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٠٩) ، ومجمع الأمثال للميداني (٢/ ٣٩٣) و(٣/ ٣٥٢) ، والسيرة النبوية (٤/ ٢٠٠) طبعة دار الخير؛ وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت (ص ٦١ و٦٢) وغيرها كثير .

ربيعةَ بنِ زيد الفزاريّ، وذكر ابنُ إسحاق بأنَّ اسمَها فاطمة بنت ربيعة بن بدر.

أمـنَـعُ مـنْ أُمّ قِـرْفَـةَ:

* هذا مَثَلٌ[(١)] من الأمثالِ العربيّةِ القديمةِ التي سَرَتْ بينَ النَّاس في العصورِ الخوالي، فقالوا: أمنعُ منْ أمّ قرفة، أو أعزّ من أمّ قرفة[(٢)]. كما قالتِ العربُ في أمثالِها: لو كنْت أعزّ منْ أمّ قرفة، وأمْنَع منْ أمّ قرفة.

* وذكرها ابنُ منظور في «اللسان» فقال: وقولُهم في المَثَل: أمنعُ من أمّ قِرفة، هي اسمُ امرأة[(٣)].

---

(١) «مَثَل»: قالَ المُبرِّد: المثَلُ مأخُوذٌ منَ المِثَال، وهو: قولٌ سائرٌ يُشَبَّه به حالُ الثاني بالأوّل، والأصلُ فيه التَّشبيهُ، فقولُهم: مَثَلَ بينَ يدَيْه؛ إذا انتصبَ، معناهُ أشْبَهَ الصُّورةَ المنتصبةَ، وفلان أمثلُ منْ فُلان؛ أي: أشبَهُ بما لَهُ منَ الفَضْل.
والمِثالُ: القِصاصُ لتشبيهِ حالِ المُقْتَصِّ منه بحال الأوّل، فحقيقةُ المثَلِ ما جُعِلَ كالعلَم للتّشبيه بحالِ الأوّل، كقولِ كعبِ بنِ زُهير:
كـانَـتْ مـواعيـدُ عُـرقُـوبٍ لَهـا مثَـلاً ... ومـا مَـواعيـدُهـا إلاّ الأبـاطيـلُ
فمواعيدُ عُرقوب عَلَمٌ لكلّ ما لا يصحُّ منَ المواعيد.
قال ابنُ السِّكّيتِ: المثَلُ لفظٌ يخالفُ لفْظَ المضروبِ لَهُ، ويوافقُ معناه معنىٰ ذلك اللفظِ، شبَّهُوه بالمثال الذي يُعْمَلُ عليه غيره.
وقال غيرهما: سُمّيت الحِكَمُ القائمُ صدقُها في العقُول أمثالاً؛ لانتِصاب صُوَرِها في العقولِ، مشتقّة من المُثول الذي هو الانتصَابُ.
وقال إبراهيمُ النّظّام: يجتمعُ في المثَل أربعةٌ لا تجتمعُ في غيرِهِ منَ الكلام: إيجازُ اللفظِ، وإصابةُ المعنى، وحسنُ التَّشبيه، وجودةُ الكناية؛ فهو نهايةُ البلاغَة.
وقال ابنُ المقفَّع: إذا جُعِلَ الكلامُ مثَلاً كانَ أوضحَ للمنطقِ، وآنَقَ للسَّمع، وأوسَعَ لشعوب الحديث. (مجمع الأمثال ١/ ٧ و٨)

(٢) انظر: جمهرة الأمثال (٢/ ٥٨). والمستقصى (ص ٩٩)، ومجمع الأمثال (٢/ ٣٩٣).

(٣) لسان العرب (٩/ ٢٨٢)، ومعنى قِرفَة في اللغة: القرفُ: لحاءُ الشّجر، واحدتهُ =

* وأمُّ قرفةَ واحدةٌ منْ نساءِ العصْرِ الجاهليّ المشهورات اللواتي أدركْنَ الإسلام ، ولكنّها لم تُسْلِمْ ولم يدخل الإيمانُ في قلبها ، ولم تدركها السَّعادة ، بل لم تدركْ هي السَّعادة الأبديّة باعتناقِ الإسلام وارتضائِه ديْناً لها ، وكانتْ مع شِقْوتها هذه من ذوات السُّلطان والنُّفوذ في قومها ، وبين عشيرتها وأولادِها ، وأهليها الأقربين.

* ذكر ابنُ حزمِ الأندلسيّ في «جمهرته» أنَّ أمَّ قِرفة هذه ، كان لها ثلاثة عشَر ولداً ، وكانت زوجاً لمالك بن حذيفة بن بدر ، فولدت له: خَرَشَةَ ، وجَبَلَةَ ، وحكمةَ ، وقِرفَةَ ، ومعاويةَ ، وأرطأةَ ، وحُصَين ، وعُبيد ، وشَهران ، وقيس ، وحِصْن ، وزُفَر ، ومرثد[1].

* كما ذكرَ الرُّواة أنَّ لها ابنة تسمّى سلمى ، لا تقلَّ عنها حزماً وشدّة وصرامةً وأنفةً[2]؛ وذكروا أيضاً أقوالاً أخرى عن أمِّ قرفةَ بأنَّ لها عشرةَ بنين وابنتَيْن ، وقد كنيت بابن لها يسمّى قرفَةَ.

* وكانت أمُّ قرفة امرأةً عزيزة الجانبِ ، مرعيةَ المكانةِ في قومها ، بلغت منَ المنعةِ أنّه كان يُعَلَّقُ في بيتها خمسونَ سيفاً لخمسينَ رجُلاً كلّهم لها محرم[3].

أُمُّ قـرفَـةَ والـشِّعْـر:

* يظهرُ منَ الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عن أُمِّ قرفةَ ، أنَّها واحدةٌ منْ شواعرِ النِّساء العربيّات في عَصْرِها ، ففي قصيدةٍ تائيةٍ لها ترثي ابنَها تبدو

= قرفة ، يعني القشْرة ، وقرفةُ أيضاً يُطلَقُ على اسمِ رجل ، قال الشّاعر:

ألا أبلـغْ لـديـكَ بيـن سُـويـد ... وقـرفـةَ حيـنَ مـالَ بـه الـولاءُ

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ٢٥٧).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٣٤).

(٣) تاريخ الخميس (٢/ ١٣) ، ومجمع الأمثال (٢/ ٢٤٩).

ثائرةً عنيفةً ، تعنّفُ مَنْ يرضى دِيَةً منَ النُّوق أو الأنعام خيفةَ النّزال ، أو الجلاد ومقارعة الأبطال.

* وتبدو أمّ قرفة كذلك غاضبةً تدعو إلى الثّأر ، وإلى أخْذِه بحدِّ السَّيف وسِنانِ الرّمحِ ، وإن لم يحصلْ ذلك فستبكي ليلَ نهارَ بدموعٍ جارياتٍ إلى أنْ تموتَ ، لأنَّ ذلك أحبّ إلى نفسِها من زوجٍ جبَانٍ رعْديد يعيشُ حياةَ الذّلّ والهَوان.

* وتذكرُ كتبُ الأخبارِ والأَسْمارِ والأدبِ أن قيسَ بنَ زهير بن جذيمة العبسيّ ، قد قتلَ ولدَها قرفةَ ، ومن ثم حَملَ ديتَه إلى أبيهِ ، فرضيها ، فلما علمتْ بذلك أنشأَتْ ترثي ابنَها ، وتعيِّر زوجَها حذيفةَ الذي قِبِلَ الدِّيَةَ ورضي الدَّنيَّةَ ، فاسمعْ إلى هذه الكلماتِ العنيفاتِ؛ والصَّرخاتِ العَاليَاتِ؛ والأنّاتِ المُثْقَلات بالحُزْن:

حُـذيفَـةَ لا سَلمْـتَ مـنَ الأَعـادي ... ولا وقيــتَ شــرَّ النَّــائبــاتِ
أيقتــلُ قِـرفـةً قيـسٌ وتَـرضـىٰ ... بــأنْعــام ونُــوقٍ ســارِحــاتِ
أَمَـا تخشــىٰ إذا قَـالَ الأَعــادي ... حــذيفــةُ قلبُــه قَلْــبُ البَنَــاتِ؟
فخـذْ ثـأراً بـأطْـرافِ العَـوالـي ... وبـالبِيْـضِ الحِـدَادِ المُـرهَفَـاتِ
وإلاَّ خَلِّنــي أبكْــي نَهــاري ... ولَيْلـي بـالـدُّمـوعِ الجَـاريـاتِ
لعــلَّ منيَّتــي تــأْتــي سَـريعــاً ... وتــرمينــي سهــامُ الحــادثَــاتِ
فـذاكَ أحــبُّ مــنْ بعـلٍ جَبـانٍ ... تكــونُ حيــاتــهُ أردىٰ حَيــاةِ
فيـا أسفـي علـى المقْتُـولِ ظُلمـاً ... وقــد أمســىٰ قتيـلاً فـي الفَـلاةِ
تــرى طيـرَ الأراكِ ينـوحُ مثلـي ... علـى أعلـى الغُصـونِ المـائِـلاتِ
وهلْ تَجِدُ الحمائمُ مثْلَ وَجْدي ... إذا رُمِيَــتْ بسهــمٍ مــنْ شَتــاتِ
فيـا يـومَ الـرِّهـانِ فُجعْـتُ فيـه ... بشخْـصٍ جـازَ عـن حـدِّ الصِّفـاتِ
ولازالَ الصَّبــاحُ عليــكَ لَيْــلاً ... ووجْــهُ البـدرِ مســودُّ الجِهَــاتِ

ويـا خيـلَ السِّبـاقِ سُقيْـتِ سُمّـاً　　مُـذابـاً فـي الميـاهِ الجـاريـاتِ
ولا زالــتْ ظُهــورك مثْقَــلاتٌ　　بــأحمــالِ الجبــالِ الــرَّاسيــاتِ
لأنَّ سبـــاقَـــكِ ألقَـــىٰ علينـــا　　همـومـاً لا تـزالُ إلـى الممـاتِ[1]

جُـرْأَتُـهَـا وَعَـداؤُهَـا لِلـنَّـبِـيِّ ﷺ :

* كانتْ أمُّ قرفةَ الفزاريّة واحدةً منَ النسوةِ الضّالاتِ المعانداتِ حمّالاتِ الشَّرِّ والحقدِ ، اللواتي وقفْنَ في وجهِ الإسلامِ والدعوةِ المحمديّة في عَصْرِها ، فقد كانت تجاهِرُ بعدائها للإسلامِ والمسلمين ، وكانت بناحيةِ وادي القُرى ، على سبعِ ليالٍ من المدينةِ المنوّرة في طريقِ الشَّام .

* وكانت أمُّ قرفةَ فاطمةُ بنتُ ربيعةَ الفزاريّة ذاتَ صوتٍ مسموعٍ ، وزعامةٍ واضحةٍ في قومها ، وبين أولادِها ونصرائها ، فقد كانتِ المرأةُ عَصْر ذاك إذا ولدتْ ارتفعَ قَدْرُها ، لِمَا للأولادِ من أهميّةٍ في حياةِ الأسرةِ والعشيرة[2] .

---

(١) أعلام النساء (٤/٥٧) ، وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٤٣) طبعة بيروت ١٩٣٤ م.

(٢) كانتِ الأمُّ المنجبةُ عَصْرَ ذاك تزهو بنجابةِ أولادِها ، ويفخرُ أبناؤُها بها ، وسمّيتِ الأمُ التي يَشْرَفُ بنوها منْجبةً ، وقد رفَعَ العربُ من أقدارِ المنجباتِ ، وضربُوا ببعضهنَّ المثلَ فقالوا : أنجبُ مِنْ ماويةَ ، وأنجبُ مِنْ أمِّ البنين .
ويكونُ الذكورُ فخراً للأمّهات ، وقوةٌ لهنَّ ، ويُقالُ للمرأةِ التي تَلِدُ الأولادَ الكرماءَ الأشرافَ : منْجبَةٌ ومنْجاب ، ولم تكنِ العربُ تعدُّ منجبةً مَنْ لها أقلّ من ثلاثةِ بنين أشراف .　　(المحبّر ص ٤٥٥)
ولذلك زُهيتِ الأمُّ المنجبةُ بأبنائِها ، وزهىٰ أبناؤُها بها ، لأنَّهم يدينونَ لها بكثيرٍ منْ عظمةِ نفوسِهم ، وسلامةِ أبدانِهم ، وشهرتِهم ومجدِهم .
وقد رفعَ العربُ منْ أقدارِ المُنجبَات ، ففوّهُوا بهنَّ ، وعدوهنَّ مُثُلاً عاليةً ، لذلك ضربُوا ببعضهنَّ الأمثالَ فقالوا : أنجبُ مِنْ عاتكةَ ، وأنجبُ منْ خبيئة ، وأنجبُ من فاطمةَ بنتِ الخرشب . ولهذا أمَرَ الحبيبُ الأعظمُ محمدٌ ﷺ بأنْ يختارَ المرءُ الإنسانةَ=

* ولعلَّ أمَّ قرفةَ قد رأتْ كثرةَ محارمها ، وكثرةَ السُّيوف منْ حولها ، وكذلك كثرة الرّماح وآلاتِ الحرب ، فنفخ الشَّيطان في عطْفِها ، وزيَّنَ لها هذه الكثرة ، ولعبَ بها ذات اليمين وذاتَ الشِّمال وكلْبَ غوايته باسطٌ ذراعيه أمامَ باب بيتها ، فظنَّتْ أنَّها قادرةٌ على إطفاءِ نورِ الحقِّ الذي ينبعثُ من المدينةِ المنوّرة ، فبعثتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أربعين رجُلاً من بطنِها ليغزوه في بيتهِ وفي المدينةِ المنوّرة ، وهي تحسبُ أنَّها تحسنُ بذلك صنعاً ، ولم تَدْرِ أنَّ تدميرها كامنٌ في تدبيرها ، وأنَّ اللهَ عاصمُ نبيّه منها ومن غيرها من سادة الفجّار وكبَارِ المجرمين ، وكُبَّار المفسدين والمستهزئين .

* ولم تكتفِ أمّ قرفةَ بهذا العَداء السَّافر للدعوةِ المحمديّةِ ، وإنَّما كانت تؤلِّبُ النَّاس على رسول الله ﷺ ، فبعثَ لها سيّدنا زيدَ بنَ حارثة[1] فارسَ الموالي ومولى الفُرسان ـ عليه سحائب الرضوان ـ فهزَمَتْه ، فحلَفَ ألاَّ يغسل رأْسَه ولا يدَّهنَ حتى يغزوها وقومَها ، ويذيقهم ألوانَ النّكال .

* وروي أنَّ سيدنا زيدَ بنَ حارثة ـ رضي الله عنه ـ كان قد خرج في تجارةٍ إلى الشَّام ، ومعه بضائعُ لأصحابِ النَّبي ﷺ ؛ فلمَّا كان دون وادي القُرى ، لقيه ناسٌ من فزارةَ ، فأحاطُوا بهم منْ كلِّ جانب ، وأعملُوا فيهم السِّلاح ، حتى ظنّوا أنَّهم قد قُتِلُوا جميعاً ، وأخذوا البضائعَ التي كانت مع زيدِ بنِ حارثةَ وأصحابه .

= الأصيلةَ فقال : «تخيّروا لنطفِكم فإنَّ العرقَ دسّاس» .
وللمزيدِ من هذه الأخبار الجميلة ، اقرأ سيرة فاطمة بنت الخرشب في كتابنا «نساء من المشرقِ العربيّ» .

(١) اقرأ سيرةَ سيدنا زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ في موسوعتنا «فرسان من عَصْر النّبوة» (ص ١٢٦ ـ ١٤٦) ، فسيرتُه إمتاعٌ للأسماع وأنْسٌ للمجالس بإذن الله .

* وفي روايةٍ أخرىٰ أنَّ زيداً وأصحابَه لما كان دون وادي القُرى لقيه ناسٌ منْ فزارةَ من بني بدْرٍ ، فضربُوه وضربوا أصحابَه ، وأخذوا ما كان معهم[1] .

* وعاد زيدٌ وأصحابَه إلى المدينةِ المنوّرة ، ونذرَ زيدُ بنُ حارثة ألا يمسَّ رأسَه غُسْلٌ من جنابةٍ حتى يغزو بني فزارة ، فلمَّا شُفي منْ جراحَتهِ ، وعُوفي منَ المرض ، بعثه رسولُ اللهِ ﷺ في سريةٍ لهم وقال لهم : «اكمنوا النَّهارَ وسيروا الليلَ» .

* فخرجَ بهم دليلٌ من بني فزارةَ ، وقد تنبّه لهم القوم ـ بنو فزارة ـ ، فجعلُوا واحداً منهم ناظوراً ينظرُ في الصَّباح على جبل يشرفُ على وجْهِ الطَّريق الذي يرون أنَّ المسلمين قد يأتونَ منه ، فينظر قدْرَ مسيرة يوم ، فيقول بعد أنْ ينظرَ : اسرحُوا فلا بأسَ عليكم ؛ وإذا أمسىٰ المساءُ أشرفَ ذلك الرَّجُل على ذلك الجبل ، فينظرُ مسيرةَ ليلة ، فيقول : نامُوا فلا بأْسَ عليكم هذه الليلة .

* فلمَّا كان زيدُ بنُ حارثةَ وأصحابهُ على نحوِ مسيرة ليلة ، أخطأَ بهم الدليلُ الفزاريُّ طريقَهم ، فسلكَ بهم طريقاً أخرى ، حتى أصبحوا وهم علىٰ خطأ ، فعاينوا الحاضرَ من بني فزارةَ ، فحمدوا خطأَهم ، فكمنَ لهم في الليل حتّى أصبحوا ، فأحاطَ بهم زيدٌ وأصحابه .

* ثمَّ كبّرَ زيدٌ ، وكبَّرَ أصحابهُ ، وأخذوا أُمَّ قرفةَ ، وأخذوا ابنتها سلمىٰ ؛ وقيل : جارية بنت مالك بن حذيفة ، وكانت أمُّ قرفةَ عجوزاً ذات شرفٍ في قومها ، ثمَّ قُتِلَتْ جزاء وفاقاً لأعمالِها وعدوانها ؛ أمّا ابنتها فقد ظلَّتْ أسيرة .

---

(١) انظر : نهاية الأرب (١٧/ ٢١٠) .

* ثمَّ أقبلَ زيدُ بنُ حارثة بجنودِه ، وعادَ ظافِراً إلى المدينةِ المنوّرة ، فقرعَ باب النَّبي ﷺ ، فقامَ إليه يجرُّ ثوبَه فاعتنقَه وقبّله ، وسأَله ، فأخبره بما ظفّره الله به[1] .

* وهكذا قصمَ اللهُ أُمَّ قرفةَ ، وقطعَ دابرَها ، وتعالوا نقرأ قصَّتها ، ومسيرَ زيدِ بنِ حارثة إليها في هذه الأنشودةِ الجميلة :

زيــدُ بــنُ حــارثــةٍ ومعـ	ـــه تجــارةٌ للمُسْلميـــن
مُتـــوجّهـــاً للشَّـــام يبـ	ـغي الصَّفْقَ مثلُ الآخِرين[2]
خـرجَـتْ عليـه بنـو فـزا	رة بئْـسَ قـومـاً فـاسِقيـن
المـــالُ قـــد أخـــذوه أيـ	ـضـاً عـذَّبُـوه كَمعْتـديـن
زيـــدٌ يعـــودُ ليخبـــرَ الـ	ـهـادي بفعْـلِ المجـرميـن
فــــوراً رســــولُ اللهِ أر	سلَ بـالـرّجـال الصَّـادقيـن
جـــاؤوا إليهـــم فَـــاجَـــؤُ	وهـم فـي الصَّباح مبكّـريـن
لكـــنْ بنـــو بـــدرٍ أحسُّـــوا	بــالــرِّجــال القَــادميــن
فـرّوا وقـد تـركُـوا المنـا	زَل فـي البَـراري هـاربيـن
أخـــذُوا امْـــرأَةً وابنتـ	ـهـــا وعـــادوا سَـــالميـــن
زيـــدٌ أتـــىٰ بـــابَ النَّبـ	ـــيّ مبشّـراً بـالعـائـديـن
لِلقَـــائـــهِ قـــامَ النَّبـ	ـــيُّ بسـرعـةِ المتلهّفيـن
بـــالأمـــرِ قـــد علـــمَ النَّبـ	ـــيّ وأنَّـــه النَّصْـر المُبيـــن
قـــد كـــانَ هـــذا عـــام ســـتٍّ	شهـــر صـــومِ المـــؤمنيـــن

---

(١) انظر: نهاية الأرب (١٧/ ٢١١) ، وعيون الأثر (٢/ ١٥٦) ، وأعلام النساء (٤/ ٥٧ و٥٨) مع الجمع والتصرف. وكانت سرية زيد هذه في السنة السادسة من الهجرة.

(٢) «الصفق» : التجارة.

* وقد شدَا أحمد محرّم في ديوانِ «مَجْد الإسلام» بهذه الحادثة ، فصاغَ قصيدةً طويلةً تائيّةً منها هذه الأبيات الكاشفات ، وأوّلها :

أَمِنْـــكِ فَـــزارةُ انبعـــثَ الغُـــزاةُ ... فمـــا تغنـــي السُّيـــوفُ ولا الحُمـــاةُ
لعمـــرِكَ مـــا بـــنُ حـــارثـــةٍ بحـــلٍّ ... وإنْ زعـــمَ القَـــراصنَـــةُ الجُفَـــاةُ
أثـــاروا الشَّـــرَّ لا هـــو يبتغيـــهِ ... ولا أصحـــابُـــهُ الغـــرُّ الهُـــداةُ
أصـــابـــوهـــمْ علـــىٰ ثِقَـــةٍ وَأَمْـــنٍ ... فـــلا سَيْـــفٌ يُسَـــلُّ ولا قَنـــاةُ

* ومنها يصفُ مسيرَ زيدٍ ، وأسْرَ أمّ قرفةَ وقتْلَهَا :

مشَـــىٰ البَطَـــلُ المقـــذَّفُ لا اتّئَـــادٌ ... تضيـــقُ بـــه السُّيـــوفُ ولا أَنَـــاةُ
يخـــفُّ بهـــا إلـــى الأعـــداءِ بيضـــاً ... عليهـــا مـــنْ منـــاقِبهـــا سِمَـــاتُ
وحَـــاقَ بـــأمِّ قـــرفـــةَ مَـــا أرادَتْ ... بـــأكـــرم مـــا تُفـــدَّى الأُمَّهـــاتُ
أرادتْ قَتْلَـــه فجـــرىٰ عليهـــا ... قضـــاء القَتْـــلِ وانتصـــفَ القضـــاةُ
أُحِيْـــطَ بهـــا وبـــابنتهـــا جميعـــاً ... فمـــا نَجَـــتِ العجـــوزُ ولا الفتـــاةُ
لِتِلْـــكَ جـــزاؤُهـــا المُـــردي وهَـــذي ... لهـــا الأسْـــرُ المبـــرِّحُ والشَّتَـــاتُ
تُسَـــاقُ ذليلـــةً مـــن بعـــد عـــزٍّ ... كمـــا سيقـــت غـــداةَ النَّحـــرِ شـــاةُ[1]

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ أمَّ قرفةَ قد قُتِلَتْ ، وسَبِيَت ابنتُها سلمى ، وكانت عزيزة في أهلِها مثل أمّها أمّ قرفة ، وقد جاء بها زيدُ بنُ حارثة على رسول الله ﷺ ، وكانتْ من نصيبِ قيسِ بنِ المسحر ، أو سلمة بنِ الأكوع ، فسألَها رسول الله ﷺ سلمةُ فوهبَها له ، فأهداها إلى خالهِ حزن بنِ أبي وهب . وقد صوّر أحمد محرّم هذا المشهد بقوله :

هو ابنُ الأكْوَعِ البطلُ المرجّىٰ ... سَبَـــاهَـــا حيـــنَ أسْلَمهـــا الـــرَّعـــاةُ
هـــي الهِبَـــةُ الكـــريمـــةُ صـــادفَتَهـــا ... يميـــنٌ مـــا تفـــارقُهـــا الهِبَـــاتُ

---

(١) انظر : ديوان مجد الإسلام (ص ٥٠٠ ـ ٥٠٢) باختصار وانتقاء الأبيات .

حَبـاهَـا خـالَـه فـي غيـرِ ضـنٍّ   وأيـنَ مـنَ الضَّنيـنِ المكـرمـاتُ[1]

* وهناك روايةٌ تقولُ: إنَّها كانت لعائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فأعتقتها[2].

* وفي روايةٍ أخرى عند ابنِ الأثير أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ بها إلى مكةَ، ففادى بها أسرى المسلمين[3].

* وكانت سلمى هذه من شواعرِ عصرِها، ولها بذلك آثارٌ وعَتْها المصادر ودواوينُ الأدب[4].

* ومهما يكن منْ أمْرٍ، فقد رجعتْ سلمى إلى قومِها، وارتدتْ بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ فيمن ارتدّ عنِ الإسلام من قومها، ثمّ إنّها انضمّتْ إلى طُليحةَ الأسديّ هي وعيينة بن حصْن، وجمعتِ النَّاسَ حولَها لمحاربةِ قاهرِ المُرتدين وقامعِ المشركين سيفِ اللهِ وسيفِ رسوله سيّدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، فتجمعَ إليها كلُّ مارقٍ من تلك الأحياءِ من غطفانَ وهوازنَ وسُليم وأسدٍ وطيىء.

---

(1) المرجع السابق عينه (ص ٥٠٢).
(2) تاريخ الطبري (٣/ ٢٣٤).
(3) الكامل (٢/ ٧٩).
(4) كانتْ سلمى هذه شاعرةً منْ شواعرِ الجاهليّة اللواتي حفظَ لنا التّاريخُ أثارةً من أقوالهنَّ، فقد رثَتْ أباهَا لمّا قتلَه بنو عَبْس فقالت:

للهِ عينـاً مَـنْ رأىٰ مثْـلَ مـالـكٍ   عقيـرةَ يـوم إذْ جـرىٰ فَـرسَـان
فليتهمـا لـم يشْـربـا قـطّ قطـرةً   وليتهـا لـم يُـرسَـلا لِـرهَـان
أحـلّ بـه أمـس الجُنيـدب نـذْره   فـأيّ قتيـل كـانَ فـي غَطفَـان
إذا سجَعَـتْ بـالـرقمتَيـن حمـامـةٌ   أو الـرّسّ فـابكـي فـارسَ الكتفـان

(أعلام النساء ٢/ ٢٥٣)

و«الجُنيدبُ»: هو جندبُ أحد بني رواحة، فقد رمَى أباها بِسَهم فقتله. و«الرقمتين»: الرقمتان: قريتان بين البصرة والنباج، والرقمتان أيضاً بأرض بني أسد.

* ولعلَّ سلمى هذه والتي تكْنى أمّ زمل لم تنْسَ ما حلَّ بأمِّها من قبلُ ، وما حلَّ بها من أسْرٍ ، فأرادتْ أنْ تقفوَ مسيرةَ أمّها ، كما أرادت أنْ تنتقمَ لنفسِها ، وتثأر لما حَصَلَ لقومها .

* ثمَّ إنَّها قادتِ الجموعَ من حولِها ، وقادتْهُم كما قادَتْ أمُّها الجموعَ منْ قبلُ ، وأمرتهم أنْ يهجموا على خالد بنِ الوليد ومَنْ معه ، وكان مشغولاً بحربِ المرتدين ، فسارَ إليها خالدُ ، واقتتلَ الفريقان قِتالاً شديداً عنيفاً ، وكانت سلمى أمّ زمل تشرفُ علىٰ المعركةِ ، وهي راكبةٌ على جملِ أمّها أمّ قرفة ، والتي كانت تركبُه في المعاركِ من قبل .

* وكانتِ المعركةُ حاميةَ الوطيسِ ، وقد احمرتْ حدقُ الفُرسان لِهَوْلها ، ولما رأىٰ خالد ـ رضي الله عنه ـ خطرَ سلمى ، أحبَّ أنْ يدبّر خطةً للقضاءِ عليها وعلى شرّها ، ومن ثمَّ تنفضُّ الجموعُ من حولها ، فأوعزَ إلى الفرسانِ ، أنَّ مَنْ نخسَ جملَها ، أو عقره فلَهُ مئةٌ منَ الإبل ، هنالك تهافتَ الأبطالُ والفُرسان ، وكان قتالُهم شديداً ، حتى اجتمعَ على الجملِ فوارسُ فعقروه وقتلوها ، وقُتِلَ حولَ جملها مئة من الملتفّين حولها ، ودارتِ الدّائرةُ عليها وعليهم ، وهزمهم اللهُ عزّ وجلّ ، وردّ كيدهم إلى نحورِهم ، وباؤوا بغضبٍ منَ اللهِ . وبعثَ خالد بالفتح وذلك سنةَ (١١ هـ)[١] .

* وهكذا انطفأَتْ هذه الجمرةُ من هاتَيْن المرأتَيْن الظَّالمتين ، وانتهتْ بذلك حياتهما ، لتكُونا عبرةً للمعتبرين .

* غيرَ أنّنا نودُّ أن نذيّلَ هذه التّرجمةَ بذكْرِ فقْرةٍ عن بعضِ النّساء اللواتي عادَيْنَ الإسلامَ ، وعادَيْن رسولَ اللهِ ﷺ ، لتتمَّ بذلكَ الفائدةُ ، ويعمَّ النَّفعُ بإذنِ الله .

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٣/ ٢٣٤) ، وأعلام النساء (٢/ ٢٥٣) مع الجمع والتصرف .

نِسَاءٌ حَارَبْنَ الإِسْلامَ وَالرَّسُولَ ﷺ:

* عرفْنَا أنَّ أمَّ قرفةَ قد حاربتْ رسولَ الله ﷺ عن بُعْدٍ وطولِ مسافَةٍ ، وكذلك ابنتها ، ولكنَّ هناك بعضُ النّساء قد حاربْنَ رسولَ الله ﷺ وعادَيْنَ الإسلامَ عن قُربٍ ، بل إنَّ بعضهنَّ كُنَّ منْ عشيرتهِ وقومه .

* ونحنُ ذاكرونَ لكَ بعضَ مواقفِ هؤلاء اللواتي صددْنَ عن الإسلامِ ، وصَدَّهُنَ الحَسَدُ والهوىٰ عن اتّباع الهدىٰ ودينِ الحقِّ ، فكُنَّ في صفِّ المجرمينَ والمُستهزئين ، في الوقتِ الذي كانت مثيلاتُهنَّ ممن نَصرنَ دينَ اللهِ وأقمنَ الصَّلاة وآتينَ الزّكاةَ وأطعنَ اللهَ ورسولَه . .

١ ـ أمُّ سعد بنُ أبي وقَّاص:

* كلُّنا يعرفُ سعدَ بنَ أبي وقّاص القرشيّ الزُّهريّ ، أحدَ العشرةِ المبشّرينَ بالجنَّةِ ، وأحدَ السَّابقين الأوّلين ، وأحدَ مَنْ شهدَ بدراً والحُديبية ، وأحدَ السِّتَّةِ أهل الشُّورى .

* وأمُّه هي : حمنةُ بنتُ سفيان بنِ أميّةَ بنِ عبد شمس بن عبد مناف مِنْ قريش .

* أسلمَ سعدٌ ابنُ سبع عشرةَ سنة وهو في عُمْر الزَّهْرِ والوَرْدِ ، وعرفَ الإيمانُ سبيلَه إلى قلبِهِ الخالي فتمكَّنَ منه . وكان ثالثَ ثلاثةٍ في الإسلامِ وفي ذلك يقولُ عن نفسِهِ : ما أسلمَ أحدٌ في اليوم الذي أسلمتُ ، ولقد مكثْتُ سبعَ ليالٍ وإنّي لثلثُ الإسلام[1] .

* نشأَ سعدٌ في رعايةِ أُمّه ، ولمّا أسلمَ سعدٌ كانَ من المتوقّع من أمّه حمنةَ بنتِ سفيان أنْ تُسَرَّ بذلك ، بيد أنَّ الشّقْوةَ غلبَتْ عليها ، وراحتْ

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (١/٩٨) والحديث أخرجه البخاري في الفضائل برقم (٣٧٢٦ و٣٧٢٧) .

تحاربُ الدَّعوةَ المحمديّةَ بكلّ ما أوتيتْ من حيلةٍ علىٰ الرّغم منْ أنَّه كانَ أثيراً لديْهَا.

* فقد ذكرتْ كتبُ الصَّحيحِ والمفسّرون وغيرهُم من كُتَّابِ التّراجم، أنّه نزلَ في سعدٍ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٨ ـ ٩][1]. وذاك أنّه لما أسلمَ سعدٌ قالت له أمُّه حمنةُ مستنكرةً: يا سعدُ بلغَنِي أنَّك صبوتَ، فواللهِ لا يظلّني بيتٌ منَ الضَّحِّ ـ الشمس ـ، والرّيح، لا آكلُ ولا أشربُ حتى تكفُرَ بمحمّدٍ، وترجعَ إلى ما كنتَ عليه، وكان أحبّ ولدِها إيّاها؛ فأبى سعدُ، وثبتَ على إسلامه.

* وصبرتْ حمنةُ ثلاثةَ أيّام كواملَ لم تكلِّمه، ولم تأكُلْ، ولم تشربْ، ولم تستظلَّ بظلٍّ حتى خشيَ عليها، فأتى سعدٌ رسولَ اللهِ ﷺ، وشكا ذلك إليهِ، فأنزلَ الله عزَّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ الآية.

* وروى الإمامُ مسلم في صحيحهِ القصّة على النّحو الآتي.. وذلك أنَّ مصعبَ بنَ سعد حدّث عن أبيه أنّه نزلتْ فيه آياتٌ منَ القرآنِ الكريم وفيه أنّه قال: حلفتْ أمُّ سعدٍ ألاَّ تكلمهُ أبداً حتى يكْفُرَ بدِيْنِهِ، ولا تأكلَ ولا تشربَ.

قالت: زعمتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديْكَ، وأنا أمُّك وأنّا آمُرُكَ بهذا.

قال: مكثَتْ ثلاثاً حتى غشيَ عليها منَ الجهدِ، فقامَ ابنٌ لها يُقال له عمارة، فسَقَاها، فجعلتْ تدعو على سعدٍ، فأنزلَ اللهُ عزّ وجلَّ في

---

(١) انظر التفاسير الآتية للآية (٨ و٩) من سورة العنكبوت: القرطبي ـ البغوي ـ الخازن وغيرها.

القرآنِهذه الآية: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ . . . ﴾ وفيه أنَّهم إذا أرادوا إطعامَها شَجَروا فاهَا بالعصَا[1].

* وفي روايةٍ أخرى عن سعدٍ قال: كنْتُ رجُلاً برّاً بأمّي، فلمّا أسلمت قالت: ياسعدُ، لا آكلُ ولا أشربُ حتّى أموتَ فتعيَّرَ بي، فيُقال: يا قاتلَ أُمِّـه.

قلتُ: لا تفْعَلي يا أمّاه، فإنّي لا أدَعُ ديني لهذا الشّيء.

قال: فمكثَتْ يوماً وليلةً لا تأكلُ، فأصبحتْ قد جَهِدَتْ.

قال: فلمّا رأيتُ ذلك قلتُ: تعلمينَ واللهِ يا أمّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفسٍ، فخرجَتْ نَفْساً نَفْساً، ما تركتُ دِيْني هذا لشيءٍ، إنْ شئتِ فكُلي، وإنْ شئتِ فلا تأكُلي، فلمّا رأتْ ذلك أكلَتْ، فنزلَتْ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾[2].

* وهكذا ثبتَ سعدٌ علىٰ إسلامِهِ، ولم تَغْدُرْ بهِ العاطفةُ ولم تعبَثْ بعواطِفِهِ، ولذا فإنّه لم يتابعْ أُمَّه حمنةَ على شِرْكها وكفرِها بالله، لأنَّ الكفْرَ باللهِ مصيبةٌ وأيّ مصيبة!! وأيّ معصية أعظمُ منَ الكفْرِ باللهِ التي يخلدُ صاحبها في النّار..

* إنَّ موقفَ سعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ مع أمِّهِ حمنةَ بنتِ سفيان يُعْطينا نموذجاً للمؤمنِ الصَّادق المتمسّكِ بدينه، والذي لا يساومُ عليه أبداً، كما يبيّنُ صورةَ المرأةِ الكافرةِ المتسلّطةِ التي ورثتِ الضَّلال عن سَلَفِها لتورّثَه إلى خلفِها.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث رقم (٤٦) (٥/ ٢٧٨ و٢٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٨)، والدر المنثور (٥/ ١٦٥) وتفسير الخازن والبغوي (٥/ ١٥٦).

* ولكنَّ سعداً الشَّابَّ المؤمنَ التَّقيَّ الذي واجَهَ الابتلاء صبرَ وصبرَ وصبرَ وثبتَ ، وقاومَ عواطِفَه ، فلم تؤثّر فيه عاطفةُ الأمومةِ ، فيضعفُ أمامَها ، فتردّه عن عقيدته .

* ولا شكَّ في أنَّ عاطفةَ الأمومةِ أمرٌ صعبٌ وشاقٌّ يصعُبُ على كثيرينَ الوقوفَ أمامَه ، ولكنْ هوُ الإيمانُ الصَّادق الذي لا يقفُ أمامَه شيءٌ.

* إنَّ الإيمانَ ليس كلمة تُقال ، وإنّما هو حقيقةٌ ذاتُ تكاليف ، وأمانةٌ ذاتُ أعباء ، وجهادٌ يحتاجُ إلى صَبْر ، وجهدٌ يحتاجُ إلى احتمال ، فلا يكفي أنْ يقولَ النّاسُ: آمَنَّا؛ وهم لا يتركونَ لهذه الدَّعوىٰ حتى يتعرضُوا للفتنةِ ، فيثبتُوا عليها ، ويخرجُوا منها صافيةً عناصرهم ، خالصةً قلوبُهم .

* وهكذا أثبتَ سعدٌ أنَّه صادقٌ صابرٌ ثابتٌ على الحقِّ ، فلم يجنحْ لرغبةِ أُمّه التي تريدُ أنْ تصدَّه عن سبيلِ اللهِ ، وهي أحبَّ النَّاسِ إليه ، وهو أحبُّ النَّاس إليها .

* ويشبهُ قصَّةَ سَعْد بن أبي وقّاص هذه مع أُمّه ، قصّة عيّاش بن أبي ربيعة مع أُمّه أسماء أيضاً ، وقد قيل: إنَّ آيتَي العنكبوت (٨ و٩) اللَّتَيْن نزلَتا في سعدٍ نزلتا بشأنِ عيّاش ، وهذا أَمْرٌ محتَملٌ ، إذْ قد يكونُ النَّازلُ واحداً ، والأسبابُ متعدّدةٌ ، وقصّته: أنَّه هاجرَ مع عمرَ بنِ الخطّاب حتى نزلاَ المدينةَ المنوَّرة ، فخرجَ أبو جهلٍ والحارثُ أخواه لأمِّه أسْماء ، فنزلاَ بعيّاش وقالا له: إنَّ منْ دِيْنِ مُحمَّدٍ ـ ﷺ ـ صِلَةَ الأرحامِ ، وبرَّ الوالدَين ، وقد تركتَ أمّك لا تطعمُ ، ولا تشربُ ، ولا تأوي بيتاً حتى تراكَ ، فاخرجْ معنا ، واستشارَ عمر فقال: هما يخدعانكَ ، ولكَ عليَّ أنْ أقسمَ مالي بيني وبينكَ ، فما زالا به حتّى أطاعَهُما وعصىٰ عمر ، فقال عمر: أمّا إذا عصيتني فخذْ ناقَتي ، فليسَ في الدُّنيا بعيرٌ يلحقُها ، فإنْ رابكَ منهما ريبٌ فارجعْ .

* فلمّا انتهوا به إلى البيداءِ قال أبو جهل: إنَّ ناقتي قد كلَّتْ فاحملني معكَ فنزلَ ليوطىءَ لنفسِهِ وله ، فأخذَاه فشدّاه وثاقاً وجَلَدَهُ كلَّ واحدٍ مئة جلدة ، وذهبا به إلى أمّه فقالت: لا تزالُ في عذابٍ حتى ترجعَ عن دين محمّد[1] .

٢ ـ أُمُّ مُصعَبَ بنِ عُمير:

* أمُّ مُصعب بنُ عمير منَ المحاربات للإسلامِ وللدّيْن الحنيفِ ، وقد فعلَتْ شيئاً كثيراً لتصدَّ ابنها مُصْعباً عن سبيل اللهِ وما نزلَ منَ الحقّ ، ولتصدّ عن رسولِ الله ﷺ.

* وأمُّ مصعب هذه اسمها: خُناسُ بنتُ مالِك ، كانت امرأة من نساءِ مكّة المعدودات ، وقد عُرفَتْ بإرادتِها النَّافِذةِ ، وآرائها المتسلّطةِ على أسرتها وبقسوتها في تربيةِ أولادِها ، وحزمها في معاملتِهم ، وهي مع هذا كلّه تحبُّ ابنَها مُصعباً حبّاً شديداً وتعطيه ما يحبُّ ويهوى ، فقد كانتْ منَ المُوسرات وكانت مليئةً كثيرةَ المالِ ، تكسو ابنَها أحسنَ الثّياب وأجملَه وأرقَّه؛ وكان يلبسُ الحضرميَّ من النِّعال؛ واشتهرَ مصعبٌ بأنّه فتى مكّة شباباً وجَمالاً ، وقد وصفَه الحبيبُ المصطفى ﷺ بقوله: «ما رأيتُ بمكّة أحداً أحسنَ لمّةً ، ولا أرق حلّةً ، ولا أنعم نعمةً من مصعبَ بنِ عمير».

* ويحدثنا السُّهيلي عن مصعب وعن حالةِ أمّه بعد أنْ ذكرَ ووصفَ منْ حالهِ قبل الإسلامِ ، فيقول: فلمّا أسلمَ أصابَه من الشّدة ما غيّر لونَه وأذْهبَ لحمَه ، ونهكت جسمه ، حتى كان رسولُ الله ﷺ ينظرُ إليه وعليه فروة قد رقّعها ، فيبكي لما كان يعرفُ من نعمتهِ. وحلفَتْ أمُّه ـ حينَ أسلمَ وهاجر ـ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٣١) ، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٢٨) ، والبحر المحيط (٧/ ١٤٢).

ألا تأكلَ ولا تشربَ ولا تستظلَّ بظلٍّ حتّى يرجعَ إليها ، فكانت تقفُ للشَّمس حتى تسقطَ مغشيّاً عليها ، وكان بنوها يحشونَ فاهَا بشجار ـ عود ـ فيصبّون فيه الحساء لئلا تموت .

* ويذكرُ ابنُ حجر في «الإصابة» بأنَّه قد صُبَّ على مصعبٍ العذاب ، وقُيّدَ في الأصفادِ ، بعد أنْ كان سيّداً فأخذه أهلُه وقومُه ، وحبسوه ، فلم يزلْ محبوساً إلى أنْ هاجرَ إلى الحبشةِ .

* ومن الطبيعي أنْ يتغيَّر مجرىٰ حياة مصعب عندما أسلمَ وآمن بمحمّد نبيّاً ورسولاً ؛ فقد أسلم مصعبٌ في دار الأرقم ، وعرفَ معنى الشَّهادة والتّوحيد ، فكان يكتمُ إسلامَه خوفاً من أمه ـ قبل قريش ـ لئلا تحولَ بينه وبين الذَّهاب إلى رسول الله ﷺ وهو في دار الأرقم بن أبي الأرقم يدعو إلى الله ليخرجَ النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور .

* ولكنَّ الأمورَ لم تكنْ كما يريدُ مُصْعبٌ ، وإنَّما أبصرَ بهِ عثمانُ بنُ طلحةَ يُصَلّي في جوفِ الكعبةِ فأشاعَ ما رأىٰ ، وعلمَتْ أمُّه خُناسٌ بما حدَّثَ بهِ عثمانُ بنُ طلحة ، فكان يوماً صعباً على مُصعبَ ، وسألتْه في غضبٍ : أصبأْتَ يا مصعَبُ؟

قال مصعبٌ : لا يا أمّاه ، ولكنّي عرفْتُ الطَّريقَ الحقَّ إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ وحْدَه لا شريكَ له .

فقالت : ويحكَ وأيّ إلهٍ تعني يا مصعب .

قال : يا أمّاه ، إنّه إلهٌ واحدٌ ، وهو الذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ، وخلقَ كلّ شيءٍ ؛ وهو الواحدُ القهَّار .

فقالت : أهناك آلهةٌ غيرُ اللاتِ والعزَّى ، وهُبَل ، ومُنَاة يا مصعب؟!

فقال مصعبٌ : يا أمّاه ، إنّي أعرفُ أنَّكِ امرأةٌ راجحةُ العَقْلِ ، نافذةُ

البصيرة ، وإنّي لأرجو ألا يغيبَ عنك أنَّ هذه الأحجارَ لا تنفعُ ولا تضرُّ ، ولا تملكُ من أمْرِ نفسِها شيئاً ، فكيفَ نتوجَّه إليها بالعبادةِ والتقديس وهي لا تسمعُ ولا تبصر؟!

فقالت أمُّه والغضبُ يعلو وجهَها : ويحكَ يا مُصعَبُ ماذا تقول ، أبهذهِ الجرأة والقِحةِ تنالُ منْ آلهتِنا وتسخرُ من معتقداتِنا؟ .

قال : لا واللهِ يا أمّاه ، ما أقولُ إلاَّ حقّاً وصدقاً .

قالت : كفَّ يا مصعبُ عن هذا الهُراء والسُّخْفِ ، لقد صدقُوا فيما قالوه لي عنكَ ، وعن عقُوقكَ لآلهتِنا . فقال مصعبُ في هدوء : وماذا قالُوا يا أمَّاه؟!

قالت : لقد قالُوا لي : يا خُناس ، إنَّ محمّداً قد سَحَر ابنَكِ مُصعباً بِسِحْرٍ عظيم .

قال : وما هو هذا السِّحر؟!

قالت : يا مصعبُ ، لقد سَحَرَك فصبأْتَ عن ديننا ، وتابعْتَه فيما يدعُو إليه . . .

* ثمَّ إنَّها أخذَتْ تعنّفُه وتشتمُ ما جاءَ به ، وراحتْ تصدُّه عن دينِ اللهِ بجميعِ الوسائلِ ، وتقرّبُ له وتبعّد ، ولكنّه ظلَّ ثابت القلبِ ، لم يأْبَه لكلامها ، ولم يرعَوِ لتهديدها ، ولمّا يئستْ منه قالَتْ له : وحقّ هذه الآلهة لأضعَنَّ قدمَكَ في القَيْدِ حتّى تموتَ كَمداً ، أو تكفَّ عن هذا الذي تزعُمُ وتقول . . .

* ووضعَتْ أمُّه يدَيْه النَّاعمتَيْن في القَيدِ ، وكذلك رجليْه ، ولم ترحمْ غضارَتَه ، ولعلَّها وجدَتْ حَرجاً لها وانتقاصاً بإسلامهِ بينَ نساءِ قومها ، ولم تعلمْ أنَّها لو أسلَمَتْ لحظيتْ بعزّ الدّهْرِ وغنيمةِ الدّارَيْن؟!

* وظلَّ مصعبُ في قيدِهِ ، حتّى أذنَ رسولُ اللهِ ﷺ بالهجرةِ إلى الحبشَةِ ، فانفلتَ من محبسهِ ، وانتظمَ مع المهاجرين إلى اللهِ ، الفارّين بدينهم من قريش.

* ولكنْ لم يطُلْ مقامُ مصعبَ هناك فعادَ إلى مكَّة ، ليكونَ السَّفيرَ النَّبويَّ الحصيفَ إلى المدينةِ ، وليسلمَ كبراءُ أهلِ المدينةِ وأسيادهم على يَديْه.

* وفي المدينةِ نجحَ مُصعب في مهمّته ، وعادَ ومعه عددٌ من أهلِها وقد ملأَ الإيمانُ قلوبَهم ، وشغلَتْ محبّةُ رسولِ اللهِ ﷺ نفوسهم ، وعندما حطّت قوافلُهم رحالَها في مكّة ، أسرعَ مصعبُ إلى بيتِ رسولِ الله ﷺ وأخبره بإسلامِ أهل المدينة؛ فسُرَّ ﷺ بهذا الخبرِ وهذه النَّتائج المباركة.

* ونُمِيَ إلى خُناس أمِّ مصعب بأنَّ ابنَها قد قدمَ من المدينةِ بعد غيابٍ طويل ، فلم تطقِ الأمُّ الحازمةُ صبراً ، وأَرسلَتْ إليه : يا عاقّ ، أتقدمُ بلداً أنا فيهِ لا تبدأُ بي؟!!

فقال مصعب قولتهُ الخالدةُ لأمِّه : واللهِ يا أمّاه ، ما كنْتُ لأبدأ بأحدٍ قبل رسولِ الله ﷺ....

* فلمّا سلَّمَ مصعب علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وأخبره بما أخبرَه ، ذهبَ بعد ذلك إلى أمِّهِ خُناس بنت مالك ، فقالت له : ويحكَ يا مصعب ، إنّك لعلى ما أنتَ عليهِ من الصَّبأَةِ بعد؟!

قال مصعبُ وابتسامةُ الإيمانِ ترتسمُ على محيّاه : يا أمّاه أنا على دينِ رسولِ الله ﷺ ، وهو الإسلامُ الذي رضيَ اللهُ لنفسِهِ ولرسولهِ...

قالت : ما شَكَرْتَ ما رثَيْتُكَ مرة بأرضِ الحبشَة ، ومرّة بيثرب.

فقال : أفرّ بديني أنْ تفتنوني.

* ثم إنَّ أمّه أرادت حَبْسَه ، وأن تضعَه في القيدِ كما فعلَتْ سابقاً فقال لها : واللهِ لئن أنتِ حبسْتِني لأحرصنَّ على قَتْل مَنْ يتعرّضُ لي .

قالت : فاذهبْ لشأنِك . وجعلَتْ تبكي .

فقال مصعب : يا أمّه إنّي لكِ ناصحٌ عليكِ شفيقٌ ، فاشهدي أنَّه لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً عبده ورسوله .

قالت أمُّه والحربُ والتّحدّي يبدو منْ فمِها : يا مصعب والثّواقبُ لا أدخلُ في دِيْنك فيُزرىٰ برأيي ، ويضعَّفُ عقلي ، ولكنّي أدعُك وما أنتَ عليه ، وأقيم على ديني[1] .

* وظلت أمُّ مصعب منَ المحارباتِ لدين اللهِ ، وظلّ مصعبُ من المؤمنين حتّى كانت غزاةُ بدر ، وكان النَّضْرُ حليفَ المؤمنين ، وكان أخوه أبو عزيز بنُ عُمير صاحب لواء المشركين ببدر بعد النَّضر بن الحارث ، وكان منْ بين الأَسْرىٰ .

* وعندما وزَّعَ رسولُ اللهِ ﷺ الأَسْرى بينَ أصحابه قال لهم : «استوصُوا بهم خيراً» ، وكان أبو عزيز أخو مصعب لأبيه وأمّه من بينهم ، فقال أبو عزيز ـ يروي ما جرىٰ له مع أخيهِ مصعب حينها ـ : مرَّ بي أخي مصعبُ بنُ عُمير ، ورجلٌ منَ الأنصار يأسرُني ، فقال مصعبُ للأنصاري : شُدَّ يديكَ به ، فإنَّ أُمَّه ذات متاع لعلَّها تفديه منك .

فقلت له : يا أخي ، هذه وصاتُك بي؟!

فقال مصعبُ : إنّه أخي دونك .

* وسألت أمُّه خُناس ـ بعد ذلك ـ عن أغلىٰ فديةٍ دُفعَتْ لأسيرٍ منْ

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٣/ ١١٩) بشيء من التصرف .

قريش ، فقالوا لها: أربعة آلاف درهم ، فبعثَتْ بأربعةِ آلاف درهم ففدَتْه بها[1].

* وبهذا التَّصرُّف أثبتَ مصعب لأُمّه وأخيه أنَّ وشيجةَ القُربى لن تحولَ بينه وبينَ الحقّ.

٣ ـ أمُّ جَميل بنْتُ حَرْب:

* وهذهِ مجرمةٌ خبيثةٌ عادَتِ النَّبيَّ ﷺ ودعوةَ الإسلامِ بكلِّ الوسائلِ ، وآذَتِ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ بكلّ سبيل ، آذَتْه بالقولِ فكَانَتْ ـ بزعمها ـ تذمّه؛ وآذته بفعْلِها ، ووضْعِها ما يؤذيه في طريقهِ وأمام بيتهِ.

* هذه المجرمةُ اللئيمةُ السَّفيهة أمّ جميل بنْتُ حرب بنِ أميّة ، واسمُها العَوراء ، وتكنى أمّ جميل. وأمّ جميل هذه امرأةٌ عادَتْ رسولَ اللهِ ﷺ حسَداً وبغياً ، ولم تتركْ وسيلةً من وسائلِ الأذيّة إلا ركبتْها وارتكبتْهَا ، فمرّة تنعتهُ بالسِّحْرِ ، ومرةً تعيّره بالفَقْر ، وطوراً بموتِ البنين الذّكور ، وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ يعرضُ عنها وعن مثيلاتِها.

* ومما زاد الطّينَ بلّة والمرضَ عِلَّة أنَّ هذه السَّفيهة كانت امرأة أبي لهب عمّ النّبيّ ﷺ ، لذلك كانتْ أذيّتُها له أكبرَ وأعظمَ ، فكانت إذا

---

(١) ذكَر ابنُ الأثير أنَّ أبا عزيز هذا اسمُه «زُرارة» ، وقال ابنُ الأثير أيضاً: بأنَّ أبا عزيز هذا قد أسلم وله صحبةٌ وسماعٌ من النّبي ﷺ ، وكانَ ممن شهدَ بدراً كافراً ، وأُسِرَ يومئذ. وروىٰ ابنُ الأثير قصَّة أسْرِهِ فقال: لما أقبلَ رسولُ اللهِ ﷺ بأسارى بَدْر ، فرّقهم على المسلمين ، وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً» ، قال أبو عزيز: كنتُ في الأسارى يوم بدر فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأسارى خيراً»؛ فإنْ كان ليقدّم إليهم الطّعام ، فما يقعُ بيدِ أحدِهم كسرةٌ إلا رمىٰ بها إليّ ، ويأكلون التّمر يؤثروني ، فكنتُ أستحيي ، فآخذُ الكسْرة فأرمي بها إليه ، فيرمي بها إليَّ.
(أسد الغابة ٥/ ٢١٣ و٢١٤) ترجمة رقم (٦٠٩٦)

ما الليل عسعَس تأخذُ الشَّوك والحسَكَ وتدسُّه في طريق الحبيبِ الأعظمِ ﷺ؛ وجاءَ في «الدّلائل» للبيهقيّ أنّها كانَتْ تحملُ الشَّوك فتطرحُه على طريقِ النّبي ﷺ ليعقِرهُ وأصحابَه ، ويُقال: «حمَّالة الحطب»: نَقَّالة الحديث[1].

* وأوغلتْ أمّ جميل في عداوتها لرسولِ اللهِ ﷺ ، وكانت دارُها ملاصقةً لدارِه ، فكانتْ تضَعُ الأوساخَ والأقذارَ على بابهِ ، فيبعِدُهُ ويقولُ: «أيّ جوارٍ هذا يا بني عبد مناف»؟! ولا عجبَ إذا كان اللهُ عزّ وجلّ قد توعَّدها بنارٍ ذات لَهب ، كما توعَّد أبا لهبٍ بالمصيرِ ذاته.

* ولعلَّ أمَّ جميلٍ لم تكنْ مسرورة بما تصنعُه من الأذى ، فراحتْ تثيرُ الفتنةَ ، وتفسدُ علىٰ النَّبي ﷺ قلوبَ القومِ ، فكانت نمَّامة واشية تقطعُ ما بين الأقاربِ من صِلاَتِ الودّ والتّراحم والقرابة ، فسمّاها اللهُ أشنعَ وصفٍ وأقبحَه فقال: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسَد: ٤].

* ووصلَ السَّفَه بهذهِ العدوّة إلى حدٍّ كبير ، وزعمت أنَّها ستهجو النَّبيّ ﷺ ، وذلك عندما أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ سورةَ المسدِ كاملةً ، وسمعتِ الخبيثةُ أمّ جميل ما جاءَ فيها من وصْفٍ لها ولزوجِها أبي لهبٍ ، وجاءتِ النَّبيَّ ﷺ وهو جالسٌ في المسجدِ عندَ الكعبةِ ، ومعه أبو بكر الصِّديق ـ عليه رضوان الله ـ وفي يدها حَجرٌ تريدُ أنْ تضربَهُ ، فلمّا وقفت عليهما ، أخذَ اللهُ عزَّ وجلَّ ببصرها ، وصرفَهُ عنْ رسولِ الله ﷺ، فلم ترَ إلاّ أبا بكر ، فقالَتْ له: يا أبا بكر ، أينَ صاحبُك؟ قد بلغني أنَّه يهجوني ، والله لووجدتُه لَضَربْتُ فَاهُ بهذا الحجرِ ، أما واللهِ إنّي لشَاعِرة ، فكما هَجَاني لأهجونَّه ، ثمَّ قالت:

مُـــذَممـــاً عَصَيْنـــا وَأَمْـــرَهُ أَبَيْنَـــا
وَديْـنَـهُ قَـلَـيْـنَـا

---

(١) دلائل النبوة (١/ ١٨٣).

فقال لها أبو بكرٍ: يا أمّ جميل، واللهِ ما هجَاكِ، ولا هَجا زوجَكِ، وما ينطقُ بالشّعر، ولا يتفوّهُ به، فقالت: إنَّك لمصدَّقٌ، وواللهِ ما أنْتَ بكذَّاب، وإنَّ النَّاسَ ليقولونَ ذلك. ثمَّ ولَّتْ ذاهبةً وهي تقول: قد علمتْ قريشٌ أنّي ابنةُ سيّدها.

* وبعد أنِ انصرفَتْ قال أبو بكر: يا رسولَ اللهِ أمَا تَرَاهَا رأتْكَ؟ فقال: «ما رأتْنِي لقد أخذَ اللهُ ببصرِها عنّي»[1].

* ومنَ الألطافِ الإلهيّة أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد صرفَ عن محمّد ﷺ ذمَّ كفّارِ قريش، وذمَّ أم جميل هذه، فكانَتْ إذا تعثَّرتْ بثوبها قالَتْ: تعس مذمّم، وإذا سألَتْ عنْه ﷺ قالت: أينَ مذمَّم؟.

* ومذمّم ليس هو اسمُه ﷺ، وإنَّما كانَتِ الخبيثةُ أمّ جميل تقولُ: مذمّماً عصينا، وتعسَ مذمّم، وافتقَر مذمّم... ولذلك قالَ ﷺ: «ألا تعجبون كيفَ يصرفُ الله عنّي شتمَ قريشٍ ولعْنَهم؟ يشتمون مذمّماً، ويلعنون مذمّماً، وأنّا محمّد»[2].

* وظلَّتْ أمّ جميل في عداوتها الحاقدةِ إلى آخرِ حياتِها، وستظلُّ حمّالَة الحطبِ مذمومةً إلى آخرِ الدّهر وسيظلُّ ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: ٥]. كما ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فقد أودتْ بِها عداوتُها المفرطةُ للهِ ورسولِهِ إلى النَّار وبئس القَرار.

* وماتت أمّ جميل شرّ ميتة، فقد ذكرتِ المصادرُ أنَّها ظلَّت تؤذي النَّبيَّ ﷺ إلى آخرِ حياتِها، وبينما هي ذات يوم حامِلةٌ لحُزَمِها قعَدَتْ على

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٣٥٥ و٣٥٦)، وتفسير الماوردي (٤/ ٥٤٣) مع الجمع والتصرف.
(٢) فتح الباري (٦/ ٦٤١) حديث رقم (٣٥٣٣).

حجر لتستريحَ ، فأتاهَا مَلَكٌ فجذَبَها من خلفِها ، فأهلكَها خنقاً بحبلِها ، فوقعت وماتَتْ في الطَّريقِ ، وغادرتِ الحياةَ وهي تسعىٰ في أذيَّةِ النَّبيّ ﷺ ، فخسرتِ الدُّنيا والآخرة ، نعوذُ باللهِ منَ الحقدِ والحَسَد .

* * *




خَولة بنت الأزور

* فارسية من فارسات التاريخ العربي الإسلامي، حتى إنها شُبِّهت بخالد بن الوليد.
* كان لها صولة كبيرة في معركة اليرموك.
* جمعت بين فروسية ركوب الخيل والطعن بالسنان، وفروسية البلاغة والبيان.




المَرأةُ وصَنْعَةُ الحَرْبِ :

* خولةُ بنتُ الأزورِ الكِنديّة[1] هي فارسةُ هذه الصَّفحات ، وضيفةُ هذه الأُويقاتِ ، ورحلةُ المرأةِ وصنعةُ الحرب ستكونُ معها إنْ شاءَ الله .

* وخولةُ بنتُ الأزور هذه امرأةٌ نالَتْ من الشُّهْرةِ فوقَ المشهوراتِ ، وقلّما يمرُّ النّاسُ بسيرتها إلاَّ يذكرون أثارةً من فروسيّتها وقتالِها جنودَ الرُّوم وخلاص أخيها على يدِها منْ أسْرِهم .

* ومع هذا وذاك كلّه ، فإنّ كثيراً من الدّارسين لتاريخ النّساء قد شَكَّ فيها ، وفي وجُودِها ، وأنَّها ضربٌ منَ خيالِ القصَّاصِ ، وتخيُّلات الأخباريّين .

* ولكنَّا مع هذا وذاك أحببنا أنْ ننظمَها في سلْكِ هذا العِقْد ، لأنَّ في سيرتها نفحاتٍ جميلةً منَ الفروسيّة العربيّةِ والنَّسويَّةِ .

* والمرأةُ العربيةُ ـ بل المرأةُ بشكلٍ عام ـ والحربُ نظريّةٌ تحملُ الكلامَ المختلفَ ، إذ لا تجتمعُ المرأةُ مع الحربِ ، لأنَّ الحربَ خشنةٌ شرسةٌ مهولةٌ تعصفُ بكل شيءٍ ، بينما عُرِفَ أنَّ المرأةَ ومعشرَ النِّساء عبارةٌ عن

---

(١) المصادرُ والمراجعُ التي تحدّثتْ عن خولةَ بنت الأزور كثيرة جداً ومنها كتاب : فتوح الشّام للواقدي في مواطنَ متفرقة . وعنه أخذتِ المراجعُ مادّتها ، وانظر : أعلام النّساء (١/ ٣٧٤ ـ ٣٨٠) ، وشاعرات العرب (١٠٩ و١١٠) ، وحروب الإسلام في الشّام لمحمد أحمد باشميل (ص ١٦١ و٢٠٨ و٢٣٩) ، ومعجم الأديبات الشّواعر (ص ٢٠٥ ، ٢١٠) ، والدُّرّ المنثور (ص ١٨٤ ـ ١٨٧) ، والأعلام (٢/ ٣٢٥) ، وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٢٦١ ـ ٢٦٣) ، وفنّ الحرب الإسلامي لبسّام العسلي (١/ ١٠٤ و١٠٥ و١٠٦) وغيرها .

قواريرَ رقيقةٍ ، يخدشُها أيّ شيء ، ويرهقُها العملُ الذي لم تُخْلَقْ له .

* أمّا صنعةُ الحربِ فعادةً ينهضُ بها الرّجال الأشدّاء ، ولها في الأممِ المتحضّرة طائفةٌ معيّنةٌ تحترفُها منَ الضُّباطِ والقادةِ ، لهم شاراتهم وأزياؤهم[1] .

* بيد أنَّ المرأةَ ـ على الأغلب ـ تحبُّ الألوانَ الزَّاهيةَ والمزركشةَ من الثّياب ، كما تحبُّ جرَّ الذّيول ، والتَّنعّمَ بالحُلي والحلل .

* على أنّنا إذا تصفّحنا أوراقَ التّاريخ وسجلاّته النّسويّة ، ألفينا أنّها لم تُطْوَ على النّساء ، ولم يضنَّ بأخبارِها على طولِ تلك الحِقَب المتطاولةِ المترامية .

فقد كانتِ المرأةُ ذاتَ صوت مسموعٍ في الحرب والنّزال ، وكثيراً ما كانت تهتفُ بالرّجُل أو تلمُّ به تحتَ ظِلالِ السُّيوف ، وقد ملَكَ الرّوعُ القلوبَ ، وعقَدَ الهولُ الألسنَةَ ، وحارتِ النَّواظرُ في المحاجِر ، وهذا كلُّه لا يخيفُها؛ ولذا فقد كانتْ مؤثِّرة في نجاحِ الحربِ وانتصارِ الجيش ، ويروي التّاريخُ النّسويّ قصّةً تشيرُ إلى مشاركةِ المرأةِ في الحرب في إثارةِ حماسِ الفُرسان ، ويذكرُ بأنَّ ابنتَي الفِنْد الزِّماني البكريّ كان لهما كبير الأثرِ في يوم «تَحْلاق اللمم» ، وهو يومُ انتصافِ بكْر من تَغْلِب ، فقد بدأتْ قبيلةُ بكرٍ تتلاشىٰ أمامَ تغلبَ ، وأخذت ترتدُّ وتنكشفُ ، ولما رأتِ الفتاتان البكريتان ذلك ، حَسَرتا خمارَيْهما ، ونفذَتَا بين صفوفِ قومهما ، وأخذتا تُثيران بما تنشدان من حماسيّات نفوسِ قومهما ، وتذكيان نارَ الحفيظةِ فيهم ، فكان ممّا أنشدتا :

وَغَـــى وَغَـــى وَغَـــى حَـــرَّ الحَـــرَارُ والْتَظَـــىٰ

---

(١) نساء محاربات (ص ٧) بتصرف يسير جداً.

وَمُلِّئَـــتْ منْــه الــرّبـــىٰ يـا حبَّـذا المُحَلِّقُـون بـالضّحـىٰ

* وأقبلتْ من ورائهما كَرْمَةُ بنتُ ضِلَع أمُّ مالك بن زيد فارسُ بكْر وواحدها ، فتغنَّتْ مع نساءِ قومها بما يُحيلُ الجبان الرّعديد فارساً صنديداً ، وشهاباً ثاقباً ، وسعيراً مُستطيراً ، فكانت تنشدُ وتقول:

نَحْـــنُ بنَـــاتُ طَـــارِقْ نَمْشِـــي عَلَـــى النَّمَـــارِقْ
مَشْـــيَ القَطـــيِّ البَـــارِقْ المِسْـــكُ فـــي المفَـــارِقْ
والـــدُّرُّ فـــي المَخَـــانِـــقْ إنْ تُقْبِلُـــوا نُعـــانِـــقْ
أو تَـــدْبِـــرُوا نُفَـــارِقْ فِـــرَاقَ غيـــرِ وَامِـــقْ
عِـــرْسُ المَـــوالـــي طَـــالِـــقْ والعَـــارُ منْـــهُ لاَحِـــقْ[1]

* فلم يلبثِ البكريّون عندما سمعوا هذه الأهزوجةَ الحماسيّةَ ، حتى تدافعوا وراءَهنّ علىٰ أعدائِهم ، واقتحموا صفوفَهم ، وأعملوا السُّيوفَ في رؤوسهم ، وأنهلوا الأسنّة من صدورِهم ، واستباحوا معاقلَهم ، وما كان مقدارُ حَلْب شاةٍ حتى راحَ فريقٌ في الإسار ومثله فريقٌ في القَتْل وفرَّ الباقون.

* وإذا ما سلّطْنَا الضَّوءَ علىٰ دورِ المرأةِ قديماً في مجالِ الحربِ ، ألفينا أنّها كانت تأسو الجِراح ، وتشدُّ العِظَام ، وتعملُ على حِيَاطَةِ الدّم دون

---

(١) انظر: شاعرات العرب (ص ٣٣٣)؛ ومعنى «طارق» كوكَبٌ منْ كواكِبِ السَّحَر ، ويسمّى كوكبَ الصَّباح ، وهو المعنيّ بقولِه عزّ وجلّ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطّارق: ١]: تريدُ نحنُ بنات المجد والسّمو. و«النّمارق»: جمع نَمرق ونَمْرقَة: الوسَائد ، تريد أنهنَّ يطأْنَ مواطنَ الوجوهِ منَ النَّاس ، و«القَطي»: صغائر القَطا ، ومن دأبِ القَطَا إذا مشَى تثاقلَ وتباطأً حتى ضَرَبُوا به المثَلَ فقالوا: أذلّ منَ القَطَاة ، و«البارق»: الحائر أو الفزع. و«المفارق»: جَمعُ مفرق ، وسط الرّأس ، وهو الذي يفرقُ فيه الشّعر ، و«المخانق» جمع مخنقة: القلائد. و«الوامق»: المحبُّ. و«العِرس»: الزّوجة. و«المولي»: الفَارُّ.

النّزيف ، وعمل النّساء في هذا شبيهٌ بنفاذِ الرّجالِ في أساليبِ القتالِ ، ومقارعةِ الأبطالِ ، لحاجتهنّ إليه إذا اتّقدتِ الحربُ ، وتقاربتِ السُّيوفُ إلى النّحور ، ونفذتِ الرّماحُ إلى أعطافِ الصُّدور ، فهنالك يغتمرنَ الموقعةَ وهنَّ حاملاتٌ قُرَبَ الماءِ للفُرسان ، وإلى جانب كلّ منهنّ ما تحتاجُ إليه الجراحاتُ من لفائفَ وجبائرَ وما سوى ذلك من أدواتِ الطّبّ في عصرِ الجاهليّة وصدرِ الإسلام.

* ولعلَّه منَ المفيد أنْ نشيرَ هنا إلى تمريضِ النّساء في الحضارةِ العربيّةِ ، لتبرزَ صورةُ المرأةِ العربيةِ المحاربةِ بشكلٍ أضوأَ وأوضأَ.

* فإذا كانَ الغربُ يفخرُ بالممرضَةِ الإنكليزيّة «نايتنغل» التي خرجَتْ عندهم من طبقةِ النّبلاء ـ كما يزعمون ـ وهي تدعو إلىٰ التّمريض وتعتبرهُ عملاً شريفاً للمرأةِ ، فمن واجبنا ، ـ ونحنُ في هذه الرّحلة الممتعة مع فارساتِ العَرب ـ أنَّ هذا الفخارَ إلى المرأةِ العربيّةِ في عصْرِ الجاهليّةِ ، وصدرِ الإسلام ، وفَجْرِه وضُحاه.

* فقد كانتِ المرأةُ العربيّةُ لا تتأخرُ عن المساهمةِ في الخِدْمَاتِ الاجتماعيّة ، من حماية للمُستجير ، وحربٍ وحملِ سلاحٍ وقيادة جيشٍ إنْ لزمَ الأمْرُ ، وكذلك الطِّبُّ ، فقد اختصّتْ ـ في الغالبِ بهذا العمل ـ جَماعةٌ من نسوةِ العرب رزقهنَّ اللهُ بسطةَ العيشِ ، فقد كانت هناك فئةٌ منهنَّ برزنَ في التّمريض والإسعافِ الصِّحي في السِّلْمِ والحربِ ، في الجاهليّة والإسلام.

* ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد أجازَ هذا العملَ الإنسانيَّ ، وحبَّبه إلىٰ النّفوس ، وقد نصَّ الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ورضي عنه ـ على أنَّه يجوزُ للمرأة أنْ تخدمَ الرّجلَ ، وأنْ تشاهدَ منه عورةً في حالِ المرضِ المُلزم لذلك ، وقال مثلَ هذا القولَ فيما بعد الإمامُ المحدّثُ

الحافظ شمس الدّين الذّهبي صاحبُ التّصانيفِ المشهورةِ؛ والمتوفى في سنة (٧٤٨ هـ) رحمه الله.

وكان العربُ يُطلقون اسمَ الآسِيَاتِ والأواسي على النّساء اللائي يعملنَ في تضميرِ الجراح، وجبْرِ العِظام والوقايةِ من النَّزْف، وغيرِ ذلك من أعمالِ الإسعافِ، وقد سُمِّين بهذا الاسم لأنَّهنَّ يعالجنَ جراحَ الجريح ويواسيْنَه، وفيهنّ يقولُ الشَّاعرُ المشهورُ قيسُ بنُ الخطيم، وقد طعَنَ عدوَّهُ طعنةً منفسحةَ الجوانبِ، جمّة الشّعاب:

طعنْتُ ابن عبد القَيْسِ طَعْنَةَ ثائِرٍ ... لهَا نَفَذٌ لولاَ الشُّعَاعُ أضَاءَهَا
يَهُونُ عَلَيَّ أنْ تَرُدَّ جِرَاحُها ... عُيونَ الأَوَاسي إذ حَمِدت بلاءَها

فجعل أقصىٰ طعنته أنْ تردَّ جراحُها عيونُ الأواسي، فلا يجدنَ إلى شفائِها سبيلاً.

* وكُنَّ يسرنَ إلى المعاركِ مع الرجالِ جنباً لجنب، وكُنَّ ينفذنَ بينَ الرّجال معالجاتٍ مسعفاتٍ، ومنهنّ من كُنَّ يشتركنَ في القتال، وكانت لهنّ مواقفُ محمودة.

* وقد انبلجَ صبحُ الإسلام على كرائم حسيبات رافقنَ الغُزاةَ والمجاهدين والفاتحين، فكُنَّ مسعفات آسيات، وكنَّ في المحلِّ الأمكن من نفوسِ المسلمين جميعاً، ومنهنّ:

١ ـ رفَيْدَةُ الأسْلَميّةُ: كانتْ طبيبةً متميّزةً بالجراحةِ، ومجاهدةً جريئةً، اختارَها النَّبيُّ ﷺ لتقومَ بالعملِ في خيمةٍ مستقلّةٍ، فكانت تُداوي الجرحىٰ، وتحتسبُ بنفسها على خدمةِ مَنْ كانت بهِ ضيعةٌ منَ المُسلمين.

٢ ـ أُميّةُ بنْتُ قَيسٍ الغِفَاريّةُ: وهذه فتاةٌ طبيبةٌ آسيةٌ خامَرَ الإسلامُ قلبَها، وهي لمْ تَعْدُ بعْدُ طورَ الحداثةِ، فقد قدمتْ إلىٰ رسول الله ﷺ ـ على بعد الشّقْة ـ تبايعُه، فأسلمَتْ وبايعَتْ، ولها أربعة عشَر عاماً، وخرجت

زعيمةً للآسياتِ الطّبيبات من قومها إلى غزوةِ خيبر ولم تبلغْ وقتَها السَّابعة عشرة ، وأردفَها رسول الله ﷺ خلفَه في مسيره ، وقامتْ بمهمتها أحسنَ قيام ، وأعطاهَا ﷺ قلادةً من الغنيمةِ ، ظلّت معها طولَ عمرها وأوصتْ أنْ تُدفنَ معها ، ولنستمعْ إلى هذه البطلةِ تروي ذلك حيثُ تقول: جئتُ رسول الله ﷺ في نسوةٍ من بني غفار ، فقلنا: إنّا نريدُ يا رسول الله أنْ نخرجَ معكَ إلىٰ خيبر ، فنداوي الجرحى ونعينُ المُسلمين بما استطعنا. فقال رسول الله ﷺ: «على بركَةِ اللهِ».

* فخرجْنَا معه ، وكنتُ جاريةً حديثاً سِنّي ، فأَردفَني رسول الله ﷺ حقيبةَ رحْلِهِ ، فنزلَ إلى الصُّبح فأناخَ؛ فلمّا فتحَ اللهُ لنا خيبر ، رضَخَ لنا منَ الفيء ولمْ يُسْهِمْ لنا ، وأخذَ القلادةَ التي تَرينَ في عُنقي ، فأعطانيها وعَلَّقَها بيدِهِ في عنُقي ، فواللهِ لا تفارقُني أبداً ، فكانتْ في عنقها حتّى ماتَتْ ، وأوصَتْ أَنْ تُدْفَنَ معَها.

٣ ـ أمُّ سِنَان الأَسْلَميَّة: امرأةٌ أسلميّةٌ قدمتْ من باديتها إلى المدينةِ المنوّرةِ فبايعتْهُ ، ورافقتْهُ إلى خيبرَ تعملُ على مداواةِ الجرحى ، وكانت مع زوجهِ أمِّ المؤمنين أمّ سلمةَ رضي الله عنها في هذه الغَزاة.

* وقد روتْ أمُّ سِنان قصَّة فروسيّتها وحبّها للجهادِ والتّمريضِ فقالت: لما أرادَ رسول الله ﷺ الخروجَ إلى خيبرَ جئْتُه فقلتُ: يا رسولَ الله ، أخرجُ معك في وجهكَ هذا ، أخرزُ السِّقَاء ، وأداوي المريضَ والجريحَ إن كانتْ جراحٌ ـ ولا تكونُ ـ وأبصرُ الرَّحْلَ.

فقالَ رسول الله : «اخْرجي على بركَةِ الله ، فإنَّ لكِ صواحبَ قد كلمنَني ، وأَذِنتُ لهنَّ من قومكِ ومن غيرهم ، فإنْ شئتِ فمعَ قومكِ ، وإنْ شئتِ فمعَنَا».

قلتُ: معكَ ـ يا رسولَ الله ـ.

قال: «فكُوني معَ أمِّ سَلَمةَ زوجتي».

قالت: فكنْتُ معَها.

فكانَ رسول الله ﷺ يغدو منَ الرَّجيع كلّ يومٍ عليه الدّرعُ، فإذا أمسىٰ رجَعَ إلينا، فمكثَ على ذلكَ سبعة أيّامٍ حتّى فتحَ اللهُ حصونَ خيبر. وأعطاني خَرزاً أحمرَ وحليّاً وأشياءَ وبعيراً بعتُه بسبعة دنانير، وجعلَ اللهُ في وجهي ذلك خَيْراً كثيراً[1].

٤ ـ حَمْنَةُ بنْتُ جَحْشٍ: أختُ أمِّ المؤمنين زينبَ بنتِ جحش، حضَرَتْ غزاة أحُدٍ، وكانت تروي الظِّماءَ، وتأسو الجراحَ، وقد أُصيبَتْ في هذهِ الموقعةِ بزوجها مصعبَ بنِ عُمير ـ رضي الله عنه ـ، فخلفَ عليها طلحةُ بنُ عُبيد الله فولدت له محمّد بنُ طلحة، وكان أوصلَ النَّاسِ لولده، وهو المعروفُ بالسَّجّاد لكثرةِ سجودِه.

٥ ـ أُمُّ أيْمَنَ بَركَةُ بنْتُ ثَعْلبَةَ: مولاةُ النَّبيِّ ﷺ وحاضنتُه، حضرتْ أُحُداً، وكانتْ تسقي العطشَى، وتداوي الجرحى، وشهدت كذلك غزوةَ خيبر، وغزوة حُنين.

٦ ـ أُمُّ عطيَّةَ الأنصَاريَّة: كانت هذه الصَّحابيّة المحاربةُ المجاهدةُ تخرجُ مع الغُزاةِ، تروي عطشَ فرسانِ المسلمين، وتداوي جراحَهم، وكانت تكثرُ مرافقةَ الغُزاة، حتى جاء في الصَّحيح عنها أنَّها قالت: غزوتُ مع النَّبيِّ ﷺ سبْعَ غزَواتٍ أخلفُهم في رحالِهم، فأصنَعُ لهمُ الطَّعامَ، وأداوي الجرحىٰ، وأقومُ علىٰ المرضى[2].

٧ ـ كُعَيْبَةُ بنْتُ سَعْدٍ الأَسْلَميَّةُ: وهي إحدى النّجيبات المعدودات منْ

---

(١) انظر طبقَات ابن سعد (٨/ ٢٩٢)، والمغازي (٢/ ٦٨٦ و٦٨٧) بتصرف واختصار.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

نساءِ الصَّحابة ومنْ طيبياتِ العَرب ، وكانت تُقامُ لها خيمة في المسجدِ تُداوي فيها المرضىٰ ، وتأسو الجرحىٰ ، وقد أعطاها رسول الله ﷺ في غزاة خيبر سَهْمَ الرّجل المُجاهد.

٨ ـ الرُّبَيِّعُ بنْتُ مُعَوِّذ: وهي من مشاهيرِ بناتِ الأنصار ومن المجاهداتِ ، كانت تسقي في الغزواتِ القومَ وتخدمُهم ، وتداوي الجرحىٰ ، وتردُّ القتلىٰ إلىٰ المدينةِ المنوّرة ، وكان بعضُ هؤلاءِ الآسياتِ الممرضاتِ يغشينَ الحربَ لإفاضةِ الرّحمةِ وبذلِ المعونةِ ، فإذا وجدْنَ حاجةً إلى القتال جاذبنَ الفُرسانَ حبلَ البطولةِ ، وكنَّ يغامرنَ يوم ترجُفُ قلوبُ الأبطالِ.

٩ ـ نسَيْبَةُ بنْتُ كَعْب المَازنيّة[1]: هذهِ مجاهدةٌ فارسةٌ من أشهرِ نساءِ الدُّنيا في دنيا فروسيّة النِّساء ، ومن مشاهدِها العَقَبَةُ ، وغزاةُ أُحُدٍ ، والحديبيةُ ، وحُنينٌ ، ويومُ اليمامةِ ، حيثُ جاهدَتْ وفعلتِ الأفاعيلَ ، وتاريخُها يشهدُ لها بالشَّجاعةِ والإقدامِ ، وسيرتُها ملءُ الأسماع يعرفُها الخاص والعام.

١٠ ـ أُمُّ مَنيع الأَنْصَاريّة[1]: مجاهدةٌ كانت ثانية اثنتَيْن في بيعةِ العقبةِ ، فالأُولىٰ نسيبةُ بنتُ كعْب الأنصاريّة أمّ عمارة ، وهذه الثَّانيةُ وتُدعىٰ: أسماءُ بنتُ عمرو، وقد حضرتْ أُمُّ منيع هذه غزوةَ الحُديبية ، وغزوةَ خَيبرَ، وكان معَ النّبي ﷺ في هذه الغزوةِ عشرون مجاهدة ، وأعطاهنّ من غنائم خيبر.

١١ ـ أُمُّ سُلَيم الأَنْصَاريّة: ورَدَ في صحيحِ مسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأمّ سُليم ونسوةٍ منَ الأنصار معه إذا غَزا ، فيسقِيْنَ الماءَ ويداوينَ الجرحى.

---

(١) انظر سيرتهما في كتابنا: نساء من عصر النبوة.

* وروىٰ الإمامُ مسلم عن أبي طلحةَ الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه رأىٰ أمَّ سليم ـ زوجَه ـ في غزوةِ حُنين وبيدها خنجر ، فعرضَ الحالَ على رسول الله ﷺ فقال : «يا أمّ سليم ما هذا الخنْجَر»؟

فقالت : أخذتُه حتى إذا قربَ منّي أي مشْرك أبقرُ بطنَه. فضحكَ النَّبي ﷺ.

١٢ ـ أمُّ حَرام بنْتُ ملْحَان : كانت أمُّ حرام هذه زوجاً للصَّحابي الكبيرِ العالمِ الفارسِ عبادةَ بنِ الصَّامت ، ولما كانتِ الفُتوحاتُ الإسلاميَّة ، وانطلقتْ جيوشُ المسلمين لفتحِ قبرصَ ، رافقتْ أمُّ حرام الجيشَ الغازي على الأسطولِ الإسلاميّ في تلكَ الغزوةِ التي قادها معاويةُ بنُ أبي سفيان ، وفي جزيرةِ قبرص نالتْ أمُّ حرام الشَّهادة في سبيلِ اللهِ؛ وكانَ رسول الله ﷺ قد دعا لأمّ حرام أنْ يجعلَها اللهُ من غُزَاةِ البحر ، وذلك إجابةً لطلبها كما جاءَ في الصَّحيح.

* ومنْ هنا نجدُ أنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد أصدرَ أحكاماً بشأْنِ المرأةِ المسلمة ، وهذه الأحكامُ تنبي عن رعايةِ طبيعتها التي خلقِتْ عليها ، وعلى استعدادِها الخِلْقي والعقْليّ ، ممّا يتمّ لمصلحتها الشّخصيّة وغيرها في المجتمع الإسلاميّ.

* وقد لاحظنا في التّراجمِ السَّابقةِ لاثنتَي عشرة امرأة أنّهنّ قمنَ بدورهنّ فيما يتناسبُ مع طبيعتهنَّ ومقتضىٰ ظروفهنّ ، وشاركْنَ في صنعةِ الحرب عندما لزم الأمر ، ولكنْ ضمنَ طاقتهنَّ ، حتى إنَّ بعضَ نساءِ النّبي ﷺ كُنَّ في شرفِ معيّته في غزوات كثيرة حيثُ قمن بخدمتهِ ، ومنهنّ : عائشةُ وأمّ سلمة وميمونةُ رضي الله عنهنّ.

* ولا ننسىٰ فاطمة الزّهراء رضي الله عنها التي كانت مع أبيها

رسول الله ﷺ في غزوةِ أُحُد وعندما شُجَّ النّبي ﷺ في وجههِ وكُسِرت رباعيته جاءت وغسلَتْ عنه الدم وعليّ زوجها يسكبُ الماء[1].

خَولَةُ والنِّسَاءُ في ميَادِيْنِ القِتَالِ:

* من الأخبارِ الطَّريفةِ التي وصلتْ إلينا عن خولةَ بنتِ الأزورِ، أنّها كانتْ فارسة من فارساتِ التَّاريخ اللائي أتقنَّ فنَّ الفروسيّة، وركوبَ الخيلِ، واستعمالَ أدواتِ السِّلاح.

* ويبدو أنَّ خولةَ كانت تتقنُ ركوبَ الخيلِ والجولاَن عليها، وكانت تقتفي بفروسيّتها وتتشبَّهُ بأكابرِ فرسان عصْرِها، حتّى شبّهوها بحملاتها بخالد بنِ الوليد ـ رضي الله عنه ـ؛ ولعلّ حبّها للخيل[2] والفروسيّة يعودُ إلىٰ

---

(١) اقرأ سيرتها في موسوعتنا «نساء أهل البيت» فسيرتها إمتاع للأسماع.

(٢) ذكرُ ابنُ قيمّ الجوزية سببَ حبّ العربِ للخيل، وذكرَ كذلكَ فَضْل ركوبها فقال ما مفاده:
رجّحَتْ طائفةٌ ركوبَ الخيلِ لوجوهٍ:
١ ـ أنّه أصلُ الفروسيّةِ وقاعدتُها؛ وأنّه يعلّمُ الكرَّ والفرَّ، والظَّفرَ بالخصْم.
٢ ـ أنّ الحاجةَ إليهِ منْ أوّلِ ما يخرجُ الفارسُ إلىٰ القتالِ إلى أنْ يرجعَ.
٣ ـ أنّ الركوبَ يعلّمُ الفارسَ والفرسَ معاً، فهو يؤثرُ القوةَ في المركوبِ وراكبه.
٤ ـ أنَّ النّبيّ ﷺ راهَنَ علىٰ فرسٍ يُقال له: «سبحة»، فسبقَ النّاس.
٥ ـ أنَّ الله َعزّ وجلّ عقدَ الخيرَ بنواصي الخيل إلى يوم القيامة.
٦ ـ أنّها تصلحُ للطلبِ والهَربِ، فهي حصونٌ ومعاقلٌ لأهلِها، وأنَّ أهلها أعزُّ منَ الرّماة.
٧ ـ أنّها كانت أحبّ الأشياءِ إلى رسول الله ﷺ بعد النّساء، فرویٰ النّسائي في سُننه عن أنس قال: لم يكنْ شيءٌ أحبّ إلى رسول الله ﷺ بعد النّساء من الخيل. (أخرجه النَّسائي ٦/ ٢١٧ و٢١٨). كما أمرَ بارتباطها في سبيل الله.
٨ ـ أنَّ الله َعزَّ وجلَّ أقسمَ بالخيلِ في كتابِه، وهذا يدلُّ على شرفها وفضْلِها عنده قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١ ـ ٣].
(الفروسية لابن قيم الجوزية ص ٥٠ ـ ٥٤) بانتقاء وتصرف واختصار.

نشأتها بين قومها الفرسانِ الشّجعان ، ومنهم أخوها ضرارُ الذي كان يُعدُّ بألفِ فارس ، ولعلَّها اقتبستْ كثيراً من فنونِ القتالِ منه ، حتى غدَتْ من مشاهيرِ فارسات الدّنيا، فلا تُذكَرُ خولةُ إلاّ تُقرنُ بالفروسيّة والشّجاعة والإقدام.

* وتظهرُ الفروسيّة كما يقولُ ابنُ قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ في ثلاثةِ أشياء:

١ ـ ركوبُ الخيْل والمُسابقةُ عليها.

٢ ـ والرّميُ بالنّشاب.

٣ ـ واللعبُ بالرُّمح[١].

* وعن فنّ الفروسيّة للرّجالِ والنّساءِ والنّاس جميعاً يتابعُ ابنُ قيم الجوزيّة حديثه ويذكرُ أنَّ الفروسيّة فروسيّتان: فروسية الميدان ، وفروسية البيان فيقول: ولما كانَ الجِلادُ بالسَّيف والسِّنان ، والجدال بالحجّةِ والبرهانِ كالأخوَيْن الشَّقيقَيْن ، والقرينَيْن المتصاحبَيْن ، كانت أحكامُ كلّ واحد منهما شبيهةً بأحكامِ الآخر ، ومستفادةٌ منه.

* فالإصابةُ في الرّمي والنّضال ، كالإصابةِ في الحجّة والمقال؛ والطّعن والتَّبطيل: نظير إقامة الحجّة ، وإبطال حجّة الخصم ، والخروج؛ نظيرُ الإيرادِ والاحترازِ منه ، وجواب القِرْنِ عند دخوله عليك: كجوابِ الخصمِ عما يوردُه عليك.

* فالفروسيّةُ فروسيتان: فروسيّةُ العِلْمِ والبيانِ ، وفروسيّة الرّمي والطِّعان ، ولما كان أصحابُ النّبيّ ﷺ أكملَ الخلْقِ في الفروسيّتَيْن ، فتحوا القلوبَ بالحجّةِ والبرهانِ ، والبلاد بالسَّيفِ والسّنانِ[٢].

---

(١) الفروسية (ص ٦٩).

(٢) الفروسية (ص ٧٠ و٧١) باختصار وتصرف.

* هذا وقد جمعتِ الفارسةُ الشَّهيرة خولةُ بنتُ الأزور بين الفروسيتَيْن ، فكانت فارسةً مجيدةً على ظهورِ الخيلِ واللعب بالسّنان ، كما كانت ذات بلاغةٍ وبيان ، وأدبٍ وفصاحةِ لسَان.

* ويروي التّاريخُ أنَّ خولةَ بنتَ الأزور رافقَتْ أخاهَا ضرارَ بنَ الأزور في حروبه للرّوم ببلادِ الشَّام[1] تحت رايةِ خالد بن الوليد ـ رضوان الله عليه ـ ففي يومِ اليرموك نظَّمَ خالدٌ جيشَه تنظيماً كاملاً ، وكان للنّساء وفيهنّ خولة بنت الأَزور دورٌ مهمٌّ في هذه المعركةِ الحاسمةِ ، فقد كلّف خولةَ وجماعةَ النِّساءِ المحارباتِ بمهمّاتٍ تخدمُ الحربَ ضدّ الرُّومِ ، فقد جعلهنَّ في السَّاقةِ ـ مؤخّرة الجيش ـ للقيامِ بمهمّةِ البوليس الحربيّ الذي يرابطُ في العَصْرِ الحديث وراءَ الخطوطِ ، وصدرتِ الأوامرُ «الخَالديّةُ» المشدَّدة إلىٰ هؤلاء النّسوةِ الباسلاتِ المجاهداتِ أنْ يقمنَ في ردٍّ وتوبيخٍ منْ يحاولُ الفِرار منَ المسلمين ساعةَ القتال ، أو تسوّلُ له نفسه أنْ يتراجعَ عن المعركةِ ، بل كان في نصّ الأوامرِ الخالديّة الحاسمة أنّه يجوزُ للنّساءِ البطلاتِ المرابطاتِ في آخرِ الجيش أنْ يقتلنَ الفارسَ أو المحاربَ الذي يصرُّ على الهَربِ من وجْهِ العدوّ إذا كانتِ المعركةُ دائرةً ؛ فقد ذكرَ ابنُ عساكر في تاريخهِ أنَّ خالدَ بنَ الوليد أصدرَ أمره إلى النّساء قائلاً : يا نساءَ المسلمين ، أيّ رجلٍ أقبلَ إليكنّ مُنهزِماً فاقتلْنَه.

* ثمّ إنّه بالإضافةِ إلى مهمّةِ تكليفِ النّساء الحيلولة بين ضعافِ النّفوس ، وبينَ الهربِ ولو بالقَتْل إذا لم يكن منه بدّ ، أسندَ القائمُ العام إلىٰ هؤلاءِ النِّساء الكريمات المجدّات المجاهدات أدواراً أخرىٰ غاية في الأهميّة ، وهذه الأدوار تتلخّصُ فيما يلي :

---

(١) لم يذكر ابن عساكر في تاريخه الطويل لمدينة دمشق ترجمة لخولة ولم يذكرها مطلقاً.

١ ـ العنايةُ بالمقاتلين الجرحىٰ والمَرضىٰ.

٢ ـ سقايةُ المجاهدينَ أثناء القِتال ورعاية أمورهم.

٣ ـ التَّجوّلُ علىٰ المجاهدين أثناء القِتالِ، وإثارةَ الحماس وروحَ الاستبسالِ في نفوسِهم وقلوبهم.

٤ ـ أنْ يشترِكْنَ في القتالِ عندما لا يكونُ بدّ من ذلك، ولم يمنعْ أحداً منهنّ منَ الاشتراكِ في القتالِ اختيارياً، إذا أردنَ ذلك مع الرِّجال[١].

* وقد روي عن أبي يمامة ـ وهو ممن شهدَ معركة اليرموكِ ـ أنَّه قال: إنَّ بعضـاً منَ النّساءِ المسلماتِ دخلْنَ غمار المعركـةِ، واشتركْنَ في القتالِ.

* وكان منَ النساءِ المُشاركات في القتالِ عددٌ من مشاهيرِ الفارساتِ المجاهداتِ ومنهنّ: جُويرية بنتُ أبي سفيان، وأسماءُ بنتُ أبي بكر الصِّدِّيق، وهندُ بنتُ عتبة، وأمُّ أبان زوج عِكْرمة بن أبي جَهْل، وخولةُ بنتُ الأزور ـ وقد جُرِحَتْ في هذه المعركة ـ، ونسيبةُ بنتُ كعب، وعفيرةُ بنتُ غفَار، وغرةُ بنتُ عامر، ورملةُ بنتُ طلحة الزّبيري، وهندُ ويعمر وسميّةُ بناتُ عاصم الخَولاني[٢].

* وبدأَ القوّادُ الكبارُ والفرسانُ السَّادة يعظونَ أفرادَ الجيشِ رجالاً ونساءً، فكان أبو عُبيدة بنُ الجرّاح ـ رضي الله عنه ـ يخاطبُ الجميعَ بقولهِ: عبادَ اللهِ، انصُروا اللهَ ينصركمْ ويثبّتْ أقدامكم؛ يا عبادَ اللهِ اصبروا فإنَّ الصَّبرَ منجاةٌ منَ الكفْرِ، ومرضاةٌ للرّب، ومدحضةٌ للعار، ولا تتركُوا مصافّكـم ولا تخطُوا إليهـم خطـوةً، ولاتبدؤوهـم بالقتـال، وأشرعـوا

---

(١) انظر: حروب الإسلام في الشام (ص ١٦٠) بشيء من التصرف.

(٢) المرجع السَّابق بتصرف واختصار (ص ١٦١ و١٧٦ ـ ١٧٨).

الرّماح ، واستتروا بالدّرق ، والزموا الصَّمْتَ إلاّ منْ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ في أنفسكم ، حتى يتمّ أمركم إنْ شاءَ الله[1].

* وكذلك وعظَ عمرو بنُ العاص الجيشَ ، وأبو سفيان بنُ حرب ، فكانَ ممّا قال: يا معشرَ المُسلمين ، أنتم العرب ، وقد أصبحتم في دارِ العجمِ منقطعينَ عن الأهلِ إلاّ من أميرِ المؤمنين ، وإمداداً لله ، وقد أصبحتم واللهِ بإزاء عدوٍّ كثير عددُه ، شديدٌ عليكم حنقُه ، وقد وترتموهم في أنفسِهم وبلادِهم ونسائِهم....... فامتنعوا بسيوفكم ، ولتكن من الحصُون[1].

* ثم إنَّ أبا سفيان انطلقَ ـ وهو شيخ كبيرٌ ـ إلى معسكر النِّساء ، وتبعه خالدُ بنُ الوليد ، وكانت قد ألقيتْ أمام معسكرِ النِّساءِ المسلماتِ الحجارةُ تحسباً للطّوارىء ، فأخذَ أبو سُفيان ـ رضي الله عنه ـ يقولُ للنِّساء المؤمناتِ المجاهداتِ:

معاشرَ النِّساء ، لا يرجع إليكنّ أَحدٌ منَ المسلمين إلاّ رميتموهُ بهذهِ الحجارة ، وقُلْنَ له: منْ يرجوكم بعدَ الفرارِ عن الإسلام وأهلهِ ، وعن النّساءِ وهنّ أمامَ العدوّ؟!.

* ثم إنَّ خالدَ بنَ الوليد شدَّ أزرَ أبي سفيان ، وأردفَ يقول لهنّ: يا نساءَ المسلمين؛ أيّ رجلٍ أقبل إليكنّ منهزماً فاقتلْنَه[1].

* ومنَ المُطربِ أنّه جاءَ في عيونِ المصادرِ التّاريخية ، أنَّ جيشَ المسلمين في اليرموكِ كان يضمُّ ألفاً من أصحابِ رسول الله ﷺ ، فهم خيرُ النَّاس وصفوة الأمّة بعد نبيّهم ، وكان القادةُ سُعداء بوجودِهم ضمنَ الجيشِ الفاتح ، وكيفَ لا يفرحون بوجودهم ، وهم عاصَرُوا ورأوا وجالسوا

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ١٧٨).

النّبي ﷺ ، وتلقّوا آدابَ الإسلام وتعاليمَه ، وفنونَ الحربِ من فمِهِ الشَّريف الذي ما ينطقُ عنِ الهوىٰ ، وزادَ من عزّةِ جيشِ الإسلام ، وارتفاعِ معنوياته أنَّ فيه مئةً ممّن شهدوا بدراً ، فكانوا خيرَ أهلِ الأرض يومئذ.

* وعندما بدأتِ المعركةُ كانَ للمرأةِ المسلمةِ دورٌ لاهبٌ ومؤثّر ، فعندما أخذتْ بعضُ طلائعِ المنهزمين تركضُ نحو النِّساء ، برزَ هؤلاء النّسوةُ الباسلاتُ الثّابتاتُ ثباتَ الأبطالِ ، وواجهْنَ المنهزمين ، يقاتلنهم بما لديهنَّ من أسلحةٍ ، حتى اضطرَرْنَ إلى مقاتِلتِهم بأعمدةِ الخيامِ وبالحجارة ، وعلى أيديهنّ أبناؤهُنّ وأطفالُهنّ وهنّ يصرخْنَ في وجوههم قائلاتٍ ومحمساتٍ: يا جنودَ الرّحمن ، ويا فرسانَ المسلمين أينَ عزّ الإسلام ، والأمّهات والأولاد والأزواج؟! فخجلَ المنهزمون ، ومن ثمّ عادوا راجعينَ إلىٰ الميدانِ.

* وفي الحقيقةِ كان دورُ المرأةِ المسلمة دوراً رائعاً في معركة اليرموك ، ولقد سجّل التّاريخُ لهنَّ صفحاتٍ من نور ، فلم يكُنّ يقتصرنَ في ذلك اليومِ على مقاتلةِ المنهزمين المسلمين وردّهم إلى ساحةِ القتالِ ، وإنّما كنَّ يقاتلنَ مَنْ وَصَلَ إليهنَّ من جنودِ الرّوم ، ويذكرُ التّاريخُ بأنّهنَّ قد انتزعنَ أعمدةَ الخيام ، وقاومنَ مَنِ اقتربَ منهنَّ منَ الرُّومان ، فقاتلنَ بضراوةٍ وبسالةٍ ، وقتلنَ مجموعةً كبيرةً من جنودِ الرّوم ، الأمرُ الذي بُهِتَ له الرّومُ وطاشتْ أحلامُهم من أجلهِ ، فما كانَ عهدهُم أنَّ النّساء العربيّات المسلمات يقاتلنَ هذا القتالَ الضّاري العنيفَ ، وهنّ أضعفُ خَلْقِ اللهِ إنْساناً!! حتى إنَّ الصَّحابيةَ الكريمةَ المجاهدَةَ أمَّ حكيم بنتَ الحارث بن هشام قتلَتْ وحدَها يومئذٍ سبعةً منْ فرسانِ الرُّوم بعمودِ فسْطاطها[1].

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (تراجم النساء ص ٥٠٦) ، والاستيعاب (٤/ ٤٢٥) ، مع الجمع والتصرف.

* وكانت ابنةُ عمرو بن العاص تقودُ النّساء في المواجهة المزدوجةِ ، حيث يقاتلنَ المنهزمين منَ المسلمين. ومَنْ وصلَ في تقدمه إليهنّ منَ الرُّوم ، وكانت تصرخُ في وجوهِ المتراجعين المسلمين: قبَّح اللهُ رجُلاً يفرُّ عن حليلته ، وقبَّح اللهُ رجلاً يفرُّ عن كريمتِهِ.

وتندفعُ النّساءُ المجاهداتُ المؤمناتُ وراءَها وهنَّ ينشدنَ قائلاتٍ في حماس: واللهِ لستمْ بعولتَنَا إنْ لم تمنعونا.

* وكان العبّاسُ بنُ سهل بنِ سعد السَّاعديّ ممن تراجعَ أمامَ ضَغْطِ الرّوم حتّى وصلَ معسكرَ النّساء ، فلما رأىٰ ثباتهنَّ واستبسالهنَّ ، هاجَتْ نفسُه بالحميّةِ ، فصرخَ لائماً نفسه ، وغيرَه منَ الفارّين:

يـا هَـارِبـاً عَـنْ نِسْـوةٍ ثنيـات فَعَـنْ قليـلٍ مَـا تَـرىٰ سبيـات
ولاحظيات ولا رصينات

* ثم يكرُّ راجعاً في حنقٍ مع مجموعةٍ منَ الفارّين على مجموعةٍ من الرّوم فيشتّتهم ويطردهم عن النّساء ، ثم يعودُ إلى ساحة الوفاءِ مع المنهزمين ، وكلّه ثورةٌ وحماس(١).

* وقد أوردَ ابنُ كثير هذا الخبر على النّحو التّالي فقال: واستقبلَ النّساءُ مَنِ انهزمَ من سرعان النّاس يضربْنَهم بالخشبِ والحجارةِ ، وجعلت خولةُ بنتُ ثعلبةَ تقولُ:

يـا هَـاربـاً عــن نسـوة تقيـات فَعَـنْ قليـلٍ مَـا تــرى سبيـات
ولا حظيـــات ولا رضيـــات

فتراجعَ النَّاس إلىٰ مواقِفهم(٢).

---

(١) حروب الإسلام في الشام (ص ٢٠٦ و٢٠٧).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ١١).

وخرجتْ جويريةُ بنتُ أبي سفيان فقاتلتِ الأعداءَ قتالاً شديداً ، وكانت مجاهدة جليلة ، جاهدتْ في اليرموكِ ، وجالت جولاتٍ في الحربِ دلّت على فروسيّتها وشدّة بأسِها ، وظلّتْ تقاتلُ حتى قُتِلَتْ ، وأصيبَ أبوها بِسَهْمٍ في عينهِ ، وكان الذي أخرجَ السَّهم من عَيْنِ أبيها أبو حَثْمة .

قال الواقدي : وأقبلَ أبو سفيان إلى قائدِ القلبِ أبي عبيدة ، وقال : أيّها الأمير ؛ مُرْ نساءَنا أنْ يَعْلُونَ على هذا التّلّ ـ تل شهاب ـ فأمرهنّ أبو عبيدة بذلك ، ففعلنَ وعلونَ التّلّ ، وتحصَّن فيهِ ومعهنّ أطفالهنّ ، ثم أصدر أبو عبيدة أمره إليهنّ بأنْ يقاتلنَ المنهزمينَ منَ المسلمين قائلاً : خذْنَ بأيديكن أعمدةَ البُيوت والخيام ، واجعلن الحجارةَ بين أيديكنَّ ، وحرضْنَ المؤمنينَ علىٰ القتالِ ، فإنْ كانَ الأمرُ لنا والظّفر فكُنّ على ما أنتنّ عليه ، وإنْ رأيتنّ أحَداً منَ المُسلمين منهزماً ، فاضربْنَ وجهَه بأعمدتكنّ ، واحصبْنَه بحجارتكنّ ، وارفعنَ إليه أولادكُنّ وقلنَ له : قاتلْ عن أهلِكَ وولدك وعن ديْنِ الإسلام ؛ فقالت النّساء : أيّها الأمير ، أبْشِرْ بما يسرُّكَ[1] .

وعندما أصبحَ وَضْعُ المسلمين في شيءٍ منَ الحرج ، وأخذتْ بعضُ وحداتِهم في الانهزامِ نحو المؤخّرة حيثُ خولةُ بنتُ الأزورِ والنّساءُ المحارباتُ المسلماتُ ، تنادتِ الحرائرُ من نساءِ المسلمين : يا بنات العمود ، دونكُنّ الرّجال ، ردّوهم منَ الهزيمةِ حتّى يعودوا إلىٰ الحرب ، قالت سعيدةُ بنتُ عاصم الخَولاني : وكنتُ في جملةِ النّساء يومئذ على التّلّ ، فلما انكشفتْ ميمنةُ المسلمين ، صاحت بنا عفيرةُ بنتُ غفار ، ونادت : يا نساءَ العرب : دونكنّ والرّجال ـ أي الهاربين ـ ، واحملنَ أولادكنّ على أيديكنّ ، واستقبلنهم بالتّحريض .

---

(١) فتوح الشام (١/ ١٢٥).

* فأقبلتِ النسوةُ يرجمنَ وجوهَ الخيلِ ـ المنهزمة ـ بالحجارة ، وجعلت ابنة ابن العاص تنادي: قبّحَ اللهُ وجْهَ رجلٍ يفرُّ عنْ حليلتِهِ ، وجعلتِ النّساء يقلْنَ لأزواجهنَّ: لستمْ لنا ببعولةٍ إنْ لم تمنعوا عنّا هؤلاء الأعلاج .

* وظلتِ النّساء يقلنَ مثل هذا حتّى برزتْ فئةٌ منهنّ وفي مقدمتهنّ خولةُ بنتُ الأزور ، وهندُ بنتُ عتبة ، وغيّرنَ وجهَ المعركةِ لصالحِ المسلمين ، ترى ما موقفُ خولة وهند؟!

مَـوقـفُ خَـولَـةَ وَهـنْـد:

في ذلك اليومِ الأغرّ، يومُ اليرموك، ويومُ الحربِ مع الروم، كان صوتُ خولة وصويحباتها مَسْموعاً لدىٰ الفرسانِ؛ فقد روى العبّاسُ بنُ سَهل السَّاعدي قال: كانت خولةُ بنت الأزور ، وخولة بنت ثعلبة الأنصارية ، وكعوب بنتُ مالك بنِ عاصم ، وسلمى بنتُ هاشم ، ونُعمُ بنتُ فياض ، وهندُ بنتُ عتبة ، ولبنىٰ بنتُ جوير الحِمْيريّة متحزماتٍ ، وهنّ أمامَ النّساءِ ، والمزاهرُ معهنَّ ، وخولةُ تقولُ هذه الأبيات:

يـا هَـاربـاً عـنْ نسْـوةٍ ثقَـاتْ　　لهَـا جَمـالٌ وَلَهـا ثَبَـاتْ
تسلّمـوهـنّ إلـىٰ الهنَـاتْ　　تَمْلِـكْ نَـواصيْنَـا مـع البَنَـاتْ
أعـلاجُ فِسْـق سُـوء عتـاة　　يصـرنَ منهمـو لأعظـمِ الشَّتـاتْ

* فلما سمعَ الفرسانُ المنهزمون منَ النساءِ هذا التّعنيف في القولِ رجعُوا رجعةً عظيمةً.

* وخرجتْ هندُ بنتُ عتبةَ وبيدها مزهرٌ ، ومن خلفِها نساءٌ منَ المهاجرين ، وهي تقولُ الشّعر الذي قالته يومَ أُحُدٍ:

نحـنُ بَنـاتُ طـارِق　　نمشـي علـى النّمـارق
مشـيَ القَطـا المـوافـق　　قيـدي مـعَ المـرافـق

ومَــــنْ أبـــــى نفـــارقْ إنْ تغْلبُـــــوا نُعـــانـــــق

أو تـــدبـــــروا نُفـــارق فُـــــراقَ غيــــرِ وامـــــق

هـــل مـــنْ كـــريـــمٍ عـــاشـــقْ يحمـــــي عَـــــنِ العـــواتـــق

* ثمّ استقبلتْ خيلَ ميمنةِ المسلمين ، فرأتْهم منهزمينَ فصاحتْ بهم : إلى أينَ تنهزمون ، وإلىٰ أين تفرّون من اللهِ ومن جنّته؟! هو سبحانه مطّلعٌ عليكم. ونظرتْ إلى زوجِها أبي سفيان منهزماً ، فضربَتْ وجْهَ حصانهِ بعمودِها وقالت: إلى أينَ يا بْنَ صَخْرٍ؟! ارجعْ إلىٰ القتالِ ، ابذلْ مهجتَك حتى تمحّصَ ما سلفَ من تحريضكَ على رسول الله ﷺ ـ تعني يوم أُحُدٍ ـ.

* فعطفَ أبو سفيان عندما سمعَ كلام زوجتِه هند ، وعطفَ المسلمون معه ، وحملَ النّساء معهم علىٰ الرّوم ، بأيديهنّ أعمدة الخيام ، وقد وثبتْ منهنّ امرأةٌ إلى علجٍ من علوجِ الرّوم وهو على فرسِه ، فتعلَّقَتْ به ، وما زالتْ به حتّى طرحَتْه عن جوادِه وقتلَتْه وهي تقول:

هذا بيانُ نَصْر اللهِ المسلمين.

* وعندما أخجلتْ خولةُ والنّساءُ المنهزمين ، عادوا إلىٰ الميدانِ يقاتلون بضراوةٍ ، ونظّموا صفوفَهم التي اخترقَها الرّومان؛ واحتدمَ القتالُ ، وخاصّة بعد عودةِ المنهزمينَ بفضلِ وقفَةِ النّساء البطوليّة وراء الصُّفوف ، فقد كُنَّ يرجمن الفارّين من جندِ المسلمينَ بالحجارةِ ، ويعبْنَ عليهم هربَهم وتخلّيْهِم عن عرضِهم وأطفالِهم وذراريهم.

* وثابَ الناسُ إلى رشدهم ، وثبتُوا ، وانعطفُوا نحوَ العدوّ يقاتلونَه حتى أزاحوهُ عن مواقِعه[1].

---

(١) حروب الإسلام في الشام (ص ٢٠٨ ـ ٢١٠) بتصرف.

* وهكذا كانتْ أصْواتُ النِّساءِ في مؤخّرةِ الجيشِ ومنْ علىٰ تلّ شهاب تشجيعاً للفُرسان ونَصْراً لهم.

خَولَةُ تَقْتُلُ قَائِداً رُوميّاً:

تذكرُ المصَادرُ أنَّ خولةَ بنتَ الأزور قد وقعت أسيرةً في أيدي الرّومِ مع جماعة منَ البطلاتِ، فقد كان في أسرى المُسلمات مع خولة: عفرةُ بنتُ غفار، وأمُّ أبان بنت عتبة، وسلمةُ بنتُ زراع، ولبنىٰ بنتُ حازم، ومزروعةُ بنت عملوق، وسلمةُ بنتُ النُّعمان.

* كانَ ذلك عندما لحقت مقدمةُ جيشِ بطرس حاكم دمشق، بمؤخرةِ المسلمين في مرج الصّفْر، واشتبكتْ قوّاتُ الطَّرفَيْن، وانقضَّ «بولص» أخو بطرس علىٰ الرّتلِ الإداري، وقادَ النّساء، وأحمال الموادِ التّموينية، وتوجَّه بها نحو دمشق.

* وعلم خالدُ بنُ الوليد بذلك، فأسرعَ بمن معه من فرسانِ المسلمين لدعمِ معركةِ المؤخّرة، وتوجّه فوراً بحركةِ التفافٍ واسعة، وصل بها إلى خَلْفِ المُعَسْكر الذي أقامه بولص، ونظّمَ به الحراسة لحمايةِ الغنائم والأسرىٰ من المسلمين وخُصوصاً خولة ومَنْ معها منَ النِّساء اللواتي ذكرنا آنفاً.

* وكانت خولةُ بنتُ الأزور متألمةً أشدَّ الألمِ لأَسْرها وأسْر مَنْ معها منْ نساءِ القومِ المسلمين، وكانت شديدةَ الغيظ من بولص الذي يشدّدُ الحراسةَ عليهن، وعلى أطفالهنَّ، وعلى المواد التّموينية التي استلَبها من مؤخّرة جيشِ المسلمين.

* وخلال سَيْر بولص بمن معه نحو الشَّام توقَّفَ يستريحُ ومعه الغنائم والسَّبيات، هنالك وقفتْ خولةُ بنتُ الأَزْور وقفةً ميمونة، وراحتْ تخطبُ

بين المُسلماتِ الأسيراتِ ، وطلبت إليهـنَّ أنْ يدافعـنَ عن شرفهنّ ، وشرفِ قومهنّ عن طريق الإسهامِ في المعركة ، ولكنْ منْ أينَ يأتينَ بالسِّلاح؟!

* لمن يكن أمام خولةَ ومَنْ بصحبتِها منَ الأسيراتِ سوى أعمدةِ الخيام وخشبِها ، وهنالك دبَّ فيهنّ الحماسُ ، واشتعلتْ في قلوبهنَّ نارُ الشَّجاعة ، فاقتلعنَ أعمدةَ الخيامِ وحملْنَها ، وانطلقنَ في الجندِ قَتْلاً وهنَّ يرتجزن ويقلن في صوتٍ واحد:

نحـــنُ بنـــاتُ تبّـــعٍ وحِمْيَـــرْ   وضَــرْبُنَـا فـي القَـومِ ليـسَ يُنْكَـرْ
لأنَّنـا فـي الحـربِ نـارٌ تُسْعَـرْ   اليـومُ تُسْقَـون العـذابَ الأكبـرْ

* ودبَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الرُّعبَ في قلوبِ الرّوم ، وسَقَطَ عددٌ من جندِ الرّوم قتلىٰ بيدِ خَوْلَة ومنْ معَها منَ النِّساء ، ومن ثم تشجعنَ أكثر وانتزعنَ السِّلاح منَ الرُّوم وانطلقن إلى القتالِ ، وهنا جُنّ جنون قائدِ الرّوم بولص ، فقرّرَ القضاءَ عليهنَّ وقتلهنَّ ، لأنَّهنَّ شَرَّدْنَ جماعتَه وقتلْنَ فريقاً منهم. وفي هذهِ الفترةِ الحرجةِ والصَّعبة ظهرَ سيّدنا خالدُ بنُ الوليد وجنُده ، واندفعَ ضرارُ بنُ الأزور لإنقاذِ أختِه خولةَ ونساءِ المسلمين منَ الأَسْرِ ، واندفعَ بقيّةُ الفُرسان ، وقَتَلَتْ خولةُ بولص ، وعاونَهَا أخوها ضرارُ في ذلك ، حتّى شتّتوا هذه الفِرقةَ ، ولاذَ بالفرارِ منِ استطاعَ الهربَ منهم[1].

* وبهذِهِ الجرأةِ وهذه البَسَالة ، وذاك القتال المستميت ، استنقذتْ خولةُ نفسَها وصاحباتها من الأسْر من أيدي الرُّوم.

* ولكنْ ما رأيُ القارىء الكريم لو نقرأُ سوياً ثورةَ خولةَ والأسيرات منْ كتابِ «فتوح الشَّام» ونتعرّفُ على جمالِ وبساطةِ القصّة كما وردَتْ هناك مع

---

(١) انظر: فن الحرب الإسلامي (١/ ١٠٤ ـ ١٠٦) بشيء من التصرف.

شيء من التّصرّف اليسير؟!! . حَسَناً لنبدأ الرّحلةَ «الواقديّة» في الحديثِ عن خولةَ وصديقاتها ، وكيفَ تخلصْنَ منَ الأَسْرِ.

* يقولُ الواقديُّ: حدثني سعيدُ بنُ عمر بنِ سِنان بن عامر اليربوعيّ ، قال: سمعتُ حبيبَ بنَ مُصْعَب يقول: لما اقتطعَ الرُّومُ - من مؤخّرة جيشِ المسلمين - خولةَ وعدداً من نساءِ العرب ، سارَ بهم بطرسُ أخو بولص إلى أنْ نزلَ بهم على النَّهر ، ثمّ قال بطرس: أنا لا أبرحُ منْ هاهنا حتّى أنظرَ ما يكونُ مِنْ أمْرِ أخي.

* ثمّ إنّه عُرِضَ عليه النّساءُ المأسوراتُ فلم يعجبْه منهنّ إلا خولةُ بنتُ الأزور أختُ ضرار ، قال بطرسُ: هذه لي ، وأنَا لها ، لا يعارضني فيها أحدٌ ، فقالَ له أصحابُه: هي لك وأنتَ لها.

* قال: وكلُّ مَنْ سبقَ إلىٰ واحدةٍ يقول: هي لي ، حتى قسمُوا الغنيمةَ على ذلك. ووقفُوا ينتظرونَ ما يكون من أمْرِ بولصَ وأصحابِهِ ، وكان في النِّساء عجائزُ من حِمْيَر وتُبَّع من نَسْل العمالقةِ والتَّبابعة ، وكُنّ قد اعتدنَ ركوبَ الخيلِ ، وخوضاتِ الليل ، والهجوم على القبائل ، فاجتمعتِ النّساء بعضهنّ على بعض فقالت لهنّ خولةُ بنتُ الأزور: يا بناتَ حِمْيَر بقيّة تبّع ، أترضينَ بأنفسِكُنّ علوجَ الرّومِ؟ ويكون أولادكُنّ عبيداً لأهل الشّركِ؟ فأينَ شجاعتكُنّ وبراعتكُنّ التي نتحدثُ بها عنكُنّ في أحياءِ العربِ ومحاضرِ الحضَر؟

ولا أراكنّ إلا بمعزلٍ عن ذلك؛ وإنّي أرىٰ القَتْلَ عليكن أهونَ من هذه المصائب ، وما نزلَ بكم من خدمةِ الرُّوم الكلاب؟

* فقالت عفرةُ بنتُ غفار الحِمْيريّة: صَدقْتِ ، وواللهِ يا بنتَ الأزور نحنُ في الشَّجاعة كما ذكرتِ ، وفي البراعةِ كما وصفْتِ ، لنا المشاهدَ العِظام ، والمواقفَ الجسام؛ وواللهِ لقد اعتدنا ركوبَ الخيلِ ، وهجومَ

الليل ، غير أنَّ السَّيفَ يحسنُ فعلُه في مثلِ هذا الوقت ، وإنّما دهَمَنا على حين غفلةٍ من أمرنا .

فقالت خولةُ : يا بنات التّبابعة والعمالقةِ ، خُذوا أعمدةَ الخيام ، وأوتادَ الأطْناب ، ونحملُ بها على هؤلاء اللئام ، فلعلَّ الله ينصرُنا عليهم ، أو نستريحُ من معرّةِ العَربِ .

فقالت عفرةُ بنتُ غفار : واللهِ ما دعوت إلاّ ما هو أحبّ إلينا ممّا ذكرت .

* ثمّ تناولت كلُّ واحدةٍ منهنّ عموداً من أعمدةِ الخيام ، وصحْنَ صيحةً واحدةً ، وألقتْ خولةُ علىٰ عاتِقها عمودَ الخيمةِ ، وسَعَتْ من ورائِها عفرةُ ، وأمُّ أبان بنتُ عتبة ، وسلمةُ بنتُ زراع ، ولبنىٰ بنتُ حازم ، ومزروعةُ بنت عملوق ، وسلمةُ بنتُ النُّعمان ، ومثل هؤلاء. . . .

فقالت لهنّ خولةُ : لا ينفكُّ بعضكنُّ عن بعض ، وكُنَّ كالحلقةِ الدّائرة ولا تتفرقْنَ فَتُمْلكْنَ ، فيقع بكُنّ التَّشتيت ، وحطمْنَ رماحَ القوم ، واكسرنَ سُيوفهنَّ .

* قال : فهجمتْ خولةُ أمامَهنَّ ، فأوّلُ ما ضربَتْ رجلاً منَ القوم على هامتِهِ بالعمودِ ، فتجنْدَلَ صريعاً ، والتفتَ الرُّومُ ينظرونَ ما الخبرُ ، فإذا هم بالنّسوة ، وقد أقبلنَ والعُمُدُ بأيديهنَّ ، فصَاحَ بهنَّ بطْريقٌ : يا ويكنّ ما هذا ؟

فقالت عفرةُ : هذه فعالنا ، فلنضربنَ القوم بهذه الأعمدة ، ولابدَّ منْ قطعِ أعمارِكم وانصرام آجالِكم يا أهل الكفر . فجاءَ بطرسُ وقال : تفرّقوا عن النّسوة ، ولا تبذلُوا فيهنَّ السُّيوف ، ولا أحدٌ يقتلُ واحدةً منهنّ ، وخذوهنَّ أسارىٰ ، ومَنْ وقعَ منكم بصاحِبَتي ، فلا ينَلْهَا بمكروه ، فتفرَّق القوم عليهنَّ ، وأحدقوا بهنَّ من كلّ جانبٍ ، وراموا الوصولَ إليهنَّ ، فلم

يجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً ، ولم تزلِ النّساء لا يدنو إليهنّ أحدٌ من الرُّوم إلا ضربنَ قوائم فرسِهِ ، فإذا تنكَّسَ عن جوادِه ، بادرتِ النّساء بالأعمدة فيقتلْنَه ، ويأخذنَ سِلاحَه .

* قال الواقدي : ولقد بلغني أنَّ النّسوة قتلْنَ ثلاثينَ فارساً منَ الرُّوم ، فلما نظر بطرس إلىٰ ذلك غضبَ غضباً شديداً ، وترجَّل وترجّلَ أصحابُه نحو النّساء ، والنّساء يحرضْنَ بعضهنَّ بعضاً ، ويقلْنَ : مُتْن كِراماً ولا تمنَ لِئاماً ؛ وأظهرَ بطرسُ بأْسَه وتلهّفه عندما نظرَ إلى فعلهنّ ، ونظرَ إلى خولةَ بنتِ الأزور ، وهي تجولُ كالأسدِ وتقولُ :

نَحْـــنُ بنَـــاتُ تُبَّـــعٍ وحِمَيَـــرْ   وضَـــرْبُنَـــا فـــي القَـــومِ ليْـــسَ يُنْكَـــر
لأَنَّنـــا فـــي الحـــربِ نـــارٌ تَسْعَـــرْ   اليـــومَ تُسْقَـــون العَـــذابَ الأكْبَـــرْ

* قالَ : فلمّا سمعَ بطرس ذلك منْ قولها ، ورأىٰ حُسْنَها وجمالَها ، قال لها : يا عربيّةُ اقْصُري عن فعلكِ فإنّي مكرمكِ بكلِّ ما يسرُّك ، أمَا ترضينَ أن أكونَ أنا مولاكِ ، وأنا الذي تهابُني أهل النّصرانية ولي ضياعٌ وأموالٌ ومنزلٌ عند الملكِ هرقل ، وجميعُ ما أنا فيه مردودٌ إليكِ ، أمَا ترضينَ أنْ تكوني سيّدة أهلِ دمشق فلا تقتُلي نَفْسكِ .

فقالت له : يا ملعون ويا بنَ ألف ملعون ، واللهِ لئن ظفرتُ بكَ لأقطعنَّ رأسَكَ ، واللهِ ما أرضىٰ بك أنْ ترعىٰ لي الإبل ، فكيفَ أرضاكَ أنْ تكونَ لي كفؤاً .

* فلمّا سمعَ كلامها ، حرَّضَ أصحابَه على القتالِ ، وقال : أترونَ عاراً أكبر من هذا في بلاد الشّام أنَّ النسوةَ غلبْنَكم ، فاتّقوا غَضَبَ الملِكِ .

* فافترقَ القومُ ، وحملوا حملةً عظِيمةً ، وصبرتِ النّساءُ لهم صبْرَ الكِرام ، فبينما هم علىٰ ذلك إذْ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ومَنْ معه

منَ المسلمين ، ونظروا إلىٰ الغبار وبريق السّيوف ، فقال لأصحابه: مَنْ يأتيني بخبرِ القوم؟

فقال رافعُ بنُ عميرة الطّائي : أنا آتيكَ به .

* ثمّ أطلقَ جوادَه حتى أشرفَ على النّسوة وهُنَّ يقاتلنَ قتالَ الموتِ. فرجعَ وأخبرَ خالداً بما رأىٰ ، فقال خالد: لا أعجبُ منْ ذلك ، إنّهنّ من بناتِ العمالقةِ ، ونَسْلِ التّبابعةِ ، وما بينهنَّ وبينَ تبّع إلا قَرْن واحد[1] .

خَـولَـة وأَخُـوهَا ضِـرَار :

* عُرِفَتْ هذه البطلةُ خولةُ ، ونالتِ الشُّهرةَ العريضةَ من خلالِ الهالَة التي أحاطَتْ بسيرةِ أخيها ضرارِ بنِ الأزور ، بالإضافةِ إلى عنصر الخرافةِ والمبالغةِ التي أُدْخِلَتْ في سيرتها ، وجعلَتْها أقربَ إلى سيرةِ «عنترة» الشّعبية ، أو «ذات الهمّة» ، أو «الملك سَيْف» وما شابَه ذلك ، ومنَ المعروفِ أنَّ المصادر المعروفة لم تُشِرْ إلى خولةَ ولم يترجمْ لها ابنُ عسَاكر أو الطّبريُّ أو البغداديُّ أو ابنُ الأثير أو ابنُ كثير ، وإنّما وردتْ عند الواقدي فقط .

* وتروي كتبُ الأَسْمارِ وما شابهها قصّة أَسْرِ ضرارِ بنِ الأزورِ ، وكيفيّة خلاصِهِ على يَدِ خولةَ بطريقة ساحرةٍ في العرضِ ، وقد أوردَها الواقديُّ في فتوحه ، ونحنُ مرسلو القولَ في ذلك معَ المحافظةِ قَدْر الإمكان على هيكَل القصَّة ورُوحها .

* تقولُ القصَّة «الواقديّة» : لما أُسِرَ ضرارُ بنُ الأزورِ في وقْعَةِ أجنادين بالشَّام ، مشى خالدُ بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لاستنقاذِه وخلاصِه ، وبينما

---

(١) انظر: فتوح الشام (ص ٦٦ ـ ٧٠) طبعة وزارة الثقافة بدمشق بشيء من التصرف. وسأترك محاكمة القصة للقارىء حيث أثر الصنعة بادية عليها.

هو في الطَّريق ، إذ مرَّ به فارسٌ على فرسٍ طويلٍ قد تقلّدَ سيفَه ، واعتقلَ رمْحَه ، ولا يبينُ منْه إلا الحَدَق ، وهو يقذفُ بنفسِه ، ولا يلوي علىٰ ما وراءه. فلمّا نظرَهُ خالدُ بنُ الوليد قال: ليتَ شِعْري مَنْ هذا الفارسُ؟! وايمُ الله إنَّه لفارسٌ! . .

* ثمّ اتّبعه خالدٌ والنّاس وراءَه ، حتّى أدركَ جند الرُّومِ وعساكرَهم ، فحملَ عليهم حملةَ الفُرسانِ الأشدّاء ، وأمعنَ بينَ صفوفِهم كأنّه النّارُ المحرقةُ ، حتى زعزعَ كتائبهم وحطّمَ مواكِبَهم ، فلم تكنْ إلاّ جولةُ جائلٍ ، حتّى خرجَ وسِنانُه ملطّخٌ من دمائِهم ، وقد قتل رجالاً ، وجنْدَلَ أبطالاً ، وقطّعَ أوصَالاً .

* ثمّ إنّ هذا الفارسَ الملثّمَ والبَطلَ المُعَلّم عرَّضَ نفسَه للموتِ ثانيةً ، فاخترقَ صفوفَ القوم غيرَ مكترثٍ بهم وبجموعهم وجَمْعِهم ، فكثُر قَلَقُ فرسانِ المسلمين عليه ، وأشفقُوا أنْ ينالَه سوءٌ منَ القومِ الكافرين ، لأنّهم لا يعلمونَ مَنْ هو ، وظنّه ناسٌ خالداً وقالوا: ما هذهِ الحملات إلا لخالدِ بنِ الوليدِ.

* وبينماَ هم علىٰ ذلك إذ قدمَ خالد بمنْ معهَ ، فقال له رافعُ بنُ عُميرة: من الفارسُ الذي تقدّم أمامَك؟ فلقد بذلَ نَفْسَه ومهجَتَه.

فقال خالد: واللهِ لأنا أشدُّ إنكاراً وإعجاباً لما ظَهرَ من خلالِه وشمائِله.

* وبينما القومُ في حديثهم ، وخالدُ يهمُّ بأنَّ يحملَ بمن معه لمساعدةِ الفارسِ الملثّم ، فحانَتْ من خالدٍ التفاتة ، فإذا به ينظرُ إلىٰ الفارسِ وقد خَرجَ منْ قلبِ جيشِ الرّوم كأنّه الشّهابُ الثّاقبُ ، وخيلهم تعدو في أثره ، وكلّما دنا أحدٌ منه ألوىٰ عليهِ ، وأنْهَلَ رمحَه منْ صدرِه ، وأوردَه شَعوب ، وجعلَه كأمْسِ الدّابر .

* ووصلَ هذا الفارسُ إلى جيشِ المسلمين ، فتأمّلُوه ، وأحاطوا بهِ ، ورأوا أنَّ جسمَه قد تخضَّبَ بدماءِ الرُّومِ؛ فصاحَ خالدٌ والمسلمونَ: اللهُ أكبر ، لله درّك منْ فارسٍ بذلَ مهجتَه في سبيلِ اللهِ تعالى ، وأظهرَ شجاعتَه على الأعداءِ!!. وناشدوه أنْ يفصحَ عن اسمِهِ ، وأنْ يرفَعَ لثامَه ليعرفوه. . . فمالَ عنهم ولم يردَّ عليهم جواباً.

* وابتعدَ الفارسُ عنِ القومِ قليلاً ، فسارَ إليه خالدٌ بنفسه وقال له: ويحكَ لقد شغلْتَ قلوبَ الناسِ وقلبي بفعلكَ ، مَنْ أنتَ أيّها الفارس الكريم؟ فلما ألحّ عليه خالدٌ أجابهَ الفارسُ منْ تحتِ لثامه بلسانِ التّأنيث؛ وقال: إنّني أيُّها الأميرُ لم أعرضْ عنكَ إلا حياءً منك ، لأنّكَ أميرٌ جليل ، وأنا منْ ذواتِ الخُدور ، وبنات السُّتور ، وإنَّما حَملني على ذلك أنّي مُحْرَقَةُ الكبدِ ، زائدةُ الكَمَد.

فقال لها خالدٌ: مَنْ أنتِ يا بنتَ الأجوادِ؟

قالت: يا سيفَ اللهِ ، أنا خولةُ بنتُ الأزور أختُ ضرار المأسور بيدِ الرُّوم المشركين ، وإنّي كنتُ مع نساءِ قومي وبناتِ العرب ، وقد أتاني آتٍ فأخبرني بأنَّ أخي أسيرٌ ، فركبْتُ ، وفعلتُ ما رأيتَ.

قال خالد: يا خولةُ نحملُ بأجمعنا ، ونرجو اللهَ أنْ نصلَ إلىٰ أخيكِ ضرار فنفكَّه.

* وهنالك صاحَ خالدٌ في جنده ، فحملُوا على الرُّوم وحملتْ خولةُ ، وعظُم على الرُّوم ما نزلَ بهم منها ، وقالوا: إنْ كان القومُ كلّهم مثل هذا الفارس ، فما لنا بهمْ مِنْ طاقة؛ وانقلبُوا على أعقابِهم ، وكانت تجولُ في كلّ مكان لعلّها تعرفُ أين ذهبَ الرُّومُ بأخيها ، فلم ترَ له أثراً ، ولا وقفتْ

له على خبرٍ[1] ، على أنّها لم تزلْ علىٰ جهادِها وجلادِها للرّوم ، حتّى استنقذَ المسلمونَ لها أخاها ضراراً ، وعندها قرَّ قرارُها ، وانطفتْ نارُها[1] .

* ويروي الواقديُّ بطولةً أخرىٰ لخولةَ بنتِ الأزور ، وكيف استنقذتْ أخاهَا ضِراراً منَ الأَسْر في الصَّعيدِ ، وذلك عندما أرسلَ عمرو بنُ العاص وخالدُ بنُ الوليد طليعةً منَ الجيش بقيادةِ ضرارِ بنِ الأزورِ كيما يستطلعَ أحوالَ الرُّوم في شِمَالِ الصَّعيد .

* يقولُ الواقدي ما مفادُه ومحصّله وملخّصه : حدثنا أبو الزّناد عن عبدِ اللهِ بنِ أبي مالك الخولانيّ ، عن طارقِ بنِ شهاب الجرهميّ عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما نحنُ نتحدَّثُ مع الفَضْل ، وإذا بالغبارِ قد قرب منّا ، وانكشفَ عن عشرةِ آلاف فارس ومعهم الأَعْلامُ والصُّلبان ، فلمّا رأونا رطنُوا بلغتِهم ، ثمّ لم يمهلوا دون أنْ حملُوا .

* وكان ضرارُ بنُ الأزور قد انفردَ ومعه مئتانِ من أصحابِ رسول الله ﷺ من أهلِ النّجدة ، وساروا في طريقِ الجبلِ على غيرِ الجادّة ، فبينما هم يسيرونَ ، إذا بالغبارِ قد ثارَ وانكشفَ عمّنْ ذكرنا منْ عساكرِ الرُّوم وجنودِهم ، فلما عاينوهم أيقنُوا بالهلاكِ ، فعندها وثبَ ضرارُ بنُ الأزورِ وقال : لا فرارَ منَ الموتِ ، فلمْ يمهلوهُم دون أنْ دارُوا عليهم ، فرأوا ألاّ بدّ لهم منَ القِتَال ، والتقتِ الرّجالُ بالرّجالِ ، وصبروا صبْرَ الكرام ، وأحاطت بهم الرُّوم اللئام من كلّ جانبٍ ومكانٍ ، فلله درُّ ضرار لقد قاتل قتالاً شديداً ، فلم يكن غير ساعةٍ حتّى قُتِلَ من جماعةِ ضرار جماعةٌ ، وكبَا

---

(١) انظر : فتوح الشام للواقدي (ص ٢٨ و٢٩) ، والمختار من كتاب فتوح الشام (ص ٦٢ ـ ٦٥) طبعة وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٦م ، والدر المنثور (ص ١٨٤ و١٨٥) ، والمرأة العربية (٢/ ١١٥ و١١٦)؛ وغيرها مع الجمع والتصرف .

بهِ جوادُه فأسروه وأسرُوا جماعةً من أصحابه ، وكان الذي قاتلَهم رأسُ البطارقةِ صاحبُ ببا الكُبرى؛ فأوثقوا ضراراً وأصحابَه كِتافاً وربطوهم علىٰ ظهورِ خيولهم ، وأرسلوهم إلى العَسْكر ، وانفلتَ منَ القوم مولىٰ منْ موالي عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدّيق يُقالُ له سالم ، فسارَ يجدُّ في مسيره حتى قدمَ على خالدٍ وعمرو. فعنَد ذلك وثبَ المسيّبُ بنُ نجيبة الفزاريّ، ورافعُ بنُ عميرة الطّائي، وأخذا معهما ألفاً منْ أصحابِ رسول الله ﷺ ، وسارَ معهما رجلٌ منَ الجيزة يدلُّهم علىٰ طريقِ غير الجادّة ، وكمنوا هناك عند الدّير ، وقد سبقُوا البطريق الذي أسرَ ضراراً وأصحابَه ، وقد اختفى عنهم الأثرُ ، فقال الدّليلُ: أظنّكم قد سَبَقْتُم القوم ، اكمنوا هاهنا ، وكان الذي مضىٰ بضرارٍ وأصحابِهِ خمسمئة فارس.

* وكانت خولةُ بنتُ الأزور قد شقَّ عليها أسْرُ أخيها ضِرار ، فلمّا سار المسيّبُ ورافعُ وجماعتهما في طلبِ أخيها تهلّلتْ فرحَاً ، وأسرعتْ في لبس سلاحِها ، وأتتْ إلى خالدٍ وقد همّ القومُ بالمسيرِ وقالت: أيُّها الأمير ، سألتك بالطّاهرِ المطهّر إلاّ ما سيّرتنَي مع هؤلاء عسى أنْ أكونَ مشاهدةً لهم.

فقال خالد للمسيّبِ ورافعٍ: أنتما تعلمانِ شجاعتَها وبراعتها فخُذاها معكما.

فقالا: السّمع والطّاعة ، ونزلوا بالمكانِ المذكور.

* وبينما هم كامنونَ ، إذا بغبرةٍ قد لاحتْ لهم ، فإذا بهم قد أتوا محدقينَ بضرارٍ ، وهو متألّمٌ منْ كتافِه ، وهو ينشدُ ويقول:

أَلا بلِّغَا قومي وخَولةَ أَنّني ... أسيرٌ رهينٌ موثقُ اليَدّ بالقيدِ
وحَولي عُلوجُ الرُّوم مِنْ كُلّ كَافرٍ ... وأَصْبَحتُ مَعْهمْ لا أعيدُ ولا أبدي
فَلو أنّني فوقَ المُحجَّلِ رَاكباً ... وقَائِم حدِّ العَضْبِ قد مَلكَتْ يدي

لأذْلَلتُ جَمْعَ الرُّوم إذْلال نقمةٍ وأسقيتُهم وسْطَ الوغى أعظمَ الكدِّ
فيا قلبُ مُتْ هماً وحُزناً وحسرةً ويا دمعَ عيني كُنْ معيناً على خدّي
فَلو أنَّ أقوامي وخولةَ عندنا وألزمَ ما كُنّا عليهِ منَ العَهْدِ
كَبَا بِيْ جَوادي فانتُبِذْتُ علىٰ الوغىٰ وأصبحتُ بالمقدورِ ولَمْ أبلغَنْ قَصْدي

* وسمعتْ خولةُ هذه القصيدةَ الدّاليّة ، فعرفتْ أنَّه ضرار ، فنادته منْ مكمنِها : يا ضرارُ قد أجابَ اللهُ دعاك ، وقبلَ تضرّعك ونجواك ، أنا خولةُ بنتُ الأزور فارسةُ نساءِ المسلمين.

* ثم كبّرت وحملَتْ ، وكبّر رافع والمسيّبُ والمسلمون.

* قال جُبيرُ بنُ سالم : وكنّا إذا كبرنا تصهلُ الخيلُ إلهاماً منَ اللهِ تعالى ، فما كانَ أكثر منْ ساعةٍ حتى قتلناهم عن آخرِهم ، وخلّص الله ضرارَ بنَ الأزور وأصحابَه ، وأخذنا خيلَ القومِ المشركين ، كما أخذنا أسلابَهم وسلاحَهم ، وكانت أوّل غنيمةٍ لنا هناك[1].

خَولَةُ الفَارِسَةُ الشَّاعِرَةُ:

* شهدنا خولةَ بنْتَ الأزورِ في ميادين القتالِ والنّزال ، وسنشهدُ الآن جانباً من فروسيّتها في الشِّعْر واللّسانِ ، فقد ذكروا أنَّ أخاهَا قد أُسِرَ في إحدىٰ الوقعَاتِ ، ويُقال في مرج دابق ، فحزنَتْ لأسْرِهِ حُزناً شديداً ، وقالت هذه القصيدةَ النّونيةَ الجميلةَ :

أَلا مُخْبِر بعدَ الفِراقِ يُخبِّرنَا فَمَنْ ذَا الذي يا قَومُ أشْغَلَكم عنَّا
فَلو كنْتُ أَدْري أنَّه آخِرُ اللّقَا لكُنّا وقَفْنا لِلوداعِ وَوَدَّعْنَا
أَلا يا غُرابَ البَيْنِ هَل أنْتَ مُخبري فَهَلْ بِقُدومِ الغَائِبينَ تُبشِّرنا
لَقد كانَتِ الأيّامُ تزهُو لِقُربِهم وكُنَّا بِهمْ نَزهُو وكانُوا كَمَا كُنَّا

---

(١) فتوح الشام (ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥) بشيء من التصرف.

أَلا قَاتَلَ اللهُ النَّوىٰ ما أَمَرَّه وأَقْبَحُه ماذا يُريدُ النَّوىٰ منّا
ذكرتُ لَيالي الجمعِ كُنّا سَويَّةً فَفَرَّقَنا ريْبُ الزَّمَانِ وشَتَّتَنا
لَئِنْ رَجَعُوا يوماً إلى دارِ عِزّهم لَثَمْنَا خِفَافاً للْمطَايا وقَبَّلْنَا
ولَمْ أنْسَ إذْ قالُوا ضِرارٌ مقيّدٌ تركْنَاهُ في دارِ العَدوّ ويمَّمنَا
فمَا هذِهِ الأَيّامُ إلاّ مُعارَةٌ وما نحنُ إلاّ مثْلُ لَفْظٍ بِلا مَعْنىٰ
أرَىٰ القلبَ لا يختارُ في النّاسِ غَيرهم إذَا مَا ذَكرنَاهُمْ فوا قلبيَ المُضْنىٰ
سَلامٌ علىٰ الأحبابِ في كُلّ سَاعَةٍ وإنْ بعُدُوا عَنّا وَإنْ مُنِعْوا مِنّا[1]

* ثم قالَتْ خولةُ: لابدَّ أنَّ أخلِّصَه من الرّوم ، وآخذَ بثأرِه ، وتقدّمَتْ مع الجيشِ الذّاهب إلى أنطاكيةَ لخلاصِ أخيها ضِرار ، ومعها جماعة منَ النّساء وهي تنشدُ وتقولُ:

أبعْدَ أخي تلذُّ الغَمْضَ عيني فكيف ينام مقروح الجفونِ
سَأبْكي ما حييتُ على شقيقٍ أعزُّ عليَّ مِنْ عيني اليَمينِ
فلو أني لحقت به قتيلاً لهان علي إذ هو غيرُ هُونِ
وكنْتُ إلى السُّلوّ أرىٰ طريقاً وأعلَقُ منْه بالحبْل المتينِ
وإنّا معْشَرٌ مَنْ ماتَ منّا فليسَ يموتُ موتَ المسْتكينِ
وإنّي أَنْ يُقَالَ قَضَى ضِرارٌ لباكِيَةٌ بمُنْسجمٍ هَتُونِ
وقالُوا لِمَ بُكَاكِ فقلْتُ مَهلاً أَمَا أبكي وقَدْ قَطعُوا وتيني

فَهجَمَتْ وخلَّصَتهْ منَ الأسْر[2].

* ويروى أنَّ خولةَ بنتَ الأزور قد حضَرتْ فتوحَ مصرَ ، فهجمَ القبطُ

---

(1) انظر: شرح ديوان الخنساء (ص ١٤٧) ، وشاعِرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت (ص ٢٦٢) ، والدر المنثور (ص ١٨٦) ، وأعلام النساء (١/ ٣٧٤ و٣٧٥) ، وشاعرات العرب (ص ١٠٩ و١١٠) وغيرها كثير.

(2) انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٢٦٣) والمصادر السابقة نفسها.

علىٰ المسلمين ، وأسرُوا قوماً منهم ، وكانت خولةُ منَ الأسارىٰ ، فقالَتْ ترثي نفسَها ، وتذكرُ أخاهَا ضِراراً:

حَلَّ المصابُ فعمَّ الويلُ والحَرَبُ وكـلُّ دمـع مـنَ الأجفـانِ ينْسَكِـبُ
وكَادَني الدّهرُ مِمّا قد رُميْتُ به حتّـى تـوهّمْـتُ أنَّ الأرضَ تنقلـبُ
خارتْ يَدُ القُبْطِ فينا عندَ غَفْلتِنا واستحكمَ الرُّومُ لمّا زلَّتِ العَربُ
لَهفي علىٰ بطَلٍ قد كان عُمْدَتَنا فيـهِ العفـافُ وفيـهِ الـدِّيْـن والأَدَبُ
لو كانَ ناصِرَنَا في وقْتِ شدّتنا أَعني ضِرَارَ الّذي للْحَربِ يُنْتَدبُ
فيــهِ الحميّــةُ والإحْسَــانُ سِيْمَتُــهُ فيهِ التَّعصُّبُ والإنْصَافُ والحَسَبُ
وَهُوَ لَـنَـا فارسُ الهيْجَا وعادَتُهُ الطَّعْنُ بالرّمحِ في الأَعْدا ويُنْتَهَبُ
مُرديْ الكتَائِبَ والكفّارَ قَاتِلُهُم ومُهْزِمُ الجيشَ إنْ كرُّوا وإنْ صَعُبُوا
لو كَانَ يَسْمَعُ صَوتي صاحَ بي عَجِلاً مَهْلاً فَقَدْ زَالَ عنْكِ البؤْسُ والعَطَبُ[1]

* هذا ووقائعُ خولة كثيرةٌ ، وقد أبلتْ بلاءً حَسَناً في فتوح الشّام ومصر ، ونالت شهرةً عظيمةً في دنيا الفارساتِ فاستحقتِ الثَّناء والخلودَ مع الخالدات في سِجلّ العظائم.

خـولَـةُ والـثَّـنـاءُ عَـلَـيْـهَـا:

* عندما تحدَّثَتْ زينبُ يوسُف فواز العامليّة عن خولةَ قالتْ في مَطلَعِ ترجمتها: خولةُ بنتُ الأزورِ الكنديّ ، وهي أختُ ضرارِ بنِ الأزور ، كانتْ مشهورةً بالشَّجاعةِ والجمالِ؛ خرجتْ مع أخيها إلىٰ الشَّام حينَ فَتْحِها في خلافةِ أبي بكر الصِّديق؛ وكانت تفوقُ الرّجال بالفروسيّة والبَسَالة ، ولها وقائعُ مشهورة[2].

---

(١) ديوان الخنساء (ص ١٤٧ و١٤٨).
(٢) الدرُّ المنثورُ في طبقاتِ ربَّاتِ الخدورِ (ص ١٨٤)؛ وانظر: معجم الأديبات الشواعر (ص ٢٠٥ و٢٠٦).

* وفي كتابه «المرأة العربيّةِ» يقولُ عنها عبد الله عفيفي: خولةُ بنتُ الأزور أختُ القائدِ العظيم ضرار بنِ الأزور الكنديّ؛ وهي إحدىٰ عقائلِ العربِ، وبقيّةُ بناتِ الملوك، وبيتُها بيتٌ رسخَتْ دعائِمهُ على القوّة والمضَاء في الجاهليّة والإسلام. قُتِلَ أبوها بين يَدَي رسولِ الله دفعاً عنه، وأخوها ضرارٌ منَ القادةِ الذين لا يغني غناءَهم أحد، وكان يُقاسُ إذا اشتملتْ عليهِ الوقائعُ بألفِ رجُل[1].

* ويتابعُ عفيفي قائلاً عن خولةَ: أمّا هي، فقد أوتيتْ من جمالِ الوجْه، ومضاءِ القَلْب، ورباطةِ الجأْشِ، والاستبسالِ في القِتالِ، مالم يُتَحْ لكثيرٍ منَ النَّاس، ولها مواطنُ غرّ صالحاتٍ، شَفَتْ قُلوباً، وروّعتْ قُلوباً[2].

* وقال عمر رضا كحالة: خولةُ بنتُ الأزورِ الكنديّ، من ربّات الشَّجاعة والفروسيّة، خرجَتْ مع أخيها ضرارِ بنِ الأزور إلى الشّام، وأظهرتْ في الوقعاتِ التي دارتْ رحاها بين العربِ والرومِ بسالةً فائقةً خلّدَ التَّاريخُ اسمَها في سجلِّ الأبطالِ البواسلِ[3].

* وقال عبدُ البديع صَقْر في «شاعراتِ العَرب»: خولةُ بنتُ الأزور كانت من أشجعِ النَّاس في عَصْرِها، خرجتْ مع أخيها ضرارِ بنِ الأزورِ إلى

---

(١) المرأةُ العربيّةُ في جاهليتها وإسلامها (٢/ ١١٥). ومنَ الغريب أنَّ عفيفي هذا زعم أنَّ أباها قد قُتِلَ بين يدي رسولِ اللهِ دفاعاً عنه، ولم أجدْ فيما بين يدي منْ مصادرَ هذا الخبر، ولا ندري منْ أينَ جاءَ عفيفي بهذه المعلومة؛ ولعلّه أخذَها من كلام الواقدي عندما تحدَّث عن معركةٍ من معارك خولة كما في «فتوح الشام».

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) أعلام النساء (١/ ٣٧٤).

الشَّام ، وأظهرتْ في الوقعاتِ التي دارت رحاهَا بينَ الرُّومِ والمسلمين بسالةً فائقة[1] .

* وقال الزِّركليُّ : خولةُ بنتُ الأزور ، شاعرةٌ ، كانت منْ أشجعِ النّساء في عصرِها ، وتُشَبَّهُ بخالدِ بنِ الوليد في حملاتِها ، وهي أختُ ضِرار بنِ الأزور ، لها أخبارٌ كثيرة في فتوحِ الشَّام ، وفي شعرِها جَزَالةٌ وفخر[2] .

* وقال مُبَشِّر الطّرازي الحُسيني ـ وهو كبير علماءِ تُركستان ـ عن خولةَ : خولةُ بنتُ الأزور حضَرتْ في غزوةِ اليرموكِ مع عددٍ منَ النساءِ ، وطلبْنَ مِنْ خالدِ بنِ الوليد ـ حينما كانَ مشغُولاً بترتيبِ الجيش الإسلاميّ وتنظيمه ـ أنْ يعيِّنَ لهنَّ نصيباً في الجهادِ ، فتقبّلَ خالدُ طلبهنَّ ، حيثُ عيّنَهنَّ ونظّمَهُنَّ في أقسامٍ مختلفةٍ من شؤونِ الجهاد، وجعلَ هذه الفِرقةَ من النّساء تحتَ قيادةِ خولةً، وأجازَ لهنَّ الدّخولَ في الميدانِ فدخَلْنَ حتّى جُرحَتْ خَوَلَةُ بسيفِ مشركٍ[3] .

* هذا والأقوالُ كثيرةُ في خولةَ ، والثّناء ينحصرُ عليها في ميدانِ الفروسيّة والجهادِ ، وقتال الرّوم .

* أمّا عن وفاةِ خولةَ فيذكرونَ أنّها عُمّرتْ طويلاً وعاشَتْ حتّى أواخر خلافة عثمانَ بنِ عفّان حيث وافَتْها المنيّةُ لتتركَ في دنيا الفارساتِ ذِكْراً حميداً ودويّاً ضخماً ما يزالُ صداه إلىٰ الآن .

* * *

---

(١) شاعرات العرب (ص ١٠٩) .
(٢) الأعلام (٢/ ٣٢٥) .
(٣) المرأة وحقوقها في الإسلام (ص ١٠٣) .




سَجَاح بنت الحارث

* فارسة، متنبئة، ذات أثر في مجرى الحوادث التي تلت وفاة رسول الله ﷺ.
* تعاطت الكهانة، وكانت من النساء العاقلات الحكيمات، ذوات الفصاحة والبلاغة وأصالة الرأي.
* أسلمت وحَسُنَ إسلامها.




المَرْأَةُ المُحَارِبَةُ القَائِدَةُ:

* نقرأُ في التَّاريخِ الطَّويلِ العريضِ ، أنَّ الرِّجالَ في كلِّ أُمَّةٍ منَ الأُممِ ، وكلِّ شعبٍ منَ الشُّعوب ، هُمُ الذين ينهضونَ بأمورِ الحربِ وأعبائِها ، ولقاءِ الفُرسَانِ ، وملاقاةِ الصَّناديدِ؛ ومصارعةِ الأبطالِ والشُّجعان ، وهم يحملونَ أرواحَهم على راحاتِهم ، وعلى شَبَا سيوفِهم وأسِنَّةِ رماحِهم ، ويسلكونَ بها مهاوي الرَّدىٰ ، ومعامعَ الحروب ، لا يبالون أوقعُوا على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليهم.

* وكان منَ المتوارَثِ بينَ فُرسانِ العَربِ وأبطالِهم ، أنَّ القَتْلَ والقتالَ لهم ، وأنَّ الجِلادَ والنِّزالَ منْ شأنِهم ، وأنَّ النِّساءَ يتنعمنَ في الدّيباج والحُليّ والحُلَل والزِّينَةِ ونوم الضُّحى ، وعلى فرشهنّ فَتيْتُ المِسْك وألوانُ العِطْر ، ولكنْ إنْ شاركْنَ في الحربِ ، فإنّما يقمْنَ بما تطيقُه الأنثى من تحميسٍ للأبطالِ ، وتضميدٍ لجراحاتِهم ، وإطعامهم وسقيهم.

* بيد أنَّ هذا الأمرَ لا يمكنُ أنْ ينطبقَ علىٰ جميعِ النّساء ـ وإن كانتِ الحقائقُ تثبتُ ذلك ـ حيثُ أنَّ بعضَهنَّ جاذبْنَ الرِّجالَ دَفَّةَ الحربِ ، وقيادةَ الجُيوش ، ومقْودَ الفُرسان ، وحاربْنَ كما يحاربُ الفُرسان ، بل إنَّ بعضَهُنَّ قد أشعلْنَ فتيلَ الحربِ ، وأدَرْنَ قُطْبَها ورحَاها أحياناً ، وكُنَّ أحياناً القَائداتِ لجيشٍ يسري بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ ، وفيه منَ الرِّجالِ والأشداءِ ممن تهابُهم الشّجعان.

* وكانَ للمرأةِ العربيّةِ في الجاهليةِ عطاءٌ ومكانةٌ في المعاركِ التي تنشبُ بينَ القبائلِ ، وكانت منْ عناصرِ النَّصْرِ والغلبةِ ، إذا ما قامتْ بمهمّتها في الحروب.

* وكانتِ الأوضاعُ السِّياسيّةُ التي تحكمُ القبائل العربيّة تفرضُ علىٰ القبيلةِ حالةً اجتماعيّةً ، وطابعاً خاصّاً ، وواقعاً لا مفرَّ منه ، فقد كانتِ القبيلةُ تُفَاجَأُ بالغزوِ بين حينٍ وآخر ، وكانَ يتطلَّبُ منْ زعيمِ القبيلةِ ـ إذْ ذاك ـ القوّة الجسميّة والعقليّة ، والاستعداد الحربيّ الدّائم ، وكان من غيرِ المنتظرِ أنْ تُوكَلَ رئاسةُ القبيلةِ إلى امرأةٍ ، وفي الواقع فإنّه لم يُقْرَأْ في كتبِ الأخبار ما يفيدُ سيادة النِّساءِ على القبائلِ في الجاهليّة القريبةِ منَ الإسلام[1] ، ولكنَّ الأخبارَ تقدِّمُ مادّةً غزيرةً عن الدَّورِ الذي لعبتْهُ زوجُ سيِّد القبيلةِ أو أمُّه ، أو أختهُ أو ابنتُه[2] في الحياةِ السِّياسيّة للقبيلة ، وربما كانتِ النّساءُ أحياناً أخرى عنصراً محرضاً للحربِ ، كما حدَثَ في حربِ البسوس بين بكْر وتغلب ، والتي امتدّتْ أربعينَ عاماً أهلكتْ خلالَها الحرثَ والنَّسل والمالَ والتّلاد .

* فالمرأةُ العربيّةُ في الجاهليّةِ إذاً ، أسهمتْ منْ خلفِ ستارٍ في سياسةِ القبائلِ ، وتحالفاتها وحروبها ، ومع أنَّ الأخبارَ لا تشيرُ ـ كما أسلفْنَا القولَ آنفاً ـ إلىٰ زعاماتٍ نسائيّةٍ للقبائلِ في الفترةِ القريبةِ منَ الإسلامِ ، إلا بعض النسوة من مثْل رقَاشِ الطّائية ومثيلاتها .

* ولكنّ هناك بعض النِّساء قد شاركْنَ في المعامعِ ، حيث تذكرُ المصادرُ أنَّه لما كانتِ الحربُ بينَ بكْر وتغْلب ، قال الحارثُ بنُ عبّاد للحارثِ بنِ همام رئيس بكْر : هل أنتَ مطيعي فيما آمرُكَ؟

قال : ما أنا بِتَارِكٍ رأيك .

---

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/ ٦١٦) .

(٢) اقرأ في هذا سيرة بُهيسة بنت أوس في كتابنا «نساء من المشرق العربي» حيث كان لها دورٌ عظيمٌ في السّلام بين عَبْس وذُبيان .

قال: قاتِلُوا القومَ بالنِّساء فضْلاً عن الرِّجال.

قال الحارثُ: وكيف؟!

قال: تعمدونَ إلى كُلِّ امرأةٍ لها جَلَدٌ ونَفسٌ، فتعطونَها إداوةً وهَرَاوةً، فإذا صفَفْتَ أصحابَك فصفَّهنَ خلفَهم، فإنَّ ذلك مما يزيدُ الرِّجالَ جَلَداً وشدّةً ونشَاطاً، ثمّ تعلّموا بعلامةٍ تعرفُها نساؤكم، فإذا مرَّتِ المرأةُ على صريعٍ منكم عرفَتْهُ، فسقَتْه منَ الماءِ ونعَّشَتْه، وإذا مرَّتْ علىٰ رجلٍ من غيرِكم ضربَتْه بالهراوةِ فقتلَتْه وأتَتْ عليهِ؛ فقبلَ الحارثُ بنُ همام ما أمرَه به، وكان النَّصر لهم[1].

* إذاً فهناكَ نساءٌ شاركْنَ الرِّجالَ في الحربِ، ومارسنَ ما يمارسُ الرِّجالُ منْ لظَاهَا وفواجعها.

* ولكنّا وجدنا ـ مع هذا كلِّه ـ نساءً محارباتٍ من طرازٍ خاص، وهو قيادةُ جيشٍ بأكمله، ورئاسةُ تدبيرِ الحروب، والتَّنقُّلُ بين البلدانِ على صَهَواتِ الجياد ومتونِ الخيل.

* يقولُ الدّكتور أحمد الحُوفي: إنَّ قيادةَ الجيشِ لا تُناطُ إلاّ بالشَّهْمِ الجَلْدِ المحنَّكِ المُطَاع، وإنَّ القائدَ ليصرِّفُ جنْدَه، ويدبِّرُ الخُطَطَ للنَّصْر، فإذا كانتِ المرأةُ العربيّةُ قد سَمَتْ إلى هذهِ الرُّتبَةِ العاليةِ، فإنَّ ذلك إقرارٌ منَ الرِّجالِ بعظمتها، وسموِ مكانتِها، ودليلٌ على خضوعهم لَها وطاعتِها[2].

* ودعونا الآن نتعرفُ شخصيةً سياسيةً نسائيةً، فارسة ظهرتْ في أرضِ الجزيرةِ العربيةِ، وكانتْ ذات أثرٍ في مجرىٰ الحوادث التي تلَتْ وفاةَ

---

(١) انظر: شرح الحماسة للتبريزي (٢/ ٣٤).

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي (ص ٤٣٥).

رسولِ الله ﷺ..... وهي شخصيّةٌ نسويةٌ ظهرتْ كيما تتزعمَ قومَها، وتَقْدُمَهم في الحربِ، بل لقد تنبأتْ أيضاً، وكانتْ صاحبةُ شعبذات، وبلغَ من شأنِها أنَّها ادّعتِ النُّبوَّةَ، ودانَ لها كثيرٌ منَ الخَلْقِ، وآمنوا بدعواها المزعومةِ.

أمّا اسمُها فهو: سَجاحِ[1] بنْتُ الحارثِ بنِ سُويد بنِ عُقفَان، وأمّا كُنْيتُها فأمُّ صَادِرِ اليربُوعيّة.

* كانت سَجاحِ متنبئةً مشهورةً، كما كانت شاعرةً أديبةً عارفةً بالأخبارِ، رفيعةَ الشّأْنِ في قومِها، وقد لمعَ نجمُها في عَهْدِ الرِّدَّة.

* قال ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ في «اللسان»: سَجاحِ: اسمُ المرأةِ المتنبّئة، بِكَسْرِ الحاء، مثل: حَذَامِ وقَطَامِ، وهي من بني يَربُوع؛ قال:

عَصَتْ سَجَاحِ شَبَثاً وقَيْسا ... وَلَقِيَتْ مِنَ النَّكاحِ وَيْسَا

قَد حيْسَ هذا الدِّينُ عنْدي حَيْسَا[2]

قال الأزهري: كانتْ في تميم امرأةٌ كذّابةٌ أيّام مُسيلمة المتنبىء، فتنبّأَتْ هي أيضاً، واسمُها سَجَاحِ، وخطبَها مُسليمة وتزوَّجَتْه، ولهما حديثٌ مشهور[3].

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (١/ ٤١٢) و(٢/ ٧٨)، وجوامع السّيرة النّبوية (ص ٣٣٩)، ولسان العرب (٢/ ٤٧٥ و٤٧٦)، والرّوضة الفيحاء في تواريخ النّساء (ص ٣١٣ ـ ٣١٦)، وشرح مقامات الحريري (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧)، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٢٦ و٢٢٧)، وأعلام النساء (٢/ ١٧٧ ـ ١٨٠)، والدر المنثور (ص ٢٤٠ و٢٤١)، والأغاني (٨/ ٣٩٧) و(١٤/ ٨٩) و(١٥/ ٢٩٠)، و(٢١/ ٣٦ و٣٧ و٣٨ و٤٠)، وانظر فهارس: تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، والبداية والنهاية وغيرها.

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٤٧٥ و٤٧٦).

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (٥/ ٣٢٩).

نَشْأَتُهَا وَخَطَرُهَا:

* تذكرُ المصادِر أنَّ سجاحِ قد نَشَأَتْ بينَ أخوالِها بني تغلب، وتنصَّرَتْ مثلَهم، وكانت راسخةً في النَّصرانية، ومحيطةً بفكرها، ويبدو منَ الأخبارِ التي وصَلَتْ إلينا أنَّها قد تعاطَتْ شيئاً منَ الكَهَانة[1]، فكانت

---

(١) اعتقَدَ العربُ بالكواهِنِ منَ النّساءِ، كما اعتقدوا بالكهّان منَ الرّجالِ، علىٰ الرّغمِ منْ نظرةِ الرّجلِ المبدئيّة منهم إلى المرأةِ، على أنَّ في رأيها وَهْناً وضَعْفاً وفي أَحكامِها تأثّراً بالعاطفةِ، وأنَّ معاييرَ حكمِها هي دونَ مقاييسِ الرّجل في الدّقّةِ والضّبط، بل إنَّ جمهورَ العربِ كان يرىٰ أنَّ النّساءِ في الكهانةِ والعَرافةِ أعمق، وأنَّ أخبارهنَّ أصْدَق، لأنَّ رفاقَهنَّ منَ الجنِّ أدقّ وأوثق، ولذا فإنّهم أكثروا منَ الاحتكامِ إليهنّ، وتقبّلُوا فتاويهنّ بإيمان.

وقد لعبتِ الكاهناتُ والكهّان دوراً كبيراً في العلاقاتِ السّياسيّة، وفي حياةِ المجتمعِ العربيّ الجاهليّ، لأنَّ كثيراً منْ أمورِ الحربِ والسَّلام، كانت تصدرُ عنهنّ، وقد يؤثّر عليهم فيدفعون إليهن.

وقد يُطلقُ بعضُ علماء اللغةِ علىٰ الكاهِنَةِ أيضاً لفظة العرّافة، إلاّ أنَّ بعضَ العُلماء الآخرين ميَّز بين الكهانةِ والعَرافةِ، فالكاهِنُ ـ بحسبهم ـ هو الذي يتعاطىٰ الخبرَ عنِ الكائناتِ في مستقبَلِ الزَّمَنِ، ويدّعي معرفةَ الأسرارِ، والعرّافُ هو الذي يدّعي معرفةَ الشّيءِ المسروق ومكانَ الضَّالةِ ونحوهما، أو الذي يزعُم أنَّه يعرفُ الأمورَ بمقدماتٍ وأسبابٍ يستدلُّ بها علىٰ مواقعِها مِنْ كلام مَنْ يسأله، أو فِعْله أو حَاله؛ ومنهم مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّ العرّافَ مَنْ اختَصَّ بالأنباءِ عنِ الأحوالِ المستقبلة، والكاهنُ منِ اختصّ بالأخبارِ الماضيةِ.

ويرتبطُ بالكهانةِ والعرافةِ أيضاً اللتَيْن اشتُهرتِ المرأةُ العربيةُ الجاهليّةُ في مضماريهما: المعرفةُ الطّبيّةُ، فالكاهنةُ أو العرّافَةُ إذاً طبيبةٌ نفسيّةٌ، عليها أنْ تعالجَ المريضَ بالإيحاء بأنّها قادِرةٌ علىٰ إبعادِ الرّوحِ الشّريرةِ المؤذيةِ عنه، وكانت تلجأُ إلىٰ ما يسمّى بالسِّحْرِ أو الشعوَذَة، وبهذا قد تكونُ المرأةُ طبيبةً ساحرةً، ومريضة متداويةً، لأنّها أشدُّ حاجةً للطبِّ منَ الرّجل، وذلك في علاجِ أطفالها باستمرار، وكان العلاجُ يجري بوساطةِ الرُّقىٰ والتّعاويذ والتّمائم وما شَابَه ذلك.

إحدىٰ كواهِنِ قومها الذّكيّات ، ولها تأثيرها الفكْريّ فيهم[1] .

* كما أنَّ سجاحِ كان لها مطامحُ واسعةٌ ، وكانت ذات إرادة صلبةٍ ، فكان حُلمُها أنْ تتزعَّم قومَها ، وتمدّ نفوذَها على القبائلِ العربيّةِ في العِراق ، بل إذا سنحتْ لها الفُرصَةُ أن تمدَّ نفوذَها على منطقةِ اليمامةِ في شرقي شبهِ الجزيرة العربية ، وعلىٰ الحجازِ ، ولعلَّ هذا الحلْمِ غدا صورةً واقعةً خصوصاً عندما سمعَتْ ورأتْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أخذَ يُوحِّدُ قبائلَ شبه الجزيرة ، ويسيرُ نحو توحيدِ العرب جميعهم تحت لواءٍ واحد .

* ولما كانتِ السَّنَةُ الحاديةَ عشرةَ للهجرةِ ، تنبّأَ بعضُ العربِ ، وارتدَّ بعضُهم، وكانت بنو تميم قد تخاذلَتْ في أمْرِ الرِّدةِ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ ، واختلفوا في ذلك اختلافاً شديداً ، وامتنعَ قومٌ من دفْعِ الزّكاة ، ولذا فما أنْ قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى تنبّأت سَجاحِ ، وأعلنتْ نبوّتَها في منطقةِ الجزيرةِ شمالي العراق ، حيثُ يقيمُ بنو تغلب قومها الذين يدينون بالنَّصْرانيّة ، واستجابوا لها ، وانضمَّ إليها أفناء ربيعة .

* ولما رأت سَجاح جموعَ النَّصارى والمرتدين منْ حولها ، ركبها الغُرور ، وفكّرتْ أنْ تخرجَ غازيةً أبا بكر الصِّدّيق ـ رضي الله عنه ـ في المدينةِ المنوَّرة ، ولم يثْنِها عن عزيمتها بُعْدُ الشُّقَّة عن المدينة .

* وخرجتْ بجموعِها إلى بلاد تميم ، فلقيَها بنو حنظلَة وصدّقوها ، وأجمعَ بنو تميم على نُصْرتها ، وفيهم بعضُ سادتهم ، كالأحنفِ بنِ قيس ، وحارثةِ بنِ بدر ، والزّبرقان بن بدر ، وعطارد بن حاجب ، وغيرِهم منْ سادةِ بني تميم .

---

(١) قالت زينب فوّاز في مطلع ترجمة سَجاح: كانت منَ النّساء العاقلاتِ الحكيمات ذوات الفَصاحة والبلاغة وأصالة الرأي ، حتى أنها قادت أكابر قومها إلى رأيها وتحت طاعتها . (الدر المنثور ص ٢٤٠).

* وكان فيما أغرتهم به أنَّ الله لم يجعل أمْرَ النُّبوَّةِ في بني ربيعةَ ، وإنَّما جعلَه أيضاً في مُضَر ، وأنَّ تميماً تعدلُ قريشاً في السِّيادَةِ والشَّرف والسُّؤدد ، لأنَّهما معاً من مُضَر . . ! . .

* ولم تتوقفْ سَجاحِ عند هذا الحَدّ ، وإنّما زعمت وادَّعَتْ أنَّه قد أُنْزِلَ عليها: يا أيّها المؤمنون المتّقون ، لنا نصفُ الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكنَّ قريشاً قوماً يبغون[1]. فعلىٰ المُضَريين أنْ يقصدوا جموعَ ربيعة ويفضّوها ، ثم يكرّوا على قريش ويغلبُوها.

* وراجتْ دعوتُها ، واجتمعتْ تميمٌ كلُّها تنصرُهَا ، بالإضافةِ إلى إياد ، وبعضِ القبائلِ العربيّةِ النَّصرانيّة بالجزيرةِ ، وكان مؤذّنُها شبيبُ بنُ ربعي الرّياحيّ ، وكانت تَهْذي وتقولُ: أعدّوا الرّكاب ، واستعدُّوا للنّهاب ، ثمّ اغدُوا علىٰ الرّباب ، فليسَ منْ دونهم حِجَاب.

* ثم إنّها غَزَتْ بجموعها وأحلافِها الرَّباب وحلفاءَها بني ضبّة ، ووقعَ عددٌ منَ القَتْلى ، ممّا نفَّرَ النَّاس من دعوةِ سَجاحِ ، ويظهرُ هذا واضحاً في شعْر أصمّ التّميمي الذي قال:

أتتْنا أختَ تغلبَ فاستهدَّتْ ... جلائبَ من سَراةَ بني أبيْنا
وأرستْ دعوةً فينا سفَاهاً ... وكانتْ منْ عمائرَ آخرينا
فما كُنّا لنرزيهم زبالاً ... وما كَانتْ لتسلمَ إذْ أتينا
ألا سَفهتْ حلومكمُ وضلَّت ... عشيّةَ تحشدون لها ثُبُيْنا

* ومع هذا كلّه لم تتوقفْ سَجاحِ ، وإنّما تابعَتْ سيرها حتى بلغتِ النَّباج[2] ، واصطدمَتْ بقبائلَ عربيّة أخرى أرادت أنْ تمنعَها منَ المرورِ

(1) انظر: شرح مقامات الحريري (٤/ ٣٢٥)، نقلاً عن الأغاني (٢١/ ٣٨) طبعة بيروت.
(2) «النباج»: مكان بين البصرة واليمامة.

بأراضيها هي وجُنْدها ، إلا أنَّها سالمتْهم ، وغذَّتِ السَّيرَ إلىٰ اليمامةِ ، حيثُ كانَ مسيلمةُ بنُ حبيب الكذَّاب قد أعْلَنَ هو الآخر نبّوتَه في بني حَنيفةَ ، واستجابَ له القوم .

* ثم إنَّ سَجاحِ قالت لأجنادِها وحلفائِها ومَنْ تجمَّع حولَها : اقصدُوا اليمامة .

فقالوا لها : إنَّ شوكةَ أهلِ اليمامةِ قويةٌ شديدةٌ ، وقد غلظَ أمْرُ مُسيلمة .

* عندها قالَتْ لهم وَحْيَها ـ بل هذيانَها ـ : عليكم باليمامة ، ودفّوا دفيفَ الحمامةِ ، فإنّها غزوةٌ صرَّامة ، لا يلحقكم بعدَها ملامة[1] .

سَجَاحِ وَمُسَيْلِمَةُ :

* عندما قصدتْ سَجاحِ اليمامةَ بجموعها الجرّارة ، أظهرت من قوّةِ البأسِ ، وصلابةِ الموقفِ والتَّصميم ما جعلَ مسيلمة نفسه يهَابُها ويخشاها ، ويرهبُ جانبَها ، لذلك ضاقَ ذرعاً بالأمرِ ، وتحصَّن في حِجْر حصْنِ اليمامة ، وأحاطت به جيوشُها . وخافَ مسيلمةُ إنْ شُغِلَ بها أنْ يغلبَه القادةُ المسلمون الذين وجَّهَهم الخليفةُ أبو بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ لقطْعِ دابر الرّدة والفتنةِ ، وهما ثمامةُ بنُ أثال ، وشرحبيلُ بنُ حسَنة ، لذلكَ شرعَ في مفاوضةِ سَجاح .

* وفكَّرَ مُسيلمةُ فيما يفعلُ ، وأرسلَ في وجوهِ قومه وقال لهم : ويحكم ما ترونَ في هذهِ المصيبةُ التي داهمتنا؟ قالوا : نسلّمُ هذا الأمْرَ لها ، وإنْ لم نفعلْ ذلك فهو البوارُ والهلاكُ والدَّمار .

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٨) ، وفي شرحِ مقاماتِ الحريري أنَّ سَجاحِ قالت : يا معاشرَ تميم ، اقصُدوا اليمامةَ ، فاضربوا فيها كلَّ هامة ، واضربوا ناراً مِلْهامة ، حتى تتركوها سوداء كالحمَامةِ . (شرح مقامات الحريري ٤/ ٣٢٥)

فقال لهم بخبثِهِ ودهائِه: سننظرُ في هذا الأَمْر. . .

* ثمَّ إنَّه بعثَ إليها وقال: إنَّ الله تباركَ وتعالىٰ قد أنزلَ عليكِ وحْياً، وأنزلَ عليَّ وحْياً أيضاً، فهلمّي نجتمعُ فنتدارسُ ما أنزلَ اللهُ علينا، فمن عَرفَ الحقَّ تبعَه، واجتمعنا فأكلْنَا العربَ أكْلاً بقومي وقومك.

فبعثَتْ سَجاحِ إليه: أَفْعَل، وأَمَّنَتْه.

* ثم أمرَ أنْ تُضْرَبَ قبّة من أدَمٍ، وأنْ تُبخَّر، ويكثرُ فيها منَ الطِّيْب والمجمر، ثم أتتِ القبّة واجتمعتْ مع مسيلمة، وقالتْ له: هاتِ ما أُنْزِلَ عليك.

فقال: ألمْ ترَ كيفَ فَعَلَ ربُّك بالحبْلىٰ، أخرجَ منها نسمةٌ تسعىٰ، بينَ صِفَاق وحشَا، من بين ذكَرٍ وأنثى، وأماتَ وأحيَا، ثمّ إلىٰ ربِّكم يكون المنتهى(١).

* ثم إنَّ مسيلمةَ عرضَ عليها الزَّواجَ ـ في قصّة وشِعْر ذكرتْه المصادرُ ـ فقبلت ذلك، وقالت له: إنّي مُسَلِّمة النّبوّة إليك، فاخطبْني إلىٰ أوليائي يزوجوك، ثم أقودُ تميماً معك، وعرضَ عليها أنْ تكونَ الأرض العربيّة مناصفةً بينهما.

* فخرجَ وخرجتْ معه، فاجتمعَ الحيَّان من حنيفة وتميم، فقالت لهم سَجاح: إنّه قرأَ عليَّ ما أُنزلَ عليه، فوجدته حقاً، فاتبعته، ثمّ خطبَها فزوّجُوه إيّاها، وسألوه عن المهرِ فقال: قد وضعتُ عنكم صلاةَ العَصْر.

* ولعلَّ هذا التَّصرُّف من سَجاحِ قد أزعجَ قومَها وحلفاءها من أنْ تتحوّلَ منْ فارسةٍ ورائدةٍ سياسيّة ومحاربةٍ وقائدةٍ إلى امرأةٍ أنثى تبحثُ في

---

(١) انظر: الأغاني (٣٩/٢١)، وشرح مقامات الحريري (٣٢٦/٤) مع الجمع والتصرف اليسير.

الصَّدَاق والمَهْر ، ولذلكَ قال قيسُ بنُ عاصم المنقري ـ وكان من أنصارِها ثمَّ أسلم وحسنَ إسلامه ـ :

أضحَـتْ نبيّتُنـا أنثـىٰ يُطَـافُ بهـا　　وأصبحَـتْ أنبيـاءُ اللهِ ذُكْـرَانـا

فَلَعْنَـةُ اللهِ رَبِّ النَّـاسِ كلِّهـم　　على سَجاحِ ومَنْ بالكفْر أغْوَانا

أعني مُسيْلمةَ الكذّاب لا سُقِيَتْ　　أصداؤُه منْ رُعَيثٍ حيثما كَانا[1]

* وهكذا كان لقاءُ سجاحِ مع مسيلمة هو مغربُ مجدِها وأفولِهِ ، حيث تزوَّجَتْه ، وجعلت ديْنَه ودينَها واحداً ، وآمنت به .

* وهناك رواياتٌ كثيرةٌ عن سَجاحِ في زواجها ، تحملُ في طيّاتِها عناصر الشَّكّ فيها، ومن المُرجّحِ أنَّ تاريخَها قد شُوِّه كثيراً لأنَّها ارتدَّتْ عنِ الإسلام .

* ويظهرُ من نتائجِ علاقةِ سَجاح مع مُسيلمة أنَّ حبَّ المالِ والمادَّةِ والذَّهب كان هَدَفاً كبيراً من أهدافِ حركتِها ، إذ بمجرَّدِ أنْ وافقَها مُسيلمة على أنْ تأخذَ نصف غلاّتِ اليمامةِ ، وأنْ يسلفَها نصف السَّنة المقبلة منها ، فإنَّها قبلتْ وكرَّتْ راجعةً إلى الجزيرة .

* وفي الواقعِ لقد رأتْ سجاحِ كذلك قوّة المسلمين الجهاديّة ،

---

(١) الأغاني (١٤/ ٨٩) ، وصيد الخاطر لابن الجوزي (ص ٤٣٤) طبعة دار اليمامة بدمشق ، تحقيق: يوسف بديوي ، ونقلَ الأصفهانيُّ عن محمد بنِ سلام شِعْراً حينما تزوّجت سَجاح مسيلمة الكذّاب ، قال: قال الأغلبُ العجليُّ في سَجاح لما تزوّجت مسيلمة الكذّاب أبياتاً منها:

لقـد لقيـتْ سَجـاحِ مـن بعـد العمـىٰ　　مُلَـوَّحـاً فـي العَيْـنِ مجلـودَ القَـرَا

مثْـلَ العتيـقِ فـي شبـابٍ قـد أتـىٰ　　مـنَ اللُّجميّيـن أصحـابِ القِـرى

لَيـسَ بـذي واهنـةٍ ولا نَسَـا　　نشَـا بلحـمٍ وبخبـزٍ مـا اشْتَـرىٰ

ومعنى «الملوح» : الذي بدل السفر هيئته .
و«النّسا» : عرق من الورك إلى الكعبين.　　(الأغاني ٢١/ ٣٦ و٣٧) باختصار

فاستشفَّتْ مصيرَها ، فقررتِ العودة ، وانفضَّ جَمْعُ منْ حولها عند قدوم خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إليهم مجاهداً[1] ، وذهبتْ نبوّتها وطارت بقتل مُسيلمة الكذاب .

* وتروي المصادرُ أنَّ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ غزا اليمامة ، وقتلَ مسيلمة الكذّاب ، عندها هربَتْ سجاحِ إلى بني تغلب بالعراقِ ، وبقيتْ في بني قومها تغلب حتّى نَقَل معاويةُ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ أهلَها إلى الكوفةِ، ووضعهم في منازلِ القعقاعِ وبني أبيه، وقد أسلمت وحسُنَ إسلامها.

* وقيلَ: إنَّ سَجاحِ قد أسلمَتْ وهاجرت إلىٰ البصرةِ ، وحسُنَ إسلامُها ، وصلّى عليها سمرةُ بنُ جنْدب والي البصرةِ منْ قِبَل معاوية[2] .

* قال ابنُ حزم: ثمّ أسلمتْ سجاح بعد مقتلِ مُسيلمة[3] .

* وهكذا يطوي تاريخُ المحارباتِ صفحتَه عن سَجاحِ ، ولا شكّ بعد هذا كلّه أنَّ هذه المرأة استطاعَتْ أنْ تكونَ واحدة من مشاهيرِ النِّساء في التَّاريخ .

* * *

(١) انظر : المرأة في التاريخ العربي للدكتورة ليلى الصباغ (ص ٣٢٦) .
(٢) انظر : الروضة الفيحاء (ص ٣١٥ و٣١٦) ، وأعلام النساء (٢/ ١٨٠) .
(٣) جوامع السّيرة النّبوية (ص ٣٣٩). وقالت زينبُ فوّاز: وقيل إنّها لما قُتِلَ مُسيلمة سارتْ إلى أخوالها تغْلب بالجزيرةِ ، فماتَتْ عندهم. ولم يُسْمَع لها بذكر.
(الدر المنثور ص ٢٤١)




غزالة الحَروريّة

* فارسة من بطلات العصر الأموي، ومن نساء الخوارج.
* شجاعة من الطراز الأول، وقيادية كبرى، ومقاتلة في حومة الوغى.
* خطيبة، فصيحة، فقيهة.




فَـارِسَـةٌ زَوْجُ فَـارِس:

* لا شكَّ في أنَّ أخبارَ الشُّجعان ، وذكْرَ الأبطالِ ، يبثُّ في النَّفْسِ الحماس ، ويذكي القلبَ بنفيسِ أخبارِهم ، هذا إذا كانَ الحديثُ عن الفرسان الأبطال من الرجال ، فكيف إذا كان الحديث شائِقاً جميلاً عن فارساتٍ من نساءِ ناعماتٍ رسمنَ لوحاتٍ جميلةً في سجّل تاريخِ الفروسيّة النَّسوية؟!

* أعتقدُ أنَّ هذا شيءٌ ممتعٌ للنَّفْسِ والسَّمْعِ ، لا سيما إذا علمنا أنَّ فارسةَ هذه الصَّفحاتِ واحدةٌ منْ بطلاتِ العصر الأمويّ اللواتي دوَّخْنَ البلادَ والعبادَ ، وكُنَّ ممن يحملنَ السَّيفَ ، ويقاتلنَ به ، ويطاعنَّ بعوالي الرّماح ، منْ على ظهورِ الجُرْدِ المِلاح! . .

* ومنَ المثيرِ والجميلِ أنَّ فارسةَ اليومِ بطلةٌ منْ بطلاتِ نساءِ الخوارج ، أولئك الذين ظهرَ منهم فرسانٌ مشهورون ، وأبطالٌ مذكورون ، لا تثبتُ أمامهم صناديد الرّجال؛ ومنهم أبو بلال مرداسُ بنُ أديّة الذي وردَ أنّه خرجَ في أربعينَ فارساً من أتباعه ، فهزمَ ألفين من فرسانِ الخلافَةِ الأمويّة ، وجعلَهم حصيداً لألسنةِ السُّيوف ، ولأسنَّة الرِّماح.

* ومنهم قطريُّ بنُ الفُجاءة الخارجيّ الأميرُ أبو نعامة التّميمي المازني البطلُ المشهورُ ، والفارسُ المذكورُ ، كانَ رأسَ الخوارجِ ، وخاطبوه بأميرِ المؤمنين ، وعظّموه وبجّلوه ، وأشعاره في الشَّجاعةِ تدلُّ على مكانتِه منها. خرجَ قطريٌّ زمنَ عبدِ الله بن الزّبير ، وهزمَ الجيوشَ والكتائبَ ، واستفحلَ بلاؤُه ، وعظُم خطرُهُ ، وخيْفَ جانبُه ، وكانَ الحجّاجُ بنُ يوسُف

الثَّقفي يجهزُ إليه الجيشَ تلو الجيشِ فيكسرهم ويهزمُهم؛ وغلبَ على بلادِ فارس ، وله وقائع مذكورةٌ ، وشجاعةٌ لم يُسْمَعْ بمثلها ، وإقدامُ يشجِّعُ أجْبَنَ خَلْقِ الله ، ناهيك بشعرِه الفصيحِ السَّائر مسيرَ الأمثال ، ومنه عينيتُه المشهورة الذَّائعة الصِّيت في دواوين الحماسة :

أقُولُ لَها وقَدْ طارَتْ شَعاعاً ... منَ الأبطالِ ويحكِ لنْ تُراعي
فإنَّكِ لو سألتِ بقاءَ يوم ... على الأجلِ الذي لكِ لم تُطاعي
فَصَبْراً في مجالِ الموتِ صبراً ... فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ

* وآخرها :

ومَا لِلْمرءِ خيرٌ منْ حَيَاةٍ ... إذا ما عُدَّ منْ سقطِ المتَاع

* وبقي قطريٌّ يحاربُ بضع عشرة حجّة ، ويُسلَّم عليه بالخلافةِ إلى أنْ سارَ إليهِ سُفيانُ بنُ الأبرد الكلبيّ ، فانتصرَ عليه ، وقتلَه؛ وكان خطيباً ماهِراً بليغاً كبيرَ المحلّ ، من أفرادِ زمانِهِ .

* ومنهم شبيبٌ الخارجيُّ الذي ماتَ غَرقاً في الفُرات ، والذي نعيشُ هذه الأويقاتِ مع زوجِهِ الفارسةِ البطلةِ الجريئةِ غزالةَ الحروريةِ[1] زوجِ القائدِ الفارسِ البطلِ شَبيب بن يزيد بن أبي نُعيم الشَّيباني قائدِ الخوارجِ وبطلهم ، ورأسهم ورئيسهم ، والقائم بالأمْرِ فيهم .

* وكانت غزالةُ هذه ذات نفْسٍ كبيرة ، وهمّة عاليةٍ ، وشجاعةٍ نادرة ، صحِبَتْ زوجَها في حروبِهِ وخصامِه ، وكان لها صوتٌ مسموعٌ ، ودورٌ

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٨/ ١٣ ـ ١٥) و(٩/ ١٨ ـ ٢٠) ، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٥٤ و ٤٥٥) ، والمستطرف (١/ ٢٢٥) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٧) ، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٤٥٠ و ٤٨٨) ، وشذرات الذهب (١/ ٣١٦ و ٣١٧) ، وأعلام النساء (٤/ ٧ و ٨) ، والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٢/ ١١٩ ـ ١٢١) والأغاني (١٨/ ١٢١) ، والكامل (٢/ ٩٢٩) .

مذكور؛ وهيَ إحدىٰ القادة الكفاةِ ، ممّن دوخوا البلادَ ، وروّعُوا الجيوشَ ، وملؤُوا القُلوبَ أثَراً ، والأفواهَ خَبَراً ، والأسماعَ عِبَراً.

* ومنَ المعروفِ أنَّ الخوارجَ خالَفُوا عليّاً ـ رضي الله عنه ـ وكانتْ نساؤُهم أشدَّ منْ رجالِهم ، وأكثرَ تأثّراً بأفكارِهم ، لذلك برزَتْ جماعةٌ منهنّ في التّاريخ النّسويّ في القرنِ الهجريّ الأوّل ـ خاصّة ـ ، وتركْنَ بصمات واضحاتٍ في التّاريخِ ما تزالُ خطوطُها واضحةَ المعَالم إلى عصْرِنا الحاضر.

* وقد يتبادرُ إلى الذّهنِ سؤالٌ مفادُه: هل كانَ مع عليّ بنِ أبي طالب نساءٌ حاربْنَ معَه؟ وهل اشتُهرتْ نساءٌ منهنّ كَنِساءِ الخوارجِ اللاتي عارضْنَه؟!

* لا شكّ في أنّه كان مع عليّ ـ رضي الله عنه ـ نساءُ ناصَرْنَه وكُنّ في معيّتهِ في حروبهِ ضدّ الخوارجِ وفي صِفّيْن ، وقد وعَتْ ذاكرةُ التّاريخ أسماءَ بعضهنّ ، واحتفظَتْ بأثارةٍ منْ أقوالهنّ ورسمنْ بعضَ صورِ أفعالهنَّ ، وذكرتْ جوانبَ منْ فروسيتهنَّ وإقْدامِهنّ وجُرأتِهنَّ؛ وما كانَ حربُهنَّ معه وبطولتهنّ من جَفْوةٍ في الخُلُق ، أو نبوةٍ في الطَّبْع ، وهنّ الخفراتُ اللاتي عُرِفْنَ بالعبادةِ والصَّلاح ، وما كانت شجاعتهنّ أثَراً منَ الغِلْظَةِ ، وظَماً إلى الدّماء ، ولكنّها قوّةٌ فاضَتْ بها وفرةُ الصّبر ، وابتعثَتْها قوّةُ اليقين ، فَخَلَدْنَ هُنَّ الأُخريات في التّاريخِ النّسوي البُطولي ، كخلُود نساءِ الخَوارج.

* ولكي تتمَّ الفائدةُ منْ هذا الكتابِ ، ويُسْتَفادَ منه ، أحببتُ أنْ أذكرَ فقرةً عن نُصَراء عليّ من النّساء ، وأثارةً من سيرهنَّ ، ليكونَ الحديثُ أحْلىٰ ، والفائدةُ أكثر ، ولتتوضّحَ صورةُ هؤلاء اللواتي أحبَبْن عليّاً ، وصورة أولئك اللواتي حاربنَه ، وبهذا تبرزُ محاسنُ الكتاب بإذن الله:

ضِدّانِ لمّا استُجْمِعا حَسُنَا وَالضّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضّدُّ

وها نحنُ أولاءِ مرسلُو القولَ في أخبارهنَّ في الفقْرة التّالية:

نُصرَاءُ عَلِيّ مِنَ النِّسَاء :

* لم تتركْ نساءُ القوم قِدْماً خلَّةً لرجالهنّ يستأثرون بها دونهنّ ، فلم يكنَّ يتأخرنَ عن فضيلةٍ ، وإنْ تُبْتَدرْ يوماً غاية لمكرمةٍ تجدهنَّ سابقاتٍ إليها ، وإثبَاتٍ نحوها ، وما ظنّك بأنّهنّ ـ وهنّ الرّقيقاتُ القَوارير ـ قد اصطلَيْنَ نيرانَ الحروبِ ، وانتضينَ السُّيوف ، وأثرنَ الحمَاسَ؟! ومنهنَّ هؤلاء النّسوة اللواتي ناصرْنَ عليّ بن أبي طالب وقاتلنَ معه ، وكُنَّ في معيّته في حروبه.

* لقد أظهرتْ بعضُ النِّساء قديماً من الشَّجاعة ما يعجزُ عنه أفرس الشّجعان ، وقد بلغَ من ثبات المرأةِ ، ووفور ثقتها بنفسها ، ما يدهشُ العقول ، من ذلك ما ذكرهُ أبو عثمان الجاحظ في كتابه الشّهير «البيان والتّبيين» قال: كان حبيبُ بنُ مسلمة الفِهْري رجُلاً غزَّاءً للتّرك ، فخرجَ ذات مرّة إلى بعضِ غزواتِه ، فقالَتْ له امرأته: أينَ موعدك؟

قال: سرادق الطّاغية ، أو الجنّة إنْ شاءَ الله تعالى.

قالت: إنّي لأرجو الله أنْ أسبقكَ إلى أي الموضعَيْن كنتَ به. فجاءَ فوجدها في سرادقِ الطّاغية ، تقاتل التّرك[1].

* أمّا نصراءُ عليٍّ من النّساء فكُنَّ كثيرات ، ولهنَّ في صفّين مقامات ومواقفُ جميلة ، فكثيراتٌ منهنّ أوتينَ جَوامعَ الكلم ، وجمعْنَ أشتاتَ الحِكَم ، وهن بين ازدحَامِ الصّفوف ، وتحتَ ظلالِ السُّيوف.

* وها نحنُ نشيرُ إلى بعضهنَّ ، ونذكرُ جَانباً من شَجاعتِهنَّ ،

(١) البيان والتبيين (٢/ ١٤٣).

وفصاحتِهنّ ، ليكتملَ جَمالُ بحثِنا ، وتتمَّ فائِدتُه ، حيث كانت هممهنَّ تطاولُ الثُّريا ، كما قال الشَّاعر :

وَلي هِمّةٌ أَدْنىٰ مَنَازِلُهَا السُّهَا وَنَفْسٌ تَعالىٰ في المَكَارِمِ وَالنُّهىٰ

١ ـ أمُّ سِنَان بنْتُ خيثمةَ المذحجيّة :

* هذهِ المرأةُ منْ ذواتِ البأسِ والنُّهى واللسن ، كانتْ من نُصَراء عليّ بن أبي طَالِب ـ رضي الله عنه ـ ، ومن نفثاتِها يومَ صفّين أبيات منها :

عَزَبَ الرُّقادُ فمقْلَتي لا تَرقُدُ والليلُ يُصْدِرُ بالهموم ويُورِدُ

هذا عليٌّ كالهِلالِ تحفُّه وَسطَ السَّماء منَ الكواكبِ أَسْعُدُ

* ولها في رثائِهِ أبياتٌ منها :

إمَّا هلكْتَ أبا الحُسَيْن فلم تَزَلْ بالحقِّ تُعْرفُ هَادياً مهديّا

* وقد وفدَتْ هذه المرأةُ المذحجيّةُ علىٰ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ وتظلَّمتْ من عامِلهِ على المدينةِ المنوّرة ، فكشفَ ظلامتَها بعد حديثٍ دارَ بينهما عن بطولاتِها ونُصْرتها لعليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ .

٢ ـ أمُّ الخيرِ بنْتُ الحُرَيْش :

* مِنْ بينِ نُصراء عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تبرزُ هذه البطلةُ منَ الكوفةِ في مجلسِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ الذي استقدمَها لحاجةٍ في نفْسِهِ ولأنّها كانت تركبُ جَملاً يوم صفّين وبيدها سَوطٌ منتشرُ الضَّفيرة ، وهي تحمّسُ الفُرسانَ الذين ينضوون تحتَ رايةِ عليّ ـ رضي الله عنه ـ ، وممّا قالتْه : أيّها النّاسُ ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أوضحَ الحقَّ ، وأبانَ الباطلَ ، ونوّرَ السُّبُلَ ، ورفعَ العلْمَ ، فلم يدعْكُمْ في عمياءَ مشْتَبِهة ، ولا عشواءَ مدلهِمَّة . . . أيّها النّاسُ : إنَّ الأكياسَ استقصروا عُمْرَ الدّنيا فرفضُوها ، واستطالُوا مدَّة الآخرةِ فسعَوْا لها سَعْياً ، وابتاعُوا بدارٍ لا يدومُ نعيمُها ،

ولا تنصرمُ همومُها. . . قد اجتهدتُ في القولِ ، وبالغتُ في النَّصيحةِ ، وبالله التّوفيق ، والسّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. . .

* ويدورُ حديثٌ وحوارٌ بين معاويةَ وأمِّ الخير ، ويسألُها عن كبارِ الصَّحابة من مثلِ عثمانَ وطلحةَ والزّبيرِ ، ثم تستعْفيهِ منَ الأسئلةِ ، وبعدها يأمُرُ لها بصِلَةٍ ويردُّهَا إلى الكوفةِ مكرّمَةً.

٣ ـ جَرْوَةُ بنْتُ مرّةَ التَّميميَّة:

* لم تكنْ جروةُ هذه ممّنْ حملَ السِّلاحَ في جيشِ عليّ ، ولكنّها كانَتْ منْ نصرائِهِ وشيعتِه ، وكانَتْ عالمةً بأحوالِ قبائلِ العرب وأخبارِها ، وكانت مجاورةً بمكّةَ ، وتذكرُ أخبارُهَا أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ احتجمَ مرّةً بالمدينةِ ، ولمّا أمسىٰ أرِقَ أرقاً شديداً ، فبعثَ إلى جروةُ فدخلَتْ عليهِ وهي ترتجفُ منَ الخوفِ ، ولكنَّه طيَّبَ نَفْسَها ، وهدّأَ رَوْعَها ، وسألَها عن بعضِ قبائلِ العرب؛ ومنهم قومُها بنو تميم فقالَتْ له: يا أميرَ المؤمنين ، هم أكثرُ النَّاسِ عدداً ، وأوسعُهم بلَداً ، وأبعدهم أمَداً ، هم الذَّهبُ الأحمرُ ، والحسَبُ الأفخرُ ، والعددُ الأكثر.

* ثمَّ سألَها عن قبائلَ وأقوامِ آخرين ، فتجيبُه عن كلِّ قبيلة بأبرزِ صفاتِها ، وكان ممّا قالَتْ عن غطفانَ ، وذبيانَ ، وعبس ، وهوازنَ ، وسُليم وغيرهم ما يلي:

أمّا غطفان: فأكثرُ سَادة ، وأمْنَعُ قادة.

وأمّا فزارَةُ: فبيتُها المشهورُ ، وحسَبُها المذكور.

وأمّا ذُبيان: فخطباء شُعراء ، أعزّةُ أقوياء.

وأمّا عبْس: فجمرةٌ لا تُطْفأ ، وعقبةٌ لا تُعلى ، وحيّـةٌ لا تُرقى.

وأمّا هوازن: فَحُلُمٌ ظاهِر ، وعزٌّ قاهِر.

وأما بنو سُليم: ففرسانُ الملاحمِ، وأسودُ ضراغِم.

وأمّا نُمير: فَشَوْكةٌ مسمومةٌ، وهامة ملمومةٌ، وآيةٌ مفهومة.

وأمّا هلال: فاسْمٌ فخْمٌ، وعِزٌّ ضخم.

وأما بنو كلاب: فعددٌ كثير، وبحرٌ ذخير، وفخرٌ أثير، وحكمٌ كثير.

وأمّا قريش: فهم ذِرْوَةُ السَّنام، وسادَةُ الأنام.

* ثم إنَّ معاوية سألَها عن عليٍّ قائلاً: ما تقولينَ في عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ؟!

قالت جروةُ: حازَ واللهِ الشَّرفَ حتّى لا يُوصَف، وغايةٌ لا تُعرف، وباللهِ أسألُك يا أميرَ المؤمنين إعفائي ممّا أتخوّف.

* فاستجابَ معاويةُ لرغبتها، وأمرَ لها بضيعةٍ غلّتُها عشرة آلاف درهم، وردّها إلى أهلِها مكرمةً على أحسنِ وَجْه.

٤ ـ عِكْرشةُ بنْتُ الأطشّ:

* هذه امرأةٌ من نُصراء عليّ ـ رضي الله عنه ـ كانتْ معه يوم صفّين متقلّدة بسيفٍ ذي حمائل، وكانت تحرّضُ النَّاس على القتالِ، وبيدها عكّاز وقد انكفأ عليها العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطش؛ وقد خطبت يومها خطبة تؤلب الناس فيها على معاوية؛ ولما صار أميراً للمؤمنين دخلت عليه وحاورته، فرآها فقيهة نابهة محبة لعلي بن أبي طالب، فأكرمها وقضى حاجتها.

٥ ـ دَارِميّةُ الحَجُونيّة:

* حجَّ معاويةُ سنةً من السّنين، فأرسلَ إلى امرأةٍ كنانيةٍ تنزلُ بالجحفَةِ ـ قرية بين مكّة والمدينة ـ فجاءتْ دارميّة، وكانتِ امرأةً سوداءَ من نُصَراء عليّ، وسألهَا معاويةُ: لِمَ أحبَبْتِ عليّاً؟

فأجابته: أحببتُ علياً على عَدْلهِ في الرّعيةِ، وقسمتِه بالسّوية، وحبّه للمساكين، وإعطائِه أهل السّبيل.

* ثمّ تصفُ له عليّاً وصفاً دقيقاً، ويحلُمُ معاويةُ عنها، ويعطيها مئة نَاقةٍ مع رعاتِها، ويردّها إلى أهلِها وهو يقول:

إذا لم أَجُدْ بالحِلْم منّي عليكمُ فَمَنْ ذا الذي بعدي يُؤَمَّلُ للحلْمِ
خُذيْها هنيئاً واذكُري فعل ماجدٍ حبَاكِ على حينِ العداوةِ بالسِّلْمِ

٦ ـ أمُّ البَراء بنتُ صفوانَ:

* أمُّ البراءِ بنتُ صفوان منَ المُناصرات لعليّ باللّسانَ، كانت تحرّضُ النَّاس يومَ صفّين على القِتال، وتقولُ:

يا زيدُ دونَك صَارِماً ذا رونَقٍ عضْبَ المهزّة ليسَ بالخوّارِ
أسرجْ جوادَك مُسرعاً ومشمّراً للحربِ غيرَ مولّي فرّار

* ولما مات عليّ رثتْه أحرَّ رِثاءٍ، وظلّ حبُّه في قلبِها لآخرِ حياتِها، وكانت عفيفةَ النَّفس لا تسألُ أحَداً شيئاً.

٧ ـ أروى بنْتُ الحارثِ بنِ عبد المطلب:

* كانتْ من أشدّ النّاسِ حبّاً لعليّ، ولَها في مجلسِ معاويةَ أخبارٌ تدلّ على ذلك، وقد أسمعتْهُ وأسمعَتْ جلساءَه من غليظِ الكلام شيئاً عجيباً، ومعَ هذا وذاك أسمعَتِ الحاضرين قصيدةً في رثاء عليّ، وطلبتْ من معاويةَ ستّة آلاف دينار، فأعطاها وانصرفَتْ.

٨ ـ الزَّرقاءُ بنْتُ عدي الهمدانيّة:

* امرأةٌ منَ الكوفةِ لها لسانٌ وعقْلٌ، كانت تركبُ جَملاً أحمرَ يومَ صفّين، وهي توقدُ الحربَ وتحضُّ عليها، وتخطبُ النّاس، وتحثُّهم علىٰ الإقدام.

* وكانت وفيّةً لعليّ بن أبي طالب حيّاً وميْتاً حتّى أعجب بوفائِها له معاويةُ ، وكلُّ مَنْ حضر مجلسَه .

٩ ـ سودةُ بنتُ عمارة الهمدانيّة :

* إحدى نساءِ همدان اللواتي لم يعرفِ الخوفُ إلى قلوبهنَّ سبيلاً ، عُرفَتْ بحبِّها الشَّديدِ لعليّ ، وكانت من نُصرائِهِ يوم صفّين ، وكانت تحرّضُ أخاهَا بأبياتٍ حماسيّة منها :

شَمِّرْ كفعْلِ أبيكَ يا بنَ عَمارةٍ ... يومَ الطّعانَ وملتقىٰ الأَقْران

* كما أنَّها رثَتْ عليّاً فقالت :

صلّى الإلهُ على روحٍ تضمَّنها ... قبرٌ فأصبحَ فيها العدلُ مدفونا
قد حالفَ الحقَّ لا يبغي به بَدَلاً ... فصارَ بالحقِّ والإيمانِ مقْرونَا

١٠ ـ بكارةُ الهلاليّة :

* شهدتْ بكارة معركةَ صفّين مع أخيها زيد ، وكانَت امرأة فصيحةَ اللّسان ، شاعرة ، وخطيبة مفوّهة ، لها أشعارٌ حماسيّة يوم صفّين ، وكلماتٌ سائرات ، وعَتْها المصادرُ وكتُب الأسمار .

* ومن نُصراءِ عليّ منَ النّساء : امرأةُ أبي الأسود الدّؤلي ، وأمامةُ بنتُ يزيد بن الصَّعق ، وأختُ عبدِ الله بن عَامر بنِ ربيعة ، وآمنةُ بنتُ الشَّريد ، وفارعةُ بنتُ عبد الرحمن الحارثيّة ، وامرأةٌ منْ ذكوان ، وغيرهنّ كثيراتٌ قد أحصتهنَّ بعضُ المصادر[1] ، وأوردت أخبارهنَّ ، وحفظتْ كلماتهنّ وأشعارهنّ ، وقد لمسنا في شذراتِ أخبارهنّ ذلكَ الولاءَ العجيبَ والدّفاع

---

(١) المصادر التي تحدثت عن هؤلاء النساء كثيرة جداً ، ومنها : أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان للعباس بن بكار الضبي؛ وبلاغات النساء ، وتاريخ دمشق (تراجم النساء) ، والحدائق الغناء ، والعقد الفريد ، وصبح الأعشىٰ . ومن المراجع : جمهرة خطب العرب وأعلام النساء وغير ذلك كثير .

المستميت عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كما عرفنا جانباً من بطولاتهنّ في السِّنان واللسان.

هَـلاّ بَـرزتَ إلـى غَـزَالَـةَ؟

* غزالةُ الحروريّةُ هذه امرأةٌ متفرّدةٌ في عالَم الفارساتِ في العصرِ الأمويّ، عصْر الفُرسان الفاتحين، والشّجعان المرموقين، والفتيان المشهُورين.

* وكانتْ غزالةُ من الشَّجاعةِ والفروسيّةِ بالموضعِ العظيمِ، والمكانِ الجسيم، وكانت تقاتلُ في الحروب بنفسها، وتباشرُ المعاركَ بسيفها، وتطاحنُ وتجالدُ الفرسانَ الأشدّاء، وهي إحدىٰ القادة الكُفَاة ممن دوّخُوا البلاد، وروعوا الجيوشَ والعباد، وملؤوا القلوبَ أثراً، والأفواهَ خبراً، والأرضَ عبراً.

قال ابنُ العماد الحنبليّ في شَذَراتهِ عنها وعن شجاعتها: وكانت قد قاتلتْ في تلكَ الحروبِ ـ أي حروب الخوارج[1] ـ قتالاً عجزَ عنه كُمَّلُ الرِّجال، وكانت بحيث يُضْرَبُ بشجاعتها المثَل[2].

* كانت غزالةُ وزوجُها شِبيب يليَانِ قيادة الخوارج، وكان الحجاجُ بنُ يوسُفَ الثَّقفي مبيد العراقِ ظلوماً جبّاراً ناصبيّاً خبيثاً سفّاكاً للدّماء، وكان ذا

---

(١) ذكر ابنُ العماد أنَّه في سنةِ (٧٧ هـ) بعثَ الحجّاجُ بنُ يوسُف الثَّقفي لحربِ شبيب الخارجي عتَّابَ بن ورْقاء الرّياحيّ، فلقيَ شبيباً بسوادِ الكوفة، فقتلَ شبيبٌ عتّاباً، وهزمَ جيشَه، ثمَّ جهَّزَ الحجَّاجُ له الحارثَ بنَ معاوية الثقفيّ فقتلَ الحارثَ أيضاً، فوجَّه الحجاجُ له أبا الورد البصريّ فقتَلَه أيضاً، فوجَّه له طهمان مولى عثمان فقتلَه أيضاً، ففَرِقَ منه الحجاجُ، وسارَ بنفسهِ، فاقتتلوا قتالاً شديداً أشدَّ القتال، وتكاثروا على شبيب فانهزمَ. (شذرات الذهب ١/ ٣١٦) بتصرف يسير

(٢) شذرات الذهب (١/ ٣١٦).

شجاعةٍ وإقدام ومكْرٍ ودهاءٍ وفصاحةٍ وبلاغة[1]. وكان هذا العاتي الظَّالم يستمعُ خبرَها ، فيمتلىءُ قَلْبُه رعباً ووهناً ووهْلاً ، وقد وردَ أنَّه هربَ منها في بعضِ الوقائعِ مع زوجِها شبيب ، واعتصم في الكوفَةِ .

* ذكرَ أهلُ الأخبارِ والتَّواريخ أنَّ الحجاجَ بنَ يوسفَ قد خرجَ في جندِ وفرسانِه ورجالِهِ ، وكلُّهم شاكي السِّلاح ، مستكملُ العدّة ، مرهوبُ الصَّولة ، وجميعُهم يدعي البطولة ، فعرضتْ له غزالةُ الحرورية في أربعين فارساً من جماعتها ، وهو في أربعةِ آلاف[2] ، فما لبث أن اختلطَ عليه الأمْرُ ، وخلع الفزعُ قلبَه ، واستولى عليه الخوفُ ، وولّىٰ هارباً يخلطُ في قوله ، وهو أعرفُ النَّاسِ بمواطنِ القول ، وأرفقُهم بأساليبِ الكلام ، ولكنَّه عُقِلَ قلبُه فعُقِلَ لسانُه ، وأُرْتجَ عليه كلّ قولٍ في دنيا القَول. وقيل: إنَّ غزالةَ دَعَتْه في إحدىٰ الوقائع أنْ يبرزَ لها فأبى وخافَ ، هنالك سخِرَ منه بعضُ شعراء عصْرِهِ[3] ، وكتبَ إليه يعيّره بكلماتٍ لاذعة تقطرُ تهكّماً لهروبه من غزالةَ ، وكانت غزالةُ عديمةَ النَّظير في الشَّجاعةِ والإقدامِ والجرأة :

أَسَدٌ عليَّ وفي الحروبِ نَعَامَةٌ فتْخاءُ تنْفُرُ منْ صفيرِ الصَّافِرِ
هلا برزْتَ إلى غزالةَ في الوغىٰ بلْ كانَ قلبُكَ في جنَاحَي طائِرِ

---

(١) قالَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن الحجّاج بنِ يوسُف: أهلكَهُ اللهُ في رمضانَ سنةَ (٩٥ هـ) كَهْلاً ، وقد سُقْتُ منْ سوءِ سيرتِه في تاريخي الكبير ، وحصارِه لابنِ الزُّبير بالكعبةِ ، ورميه إيّاها بالمنجنيقِ ، وإذلالِه لأهلِ الحرمَيْن ، ثمّ ولايتِهِ على العراقِ والمشرقِ كلّه عشرينَ سنةِ ، وحروب ابن الأشعث له ، وتأخيره للصَّلوات إلىٰ أنِ اسْتأْصَله اللهُ؛ فَنَسُبُّهُ ولا نحبُّه ، بل نبغضُه في الله فإنَّ ذلك منْ أوثقِ عرا الإيمان. وله حسناتٌ مغمورةٌ في بحر ذُنوبه ، وأمْرُهُ إلى اللهِ ، وله توحيدٌ في الجملة ، ونظراءُ منْ ظلمةِ الجبابرةِ والأمراء. (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣)

(٢) عندي أنَّ هذا الرقمَ مُبَالغٌ فيه ، والله أعلمُ بالصَّواب.

(٣) هو عمرانُ بنُ حطّان ، وكانَ الحجّاجُ قد لجَّ في طلبه أيضاً.

صدَعَتْ غزالةُ جَمْعَه بعسَاكِرٍ تـركَـتْ كتـائِبَـه كـأَمْـسِ الـدَّابـر
أَلْقِ السِّلاحَ وخُذْ وشاحَيْ مُعْصِرٍ واعمـدْ لمنـزلَـةِ الجبَانِ الكـافِـرِ[1]

* وهكذا اشتهرت غزالةُ بالشَّجاعة والفصَاحة ، فهي تخطبُ على المنابر ، وتخوضُ المعارك ، وتتحدىٰ الكُماة والفرسان في المبارزة.

غَـزَالَـةُ وَقَـسَـمٌ غَـرِيْـبٌ :

* في سيرةِ فارساتِ التَّاريخِ الجميلِ ، تبرزُ صورةُ غزالةَ الحروريّة لتعطيَ ملامح الفروسيّة والشّجاعة التي يخشَاها كثيرٌ منَ الرِّجال ، فقد بلغَ منْ جسارتها وجرأتِها وقوةِ قلبِها ، وشدّة بطشها ، أنَّها أقسمتْ بالله أغلظَ الأَيْمان لَتُصليَنَّ في مسجدِ الكوفةِ ركعتَيْن ، تقرأُ في الرّكعةِ الأولىٰ سورة البقرة ، وفي الرّكعةِ الثّانيةِ آل عمران[2] ، والكوفة يوم إذ معقلُ الحجاج بن يوسف ، ودارُ إمْرته ، ومجتمعُ قوته ، ومجمعُ فُرسانه.

* والظَّاهرُ أنَّ غرابةَ هذه الفعال مِن امْرأةٍ مثلِ غزالةَ الحروريّة قد انبثقتْ عن فروسيّةِ زوجها شبيب ، فما خرجتْ إلا بخروجهِ ، وما حاربتْ إلا شدّاً لأَزْرِه ، والتَّبصير بمعتقده في الدِّين ، وقصارى القول: إنَّ شَنّاً قد وَافَقَ طبَقَة ، فهو فارسٌ من جبابرة الخلقِ وعتاتهم ، وامرأته علىٰ غراره ، فقد قيل: إنّها كانت فقيهةً أيضاً ، وكانت خطيبةً ، فهي معتزّةٌ بقوتها ، مزهوةٌ ببسالةِ زوجِها.

* فقد خرجَ زوجُها شبيبُ في خلافةِ عبدِ الملك بنِ مروانَ ، وكانَ

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٥٥) ، وسير أعلام النبلاء (١٤٧/٤) ، مع الجمع والتصرف. وانظر: التذكرة الحمدونية (٢/ ٤٥٠) ، وشذرات الذهب (٣١٦/١ و٣١٧). ومعنى «مُعْصِر»: المُعْصر: الفتاة التي بلغَتْ عَصْر شبابِها ، والمعنى: دعْ حملَ السّلاح والبسْ لباسَ الفتاة.

(٢) شذرات الذهب (١/ ٣١٦).

الحجّاجُ بنُ يوسفَ الثّقفي بالعراقِ يومئذ ، وخرجَ بالموصلِ ، فبعثَ الحجّاجُ لحربه خمسةَ قوّاد من القادة الشُّجعان ، فقتلهم واحداً بعد واحدٍ بعد واحدٍ ، ثمَّ خَرج منَ المَوصلِ يريدُ الكوفةَ ، وخرجَ الحجاجُ منْ البصرةِ يريدُ الكوفة أيضاً ، وطمعَ شبيبٌ أنْ يلقاه قبل أنْ يصلَ إلى الكوفةِ ، فأقحمَ الحجاجُ خيلَه في قَصْرِ الإمارة ، ودخلَ إليها شبيب ، ومعه أمّه جهيزة[1] وزوجته غزالة عند الصَّباح ، فوجدَ بابَ القصر مغْلقاً والحجّاج فيه ، فقتلَ الحرس ، ثم دنَا من البابِ فعالجه هو وأصحابه فأعياهم فَتْحه ، فضربَه شبيبٌ بعمودٍ كان في يدهِ فنقبَ الباب .

* وكانت غزالةُ قد نذرتْ أنْ تدخلَ مسجدَ الكوفةِ ، فتصلي فيه ركعتَيْن تقرأُ فيهما سورة البقرة وآل عمران ، وناهيك بالبقرة وآل عمران أنّهما أطولُ سورتَيْن في القُرآن ، فأتوا الجامعَ في سبعينَ رجلاً ، فصلَّت فيه الغداةَ ، وخرجت من نذرِها ، ووفّت به ، وهي تتمتَّعُ بالموضعِ العظيم من الشَّجاعةِ والفروسيةِ والبسالةِ والإقدام، وفي ذلك قال بعضُ الشُّعراء في وفاءِ نَذْرِها :

وَفَـــتِ الغَـــزَالـــةُ نَـــذْرَهَـــا يَـــا رَبّ لا تَغْفِـــرْ لَهـــا

(1) قالَ الذَّهبيُّ : وكانتْ أمُّ شَبيب جهيزةُ تشهدُ الحروبَ . (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٤٧)
وجهيزةُ هذه منْ سبي سلمانَ بنِ ربيعةَ حين غزَا أرضَ الرّومِ في أيّام عثمان ـ رضي الله عنه ـ.
قال النّويري : وكانتْ أمُّه جاريةً روميّة ، اشترَاها أبوهُ فأوْلَدها شبيباً سنة (٢٥ هـ) يوم النَّحر . (نهاية الأرَب ٢١/ ١٩٢)
وقال ابنُ كثير : وكانتْ أمُّ شبيبٍ جاريةً اسمُها جُهيزة ، وكانتْ جميلةً وكانتْ من أشجعِ النِّساء تقاتلُ معَ ابنِها في الحروب (البداية والنّهاية ٩/ ٢٠) وقال ابنُ خلكان : وكـانَـتْ أمُّه جهيزةُ أيضاً شُجاعةً تشهدُ الحروبَ . (وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٥)
ومنَ العجيبِ حقّاً هذه المُصَافاة العجيبة بينَ جهيزة وغزالة ، فلم نسمعْ هناك مصافاة بينَ حماة وكنّة على هذا المستوى ! ! . .

* ومن الواضحِ أنَّ صلاةَ غزالة ليست صلاةَ الواجفِ العجلان ، بل هي فعلَةُ المستأني في أناةِ الاستهانةِ بعدّوه الجّرار ، ولكنّه العزّةُ والاعتدادُ بالفتوة .

* نعم لقد روي أنَّ زوجَها شبيب قد وقفَ بثمانية فرسان من أصحابهِ حتى صلَّت زوجَه غزالة كما نذرتْ ، وأطالتْ كما شاءت .

* وقيل : إنَّه أصعدها المنبرَ في بعضِ حروبه ودخوله للكوفة فخطبتِ النَّاس !

* ويقولُ صاحب كتاب «الفَرق بين الفِرق» : إنَّها كانت في تلك الحرب على رأسِ كتيبةٍ من النّساء يعتقلنَ الرّماح . . .

* وهكذا كانت غزالةُ امرأةً تعتزُّ بقوتها وقوّةِ زوجها ، فقد كانت فارسةً من طرازٍ فريد في عالَمِ النِّساء .

* وذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ غزالةَ كانت شديدةُ البأسِ ، تقاتل قتالاً يعجزُ عنه الأبطال ، وكان الحجّاج يخافُ منها أشدَّ الخوف[1] .

* وذكر الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ جرأتَها ووفاء نذرها فقال : ودخلت غزالةُ جامعَ الكوفةِ ، وصلَّتْ وِرْدَهَا ، وصَعِدَتْ المنبر ، ووفتْ نذرها[2] .

غَـزَالَـةُ تَـهْـزِمُ جُيُـوشَ الـحَجَّـاجِ :

* ظلَّ شبيبُ بنُ يزيد وزوجُه غزالةُ الحرورية يحاربان الحجّاج شيئاً منَ الدَّهر ، حتى هزمَا له عشرينَ جيشاً في مدة سنتَيْن منها : جيش عتّاب بنِ ورقاءَ ، وجيش الحارث بن معاوية الثّقفي ، وجيش أبي الورد البصري ، وجيش طهمان مولى عثمان .

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٨).

* ثم إنَّ شبيب كبسَ الكوفة ليلاً ومعه ألفٌ منَ الخوارج ، ومعه زوجه غزالة ، وأمُّه جهيزة ، وذلك في مئتَيْن من نساءِ الخوارِج ، وقد اعتقلنَ الرّماح ، وتقلدن السُّيوف ، وقصدَ المسجدَ الجامع ، فقتلَ حرَّاس المسجدِ والمعتكفين فيه ، ونصبَ غزالة على المنبرِ ، فخطبَتْ.

* وكانَ الحجّاج ـ من قبلُ ـ قد رمى غزالة بخمسةِ جيوش ، فكانت توقعُ بهم الهزائمَ ، وتلتهمهم التهاماً ، حتى غدت طباقُ العراقِ ومن حولها ترتجفُ لاسمِها ارتجافاً ، وقد وصفَ ذلك أيمن بن خريم لما طالتِ الحربُ بين غزالةَ وبين أهل العراق ، وهم لا يغنُون شيئاً؛ وذكرَ كيف صنعَتْ غزالةُ الأفاعيل بأهلِ العراق وكيف كانت تسبي النّساء فيقولُ:

أَتَيْنا بِهِمْ مئَتَي فارسٍ ... منَ السَّافكينَ الحرامَ العَبيطَا
وخمسونَ منْ مارقاتِ النّسا ... ءِ يسحَبْنَ للمُنْديات المُروطَا
وهمْ مئتا ألفِ ذي قَوْنَسٍ ... يَئِطُّ العراقان منْهم أَطَيْطا
رأيتُ غزالةَ إنْ طرَّحَتْ ... بمكةَ هودجَها والغَبيْطا
سَمَتْ للعراقينِ في جَمْعِها ... فلاقىٰ العراقانُ منها بطَيْطا
ألا يستحي الله أهلُ العِرا ... ق إنْ قلّدوا الغانيات السُّموطا
وخيلُ غزالةَ تسبي النّساء ... وتحوي النّهاب وتحوي النَّبيطا
ولو أنَّ لُوطاً أميرٌ لكمْ ... لأَسْلَمتُمُ في الملمّات لُوطا[1]

---

(١) انظر: الأغاني (٢٠/ ٣٢٧ و ٣٢٨) طبعة بيروت و(١٦/ ١٨) طبعة مصر. ومعنى: «عَبيطاً»: العَبيط الدم الخالِص الطّري. «المنديات»: المخزيات يندى لها الجبين. و«مروط»: المرط: كِسَاء من صوف يؤتزر به. و«القَونَس»: البيضة وهي الخوذة من آلات الحرب لوقاية الرأس. و«يئط أطيطاً»: يصيح صياحاً. و«العراقان»: الكوفة والبصرة. و«الغبيط»: الرّحل ، و«البطيط»: العجب أو الداهية. و«النهاب»: جمع =

مَـوتُـهَـا:

عجزَ الحجاجُ بنُ يوسف الثّقفي عن شبيب بنِ يزيد الخارجيّ ، الذي هزمَ جيوشِه مرّاتٍ ومرّات ، وقتلَ عدّةً منَ الأشراف ، وتزلزلَ له عبد الملك ، وتحيّر الحجاجُ في أمرِه وقال: أعياني هذا ، وجمعَ له جيشاً كثيفاً نحو خمسين ألفاً ، وبعثَ إليـه عبد الملك بنُ مروان عساكر كثيرة من الشَّام عليها سُفيـان بـن الأبرد الكلبيّ ، فوصلَ الكوفةَ ، وخرجَ الحجّاجُ أيضاً ، ثمّ إنّهم تكاثروا على شبيب ، فانهزمَ ، وبايع أصحاب شبيب في الآخر من الدّجيل[1] غزالةَ ، وعقد سفيانُ بنُ الأبرد الجِسْرَ ، وعبر مع جندهِ إلى أولئك الخوارجِ، وقتل أكثرهم ، وقتلَ فيمن قتلَ غزالةَ الحروريّة ، كما قتلَ معها حماتَها جهيزة التي فعلتِ الأفاعيلَ أيضاً بجنود الخلافةِ وجنودِ الحجّاج ، كما أنّه أسرَ الباقين منْ أتباعِ شبيب ، وشدَّهم في الأغلال.

* وكانت غزالةُ قد قُتِلَتْ خدعةً ، حيث غافلتْها فرقةٌ من جندِ الحجّاج من ورائها ، بينما كانت تخوضُ غمارَ المعركةِ في صدرِ جندهِ ، وهي غيرُ هيّابة ولا وجلة؛ وبذلك سجّلت تاريخاً بطولياً نسوياً ظلّ مضربَ المثلَ عند

= نهب ، الغنائم. و«النبيط»: جيل من الناس يسكنون البطائح بين العراقين الكوفة والبصرة.

(١) «دُجَيـل»: هـو نهـرٌ عظيـمٌ بنواحـي الأهـواز وتلكَ البلاد ، عليه قرى ومدن ومخرجُـه من جهةِ أصبهان ، وحَفَـره أزدشير بنُ بابـك أوّلُ ملوكِ بني ساسـانِ ملوك الفُرس بالمدائـن ، وهو غيـرُ دُجيل بغداد ، فإنَّ ذلك مخرجُـه منْ دجلـةَ مقابـلَ القادسيّـة فـي الجـانبِ الغـربـيّ بيـنَ تكريـت وبغـداد عليـه كُـورةٌ عظيمـةٌ.

(وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٧)

الشّعراء[1] والأدباء؛ كما أنَّ حماتَها جهيزة[2] قد سجّلتْ أيضاً صفحاتٍ مفعمةً بالحركة في ميدان الفروسيّة.

* أمّا شبيبٌ ، فإنّه لما انهزمَ نجا في فوارسَ من أصحابه ، فاتّبعه سفيان الكلبيّ في أهل الشّام ، فلحقَه بالأهوازِ ، فولّى شبيب ، فلما حصل على جسْرِ دُجيل، نَفَر به فرسُه ، وعليه الحديد الثّقيل من درعٍ ومِغْفَر وغيرهما ، فألقاه في الماءِ ، فقال له بعضُ أصحابه : أَغَرقاً يا أمير المؤمنين؟

قال شبيب : ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس : ٣٨].

---

(١) ممَّن سجَّلَ بطولةَ غزالة في شعْره وبطولةَ زوجِها ، رجلٌ شاعرٌ من عَصْرِها كان يرىٰ رأيَ الخوارجِ ، واسمُه عِتْبانُ بنُ أُصيلة الحروريّ ، ويُقال عِتْبان بن وصيلَةَ ، وهي أمُّه ، وهي منْ بني محلّم ، وهو من بني شيبانَ من شَرَاةِ الجزيرة ، وكان عِتبانُ قد خرجَ أيَّامَ عبد الملك بنِ مروان ، ووقعَ بين يديه ، عفَا عنه؛ فقالَ عِتبانُ يخاطب عبدَ الملك ويذكرُ غزالةَ الحرورية وبعضَ فرسانِ الخوارجِ من قصيدةٍ بائية منها:

لعمري لقد نادى شبيب وصحبه ... على الباب لو أن الأمير يجيب
فأبلغ أمير المؤمنين رسالة ... وذو النصح لو تصغي إليه قريب
أتذكر إذا دارت عليك رماحنا ... بمسكن والكلبي ثم غريب

ومنها:

فلا صُلْحَ ما دامت منارُ أرضِنا ... يقومُ عليها مِنْ ثقيفَ خطيبُ
وإنَّك إنْ لا تُرضِ بكر بنَ وائل ... يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ
فإنْ يكُ منْهم كانَ مروانُ وابنهُ ... وعمروٌ ومنهم هاشمٌ وحبيبُ
فمنا سُويدُ والبطينُ وقعْنب ... ومنّا أميرُ المؤمنينِ شبيبُ
غزالةُ ذاتُ النَّذرِ منَّا حميدةٌ ... لها في سهامِ المسلمين نصيبُ
فوارسُنا مَنْ يلقَهم يلقَ حتْفَه ... ومن ينجُ منهم ينجُ وهو سليبُ

وعتبانُ بنُ وصيلة كنيتُهُ أبو المنهال ، ومعنى قوله: «من ثقيفَ خطيبُ»: يريدُ به الحجّاج بن يوسف الثقفي.

(٢) قال ابن خلكان: وكانت جُهيزةُ شجاعةً تشهدُ الحروبَ. . . وكان شبيبٌ قد ادّعى الخلافة.

* ثم إنَّ نهر دُجيل ألقاه ميّتاً في ساحِلِه(١) ، وذلك في سنة (٧٧ هـ) ، فَحُمِلَ على البريدِ إلى الحجاجِ بنِ يوسف ، فأمَر الحجاجُ بشقّ بطنه ، واستخراج قلبه، فاستُخرِجَ فإذا هو كالحجر، إذا ضُرِبَ به الأرض نبا عنها ، فشُقَّ فكان في داخله قلبٌ صغير كالكرة ، فشُقَّ ، فأصيب علقة الدم في داخله(٢) .

* قال الجاحظُ : كان شبيبٌ يصيحُ في جنباتِ الجيشِ إذا أتاهُ ، فلا يلوي أحدٌ على أحدٍ ، وقال الشّاعر فيه :

إِنْ صَاحَ يوماً حَسبْتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِراً والرّيحَ عاصفةً والموجَ يلتطمُ(٣)

* وكانتْ شخصيتُه مهيبةً ، قال بعضُهم : رأيتُ شبيباً وقد دخل المسجد وعليه جبّة طيالسة عليها نقط منْ أثرِ المطر ، وهو طويلٌ أشمط جعْدٌ آدم ، فجعل المسجدُ يرتج له(٤) .

* وهكذا عشْنا أويقاتٍ مع بطلةٍ فارسة عاشتْ على صهواتِ الجياد وماتتْ عليها ، ماتتِ البطلةُ الفارسةُ التي سطّرت في تاريخ الفروسيةِ النّسوية سُطوراً جميلة ، وكان مقتلُها في سنةِ (٧٧ هـ) .

* * *

---

(١) وردَ أنَّه كانَ شبيبُ ينعىٰ إلى أمه جُهيزةَ في وقائِعه ، فلا تُصدِّق ، حتّى بلغَها أنَّه قد غرِقَ في نهر دُجيل ، فسكتَتْ ، وقالت : الآن علمتُ أنَّه قد هلكَ ، فقيل لها : وكيف ذلك؟ فقالت : لأنّي رأيتُ عند حملي به أنَّ شِهاباً قد خرجَ منّي فبلغَ أقطار الأرض وعنان السَّماء، وليس يطفىءُ النَّار غير الماء ، فلذلك صدقْتُ بذهابه . !! . .

(٢) وفياتُ الأعيان (٢/ ٤٥٥) بتصرّف يسير؛ وفي النَّفسِ شيءٌ منْ هذه الرّواية ، وهذه القصّة ، ولعلّها منْ نسجِ الرّواة . والله أعلم .

(٣) البيان والتّبيين (١/ ١٢٨ و ١٢٩) . وقال ابنُ العِماد : وكانتْ شجاعتُه خارجةً أكثرَ ما يكونُ في مئةِ نفس فيهزمون الألوفَ . (شذرات الذهب ١/ ٣٧)

(٤) وفيات الأعيان (٢/ ٤٥٥) .




فاطمة بنت الخُرشب

* فارسة جمعت جميع ألوان الفروسية من الحكمة والفهم والقوة والنجابة ...
* من عاقلات النساء ، وسديدات الرأي ، وقويات الشخصية.
* كانت ذات ضيافة وسؤدد ومجد وشهرة.




المَرْأَةُ والفُروسيّةُ في عَصْر الجَاهِليّةِ:

* الفُروسيّة مظهرٌ منْ مظاهرِ الفتوةِ العربيّةِ دعتْ إليها الحياةُ التي كانَ العربُ يحيونَها في عَصْر الجاهليّةِ، والبيئةُ التي ينزلونَ فيها، والنّظامُ القَبَليّ الذي قامتْ عليه حياتُهم.... ومن هنا ظهرتْ نساءٌ اشتهرنَ بالحزمِ ومضاء العزيمة وقوّة السَّاعد.

* أمّا أخلاقُ الفُرسانِ في العَصْر الجاهليّ فهي كريمةٌ، فالفارسُ شجاعٌ، عزيزُ النَّفس، كريمٌ عفيفٌ، يحترمُ المرأةَ ويدافعُ عنها، ويجيرُ المستجير، ويعملُ على زرعِ كلِّ فضيلةٍ ترفعُ من شأنهِ وشأْنِ قبيلته.

* والفروسيّةُ ترتبطُ ارتباطاً قويّاً بالمكارمِ والخيرِ، وقد اختلطتْ بطولاتُ العربِ نساء ورجَالاً بمكارم أخلاقِهم، وقد عرفَ العربُ قديماً الفروسيّة في تقاليدِهم ومثُلِهم وحياتِهم، وصوّروها في آثارهم الأدبيّة من شعْرٍ ونَثْرٍ، وقد خلّفُوا لنا أدَباً وافراً وفيراً، يحملُ زَهْر ربا حياتِهم الجميلة في الفروسيّةِ والشَّجاعةِ والنَّجدةِ والمروءةِ والعقلِ المتَّزنِ، والخلقِ النَّبيل.

* ولعلَّ لفظةَ الفارسِ تُطْلَقُ على الرّجل الشُّجاع الذي أمضىٰ عمره في خوضِ غمارِ الحروبِ يشْري ويبيعُ، كيما يحقّقَ النَّصْرَ لقبيلته، أو أسرتهِ وعشيرتهِ الأقربين، وكيما يكتب لها الذّكْر الحميدَ والمآثرَ الحِسَان في سجلّ مفاخرِها، وديوان فَخْرِهَا وعزّها.

* ولكنْ ما دورُ المرأةِ في هذا المَجال؟!

* يمكننا أنْ نقولَ: إنَّ اتزانَ المرأةِ، وتصرّفَها الحسَنِ في بعضِ الأُمورِ، يدلُّ علىٰ فروسيّة خاصَّة بها، فعندما تكونُ في موقفٍ خاصّ،

وتتصرفُ بعقلٍ وحكمةٍ ، تكونُ قد حقَّقتْ شيئاً من الفروسيّةِ الحقّةِ ، فإذا احتاج الأمرُ إلى القوةِ والجلادِ ، كانت منَ الشَّجاعةِ والجرأَةِ بمكان.

* وأستطيعُ الآن أنْ أسْرَدَ لك أمثلةً عنِ المرأةِ المتميّزة الحصيفةِ العاقلةِ الحكيمةِ القائدةِ ، التي عاشتْ لمجتمعها الأُسَريّ الأصغر ، ولمجتمع قومها الأكبر في آنٍ واحد ، ووقفَتْ ندّاً إلى جانبِ الرّجُل ، أكانَ أباً ، أو زَوْجاً ، أو أخاً ، أو ابناً تجاذبُه سياسةَ الأسرةِ والعشيرةِ ، وولايةَ الأَمْر ، وجدَّ العمل ، وشؤونَ الحياةِ ، وهي التي سكنَ إليها ، واستكانَ أمامَ حكمتها وسلامة منطقها وحُلو كلامها ، وأحنىٰ الرّأْسَ أمام قوّةِ شكيمتها ، وثبات القيم الخلقيّةِ والاجتماعيةِ في ذهنها وقلبها؛ هذه المرأةُ التي فعلتِ الأفاعيلَ في العَصْر الجاهليّ لتقيمَ مجْدَ أسرتها وقومها من نُطْقٍ بالشِّعرِ في جميعِ فُنُونهِ ، وحثٍّ علىٰ القتالِ ، والأخْذِ بالثّأر ، ولو أدّى ذلك إلى فقدانِها مَنْ تحبّ مِنْ زوجٍ أو أخٍ أو وَلدٍ . .

* ولعلَّ خيرَ مثالٍ نسوقُه هنا شخصية أمِّ ندبةَ ـ أو أمّ قرفة ـ زوج حذيفةَ بنِ بدر ، وذلك عندما طالبتْ زوجَها بأخْذِ ثأرِ ابنها وقد قَتَله قيسُ بنُ زُهير العبسيّ في حربِ داحس والغبراء ، فقد قالت له بكبرياء وأنفةٍ:

أمَا تخْشَىٰ إذا قالَ الأعادي — حُذيفةُ قلبُهُ قَلْبُ البَنَاتِ
فَخُذْ ثأراً بأطرافِ العَوالي — وبالبِيْضِ الحِدَادِ المُرهفَاتِ
لَعَلَّ منيّتي تأتي سريعاً — وترميني سِهَامُ الحادثاتِ
أحبُّ إليَّ مِنْ بَعْلٍ جبَانٍ — تكُونُ حَيَاتُه أردىٰ الحيَاةِ

* وننتقلُ الآن إلى رحابِ فارسةٍ من نوعٍ خاص يختلفُ عمّنْ قرأْنَا في هذا السِّفْرِ من فارساتٍ ، حيث أظهرتْ جميع ألوانِ الفروسيّة من حكمةٍ وفَهْم وقوّةٍ ونَجَابةٍ وما شَابَه ذلك.

* هذه المرأةُ هي التي ربَّت الكَملةَ منَ الرِّجَالِ وزودتِ المجتمعَ بفضليات النّساء ، وصانَتْ شرفَ الأسرةِ ، وذادتْ عنِ القبيلةِ والقومِ بلسانِها وأعمالِها ، وثبتتْ للنَّوائبِ برباطَـة جأْش قد تفوقُ رباطةَ جأْشِ أقوى الرِّجال ، ونطقتِ الحكمةَ والمَثَلَ ، هذه المرأةُ هي فاطمةُ بنتُ الخُرشب الأَنْماريّة[1] ، إحدىٰ نساءِ عَصْرِ الجاهليّة اللواتي حلقْنَ في الفضَاء الرَّحْب في المكارمِ والشَّجاعةِ وسَداد الرّأي ، وإحدىٰ بنات الخُرشب المُنْجبات[2] .

مِـنْ عَـاقِـلاتِ الـنِّـسَـاءِ الـنَّـجيْبَـاتِ :

* سردَ أبو الفَضْل المَيْدَاني في «مجمعِ الأمثالِ» قائمةً لنساءٍ عُرِفْنَ بسَداد الرَّأي ومضاءِ العزيمةِ ، وقوّةِ الشَّخصيّة ، وحُسْنِ الأحدوثةِ فقال : كانتْ أم خارجةَ ـ عمرةُ بنتُ سعد بنِ عبد اللهِ ـ ، وماريةُ بنتُ الجُعيد العبديّة ، وعاتكةُ بنتُ مرة بنِ هلال بنِ فالح بنِ ذكوان السُّلمية ، وفاطمةُ بنتُ الخُرشب الأنماريّة ، والسَّوَّاءُ العنزيّة ثمّ الهزانيّة ، وسلمى بنتُ عمرو بنِ زيد بن لبيد أحد بني النَّجّار ، وهي أمُّ عبدِ المطلب بنُ هاشم؛ إذا تزوَّجَتِ الواحدةُ منهنَّ رجُلاً ، وأصبحتْ عنده ، كانَ أمرهَا إليها ، إنْ شاءَتْ

---

(١) أعلام النساء (٤/ ٤٨ ـ ٥٠) ، ومجمع الأمثال (١/ ٣٤٦) و(٢/ ١٣٣) و(٣/ ٤٠١) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/ ٥٧٤ و٦٣٦ و٦٤٨) و(٥/ ٥٥٤) ، والأغاني (١٦/ ١٩ و٢١) وديوان حاتم الطائي (عدة مواضع) ، والمحبر (ص ٣٦٩) ، وخزانة الأدب (٣/ ٧٧٨) و(٤/ ١٣) و(٧/ ٤٨٧ و٤٨٨) و(٨/ ٣٦٨ و٣٦٩) و(٩/ ٢١٣) ، والمرأة في التاريخ العربي (ص ٨٠ و٨٥ و٩٥ و٩٦ و١٥٠ و٢١٠ و٢٩٧). وغيرها كثير.

(٢) «بناتُ الخُرشب» : بناتُ الخُرشب ، يقال : إنَّهنَّ أنجبُ نِسَاءِ العربِ . والخرشبُ : لقبٌ ، واسْمُه : عمرُو بنُ نصر بنِ حارثةَ بنِ طريف بنِ أنمارِ بنِ بغيض بن ريث بنِ غطفانَ .

أقامَتْ ، وإنْ شاءَتْ ذهَبَتْ ، ويكون علامة ارتضائِها للزّوج أنْ تعالجَ له طعَاماً إذا أصْبَح[1] .

* إذاً ففاطمةُ هذه ، قسيمةُ هؤلاء النّسوة اللواتي عُرِفْنَ بالنَّجابةِ والعَقْل ، وهي واحدةٌ منَ النِّساء العربيّات اللواتي ضُرِبَ بهنَّ المثَلُ في الأمومَةِ الحقّة ، وفي النَّجابةِ الصَّحيحة ، فقيل: أنجبُ منْ فاطمةَ بنتِ الخرشب الأنماريّة[2] .

* ففاطمةُ بنتُ الخرشب هذه ، إحدىٰ النِّساء اللاتي كان أمرهنَّ إليهنَّ[3] ، وإحدى ثلاث نساء منَ العربِ الأقحاحِ عُرِفْنَ بالمنجبات ، وهنَّ: فاطمةُ بنتُ الخُرشب الأنماريّة ـ ضيفتنا وفارستنا اليوم ـ ، وقبلها حيّة بنتُ رياح الغنويّة أمّ الأحْوص ، وماويةُ بنتُ عبد مناة بن مالك .

---

(١) انظر: مجمع الأمثال (٢/ ١٣٣ و١٣٤) ، وثمار القلوب (ص ٣١١) .

(٢) مجمع الأمثال (٣/ ٤٠١) ، وانظر: تمثال الأمثال (١/ ٣٢٠) ، والمستقصىٰ (١/ ٣٨٣) ، وجمهرةُ الأمثالِ (٢/ ٢٥٨) .

(٣) منَ الواضحِ أنَّ الطَّلاقَ في الجاهليّةِ كانَ من حقِّ الرَّجُل ، ولكنَّ المرأةَ قد أعطيتْ حقّ خَلعِ نفسها منه بالاتّفاقِ معه على ترضيةٍ تقدّمها بعد مفاوضةٍ مع أهلها على مالٍ أو جعلٍ معيّن .
وهناك منَ النِّساء مَنْ جعلنَ أمرهنّ منذ زواجهنَّ ، إنْ شئنَ عشنَ أمرهنّ بأيديهنّ منذ زواجهنَّ ، وإنْ شئنَ تركْنَ معاشرتهم وأوقعْنَ الطَّلاق. وقد أخذنَ هذا الحقَّ بأنفسهنَّ لشرفهنَّ وقدرهنّ وحكمتهنَّ ، من مثل النّساء اللواتي ذكرناهن آنفاً .
قال الدكتور جواد علي عن الزَّواجِ في العصْر الجاهليّ: والعادةُ في أمْرِ الزَّواج بيدِ الأبويْن ، وليس للبنْتِ معارضة وليها الشّرعي في الزَّواج ، غيرَ أنَّ بعضَ بناتِ الأسر الشّريفة لم يكنَّ يقبلنَ بالزَّواج بأحدٍ إلا بموافقتهنّ ، فإلىٰ البنتِ يكونُ حقّ قبول الزَّواج أو رفْضهِ ، كما اشترطت بعضُ النّسوة أنهنَّ إنْ أصبحنَ عند أزواجهنَّ كان أمرهُنَّ إليهنّ ، إنْ شئنَ أقمنَ معهم ، وإنْ شئنَ تركْنَهم ، أي إنَّ حقّ الطّلاق بيدهنَّ ، وذلك لشرفهنّ وقدرهنّ ، ومنهنّ فاطمةُ بنتُ الخُرشب .
(المفصل في تاريخ العرب ٤/ ٦٣٦)

* وفاطمةُ هذه دُعيَتْ بالمنجبَة[1] ، لأنَّها ولدَتِ الكملةَ لزياد العبسيّ وهم: ربيعُ الكامِل ، وقيسُ الحفاظ ، وعمارةُ الوهّاب ، وأنسُ الفَوارس[2].

* قال قيسُ بنُ غالب البدريّ: ولدَتْ فاطمةُ بنتُ الخرشُب الكملةَ منْ عبس ، لم يُوجَدْ مثلُهم[3].

* وقال الأصفهانيّ: كانَ لفاطمةَ ثلاثةُ أبناءٍ يُعْرفُون بالكَمَلَةِ وهم: الرَّبيعُ ، وعمارةُ ، وأَنَس[4].

* وذكر ابنُ الكلبيّ عن أبي مسكين قال: كانَ يُقالُ للرَّبيعِ بنِ زياد: الكَامل ، ولعمارةَ أخيه: الوهّاب ودالق ، وقال فيه الفرزدق:

وهنَّ بِشِرْحَافٍ تَداركْنَ دَالِقاً عمارة عَبْسٍ بعدما جَنَح العَصْرُ[5]

---

(١) كانتِ العربُ لا تقولُ عنِ المرأةِ منجبةً حتى تنجبَ ثلاثةً. وقد ضُرِبَ المثلُ بكثيراتٍ من النّجيبات ، فقيل: أنجبُ منْ أمِّ البنين ، وهي ابنةُ عمرو بن عامر فارس الضّحياء ، وأنجبُ من خبيئةَ بنتِ رياح ، وأنجبُ من عاتكةَ بنت هلال السّلمية؛ وأنجبُ من ماريةَ بنتِ عبد مناة بن مالك الدّارمية ، ولدتْ حاجباً ولقيطاً ومعبداً بني زرارة بن عُدُس بن زيد مناة بن دارم.

(٢) مجمع الأمثال (٣/ ٤٠١) ، وكان ابنُها عمارة آلىٰ علىٰ نفسهِ ألا يسمعَ صوت أسيرٍ ينادي في الليلِ إلا افتكّه. (خزانة الأدب ٧/ ٤٨٨)

(٣) خزانة الأدب (٩/ ٢١٣).

(٤) الأغاني (١٦/ ١٩) طبعة مصر. وذكر ابنُ رشيق وغيرُه قال: تحدَّثَ أهلُ الأخبارِ عن جماعةٍ منَ الجاهليين ، قالوا إنَّهم عُرفوا بين قومهم بالكَملة... ومنهم الرّبيعُ بنُ زياد وإخوته ، وأمُّهم فاطمةُ بنتُ الخُرشُب. (العمدة ٢/ ١٩٧) و(المحبر ص ٣٩٨).

(٥) «شرحاف»: رجلٌ منْ بني ضبّة ، وهذا قد قتلَ عمارة يومَ أعيار ، وقد ذكرَ مقتله أيضاً ربيعةُ بنُ مقروم الضّبي حيث قال:

تركْنَا عمارةَ بينَ الرّماح عمارةَ عَبْس نزيفاً كليما

* قال ابنُ قُتيبة: وفاطمةُ بنتُ الخُرشب هي أمُّ ربيع بن زياد وإخوته العبسيّين الذين يُقال لهم الكَمَلة[1].

* ويظهر لنا أنَّ فاطمةَ هذه كان تفخرُ بأولادِها فَخْراً شَديداً، ومنَ الجديرِ بالذِّكْر أَنَّ الرَّجُل هو الذي يتبَاهىٰ بأولادِه الذّكُور، وقد أدركَ المجتمعُ العربيُّ الجاهليُّ قيمةَ الأولادِ، ولاسيما إذا كانَ المولودُ منَ الذّكورِ، فقد كان دعاءُ الوالدِ لابنتهِ عندما تغادرُ بيتَها للحَاقِ بزوجها:

أيْسَرتِ وَأَذْكَرتِ ولا أَنَّثْتِ، جَعَلَ اللهُ فيكِ عدداً وعزّاً وخلداً، أَحْسِني خلقكِ، وأكرمي زوجَك، وليكن طيْبكِ الماء[2].

* فكثرةُ البنين منَ المفاخرِ التي كان يعتزُّ بها أهلُ الجاهليّةِ، فهم نعمةٌ وسؤدُد لأسرتِهم وقبيلتِهم، فـ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، كَما ذكرَ ربُّنا عزَّ وجل ذلك في القُرآنِ الكريمِ. فَبِالبنينَ يُنالُ المالُ والحقُّ، ويؤخذُ بالثَّأْر، وبهم تُدافعُ القبيلةُ عن وجودِها، وبهم تزدادُ وسائِلُ العَيْشِ، وبهم تُغْزىٰ القبائلُ الأخرىٰ، وبهم حَصَل كثيرٌ منْ رجالِ الجاهليّة علىٰ الدَّعم، والشُّهرة السَّنيّة، والذِّكْر الحسَنَ، ومن هؤلاء «سَعْد العَشيرة» الذي لقِّبَ بهذا اللَّقب لأنَّه كانَ يركبُ في عشرةٍ منْ أولادِهِ الذّكور، فكأنَّه منهم في عشيرة.

* وضُرِبَ به المثلُ للرّجُلِ يستكثرُ بأبنائِه وعشيرته ويعززُ بهم ويقالُ: إنَّ الحارثَ بنَ سدوس كان له واحدٌ وعشرون منَ الأولادِ الذّكور.

* وكما كانَ الرَّجلُ عَصْرَ ذاك يتَباهىٰ بأولادهِ الذكور، فإنَّ المرأةَ أيضاً

---

(١) الشّعر والشّعراء (١/ ٣١٦)، وفاطمةُ أمّ هؤلاء هي أختُ سلمةَ بنِ الخرشب وله المفضّليتان (٥ و٦).

(٢) بلوغ الأرب (٢/ ٣).

كانت تفعلُ ذلك ، ولا سيما إذا كانُوا من ذوي البأْسِ والكرمِ والسَّجايا الرفيعةِ ، والذكْر النَّابه ، فالأولادُ قوّة لها ، كما هُم قوّةٌ للقبيلةِ ، ولذلك كان يُقالُ للمرأة التي تَلِدُ الأشْرافَ الكُرماء الذين لا يقلُّ عددهم عن ثلاثة : «منْجبة» أو «منْجاب» وتلقّب : «بأُمّ البنين» .

* ومن أشهرِ النّسوةِ المُنْجبات : ضيفتُنا فاطمة زوجة زياد العبسيّ أحد سادة قبيلة عَبْس ، وقد أنجبت له الكَملةَ ، وكانتْ فاطمةُ منْ أعلامِ نساء الجاهليّة بفصاحتها وعزّتها وقيمتها .

* ومن مشاهيرِ النّساءِ المنجِبات أيضاً أمُّ البنين ابنةَ عامر بن عمرو زوج مالك بن جعفر التي أنجبتْ له خمسةً منَ الأشرافِ الأسياد ، فاخترمَ المنون واحِداً منهم فلقَّبَتْ بأمِّ البنين الأربعة ، وأولادُها هم : ملاعِبُ الأسنّة ، وطفيلُ الخيْل ، وربيعُ المُقترين ، ونزالُ الضَّيف ، ومعوّدُ الحكَماء ، وقد قُتِلَ واحدٌ منهم ، وبأُمِّ البنين افتخرَ لبيد بن ربيعة الشَّاعر المشهور بين يدي النُّعمان بن المنذر حينما قال : نحنُ بنو أمِّ البنين الأربعة .

* ومنهنَّ : عاتكةُ بنتُ هلال السُّلميّة ، وقد أنجبتْ لعبد مناف بن قصيّ الجدّ الأبعد لرسولِ اللهِ ﷺ هاشماً وعبد شمس والمطلب .

* ومنهنَّ : ريحانةُ بنتُ معدي كِرب ، وقد ولدتْ للصِّمة بن عبد الله خمسة أبناء وهم : دريدُ بنُ الصِّمة الشَّاعر الشَّهير وسيّد قومه ، وعبدُ اللهِ ، وعبدُ يغوث ، وقيسُ ، وخالدٌ .

* ومنَ المُنجِبات : خبيئةُ بنتُ رياح الغنويّة التي ولدتْ لزوجِها جعفر بن كلاب العامريّ خالداً الأصبغ وهو أشجعُ مَنْ اشتهِرَ منْ فُرسانِ العرب[1] .

---

(١) انظر : بلوغ الأرب (١/ ١١٨ ـ ١٢٠) .

* ومن العجيبِ أنَّ فاطمةَ هذه كانت قد ربَّتْ أبناءَها على كلّ مكرمةٍ ، فتخرجُوا في مدرستِها على كلّ مكرمةٍ حتى غدتْ لا تفضِّلْ واحداً على الآخرِ، لأنَّهم متساوون في الفَضْلِ ، يتسابقون إلى النَّدىٰ والمكارم في حلبَةٍ واحدة، وكلّهم منَ السَّوابق ، وليس فيهم مَنْ يقصِّرُ أو ينكلُ عن مكْرُمة .

* ولهذا لما سُئِلَتْ أمُّهم فاطمةُ بنتُ الخُرشب عن خصالِهم وخصائِلهم وفضْلِهم ، وقيل لها : يا فاطمةُ ، أيُّ بنيك أفْضَل؟!

فقالت : الرّبيعُ ، لا ، بل قيسٌ ، لا؛ بل عمارةُ ، لا ، بل أنَسٌ ، ثكلتُهم إنْ كنتُ أدري أيُّهم أفْضَل(١) .

* وتروىٰ هذه الحادثةُ علىٰ النَّحو الآتي : لقيَ حَرْبُ بنُ أميّة ـ والد أبي سفيان ـ فاطمةَ بنتَ الخُرشب في بعضِ المواسمِ ، فقال : يا فاطمةُ! أيّ بنيكِ أفْضَل؟

قالت : الرَّبيعُ ، لا بل عمارةُ ، لا بل أنسُ ، ثكلتُهم إن كنتُ أدري أيَّهم أفْضَل ، هم كالحلقَةِ المُفْرغَةِ لا يُدْرىٰ أينَ طرفَاهَا(٢) .

* وقال أبو اليقظان : قيل لفاطمةَ بنتِ الخُرشب الأنماريّة ـ وقد سُئِلَتْ عن بنيها ـ : أي بنيكِ أفْضَل؟ .

فقالت : وعيشِهِم ما أدري ، إنّي ما حَملتُ واحداً منهم تصنُّعاً ،

---

(١) مجمع الأمثال (٣/ ٤٠٢) .

(٢) انظر : حاتم الطائي (ص/ ١٥٠) ، وخزانة الأدب (٤/ ١٣) . وأما رواية الأغاني ، فإنَّ عبدَ الله بنَ جُدعان قد لقيَ فاطمةَ بنتَ الخرشب وهي تطوفُ بالكعبةِ ، فقال لها : نشدتك بربّ هذه البنيةِ ، أي بنيك أفضل؟
قالت : الرّبيعُ ، لا بل عمارة ، لا بل أَنَسُ ، ثكلتُهم إنْ كُنتُ أدري أيُّهم أفضل .

ولا ولدتُه نبياً ، ولا أرضعتهُ غَيلاً ، ولا منعته قَيْلاً ، ولا أنمته ثئداً ، ولا سقيتُه هُدَبداً ، ولا أطعمتُه قَبْل رئة كَبِداً ، ولا أَبَتُّه علىٰ مأْقَةٍ[1] .

* ويظهرُ أنَّ منَ الأُسسِ الصحيّة التي كانتْ تعتمدهَا فاطمةُ بنتُ الخُرشب في تغذيةِ طفْلِها أنْ تعتمدَ علىٰ اللبنِ في تغذيتهِ الأولى أكثر منَ الماءِ والأطعمة الأخرى ، وألا يكون هذا اللبنُ فاسداً ، أو منَ النَّوع الخاثرِ الحامضِ ، كما أنَّها كانتْ تُدخِلُه تدريجيّاً في نظامِ أطعمته اللحوم ، لأنَّ فاطمةَ بنتَ الخرشب قالت : ما منعتهُ قَيْلاً ، ولا سقَيتهُ هدبداً ، ولا أطعمتهُ قبل رئة كبداً[2] .

---

(١) انظر : مجمع الأمثال (٣/ ٤٠٢). وقولها : «ثئداً» : أي : مقروراً ، «الهدبد» : الرثيئة من اللبن ، و«المأقة» : البكاء .

(٢) يبدو من قولِ فاطمةَ بنتِ الخرشب أنّه كان لديْها ولدى المرأةِ في عَصْرها معلومات مهمّة عن الحملِ ، وأفضلِ أوقاته ، اقتبستْها من تجاربِ أجيالٍ منَ النِّساء قبلها .
* ولهذا كان العربيُّ في العَصْر الجاهليّ يؤمنُ بأنَّ المرأةَ هي وعاءُ الولدِ ، أي : أنَّ لها أثراً كبيراً في تكوينهِ الخلقي ، ولذا فقد كانَ يبحثُ عن صحّة البنيةِ ، والعقلِ والأخلاقِ فيها ، وفي أسرتها ، ومن نصائح العربِ الجاهليين للرّجل : إذا تزوجتَ فاسأَل عن الغُصْنِ ومنبتِهِ .
وقال أكثم بن صيفي : المناكح الكريمة مدارجَ الشرف . (ثمار القلوب ص ٦٩١)
وقال أحدُ العربِ : لا أتزوَّجُ حتى أنظرَ إلى ولدي منها .
فقيل له : وكيف ذلك؟
قال : أنظرُ إلىٰ أبيها وأمّها ، فإنّها تجرّ بأحدهما .
وقال الجاحظُ : إنَّ العربَ تقولُ : عرقُ الخَال لا يُنال ، وهو أنزعُ منْ عرقِ العم .
ومن أقوالِ العرب إنَّه : لئيمُ الخال . ويمكن إرجاع اهتمامِ العربِ بعرقِ الخالِ وتباهيهم به علىٰ عرقِ العمّ لبقايا عَهْدِ الأمومةِ عندما كانت المَرأةُ في الحِقَب البعيدة هي مصدرُ النّسب ، ومرجعُ الأولاد ، وكان الخالُ هو صاحبُ النّفوذِ على الأولاد في عشيرة الأمّ . وبذلك انتسبت عدّةٌ منَ القبائلِ العربيّةِ إلى أمّهاتها مثل : خِنْدف ، وجُديلة ، ومُزينة ، وعاملة ، وعَفْراء ، وحبابة ، وغير ذلك كثير .

* وكانت فاطمةُ تهتمُّ بتغذيةِ أولادِها ، فقد استفادت من تجارِبِ المرأةِ التي سبقَتْها بعضَ الأسس في صحّة نمو عظامِهِ ونفسِه ، فكانت لا تنيمُه علىٰ أرضٍ نكدة ، ولا تجعلُه ينامُ باكياً حزيناً ، وقد وردَ على لسانِها ذلك ، وكانتِ العربُ تعيّرُ مَنْ قصَّرتْ أمُّهُ في بعضٍ منها وتسبُّه بِهِ[1] .

* ونحبُّ أنْ نسألَ القارىءَ الكريمَ ، فنقولَ : هل توجدُ نساءٌ في عَصْرِنا الحالي يدركْنَ تربيةَ الأطفالِ كما تدركهُ فاطمةُ هذه على الرغم من تقدّمِ العِلْم والطِّب؟!

* لا شكَّ أنَّه توجدُ بعضُ النّسوة ، ولكنْ ليس في المستوىٰ الرّفيعِ الذي ربَّتْ عليهِ فاطمةُ بنتُ الخرشب أولادَها!

* ولا يحسبنَّ القارىءُ الكريمُ أنَّنا نظلمُ النِّساء المعاصراتِ ، فهذه حقيقةٌ قد لا تخفىٰ على كثيرين ممن يرونَ المربيات من نساء هذا العَصْر .

* فالمَرأَةُ في العَصْرِ الجاهليّ كانتْ تُدرِكُ أُصولَ التَّربيةِ الحقّة لأولادِها ، فكان الأولادُ يدرجون علىٰ فضائل ظاهرة وتوجيهٍ صحيح .

* ولا نريدُ أنْ نتحدَّثَ عن المرأةِ بأنَّها الأمُّ فقط ، وإنَّما نتحدَّثُ عنِ المرأةِ بمفهومٍ عام وشامل ، ترتبطُ به ، فهي تقومُ مقامَ الأمّ ، والبنْتِ ، والأختِ ، والزَّوجة ، وأحياناً الحبيبة ، ومرّة الشَّاعرة ، والمحاربة ، حتى الأَمَة أو السَّبية أو المغنّية وغير ذلك .

* وقد رفدَنا تاريخُنا العربيُّ الوضيءُ في أعْصُرِهِ الأولى بروافدَ ثرّةٍ عن هؤلاء النِّساء ، وأعطانا صُوَراً متعدّدةَ الألوانِ لحياتهنَّ ، كما رسمَ لنا صُوَراً

---

(١) انظر : عيون الأخبار (١/ ٤٥٤) .

مشرِّفةً لبعضهنَّ كما صنعَ في ضيفةِ هذه الصَّفَحات فاطمة بنت الخُرشب الأنمارية[1].

* وقد اكتسبتْ فاطمةُ صفاتٍ نادرةً بينَ نساء عصْرِها ، حتى قيل عنها : كانت امرأة ذات ضيافةٍ وسؤدد[2].

* وقد تسنَّمتْ فاطمةُ ذِرْوَةَ المجدِ والشّهرة في عصْرِها ، وكانت من طبقةِ الأسياد ، حيث إنَّ زوجَها وأولادَها وعشيرتَها من عليةِ القوم. ومنَ الطَّبيعي أنَّ فاطمةَ قد تركتْ صغارَ أعمالِ المنزلِ الرّتيبةِ إلى الإماء ، وانصرفَ ذهنُها إلىٰ أمورٍ أعمق وأرفعَ ، فربَّتِ الكمَلَةَ منَ الرِّجال ، وأقرّ لها مَنْ يعرفها بسلوكها وتهذيبها وقوّة شخصيّتها.

مَكَانَتُها ومَنْزِلَتُهَا:

* كانتْ فاطمةُ بنتُ الخرشب إحدىٰ نساء العَصْر الجاهليّ اللواتي أبدعنَ في رسمِ صورة المرأةِ العربيّة في الأَعْصرِ الخوالي في أجملِ الحُلل ، تنمُّ عن مكانةِ المرأةِ في عَصْرِها ، وبين قومها ، بل وفي الجزيرةِ العربيّة.

---

(١) إنَّ قوّةَ شخصيّة المرأةِ الجاهليّة منْ مثلِ فاطمةَ بنتِ الخرشب ، وبروزَها في المجتمع لا تستمدّها منْ رجُلِها إذاً ، وإنّما منْ أساسيّاتٍ كامنةٍ في ذاتِها ، واستعدادَات ذهنيّة متفوّقة ، ثم يأتي الدّعمُ الاجتماعيُّ والاقتصاديُّ من الأُسْرةِ.
* ومهما يكنْ منْ أمْرٍ فإنَّ المرأةَ الجاهليّة الحرّة قد عاشتْ للشَّدائدِ أكثر ممّا عاشتْ للتّرفِ والرَّخاء ، وكانت تحبُّ العملَ ولا تشكو قَسْوتَه ، وكانتْ ذات إباءٍ وعزّة وكبرياء ، ومثُلٍ خلقيّة واجتماعيّة نبيلة ، وترفضُ الضَّيم والاستكانةَ ، صريحةَ القَولِ ، حرّة التّفكير ، تتحمّلُ المسؤوليّة ، قويّة ، وتثبتُ هذه القوة في أبنائِها الرّجال ، وفي بناتِها وزوجِها ومجتمعِها.

(٢) ديوان حاتم الطائي (ص ١٥٠) ، وخزانة الأدب (٨/ ٣٦٩) طبعة بيروت.

* وإذا أحببنا أنْ نستعرضَ منزلةَ فاطمةَ بنتِ الخرشب ومكانتها ، لألفيناها ساميةً في غالبِ الأحيان ، فهيَ من ذواتِ الفصَاحةِ واللّسان ، والذَّكاء والحصَافةِ وعزّة النَّفس[1] ، فقد كان أولادُها يستشيرونَها في غالب الأحيان ، في السِّرِّ والعلانيّة ، وفي كثيرٍ من أمورِهم ، وكثيراً ما كانوا يحتكمون إليها ، كيما يأخذوا برأيها ، ويهتدوا بمآثرِها وكلماتِها .

* لقد احتلّت فاطمةُ بنتُ الخرشب مكَاناً رفيعاً في سدّةِ نساءِ القوم ، فقد كانت مدارَ حياةِ زوجها زياد بن عبد الله العبسيّ ، ومكانَ شرفهِ ، وحمى وطنهِ ، وكانت مكانتُها ومنزلتُها تتناسبُ مع الخدماتِ الجليلةِ التي تؤدّيها وخصوصاً في تربيةِ أولادِها علىٰ مكارمِ ومحامدِ الأخلاق، ناهيكَ بالواجباتِ التي كانت تقومُ بها من لَسَنٍ وشجاعةٍ وفصاحةٍ وعفّةٍ وشرف .

* وقد أهّلَتْها هذه الأهميّةُ لأنْ تكونَ في مكانةٍ مرموقةٍ محمودةٍ من قِبَل نساء قومها ، ورجالِ العشيرة ، ولذا فقد كان أولادُها الكملةُ الأربعةُ يفخرونَ بها أشدَّ الفخر ، ويموتون دونَها لأنَّها امرأة تستحقُّ الثَّناء والذِّكْرَ ، فهي صاحبةُ رأي وإرادةٍ ، وأنفةٍ ورفْعَةٍ ، وربَّتْ أبناءَها على هذهِ الخصائِل حتى شبُّوا عنِ الطَّوقِ ، وفاقُوا غيرهم في حسْنِ الرّأْي .

* وتذكرُ المصادرُ أنَّها ولدتْ سبعةً من زياد بنِ عبد الله العبسيّ ، فعدَّتِ العربُ المنجبين منهم ثلاثةً أو أربعةً وهم خيارهم ، ولذلك سُئِلَتْ فاطمةُ عن بنيها مرّاتٍ ومرّاتٍ ، وكلّ مرةٍ تجيبُ إجابةً كريمةً جميلة .

* وسئلت ذاتَ مرّة عن بنيْها[2] وعن صفاتِهم ، فوصفتهم فكان ممّا

---

(١) لم يؤثرُ عن المرأةِ العربيّة في العصر الجاهلي استخذاء ، وتخاضع ، وإنّما كانت كالرّجل شمَماً وإباءً واعتزازاً بالكرامةِ ، واعتداداً بالنَّفس .

(٢) اشتهرَ كلُّ واحدٍ منهم بميزةٍ لزمتْهُ ، وعُرِفَ بها ، وهم يسمّون الكملةَ ويُقال لقيسٍ =

قالَتْ في الرّبيع: لا تُعَدُّ مآثِرُهُ، ولا يخشىٰ في الجهْل بوادرُهُ.

* وقالت في أنسٍ: إذا عزمَ أمضىٰ، وإذا سُئِلَ أرضىٰ، وإذا قَدِرَ أغضىٰ. وقالت في الآخرين أشياء لم تُحْفَظْ عنها[1].

قوّتُهَا وحُسْنُ تَدْبيْرِهَا:

* لئن كانت فاطمةُ بنتُ الخرشب أمّ المنجبين، لقد كانت هي نفسُها نجيبةً حسنةَ التَّدبير، قوّيةَ الشّكيمةِ، كادت تبطشُ ذات يوم برجلٍ، ثمّ إنَّها رأتْ أنْ تصفحَ عنه لئلا تسوءُ سمعتها بين نسوةِ العرب.

* روتِ المصادرُ أنَّه قد ضافَ فاطمةَ بنتَ الخرشب ضيفٌ منَ العربِ، فطرحَتْ عليه شملةً من خزّ مفعمة بالمسك والعِطْر، فلما وجدَ الضَّيفُ رائحةَ المِسْك، ـ وكان الليلُ قد أرخىٰ سدولَه ـ دنا منها، فصاحَتْ به: ويحك! فكَفَّ عنها.

* ثمَّ إنَّه بعد قليلٍ تحرّك أيضاً فأرادَهَا عن نفسِها، فصاحَتْ به، فكفَّ ورَجَعَ.

* ثمَّ إنَّه لم يصبر فواثبَها، فبطشَتْ بهِ، فإذا هي من أشدّ النَّاسِ، فقبضَتْ عليه قبضةً شديدةً، ثمَّ صاحَتْ: يا قيس، فأَتَاهَا، فقالت: يا بني، إنَّ هذا أرادني عَنْ نفسي، فما ترىٰ فيه؟!

* وفكَّر قيسُ قليلاً ثمَّ قال: يا أمّي، أخي عمارةُ أكبرُ مِنِّي فَسَلَيْهِ عن

= أيضاً: البرد؛ ولأنس: الواقعةَ، ولهم ثلاثةُ إخوة لم يبلغوا مبلغَهم منَ الشهرة وهم: الحارثُ وهو الحرون، ومالكُ وهو لاحق، وعمرو وهو الدّارك.
إذاً، فأولادُ فاطمة هم: الرَّبيعُ، وعمارةُ، وقيسُ، وأنسُ، والحارثُ، ومالكُ، عمروُ، فهؤلاء سبعةٌ أمهم فاطمةُ، وكانوا منْ نجباءِ العرب.

(١) عن أعلام النّساء (٤/٤٨) باختصار وتصرف.

هذا يخبرك، فنادتْ فاطمـةُ: يا عمارة، فـأتاها مُسرعاً، فذكرتْ ذلك له.

فقال لها: يا أمّاه، السَّيفُ؛ ثمّ أرادَ قَتْلَه.

* وهنا ظهرتْ فاطمةُ في حكْمتِها وفروسيتها الصَّحيحة فقالت: يا بني؛ لو دعونا أخاكَ الرَّبيع، فهو أكبرُ منك.

فدعتِ الرَّبيعَ فذكَرتْ له ذلك.

فقالَ الرَّبيعُ: أفتطيعونَني يا بني زياد؟.

قالوا: نَعَمْ يا ربيع، فأنْتَ أكبرنَا وأعلمُنا وأحلمُنا.

قال: إذاً، فلا تُزنُّوا أمَّكم، ولا تقتلُوا ضيفَكم، وخلُّوه يذهب إلى حالِ سبيله، فامتثل جميعُهم رأْيَه، ورأوا فضل أمّهم بذلك، وعرفُوا سَعَةَ عقْلِها[1].

ولقصة فاطمة مع الضَّيف شكلٌ آخر عند ابن الكلبيّ عن أبي مسكين، واسمهُ جعفر بن المحرز قال:

* نزلَ بها رجلٌ منَ العربِ، فأطعمتْه وسقتْه وفرشَتْه، فلمّا كانَ في بعض الليل لمْ يفجأْهَا، أو لم تشعرْ به، إلاَّ وقد أخذَ برجلِهَا، فركضَتْه برجلها وقالت: ويحك! مالك؟ قال: مالي والله، إنّك أطعمتِ وسقيتِ وفرشتِ، فأردتُ أنْ أنالَ منك.

قالت: قمْ، فإنَّك أحمقُ.

فقام، ثم قالَ في نفسه: لا بدَّ من أن تمتنعَ أوّلاً.

فقام، ثمَّ دنا فأخذَ برجلها.

فقالت: مالَك!

---

(١) انظر: أعلام النِّساء (٤/ ٤٩) بتصرّف يسير.

قال: هو ذاك.

قالت لجواريها: خذْنَه.

فأخذنه، فشددنه كِتافاً حتّى أصبحَ، فلما أصبحتْ ـ قال: وكان بنوها الأربعة مُطْنبينَ حولَها، وكانتْ إذا دعَتْ رجلاً منهم أقبلَ وبيده السَّيف ـ بعثتْ إلىٰ عمارة، وكان أكبرهم، فقالت: ما تقولُ في رجلٍ ضافَ أمّك الليلة فأطعمتْه وسقَتْه وفرشته، ثمّ راودَها عن نفسِها؟.

فوثَبَ مغضباً إلى الرّجل، فقال: أقتُله.

فقالت: انصرفْ. فلمْ يراجعْها الكلامَ حتّى انصرفَ.

* ثمَّ بعثَتْ إلى قيس، فقالتْ له مثل مقالتها لعمارة، فقال مثل مقالته، فقالت: انصرفْ.

* ثمَّ بعثتْ إلىٰ أنسٍ، فقالَتْ له مثلَ مقالتِها لأخوَيْهِ، فردَّ مثلَ مقالهما، فبعثَتْ إلىٰ الرَّبيعِ، وكان أصغرهم، فقالَتْ لهُ مثْلَ مقالتها لإخْوتهِ، فقال: واللهِ إنَّكِ لتعلمينَ ما الرّأي فيه.

قالت: ومَا الرّأيُ فيه؟!

قال: الرّأيُ ـ والله ـ أنْ يُكسىٰ ويكرَّمَ ويحملَ، فواللهِ لو أصبحَ قتيلاً لقالتِ العربُ: فَجَرَ بأُمّهم فقتلوه، واللهِ ما لنا أختٌ، ولا ابنةُ عمٍّ قريبة.

قالت: فديتك! أنتَ واللهِ الكامِلُ، قُمْ إليهِ فاكْسُه واحملهُ وخلِّ سبيلَه.

ففعلَ، ثمَّ خرجَ حتّى أبرزَه منَ الحيّ، فقال: اذهبْ يا ملأَمَان[1]

---

(١) «الملأمان»: اللئيم.

فأخبرِ العربَ ما رأيتَ منْ فاطمةَ بنتِ الخرشبِ[1].

* وقد اكتسبَ بنوها بفضلِها سمعةً عظيمةً عند أكابرِ القومِ وأعليائِهم عَصْر ذاك ، فقد كسبُوا ثناءَ حاتمِ الطَّائي الشَّاعرِ الفارسِ الجوادِ المشهور ، حيث خلعَ عليهم حُللاً منَ المعاني السَّاميةِ ، والكلماتِ الخالدة التي جعلتْهم مع أُمِّهم فاطمةَ من مشاهيرِ الزَّمان.

* وقصّةُ ذلك ما رواهُ هشامُ بنُ محمّد بنُ السَّائب الكلبيّ ، عن أبي مسكين قال: جاور حاتم طيء في زمنِ الفَسَاد ـ وكانت حربُ الفَساد في الجاهليّة بين جديلة والغوث ـ بين زياد بن عبد الله من بني عبس ، فأحْسَنُوا جواره ، فقال:

لَعَمـرِكَ مَـا أضَـاعَ بنـو زيـادٍ ... ذِمَـارَ أبيهـمُ فيمَـنْ يضيـعُ

بنـو جنِّيَّـةٍ وَلَـدتْ سُيـوفـاً ... صـوارمَ كلّهـا ذَكَـر صنيـعُ

وجـارتُهُـمْ حَصَـانٌ مـا تُـزنّـي ... وطـاعمـةُ الشِّتـاء فمـا تَجـوعُ

شَـرَىٰ ودِّي وتكْـرِمَتـي جميعـاً ... لآخـرِ غـالـبٍ أبـداً ربيـع[2]

---

(١) ديوان حاتم الطائي (ص ١٥١ و١٥٢).

(٢) انظر: ديوان حاتم (ص ١٤٧ و١٤٨). و«بنو جنّيّة»: كانتِ العربُ إذا بالغت في الصّفة بالشّهامة أو بالحُسْن جعلتْه من الجنّ ، كأنّه خارجٌ عن حدِّ الآدميين. وقال التّبريزي: ويُروىٰ بنو حنية: الحَنّ: قبيلةٌ من الجنّ ، وبنو حنّ: حيّ منْ قُضَاعة ، وهو حنُّ بنُ درّاج ، منْ أخوالِ قُصيّ بن كلاب ، وكما جعل الأمّ جنية لخروجها فيما أَتَتْ به عن المعتاد من الإنسِ جعلَ الأولاد سُيوفاً قواطعَ كلّهم. و«الصّنيع»: السّيف الصّقيل المجرّب. و«جارتهم»: قال ابنُ الكلبي: جارتُهم يعني أمّهم. و«حصَان»: عفيفة ما تُقْذَفُ بالزّنى. و«شَرىٰ ودي»: اشترىٰ ودّي. وشريتُ الشّيء: بمعنى اشتريت وبعتُ جميعاً. و«لآخر غالب» ، مَنْ يبقى من عقبِهم ، وغالب بنُ قطيعة بن عَبْس.

حَسْـبُكَ مِـنْ شَـرٍّ سَمَاعُـهُ:

* إذا ذُكـرتِ النِّسـاءُ الفَصيحـاتُ ذوات البـلاغـةِ والخطـابِ ، فـإنَّ فاطمةَ بنتَ الخُرشب الأنماريّة واحدة ممن ذُللتْ لها قطوفُ البلاغةِ تذليلاً ، وواحدةٌ من ربّات الفَصَاحةِ وضَرْبِ الأَمْثَال؛ فقد كانَ لها كلماتٌ سائراتٌ في النِّساء مجرىٰ الأمثالِ ، وقد قالَتْ قبلَ موتِها بلحظات أربعَ كلماتٍ أرسلَتْها مثَلاً وهي: حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُه(١) .

* قال أبو عُبيد: أخبرني هشامُ بنُ الكلبيّ أنَّ المثَلَ لأُمِّ الربيعِ بنِ زياد العبسيّ ، وذلك أنَّ ابنَها الرَّبيعَ كان أخذَ من قيسِ بنِ زهير بنِ جذيمة درعاً ، فعرضَ قيسٌ لأمِّ الرّبيعِ وهي علىٰ راحلتها في مسيرٍ لها ، فأراد أنْ يذهبَ بها ليرتهنَها بالدّرع .

فقالت له: أينَ عَزَبَ عنك عقلُكَ يا قيس؟ أترىٰ بني زياد مُصالحيكَ وقد ذهبتَ بأمِّهم يميناً وشمالاً؟! وقال النَّاسُ ما قالوا وشاؤوا؟ وإنَّ حَسْبَك مِنْ شرٍّ سماعهُ؛ فذهَبَتْ كلمتُها مَثَلاً(٢) . تقولُ: كفىٰ بالمقَالةِ عاراً وإنْ كانَ

---

(١) المعنى: اكتفِ منَ الشَّرِّ بسَماعِهِ ، ولا تُعاينه ، أو يكفيك سَماع الشّرّ ، وإنْ لم تُقدم عليه ، ولم تُنسَبْ إليه ، وهذا المثَلُ يُضرَب عند العار ، والمقالة السّيئة ، وما يُخاف منها .

(٢) نلحظُ منْ خلالِ هذه القصّة مَسْعَى المرأة الإيجابيّ للسّلام وقطْعِ دابر الخُصُومة والعَداء بالمنطقِ والكلمةِ ، ولاحظْنا كيفَ استحيا قيسٌ وتركَها.
ومنَ الجديرِ بالذكر أنَّ قيسَ بنَ زهير كان زوجاً لابنة الرَّبيعِ بن زياد ، وقد ظهرَ مْن ذكاءِ الجُمانةِ بنتِ قيس وحبِّها للسَّلام ، ما سجلَتْه لها يَدُ التَّاريخِ بأحرفٍ كبارٍ واضِحَة .
ففي الوقتِ ذاتهِ انطلقَتِ الجمانةُ بنتُ قيس بن زهير إلى جدّها أبي أمِّها الرّبيع بن زياد بعد أن استأذنَتْ أباها وقالتْ له: دعْني أناظِر جدّي ، فإنْ صلحَ الأمرُ بينكما ، وإلا كنتُ منْ وراءِ رأيكَ ، فأذن لها ، فأتتْ جدّها الرّبيع فقالتْ لهُ: إذا كان قيس =

باطِلاً ، فعرفَ قيسُ بنُ زُهير ما قالَتْ له ، فخلّى سبيلَها ، وأطردَ إبلاً لبني زياد ، فقدمَ بها مكّةَ فباعَها من عبد الله بنِ جُدْعانَ معاوضةً بأدراع وسيوف[1].

* وقالت بعضُ النِّساء الشَّواعر ، وهي عاتكةُ بنتُ عبد المطلب :

سَــائِــلْ بنَــا فــي قــومنَــا وليكْــفِ مــنْ شــرّ سَمَــاعُــهُ[2]

* ولكنَّ الأصفهاني يزعمُ أنَّ فاطمةَ لم تقبلِ الدَّنيَّة والعارَ ، فقذفتْ بنفسِها منْ علىٰ ظَهْرِ البعيرِ وماتَتْ .

* فقد أوردَ الأصفهاني أنَّه في يومٍ أغارَ حَمَلُ بنُ بَدْرٍ الفزاريّ على بني عَبْس ، وهي القبيلةُ التي تنتهي إليها فاطمةُ ، فأسرهَا ، فلما أخذَ بخطام البعير ، وابتعدَ بها عن الحيّ وأهله ، صاحَتْ به ، وطلبت منه تركها ، لأنَّ النَّاسَ سيقولون في هذهِ الحال ما شاؤوا؛ فَردَّ عليها : إنّي أذهبُ بك حتّى ترعي إبلي . فلمّا أيقنت أنَّه ذاهبٌ بها ، رمَتْ بنفسِها على رأسها منَ

= أبي فإنّكَ يا ربيعُ جدّي ، وما يجبُ له من حقّ الأبوّة عليّ كالذي يجبُ عليكَ من حقّ البنوّة لي ، والرّأيُ الصَّريحُ تبعثُه العنايةُ وتجلى عن محضهِ النَّصيحة ، إنّك ظلمتَ قيساً بأخْذِ درْعهِ وأجدُ مكافأته إيّاك سوء عزمهِ ، والمعارضُ منتصرٌ ، والبادي أظلمُ ، وليس قيسٌ بمن يخوّفُ بالوعيدِ ، ولا يروعه التّهديد ، فلا تركننَّ إلى منابذته ، فالحزمُ في متاركَتهِ ، والحربُ متلفةٌ للعباد ، ذهّابةٌ بالطارفِ والتّلاد ، والسّلْم أرخىٰ للبال ، وأبقى لأنفسِ الرّجالِ ، وبحقّ أقول : لقد صدعتُ بحكم وما يدفعُ قولي إلا غيرُ ذي فَهم ، ثمّ قالت :

أبـي لا يَـرىٰ أنْ يتـركَ الـدّهـرُ دِرْعَـه وجدّي يرىٰ أنْ يأخذَ الدِّرع منْ أبي
فــرأي أبــي رأي البخيــل بمــالِــهِ وشيمـةُ جـدّي شيمـة الخـائـفِ الأَبـي

فرقَّ جدُّها ، وردَّ الدّرعَ إلى أبيها وتصافيا . (بلاغات النساء ص ١٢٥)

(١) خزانة الأدب (٨/ ٣٦٨ و٣٦٩) ، وجمهرة الأمثال (١/ ٢٧٩) .

(٢) مجمع الأمثال (١/ ٣٤٦) ، وأعلام النساء (٤/ ٥٠) مع الجمع .

البعيرِ ، فماتَتْ خوفاً منْ أنْ يلحقَ ببنيها عارٌ فيها[1] .

* وهكذا كانتْ فاطمةُ بنتُ الخرشب شجاعةً حتى آخر لحظةٍ منْ حياتها ، وبذلك رسَمَتْ لكلّ النِّساء من بعدها طريقَ العفّةِ والكرامةِ والشَّجاعةِ . . .

* * *

---

(١) الأغاني (١٦/ ٢١) بتصرّف يسير . وعلىٰ الرّغمِ منَ المعاملةِ المُثْلىٰ التي قدْ يطبّقُها الآسرُ علىٰ أسيرته ، فإنَّ السَّبي يبقىٰ عاراً على المرأةِ وقبيلتها ، ولذا فإنّها إذا كانتْ مشاركة في القتال تسعىٰ للفرار إذا اتّضحَ لها انهزام قومها حتّى لا تقع سبيّاً ، وإذا ما وقعتْ فإنّها كانت تبذلُ كلَّ ما في وسعها من حيلٍ للخلاص مما هي فيه ، ولاسيما إذا كانت وفيّةً مخلصةً لقبيلتها وأسرتها ، بل إنَّ بعضهنَّ كنَّ يفضلنَ الموتَ على السَّبي ، كما فعلتْ فاطمة بنت الخرشب.




ليلى بنت طريف

* من نساء الخوارج الشراة، الصابرات على حَـرِّ النزال.
* شُجاعة، شاعرة، رَثَتْ أخاها الوليد بن طريف بعد مقتله.
* قادت جيشاً ضد خصومها بعد مقتل أخيها.




مِنْ فَارِسَاتِ عَصْرِهَا:

* هذه المرأةُ نَشأتْ والفروسيّة في قَرَنٍ واحدٍ ، وكانتْ من نساءِ العربِ في العَصْرِ العبّاسي ، اللواتي لم يدعْنَ للرجال خلّةً من خلالِ الفضائل يستأثرن بها من دونهنّ ، ولم يتركْنَ سبيلاً من سُبُلِ العظائِم ، ولا مشرفاً من مشارفِ المكارم ، إلا كُنَّ السَّابقات له ، المبادرات إلى غايتهِ ، حتى لقد جاذَبْن الرّجال حَبْل البسالةِ والفروسيّةِ والبطولةِ ، واصطلينَ نيرانَ الحرب ، وكُنَّ ممن ملكْنَ عنانها في بعضِ الأحايين والأوقات.

* ولقد عُرفتْ في تاريخنا نساءٌ غشينَ الحربَ ، وانتضين السُّيوف ، وخضْنَ المعامع ، وأظهرنَ من مكنونِ بطولاتهنّ الأعاجيبَ ، عندما رجفتْ قلوبُ بعضِ الرّجال من هولِ المعاركِ وشدّة الوقائع وشراسةِ الحروب.

وها نحنُ أولاءِ اليوم نعيشُ أويقاتٍ حلوةً مع فارسةٍ من فارساتِ العرب الشّهيرات ، وامرأةٍ من نساءِ العرب المحارباتِ ، خطَّت اسمَها بسيفها بينَ الفُرسان ، إنّها ليلىٰ بنتُ طريف الشَّيبانية[1] ، أختُ الفارسِ البطلِ القائدِ الثّائرِ الوليدِ بنِ طريف الشَّيباني الخارجيّ.

---

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢ ـ ٣٤) ، وديوان الخنساء (ص ١٧٣ و١٧٤) طبعة دار التراث بيروت (١٩٦٨ م) ، والحماسة البصرية (٢/ ٩٧) ، وقطوف الريحان (ص ٢٤٨ ـ ٢٥١) ، وحماسة البحتري (ص ٤٣) ، وسمط اللآلي (٢/ ٩١٣) ، ومعاهد التنصيص (٣/ ١٦٣) ، وشاعرات العرب (ص ٣٧٤ ـ ٣٧٧) ، وشذرات الذهب (٢/ ٣٤٩) ، ومرآة الجنان (١/ ٣٨٥) ، وأعلام النساء (٤/ ٣١٨ ـ ٣٢٠) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٤٧٩ و٤٨٠) ، والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٢/ ١١٨ و١١٩). والعقد الفريد (٣/ ٢٦٩) ، وكتاب الصناعتين (ص ١٦٥) ، والأغاني (١٢/ ١١٣ ـ ١١٧ و١٢١) وحماسة البحتري (ص ٢٧٦ و٢٧٧) ، وديوان الخنساء (ص ١٧٣ و١٧٤).

* وليلى بنتُ طريف هذه تسمّى الفَارعة ، وقيل فاطمة ، وقيل سلمىٰ بنتُ طريف بن عامر ، بيد أنَّ ليلىٰ أشهرُ الأسماءِ في المصَادر المعتمدة[1] .

* ولم تكنْ نشأةُ ليلى مثل نشأةِ الفتيات اللواتي عشْنَ في ظلٍّ البيوت ، وتنعَّمنَ بالدّيباج والحُلي والحُلل ، وتضِمَّخْنَ بفتيتِ المسْكِ ، وكُنّ نؤوماتِ الضّحى ، بل كانت واحدةً منَ البناتِ والنّساء اللواتي عشْنَ ممتطياتٍ صهوات الجياد ، وممن لبسْنَ الدِّرْعَ ، وشهرن السّيوف ، وحملنَ عوالي الرّماح ، وهنّ غير هيّابات ولا وجِلات ولا رِعْديدات .

* وكانت ليلى منْ نساءِ الخوارجِ الشَّراة ، والخوارج كما هو معروفٌ في التّواريخِ منْ أعظمِ الأحزاب ـ التي ظهرتْ في القرنِ الهجريّ الأوّل ـ شهرةً بالبأسِ وشدّة الصَّبر على حرِّ النّزال ، وفداءِ العقيدة بكلّ شيء ، وأوّل فداءٍ عندهم فداء النّفس ، لذلك كانت بطولاتُهم مثارَ الإعجابِ ومبعث التّقدير على الرغمِ من فساد آرائهم ومذهبهم .

* وكانتْ نساءُ الخوارجِ يتشبهنَ برجالهنَّ في مجالِ الشَّجاعة والفروسيّة ، وكُنَّ يشتركْنَ في الحروبِ ، ويقاتلنَ ويدافعنَ دون وَجَلٍ أو خوف ، بل كانت بعضُهن تبيعُ حليها وتشتري السّلاح كي تقاتلَ به أعداءها ، وتدافعَ به عن عقيدتها ، وتفخرَ بذلك على بنات جنْسِها .

* ومن المثير حقاً أنْ نجد بعض النّساء الخارجيّات يبعن ما يمتلكنه من ذهبٍ وأساورَ ، ومن ثمّ يشترين سيفاً ويتدربن على فنونِ القتال ، وأنت تعلمُ ـ عزيزي القارىء ـ مكانةَ الحليّ والذّهب عند النّساء ، وأنّه عندهن من أغلىٰ الأشياء ، ولكنّا نجدُ مريمَ امرأة أبي حمزة الخارجيّ والتي

---

(١) الحماسة البصرية (٢/ ٩٧).

اشتهرتْ بلقبِ الجُديْعَاء تبيعُ سوارَيْها ، وتشتري سيفاً عضْباً تدافعُ فيه عن عقيدتها ، فاسمعْ إلى الجديعاء ترتجزُ وتقول وتفتخرُ بما صنَعَتْ:

أَنَــا الجُــدَيْعَــاءُ وبنْــتُ الأَعْلَــمْ   مَنْ سَأَلَ عَنْ اسْمي فاسْمي مريَمْ

بِعْــتُ سِــوَاريَّ بِعَضْــبِ مخْــذَمْ

* ولهذه الأسباب كان عُبيدُ الله بنُ زياد شديدَ الغيظِ منهنّ ، كثيرَ الحنقِ عليهنّ ، لأنَّهنّ كُنَّ يلهبنَ قلوبَ الرّجالِ ، ويزرعْنَ الحماسَ في نفوسِ الأبطالِ ، فتزدادُ شجاعتهم وتزدادُ جرأتهم ، ويجتهدون في قتالِهم ، لذلك أقسَم ابنُ زياد بأغلظِ الأيمان لئن سمعَ بخارجيّةٍ أو ظفَر بها ، لينزلنَّ بها أشدَّ العذابَ ، وليجعلنها عبرة لغيرها ممن تسوّلُ لهنَّ نفوسهنَّ بالحماسة والقتال.

* وكانتْ منَ المجتهداتِ منَ الخوارجِ امرأةُ تدعىٰ البَلْجاء[1] ، وكان أمرها قد نُمي إلى ابنِ زياد ، وعُرِفَ أنَّها على رأي كبارِ الخوارج وكبارهم ، وأنّها بلغتْ مبلغاً عظيماً في علْمِهم ، كما بلغه أنَّها تودُّ الجهادَ في صفوفهم ، فعزمَ على قتلها.

* وعلمَ بذلك مرداسُ بنُ حدير أبو بلال ـ وكانتِ الخوارجُ تعظّمهُ ، وكان مجتهداً كثيرَ الصَّواب في لفْظِه ـ ، فانطلقَ إلى البلجاءِ وقصَّ عليها القَصَصَ وقال: يا هذه ، استتري ، فإنَّ ابنَ زياد قد ذكرَك ، ولا آمنُ عليكِ منْ بطشِه ، فاخرجي إنّي لك منَ النَّاصحين.

* ولكنَّ هذه المرأةَ العنيدةَ الثَّابتةَ التي لا تخافُ زياداً ولا أبَاه ،

---

(١) «البلجاء»: الأبلجُ منَ الرجال: الذي ليسَ بمقرونِ الحاجبَيْن ، والمرأةُ بلجاء ، وقال ابنُ الأعرابيّ: البَلَجُ: ابْيضاضُ ما بينَ الحاجبَيْن ونقاؤُه؛ رجلُ أبلجُ ، وامرأة بلْجاء ، والاسم: البُلْجَة.

ولا أحداً قالت له في ثباتٍ وغَرارٍ ورباطةِ جأْش: والله يا أبا بلال، ما أحبّ أنْ يُعَنَّتَ إنسانٌ بسببي، فإنْ يأخذني ابن زياد فهو أشقىٰ له.

* وبعثَ عبيدُ الله بن زياد فأتي بالبلْجَاء، فوجدَها أشدّ ثباتاً من الرّجال، ولم تأْبَه بهِ ولا بمن حولَه، فاستشاطَ غيظاً، فقطعَ يديها ورجلَيْها، ورمىٰ بها في السُّوق[1].

* وممن سجّلَ التاريخُ النَّسوي بطولاتِها غزالةُ الحرورية وحماتها أمُّ شبيب بن يزيد الشَّيباني، ومن غرائب التَّاريخ أن تجتمعَ الحماةُ والكِنّةُ على رأْي، وكان لهاتَيْن المرأتين غناءٌ وبلاءٌ في حروبِ الصُّفْريّة ومعارِكهم.

لَـيْـلَىٰ وَأَخُـوهَـا الـوَلِيْـدُ:

* تدلُّ أخبارُ ليلىٰ بنت طريف الشَّيبانيّةِ التي وصلَتْ إلينا ـ على الرّغمِ منْ ندرتها ـ أنَّها كانتْ منَ الفروسيّة علىٰ جانبٍ عظيم، وكانتْ تركبُ الخيلَ وتقاتلُ وعليها الدّرع والمغْفَر؛ ويبدو أنَّها تعلَّمت ألوانَ الفروسيّة منْ أخيها الوليدِ بنِ طريف فارسِ الخوارج، فقد كان أخوهَا الوليدُ بقيّة أبطالِ الخوارج الذين خرجوا على الخُلفَاء، وروّعُوا جنْدَهم، وحطَّمُوا كتائِبهم، واستشرىٰ خَطَرُهم.

* وتحكي الأخبارُ أنَّ الوليدَ بنَ طريف الشَّاري[2] كان أحدَ الشُّجعانِ الطُّغَاة الأَبْطالِ، وأحدَ الفُرسانِ المارقين على هارون الرّشيدِ، وكانَ رأسَ الخوارجِ ورئيسَهم، وكان مقيماً بنصيبيْنَ والخابور[3]، وتلك النَّواحي،

---

(١) انظر الكامل (٣/ ١١٧٣ و١١٧٤) بشيء من التصرف.

(٢) «الشَّاري»: بفتح الشّين، هو واحدُ الشُّراة، وهمُ الخوارجُ، وإنّما سُمُّوا بذلك لقولهم: إنّا شَرينا أنفُسَنا في طاعةِ الله، أيّ بعنَاهَا بالجنَّةِ حينَ فارقْنا الأئمةَ الجائِرة. (وفيات الأعيان ٦/ ٣٤).

(٣) «الخابور»: نهرٌ معروفٌ، أوّله منْ رأْس عَيْن، وآخرهُ عند قَرقيسْيَا، يصبُّ في =

وبغىٰ بغياً شديداً ، وجمع كثيراً منَ النَّاسِ حولَه ، حتى أخافَ تلك البقاعِ والأصقاعِ ، وخيفَ شرّه ، بحيث كانَ سكّان ضواحي بغداد لا يأمنون نزولَه إليهم وغاراته عليهم.

* قالَ الأصفهانيّ في «أغانيه»: كان الوليدُ بنُ طريف الشّيباني رأسَ الخوارج ، وأشدّهم بأساً وصولةً وأشجعهم ، فكان مَن بالشَّماسيّة[1] لا يأْمَنُ طروقَه إيّاه ، واشتدَّتْ شوكتُه وطالت أيّامُه[2].

* وكانت ليلىٰ ـ على ما يظْهر لي ـ ترافقُ أخَاهَا الوليدَ في حروبهِ وغاراتِهِ ، وتقتبسُ من أفعالِهِ وفروسيّته ، وتحاكيهِ في ذلك حتى غَدت ممن يُشْهَدُ لها بالشَّجاعةِ والإقدامِ في ميدانِ الجلاد والنّزال.

* وخرجَ الوليدُ على هارون الرشيد ، وأمْعَنَ في جندِه فتكاً وقتْلاً ، وكلّما أرسلَ إليهِ الرّشيد فرقةً وجنوداً ، شتَّتهم الوليدُ ، وجعلَهم كأمْسِ الدَّابر ، وكانوا أمامَه كأكْلَةِ الرّأْسِ ، حتى أعيا الرّشيدَ أمْرُهُ ، وباتَ منه على قَلَقٍ عظيم ، فالوليدُ قريبٌ من مقرّ الخلافةِ العبّاسية ، وقد التفَّ حولَه خلْقٌ عظيم ، فقد عُرِفَ الوليدُ بأنَّه منْ أشدِّ الفُرسان بأْساً وصولةً.

* واشتدَّتْ شوكةُ الوليدِ بنِ طريف ، وطالت أيّامه ، وكثرَ أعوانُه ، فوجَّه إليهِ موسى بن حازم التّميميّ ، فلم يثبتْ أمامَ الوليدِ بل هزمَه وقَتَلَه ،

= الفُرات ، وعلىٰ هذا النّهر مدنٌ صغَارٌ تشبهُ الكبار في عمارةِ بلادِها ، وفي أسواقِها ، وكثرةِ خيراتها.

(١) «الشّماسيّة»: منسوبةٌ إلى بعضِ شمّاسي النّصارى ، وهي مجاورةُ لدار الرّوم التي في أعلىٰ مدينةِ بغداد ، وإليها يُنْسَب بابُ الشّماسية ، وفيها كانت دار معزّ الدولة أبي الحُسين أحمد بن بُويه ، وفرغَ منها في سنة (٣٠٥ هـ) (معجم البلدان ٣/ ٣٦١) باختصار.

(٢) الأغاني (١٢/ ١١٥).

وشتَّتَ جنودَه ، فرجعوا وهم يرتجفون من شدّة ما لا قوةُ في بلادِ الجزيرةِ من صولةِ وهيبةِ الوليد.

* وعندها طارَ صيتُ الوليدِ في الآفاق ، وكثرت جموعُه ، وظهرَ ظهوراً كبيراً ، فوجَّه إليهِ الرشيدُ أحدَ الأشدّاءِ الأبطالِ ، وأحدَ الفرسان الشّجعان وهو مُعَمّرُ بنُ يحيى العبديّ ، فسارَ حتى بلغَ بجنودِه نصيبين ، وتلك النَّواحي ، ونازلَ الوليد ، وكانت بينهما وقائعُ كثيرة في ناحيةٍ دارا[1] من ديارِ ربيعة؛ ولكن معمر لم يفلحْ هو الآخر في القضاءِ على شوكةِ الوليدِ بنِ طريف وأعوانهِ.

* واستشرىٰ خطرُ الوليدِ ، وعظُمَ أمرُهُ ، وكثرُ شرُّه ، وعندها عجمَ الرشيدُ عيدانَه ، فوجدَ أنَّ أصلبَها عُوداً ، وأمرَّها مَذَاقاً الأعرابيَّ يزيدَ بنَ مزيد الشَّيباني ، فقال: ليس لها إلا هذا الأعرابي يزيد ، فرمىٰ الوليدَ بهذا الفارسِ والقائدِ العملاق ، فسارَ إليه يزيدُ ، و كان الوليدُ قد تسمّى بأميرِ المؤمنين[2] ، فظهرَ عليه يزيدُ ، وقتَلَه بالخابور أيّام الرشيد.

وذكرَ الأصفهاني قصّة مقْتَل الوليد وكيف قَتَله يزيد فقال: فوجَّه إليه الرشيدُ يزيدَ بنَ مزيد الشَّيباني ، فجعل يقاتلُه ويماكرهُ ، وكانتِ البرامكةُ منحرفةً عن يزيدَ بنِ مزيد ، فأغروا به أميرَ المؤمنين ، وقالوا: إنّما يتجافىٰ عنه للرّحم ، وإلاّ فشوكةُ الوليدِ يسيرة ، وهو يواعدهُ وينتظرُ ما يكون من

---

(١) «دارا»: بلدةٌ في لحفِ جبلٍ بينَ نَصيبين ومادرين ، وهي منْ بلادِ الجزيرة ، ذات بَساتين ومياه جارية ، وعندها كانَ معسْكرُ دارا بين دارا الملك بن قبّاذ الملك لما بقي الإسكندرَ المقدوني فقتلَه الإسكندر ، وتزوّج ابنتَه ، وبنىٰ في موضعِ معسكرِه هذه المدينةَ وسمّاها باسمه.
(معجم البلدان: دارا).

(٢) سمط اللآلي (٢/ ٩١٣) ، وكان الوليد ينشد ويقول ليزيد:

ستعلـم يـا يـزيـدُ إذَا التقيْنَـا ... بشـطّ الـزّابِ أيّ فتـىً تكـونُ

أمرِهِ. فوجَّه إليه الرّشيد بكتابٍ مغضبٍ يقول فيه: لو وجَّهتْ بأحدِ الخدمِ لقامَ بأكثر ممّا تقومُ به، ولكنَّك مداهنٌ متعصِّبٌ، وأميرُ المؤمنين يقسمُ باللهِ لئن أخّرتَ مناجزةَ الوليدِ ليوجِّهنّ إليك مَنْ يحملُ رأْسكَ إلى أميرِ المؤمنين.

* فلقيَ الوليدَ عشيّة خميس في شهرِ رمضانَ، فيقال: إنَّ يزيدَ جُهِدَ عطشاً حتى رمىٰ بخاتمهِ في فيْهِ، فجعلَ يلوكه ويقولُ: اللهم إنَّها شِدَّةٌ شديدةٌ فاسْتُرها؛ وقال لأصحابهِ: فِداكم أبي وأمّي، إنّما هي الخوارجُ ولهم حَمْلةٌ، فاثبتُوا لهم تحتَ التِّراس[1]، فإذا انقضتْ حملتُهم فاحملوا؛ فإنّهم إذا انهزمُوا لم يرجعوا. فكان كما قالَ، حملُوا حملةً وثبتَ يزيدُ ومَنْ معه من عشيرته وأصحابِه، ثمَّ حملَ عليهم فانكشَفُوا.

* ويُقال إنَّ أسدَ بنَ يزيد كان شبيهاً بأبيه جدّاً، وكان لا يفصلُ بينهما إلا المتأمّل؛ واتّبع يزيدُ الوليدَ بنَ طريف فلحقَه بعد مسافةٍ بعيدة فأخذَ رأْسَه، وكان الوليدُ خرجَ إليهم حيثُ خرجَ وهو يقولُ:

أنَا الوليدُ بنُ طريف الشَّاري قسورةٌ لا يُصْطَلى بنَاري
جُوركُمُ أخرجَني منْ دَاري[2]

* وذكروا أنَّ يزيدَ بنَ مزيد لما اصطفَّ الجيشان بارزَ الوليد، وتطاردا ساعةً، وكلّ واحدٍ منهما يظهرُ من بسالتهِ وثباتهِ وألوانِ فروسيّته ما حيَّرَ الجيشان والفُرسان والشُّجعان، ومضىٰ على تشابكهما ساعات منَ النَّهار، إلى أنْ سنحَتْ ليزيدَ فرصةٌ منَ الوليدِ، فضربَ رِجْلَه فَسقَطَ، ونادى يزيدُ أصحابَه، فجاؤوا مسرعين، وأجْهَزوا على الوليدِ واحتزّوا رأسه.

ويروى أنّ جيشَ الوليد قد انكسرَ، وانهزمَ أمام جيوشِ يزيدَ بنِ مزيد،

---

(١) «التِّراس»: جمْعُ تُرس بالضَّمّ، وهو صفحةٌ من الفولاذ مستديرة، تُحْمل للوقاية منَ السَّيف ونحوه. والتّترُّس: التَّستُّر بالتّرس. (لسان العرب ٦/ ٣٢).

(٢) الأغاني (١٢/ ١١٥ و١١٦).

فانهزمَ الوليدُ ، وتبعه يزيدُ بنفسِهِ حتّى لحقَهُ على مسافةٍ بعيدةٍ فقتلَه ، وأخذَ رأْسَه ، وأرسلَه إلى الرَّشيدِ ، ومعه كتابُ الفَتْح ، والنَّصرِ على الخوارجِ ، فَسُرَّ الرّشيدُ بذلك سُروراً عظيماً ، وأحسنَ إلى الفارسِ البطلِ يزيدَ بنِ مزيد بعد رجُوعه وأكْرَمَه[1] .

* وكان مقتلُ الوليد بنِ طريف في سنة (١٧٩ هـ) في خلافةِ هارون الرَّشيد .

* ولكنْ ما حال أخْتهِ ليلى بنتِ طريف ، وأينَ كانت عند مقتلِ أخيها؟! هذا ما ستجلُوه لنا السُّطور التَّاليات ؛ حيث نتعرفُ أنباءَ بطولتِها وأخبارِها .

لَـيْـلَىٰ وَقيَـادَةُ الجَـيْشِ :

* كانَ الرِّجالُ والفرسانُ وما يزالون في غابرِ العُصور ، وفي كلّ أُمَّة ينهضون بأعباءِ الحروب ، ولقاءِ الصَّناديدِ ، وهم يحملون أرواحَهم على راحاتِهم ، ويلقون بها في مهاوي الرَّدى بين أشفارِ السُّيوف وأسنّة الرّماح .

* وكان المعروفُ والمتعارفُ عليه عندَ العربِ المحاربين أنّه قد كُتِبَ القتلُ والقتالُ على الرّجال ، وعلى الغانيات وربّات الحجالِ جرّ الذّيول ، فإنْ شاركْنَ في الحربِ ، فإنّما يقمنَ بما تطيقهُ الأنثى من تحميسِ الرّجال وبذرِ الإقدامِ في نفوسهم ، وتضميدِ جراحاتهم ، وإطعامهم وسقايتهم وتقديم ما يحتاجونه في حربِهم .

* ولكنَّ بعضَ النِّساء قد خَرجْنَ عن هذهِ القاعدة ، وحاربنَ كما يحاربُ الرِّجال ، بل أدرْنَ قطبَ الحربِ أحياناً ، وكُنَّ القائداتِ لجيشٍ كثيفٍ منَ الفُرسان .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (٦/ ٣٣) و(٦/ ٣٢٨ و٣٢٩) بتصرف يسير .

* وهذا ما كان من فارسةِ الخارجيّات ليلى بنت طريف ، فقد كانتْ ليلى ذاتَ همّةٍ كبيرة ، فبعد أنْ قُتِلَ أخوها الوليد سنة (١٧٩ هـ) خلفَتْه على قيادةِ جنْده ، ثمّ إنّها صبّحتِ القومَ في اليومِ التّالي وعلى جَسَدِها الدّرعُ ، ولأمَةُ الحربِ ، وعدّةُ حربها كاملة[١] ، وكانت منَ الفروسيّة على جانبٍ عظيم ، وجعلتْ تحملُ بجندِ أخيها على جندِ الرَّشيد ، وأطبقتْ عليهم حتّى خلعَتْ قلوبَهم ، ومزَّقَتْ أوصالَهم ، وأظهرتْ من شجاعتِها ومن فروسيّتها ما أدهشَ القوم وقالوا : إنَّ الوليدَ بنَ طريف قد قُتِلَ أمسِ وانقبرَ ، وليست هذه إلا أختُه ليلى ، لأنَّ فعلَها بفعله أشبهُ ، وهي تشابهُهُ بالفروسيّة ، وشدّة البأس! . . .

* وكادَ الوهنُ يدبُّ في جيشِ يزيدَ بنِ مزيد ، حتى إذا أبصرَ ذلك ، وتأكّد منْ أنَّها ليلى ، صاحَ بجنودِهِ وقال لهم : اتركوها .

* ثمّ إنَّ يزيدَ بنَ مزيد خرجَ إليها ، فضربَ بالرّمحِ مؤخّرة فرسها ، وقال : اغرُبي غرّبَ الله عينَك ، فقد فضحتِ العشيرة[٢] ، فاستحيَتْ ليلى وانصرفَتْ ، ونفسُها تسيلُ حسراتٍ على أخيها الذي جنْدلَه يزيد بن مزيد الشَّيباني ، وجعله كأَمْسِ الدَّابر[٣] .

* وقد سجَّلَ هذا الانتصار ليزيد على الوليدِ مسلمُ بنُ الوليد صريع الغَواني فقال من قصيدةٍ لاميّة مشهورة منها :

يفترُّ عنْدَ افترارِ الحربِ مبْتَسماً   إذا تغيَّر وجْهُ الفارِسِ البَطَلِ

---

(١) قالَ الأصفهاني : فلمّا وقعَ فيهم السَّيف ، وأُخِذَ رأسُ الوليد ، صبّحتهم أختُه ليلى بنتُ طريف مستعدّةً عليها الدّرعُ والجوشنُ ، فجعلتْ تحملُ على النّاس فَعُرفَتْ ، فقال يزيدُ : دعوها . . ثمَّ خرج إليها . . . . (الأغاني ١٢/ ١١٦).

(٢) يريدُ عشيرةَ بني شَيبان التي ينتسبُ إليها كلّ من يزيد والوليد والفارعة .

(٣) انظر : وفيات الأعيان (٦/ ٣٣) ، والدر المنثور (ص ٤٧٩) مع الجمع والتصرف .

يكْسُو السُّيوفَ رؤوسَ النَّاكثينَ بهِ ... ويجعلُ الهامَ تيجانَ القَنا الذُّبلِ
اسلمْ يزيدُ فما في المُلك منْ أَوَدٍ ... إذا سلمْتَ ولا في الدِّينِ منْ خَلَلِ
لولا دفَاعُك بأْسَ الرُّومِ إذْ مكَرتْ ... عن بيضةِ الدِّيْن لم تأمَنْ من الثَّكَلِ
والمارقُ ابنُ طريفٍ قد دلفْتَ له ... بعــارضٍ للمنَــايــا مُسْبــل هَطــلِ
لـو أنَّ غيـرَ شـريكـيٍّ أطـافَ بـهِ ... فازَ الوليدُ بقدحِ النَّاضلِ الخصلِ
مَا كَانَ جمعُهُم لما دلفْتَ لهم ... إلاّ كمثـلِ جـرادٍ ريـعَ منْجَفـلِ[1]

* وعادتْ ليلىٰ إلىٰ خدْرِها ، وأقامتْ بعدَ ذلك بنجوةٍ عن العيون تبكي أخَاهَا الوليد بمراثٍ تستنزفُ العَبَراتِ، وتستثيرُ الزَّفَرات، وتركت عدّةَ الحربِ والفروسيّة ، وركنت إلى أنفاسِ أشعارها لعلَّها تَجِدُ فيها سلوةً عن أخيها.

* ولكن ما منْ شكّ في أنَّ اشتراكَ ليلىٰ بنت طريف الشَّيبانية في الحربِ ، وقتالها جنود الرَّشيد بقيادةِ فارسِ الأبطالِ الشّدادِ يزيدَ بنِ مزيد ، لدليلٌ علىٰ شجاعتها ، وتشوقها إلى انتصارِ جماعتها ، كما أنَّ ذلك لدليلٌ على سموّ مكانتها بينَ الفُرسَان ، فهي جديرةٌ بأنْ تشاركَ الرِّجال في كسْبَ النَّصْرِ ، والدّفاعِ عن عقيدتها ، ولو أنّها لم تكنْ جديرة بالمشاركةِ في هذا العمل الخطيرِ ، ما سمحَ لها أخوها الوليد ، ثمّ جماعته من بعد بأنْ تشاركَهم فيه ، وتظهرَ بسالتها وشجاعتها.

* ولعلَّ إعجابَ ليلىٰ بالفرسانِ الشُّجعان ، وإشادتها بالبطولةِ والأبطالِ ، وحرصَ المقاتلين على نيلِ إعجابها وثنائِها ، دليل علىٰ عظيمِ أثرها ، وعلو قَدْرِها.

---

(١) انظر: الأغاني (١٢/ ١١٨ و١١٩) والقصيدةُ طويلةٌ في ديوانِ صريع الغواني أيضاً وهي منْ غُرر مدائحِه ، ومعنى: «يفترّ»: افترَّ: أبدىٰ الأسنانَ عند الضَّحك؛ وافترارُ الحرب: شدّتها وقوتها. و«أَوَد»: عِوج. و«شريكيّ»: نسبة إلى شريك جدّ من أجدادِ يزيد بن مزيد. و«النّاضل»: المصيب. و«الخصل»: المصيب.

* إلا أنَّ الظُّروفَ التي أحاطَتْ بليلىٰ ، جعلتْها ـ فيما بعد ـ قعيدةَ البيتِ ، ترسلُ الأنّات المُوجعَات ، ونفثاتِ صدرها ، وتعبيرات وجدانها ممّا جعلَها من شواعر العربِ اللواتي يجدنَ الشّعر ، كما كانتْ منَ المقاتلاتِ ممن يجدنَ الفروسيّة والنّزال.

لَـيْـلَىٰ وَرِثَـاء أَخِـيْـهَا :

* أثَّرَ مقتلُ الوليدِ بنِ طريف في أختِه ليلىٰ وأثار شجونَها ، فلزمَتْ بيتَها وقرَّتْ فيه ، بيد أنَّ عواطفَها الجيّاشة لم تقرَّ في نفسِها ، حيث كانَتْ تتسلّى بالشِّعْرِ ، إذ كانتْ تجيدُهُ ، وهي إحدىٰ شواعر العرب في الدَّولة العباسيّة ، فقد كانت شاعرةً بليغةً تجيدُ صوغَ الكلامِ ، وتملكُ ناصيةَ البيانِ ، وراحتْ تسلكُ سبيلَ الخنساءِ ، وتتشبَّه بها في مراثيها لأخيها صَخْر ، فرثتْ ليلى أخاهَا الوليدَ بقصائدَ ومقطَّعات ، أجادَتْ فيها فنَّ الرّثاء.

* ومنْ أجملِ القصائدِ النّسائية في فَنّ الرّثاء في عصرِها ، قصيدةُ ليلىٰ بنتِ طريف الفائيّة في رثاءِ أخيها ، وهي قصيدةٌ في غايةِ الجمَالِ والانسيابِ ، والحرارةِ الصَّادقةِ ، وتزيدُ عن عشرينَ بيتاً.

* يقولُ ابنُ خَلِّكان عن ليلىٰ وقصيدتها: وكان للوليد أختٌ تجيدُ الشّعر ، وتسلكُ سبيلَ الخنساء في مراثيها لأخيها صخر ، فرثتْ ليلى أخاهَا الوليدَ بقصيدةٍ أجادَتْ فيها ، وهي قليلةُ الوجود ، ولم أجدْ في مجاميعِ كتبِ الأدب إلا بعضَها ، حتى إنَّ أبا عليّ القالي ، لم يذكرْ في أماليهِ سوى أربعةِ أبياتٍ ، فاتَّفقَ أنّي ظفرتُ بها كاملةً فأثبتُّها لغرابتها مع حُسْنِها[1].

* وقد أوردَ ابن خَلِّكان قصيدة ليلىٰ كاملةً وهي عنده (١٨ بيتاً) ، بيد

---

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢).

أنّني بحثتُ في مصادرَ كثيرةٍ ومتنوعة فوجدتُ أنَّ القصيدةَ تبلغُ (٢٤ بيتاً)[1]، وهناك بعضُ الأمور والاحتمالات حتى تضخَّمتِ القصيدةُ، ومنها: أنَّ بعض المغرمينَ بهذهِ القصيدة قد زادَ في أبياتها، أو أنَّ ابن خَلّكان لم يطّلعْ فيما وقعَ بين يديه من كتُبٍ علىٰ هذه القصيدة كاملة، وربّما تكون هذه القصيدة أكثر منْ هذا العَددِ، إلا أنَّ يدَ الدَّهر قد عَدَتْ عليها، كما عَدَتْ على أخيها الوليد، على أنَّني حاولتُ قَدْر الطَّاقةِ والجهدِ أنْ أرتّبَ القصيدة، لأنَّ ترتيب أبياتها يختلفُ منْ مصدرٍ لآخر، والقصيدة قد أصبحت على الشَّكل الآتي:

بِتَـلٍّ نبـاتـى رسْـمُ قَبْـرٍ كـأنَّـه ... علـى جَبَـلٍ فـوقَ الجبَـالِ مُنيـفِ
تضمَّـنَ جُـوداً حـاتميـاً وسُـؤْدُداً ... وهمَّـــة مِقْـــدامٍ ورَأْيَ حَصيـــفِ
ألا قاتلَ اللهُ الجُثَا حيثُ أَضْمَرتْ ... فتـىً كـانَ للمعْـروفِ غيـرَ عَيُـوفِ
خفيف على ظَهرِ الجَوادِ إذَا عَدا ... وليْـسَ علـى أعـدائِـه بخفيـفِ
فـإلّا تُجبْنـي دِمنَـةٌ هـيَ دونَـهُ ... فقَدْ طَالَ تَسْليْمي وَطَالَ وقُوفي
وقد علمَتْ أنْ لا ضَعيفاً تضمَّنَتْ ... إذَا عظُمَ المُزري ولا ابنَ ضَعيفِ
فتـىً لا يلـومُ السَّيـفَ حيـن يهُـزُّه ... إذَا مَا اخْتَلىٰ منْ معْصَمٍ وصَليْفِ
فتىً لا يحبُّ الزَّادَ إلّا منَ التُّقى ... ولا المـالَ إلّا مـنْ قنـاً وسُيـوفِ
ولا الخَيْلَ إلا كلَّ جَرْدَاءَ شَطْبَةٍ ... وأجـردَ ضَخْـمَ المنكبَيْـن عَطُـوفِ
فلا تَجْزَعَا يا بنَيْ طَريفٍ فإنّني ... أرىٰ المـوتَ نـزَّالاً بكـلِّ شَـريـفِ
فَقَـدْنَـاهُ فُقْـدانَ الـرَّبيـع وليتَنـا ... فـديـنـاهُ مـنْ سـاداتِنـا بـألُـوفِ
ومَا زَالَ حتَّى أزْهَقَ الموتُ نَفْسَه ... شَجـىً لعـدوٍّ أَوْ لَجَـاً لِضَعيْـفِ
حليفُ النَّدى ما عاشَ يرضى بهِ النَّدى ... فإنْ ماتَ لا يرضىٰ النَّدى بحليفِ
فـإنْ يـكُ أرْدَاه يـزيـدُ بـنُ مـزْيـدٍ ... فـربَّ زُحُـوفٍ فضهـا بِـزُحُـوفِ

---

(١) انظر: حماسة البحتري (ص ٢٧٦ و٢٧٧).

فَيَا شجرَ الخابُور ما لَكَ مُورِقاً ... كأنَّك لَمْ تَجزَعْ علىٰ ابنِ طريفِ
أَلا يـا لَقَـومٍ للحِمـامِ وللبِلـىٰ ... ولـلأرضِ همَّـتْ بعـدَه بـرَجُـوفِ
أَلا يـا لَقَـومٍ للنَّـوائـبِ والـرَّدَى ... ودهـرٍ مُلـحّ بـالكِـرام عنيـفِ
وللبدرِ منْ بينِ الكَواكِبِ إذْ هوىٰ ... وللشَّمْـس همَّـتْ بَعْـده بكُسـوفِ
ولِلَّيْث فوقَ النَّعشِ إذْ يحملونَه ... إلـى حُفْـرةٍ مَلحُـودةٍ وسُقـوفِ
بكـتْ تغْلِـبُ الغَلبـاءُ يـومَ وفـاتِـهِ ... وأُبْـرِزَ منهـا كُـلُّ ذَاتِ نصيـفِ
يقُلـنَ وقَـدْ أَبْـرزْنَ بعْـدَك للـورىٰ ... معـاتـدَ حَلـيٍّ مِـنْ بُـرىً وشنـوفِ
كأنّكَ لمْ تشهدْ مِصَاعاً ولم تَقُمْ ... مقـاماً علىٰ الأعـداءِ غيـرَ خَفيفِ
وَلَـمْ تَشْتَمِـلْ يـومَ الـوغـىٰ بكتيْبَـةٍ ... ولَمْ تَبْدُ في خَضْراءَ ذاتِ رفيفِ
دِلَاصٍ تَرَىٰ فيها كُدُوحاً منَ القَنَا ... ومـنْ ذُلُـقٍ يُعْجِمْنَهـا بِحُـرُوفِ
وطَعْنَةِ خِلْسٍ قد طعَنْتَ مُرِشَّةٍ ... علـىٰ يَـزَنـيٍّ كـالشّهـابِ رعُـوفِ
ومـائِـدةٍ محمـودةٍ قـد عَلَـوْتَهـا ... بـأَوْصَـالِ بُختـيٍّ أحـزَّ عَليـفِ
عَلَيـهِ سَـلامُ اللهِ وقْفـاً فـإنّنـي ... أرىٰ الموتَ وقّاعاً بكُلِّ شَريفِ(١)

---

(١) انظر: شاعرات العرب (ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦)، ووفيات الأعيان (٦/ ٣٢ و٣٣)، والدر المنثور (ص ٤٧٩ و٤٨٠)، وديوان الخنساء (ص ١٧٣ و١٧٤)، ومعاهد التّنصيص (٣/ ١٦٠ و١٦١)، والأغاني (١٢/ ١١٤ و١١٥)، وكتاب الصناعتين (ص ١٦٥)، والحماسة البصرية (٢/ ٩٧)، وحماسة البحتري (ص ٢٧٦) مع تقديمٍ وتأخيرٍ في الأبيات، وتكْرارٍ في بعضِ أنْصافِ الأبيات.
ـ وهذه هي القصيدةُ الفائيّة الجميلةُ التي استمتعْنَا بقراءتِها، والتي تنمُّ عَنْ شاعرية عذبة قوية.
ـ إلّا أننا نشكُّ أنْ تكونَ القصيدة جميعها منْ إنشاءِ ليلى بنت طريف، ولعلَّ ليلى قد نظمتْ بعضَ الأبيات، لأنّنا نلحظُ قوَّة السَّبْك وضخامةَ الألفاظ وتنوّع المعاني التي تدلُّ على ذكورةِ قائِلها من مثل:
فقـدنـاهُ فقـدانَ الـرّبيـع وليتنـا ... فـدينـاهُ مـنْ ساداتِنـا بـألـوف
بالإضافةِ إلى نواحٍ أخرى في القصيدةِ تدلُّ على أنَّ شَطراً منْ أبياتها منسوبة إلى ليلىٰ، ناهيكَ باضطرابِ المصادر في ترتيبِ ونقْل القصيدة، حتى إنّ أبا هلال =

* وقد طارتْ هذه القصيدة في الآفاقِ ، واشتهرت شهرةً عظيمةً ، وتناقلَتْها الألسنُ ، وأُغْرِمَ بها الأدباءُ والعلماءُ ، حتى إنَّ البلاغيين أغرموا في بيتها الشَّهير :

أَيا شَجَر الخَابُور ما لَكَ مُورِقاً   كأنَّك لم تَحْزنْ على ابنِ طَريف[1]

= العسكريّ لم ينسبْها إلىٰ ليلى ، وإنَّما جاءَتْ بعضُ أبياتها عنده لبعضِ العرب.
وأغلبُ الظَّنّ أنَّ بعض الرواة وأهل الأخبار قد زادَ في هذهِ القصيدة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، والله أعلم بحقيقة الصواب.

(١) هذا البيتُ من شواهدِ البلاغيّين ويسمّونه «تجاهلَ العارف» : وسمّاه السّكاكي : سوقَ المعلوم مساقَ غيرهِ لنكتةٍ بلاغيةٍ ، وهي هنا التّوبيخ ، فإنّها تعلمُ أنَّ الشّجَر لا يجزعُ علىٰ ابنِ طريف لكنّها تجاهلَتْ واستعمَلتْ كأنَّ الدَّالةَ على الشَّكّ. (معاهد التنصيص ٣/ ١٦٣ و١٦٤).
وقال العسكريّ : تجاهلُ العَارِفِ ومزجُ الشَّك باليقينِ : هو إخراجُ ما يُعرفُ صحّتُه مخرجَ ما يُشَكّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً. (كتاب الصناعتين ص ٣٩٦).
ـ وتجاهلُ العارفِ : سوقُ المعلوم مساقَ المجهولِ لنكتةٍ تُقْصَد لدى البُلَغاء ، والدَّواعي لتجاهُلِ العارف كثيرة منها :
١ ـ التّوبيخ : منْ مثلِ قولِ ليلى بنت طريف الخارجية :
أيا شجرَ الخابُورِ مالَكَ مُورقاً   كأنّك لمْ تحزَنْ علىٰ ابنِ طريفِ
٢ ـ المبالغةُ في المدحِ أو الذّمّ : ومنَ المبالغةِ في المدْحِ قولُ أبي عبادة البحتري :
أَلَمْعُ برقٍ سرىٰ أَمْ ضوءُ مصباحِ   أم ابتسامَتُها بالمنظرِ الضّاحي
ومن المبالغةِ في الذمّ قولُ زهير بن أبي سلمى المزنيّ :
وما أدْري وسوفَ إخَالُ أدْري   أقومٌ آلُ حصْنٍ أمْ نِسَاءُ؟
٣ ـ التّدلّه في الحُبّ : ومنه قول الحُسين بنُ عبد الله الغريبي :
باللهِ يا ظبَيَاتِ القاعِ قُلْنَ لنا   ليلايَ منكنَّ أمْ ليلىٰ منَ البَشَرِ
وقول ذي الرّمة :
أيا ظبيةَ الوعْسَاء بينَ جُلاجِلٍ   وبينَ النَّقا أأنْتِ أَمْ أمُّ سَالمِ
وقول أبي الطيب المتنبي :
أَتراها لكثرةِ العشّاق   تحسبُ الدَّمْع خِلْقةً في المآقي
وقول القاضي الفاضل يمدحُ الملكُ العادل : =

* وقد نسجَ كثيرونَ على منوالهِ ، ويسمّى في علْمِ البديع: تجاهلَ العَارِف ، وهو في الشِّعر أشهرُ ، لكنَّ كثيراً من الأدباء نسجوا في تجاهلِ العَارف نَثْراً ، ومنْ أمثلةِ ذلك ما كتَبه أبو هلال العَسْكريّ إلى بعضِ أهلِ الأدب: سمعتُ بورودِ كتابك ، فاستفزَّني الفرحُ قَبْلَ رؤيته ، وهزَّ عطفي المرح أمام مشاهدته ، فما أدري أسمعتُ بورودِ كتابٍ ، أمْ ظفرتُ برجوع شباب ، ولم أدرِ ما رأيت: أخطّ مسطور؟ أمْ روضٌ ممطور وكلام منثور؟ أمْ وشيٌ منشور؟ ولم أدرِ ما أبصرتُ في أثنائه: أأبيات شعر ، أمْ عقود درّ؟ ولم أدرِ ما حَمَلَتْه: أغيثٌ حَلَّ بوادي ظمآن ، أمْ غوثٌ سيْقَ إلى لَهْفَان[1] .

* وللعَسْكريّ أيضاً في الشِّعر:

أثغــرٌ مــا أرىٰ أَمْ أقْحُــوانُ	وقَــدُّ مــا بَــدا أمْ خَيْــزُرَانُ
وَطَـرفٌ مـا تقلَّـب أمْ حُسَـامٌ	ولفْـظُ مـا تُسَـاقِـطُ أم جُمَـانُ
وشَـوقٌ مـا أكـابِـدُ أمْ حـريـقٌ	وليـلٌ مـا أُقـاسـي أمْ زَمَـانُ

ولَه أيضاً:

أغـرّةُ إسْمـاعيـلَ أَمْ سُنَّـة البـدَرِ	وفيضُ نَدَىٰ كَفَّيْهِ أمْ باكِرُ القَطرِ[1]

* هذا ولمْ تكنْ ليلىٰ بنتُ طريف لترثي أخاهَا بقصيدة فائية يتيمة وإنّما

=

أهــذي كفّــه أمْ غــوثُ غيــثٍ	ولا بلــغَ السَّحــابَ ولا كَــرامــه
وهــذا بشــرُه أمْ لمــعُ بَــرْقٍ	ومَــنْ للبــرقِ فينــا لــلإقَــامَــه

٤ ـ الإيناسُ: ومنه قولُ الله عزَّ وجلَّ لنبيّه موسى عليه السَّلام كما جاءَ في سورةِ طه:
﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧].
إلى غير ذلك منْ دواعٍ كثيرةٍ أوردَها البلاغيّون في كتُبهم واستفاضُوا بذكْرِ الأمثلةِ والشواهد.

(١) انظر كتاب الصناعتين (ص ٣٩٦ و٣٩٧).

لها فيه مراثٍ كثيرة ومُثيرة ، فمن ذلك قولُها فيه تذكرهُ وتذكرُ أيّامه ، وأنَّ الأرض غَدَتْ خَراباً من بعد غيابه :

ذكَـرْتُ الـوليـدَ وَأيّـامَـه ... إِذِ الأَرضُ مِـنْ شخصِـهِ بلْقَـعُ
فـأقْبَلـتُ أطلبُـه فـي السَّمـاء ... كمـا يبتغـي أنْفَـه الأَجْـدَعُ
أضَـاعَـكَ قَـومُـك فَلْيَطْلبـوا ... إعـارةَ مثـلِ الـذي ضيَّعُـوا
لـو أَنَّ السُّيـوف التـي حـدّهـا ... يصيبـك تعْلَـمُ مـا تَصْنـعُ
نَبَـتْ عنْـك أو جَفَلَـتْ هَيْبـةً ... وخَـوفـاً لِصَـوْلـكَ لا تقطـعُ[1]

* وقالَتْ ليلىٰ في أخيها الوليدِ أيضاً :

يَـا بنـي وائـلٍ لَقْـد فجعتكُـمْ ... مـنْ يـزيـدٍ سيـوفُـه بـالـوليـدِ
لـو سيـوفٌ سـوىٰ سيـوفِ يـزيـدٍ ... قـاتلتْـهُ لاقَـتْ خـلافَ السُّعـود
وائـلٌ بعضُهـا يقتـلُ بعضـاً ... لا يفـلُّ الحـديـدَ غيـرُ الحـديـد[2]

* ولعلَّ ليلىٰ بنتُ طريف فارسةُ الشَّاعراتِ ، وشاعرةُ الفارسات في عصرِها ، قد رثَتْ أخاهَا الوليدَ في مقطّعات كثيرة جدّاً ، ولكن عوادي الزَّمن ـ على ما يبدو ـ قد فجعتنا بها ، كما فجعَتْ ليلىٰ بالوليدِ ، ولم تنفحنا إلا بما قرأناه من قصائدَ ومقطّعات ، بينما غفلتْ ذاكرةُ التَّاريخِ عن معظمِها ، وسَهَتْ عن كثيرٍ من آثارِ النّساءِ ومراثيهنّ وأخبارهنّ .

* بيد أنَّ ذاكرةَ التّاريخِ هذه وعَتْ بعضَ مراثي النّساء الخارجيّات لإخوانهنّ ، ورسمتْ بعضَ الخطوطِ لأنفاسِ الشّواعرِ اللواتي صافحت كلماتهنّ أسماعَه ، ومن بينِ هؤلاء النِّسوة الخارجيّات : أخت حازوق

---

(١) انظر : معاهد التنصيص (٣/ ١٦٣) ، وقطوف الريحان (ص ٢٥٠) ووفيات الأعيان (٦/ ٣٣) ، وشاعرات العرب (ص ٣٧٧) .
(٢) وفيات الأعيان (٦/ ٣٢٩) .

الخَارجي[1] التي رثَتْ أخاهَا الحازوقَ بقصيدةٍ رائيّةٍ جميلةٍ ، أظهرت شمائِلَه وصفاتِهِ ، وذكرتْ بأنّها ستثأرُ له من دَوس الذين أذاقُوه الموت ، وعبَّرتْ عن ذلك بأبياتٍ كثيرةٍ منها :

أعينيَّ جُودَا بالدُّموعِ على الصَّدْر   على الفارسِ المقتولِ في الجبَل الوعْرِ
فَإِنْ تقتلُوا الحازُوقَ وابنَ مطرّفٍ   فَـإنّـا قَتَلْنـا حَـوشَبـاً وأبـا حَشْـرِ[2]
أقلّبُ عَيْني في الرّكابِ فلا أرىٰ   حُزاقاً بعينٍ كالحجارِ منَ القَطْرِ
تَعَـاورَهُ أسيـافُ قـومٍ تعـوّدوا   قراعَ الكماةِ لا خَنُوسٍ ولا ضجْرِ[3]
فإنْ لا أنل منْ دوسَ ثأري بِفْتيةٍ   مصَاليتِ لمْ يكسرهُمُ حَدثُ الدَّهْرِ

* وقالت امرأةٌ منِ الخوارجِ في رثاءِ أخيها الذي قُتِل ، وبالتّالي تعبثُ الأيّامُ بها :

مَنْ لعَيْنٍ ريّا منَ الدَّمْعِ عَبْرىٰ   ولنَفْـسٍ مـنَ المصَـائـبِ حـرَّىٰ
أفْسَدَتْ عيشَنَا صُروفُ الليـالي   ووقـاعٌ مـنَ الكتـائـبِ تَتْـرىٰ
كلُّمـا سكنَـتْ حـرارةُ وجْـدٍ   مـن فقيـدٍ منّـا تَجيْنَـا بـأُخْـرى[4]

* وهذه امرأةٌ خارجيّةٌ تتّسِمُ بالحرارةِ والشَّجاعةِ ترثي أخاهَا ، وتدعىٰ

---

(١) حازوقُ الخارجيّ ، أحدُ ولاةِ نجدةَ الحنفيّ علىٰ إحدىٰ مقاطعاتِ النّجديّة في جهاتِ الطّائف ، فلمّا وقعَ الاختلافُ بينَ نجدةَ وأصحابه ، اجترأَ النَّاسُ على عمّاله ، فهربَ الحازوقُ ، فطلبوه بالطّائف فهربَ ، فلمّا صارَ بينَ الجبالِ ، إذا قومٌ يطلبونَه ، فرمَوُه بالحجارةِ من رؤوسِها فجعلَ يقولُ: ويلكم لا تقتلوني قتْلَ المرجومةِ ، فلم يقلعُوا عنه حتّى قتلوهُ.

(٢) «حَوشباً»: لعلّها تقصدُ حوشبُ بنَ يزيد بن الحارث الشّيباني ، الذي كانَ أبوه والياً على الرّي ، وقتلتْه الخوارجُ الأزارقة.

(٣) «تعاوره»: تداوله. «الكماةُ»: الشّجعان. «خَنُوس»: متأخّر.

(٤) ديوان الخوارج (ص ٢١٥).

مُلَيْكَة الشَّيبانية ، ومن أشعارِها في رثاءِ أخيها قولُها الذي تشيرُ فيه إلى أنَّها من الشُّراة :

يَـا عيـنُ جُـودي بـالـدُّمـو	عِ بـواكـفٍ حتّـى المَمـات
قُـولا لمـنْ حَضَـرَ الحُـرو	بَ مـنَ النِّسـاء الشَّـاريـات
أَمْسَيـنَ بعْـدَ غضَـارةٍ	ونعيـم عيـشٍ مثْبَتَـات
مِـنْ بعـدِ عيـشٍ نـاعـمٍ	صـارتْ عظَـامهـمُ رُفَـات
وإذا المنيـةُ أقْبَلَـتْ	لـم تغْـنِ أقْـوالُ الـرُّقَـاة
كُنْـتَ المـؤَمَّـل والمُـرجَّـ	ـىٰ فـي الأُمـورِ المعْضِـلات
كُنـتَ المـؤامَـر والمـؤا	زِرَ والمطـالـبَ للتِّـرات[1]

* ولمليكةَ الشَّيبانيةِ قصيدةٌ نونيةٌ جميلةٌ أيضاً في رثاء أخيها ذي الشَّمائلِ الكريمةِ من إغاثةِ اللهفان ، وإطعامِ الضَّيفان ، وإقالةِ عثراتِ الجاراتِ الضّعافِ ، وكفِّ الأذىٰ عن النّاس ، وبذلِ المعروف ، وبسطِ الكفِّ للنّدىٰ والجود ، تقولُ مليكةُ راثيةً شاكيةً باكيةً :

مَـنْ لجـاراتِـكَ الضِّعَـافِ إذا	حـلَّ بهـا نـازلٌ مـنَ الحِـدْثَـانِ
مَـنْ لضيـفٍ ينتـابُ فـي ظُلمـةِ	الليـل إذا مَـلَّ منـزلَ الضَّيفـانِ
سـوفَ أبكـي عليـكَ مـا سمعـتْ	أذُنـاي يـومـاً تـلاوةَ الفُـرقَـانِ
أينَ مَنْ يحفظُ القرابةَ والصِّهْر	ويُـؤْتـىٰ لِحـاجَـةِ اللّهْفَـانِ
ويحوطُ المولىٰ ويصطنعُ الخيرَ	ويجـزي الإحسـانَ بـالإحسـانِ
ويكـفُّ الأذىٰ ويبتـذِلُ المَعْـروفَ	سمْـحَ اليـدَيْـن سبْـطَ البنـانِ[2]

* وإذا ما تابعنا رحلةَ النِّساء الخارجيّات ، لألفينا أنهنّ أبدعْنَ في هذا الميدان ، فقد رثينَ أبطالَ الخوارجِ في حوماتِ الميدان ، أو قُتِل هؤلاء

---

(١) أشعار النساء للمرزباني (ص ١٢٥).

(٢) أشعار النساء (ص ١٢٥).

الرّجال منْ أجْلِ مذهبهم ، أو خروجهم على السُّلطان ، ونسمعُ من بين الأصوات النّسائيّة صوت امرأة تُدعى أمّ الجرّاح العَدويّة الخارجيّة التي رثتْ أحدَ مشاهيرِ الخوارج وعظمائهم وهو أبو بلال مرداس بن أُدية ، وأخوه عروة بن أدية؛ تقول أم الجراح :

وما بَعْدَ مِرداسٍ وعروةَ بيننا ... وبينكمُ شيءٌ سوى عطْرِ منْشمِ[1]

فلستَ بناجٍ من يدِ اللهِ بعدَما ... هرقْتَ دماءَ المسلمين بلا دَمِ

* ومنَ النِّساءِ الخارجيّات اللواتي اشتهرن بالشَّجاعةِ وشدّةِ البأسِ عمرة الرّاسبيّة ، وتشتهر بأمّ عِمْرانَ بنِ الحارث الرَّاسبي[2] ، قالت أمُّ عمران ترثي ابنها عمران الذي قُتِلَ في يومِ دولاب ، وتذكرُ صفاتِه وتشيرُ إلى صلاحِهِ ودعائِهِ لله سِرّاً وعلانيةً ليرزقَه الشَّهادة :

اللهُ أيَّد عِمرانـاً وَطَهَّرَهُ ... وكانَ عمرانُ يدعو الله في السَّحرِ

يدعوه سِرّاً وإعلاناً ليرزقَه ... شهادةً بيدي مِلْحادةٍ غُدُرِ[3]

وَلّى صَحابتُه عن حرِّ مَلْحَمةٍ ... وشدَّ عمران كالضَّرغَامةِ الهصُرِ

أعني ابنَ عمرةَ إذْ لاقىٰ منيّتَه ... يومَ ابنِ نابٍ يُحامي عورةَ الدَّبرِ

* وقد اشتهرت كثيرٌ منْ نساءِ الخوارجِ بالفَصاحةِ وقول الشِّعر ، وقوّة القلبِ ، وجراءة اللسانِ أمامَ الأمراء ، فقد ذكرت المصادر قصة تدل على

---

(١) «منْشَم»: اسمُ امرأةٍ كانتْ تبيعُ الطِّيْبَ والعطْرَ ، فكلّما استُعْمِلَ طيبُها زادتِ الحربُ ، فصارتْ مثلاً في الشّرّ ، وقد ذكرهَا زُهير بنُ أبي سُلمى في معلّقته وأشارَ إلى شؤمها.

(٢) أمّ عمرانَ الخارجيّة هذه ، اشتُهرتْ بولدِها عمرانَ بنِ الحارث الرّاسبيّ الذي كان أحدَ قادةِ الخوارجِ الأَزارقَةِ ، وبعد أنْ حاربَ بشجاعةٍ فائقةٍ ، التقىٰ الحجّاجَ بنَ باب الحميريّ ، فاختلفَا ضربتَيْن ، سقَطَا على أثرِها ميتَيْن معاً. (الكامل ٣/ ١٢٢٤)

(٣) «ملْحَادَة»: مِفْعَال: منَ الإلحاد ، كما تقول: رجُلٌ مِعْطاء ومكرام ، وأُدخلتِ الهاءُ للمبالغَة ، كما تدخلُ في رواية ، وعلاّمة ، ونسّابة.

ذلك فقالت: كان يزيدُ بنُ قرة الشّيباني شديداً منيعاً ، وكان يرىٰ رأْيَ الخوارجِ ، ولم يكنْ يخشىٰ عمَّالَ العراق ، فغاظَ ذلك الحجّاج بن يوسفَ وبلغَ منه الغيظُ مبلغاً عظيماً ، فكتبَ إلى الخليفةِ عبد الملك بنِ مروانَ بدمشقَ يخبرهُ بذلك ، فكتبَ عبدُ الملك إليه: أن احْتَلْ له ، فإنْ قدرتَ عليهِ فاضربْ عُنقَه.

* فدعا الحجّاجُ يزيدَ بنَ رويم ، وجرير بن يزيد ، فأكرمهما وأدناهما ، وقال ليزيد: لكَ شطرُ العراقِ ، ولجرير ديوان الخراج ، إنْ أنتما أتيتماني بيزيدَ بنِ قرّة الشَّيباني.

* فركبَا جميعاً إلى يزيدَ فقالا له: إنَّ الأميرَ قد غضبَ عليك ، وإنّا نخافُ أنْ ينالَ غضبه جميع قومك ، فاركبْ إليه؛ قال يزيد: لا أفعلُ ، إنَّه إنْ نظرَ إليَّ قَتَلني.

فقالا له: ما هو بفاعل ـ إنْ شاءَ الله ـ ولابد أنْ تركبَ معنا ، فلبسَ ثياباً بيضاً ، وتهيّأ للقَتْلِ ، وركب ، وخرجَ نساؤه حتى أتينَ باب الحجّاج ، فلما أُدخِلَ عليه ، قال له الحجّاج: أنت يزيدُ بنُ قرّة؟

قال: نعم أنا يزيدُ.

قال الحجّاج: قَتَلني اللهُ إنْ لم أقتُلْكَ.

قال يزيدُ: نشدتك اللهَ أيّها الأمير أنْ تقتلَني ، فإنّي قيّمُ أربع وعشرين امرأةً ، ليس لَهُنَّ قيّمٌ سواي.

قال الحجّاج: ومَنْ يعلمُ ذلك؟

قال يزيد: أيّها الأميرُ ، هُنَّ بالباب.

* فأمرَ الحجّاج بإدخالهنّ ، فدخَلْنَ مستعبراتٍ ، وكلّ واحدة منهن تقول: أيّها الأميرُ؛ اقتُلْنِي ودَعْه.

فيقول الحجاج: مَنْ أنتِ؟

فتقولُ: عمّتُه ، أو خالتُه ، أو بنْتُه ، أو بنت أخ ، أو بنت أخت ، حتى اجتمعنَ بين يديه قياماً ، فقالت ابنتُه ، أو أخته:

أَحجَّاجُ إمّا أنْ تمنَّ بنعمةٍ ... علينا وإمّا أنْ تُقتّلَنا معَا

أَحجّاجُ كمْ تفجعْ بهِ إنْ قتلتَه ... ثمانيَ عشَر واثنتَيْن وأَرْبَعا

أَحجّاجُ لو تسمعْ بكاءَ نسائِهِ ... وعمّاتِه ينْدُبْنَه الليلَ أجْمعَا

أَحجّاجُ مَنْ هذا يقومُ مقامَه ... علينا فَمهْلاً لا تزِدْنَا تضَعْضُعا

أَحجّاجُ هَبْهُ اليومَ للهِ وحْدَه ... وللباكياتِ الصَّارخاتِ تفجُّعَا

* فرقَّ لها الحجّاجُ وبكىٰ ، وكتبَ في أمرهِ إلى عبد الملك يصفُ ما جرى ، فكتبَ إليه: إنْ كانَ حقّاً فاعْفُ عنه ، وألحقْ عياله في العَطاء ، ففَعَل[1].

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ امرأةً خارجيّةً من بني سليط قالت ترثي مِردَاساً وأصحابه في أبيات منها:

سَقَى اللهُ مِرْداساً وأصحابَه الأُلى ... شَروا معَه غيثاً كثيرَ الزَّماجِرِ

فكلُّهم قَدْ جادَ للهِ مُخلِصاً ... بمهجتِه عندَ التقاءِ العَساكِرِ

* وقالتِ امرأةٌ منَ الخوارج:

---

(١) انظر: أشعار النساء (ص ١٢٠ ـ ١٢٢) ، والمستجاد (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤) ـ مع الجمع والتصرف.

يـا عيـنُ جُـودي بـالـدُّمـوع   وابْكـي بجهـدِ المُستَطِيْـع
يـا مـوتُ ويحـكَ مـا تـزا   لُ مفـرّقـاً بيـنَ الجميـع
أبكـي ومـا يُغنـي التَّلهـ   ـفُ والبكـاءُ عـنِ الجـزوعِ

* وقالت امرأةٌ منَ الخوارجِ أيضاً ، وكانت قد أقامت في عسكرِ الضَّحّاك ثمَّ انصرفت:

تـركْـتُ رمحـاً ليّنـاً مسُّـه   وجئـتُ رمحـاً مسُّـه قَـاتِـلُ
شتّـان هـذا بـدمٍ سـائـلٌ   وذاكَ منـه عَسَـل سـائِـلُ
مطعـونُ ذا كـمْ منـه فـي لـذّةٍ   وأمّ مطعـونِ بـذا ثـاكِـل
مُـروا بنـا نَـرجِـعْ إلـىٰ دِيْنِنـا   فكـلُّ ديـنٍ غيـرُه بَـاطِـلُ
وملَّـةُ الضَّحّـاكِ متـروكـةٌ   لا يجْتَبيهـا أحـدٌ عـاقِـل[1]

* بيدَ أنَّنا نجدُ امرأةً أخرى منْ شيبانَ ترثي ذويها وهم: أبوها ، وأخوها ، وزوجها ، وابنها ، وعمّاها ، وخالاها ، وقد قُتلوا مع الضّحاك بن قيس الخارجيّ ، فعاشت بعد الضّحاك فما رقأتْ لها عينٌ ولا ضحكت ولا ابتسمت؛ تقول:

مَـنْ لقَلْـبٍ شَفَّـه الحَـزَنُ   ولنفـسٍ مـالَهـا سَكَـنُ
ظَعَـنَ الأبـرارُ فـانْقَلَبُـوا   خيـرهـم مـنْ مَعْشَـر ظَعَنُـوا
مَعْشَـرٌ قضُّـوا نُحـوبَهُـمُ   كـلُّ مـا قَـدْ قـدَّمـوا حَسَـنُ
صَبـرُوا عنـد السُّيـوفِ فلـمْ   ينكُلُـوا عنْهـا ولا جبُنُـوا
فِتْيَـةٌ بـاعُـوا نفـوسَهـم   لا وربّ البيـتِ مـا غُبِنُـوا
فـأصـابَ القـومُ مـا طَلبُـوا   منّـةً مـا بعـدَهـا مِنَـنُ[2]

---

(1) انظر: بلاغات النساء (ص ١٩١).
(2) انظر: أشعار النساء للمرزباني (ص ١٢٣ و١٢٤) بتصرف يسير.

* كما أنّنا نسمعُ صوت مُليكة الشَّيبانية يرتفعُ عالياً في رثاء الضَّحّاك بنِ قيس الخارجيّ وأصحابه فتقولُ:

قُولي مُليك عليكِ بالصَّبر ... تَسْتَوجبينَ فَضَائِلَ الأَجْرِ
قُولي فإنَّكِ غيرُ كاذِبَةٍ ... يا عُدّتي لِنَوائبِ الدَّهْرِ
أورَثْتني كَمداً يؤرّقُني ... وتَلهُّفاً وحَرارةَ الصَّدْرِ
ومَرارةً في العَيشِ دَائمةً ... وحَرارةً كحرارةِ الجَمْرِ
ذهبَ الذي قدْ كانَ يأمُرنا ... بالخيرِ والمعروفِ والذِّكْرِ[1]

* وكان لمليكة عمٌّ منَ الشَّراة ، ويبدو أنَّه كان لَسِناً مفوّهاً ، وفارساً مغْواراً ، فقالَتْ ترثيه:

أصَبرتُ عَنْ عمّي الذي ... قد كانَ بالمعروفِ آمِرْ
أصبرتُ عن عمّي الذي ... كانَ المُؤامِر والمؤازِرْ
إخوانُهُ النَّفرُ الشُّراة ... ذوو الفَضيلة والبَصَائِرْ
يا عمّ كنْتَ لسانَ قو ... مِك حينَ يجتمعُ المعَاشِرْ
فلأبكينَّكَ بالغَداةِ ... وبالأصائِل والهَواجِرْ
ولئنْ بكيتُ لقد رزئْتُ ... بفارسٍ بطَلٍ مُغَاوِرْ

* ولها في رثاء عمّها أيضاً الذي أذهلَها موته ، وألقتْ جلبابَها ،

---

(١) انظر: أشعار النساء (ص ١٢٥) ، ولمليكة قصيدةٌ ميمية ترثي فيها الضّحاك فتقول:

ما بالُ دمْعكِ دائمَ السَّجمِ ... مثلُ الجمانِ وهي منَ النَّظْمِ
جلّتْ مصيبتُنا وقد عظُمَتْ ... لما فُجعْتُ بسيِّد ضخمِ
حُلوِ الشّمائلِ حينَ تخبرُه ... حسنَ السَّريرةِ ماجدٍ شهمِ
يصلُ القرابةَ والجوارَ إذا ... قطَعَ القرابةَ صاحبُ الظّلم
فلأبكينّك كلّما وخَدت ... عيسٌ بأرحلِها على وسْمِ
ولأبكينّك عند مجتمع الأمْـ ... ـلاء عنْد تطاولِ الخصْمِ

وبرزتْ سافرةً بغيرِ خمار ، فموتُه رُزْءٌ عظيمٌ ، ومثل عمّها فلتبكِ النّساء الشَّاريات ، ومثله يبكيه المولىٰ وطالب الحاجة والضَّيف ، فلنسمعْ إلى مُليكة في هذا الشَّجو العذب :

ما بالُ دَمعكِ يا مليكةُ جارِ ... أمْ مَا لقلبكِ لا يقرُّ قَرار[1]
أمْ مَا لنفسكِ ليسَ يسْكنُ حزنُها ... ليلاً وليسَ نهارُها بِنَهارِ
جزعاً علىٰ مَنْ كانَ يجمعُ شَمْلنَا ... ونعدُّه لنوائبٍ وَعَثَارِ
لو كنتُ أمْلكُ دفْعَ ذلك لم تكُنْ ... يا عمُّ بينَ نضائِدٍ وغُبارِ
ألقيتُ جلْبَابي لعظمِ رزيّتي ... وبرزتُ سافرةً بغيرِ خمارِ
زرتُ المقابرَ كي أُسَلّي عَبْرتي ... هيهاتَ ممّنْ زُرْتَ بُعْدَ مزَارِ
فلْتَبْكِ نسوانُ الشُّراة بعبْرةٍ ... عندَ الحروبِ وكلّ كهْلٍ شَاري
وليبْكهِ المولىٰ وطالبُ حاجةٍ ... عند العشَاء وكلّ ضيفٍ طَاري
أينَ الذينَ إذا ذكرتُ فعالَهم ... عُرِفُوا بحسنِ عَفَافةٍ ووقارِ
أينَ الذينَ إذا أتاهمْ سائلٌ ... بذلُوا له أموالَهم بيسَارِ
أينَ الذينَ إذا ذكرنا دينَهم ... قالتْ عشائرهم همُ الأخيارُ[2]

* وقالت مُليكةُ أيضاً ترثي :

أبكيْ المُغيَّبَ في الثَّرىٰ ... بينَ النَّضائدِ والصَّفائِح
أبكي وحُقَّ ليَ البُكاءُ ... مع الغَوادي والرَّوائح
فلأبكينَّكَ ما غدتْ شمْسٌ ... وما جَرتِ البَوارح
مَنْ ذا يرجّى للنّصيحةِ ... حينَ تُعْتَقدُ النَّصائح
أم مَنْ يؤمَّل لليتيمِ ... وكلٍّ ذي غَربِ ونَائِح

---

(١) في هذا البيت إقواء.

(٢) في هذا البيت إقواء.

أمْ مَـــنْ يعـــمُّ صـــديقَـــه خيــراً ويحجــر كــلَّ نــابِــح[1]

* ومن بليغاتِ النِّساءِ الخارجيّات أمّ البرذون الصُّفْرية ، وكان ولدُها البرذون بنُ مرزوق الشَّيباني من فوارس الخوارج الصُّفرية في أواخرِ العهدِ الأمويّ ، فهذه المرأةُ ترتجزُ في قولٍ ينمُّ عن جرأتها وشدّة بأسِها ، وبأسِ قومها الذين عبروا خندقاً عميقاً مقعّراً وقتلوا أعداءهم :

نحـنُ عَبَـرنَـا الخنْـدقَ المُقعَّـرا يـومَ لقينَـاكـم وجُـزْنـا العَسْكَـرا
حتّـى قتلْنَـا عـاصِمـاً وجَعْفَـرا والفـاسـقَ الضَّبـيَّ لمّـا أدْبَـرا
واليمنيّيـــنِ ومَـــنْ تنـــزَّرا لا تحسبُوا ضَرْبَ الشَّراة سكّرَا[2]

* هذا والحديثُ شائقٌ وجميلٌ عن رثاءِ ذات الخمارِ لذويهنَّ ، وقد استطردنا في هذه التّرجمة ، ولكنَّ هناك فائدة إنْ شاءَ اللهُ.

* ونعودُ الآن ثانيةً إلى فارسةِ هذه الصَّفحات ليلى بنت طريف الشَّيبانية التي أثارت فينا قصيدتها الفائية الشُّجون ، ورحلنا مع النِّساء الخارجيّات نجمعُ باقاتٍ من أثارتهنَّ ونفثاتهنَّ ، لننظمَ بذلك عِقْدَ هذا الكتاب ، ونحلّي جيْدَه بحليٰ الآداب .

* أمّا ليلى بنةُ طريف فلا نعلمُ متى ماتَتْ بالتَّحديد[3] ، ولا نعرفُ أيضاً مكانَ وفاتها ، ولعلَّها قد ماتَتْ بعد مقتِلِ أخيها الوليد بسنواتٍ ، ونسيتْ عينُ التَّاريخ أن تلتقط لنا صُوراً منْ أواخرِ أيّامها ، أو ترسم لنا مكانَ وزمانَ

---

(١) انظر : أشعار النساء (ص ١٢٦ و١٢٧).
(٢) ديوان الخوارج (ص ٢٥ و٢٦) نقلاً عن تاريخ الطبري.
(٣) قال بشير يموت في كتابه : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام : كانت وفاتَها نحو سنة (٢٠٠هـ).
أقول : هذا منْ بابِ التّخمين، فلمْ تفصحِ المصادرُ التي بين أيدينا عن زمانٍ ومكانِ وفاتها. والله أعلم بالصواب.

وفاتها ، لكنَّها لم تنسَ أنْ تلوِّنَ بريشتها السَّاحرة أيّام بطولاتها وفروسيتها وأشعارها في النِّساءِ الفارسات .

ـ وبعد فقد أوشكتِ الرحلةُ أنْ تنتهيَ ، وحانَ الوداعُ ، وإلى أن نلتقيَ في سِفْرٍ آخر ، تعالوا نقرأ قول الله عز وجل : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ . [البقرة : ٢٨٦].

أحمد بن خليل جمعة

الحرستاني الدمشقي

* * *



فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين**: للزبيدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٩ م.

٢ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: للسيوطي ـ تقديم وتعليق د. مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٨٩ م.

٣ ـ **أحكام القرآن**: لابن العربي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٤ ـ **الأخبار الطوال**: للدينوري ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ مراجعة د. جمال الدين الشيال ـ مصر ـ ١٩٥٩ م.

٥ ـ **الأخبار الموفقيات**: للزبير بن بكار ـ تحقيق د. سامي مكي العاني ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م.

٦ ـ **أدب الدنيا والدين**: للماوردي ـ تحقيق ياسين السواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٩٢ م.

٧ ـ **أَسَاسُ البَلاغةِ**: للزّمخشري ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

٨ ـ **أسبابُ النُّزول**: للسّيوطي ـ طبعات مختلفة.

٩ ـ **أَسْبَابُ النُّزول**: للوَاحِديّ ـ تحقيق كَمال بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.

١٠ ـ **الاستبْصَارُ في نَسبِ الصَّحَابةِ منَ الأنْصَار**: لابنِ قدامةَ المقدسي ـ تحقيق علي نُويهض ـ دار الفكْر ـ بيروت.

١١ ـ **الاستيعابُ ـ بهامشِ الإصابةِ** ـ لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط ١ ـ ١٤١١ هـ. وطبعة بيروت.

١٢ ـ **أُسدُ الغَابةِ في معرفةِ الصَّحابةِ**: لابنِ الأثير ـ دارُ الفكْر ـ طبعة مصوّرة عن طبعة دارِ الشَّعب المحقَّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.

١٣ ـ **الأعْلامُ**: لخير الدِّين الزِّركليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٤ م ـ وطبعة مصوّرة في عشرةِ أجزاء.

١٤ ـ **أعلامُ النِّساء**: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسسة الرِّسَالة ـ بيروت ـ ط ٩ ـ ١٩٨٩ م.

١٥ ـ **الأغاني**: لأبي الفَرج الأَصْبَهاني ـ تحقيق عَددٍ منَ الأساتِذَة ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م؛ وطبعة مصوَّرة عن دار الكتب المصريّة ـ وطبعة دار الفِكْر ببيروت.

١٦ ـ **الإكمال في رفع الارتياب في المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**: لأبي نصر بن ماكولا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٤١١ هـ.

١٧ ـ **الأمالي**: للقالي ـ مصر ط ٣ ـ ١٩٥٣م. وطبعة مؤسسة الرسالة.

١٨ ـ **أمالي المرتضى**: للشريف المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.

١٩ ـ **البدايةُ والنِّهاية**: لابن كثير ـ دارُ الفكْرِ ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م ـ ودار المعارف.

٢٠ ـ **البَصَائرُ والذَّخائر**: لأبي حيَّان التّوحيديّ ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صَادِر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

٢١ ـ **بلاغاتُ النِّساء**: لابنِ طيفور الخُراساني ـ صحَّحه وشرحَه أحمد الألفي. مطبعةُ مدرسةِ والدة عبَّاس الأوَّل ـ القاهرة ـ ١٩٠٨ م. وطبعة مكتبة السُّندس بالكويت ١٩٩٣ م.
٢٢ ـ **البُلدان**: لابن الفقيه ـ تحقيق يُوسُف الهادي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
٢٣ ـ **بلوغُ الأَربِ**: للآلوسي ـ تحقيق محمّد بهجة الأثري ـ ط ٢ ـ ١٩٢٤ م.
٢٤ ـ **بهجةُ المجَالِس وأُنْس المُجالِسِ**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمّد الخولي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٥ ـ **البيَان والتَّبيين**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القَاهِرة ـ ١٩٦١ م.
٢٦ ـ **تاج العروس**: للزبيدي ـ المطبعة الخيرية ـ مصر ـ ١٣٠٦ هـ.
٢٧ ـ **تاريخ الأدب العربي**: لبلاشير ـ دار الفكر.
٢٨ ـ **تاريخ الأدب العربي** ـ لعمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط ٤ ـ ١٩٨١ م.
٢٩ ـ **تاريخ الإسلام**: لحسن إبراهيم حسن ـ دار الجيل ـ بيروت.
٣٠ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: للذهبي ـ تحقيق د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
٣١ ـ **تاريخُ مدينةِ دمشقَ (تراجم النِّساء)**: لابنِ عسَاكر ـ تحقيق سُكَينة الشّهابي ـ دار الفِكْر ـ دمشق.
٣٢ ـ **تاريخُ مكَّة**: للأزرقيّ ـ المكتبةُ التِّجارية ـ مكّةُ المكرّمة ـ ط ١ ـ ١٤١٦هـ.
٣٣ ـ **تاريخُ اليعقوبيّ**: لليعقوبي ـ دار بيروت للطِّباعة والنَّشْر ـ بيروت ١٩٨٠ م.
٣٤ ـ **تفسير البحر المحيط**: لأبي حيان الأندلسي ـ دار الفكر ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٣ م.

٣٥ ـ **تفسير الخازن وبهامشه البغوي**: للخازن والبغوي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط ٢ ـ ١٩٥٥ م.
٣٦ ـ **تفسير القرآن العظيم**: لابن كثير ـ مكتبة المنار ـ الأردن ط ١ ـ ١٩٩٠ م، وطبعة دار ابن كثير بدمشق.
٣٧ ـ **التفسير الكبير «أو مفاتيح الغيب»**: للفخر الرازي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
٣٨ ـ **تهذيب التهذيب**: لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ طبعة مصورة. وطبعة دار الفكر.
٣٩ ـ **ثمار القلوب**: للثعالبي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٦٥ م.
٤٠ ـ **ثمرات الأوراق بهامش المستطرف**: للحموي ـ طبعة دار الفكر المصورة.
٤١ ـ **جامع البيان في تفسير القرآن**: للقرطبي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٤م.
٤٢ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: للقرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤٣ ـ **الحيوان**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.
٤٤ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**: للبغدادي ـ دار صادر ـ بيروت.
٤٥ ـ **الخصائص الكبرى**: للسيوطي ـ طبعة مصورة ـ دار الكتب العلمية.
٤٦ ـ **الدر المنثور في التفسير المأثور**: للسيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
٤٧ ـ **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**: لزينب فواز العاملية ـ مصر ـ ١٣١٢ هـ.
٤٨ ـ **دلائل النبوة**: لأبي نعيم الأصبهاني ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

٤٩ ـ **ديوان علي بن الجهم**: تحقيق خليل مردم بك ـ دمشق ـ ١٩٤٩ م.
٥٠ ـ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**: بيروت ـ ١٩٦١ م.
٥١ ـ **ديوان عنترة**: تحقيق محمد سعيد مولوي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٦٥ م. وطبعة بيروت.
٥٢ ـ **ديوان كثير عزة**: جمع وشرح د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧١ م.
٥٣ ـ **ديوان مجد الإسلام**: لأحمد محرم ـ حققه وراجعه محمود أحمد محرم ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ط ١ ـ ١٤١٢ هـ.
٥٤ ـ **ديوان المعاني**: لأبي هلال العسكري ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ.
٥٥ ـ **ذمُّ الهوى**: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ مصر ١٣٨١ هـ.
٥٦ ـ **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**: للزمخشري ـ تحقيق د. سليم النعيمي ـ دار الذخائر للمطبوعات ـ إيران.
٥٧ ـ **رجال مبشرون بالجنة**: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ٣ ـ ١٩٩٦ م.
٥٨ ـ **روحُ المعَاني**: للآلوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ طبعة مصورة وطبعة دار الفكر بدمشق وبيروت.
٥٩ ـ **الرَّوضُ الأُنُف**: للسُّهَيلي ـ تحقيق طه سَعْد ـ مكتبة الكُليّات الأزهرية ـ مصر ـ ١٩٧١ م.
٦٠ ـ **روضةُ العُقَلاء**: لابن حبَّان البُسْتي ـ مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة ـ ط ١ ـ ١٤١٧هـ.
٦١ ـ **الروضةُ الفيحاءُ في تاريخ النِّساء**: لياسين العُمري ـ تحقيق د. رجاء السَّامرائي ـ الدَّارُ العربيّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.

٦٢ ـ **روضة المحبين**: لابن قيم الجوزية ـ بيروت ـ ١٩٦٧ م. وطبعة حلب.
٦٣ ـ **زاد المسير في علم التفسير**: لابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٦٤ م.
٦٤ ـ **زاد المعاد**: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ٦ ـ ١٩٨٤ م.
٦٥ ـ **الزهد**: لأحمد بن حنبل ـ مطبعة أم القرى ـ مكة ـ ١٣٥٧ هـ وطبعة بيروت.
٦٦ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**: للحصري القيرواني ـ حققه وضبطه وشرحه علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ط ٢ ـ ١٩٧٠ م.
٦٧ ـ **سمْطُ اللآلي في شَرح أمالي القَالي**: للبكْريّ ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التّأَليف والتَّرجمة والنَّشر ـ مصر ـ ١٣٥٤ هـ.
٦٨ ـ **سننُ ابن ماجه**: تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التّراث العربي ببيروت ـ ١٩٧٥ م.
٦٩ ـ **سننُ أبي داود**: إعداد وتعليق محيي الدِّين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٠ ـ **سننُ التّرمذي**: إعداد وتعليق عزّت عُبيد الدَّعاس ـ حمص ـ ط ١ ـ ١٩٦٦ م.
٧١ ـ **سُننُ النّسائي**: بشرح السُّيوطي وحاشية السِّندي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٧٢ ـ **سِيَرُ أعْلام النُّبلاء**: للذَّهبي ـ تحقيق جماعة منَ الأفاضل والعلماء ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.

٧٣ ـ **شاعرات العرب**: جمع وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.
٧٤ ـ **شذرات الذهب**: لابن العماد الحنبلي ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ومراجعة وإشراف عبد القادر الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ١٩٨٦ م.
٧٥ ـ **شرحُ المعلَّقات العَشْر وأخبارُ شعرائها**: اعتنى بجمعه وتصحيحه أحمد بن الأمين الشَّنقيطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٦ ـ **شرحُ المعلّقات السبع**: للزّوزني ـ تحقيق يوسُف بن علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٨٩ م.
٧٧ ـ **شرحُ مقامات الحريري**: للشَّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبةُ العصرية ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م.
٧٨ ـ **صبحُ الأعشى**: للقلقشندي ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
٧٩ ـ **صحيحُ ابن حبّان**: بعنايةِ كمال الحوت ـ دارُ الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٧ م ـ وطبعة المكتب الإسلاميّ.
٨٠ ـ **صحيحُ مسلم**: تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت.
٨١ ـ **صحيحُ مسلم بشرح النَّووي**: رئاسة إدارة البحوثِ العلميّة والإفتاءِ والدَّعوةِ والإرشادِ ـ المَملكةُ العربيّةُ السُّعوديّةُ.
٨٢ ـ **صِفَةُ الصَّفْوةِ**: لابن الجوزيّ ـ تحقيق محمود فاخوري ومحمّد رواس قلعجي ـ دارُ المعرفةِ ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.
٨٣ ـ **الطبقات الكبرى**: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.

٨٤ ـ **الطبقات الكبرى**: للشعراني ـ القاهرة ـ ١٢٩٩ هـ.

٨٥ ـ **الطبقات الكبرى**: للمناوي ـ مخطوطة دار الكتب المصرية.

٨٦ ـ **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**: للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيد ـ القاهرة ١٣٥٨ هـ.

٨٧ ـ **العقد الفريد**: لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ط٢ ـ ١٩٦٢م ـ وطبعة محمد سعيد العريان.

٨٨ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** ـ لبدر الدين العيني ـ طبعة مصورة عن المطبعة الميمنية ـ بيروت.

٨٩ ـ **عوارف المعارف**: للسهروردي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٩٠ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: لأبي الطيب الآبادي ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط ٣ ـ ١٩٨٧ م.

٩١ ـ **عيونُ الأَخْبار**: لابن قُتيبة ـ مصورة عن دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.

٩٢ ـ **الغَزَلُ عنْدَ العَرب**: لجان فاديه ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ـ منشورات وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ م.

٩٣ ـ **غوامضُ الأسماءِ المبهمةِ الواقعة في مُتُون الأحاديث المُسندة**: لأبي القاسم بن بشكوال ـ تحقيق د. عز الدّين علي السّيد، ومحمّد كمال الدِّين عز الدّين ـ عالم الكُتب ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.

٩٤ ـ **الغيثُ المسجم في شَرح لامية العجم**: لِصَلاح الدِّين الصَّفدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٥ م.

٩٥ ـ **فَتْحُ الباري**: لابنِ حجرِ العَسْقلاني ـ تحقيق محبّ الدِّين الخطيب ـ المكتبةُ السَّلفية ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٤٠٨ هـ. وطبعةُ دارِ المعرفة ببيروت.

٩٦ ـ **الفتحُ الرَّباني** ـ لأحمد عبد الرّحمن البنّا ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ دون تاريخ .
٩٧ ـ **الفهرست**: لابن النديم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ ١٩١٦ هـ .
٩٨ ـ **فوات الوفيات**: لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٣ م ، وطبعة مصر المحققة أيضاً .
٩٩ ـ **الفوائد المجموعة**: للشوكاني ـ تحقيق عبد الرحمن اليماني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٧٩ هـ .
١٠٠ ـ **القاموس المحيط**: للفيروز آبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٧ م .
١٠١ ـ **قصص العرب**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م .
١٠٢ ـ **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت .
١٠٣ ـ **الكامل في اللغة والأدب**: للمبرد ـ عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ وطبعة مؤسسة الرسالة في بيروت .
١٠٤ ـ **الكشّافُ (تفسير الزَّمخشري)**: للزمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت .
١٠٥ ـ **كشْفُ الخفاءِ ومزيلُ الإلْباس**: للعجلوني ـ بعناية أحمد القلاّش ـ دارُ التُّراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ .
١٠٦ ـ **كشْفُ الظُّنون عن أسامي الكُتبِ والفَنون**: لحاجي خليفة ـ بإشرافِ هيئةِ البحوثِ والدراساتِ في دار الفكر ـ دار الفكر ـ ١٩٩٤ م .
١٠٧ ـ **الكفايةُ في علْمِ الرِّوايةِ** ـ دائرةُ المعارفِ العثمانية بحيدر آباد ـ ١٣٥٧ هـ .

١٠٨ ـ **كنزُ العمّال**: لعلاء الدِّين علي المتّقي الهندي ـ بعناية حيّاني والسَّقا ـ مؤسَّسةُ الرسالةِ بيروت ط ٥ ـ ١٩٨٥ م.

١٠٩ ـ **لِسَانُ العرَبِ**: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١١٠ ـ **مجمع الأمثال**: للميداني ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م ـ وطبعة بيروت.

١١١ ـ **مجمع الزوائد**: للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١١٢ ـ **المحاسن والمساوىء**: للجاحظ ـ تحقيق محمد سويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت.

١١٣ ـ **المحاسن والمساوىء**: للبيهقي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.

١١٤ ـ **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**: للراغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

١١٥ ـ **المحبر**: لابن حبيب ـ رواية السكري ـ صححه الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

١١٦ ـ **مختصر تاريخ مدينة دمشق**: لابن منظور ـ تحقيق عدد من الأفاضل ـ دار الفكر ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١١٧ ـ **المرأةُ العربية في جَاهليتها وإسلامها**: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت.

١١٨ ـ **المرأةُ في الشِّعر الجاهليّ**: لأحمد الحوفي ـ دار نهضة مصْر ـ القاهرة ـ ١٩٨٠م.

١١٩ ـ **المرأةُ في عالَمي العرب والإسلام**: لعمر رضا كحالة ـ مؤسّسة الرسالة بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.

١٢٠ ـ **المرأةُ في القديم والحديثِ**: لعمر رضا كحالة ـ مؤسَّسة الرسالة بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.

١٢١ ـ **مروجُ الذَّهب ومعادنُ الجوهر**: للمسعودي ـ تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد ـ دارُ المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٢٢ ـ **معجم الأدباء**: لياقوت الحموي ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.

١٢٣ ـ **معجم البلدان**: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٢٤ ـ **المعرفة والتاريخ**: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨١ م.

١٢٥ ـ **مقَاتِلُ الطَّالبيّين**: لأبي الفرج الأصبهاني ـ تحقيق السَّيد أحمد صفر مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧ م.

١٢٦ ـ **المقاييسُ في اللُّغة**: لابن فارس ـ تحقيق شهاب الدِّين أبو عمرو ـ دار الفكْرِ ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٨ م.

١٢٧ ـ **منتخباتُ التَّواريخ لدمشق**: لمحمد الحصني ـ منشوراتُ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.

١٢٨ ـ المنمّقُ في أخبارِ قريش: لابن حبيب ـ تحقيق خورشيد أحمد فاروق ـ عالَم الكُتُب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

١٢٩ ـ **المواهبُ اللدنية بالمنحِ المحمّدية**: للقَسْطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشَّامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.

١٣٠ ـ **موسوعةُ التَّاريخ الإسلامي**: لأحمد شلبي ـ مكتبة النَّهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط ٧ ـ ١٩٨٤ م.

١٣١ ـ **الموشَّحُ**: للمرزباني ـ تحقيق محمد حسين شمس الدِّين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤١٥ هـ. وطبعة مصر تحقيق محمّد علي البجاوي ـ ١٩٦٥ م.

١٣٢ ـ **الموشّىٰ (أو الظَّرفُ والظُّرفاء)**: لأبي الطَّيب الوشّاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٣٣ ـ **نزهة الجلساء في أشعار النساء**: للسيوطي ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م، وطبعة مصر.

١٣٤ ـ **نساء من عصر التابعين**: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ٢ ـ ١٩٩٢ م.

١٣٥ ـ **نساء من عصر النبوة**: لأحمد خليل جمعة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط ٢ ـ ١٩٩٢ م.

١٣٦ ـ **نسب قريش**: لمصعب الزبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٣ م.

١٣٧ ـ **نهايةُ الأَرب في فُنون الأَدب**: للنُّويري ـ طبعة مُصوَّرة عن طبعةِ دار الكُتب المصريّة.

١٣٨ ـ **الوافي بالوفيات**: للصفدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين ـ مطابع مختلفة ـ ١٩٣١ ـ ١٩٨٤ م.

١٣٩ـ **الوزراء والكتاب**: للجهشياري ـ تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ م.

١٤٠ ـ **وفيات الأعيان**: لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

١٤١ ـ **يتيمةُ الدَّهر في محاسنِ أهْل العَصْرِ**: للثَّعالبي ـ تحقيق محمّد محيي الدِّين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م. وطبعاتٌ أُخَر.

وغير ذلك كثير من المصادر والمراجع الموجودة في حواشي الكتاب، وثناياه، ومنها ما هو نادر، لم نشأ أن نذكره؛ لئلا يطول الكتاب.

* * *



فهرس الموضوعات

* * *

المؤلفات العلمية للأستاذ أحمد خليل جمعة

١ ـ رجال مبشرون بالجنة مجلد	دار ابن كثير
٢ ـ نساء مبشرات بالجنة مجلد	دار ابن كثير
٣ ـ نساء من عصر النبوة مجلد	دار ابن كثير
٤ ـ نساء من عصر التابعين مجلد	دار ابن كثير
٥ ـ المبشرون بالنار مجلد	دار ابن كثير
٦ ـ نساء الأنبياء مجلد	دار ابن كثير
٧ ـ النصيحة جزء واحد (بالاشتراك)	دار ابن كثير
٨ ـ الحياء جزء واحد	دار ابن كثير
٩ ـ الجار جزء واحد	دار ابن كثير
١٠ ـ الحلم جزء واحد (بالاشتراك)	
١١ ـ المغفرة جزء واحد	دار ابن كثير
١٢ ـ فرسان حول الرسول مجلدان	دار الكلم الطيب
١٣ ـ الصبر والصابرون جزء واحد	دار الكلم الطيب
١٤ ـ الصدق والصادقون جزء واحد	دار الكلم الطيب
١٥ ـ التوبة جزء واحد	دار الكلم الطيب
١٦ ـ المناجاة جزء واحد	دار الكلم الطيب
١٧ ـ القرآن وأصحاب الرسول جزء واحد	دار الكلم الطيب

١٨ ـ رجال من الإسلام جزءان	دار الهجرة
١٩ ـ نساء من الإسلام جزءان	دار الهجرة
٢٠ ـ نساء أهل البيت مجلد	دار اليمامة
٢١ ـ نساء من التاريخ مجلد	دار اليمامة
٢٢ ـ بنات الصحابة مجلد	دار اليمامة
٢٣ ـ نساء في قصور الأمراء مجلد	دار اليمامة
٢٤ ـ فرسان من عصر النبوة مجلد	دار اليمامة
٢٥ ـ التقوى جزء واحد (بالاشتراك)	دار اليمامة
٢٦ ـ الإحسان جزء واحد	دار اليمامة
٢٧ ـ البشرى جزء واحد	دار اليمامة
٢٨ ـ النجاة جزء واحد	دار اليمامة
٢٩ ـ الفلاح جزء واحد	دار اليمامة
٣٠ ـ الطاعة جزء واحد	دار اليمامة
٣١ ـ التوكل جزء واحد	دار اليمامة
٣٢ ـ النفقات جزء واحد (بالاشتراك)	دار اليمامة
٣٣ ـ العدل جزء واحد (بالاشتراك)	دار اليمامة
٣٤ ـ فرسان من التاريخ مجلد	دار اليمامة
٣٥ ـ نساء من المشرق العربي مجلد	دار اليمامة
٣٦ ـ نساء من الأندلس مجلد	دار اليمامة
٣٧ ـ نساء من مصر والمغرب العربي مجلد	دار اليمامة
٣٨ ـ أمهات الصحابة مجلد	دار اليمامة
٣٩ ـ أبناء الصحابة مجلد	دار اليمامة
٤٠ ـ علماء الصحابة مجلد	دار اليمامة

٤١ ـ أنبياء الله ـ أمهاتهم ـ نساؤهم مجلد	دار اليمامة
٤٢ ـ الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب مجلد	دار اليمامة
٤٣ ـ الحب جزء واحد	دار اليمامة
٤٤ ـ الرزق جزء واحد	دار اليمامة
٤٥ ـ الأحلام جزء واحد	دار اليمامة
٤٦ ـ الأطفال جزء واحد	دار اليمامة
٤٧ ـ البر جزء واحد	دار اليمامة

وسيصدر للمؤلف قريباً بإذن الله

* المرأة في حياة الشعراء مجلد
* المرأة في حياة العميان مجلد
* رجال أهل البيت مجلد
* صحابة من أبناء الصحابة مجلد
* نساء من القرآن والسنة مجلد
* الطب في ضوء القرآن والسنة مجلد
* رجال من القرآن الكريم مجلد
* رجال من عصر النبوة مجلدان
* رجال من عصر التابعين مجلدان
* الأمانة جزء واحد
* الرضا جزء واحد
* الحسد جزء واحد
* الاستقامة جزء واحد
* الإخلاص جزء واحد

* الوقت جزء واحد
* السعادة جزء واحد
* الوفاء جزء واحد
* النفس جزء واحد
* الأسرة جزء واحد
* اللسان جزء واحد
* سلسلة : أعلام النساء
* روضة المحبين (تحقيق) (بالاشتراك) دار اليمامة



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com